د. محمد بن عبد الرحمن العريفي



الروائع

مجموعة رسائل العريفي

دار ابن حزم
القاهرة

الروائع

تأليف

د. محمد بن عبد الرحمن العريفي
دكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة

دار ابن حزم


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، منْ يهده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هديُ محمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النَّار.

ثم أمَّا بعد:

فبين يديك أخي القارىء هذا الكتاب القيّم «الروائع» لفضيلة الشيخ الدكتور/ محمد بن عبد الرحمن العريفي ـ حفظه الله ـ وهو كتاب رائع في بابه قل أن ينسج على منواله، فيا لها من سهولة في الألفاظ، وعذوبة في العبارة، ودقة في المعنى فنسأل الله تعالى أن يجزيه عنا خير الجزاء، وأن يجعله ذخرًا لنا وله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

الناشر

رحلة إلى السماء

قصة المليونير

كان صاحبي رجلاً صالحًا، ربما قرأ الرقية الشرعية أحيانًا على بعض المرضى، قال لي: رنّ جرس هاتفي يومًا، فإذا ابن أحد كبار التجار يقول: يا شيخ، والدي مريض، ونرغب في مجيئك لزيارته وقراءة الرقية الشرعية عليه، ذهبت إلى هناك، فإذا قصر منيف تتفجر النعمة من جدرانه، قابلني أولاده رحبوا بي، الترف ظاهر في وجوههم، سألتهم عن مرض أبيهم، فقال لي أحدهم: أبي كان مصابًا بتليّف في الكبد واكتشفنا قبل أيام أنه معه سرطان في الدم، وقد حدثنا الطبيب أن التقارير الطبية تشير إلى أنه لم يبق له في الدنيا إلا أيام معدودات، والعلم عند الله تعالى..

مضيت أمشي معهم إلى أبيهم فلما كدنا أن ندلف إليه جذبني أحدهم وقال: يا شيخ، عفوًا نسينا أن نخبرك، أبونا لا يعلم بحقيقة مرضه، فإنه لما سألنا عن نتيجة التحاليل خشينا أن يشتد حزنه، أو يزداد مرضه، فقلنا له: إنه مصاب بالتهابات في البطن عن قريب تزول.

توكلت على الله.. أدخلوني على أبيهم، فإذا غرفة فارهة فيها سرير عليه رجل قد جاوز الخمسين بقليل، تبدو عليه آثار النعمة.. مريض لكن جسمه لا يزال متماسكًا.. صافحته برفق، ثم جلست عند رأسه، جلس أولاده حوله، فالتفت إليهم وأمرهم بالخروج، خرجوا وأغلقوا باب الغرفة، وبقيت أنا وهو، فخفض رأسه وظل ساكتًا قليلاً، ثم استعبر وبكى.. التفت إليّ ودموعه تجري على خديه وقال: آآآه يا شيخ، فقلت: ما بالك؟ قال: هذه الدنيا التي أجمعها منذ ثلاثين سنة، حتى تشاغلت عن صلاتي، وقراءة القرآن، ومجالس الذكر، وكلما نصحني أحد وقال: يا فلان، التفت لآخرتك، صلاة الجماعة، صيام

النوافل، تربية أولادك، ختم القرآن، قلت له: أنا سأجمع المال حتى يبلغ عمري الستين، فإذا بلغت الستين أعطيت لنفسي تقاعدًا عن الأعمال، وأوكلتها لغيري، واشتغلت بقية عمري في إنفاق ما جمعت، والعبادة، والآن كما ترى، هجم عليَّ ما ترى من المرض الذي يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، ثم اشتد بكاؤه، فقلت: أبشر بالخير ستشفى بإذن الله، وتتعبد كما تريد، وحتى لو قضى الله عليك موتًا، فكلنا سنموت، ومالك سينفعك بعد موتك، وأولادك لن ينسوك، سيبنون لك المساجد، ويكفلون الأيتام، ويتصدقون عنك، ويدعون لك.. و.. و..

فصرخ بي قائلاً: كفى.. وأخذ يبكي كالصغير، ويردد: أولادك يتصدقون عنك! يبنون مسجدًا! أنت ما تعرف هؤلاء الأنجاس، فقلت: لم؟ قال: أولادي هؤلاء الذين يُظهرون المحبة لي والشفقة عليّ، كانوا البارحة مجتمعين عندي، فطال جلوسهم وأردتهم أن يخرجوا، فأظهرت لهم أني نائم، وأغمضت عيني وبدأت بالشخير، فظنوا أنني نائم فعلاً، فلم تمض دقائق حتى بدءوا يتكلمون عن أموالي،وكم سينال كل منهم من ميراث! وكلهم جهّال في قسمة المواريث، فاختلفوا، واشتد نقاشهم، حتى اختصموا على عمارة لي في موقع متميز، كل منهم يريدها من نصيبه.. ثم بكى الرجل حتى رحمته.

خرجت من عنده وأنا أردد: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩] فعلاً، أحب الناس إليه بعد موته سيجتمعون في داره ليقتسموا أمواله، لا ليقتسموا أعماله.

يموت ويتبعه ثلاثة: أهله، وماله، وعمله، يرجع الأهل والمال، ليتمتع به غيره، وهو الذي جمعه، ويبقى عمله.. فما العمل الذي سيبقى معه ويدخل معه قبره؟ قيام الليل؟! صدقات؟! بناء مساجد؟! أم تساهل في الدين، ومتابعة قنوات ومجالسة فجّار؟! ولا يظلم ربك أحدًا.. ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

يأكل من ثمار الجنّة

خرج النبي ﷺ يومًا مع بعض أصحابه، فلما برزوا خارج المدينة، فإذا راكب يقبل نحوهم، فصوب النبي ﷺ إليه بصره، ثم التفت إلى الصحابة، فقال: «كان هذا الراكب

إياكم يريد»، فما هو إلا قليل حتى أقبل الرجل على بعيره، فوقف عليه، ثم أخذ ينظر إليهم، فقال له النبي ﷺ: «من أين أقبلت؟»، فقال الرجل وهو يئن من شدة الطريق ووعثاء السفر: أقبلت من أهلي، وولدي، وعشيرتي.. فقال النبي ﷺ: «فأين تريد؟»، قال: أريد رسول الله ﷺ، قال: «قد أصبته»، فابتهج الرجل وتهلل وجهه وقال: يا رسول الله علمني ما الإيمان؟

قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، قال: قد أقررت، فما كان الرجل يتم إقراره بالإسلام حتى تحرك به بعيره، فدخلت يد البعير في حجر جرذان، فهوى البعير على الأرض وهوى الرجل من فوقه، فوقع على هامته فمازال ينتفض حتى مات.

فقال النبي ﷺ: «عليّ بالرجل» فوثب عمّار بن ياسر وحذيفة، فأقعداه فلم يقعد، وحركاه فلم يتحرك، فقالا: يا رسول الله قُبض الرجل..

فالتفت النبي ﷺ ثم أعرض عنه فجأة ثم التفت إلى حذيفة وعمار وقال: «ما رأيتما إعراضي عن الرجل؟ فإني رأيت ملكين، يدسان في فيه من ثمار الجنّة فعلمت أنه مات جائعًا»[1].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها، أين تذهبون بها، يسمع صوته كل شيء إلا الإنسان، ولو سمع لصعق»[2].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: «وجبت» ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا فقال: «وجبت» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: «هذا أثنيتم عليه خيرًا، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»[3].

---

(١) رواه أحمد بسند حسن.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن شهد الجنازة حتى يُصلَّى عليها فله قيراط، ومَن شهد حتى تُدفن كان له قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين»[1].

مِن أعجب الرُّؤى..

قال سمرة بن جندب رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة أقبل علينا بوجهه فقال: «هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟» فإن كان أحد رأى تلك الليلة رؤيا قصّها عليه، فيقول فيها ما شاء الله أن يقول، فسألنا يومًا فقال: «هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟» فقلنا: لا، قال: «لكن أنا رأيت رجلين أتياني فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى أرض فضاء، أرض مستوية فانطلقت معهما، وإنّا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي عليه بالصخرة لرأسه، فيثلغ بها رأسه، فيتهدهده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر يأخذه، فما يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به المرة الأولى.

قلت: سبحان الله! ما هذان؟!

قال: قالا لي: انطلق.. انطلق..

فانطلقنا.. فأتينا على رجل مستلقٍ على قفاه، ورجل قائم على رأسه بيده كلُوب من حديد، فيدخله من شقه (جانب فمه) فيشقه حتى يبلغ قفاه، ومنخريه إلى قفاه، وعينيه إلى قفاه، ثم يُخرجه فيدخله في شقه الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول. فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح الأول كما كان، ثم يعود، فيفعل به مثل ما فعل به المرة الأولى.

قلت: سبحان الله، ما هذان؟!

قال: قالا لي: انطلق.. انطلق..

فإذا بيت مبني على بناء التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، وإذا فيه لغط وأصوات، فاطلعت فإذا فيه رجال ونساء عراة، يوقد تحته نار، فإذا أُقدت ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها.

---

(١) رواه البخاري.

قلت: ما هذا؟!

قال: قالا لي: انطلق.. انطلق..

فانطلقنا.. فأتينا رجلاً كريه المرآة، كأكره ما أنت راء رجلاً مرآة، فإذا هو عند نار له يحشها ويسعى حولها.

قلت لهما: ما هذا؟!

قال: قالا لي: انطلق.. انطلق..

فانطلقنا.. فأتينا على روضة معشبة فيها من كل نور الربيع.. فيها شجرة عظيمة، وإذا بين ظهراني الروضة رجل قائم طويل، لا أكاد أن أرى رأسه طولاً في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط وأحسنه.

قلت لهما: ما هذا؟! وما هؤلاء؟!

قال: قالا لي: انطلق.. انطلق..

فصعدا بي في الشجرة، فأدخلاني في دار لم أر دارًا مثلها قط أحسن منها، فإذا فيها رجال، شيوخ وشباب، وفيها نساء وصبيان، فأخرجاني منها، فصعدا بي في الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل منها ولا أحسن فقالا لي: ارقَ فيها، فارتقينا فيها فانتهيت إلى مدينة مبنية بلبن من ذهب، ولبن من فضة، فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففتح لنا، فدخلنا، فلقينا فيها رجالاً شطر خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطرًا أقبح ما أنت راء، فقالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فإذا نهر صغير معترض، يجري كأنه هو المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا، وقد ذهب ذلك السوء عنهم، وصاروا في أحسن صورة.

قلت: فإني رأيت منذ الليلة عجبًا، فما هذا الذي رأيت؟

قالا لي: أما سنخبرك:

أما الرجل الأول: الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه رجل يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلوات المكتوبة.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، وعيناه إلى قفاه، ومنخراه إلى

قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجال والنساء العراة، الذين في بناء التنور؛ فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي يسبح في النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحشها، فإنه مالك خازن جهنّم.

وأما الرجل الطويل الذي رأيت في الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام.

وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة.

فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال: وأولاد المشركين.

وأما القوم الذين كان شطر منهم حسنًا وشطر قبيحًا، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً، وآخر سيئًا، فتجاوز الله عنهم، وأنا جبريل وهذا ميكائيل.

ثم قالا لي: ارفع رأسك، فرفعت رأسي فإذا هي كهيئة السحاب، فقال لي: وتلك دارك، فقلت لهما: دعاني أدخل داري، فقالا لي: إنه قد بقي لك عمل لم تستكمله فلو استكملته دخلت دارك»[1].

القبر ناداني..

خرج عمر بن عبدالعزيز في جنازة بعض أهله، فلما أسلمه إلى الديدان، ودسّه في التراب التفت إلى الناس، فقال: أيها الناس؛ إن القبر ناداني من خلفي، أفلا أخبركم بما قال لي؟

قالوا: بلى.

فقال: إن القبر قد ناداني فقال: يا عمر بن عبدالعزيز، ألا تسألني ما صنعت بالأحبة؟

قلت: بلى.

قال: خرقت الأكفان، ومزقت الأبدان، ومصصت الدماء، وأكلت اللحم.

ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟

---

(١) مجموع من روايتي البخاري وأحمد.

قلت: بلى.

قال: نزعت الكفين من الذراعين، والذراعين من العضدين، والعضدين من الكتفين، والوركين من الفخذين، والفخذين من الركبتين، والركبتين من الساقين من القدمين.

ثم بكى عمر فقال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وشبابها يهرم، وحيها يموت، فالمغرور من اغترّ بها، أين سكانها الذين بنوا مدائنها، ما صنع التراب بأبدانهم؟ والديدان بعظامهم وأوصالهم؟ كانوا في الدنيا على أسرة ممهدة، وفرش منضدة، بين خدم يخدمون، وأهل يكرمون، فإذا مررت فنادهم إن كنت مناديًا، وادعهم إن كنت داعيًا، وانظر إلى تقارب قبورهم من منازلهم، وسل غنيّهم: ما بقي من غناه؟ وسل فقيرهم: ما بقي من فقره؟ سلهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا بها إلى اللذات ينظرون، وسلهم عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة، ما صنع بها الديدان؟

محيت الألوان وأكلت اللحمان وعُفرت الوجوه، ومحيت المحاسن، وكسرت القفا، وأبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء.

أين خدمهم وعبيدهم، أين جمعهم ومكنوزهم؟ والله ما زودهم فرشًا، ولا وضعوا لهم متكئًا. أليسوا في منازل الخلوات، وتحت أطباق الثرى في الفلوات؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء؟ قد حيل بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة والأهل، قد تزوجت نساؤهم وأهملت في الطرقات أبدانهم، وتوزعت القرابات ديارهم وتراثهم، فمنهم والله، الموسع له في قبره، الغض الناظر فيه، المتنعم بلذته.

ثم بكى عمر وقال: يا ساكن القبر غدًا، ما الذي غرك من الدنيا؟

أين رقاق ثيابك؟ أين طيبك؟ أين بخورك؟

كيف أنت على خشونة الثرى؟ ليت شعري بأي خديك يبدأ الدود البلى؟

ليت شعري ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا؟ وما يأتيني به من رسالة ربي؟ ثم بكى بكاءً شديدًا حتى ثقل عليه الكلام.

ثم انصرف، فما بقي بعد ذلك إلا جمعة، ومات.. رحمه الله

إنّا لله وإنّا إليه راجعون..

قال لي: كنت مسافرًا بالسيارة إلى مكة، وفي الطريق فوجئت بحادث سيارة، يبدو أنه وقع لتوه، كنت أوّل مَن وصل إليه، أوقفت سيارتي، واندفعت مسرعًا إلى السيارة، أحاول إنقاذ مَن فيها، تحسستها بحذر، نظرت إلى داخلها.. قلبي ينبض بشدة.. ارتعشتْ يَدايَ.. خنقتني العبرة.. ثم أجهشت بالبكاء.. منظر عجيب، قائد السيارة مُلقى على مقودها جثة هامدة، مشيرًا بسبابته.. كان وجهه مضيئًا، تحيط به لحية كثيفة، كأنه فلقة من قمر، كنت أتلفت داخل السيارة كالمجنون، وفجأة رأيتُ طفلة صغيرة ملقاة على ظهره، محيطة بيديها على عنقه، وقد لفظت أنفاسها وودعت الحياة.. لا إله إلا الله.

لم أرَ ميتة كهذه الميتة.. سكينة ووقارًا، صورته وقد أشرقت شمس الاستقامة على محياه، منظر سبابته التي قبضت وهي توحد الله.. جمال ابتسامته التي فارق بها الحياة..

بدأت سيارات المارين تقف حول السيارة، وارتفع اللغط والأصوات، كل هذا حدث بسرعة عجيبة، نسيت أن أتفحص بقية مَن في السيارة.. كنت أبكي بكاءَ الثكلى، لم أكن أشعر بمَن حولي، من رآني ظنّ أني قريب الميت..

صرخ بعض الناس: يوجد امرأة وأطفال في المقعد الخلفي.. صدموني! التفتّ إلى الخلف فإذا امرأة عليها ثيابها، وأحكمت حجابها، وجلست بهدوء تنظر إلينا، تضم إلى صدرها طفلين صغيرين لم يصابا بأذى، كانا مضطربين ينتفضان، وهي تذكر الله وتهدّئ روعهما.. شعرت أنها جبل شامخ، كانت تحاول النزول من السيارة بثبات عجيب، لا بكاء، ولا صياح، ولا عويل، أخرجناهم جميعًا من السيارة، مَن رآني وراءها ظن أني صاحب المصيبة دونها، اشتد بكائي، والناس ينظرون إليّ، فالتفتتْ إليّ وهي تغادر السيارة وقالت بصوت تقطعه العبرات: يا أخي لا تبكِ عليه، إنه رجل صالح، صالح..

ثم غلبتها العبرات فسكتت.. نزلت تضم إليها طفليها، وتتفقد حجابها، وتصلح من عباءتها، فلما رأت لغط الناس وازدحامهم انزوت بعيدًا مع طفليها..

بادر أحد المحسنين وحمل الرجل وطفلته إلى المستشفى، وهي تنظر إلينا من بعيد،

وتحاول أن تشغل الطفلين عن النظر إلى أبيهما وأختهما.. أقبلتُ إليها وعرضت عليها أن تركب معي لأوصلها لمنزلها، فردت بكل حياء وبصوت هادئ: لا والله لا أركب إلا في سيارة فيها نساء..

بدأ الناس ينصرفون، كلٌّ يكمل طريقه، بقيت أرقبها من بعيد، شعرت أني مسئول عنهم.. مر الوقت طويلاً، ونحن ننتظر على تلك الحالة العصيبة، وهي ثابتة ثبات الجبال، ساعتان كاملتان حتى مرت بنا سيارة فيها رجل وأسرته، أوقفناهم، أخبرناه خبر المرأة وسألناه أن يحملها إلى منزلها، فوافق.

فأقبلت بطفليها وركبت معهم، كنت أشعر وهي تمشي أنها جبل يمشي على الأرض.. عدت إلى سيارتي وأنا أعجب من هذا الثبات العظيم، كنت أقول في نفسي: انظر كيف يحفظ الله الرجل الصالح في أهله من بعده، تذكرت قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

نعم.. لا تخافوا على مَن تركتم في الدنيا، لأننا نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا، نحفظ أهلكم من بعدكم، نسكن روعهم، ونربط على قلوبهم، ونكفل رزقهم، ونزيد عزّهم.

ما أروع القرآن، وما أجمل أن تكون علاقتك بالله قوية متينة؛ لأنه الحي الذي لا يموت، والغني الذي لا يبخل.. ما أجمل أن يراك الله في الليل باكيًا.. وفي النهار تاليًا.. ما أجمل أن يراك قد غضضت بصرك عن الحرام، وسمعك عن الآثام، لتكون محبوبًا عند الله ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

الموتُ لا يرحمُ أحدًا..

قال أسامة بن زيد: كنا عند النبي ﷺ فأرسلتْ إليه إحدى بناته غلامًا يدعوه إليها، ويخبره أن صبيًّا لهم يموت. فقال ﷺ للغلام: «ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها لتصبر وتحتسب».

فذهب الغلام فأخبرها فإذا هي قد اشتد حزنها، فعاد الغلام فقال: إنها قد أقسمت عليك لتأتيها يا رسول الله، فقام النبي ﷺ وقام معه بعض أصحابه، فحمل الصبي بين

يديه، ونفسه تقعقع كأنه في شنة (قربة يابسة) فرحمه ﷺ حتى فاضت عيناه، فسُئل عن بكائه، فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[١].

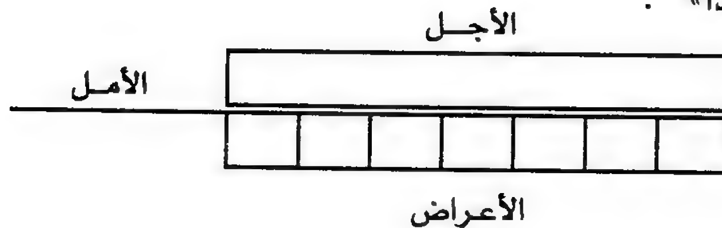
ومعاوية رضي الله عنه لبث عشرين سنة أميرًا على الشام، وعشرين سنة أخرى خليفة على المسلمين، فهو يتقلب من مُلك إلى مُلك، فلما حضره الموت قال: أجلسوني، فأجلسوه، فأخذ يذكر الله، ثم بكى، وقال: الآن يا معاوية، جئت تذكر ربك بعد الانحطام والانهدام، أما كان هذا وغض الشباب نضير ريبان؟! ثم بكى، وقال: يا ربّ، يا ربّ، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، أقِل العثرة واغفر الزلّة، وجُد بحلمك على مَن لم يرجُ غيرك، ولا وثق بأحد سواك.. ثم فاضت روحه رضي الله عنه .

ولما هجم الموت على عبدالله بن المبارك واشتدت عليه السكرات غشي عليه ثم أفاق، ورفع الغطاء عن وجهه وابتسم، وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون، لا إله إلا الله، ثم فاضت روحه..

وحين نزل ببلال رضي الله عنه الموت قالت زوجته: وا حزناه، فكشف الغطاء عن وجهه وهو في سكرات الموت، وقال: بل قولي: وا فرحاه، غدًا ألقى الأحبة، محمدًا وصحبه..

صورة وعبرة..

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطّ النبي ﷺ خطًا مربعًا وخط خطًا في الوسط خارجًا منه، وخط خطوطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: «هذا الإنسان وهذا أجله محيطًا به. أوقد أحاط به. وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض (أي: الأمراض والحوادث) فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[٢].



(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري.

رحلة إلى السّماء..

خرج رسول الله ﷺ إلى جنازة، فجلس على القبر، حوله أصحابه، فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر».

ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال على الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن وحنوط من الجنّة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت، فيجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيّب؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم، و فيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى.

فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: مَن ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت.

فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح، كنت والله سريعًا في طاعة الله بطيئًا عن معصية الله، فجزاك الله خيرًا».

ـ وصدق رسول الله ﷺ.. نعم.. يقول له: أنا عملك الصالح، أنا صلاتك، وصومك، أنا

برُّك وصدقك، أنا بكاؤك وخشيتك، أنا حجك، وعمرتك، أنا برك لوالديك ـ فإذا رأى المؤمن هذا، ورأى قبره أصبح واسعًا فيه نعيم من الجنة، اشتاق للجنة، فيدعو قائلاً: ربّ أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر أو الفاسق إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال على الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟

فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا. فيستفتح له فلا يفتح له.

ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، فيقول الله ﷻ: اكتبوا بكتابه في سجين، في الأرض السفلى.

فتطرح روحه طرحًا.

ثم قرأ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: مَن ربك؟ فيقول: هاه.. هاه.. لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه.. هاه.. لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه.. هاه.. لا أدري، فيقولان: لا دريت ولا تلوت، فينادي منادٍ من السماء: أنْ كذب، فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد.. كنت بطيئًا

عن طاعة الله، سريعًا في معصية الله، فجزاك الله شرًا.. فيقول: ما أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث..

ـ وصدق رسول الله ﷺ. نعم.. يقول له: أنا عملك الخبيث، أنا حلفك بغير الله، أنا طوافك على القبور، وشريك للخمور، أنا الزنا والربا والغناء.. عندها يتحسر العبد، وهل تُغني الحسرات، ويشتد ندمه، وهل تنفعه العبرات.. كم نصحت بحفظ فرجك، وصيانة سمعك وبصرك ـ عندها يوقن هذا العبد أن ما بعد القبر أشد.. فيقول: ربّ لا تقم الساعة..

ثم يقيض له أعمى أصم أبكم.. في يده مرزبة، لو ضرب بها جبل صار ترابًا.. فيضربه ضربة حتى يصير ترابًا، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلان».

ما أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ..

الموت لا يفرق بين كبير وصغير، ولا غني وفقير، ولا عبد وأمير..

هارون الرشيد.. ذاك الذي ملك الأرض وملأها جنودًا.. ذاك الذي كان يرفع رأسه فيقول للسحابة: أمطري في الهند أو الصين، أو حيث شئت، فوالله ما تمطرين في أرض إلا وهي تحت مُلكي.

هارون الرشيد خرج يومًا في رحلة صيد، فمر برجل يقال له: بهلول.. فقال هارون الرشيد: عظني يا بهلول..

قال: يا أمير المؤمنين، أين آباؤك وأجدادك من لدن رسول الله ﷺ إلى أبيك؟

قال هارون الرشيد: ماتوا..

قال: فأين قصورهم؟

قال: تلك قصورهم..

قال: وأين قبورهم؟

قال: هذه قبورهم..

فقال بهلول: تلك قصورهم، وهذه قبورهم فما نفعتهم قصورهم في قبورهم..

قال: صدقت.. زدني يا بهلول..

قال: أما قصورك في الدنيا فواسعة، فليت قبرك بعد الموت يتسع..

فبكى هارون وقال: زدني..

فقال: يا أمير المؤمنين.. هب أنك ملكت كنوز كسرى، وعمرت السنين، فكان ماذا؟ أليس القبر غاية كل حيّ، وتُسأل بعده عن كل شيء؟

قال: بلى.. ثم رجع هارون، وانطرح على فراشه مريضًا.. فلما يئس الأطباء من شفائه، وأحس بدنو أجله، ولم تمض عليه أيام حتى نزل به الموت، فلما حضرته الوفاة، وعاين السكرات، صاح بقواده وحجّابه: اجمعوا جيوشي، فجاءوا بهم ـ بسيوفهم ودروعهم، لا يكاد يحصي عددهم إلا الله ـ كلهم تحت قيادته وأمره، فلما رآهم بكى.. ثم قال: يا من لا يزول ملكه ارحم مَن قد زال ملكه..

قال: أحضروا لي أكفانًا.. فأحضروا له، فقال: احفروا لي قبرًا.. فحفروا له، فنظر إلى قبره وقال: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

ثم لم يزل يبكي حتى مات..

فلما مات، أخذ هذا الخليفة الذي ملك الدنيا، وأودع في حفرة ضيقة، لم يصاحبه فيها وزراؤه، ولم يساكنه ندماؤه، لم يدفنوا معه طعامًا ولم يفرشوا له فراشًا، وما أغنى عنه ملكه وماله.

أما عبدالملك بن مروان..

فإنه لما نزل به الموت، جعل يتغشاه الكرب، ويضيق عليه النفس، فأمر بنوافذ غرفته ففتحت.. فالتفت فرأى غسالاً فقيرًا في دكانه.. فبكى عبدالملك ثم قال: يا ليتني كنت غسّالاً، يا ليتني كنت نجارًا.. يا ليتني كنت حمالاً، يا ليتني لم آل من أمر المؤمنين شيئًا.. ثم مات..

عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أن رسول الله ﷺ مرّ عليه بجنازة فقال: «مستريح ومُستراح منه» قالوا: يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من

نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[1].

اعترافات..

لما نزل الموت بأبي موسى رضي الله عنه دعا فتيانه وقال لهم: اذهبوا فاحفروا لي وأعمقوا.. ففعلوا.. فقال: أجلسوني، فوالله إنها لإحدى المنزلتين؛ إما ليوسعن الله قبري حتى تكون كل زاوية أربعين ذراعًا وليفتحن لي بابًا من أبواب الجنة فلأنظرنّ إلى منزلي فيها وإلى أزواجي وإلى ما أعد الله عز وجل لي فيها من النعيم، ثم لأنا أهدى إلى منزلي في الجنة مني اليوم إلى أهلي، وليصيبني من روحها وريحانها حتى أُبعث.. وإن كانت الأخرى؛ فليُضيّقنّ الله عليَّ قبري حتى تختلف منه أضلاعي، حتى يكون أضيق من كذا وكذا، وليفتحنّ لي بابًا من أبواب جهنم، فلأنظرن إلى مقعدي وإلى ما أعد الله عز وجل فيها من السلاسل والأغلال والقرناء، ثم أنا إلى مقعدي من جهنم لأهدى مني اليوم إلى منزلي، ثم ليصيبني من سمومها وحميمها حتى أُبعث.. ثم بكى.

ولما حضرت عبادة بن الصامت رضي الله عنه الوفاةُ قال: أخرجوا فراشي إلى الصحن، ثم قال: اجمعوا لي أهل بيتي وجيراني، فجمعوا له، فقال: إن يومي هذا أراه آخر أيام الدنيا، وأول أيام الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو لساني شيء، وهو والله القصاص يوم القيامة، فأقسم على مَن منكم في نفسه شيء من ذلك، إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي.

فقالوا: بل كنت والدًا ورفيقًا..

فقال: أغفرتم لي ما كان مني ذلك؟ قالوا: نعم.

فقال: اللهم اشهد.. أما الآن فاحفظوا وصيتي، أحرّج على كل إنسان منكم يبكي.. فإذا خرجت نفسي فتوضئوا فأحسنوا الوضوء.. ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجدًا فيصلي ثم يستغفر لنفسه ولي، فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا

---

(١) رواه البخاري.

عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥] ثم أسرعوا بي إلى حفرتي.

موعظة..

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تزهّد في الدنيا، وتُذكر الآخرة»[1].

في وداع أمّ الخبائث..

قال ابن القيم:

احتضر رجل ممن كان يجالس شراب الخمور، فلما حضروا نزع روحه، أقبل عليه رجل ممن حوله، وقال: يا فلان قل: «لا إله إلا الله» فتلبد لونه، وثقل لسانه، فردد عليه صاحبه: يا فلان قل: «لا إله إلا الله» فالتفت إليه وصاح: لا، اشرب أنت ثم اسقني، اشرب أنت ثم اسقني.. وما زال يرددها حتى فاضت روحه إلى باريها.

نعوذ بالله من الخذلان.. ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ:٥٤].

وذكر الصفدي:

أن رجلاً كان يشرب الخمر ويجالس أهلها، وكان إذا سكر ونام يمشي ولا يعقل، فكان ينام في السطح، ويشد رجله بحبل كي لا يقع، فسكر ليلة ونام، فقام يمشي وسقط من السطح فأمسكه الحبل، فبقي معلقاً منكساً حتى أصبح ميتاً..

وكان محمد بن المغيث رجلاً فاسقاً، مفتوناً بشرب الخمر، ولا يكاد يخرج من بيت الخمار، فلما مرض، ونزل به الموت، وخارت قواه، سأله رجل ممن حوله: هل بقي في جسمك قوة؟ هل تستطيع المشي؟ فقال: نعم.. لو شئت مشيت من هنا إلى بيت الخمار. فقال له صاحبه: أعوذ بالله، أفلا قلت: أمشي إلى المسجد.. فبكى وقال: غلب ذلك عليّ، لكل امرئ من دهره ما تعودا، ما جرت عادتي بالمشي إلى المسجد.

---

(١) سنن ابن ماجه.

وقال ابن أبي داود:

حضرت رجلاً عند الموت، فجعل مَن حوله يلقنونه «لا إله إلا الله» فحيل بينه وبينها، وثقلت عليّه فجعلوا يعيدون عليه ويكررون، ويذكرونه بالله، وهو في كرب شديد، فلما ضاق عليه النفس صاح بهم وقال: هو كافر بـ«لا إله إلا الله».. ثم شهق ومات.. قال: فلما دفناه سألت أهله عن حاله فإذا هو مدمن للخمر..

أما أهل المعازف والغناء فلهم عند الموت كربة وبلاء.. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥].

فَإِذا جَاءَ أَجَلُهُمْ..

لا أحد يعلم متى يموت ولا أين سيموت..

ذُكِرَ أن وزيرًا جليل القدر كان عند داود عليه السلام.. فلما مات داود صار وزيرًا عند سليمان بن داود..

وكان سليمان عليه السلام يومًا جالسًا في مجلسه في الضحى.. وعنده هذا الوزير.. فدخل عليه رجل يسلّم عليه وجعل هذا الرجل يحادث سليمان.. ويحد النظر إلى هذا الوزير.. ففزع الوزير منه، فلما خرج الرجل قام الوزير وسأل سليمان وقال: يا نبيّ الله، مَن هذا الرجل الذي خرج من عندك؟ قد ـ والله ـ أفزعني منظره.

فقال سليمان: هذا ملك الموت، يتصور بصورة رجل ويدخل عليَّ.

ففزع الوزير وبكى وقال: يا نبي الله أسألك بالله أن تأمر الريح فتحملني إلى أبعد مكان إلى الهند.. فأمر سليمان الريح فحملته.

فلما كان من الغد دخل ملك الموت على سليمان يسلّم عليه، كما كان يفعل. فقال له سليمان: قد أفزعت صاحبي بالأمس، فلماذا كنت تحد النظر إليه؟

فقال ملك الموت: يا نبي الله، إني دخلت عليك في الضحى وقد أمرني الله أن أقبض روحه بعد الظهر في الهند.. فعجبت أنه عندك..

قال سليمان: فماذا فعلت؟

قال ملك الموت: ذهبت إلى المكان الذي أمرني الله بقبض روحه فيه فوجدته ينتظرني، فقبضت روحه..

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة:٨].

أيُّ بَشَرٍ هؤلاء..

مرض عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فعاده عثمان، وقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي.. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي..

قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني..

قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه..

وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه كان من دهاة العرب، وكان يقول دائمًا: عجبًا لـمَن نزل به الموت وعقله معه، كيف لا يصفه؟ فلما نزل به الموت جزع جزعًا شديدًا، فذكّره ابنه بقوله، وقال: صف لي الموت يا أبتِ؟

فقال: يا بني.. الموتُ أجلُّ من أن يوصف، ولكني سأقر به لك.. أجدني كأن جبال رضوى على عنقي، وكأن في جوفي الشوك، وأجدني كأن نفسي تخرج من ثقب إبرة..

فقال له ابنه عبدالله: يا أبتِ ما هذا الجزع، وقد كان رسول الله ﷺ يدنيكَ ويستعملك؟

قال: أي بُنيّ.. قد كان ذلك، وسأخبرك.. إني والله ما أدري أحبًا كان أم تألفًا.. فلما جدّ به وضع يده على ذقنه، وقال: اللهم أمرتنا فتركنا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا مغفرتك.. ثم بدأ يردد: لا إله إلا الله.. حتى خرجت روحه، وفارق الدنيا.

أما عمر بن عبدالعزيز..

فقالت زوجته فاطمة بنت عبدالملك: كنت أسمع عمر في مرض موته يقول: اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة.. فلما اشتد مرضه قلت له: ألا أخرج عنك فإنك لم تنم.. فخرجت وقعدت عند باب الغرفة، فكنت أسمعه يقرأ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا

﴿يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، وجعل يعيدها مرارًا، ثم انخفض صوته، ثم سكت، فدخلت عليه، فوجدته ميتًا، وقد وجه وجهه إلى القبلة، ووضع إحدى يديه على فمه والأخرى على عينيه.

وهذا ابن عساكر.. الإمام العابد.. صلّى الظهر وجعل يسأل عن العصر، وتوضأ، ثم تشهد وهو جالس.. وقال: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا.. اللهم لقني حجتي وأقلني من عثرتي، وارحم غربتي.. ثم رفع بصره وقال: عليكم السلام.. ثم انقلب ميتًا..

أي بشر هؤلاء.. وأي فرحة تغمرهم عند الاحتضار!

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]

أُغنِّي في حُبّك..

كنتُ في رحلة إلى محافظة «القريّات» في شمال المملكة، وبعدما انتهيت من المحاضرة سافرتُ جنوبيًا، إلى جهة محافظة «سكاكا ـ الجوف» وكانت محاضرة «سكاكا» بعنوان: «ألحان وأشجان» حول الغناء، وبعدها جاءني شخص متأثر معه ولده عمره ١١ سنة، قال لي: يا شيخ، في طريق مجيئي من «القريّات» معي ولدي هذا مررت أثناء الطريق بحادث مروّع، سيارة جيب كان فيها اثنان من الشباب قادمان من «.....» انقلبت بهم عدة مرات حتى تطايروا من خلال النوافذ، وتبعثر عفشهم، وتمزقت ملابسهم.. كنت أول من وقف عليهم، اتصلت بالإسعاف فورًا..

في الحقيقة لم تكن أول مرة أرى فيها حادث سيارة بل ولا موتى.. تعودت رؤية هذه المناظر منذ زمن؛ أقبلت أنظر إليهم من أول وهلة تنظر فيها إلى ملابسهم، وقصات شعورهم، تعرف يقينًا لماذا كانوا هناك.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. عفا الله عنا وعنهم.. المهم؛ توجهت مسرعًا إليهما، أحاول إنقاذ ما أستطيع إنقاذه..

أما الأول: فكان منكبًا على الأرض، قد تمرغ وجهه في التراب، لا يزال جسمه حارًا، لا أدري هل مات أم لا.. تمزق بنطاله وقميصه، والغبار قد اختلط بالدماء التي صبغت ثيابه حتى أصابع يديه لم تسلم من جروحه ودمائه.. قلبته على ظهره، فإذا لحم وجهه قد

تمزق حتى لا تكاد ترى شيئًا من ملامحه إلا شعرات يسيره من شاربه.. ناديته.. حركته.. فإذا هو قد قضى..

أسرعت على الثاني.. فإذا هو على وجهه أيضًا، والأرض حوله مليئة بالدماء، وثيابه حمراء، وعظامه بارزة، ويبدو أن الضربة الكبرى كانت على رأسه، فقد انشقت جمجمته، وخرج مخه من خلالها، لم أتحمل المنظر، انتبهت أن ولدي معي، التفتّ أنظر إليه فإذا هو يحلق بعينيه مشدوهًا.. حاولت الوقوف بينه وبين الجثة لئلا يرى..

نظرت إلى الأغراض المبعثرة حول جثته، فإذا جواز سفره ومحفظة نقوده، وعلبة دخان.. كل هذا لم يشدني، فلم أنتظر أن أرى مصحفًا وسواكًا.. التفت جهة رأسه فإذا شريط واقع على الأرض، ليس بينه وبين رأسه إلا شبر واحد.. خفضت رأسي أنظر إلى اسم الشريط.. فإذا قطعة من المخ قد وقعت على الشريط وغطّت اسمه.. تحاملت على نفسي ورفعت الشريط بيدي، ثم تناولت حجرًا من الأرض، مسحت به المخ المتلطخ على الشريط، فإذا هو شريط غناء بعنوان «أغني في حبك».

لاحظت أن بكرة الشريط مسحوبة على خارجه، وإذا خيط الشريط منطلق إلى الخارج وكأنه لا يزال متصلاً بشيء.. التفتّ أنظر إلى أين يصل، فإذا بي أرى مسجل السيارة واقعًا على الأرض وقد خرج من مكان السيارة مع قوة الحادث.. وبعدما ضرب الأرض بقوة انطلق منه الشريط، ووقع عند رأس هذا الفتى ليقع عليه مخه، ثم ليقع على «أغني في حبك».. أي والله..

ويبعث أحدكم على ما مات عليه..

ما علينا.. بدأ الناس يكثرون حولنا، وصار كل مَن مرّ بنا يوقف سيارته، ويقبل ينظر إلى الحادث.. وصل الإسعاف، وكشف الطبيب عليهما في عجل.. غطاهما بملاءة بيضاء.. أيقنت عندها أن أرواحهما قد صعدت إلى السماء.. لا أدري هل تفتح لهما أبواب السماء وتبشر بروح وريحان، أم تخرّ من السماء فتخطفها الطير، أو تهوي بهما الريح في مكان سحيق؟

بدأ سائق الإسعاف وأصحابه في حمل الجثتين، وبدأت أجمع أغراضهما المبعثرة.. هذه

محفظة، وهذه ساعة، وتلك كاميرا.. أخذت أجمع في كيس معي.. في أثناء ذلك وقع في يدي ظرف مغلق قد انشق طرفه مع وقوعه على الأرض مكتوب عليه: «يصل إلى يد أبي محمد» وبعدها كلمات مكتوبة لا أرغب في ذكرها.. نظرت إلى داخله فإذا مجموعة كبيرة من الصور.. أخرجتها فإذا هي أكثر من خمسين صورة لنساء عرايا.. حاولت أن أخفيها عن الناس لئلا يفتضح الشابان.. دافعت عبراتي.. قلت: هذه فضيحة الدنيا بين عدد قليل لا يعرفهما، فكيف بهما في فضيحة الآخرة، عند الأولين والآخرين، مع اشتداد الرعب، وكثرة الفزع، وتطاير الصحف..

اللهم استرنا بسترك.. ما ضرهما لو أطاعا الله.. قد كلفهما شططًا إقامة خمس صلوات، وفعل الواجبات، وترك المحرمات.. وليس في ذلك مشقة، فالمحرمات أشياء معدودات.. ما ضرّ العبد لو تركها طاعة للملك.. ليحبّه ويدخله جنته..



دموع المآذن

الحمد لله الذي خلق خلقه أطوارًا.. وصرفهم كيف شاء عزّة واقتدارًا.. وأرسل الرسل إلى الناس إعذارًا منه وإنذارًا.. فتم بهم نعمته السابغة.. وأقام بهم حجته البالغة.. فنصب الدليل.. وأنار السبيل.. وأقام الحجة.. وأوضح المحجّة..

فسبحان مَن أفاض على عباده النعمة.. وكتب على نفسه الرحمة.. أحمده؛ والتوفيق للحمد من نعمه.. وأشكره على مزيد فضله وكرمه..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. كلمة قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات.. وعليها أسست الملة.. ونصبت القبلة.. ولأجلها جردت سيوف الجهاد.. وبها أمر الله سبحانه جميع العباد..

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. أرسله رحمة للعالمين..وقدوة للعالمين.. أرسله بشيرًا ونذيرًا.. وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.. وأمدّه بملائكته المقربين.. وأيده بنصره، وبالمؤمنين.. وأنزل عليه كتابه المبين..

أفضل مَن صلى وصام.. وتعبد لربه وقام.. ووقف بالمشاعر وطاف بالبيت الحرام..

أما بعد؛

فهذه وقفات وتأملات في أحوال الخاشعين والخاشعات..

نؤمّن فيها على الدعوات.. ونمسح الدمعات.. ونذكر الصلوات..

نقف على مآذن المساجد..

فها هي دموع المآذن تسيل.. في البكور والأصيل..

عجبًا.. هل تبكي المآذن؟! نعم تبكي المآذن.. وتئن المحاريب.. وتنوح المساجد.. بل

تبكي الأرض والسموات.. وتتهد الجبال الراسيات.. إذا غاب الصالحون، والصالحات..

تبكي إذا فقدت صلاة المصلين.. وخشوع الخاشعين.. وبكاء الباكين..

تبكي لفقد عمّارها بالأذكار.. وتعظيم الواحد القهّار..

فمن يمسح دمعها.. ومن يرفع حزنها.. ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

إنها الصلاة.. قرّة عيون الموحِّدين.. ولذّة أرواح المحبّين..

الصلاة بستان العابدين.. وثمرة الخاشعين..

فهي بستانُ قلوبهم.. ولذّة نفوسهم.. ورياض جوارحهم.. فيها يتقلبون في النعيم.. ويتقربون إلى الحليم الكريم..

عبادة عظّم الله أمرها.. وشرّف أهلها.. وهي آخر ما أوصى به النبي ﷺ، وآخر ما يذهب من الإسلام.. وأول ما يسأل عنه العبد بين يدي الملك العلام..

الصلاة أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام..

ومن عظمة قدرها.. ورفعة شأنها أن الله لمّا أراد أن يفرضها على عباده.. رفع خاتم الأنبياء.. إلى أعلى السماء.. ثم خاطبه بفرضها.. ووعد بعظيم أجرها..

كما في «الصحيحين» أنه ﷺ قال في قصة الإسراء والمعراج:

«فانطلق بي جبرائيل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل: مَن هذا؟

قال: جبرائيل.. قيل: ومَن معك؟

قال: محمد.. قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.. قيل: مرحبًا به.. فنعم المجيء جاء.. قال ﷺ: ففتح..

ثم مازال ﷺ يصعد في السموات حتى وصل إلى السماء السابعة.. قال: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبرائيل.. قيل: مَن هذا؟ قال: جبرائيل.. قيل: ومَن معك؟ قال:

محمد.. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم.. قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء..

فلما خلصت إذا إبراهيم.. قال: هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه.. فسلّمتُ عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبيّ الصالح..

ثم رُفعت إلى سدة المنتهى.. ثم فرضت عليّ الصلوات خمسون صلاة كل يوم.. فرجعت فمررت على موسى، فقال: بمَ أُمرتَ؟

قال: أمرتُ بخمسين صلاة كل يوم..

قال: إنّ أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم.. وإني والله قد جربت الناس قبلك.. وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة.. فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك..

فرجعت فوضع عني عشرًا.. فرجعت إلى موسى فقال مثله.. فرجعت فوضع عني عشرًا.. فرجعت إلى موسى فقال مثله.. فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فقال مثله.. فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم.. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت بخمس صلوات كل يوم.. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم.. وإني قد جربت الناس قبلك.. وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة.. فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك.. فقال ﷺ: سألت ربي حتى استحيت.. ولكني أرضى وأسلّم.. قال ﷺ فلما جاوزت ناداني مناد.. أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي..»[1].

فنحمد الله العظيم الذي أذن لنا بالوقوف بين يديه، والإقبال بالقلوب عليه، وشكاية الحاجات إليه..

نعم.. إن الصلاة صلةٌ ولقاءٌ.. وتعبد ووفاء.. بين العبد في الأرض والرب في السماء.. هي المَعِين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد..

ولقد كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة..

بل إن كشف الكربات، وإجابة الدعوات، يكون أعظم ما يكون في الصلوات.. فهي عند الصالحين الطريقُ لرفع البلاء، وإجابة الدعاء..

---

(١) رواه البخاري.

روى البخاري: أن إبراهيم عليه السلام بينما هو ذات يوم يسير مع زوجه سارة إذ أتى على بلد يحكمها جبّار من الجبابرة، فأتى هذا الجبار بعض حاشيته وقالوا: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ولا تصلح إلا لك.. فأرسلَ هذا الجبار جنده إلى إبراهيم وسألوه مَن هذه التي معك؟

فعلم إبراهيم عليه السلام أنه لا قوة له بهذا الطاغية، وأنه لو قال زوجتي لقتلوه، فقال لهم: هي أختي.. ثم أتى إبراهيم إلى سارة وقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك.. وإن هذا سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذّبيني..

فأرسل الجبّار إليها فأحضرت إليه، فلما دخلت عليه أقبل عليها، فلما رفع يده إليها شلّت يده، ففزع الرجل وقال: ادعي الله لي ولا أضرُّك.. فدعت الله له، فأطلق فوسوس له الشيطان.. فأقبل إليها مرة أخرى، فدعت عليه، فأصابه كالأولى أو أشد.. فلما رأى أنه لا طاقة له بها فزع، وقال: ادعي الله لي ولا أضرّك.. فدعت له، فأطلق الله يديه.. ففزع منها ودعا بعض حجابه وقال: إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان.. ثم أخرجها من قصره وأعطاها جارية اسمها «هاجر»..

فخرجت «سارة» إلى زوجها، فلما دخلت عليه فإذا هو قائم يصلي، ويدعو ويبتهل.. فلما أحس بها أومأ بيده.. يسألها عن الخبر.. فقالت: ردّ الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره.. وأخدم «هاجر»..

فانظر كيف فزع إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة لما حزبته الأمور..

بل انظر إلى النبي العابد القانت الزاهد.. زكريا عليه السلام ..

شيخ جاوز عمره السبعين.. ضعف جسده، ورق عظمه، واقتربت منيّته.. فاشتهى أن يكون له ولد أو ولي.. فرفع يديه إلى الله داعيًا مبتهلاً باكيًا ـ كما قال الله عز وجل عنه ـ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢ ـ ٦].

فتقرع دعواته أبواب السماء.. فينظر الله إلى عبده الداعي.. فإذا هو عابد في محرابه..

يترقب إحسان ربه ويخاف من عذابه.. فإذا بالبشائر تتنزل عليه وهو في الصلاة..

قال الله: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٣٩، ٤٠].

وهكذا الرحمات.. إنما تستنزل بالصلوات..

في معركة الأحزاب.. لما بلغت القلوب الحناجر.. وهرب كلّ منافق وفاجر.. وقد حفر المسلمون بينهم وبين عدوّهم خندقًا.. وأظلم الليل.. واشتد البرد.. فأراد النبي ﷺ أن يعرف حال الكفار.. فأقبل على أصحابه.. ثم قال لهم: «مَن رجل منكم يذهب وينظر لي خبر القوم ويكون رفيقي في الجنّة؟».

فما تحرك أحد.. فمر عليهم، ثم قال: «قم يا حذيفة».. قال حذيفة: فما كان لي من بد إذا أمرني رسول الله ﷺ أن أقوم إلا أن أقوم.. فقمتُ.. قلت: لبيك يا رسول الله؟

قال: «اذهب وانظر لي خبر القوم ولا تحدثن شيئًا حتى تأتيني»..

قال حذيفة: فنزلت في الخندق ثم صعدت فإذا المشركون كثير.. وإذا من بينهم رجل يصلي يديه على نار بين يديه ثم يلصقهما بجانبيه.. فنظرت فإذا هو قائد الجيش أبو سفيان.. فقلت في نفسي: إن أنا قتلته اضطرب أمرهم وانهزموا.. فأخذت سهمًا من كنانتي أبيض الريش.. فوضعته في كبد القوس فلما شددته تذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن شيئًا حتى تأتيني» فأرجعت السهم في كنانتي..ونظرت في حالهم.. فإذا الريح قد اشتد عليهم، فما تقرّ لهم قِدرًا، ولا تقيم لهم بعيرًا..

فدخلت في إحدى الخيام.. فجلست بينهم في الظلمة.. فشعر أبو سفيان أن رجلاً قد دخل في القوم فصاح بهم وقال: ألا لينظر كل امرئ مَن جليسه؟

قال حذيفة: فخفت أن يسألني الذي بجانبي فأفتضح.. فبادرته وصحت به: مَن أنت..؟ ففزع وقال: أنا فلان من بني فلان.. فسكت عنه.. فلما رأى مني ذلك هاب أن يسألني فنجوت..

وخرجت من بينهم وعدت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قائم يصلّي ويدعو.. فقعدت عنده

حتى فرغ فبشّرته بخبر القوم.. ففرح وكبّر..

نعم.. هزم الله الأعداء.. ونصر الأولياء.. بصلاة ودعاء..

وكانوا كما قال الله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥].

فانظر كيف فزع النبي ﷺ إلى الصلوات.. فانكشفت الكربات..

خرج محمد بن واسع في جيش قتيبة بن مسلم.. فلما التقى الصفّان؛ التفت قتيبة فلم ير ابن واسع.. فأرسل بعض مَن عنده يطلبونه.. فلما عادوا إليه قالوا له: وجدناه ساجدًا يحرك إصبعه ويدعو.. فقال قتيبة: والله إصبع محمد بن واسع في الجيش أحبّ إليّ من ألف شاب طرير، وسيف شهير.. فلما أتاه محمد بن واسع قال قتيبة: أين كنت؟ قال ابن واسع: كنتُ أهزّ لك أبواب السماء..

فأين المرضى عن التعبّد بالصلوات!

وأين المكروبون عن الركعات والسجدات!

بل أين المظلومون وأصحابُ الحاجات!

فبها يُشفى المرض وتُكشف الكربة، ويُغفر الذنب، وتُقبل التوبة.. اقرع بها أبواب السماء، والتمس كشف الكرب ورفع البلاء..

بل الصلاة هي مفتاح الرزق..

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣١، ١٣٢].

أقبل رجل إلى ثابت البناني يستعين به على حاجة يريدها من بعض الكبراء.. فمضى معه ثابت، فجعل لا يمرّ بمسجد إلا نزل فصلّى ركعتين، حتى وصل إلى الرجل فكلّمه في الحاجة، فقضاها من فوره..

فالتفت ثابت إلى صاحبه فقال: لعله شقّ عليك وقوفي في كل مسجد، وصلاتي.. قال: نعم.. قال: ما صليت صلاة إلا طلبت إلى الله تعالى في حاجتك أن يقضيها.. وها هي قد قضيت..

نعم.. الصلاة هي بوابة الرحمات.. بل هي مفتاح الكنز.. الذي مَن حصله حاز الخيرات..

فرحم الله عبادًا نصبوا أقدامهم لطاعة مولاهم.. فرضي ربهم بأعمالهم وعجل لهم بشراهم.. لهم مع الصلاة أخبار.. في الليل والنهار.. فهم في الليل من الذين ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة:١٦، ١٧] . وهم في النهار من ﴿ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[الأنفال:٢ ـ ٤] .

نعم.. الصلاة بها يفتح الباب، ويرفع الحجاب..

إنها مفتاح السعادة..

فإذا أجدبت الأرض، وانقطع القطر، وهلك المال، وجاع العيال، فإن الصلاة هي المفتاح.. فنصلي صلاة الاستسقاء..

وإذا همّ العبد بشيء من أمره، أو احتار في فعل شيء وتركه، فإن الصلاة هي المفتاح.. فيصلي صلاة الاستخارة..

وإذا أذنب العاصي.. شرعت له الصلاة..

وإذا ضاق به الصدر، وتعسر الأمر، شرعت له الصلاة..

وإذا كسفت الشمسُ أو القمرُ.. شُرعت الصلاة..

فهي رأس القربات.. وغرة الطاعات.. هي راحة العبّاد الأبرار.. وقرة أعين المتقين الأطهار..

والعبد كلما كان بالصلاة أشغل وأولع، وإليها أنشط وأسرع.. كانت رحمة الله أقرب إليه، وفضل الله أوسع عليه..

وانظر إلى تلك المرأة الصالحة.. مريم ابنة عمران.. التي قال عنها النبي ﷺ في «الصحيحين»: «لم يكن من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران».. كانت مصلية عابدة في محرابها.. فكان جزاؤها أن جعلها الله وابنها آية للعالمين.. وأخرج منها نبيًّا وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين.. فلما بُشّرت بذلك أُمرت بشكر الله على نعمه،

فزادت في التعبد والصلاة.. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٢، ٤٣].

والصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر.. فلا تكاد تجد أحدًا حريصًا على عبادته.. مقبلاً على صلاته، إلا وجدته قريبًا من الخيرات.. بعيدًا عن المنكرات.. قال الله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:١٩ ـ ٢٣].

ألا ترى أن شعيبًا ﷺ لما أمر قومه بالإيمان والعدل في الكيل والميزان علموا أنه لم يمنعه من المنكرات إلا الصلاة.. ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧].

ومن عظمة الصلاة ـ وما فيها من ركوع وسجود ـ: أنه بها تنكشف الكربة العظمى عن جميع الخلق يوم القيامة.. فإذا اجتمع الأوّلون والآخرون؛ أبيضهم وأسودهم، كبيرهم وصغيرهم، عربيّهم وأعجميهم.. وطال الانتظار، وزاغت الأبصار.. وتصبب منهم العرق، واشتد الخوف والفرق.. كان انكشاف الهمّ وزوال الكرم والغم بسجدة واحدة تحت العرش..

في «الصحيحين» و«المسند» وغيرهما: أن الله ـ تعالى ـ يجمع الأوّلين والآخرين في صعيد واحد.. يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون.. فإذا اشتد عليهم ذلك، ورجوا أن يفصل الله بينهم القضاء.. قال بعضهم لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه.. وما قد بلغكم؟ ألا تنظرون مَن يشفع لكم إلى ربكم ﷻ؟

فيقول بعض الناس: أبوكم آدم.. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده.. ونفخ فيك من روحه.. وأمر الملائكة فسجدوا لك.. فاشفع لنا إلى ربك.. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟

فيقول آدم: إن ربي ﷻ قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت.. نفسي، نفسي.. اذهبوا إلى غيري.. اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح.. أنت أبو الرسل إلى أهل الأرض، وسمّاك الله عبدًا

شكورًا.. فاشفع لنا إلى ربك.. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟

فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة فدعوتها على قومي.. فيقول: نفسي.. نفسي.. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم.. أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض.. فاشفع لنا إلى ربك.. ألا ترى ما نحن فيه.. ألا نرى ما قد بلغنا؟ فيقول إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله.. فذكر كذباته.. نفسي.. نفسي.. اذهبوا إلى موسى..

فيأتون موسى فيقولن: يا موسى.. أنت رسول الله.. اصطفاك برسالاته وبتكليمه على الناسَ.. اشفع لنا إلى ربك.. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟

فيقول لهم موسى: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله.. وإني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها.. نفسي.. نفسي.. نفسي.. نفسي.. اذهبوا إلى غيري.. اذهبوا إلى عيسى..

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى.. أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.. وكلمت الناس في المهد.. فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟

فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ـ ولم يذكر ذنبًا ـ اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد.

قال ﷺ: «فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم النبيين.. غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.. فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟

فأقوم فأقف تحت العرش.. فأقع ساجدًا لربي ﷻ.. ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد.. ارفع رأسك، وسل تُعْطَ.. واشفعْ تُشفَّع..

فأقول: يا رب أمتي.. أمتي.. يا رب أمتي.. أمتي.. يا رب أمتي.. أمتي..

فيقول: يا محمد أدخل من أمتك مَن لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة.. وهم شركاء الناس فيما سواه من أبواب.. ثم يفصل الله القضاء بين الناس».

وهذه الشفاعة العظمى، والنجاة الكبرى، لا تكون إلا للمصلين، أما غير المصلين فلا ولا كرامة..

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٨٥ ـ ٨٧].

ما العهد؟

قال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[1]..

بل كيف يرجو تارك الصلاة نيل الشفاعة يوم الأهوال والويلات.. والنبي ﷺ قد أخبر أنه لا يعرف أمته من بين الأمم يوم القيامة إلا بآثار الوضوء.. كما روى مسلم أنه ﷺ قال لأصحابه يومًا: «وددت أنّا قد رأينا إخواننا»، قالوا: أولسنا إخوانكم يا رسول الله؟

قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد».. فقالوا: كيف تعرف مَن لم يأتِ بعد من أمتك يا رسول الله؟

فقال: «أرأيت لو أن رجلاً له خيل غير محجلة (أي: فيها بياض ونور في الوجه والأطراف) بين ظهري خيل دُهْمٍ بُهْم (أي: سودٌ وحمر) ألا يعرف خيله؟».

قالوا: بلى يا رسول الله..

قال: «فإنهم يأتون غرًا محجلين من الوضوء.. ليس أحد كذلك غيرهم»..

وكذلك الشفاعة في الخروج من النار، لا تكون إلا للمصلين..

فعند البخاري: «أن الله تعالى إذا جمع الأولين والآخرين يوم القيامة نادى منادٍ: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون..

فيذهب أصحابُ الصليب مع صليبهم.. وأصحاب الأوثان مع أوثانهم.. وأصحاب كل إله

---

(١) رواه أحمد وغيره.

مع آلهتهم.. حتى لا يبقى إلا مَن كان يعبد الله.. من بر أو فاجر أو غبراتٍ من أهل الكتاب.. ثم يؤتى بجهنّم.. تعرض كأنها سراب.. وإذا الناس قد بلغ منهم الخوف والعطش كل مبلغ..

فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزيرًا ابن الله، فيقال: كذبتم.. لم يكن لله صاحبة ولا ولد..

ثم يقال: فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا.. والنار أمامهم كأنها سراب ماء.. فيقال: اشربوا.. فيتساقطون في جهنّم..

ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيحَ ابن الله. فيقال: كذبتم.. لم يكن لله صاحبة ولا ولد..

ثم يقال: ما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا.. فيشار لهم إلى جهنم.. ويقال: اشربوا.. فيهرعون إليها.. فيتساقطون في جهنم..

حتى يبقى مَن كان يعبد الله ﷻ، من بر أو فاجر.. فيقال لهم: ما يحبسكم؟ وقد ذهب الناس؟

فيقولون: إنا سمعنا مناديًا ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون.. وإنما ننتظر ربنا ﷻ.. فينتظرون.. حتى يأتيهم الله جل جلاله في صورته التي يعرفون.. فيسجد له كل مؤمن.. أما من كان يتساهل بالصلاة في الدنيا أو كان يصلي رياءً وسمعة فإنه إذا أراد أن يسجد صار ظهره طبقًا واحدًا.. فلا يستطيع السجود..

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم:٤٢، ٤٣]».

بل إن أهل الصلاة المقيمين لها، وإن دخلوا النار، فالشفاعة منهم قريبة.. فإن الله تعالى إذا فرغ من القضاء بين عباده.. ومضى أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.. أراد أن يخرج من النار من يخرجه، ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، فيأمر الله الملائكة أن يخرجوهم..

فيأتونهم.. فإذا هم في غمرات النار.. وبعضهم قد غاب في النار إلى قدميه.. وبعضهم قد غاص إلى أنصاف ساقيه.. فتبحث الملائكة عنهم ليخرجوهم.. فلا يعرفونهم إلا بعلامة آثار

السجود.. وحرّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم آثر السجود.. فيخرجونهم من النار.. كما ثبت في «الصحيحين»..

هذا حال أهل الصلاة.. أما غيرهم فاسمع خبرهم..

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[المدثر: ٣٨ ـ ٤٨].

نعم.. الصلاة هي مفتاح الجنان.. وطريق دار السلام.. ومجاورة الملك العلام..

روى البخاري: أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال.. حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام.. فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة»، قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهورًا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي..

وروى الطبراني ـ وأصل الحديث في مسلم ـ: وعن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال: كنت أخدم النبي ﷺ نهاري، فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله ﷺ فبتّ عنده.. فقال يومًا: «يا ربيعة، سلني فأعطيك»، فقلت: أنظِرْني حتى أنظر.. وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة، فقلت: يا رسول الله، أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة.. فسكت رسول الله ﷺ ثم قال: «مَن أمرك بهذا؟» قلت: ما أمرني به أحد.. ولكني علمت أن الدنيا منقطة فانية، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه، فأحببت أن تدعو الله لي.. قال: «إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود».

وروى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة.. فقال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة..وحطّ عنك بها خطيئة».

إنما ينجو يوم القيامة أقوام صالحون.. إذا أقبل وقت الصلاة اشتاقوا إليها، وأقبلت أجسادهم عليها..

الصلاةُ لأحدهم ربيع قلبه.. وحياة نفسه.. وقرّة عينه.. ولذة جسده.. بل هي جلاء حُزنه،

وذهاب همّه وغمّه.. يفزعون إليها عند النوائب.. ويلوذون بها في النوازل.. يتعرف بها أحدهم إلى الله في الرخاء.. فيعرفه ربه في الشدة..

ذكر الذهبي في ترجمة أبي عبدالله سفيان بن سعيد الثوري أنه كان صاحب نسك وعبادة.. قال عنه ابن وهب: رأيت سفيان الثوري في الحرم بعدما صلى المغرب، قام ليصلي النافلة، فسجد سجدة فلم يرفع رأسه حتى نودي بالعشاء..

وقال علي بن الفضيل: أتيت أريد الطواف بالكعبة، فإذا سفيان ساجداً يصلي.. فطفت شوطًا فإذا هو على سجوده، فطفت الثاني فإذا هو على سجوده.. فلقد طفت سبعة أسابيع ـ أي: تسعة وأربعين شوطًا وهو لم يرفع رأسه من سجوده..

وقال عنه عبدالرازق ـ أحد تلاميذه ـ: لما قدم سفيان علينا طبخت له قدر سكباج ـ لحم من الخل ـ فأكل.. ثم أتيته بزبيب الطائف فأكل، ثم أتيته بالموز فأكل.. فلما انتهى من طعامه قام.. ثم شد على وسطه إزاره، ثم قال: يا عبدالرازق يقولون: اعلف الحمار وكده، ثم قام يصلي حتى الصباح.

نعم تعبد صادق.. إذا قام في محرابه نسي الدنيا وما عليها.. يصلي أحدهم لربه.. صلاة عبد مشتاق إليه.. معترف بفضله عليه.. متذلل منكسر بين يديه.. فيزداد محبة إلى محبته، وشوقًا إلى دخول جنّته.. فإذا وقع هؤلاء في الكربات أو جأروا بالدعوات.. رأوا من ربهم ما يرضيهم.. ويصلح حالهم ويغنيهم..

سفيان الثوري.. دعاه أبو جعفر المنصور ليوليه القضاء.. فأبى سفيان، فأصرّ عليه الخليفة وسفيان يأبى.. عندها غضب أبو جعفر وصاح: يا غلام، النطع والسيف.. واحضروا السيف..

وألقوا سفيان على الأرض فلما رأى سفيان الموت قال: أيها الخليفة.. أنظرني غدًا آتيك في زي القضاة.. فلما أظلم عليه الليل حمل متاعه على بغل، وركب على بغل.. ولم يكن له زوجة ولا أولاد..وخرج من الكوفة هاربًا..

فلما أصبح أبو جعفر انتظر أن يقدم إليه أبو عبدالله سفيان الثوري، فلم يقدم عليه..

فلما أضحى وكاد أن يأتي الزوال، سأل بعض من حوله قال: التمسوا لي سفيان

الثوري فالتمسوه ثم رجعوا إليه وقالوا: إنه قد خالفك وهرب في السحر، في ظلمة الليل..

عندها غضب أبو جعفر وأرسل في جميع الممالك: أن مَن جاءنا بسفيان الثوري حيًّا أو ميتًا فله كذا وكذا..

هرب سفيان الثوري فلم يدر أين يذهب؟ فهمّ أن يذهب إلى اليمن ففنيت منه النفقة في أثناء الطريق.. فأجر نفسه عند صاحب بستان في قرية على طريق اليمن.. فأخذ يشتغل فيه أيامًا..

ثم في يوم من الأيام.. دعاه صاحب البستان وقال له: من أين أنت يا غلام؟ وهو لا يعلم أنه هو سفيان العابد الزاهد.. عالم المسلمين وإمامهم..

قال: أنا من الكوفة.

قال: رطب الكوفة أطيب أم الرطب التي عندنا؟ قال: أنا ما ذقت الرطب التي عندكم..

قال: سبحان الله.. الناس جميعًا؛ الأغنياء والفقراء، بل حتى الحمير والكلاب تأكل الرطب من كثرته، وأنت ما أكلت الرطب؟! لمَ لمْ تأكل من المزرعة وأنت تعمل فيها؟!

قال: لأنك لم تأذن لي بذلك.. فلا أريد أن أدخل لجوفي شيئًا من الحرام..

فعجب صاحب البستان من ورعه، وظنّ أنه يتصنع الورع، فقال: تتصنع الورع؟! والله لو كنت سفيان الثوري - وهو لا يعلم أنه سفيان - فسكت سفيان ومضى إلى عمله.. وخرج صاحب البستان إلى صاحب له يتحدث معه، فأخبره بخبر سفيان،وقال: عندي غلام يعمل في بستاني من شأنه كذا وكذا، يتصنع الورع.. والله لو كان سفيان الثوري.. فقال له صاحبه: ما صفته؟ قال: من صفته كذا وكذا..

قال: هذه والله صفة سفيان.. والله ما أظنه إلا هو.. فتعال نقبض عليه ونحوز على جائزة الخليفة..

فلما أقبلوا إلى البستان فإذا سفيان قد أخذ متاعه وفرّ إلى اليمن.. وصل ﷺ إلى اليمن، ثم اشتغل عند بعض الناس فلم يلبثوا أن اتهموه بسرقة فحملوه إلى والي اليمن.. فلما دخلوا به على الوالي أقعده بين يديه، فإذا هم يصيحون به.. فلما نظر إليه الوالي فإذا شيخ وقور عليه سيماء أهل الخير والصلاح.

فقال له: أسرقت؟

قال: لا والله ما سرقت..

قال: يقولون: إنك سرقت..

قال: تهمة يتهموني بها.. فليلتمسوا متاعهم أين يكون؟!

فأمرهم والي اليمن بالخروج من عنده.. قال لهم: حتى أسائله ـ أي: أحقق معه ـ ثم قال له: ما اسمك؟

قال: أنا اسمي عبدالله.

قال: أقسمت عليك أن تخبرني باسمك فكلنا عبيد الله.

قال: أنا اسمي سفيان.

قال: سفيان ابن من؟

قال: سفيان بن عبدالله.

قال: أقسمت عليك أن تخبرني باسمك واسم أبيك وتنتسب.

قال: أنا سفيان بن سعيد الثوري.

فانتفض الوالي.. قال: أنت سفيان الثوري؟

قال: نعم.

قال: أنت بغية أمير المؤمنين؟

قال: نعم.

قال: أنت الذي فررت من بين يدي أبي جعفر المنصور؟

قال: نعم.

قال: أنت الذي أرادك على القضاء وأبيت؟

قال: نعم.

قال: أنت الذي جعل فيك الجائزة؟

قال: نعم.

عندها خفض الوالي رأسه قليلاً ثم رفعه.. قال: يا أبا عبدالله.. أقم كيف شئت، وارحل متى شئت.. فوالله لو كنت مختبئًا تحت قدمي ما رفعتها عنك..

عندها خرج سفيان.. لكنه ما طاب له المقام في اليمن.. فذهب إلى مكة.. فسمع أبو جعفر أن سفيان الثوري في مكة.وكان على إقبال وقت الحج.. فبعث أبو جعفر الخشابين حين خرج إلى مكة.. فقال: إن رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه..

فجار النجارون فنصبوا الخشب.. ودخلوا الحرم وأخذوا ينادون على سفيان.. وإذا سفيان قد أحاط به العلماء يسألونه وينهلون منه.. وقد وضع رأسه في حجر الفضيل بن عياض وعند رجليه ابنُ عيينة.. فقالوا له: يا أبا عبدالله اتق الله ولا تشمت بنا الأعداء.. عندها قام سفيان فتقدم إلى أستار الكعبة ثم رفع يديه وقال: اللهم أقسمت عليك ألا يدخلها أبو جعفر (ثلاث مرات).. فإذا بهذه الدعوات تقرع أبواب السموات فينزل ملك الموت من السماء فيقبض روح أبي جعفر.. فمات قبل أن يدخل مكة، فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئًا..

وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ كان جالسًا في المسجد مع أصحابه يومًا، فدخل رجل فصلّى، وجعل النبي ﷺ يرمقه وهو يصلّي.. ثم جاء فسلّم على النبي ﷺ فردّ عليه السلام، ثم قال: «ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ»..

فرجع الرجل فصلى كصلاته الأولى.. ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلّم عليه.. فقال له: «وعليك السلام.. ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ»..

فرجع الرجل فصلى.. ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلّم عليه.. فقال له: «وعليك السلام.. ارجع فصلّ فإنك لم تصلِّ»..

فقال الرجل: والذي بعثك بالحق.. ما أحسن غير هذا.. فعلّمني..

فقال ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر.. ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا.. ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا.. ثم افعل ذلك في صلاتك كلها».

عجبًا.. فما أحوج كثير من الناس اليوم أن يقال له بعد صلاته: ارجع فصلّ فإنك لم

تصلِّ..؟! ينقر أحدهم سجوده كنقر الغراب.. ويركع مستعجلاً كالمرتاب.. لا يناجي ربّه في السجود.. ولا يخشع للرحيم الودود..

ولكن من رحمة الله بنا أن شرع لنا ما نسد به نقص صلاتنا..

كما أخرج الحاكم وصححه.. أن النبي ﷺ قال: «يقول ربنا ﷻ للملائكة ـ وهو أعلم ـ: انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئًا قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك».

وكان ﷺ يحث على السنن الرواتب، بل أخبر بالفضل العظيم لمن صلاّها، فروى مسلم وابن خزيمة أنه ﷺ قال: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعًا غير فريضة، إلا بنى الله له بيتًا في الجنة.. أربع ركعات قبل الظهر، وركعتين بعد الظهر، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الصبح».

وينبغي على العبد أن يعظم ربه إذا وقف بين يديه..

كان ﷺ إذا صلى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء..

وكان أبو بكر إذا صلّى بالناس لم يكد يسمعون قراءته من الرقة..

وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف..

كان عليّ بن الحسين ﷺ إذا توضأ أخذته رعدة وتصبب عرقًا، فسألوه عن ذلك فيقول: ويلكم أتدرون بين يدي مَن سوف أقوم؟!

أما مسلم بن يسار فقال عنه بعض أصحابه: ما رأيت مسلم بن يسار متلفتًا في صلاته قط.. خفيفة ولا طويلة.. ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدته وإنه لفي المسجد في صلاة فما التفت إليهم.

وقال ابن سيرين: رأيت مسلم بن يسار رفع رأسه من السجود في المسجد الجامع.. فنظرت إلى موضع سجوده كأنه صبّ فيه الماء من كثرة دموعه..

وقال ابن عود: رأيت مسلم بن يسار يصلّي كأنه وتد.. لا يميل على قدم مرة ولا على قدم مرة.. ولا يتحرك.. له ثوب ولا يتروح على رجل.

وكثير الحمصي.. أمَّ أهل حمص ستين سنة كاملة.. ولم يسهُ في صلاة قط.. فسئل عن ذلك، فقال: ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله..

نعم.. يستشعر أحدهم أنه مخلوق حقير.. واقف بين يدي ملك كبير.. خضعت له السموات وما أظلّتْ، والأرضُ وما أقلّتْ.. عنَتْ له الوجوهُ، وخضعتْ له الرقابُ، وذلّتْ له الجبابرة..

وإذا قال: الله أكبر.. استشعر أن الله أكبرُ من كلّ ما يخطرُ بالبال.. وهو سبحانه يراقب إلى صلاته، ويسمع مناجاته..

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.. قال الله: «حمدني عبدي»، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.. قال الله: «أثنى عليّ عبدي»، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.. قال الله: «مجدني عبدي»، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. قال الله: «هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

فيا لذة قلبه.. وقرة عينه.. وسرور نفسه بقول ربّه: «عبدي».. «عبدي».. وهو سبحانه الغنيّ عن عبده.. قد استوى على عرشه.. وتفرد بتدبير ملكه.. يغيث الملهوفين.. ويجيب المضطرين.. فيخشع لذلك قلبه.. وتطمئن نفسه.. وتسكنُ حركاته.. ويجتمع همُّهُ على الله.. وتقرُّ عينه بمولاه.. ويحسُّ بحلاوة قُربه.. ويتلذذ بخشوع قلبه..

فيعبد الله كأنه يراه فوق سمواته.. مستويًا على عرشه.. يتكلّم بأمره ونهيه.. ويُدبّرُ أمرَ خليقته.. فنزل الأمرُ من عنده ويصعدُ إليه.. وهو حيّ.. سميع.. بصير.. يُحبُّ ويبغض.. ويرضى ويغضب.. ويفعل ما يشاء.. ويحكم ما يُريد..

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨].

ولا يكاد الشيطان يبغض شيئًا كبغضه للصلاة.. ولذلك إذا رأى الشيطانُ ابن آدم ساجدًا لله اعتزل ناحية يبكي ويقول: يا ويله! أُمر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فعصيتُ فلي النار[١].

---

(١) رواه مسلم.

والشيطان مِن بُغضِهِ للصلاة أنه إذا نودي للصلاة أدبر وله ضراط حتى لا يسمع التأذين.. فإذا قضى النداء أقبل.. حتى إذا ثوّب بالصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه.. يقول: اذكر كذا.. اذكر كذا.. لما لم يكن يذكر.. حتى يظل الرجل لا يدري كم صلّى[(١)].

نعم.. يتسلط عليه الشيطان وهو في صلاته ليفسدها عليه..

قال ﷺ: «إن الشيطان ليطوف بالرجل في صلاته ليقطع عليه صلاته، فإذا أعياه نفخ في دبره ليخيل إليه أنه أحدث.. فإذا أحس أحدكم من ذلك شيئًا فلا ينصرف حتى يجد ريحًا أو يسمع صوتًا»[(٢)].

وسُئل ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[(٣)].

وبلغ من حقد الشيطان أنه إذا نام العبد يعقد على قافية رأسه ثلاث عقد يضرب كل عقدة عليك ليل طويل فارقد[(٤)].. حتى لا يستيقظ للصلاة..

بل الأمر أعظم من ذلك.. فإن الشيطان يجتهد في إغراق العبد في النوم لتفوته الصلاة.. قال ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاث مرات.. فإن الشيطان يبيت على خيشومه»[(٥)].

بل في «الصحيحين» أنه ذُكر عند النبي ﷺ رجل نام عن الفجر ليلة حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه».

وعند البخاري: أن النبي ﷺ أخبر بعذاب من يخرجون الصلاة عن وقتها فقال فيما رواه البخاري: «إنه أتاني آتيان فابتعثاني فانطلقت معهما فأتينا على رجل مضطجع ورجل قائم بيده فهر، أو صخرة، فيشج بها رأسه.. فيتدهده الحجر، فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

(٥) متفق عليه.

كان.. فيصنع مثل ذلك..

فقلت: ما هذا يا جبريل؟

قال: هذا الذي ينام عن الصلاة المكتوبة.

ولا يزال الشيطان بالعبد يشغله عن الصلاة حتى يتركها.. وإن الجريمة الكبرى، والداهية العظمى أن يترك المرء الصلاة.. فتاركو الصلاة هم أنصار الشيطان.. وأعداء الرحمن.. وخصوم المؤمنين.. وإخوان الكافرين.. الذين يُحشرون مع فرعون وهامان، ويتقلبون معهم في النيران»..

وقد قال ﷺ فيما رواه مسلم: «بين الرجل وبين الكفر أو الشرك ترك الصلاة».. وصحّ عن الترمذي والحاكم عن عبدالله بن شقيق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة..

قال الشيخ ابن عثيمين:وإذا حكمنا على تارك الصلاة بالكفر، فهذا يقتضي أنه تنطبق عليه أحكام المرتدين.. فلا يصحّ أن يُزوَّج، فإن عُقد له وهو لا يصلي فالنكاح باطل.. وإذا ترك الصلاة بعد أن عُقد له فإن نكاحه ينفسخ ولا تحل له الزوجة.. وإذا ذبح لا تؤكل ذبيحته لأنها حرام.. ولا يدخل مكة.. ولو مات أحد من أقاربه فلا حق له في الميراث.. وإذا مات لا يُغسّل ولا يكفّن ولا يُصلّى عليه ولا يدفن مع المسلمين.. ويُحشر يوم القيامة مع الكفّار.. ولا يدخل الجنة.. ولا يحل لأهله أن يدعوا له بالرحمة والمغفرة لأنه كافر..

وحال تاركي الصلاة عند الموت أدهى وأفظع..

ذكر ابن القيم:أن أحد المحتضرين كان صاحب معاصٍ وتفريط.. فلم يلبث أن نزل به الموت، ففزع مَن حوله إليه، وانطرحوا بين يديه، وأخذوا يذكرونه بالله، ويلقنونه «لا إله إلا الله» وهو يدافع عبراته.. فلما بدأت روحه تنزع صاح بأعلى صوته وقال: أقول لا إله إلا الله! وما تنفعني لا إله إلا الله؟! وما أعلم أني صليت لله صلاة! ثم أخذ يشهق حتى مات..

أمّا عامر بن عبدالله بن الزبير..فلقد كان على فراش الموت.. يعد أنفاس الحياة، وأهله حوله يبكون، فبينما هو يصارع الموت سمع المؤذن ينادي لصلاة المغرب، ونفسه تحشرج في حلقه.. وقد اشتد نزعه، وعظم كربه.. فلما سمع النداء قال لمن حوله:

خذوا بيدي..!

قالوا: إلى أين؟.. قال: إلى المسجد.. قالوا: وأنت على هذه الحال! قال: سبحان الله! أسمع منادي الصلاة ولا أجيبه.. خذوا بيدي.. فحملوه بين رجلين.. فصلى ركعة مع الإمام، ثم مات في سجوده.. نعم.. مات وهو ساجد..

وقال عطاء بن السائل: أتينا إلى أبي عبدالرحمن السلمي وهو مريض في مصلاه في المسجد، فإذا هو قد اشتد عليه الأمر، وقد بدأت روحه تنزع، فأشفقنا عليه، وقلنا له: لو تحوّلت إلى الفراش، فإنه أوثر وأوطأ.. فتحامل على نفسه وقال: حدثني فلان أن النبي ﷺ قال: «لا يزال أحدكم في صلاة ما دام في مصلاه ينتظر الصلاة» فأنا أريد أن أقبض على ذلك..

فمن أقام الصلاة.. وصبر على طاعة مولاه.. ختم له برضاه..

كان سعد بن معاذ ﷺ صالحًا قانتًا، متعبدًا مخبتًا.. عرفه الليل ببكاء الأسحار، وعرفه النهار بالصلاة والاستغفار..

أصابه جرح في غزوة بني قريظة، فلبث مريضًا أيامًا ثم نزل به الموت، فلما أخبر به النبي ﷺ قال لأصحابه: «انطلقوا إليه».. قال جابر: فخرج وخرجنا معه، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا، وسقطت أرديتنا، فعجب أصحابه من سرعته، فقال: «إني أخاف أن تسبقنا إليه الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة».. فانتهى إلى البيت فإذا هو قد مات.. وأصحاب له يغسلونه، وأمه تبكيه..

فقال ﷺ: «كل باكية تكذب إلا أم سعد».. ثم حملوه إلى قبره.. وخرج ﷺ يشيعه.. فقال القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخف علينا منه..

فقال ﷺ: «ما يمنعه أن يخف وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم.. قد حملوه معكم.. والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتز له العرش».. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف:١٠٧، ١٠٨].

والصلاة النافعة هي التي تقام كما أمر الله..

وقد أمر الله بإقامة الصلاة مع جماعة المسلمين في المساجد..

فقال ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣].

وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤمّ الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم.. والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء»، فقام ابن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إني رجل ضرير البصر، شاسع الدار، وليس لي قائد يلائمني، فهل لي رخصة أن أصلّي في بيتي، قال: «أتسمع النداء؟»، قال: نعم، قال: «فاحضرها»، قال: يا رسول الله: إن بيني وبينها نخلاً وشجرًا.. وليس لي قائد، قال: «أتسمع الإقامة؟»، قال: نعم، قال: «فاحضرها» ولم يرخص له.

وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مَن سرّه أن يلقَى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنّهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيّكم.. ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم.. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق..

ولقد كان الرجل يؤتَى به يهادَى بين الرجلين حتى يُقام في الصفّ..

لأجل هذه الفضائل كان ﷺ لا يصلي إلا مع الجماعة.. في سفره، وحضره، وأمنه، وخوفه، ومرضه، وعافيته..

انظر إليه ﷺ وقد نزل به الموت، والحُمّى تأكل جسده، وهو يتحامل على نفسه ويصلي بالناس، حتى صلّى بهم المغرب يوم الجمعة ودخل بيته، وقد اشتدت الحُمى، فوضعوا له فراشًا فانطرح عليه..

واجتمع الناس لصلاة العشاء، وهو ﷺ يحاول النهوض من فراشه، فلا يقدر.. فلما أبطأ عليهم جعل بعضهم ينادي: الصلاة.. الصلاة..

فالتفت النبي ﷺ إلى مَن حوله وقال: «أصلّى الناس؟» قالوا: لا يا رسول الله.. هم

ينتظرونك.. فإذا حرارة جسده ﷺ تمنعه من النهوض.. فقال: «صبّوا لي ماءً في المخضب ـ وهو إناء كبير ـ»، فصبوا له الماء، وجعلوا يصبون الماء البارد من القرب فوق جسده.. فلما برد جسده، وشعر بشيء من النشاط، جعل يشير لهم بيده، فأوقفوا الماء عنه.. فلما اتكأ على يديه ليقوم، أغميَ عليه..

فلبث مليًّا.. ثم أفاق.. فكان أول سؤال سأله أن قال: «أصلّى الناس؟» قالوا: لا يا رسول الله.. هم ينتظرونك..

قال: «ضعوا لي ماء في المخضب».. فاغتسل، وجعل يصبون عليه الماء حتى إذا شعر بشيء من النشاط أراد أن يقوم فأغمي عليه..

فلبث مليًّا، ثم أفاق.. فكان أول سؤال سأله أن قال: «أصلّى الناس؟» قالوا: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك..

قال: «ضعوا لي ماء في المخضب».. فوضعوا له الماء، وجعلوا يصبون الماء البارد على جسده، وأكثروا الماء حتى أشار لهم بيده، ثم اتكأ على يديه ليقوم.. فأغمي عليه.. فلبث مغميًّا عليه مليًّا.. ثم أفاق.. فقال: «أصلّى الناس؟» قالوا: لا.. هم ينتظرونك يا رسول الله..

فلما رأى حاله، وتمكُّن المرض من جسده، التفت إليهم وقال: «مُروا أبا بكر فليصل بالناس».. فصلّى أبو بكر أيامًا..

فلما كان يوم الإثنين..وجد ﷺ نشاطًا في جسده.. فدعا العباس وعليًّا.. فأسنداه عن يمينه ويساره.. ثم خرج يمشي بينهما إلى المسجد.. تخط رجلاه في الأرض.. ولم يفوّت صلاة الجماعة..

وهكذا كان الصالحون من بعده..

فكان سعيد بن عبدالعزيزإذا فاتته صلاة الجماعة بكى..

وقال (برد) مولى سعيد بن المسيّب:ما نودي للصلاة من أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد..

وقال وكيع:كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى..

وسُئل سليمان المقدسي عن صلاة الجماعة وقد قارب عمره التسعين..فقال: لم أصلّ الفريضة قط منفردًا إلا مرتين وكأني لم أصلهما قط..

وقال حاتم الأصم: فاتتني صلاة الجماعة فعزّاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزّاني أكثر من عشرة آلاف.

وكان الربيع بن خثيم بعدما شُلَّ جسده وأصابه الفالج، يهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحابه يقولون: يا أبا يزيد.. لقد رخّص الله لك، لو صلّيت في بيتك.. فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي «حي على الفلاح» فمَن سمع منكم ينادي «حيّ على الفلاح» فليجبه ولو زحفًا.. ولو حبوًا..

لله درّهم من مرضى.. بل والله نحن المرضى..

وإذا أحب العبدُ الصلاةَ، اشتاقت نفسه إليها، فبكر إلى اللقاء، واشتغل بالذكر والدعاء، حتى تقام الصلاة..

وفي «الصحيحين» قال ﷺ: «ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه.. ولا يزال العبد في صلاة ما انتظر الصلاة..».

ومما ابتلي به اليوم كثير من الناس؛ التأخر عن الصلوات عمومًا خاصة صلاةَ الجمعة..

وقد روى البخاري أنه ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح، فكأنما قرب بدنة.. ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة.. ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن.. ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة.. ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة.. فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر».

وعند البخاري أيضًا أنه ﷺ قال: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول.. فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر..».

من أجل ذلك كان الصالحون يتسابقون إليها..

قال الإمام الزركشي: إن من أول ما أحدث المتأخرون من التغيير في صلاة الجمعة أنهم يتأخرون في المجيء إليها.. ولقد أدركنا السابقين يأتي أحدهم إلى صلاة الجمعة بيده السراج.. يعني يأتي إليها قبل أن تطلع الشمس..

نعم.. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

ومن حب الله تعالى للذين يبكّرون إلى صلاة الجمعة، أنهم هم الأقرب إليه.. في يوم المزيد.. في الجنة.. إذا اجتمع المؤمنون ينظرون إلى ربهم جل جلاله.. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان..

أو ما سمعت بشأنهم يومَ المزيـ ... د وإنه شأنٌ عظيم الشان
هو يومُ جُمعتنا ويوم زيارة الر ... رحمن، وقت صلاتنا وأذانِ
والسابقون إلى الصلاة هم الألى ... فازوا بذاك السبق بالإحسان
سَبقٌ بسبقٍ والمؤخر هاهنا ... متأخرٌ في ذلك الميدان
والأقربون إلى الإمام فهم أولو ... الزلفى هناك فهاهنا قربان
قربٌ بقربٍ والمباعدُ مثلهُ ... بُعد ببعدٍ حكمة الديّان
ولهم منابر لؤلؤٍ وزبرجدٍ ... ومنابرُ الياقوت والعقبان
هذا وأدناهم وما فيهم دنى ... من فوق ذاك المسك كالكُثبان
فيرون ربهم تعالى جهرةً ... نظر العيان كما يُرى القمران
ويحاضر الرحمن واحدهم ... محاضرة الحبيب، يقول: يابن فلان
هل تذكر اليوم الذي قد كنـ ... ـت فيه مبارزًا بالذنب والعصيان
فيقول رب أما مننت بمغفرة ... قدمًا فإنك واسع الغفران
فيجيبه الرحمن مغفرتي التي ... قد أوصلتك إلى المحل الداني
فيها الذي والله لا عينٌ رأت ... كلا ولا سمعت به أذنان
واهًا لذا السوق الذي من حله ... نال التهاني كلها بأمان
وتجارة مَن ليس تلهيه تجا ... رات، ولا بيع عن الرحمن
يا مَن تعوض عنه بالسوق الذي ... ركزت لديه راية الشيطان
لو كنتَ تدري قدر ذاك السوق لم ... تركن إلى سوق الكساد الفاني
فهم إلى يوم المزيد أشد شوقًا ... من محب للحبيب الداني
هذا وخاتمة النعيم خلودهم ... أبدًا بدار الخلد والرضوان

ولا يكفي أن يحرص المرء على الصلاة في المسجد، بل لا بد أن يأمر من تحت يده بذلك.. وكلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيّته..

بعث عبدالعزيز بن مروان ابنه عمر إلى المدينة يتأدب بها ويطلب العلم، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده.. وكان يلزمه في الصلوات.. فأبطأ يومًا عن الصلاة.. فقال: ما حبسك؟ قال: كنت أمشط شعري.. فقال: بلغ من حبك لشعرك أن تؤثره على الصلاة؟! وكتب بذلك إلى والده.. فبعث أبوه رسولاً إليه فما كلمه حتى حلق شعره..

وفقد عبدالملك بن مروان ولده هشامًا يومًا في صلاة جمعة.. فبعث إليه بعد الصلاة يسأله عن تغيبه، فقال: عجزت بغلتي عن حملي، ولم أجد دابة.. فأرسل إليه: وإذا لم تجد دابة تغيب عن الجمعة، أقسمت عليك ألا تركب دابة سنة كاملة.

وقال مجاهد: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ممن شهد بدرًا قال لابنه: أدركت الصلاة معنا؟ قال: نعم.. قال: أدركت التكبيرة الأولى؟ قال: لا.. قال: لما فاتك منها خير من مائة ناقة كلها سود العين.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا خرج للصلاة مرّ ببيوت أهله يصيح ويخرجهم معه إلى المسجد، وهو يقرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢].

نعم.. إن جنة المؤمن في محرابه، والذنب لا يغسل إلا بالدمع، والمغرفة تطلب بالركوع والسجود.. وكلما كان الرجل في صلاته أكثر اتباعًا للنبي ﷺ، وتطبيقًا للسنن كان أجره أعظم.. كيف لا وقد قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلّي»[١].

وقد ترى الرجلين يصليان في مسجد واحد بل يقفان في صف واحد وراء إمام واحد يدخلان الصلاة في وقت واحد، وينصرفان منها في وقت واحد.. وبين صلاة هذا وصلاة هذا من الأجر كما بين السماء والأرض..

والفرق: أن الأول: صلّى كما كان النبي ﷺ يصلّي..

والثاني: ما يهتم بتطبيق السنن، ولا يلتفت إليها..

---

(١) متفق عليه.

وسوف أسوق لكم في عجالة صفة صلاة النبي ﷺ ملخصة من كتاب الشيخ ابن باز رحمه الله.

وصفة الصلاة: أن يستقبل القبلة ناويًا بقلبه الصلاة، ولا ينطق بلسانه بالنية، ويسقط الاستقبال عن العاجز عنه كالمريض.

ويجب عليه أن يصلي قائمًا إلا العاجز عن القيام فيصلي جالسًا إن استطاع، وإلا فعلى جنب..

ويسن أن يصلي إلى سترة.. لا فرق في ذلك بين المسجد وغيره، لقوله ﷺ: «لا تصل إلا إلى سترة.. ولا تدع أحدًا يمر بين يديك»[1]، وتكون السترة مرتفعة عن الأرض.. وعليه أن يتجنب ما يلهيه في صلاته من زخارف وأصوات، ولا يصلي وهو يدافع البول والغائط..

ثم يكبر تكبيرة الإحرام قائلاً: «الله أكبر» ناظرًا ببصره إلى محل سجوده، ويرفع يديه عند التكبيرة إلى حذو منكبيه، أو إلى حيال أذنيه.. ولا يرفع صوته بالتكبير في كل الصلوات، إلا إذا كان إمامًا، ولا يكبر المأموم إلا عقب انتهاء الإمام من التكبير.. ثم يضع يديه على صدره.. اليمنى على اليسرى..

ويسن أن يقرأ دعاء الاستفتاح فيقول: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب.. اللهم نقّني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.. اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[2].. أو غيره مما ثبت عن النبي ﷺ.

ثم يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم».. وينظُر إلى موضع سجوده.. ولا يلتفت ببصره، ولا يرفع بصره.. ويقرأ سورة الفاتحة، ويقول بعدها «آمين» جهرًا في الصلاة الجهرية، وسرًا في السريَّة.. ثم يقرأ ما تيسر من القرآن..

ثم يكبّر ويركع رافعًا يديه إلى حذو منكبيه أو أذنيه، كما رفعهما عند تكبيرة الإحرام.. ويجعل ظهره في الركوع مستويًا.. واضعًا يديه على ركبتيه ويفرج بين أصابعه كأنه قابض على ركبتيه.. ويقول: «سبحان ربي العظيم» والأفضل أن يكررها ثلاثًا أو أكثر.. وإن زاد عليها من الذكر الوارد فلا بأس..

---

(١) «صحيح ابن حبان» (٢٤٠٣).

(٢) رواه البخاري.

ثم يرفع رأسه من الركوع..رافعًا يديه إلى حذو منكبيه أو أذنيه قائلاً: «سمع الله لمَن حمده».. ثم يضع يديه على صدره ويقول: «ربنا ولك الحمد».. وإن زاد فقال: «ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد.. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد (أي: لا ينفع ذا الغنى غناه)» [١].. أو يقول غيره مما ورد..

وإن كان مأمومًا فإنه لا يقول:«سمع الله لمن حمده» وإنما يقول ما بعدها: «ربنا ولك الحمد..» إلى آخره..

ثم يخر ساجدًا مكبرًا، ويكون على أعضائه السبعة: الجبهة مع الأنف، واليدين، والركبتين، وبطون أصابع القدمين.. ويقول: «سبحان ربي الأعلى»، ويكرر ذلك ثلاثًا أو أكثر، ويكثر من الدعاء في السجود.. ويضم أصابع يديه في سجوده، ويجافي عضديه عن جنبيه، وبطنه عن فخذيه، ويرفع ذراعيه عن الأرض..

ثم يرفع رأسه مكبرًا، ويفرش قدمه اليسرى ويجلس عليها، وينصب قدمه اليمنى، ويضع يديه على فخذيه وركبتيه، ويقول في هذه الجلسة بين السجدتين: «اللهم اغفر لي، وارحمني، واجبرني، وارفعني، وعافني، وارزقني» أو: «رب اغفر لي.. رب اغفر لي».. وقد كان ﷺ يطيل اعتداله بعد الركوع وبين السجدتين..

ثم يسجد السجدة الثانية مكبرًا..ويفعل فيها كما فعل في السجدة الأولى.. ثم يرفع رأسه مكبرًا.. ويجلس ـ إن شاء الله ـ جلسة خفيفة مثل جلوسه بين السجدتين، وتسمى: جلسة الاستراحة.. وهي مستحبة، وإن تركها فلا حرج.. وليس فيها ذكر ولا دعاء..

ثم ينهض قائمًا إلى الركعة الثانية، و يفعل كما فعل في الركعة الأولى..

وإن كانت الصلاة ثنائية ـ أي: ركعتين كصلاة الفجر والجمعة والعيد ـ جلس في الركعة الثانية للتشهد الأخير، قابضًا أصابع يده اليمنى كلها إلا السبابة، فيشير بها إلى التوحيد عند ذكر الله والدعاء.

وإن قبض الخنصر والبنصر، وحلق الإبهام والوسطى وأشار بالسبابة فحسن.. لثبوت

---

(١)رواه مسلم.

الصفتين عن النبي ﷺ.

ثم يقرأ التشهد.. وهو: «التحيّات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي (أو: السلام على النبي) ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

ويقرأ بعد هذا التشهد الصلاة على النبي ﷺ فيقول: «اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.. اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

ويستحب أن يقول بعدها: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شرّ فتنة المسيح الدجال».. ثم يدعو بما شاء من خير الدنيا والآخرة.. ثم يسلم عن يمينه وشماله قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله»..

وإن كانت الصلاة ثلاثية كـ(المغرب)، أو رباعية كـ(الظهر والعصر والعشاء)؛ قرأ التشهد ثم نهض إلى الركعة الثالثة رافعًا يديه إلى حذو منكبيه، كما فعل في تكبيرة الإحرام.. قائلاً: «الله أكبر»، ويضع يديه على صدره كما تقدم، ويقرأ الفاتحة فقط..

فإذا جلس للتشهد الأخير جلس متورّكًا، واضعًا قدمه اليسرى تحت ساقه اليمنى، وبعض مقعدته على الأرض، ويلقم كفه اليسرى ركبته، يعتمد عليها.. ثم يسلم عن يمينه وشماله..

ويسن له بعد الصلاة أن يأتي بأذكار الصلاة، وهي:

أن يستغفر ثلاثًا، ويقول: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.. لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد.. لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن.. لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون..

ثم يقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر.. كل منها ثلاثًا وثلاثين مرة.. ثم

يتم المائة بقوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير..

ثم يقرأ آية الكرسي، وقل هو الله أحد، والمعوذتين مرة واحدة.. إلا بعد صلاتي الفجر والمغرب فيستحب تكرار هذه السور الثلاث ثلاث مرات.. كما يستحب أن يقول بعد صلاتي الفجر والمغرب: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير» عشر مرات..



مفتاح الجنة

الحمد لله الذي رضي الإسلام لعباده دينًا.. ونصب الأدلة على ألوهيّته وبيّنها تبيينًا.. وكفى بربك هاديًا ومعينًا.. لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، وكبّره تكبيرًا..

يعطي ويمنع.. ويخفض ويرفع.. ويصل ويقطع.. ولا يسأل عما يقضي ويصنع.. لا شريك له في ملكه، ولا ندّ له في حكمه، ولا ظهير له ولا وزير.. ولا شبيه له ولا نظير.. ذلت الجبابرة لعزته، وانكسرت النفوس لهيبته، وخشعت الأصوات لعظمته..

فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. وصفيّه وخليله.. صلى الله وسلم وبارك عليه ما ذكره الذاكرون الأبرار.. وصلى الله وسلم وبارك عليه ما تعاقب الليل والنهار، ونسأل الله أن يجعلنا من أمته، وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته..

أما بعد؛ أيها الإخوة والأخوات..

البحر المتلاطم..

كانت الدنيا مليئة بالمشركين.. هذا يدعو صنمًا، وذاك يعظّم حجرًا..

وكان بينهم سيد من السادات هو عمرو بن الجموح.. كان له صنم اسمه مناف، يتقرب إليه ويسجد بين يديه.. صنم صنعه من خشب لكنه أحب إليه من أهله وماله.. وكان هذا دأبه مذ عرف الدنيا، حتى جاوز عمره الستين سنة.. فلما بُعث النبي ﷺ في مكة أرسل مصعب بن عمير إلى المدينة داعيًا ومعلّمًا لأهل المدينة..

فأسلم أولاد عمرو بن الجموح دون أن يعلم أبوهم.. أقبلوا إلى أبيهم.. قالوا: يا أبانا إن هذا الداعي الذي جاء من مكة قد اتبعه الناس على دين صالح.. فما ترى في اتباعه؟ فقال:

لا أفعل حتى أشاور منافًا!

ثم قام عمرو إلى مناف.. فوقف بين يديه وقال: يا مناف.. قد علمت بخبر هذا القادم.. وإنما ينهانا عن عبادتك.. فأشر عليّ يا مناف.. فلم يرد الصنم شيئًا.. فأعاد عليه فلم يرد شيئًا.. وأنى أن يتكلم صنع من حجر؟! فقال عمرو: لعلك غضبت.. وإني ساكت عنك أيّامًا حتى يزول غضبك، ثم تركه وخرج..

فلما أظلم الليل.. أقبل أبناؤه إلى مناف، فحملوه وألقوه في حفرة تُلقى فيها الأقذار والجيف.. فلما أصبح عمرو دخل إلى صنمه فلم يجده.. فصاح بأعلى صوته وقال: ويلكم.. من عدا على إلهنا الليلة.. فسكت أهله، ففزع واضطرب، وخرج يبحث عنه.. فوجده منكسًا على رأسه في الحفرة، فأخرجه وطيّبه وأعاده لمكانه، ثم قال مهددًا: أما والله يا مناف لو علمت مَن فعل بك هذا لأخزيته..

فلما كانت الليلة الثانية.. أقبل أبناؤه إلى الصنم، فحملوه وألقوه في تلك الحفرة المنتنة.. فلما أصبح الشيخ أقبل إلى صنمه يلتمسه فلم يجده مكانه.. فغضب وهدد وتوعد.. ثم أخرجه من تلك الحفرة فغسّله وطيّبه..

ثم ما زال أولاده يفعلون ذلك بالصنم في كل ليلة.. وهو يخرجه كلّ صباح، فلما ضاق بالأمر ذرعًا راح إلى الصنم قبل منامه، ثم قال: ويحك يا مناف إن العنز لتمنع إستها.. ثم علق في رأس الصنم سيفًا وقال: ادفع عدوّك عن نفسك، أنا ما أستطيع أن أحميك كل ليلة.. ادفع عدوك عن نفسك.. فلما جنّ الليل حمل الفتية الصنم وربطوه بكلب ميت، وألقوه في بئر يجتمع فيها النتن..

فلما أصبح الشيخ بحث عن مناف فلم يجده مكانه، فذهب إلى تلك الحفرة، فلما رآه على هذا الحال، وقد ربط بكلب ميّت وألقي بين القذر، أخذ ينظر إليه ويقول:

وربّ يبول الثعلبان برأسه، لقد خاب مَن بالت عليه الثعالبُ

ثم دخل في دين الله.. وما زال يسابق الصالحين في ميادين الجهاد..

وإن شئت فانظر إليه لما أراد المسلمون الخروج إلى معركة بدر، منعه أبناؤه لكبر سنّه وشدة عرجه.. فلما كانت غزوة أحد، أراد عمرو الخروج للجهاد، فمنعونه، فذهب إلى

النبي ﷺ يدافع عبراته ويقول: يا رسول الله إن بنيّ يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك إلى الجهاد.. فقال ﷺ وقد نظر إلى شدة عرجه وكبر سنه واحتداب ظهره: «إن الله قد عذرك يا عمرو».. فقال: يا رسول الله، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة.. فأذن له ﷺ بالخروج، فذهب يخطر على قدمه العرجاء، فلما وصلوا إلى ساحة القتال انطلق يضرب بسيفه جيش الظلام، ويقاتل عبّاد الأصنام.. حتى كثرت عليه السيوف، فقُتِل.. فدفنه النبي ﷺ.. وبعد ست وأربعين سنة نزل بمقبرة شهداء أحد سيل شديد غطى أرض القبور.. فسارع المسلمون إلى نقل رفات الشهداء.. فلما حفروا عن قبر عمرو بن الجموح رضي الله عنه فإذا هو كأنه نائم.. لم تأكل الأرض من جسده شيئًا..

فتأمل كيف ختم الله له بالخير، لما رجع إلى الحق.. ولما تبيّن له.. بل انظر كيف أظهر الله تعالى كرامته في الدنيا قبل الآخرة لما حقق لا إله إلا الله..

نعم.. هذه الكلمة التي قامت لأجلها الأرض والسموات.. وفطر الله عليها جميع المخلوقات.. وهي سبب دخول الجنان.. ولأجلها خلقت الجنة والنار.. وانقسم الخلق إلى مؤمنين وكفّار.. وأبرار وفجّار.. فلا تزول أقدام العباد بين يدي الله يوم القيامة حتى يسألوا جميعًا عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

سفينة النجاة..

وكم من إنسان هلك مع الهالكين.. واستحق اللعنة إلى يوم الدين.. بسبب أنه لم يحقق التوحيد.. فالله هو الرب الواحد.. لا يتوكل العبد إلا عليه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يحلف إلا باسمه، ولا ينذر إلا له.. فهذا تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.. ولهذا حرّم الله على النار أهل «لا إله إلا الله»..

وانظر إلى معاذ رضي الله عنه لما مشى خلف النبي ﷺ، فالتفت النبي ﷺ إليه فجأة ثم سأله فقال: «يا معاذ أتدري ما حقّ الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم.. فقال ﷺ: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.. وحق العباد على الله أن لا يعذب مَن لا يشرك به شيئًا».

وفي حديث آخر أنه ﷺ سأل النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله.. أي ذنب عند الله أعظم؟ فقال ﷺ: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك».

نعم.. التوحيد من أجله بعث الله الرسل.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. والطاغوت هو كلّ ما عُبد من دون الله من صنم أو قبر..

والتوحيد هو مهمة الرسل الأولى كما قال الله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥].

والأعمال كلها متوقفة في قبولها على التوحيد.. ومَن حقق التوحيد نجا.. كما صحّ عند الترمذي أن الله تعالى قال: «يابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة».. ولعظم أمر التوحيد.. خاف الأنبياء من فقده.. فذاك أبو الموحدين.. مُحطّم الأصنام، وباني البيت الحرام؛ إبراهيم عليه السلام يبتهل إلى الملك العلاّم، ويقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

بداية الانحراف..

وأول ما حدث الشرك في قوم نوح.. فبعث الله إليهم نوحًا.. فنهاهم عن الشرك.. فمن أطاعه ووحد الله نجى.. ومن ظلّ على شركه أهلكه الله بالطوفان.. وبقي الناس بعد نوح عليه السلام على التوحيد زمانًا.. ثم بدأ إبليس في الإفساد، ونشر الشرك بين العباد..

ولم يزل الله تعالى يبعث المرسلين مبشرين ومنذرين إلى أن بعث الله خاتم النبيّين محمدًا ﷺ، فسارت الأمة على التوحيد.. إلى أن عاد الشرك إلى بعضهم بسبب تعظيم الأولياء والصالحين.. بُنِيَت الأضرحة على قبورهم.. وصرف الدعاء والنذر لمقاماتهم.. وسمّوا هذا الشرك توسلاً بالصالحين.. وزعموا أن تعظيمهم لقبور هؤلاء يقرّبهم إلى الله زُلفى.. ونسوا أن هذه هي حجة المشركين الأوّلين حيث قالوا عن أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣].

نعم.. أبو جهل وأبو لهب كانا يعتقدان أن الله هو الإله الأعظم.. لكنهما أشركا معه آلهة أخرى.. ظنًّا أنها توصل إليه وتشفع بين يديه.

قصة..

روى البيهقي وغيره: أنه لما ظهر النبي ﷺ بدعوته بين الناس، حاول كفار قريش أن ينفروا الناس عنه.. فقالوا: ساحر كاهن مجنون.. لكنهم وجدوا أن أتباعه يزيدون ولا ينقصون.. فاجتمع رأيهم على أن يغروه بمال ودنيا.. فأرسلوا إليه حسين بن المنذر الخزاعي.. وكان من كبارهم..

دخل حصين على النبي ﷺ.. قال: يا محمد.. فرقت جماعتنا.. وشتتّ شملنا.. إن كنتَ تريدُ مالاً أعطيناك.. وإن أردت نساءً زوجناك.. وإن أردت مُلكًا ملّكناك.. ومضى في كلامه وإغرائه.. والنبي ﷺ ينصت إليه.. فلما انتهى من كلامه قال له: «أفرغت يا أبا عمران».. قال: نعم..

قال: «فأجبني عمّا أسألك يا أبا عمران.. كم إلهًا تعبد؟».

قال: أعبد سبعة.. ستة في الأرض وواحدًا في السماء!

فقال: «فإذا هلك المال مَن تدعو؟».

قال: أدعو الذي في السماء..

قال: «فإذا انقطع القطر مَن تدعو؟».

قال: أدعو الذي في السماء..

قال: «فإذا جاع العيال مَن تدعو؟».

قال: أدعو الذي في السماء..

قال: «فيستجيب لك وحده أم يستجيبون لك كلهم؟».

قال: لا.. بل يستجيب وحده..

فقال ﷺ: «يستجيب لك وحده، ويُنعم عليك وحده، وتشركهم معه في الشكر.. أم أنك تخاف أن يغلبوه عليك؟».. قال حصين: لا.. ما يقدرون عليه، هو أعظم منهم.

فقال ﷺ: «يا حصين.. أسلم أعلمك كلمات ينفعك الله بهن».. فقيل: إنه أسلم فعلّمه

النبيﷺ دعاءً يدعو به.. (أو كما جاء في الحديث)..

وفي «الصحيحين» وغيرهما: عن أبي هريرةرضي الله عنه أن النبيﷺ بعث خيلاً حول المدينة لينظروا خشية من أن يكون أحد من الكافرين قد أقبل إليهم.. فبينما هم يتجولون على دوابهم، فإذا برجل قد تقلد سلاحه ولبس إحرامه، وهو يلبّي قائلاً: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك،ويردد: إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.. ويردد قائلاً: إلا شريكًا هو لك.. تملكه ما ملك..

فأقبل الصحابة عليه، وسألوه: أين تريد؟ فأخبرهم أنه يريد مكة، فنظروا في حاله فإذا هو قد أقبل من ديار مسيلمة الكذاب الذي كان يدعي النبوّة، فخافوا أن يكون جاسوسًا أقبل من هناك.. فربطوه وأوثقوه وجاءوا به إلى المدينة ليراه النبيﷺ .. فلما رآهﷺ التفت إلى أصحابه وقال: «أتدرون مَن أسرتم؟».. ثم قال: «اربطوه في سارية من سواري المسجد وأكرموه».. ثم ذهبﷺ إلى بيته وجمع ما عنده من طعام وأرسل به إليه..

ربطوه في سارية من سواري المسجد.. فأقبل إليه النبيﷺ ثم قال: «ما عندك يا ثمامة؟».. قال: عندي خير يا محمد.. إن تقتلني تقتل ذا دم، أي: ينتقم لي قومي، وإن تُنعِم تنعم على شاكر.. وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت..

فتركه النبيﷺ ، فلما كان من الغد أقبل إليه.. قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلت لك.. إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.. فتركه النبيﷺ ومضى على ثمامة يوم كامل وهو يرى النبيﷺ يُحدّث أصحابه ويراه يجالسهم، ويراه يصلّي بهم.. ويسمع القرآن.. فلما مرّ به في اليوم الثالث قال لهﷺ : «ما عندك يا ثمامة؟».. فقال: عندي ما قلت لك..

فلما رأىﷺ أنه لا رغبة له في الإسلام وقد رأى صلاة المسلمين وسمع حديثهم ورأى كرمهم.. قالﷺ : «أطلقوا ثمامة».. فأطلقوه وأعطوه دابته وودعوه..

خرج ثمامة من المسجد.. فتفكر في دينه الذي هو عليه.. فإذا هو يعبد أحجارًا لا تضر ولا تنفع.. فذهب إلى ماء قريب من المسجد.. فاغتسل.. ثم دخل المسجد.. وأقبل إلى النبيﷺ ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله..

ثم قال: يا محمد.. والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك.. فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ.. والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك.. فأصبح دينك أحب الدين إليّ.. والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ..

ثم قال: يا رسول الله.. إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشّره النبي ﷺ بالخير، وأمره أن يكمل طريقه إلى مكة ويعتمر، فذهب إلى مكة يلبي.. لكنه كان يلبي بالتوحيد ويقول: «لبيك لا شريك لك.. لبيك لا شريك لك».. نعم أسلم.. فقال: لبيك لا شريك لك.. فلا قبر مع الله يُعبد.. ولا صنم يصلّى له ويسجد..

ثم دخل ثمامة رضي الله عنه إلى مكة.. فتسامع به سادات قريش فأقبلوا عليه.. فسمعوا تلبيته فإذا هو يقول: لبيك لا شريك لك.. لبيك لا شريك لك.. فقال له قائل: أصبأت؟ - يعني: أغيرت تدينك ودين آبائك - قال: لا.. ولكن أسلمت مع محمد ﷺ.. فهمّوا أن يؤذوه.. فصاح بهم وقال - وهو السيد -: والله لا تأتيكم من اليمامة حبّة حنطة أو شعير.. حتى يأذن فيها النبي ﷺ..

فانظر كيف كان يعظم الله، ويعظم غيره معه.. فصار بذاك الأمر مشركًا..

شرك القبوريين..

نعم.. كانوا يعظمون الله أكثر من تعظيمهم لهذه الآلهة..

فقل لي بربك: ما الفرق بين شرك أبي جهل وأبي لهب، وبين مَن يذبح اليوم عند قبر.. أو يسجد على أعتاب ضريح.. أو يذبح للضريح أو يطوف.. أو يقف عند مشهد الوليّ ذليلاً خاضعًا منكسرًا خاشعًا.. يلتمس من عظام باليات شفاء المريض، ورد المسافر..

عجبًا.. والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٤].

وهذا الشرك الذي يقع عند القبور؛ من ذبح لها وتقرب إلى أهلها، هو أعظم الذنوب.. نعم.. أعظم - والله - من الخمر والزنا.. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

نعم.. الله لا يغفر أن يُشرك به.. بينما قد يغفر الله للزناة.. ويعفو عن القتلة والجناة.. أما

الشرك فهو أعظم الذنوب.. ولا يغفره الله أبدًا.. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

والجنة حرام على المشركين.. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

ومن وقع في الشرك أفسد عليه هذا الشرك جميع عباداته.. نعم والله.. لا يصلح له صلاة، ولا يتمّ له صوم، ولا حج، ولا جهاد، ولا صدقة.. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

صور الشّرك..

والشرك له صور متعددة: منها ما يخرج من الملّة، ويخلّد صاحبه في النار إذا مات ولم يتب منه.. كدعاء غير الله، والتقرب بالذبائح والنذور لغير الله من القبور والجنّ.. والخوف من الموتى أو الجن والشياطين أن يضروه أو يمرضوه.. مثل أن يرجو العبد غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.. من قضاء الحاجات.. مما يمارس الآن حول الأضرحة والقبور..

القبور إنما تُزار لأجل الاتعاظ والدعاء للأموات.. كما قال ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»..

أما زيارة القبور لدعاء أهلها.. أو طلب الحاجات منهم؛ فهذا شرك أكبر.. ولا فرق بين كون المدعو المقبور نبيًّا أو وليًّا.. فكل هؤلاء بشرٌ لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا.. فقد قال الله تعالى لأحب خلقه إليه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨].. ويدخل في ذلك ما يفعله الجهّال عند قبر النبي ﷺ من دعائه والاستغاثة به، أو عند قبر الحسين، أو البدوي، أو الجيلاني، أو غيرهم..

أما زيارة القبور للصلاة عندها والقراءة؛ فهذه بدعة، وكثير من هذه القبور التي تعظم يكون لها خدم يظهرون التقى ويختلقون الأكاذيب، ويدعون إلى الشرك.. ومما يزيد الطين بلّة أنهم لم يكتفوا بتعظيم الأموات وإنما صرفوا الأموال في تزيين القبور والبناء عليها.. وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك.. بل قال لعلي رضي الله عنه: «لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا

مشرفًا إلا سوّيته»..

ونهى ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه.. وأن يبنى عليه.. أو أن يكتب عليه.. بل لعن النبي ﷺ المتخذين عليها ـ أي: على القبور ـ المساجد والسرج.. وقال ﷺ: «لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».. وهذا في قبور الأنبياء.. في قبره الشريف وفي كل قبر.. ولم يكن ذلك على عهد الصحابة والتابعين قطُّ..

نعم.. لم يكن على عهد الصحابة ولا على عهد التابعين أي بناء على قبر نبيّ ولا غيره، فما بالك بما أحدث في الأمة بعد ذلك!

ولكن ماذا يفعلون هناك؟ يقصد كثير من القبوريين، حاملين معهم الأغنام والأبقار وأنواع الأطعمة والأموال قربانًا لصاحب الضريح.. وقد يطوفون بالقبر ويتمرغون بترابه.. وتجد بعضهم يحلفون بالأولياء والمقبورين، بل أحيانًا لو حلف الحالف بالله ما قبلوا منه ولا صدقوه.. فإذا حلف باسم وليّ من أوليائهم قبلوه وصدقوه.. عجبًا!

ومنهم مَن يخلع نعاله احترامًا لصاحب الضريح.. ويتبرك بالضريح والقبة فيأخذ من ترابها.. أو يضع يديه على القبر، ويمسح على جسده.. بل ترى أحيانًا المرأة ترفع طفلها.. ثم تهزّه وهي تخاطب الشيخ المقبور راجية منه البركة في صغيرها..

وقد ترى مَن يسجد وهو مستقبل القبر.. ومنهم مَن يعتكف عند القبر أيامًا.. التماسًا لشفاء مرض أو قضاء حاجة كما يظهر أحيانًا على الزائر الخشوع والسكينة والتأثر والبكاء..

صار هؤلاء المقبورون آلهة من دون الله.. والله لا يرضى أن يعبد معه نبيّ ولا ملك.. فكيف إذا عبد معه غيرهم.. وهؤلاء المقبورون والله لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا نفعها فضلاً عن نفع غيرهم..

هدم الربَّة..

بل والله ما أقرب حال مَن يعظمونهم ويخافونهم.. من حال وفد ثقيف لما أسلموا فخافوا من صنم عندهم، وهو لا يضر ولا ينفع..

فإنه لما تمكن الإسلام في الناس.. بدأت القبائل ترسل وفودها لتعلن إسلامها بين يدي النبي ﷺ.. فأقبل بضعة عشر رجلاً من قبيلة ثقيف إلى النبي ﷺ.. أنزلهم المسجد ليسمعوا القرآن.. فلما أرادوا إعلان إسلامهم، نظر بعضهم إلى بعض فتذكروا صنمهم الذي يعبدون.. وكانوا يسمّونه الربّة..

فسألوا النبي ﷺ عن حكم الربا والزنا والخمر، فحرم عليهم ذلك كله.. فأطاعوه.. ثم قالوا: يا رسول الله.. والربّة ما أنت صانع بها؟

فقال ﷺ: «اهدموها»..

قالوا: هيهات! لو تعلم الربة أنك تريد أن تهدمها، قتلت أهلها ومَن حولها..

فقال عمر ـ وكان حاضرًا ـ: ويحكم يا ثقيف.. ما أجهلكم! إنما الربّة حجر.. لا يضر ولا ينفع..

فالتفتوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله.. تولّ أنت هدمها.. أما نحن فإنّا لا نهدمها أبدًا..

فقال ﷺ: «سأبعث إليكم مَن يكفيكم هدمها».. فاستأذنوه أن يرجعوا إلى قومهم.. دعوا قومهم إلى الإسلام فأسلموا.. ومكثوا أيامًا وفي قلوبهم وجل من الصنم.. فقدم عليهم خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة في نفر من الصحابة رضي الله عنهم.. أول ما دخلوا ديار ثقيف أقبلوا إلى ذلك الصنم.. الربّة.. فإذا الرجال والنساء والصبيان قد اجتمعوا حولها وهم يرتجفون.. وقد أيقنوا أنها لن تتهدم.. بل أيقنوا أنها سوف تقتل مَن يمسّها.. فأقبل إليها المغيرة بن شعبة.. ثم أخذ الفأس.. والتفت إلى أصحابه؛ خالد بن الوليد وبقية الصحابة، وقال: ألا أضحككم من هؤلاء ـ يعني: الذين قد اجتمعوا من حولها ـ يريد أن يعمل أمامهم حيلة.. قالوا: نعم، فأقبل إليهم ثم ضربها بالفأس.. ثم رمى الفأس من يده وسقط يرفض برجله.. فصاح الناس الذين حولها وقالوا: قتله الصنم.. قتله الصنم.. ثم التفتوا إلى خالد بن الوليد ومَن معه.. وقالوا: الآن مَن شاء منكم فليقترب من الربّة ليموت كما مات صاحبكم..

لما رأى المغيرة فرحتهم بنصرة صنمهم قام وقال: يا معشر ثقيف.. والله ما هي إلا حيلة عليكم.. إنما الربّة حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه.. ثم قام وضربها حتى كسرها.. ثم علا الصحابة فوقها فهدموها حجرًا حجرًا..

نشأة الشرك

لو تأملت كيف نشأ الشرك على الأرض، لوجدت أنه الغلو في الصالحين ورفعهم فوق منزلتهم.. ففي قوم نوح كان الناس موحدين، يعبدون الله وحده لا شريك له.. ولم يكن شرك على وجه الأرض قط.. لكنهم كان فيهم خمسة رجال صالحين، هم: «ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر» فلما مات هؤلاء الصالحون حزن عليهم قومهم.. وقالوا: ذهب الذين كانوا يذكروننا العبادة، ويأمروننا بطاعة الله.. فوسوس الشيطان لهم قائلاً: لو صوّرتم صورهم على شكل تماثيل، ونصبتموها عند مساجدكم، فإذا رأيتموهم ذكرتم العبادة فنشطتم لها.. فأطاعوا الشيطان.. فاتخذوا الأصنام رموزًا، فقط مجرد رموز لأجل أن تذكّرهم بالعبادة والصلاح..!

فكانوا فعلاً يرون هذه الأصنام فيتذكرون العبادة.. ومضت عليهم السنون، وذهب هذا الجيل، ونشأ أولادهم من بعدهم.. وكبروا وهم يرون آباءهم يثنون على هذه التماثيل والأصنام، ويعظمونها لأنها تذكرهم بالصالحين..

ثم نشأ قوم من بعدهم.. فقال لهم إبليس: إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونها.. وكانوا إذا أصابهم قحط أو امتنع عنهم القطر أو نزلت بهم حاجة لجئوا إليها فدعوها، فاعبدوها حتى تنعم عليكم كما كانت تنعم عليهم.. فعبدوها.. حتى بعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.. فما آمن معه إلا قليل.. فغضب الله على الكافرين، فأهلكهم بالطوفان.. نعم.. هذا ما حدث في قوم نوح عليه السلام..

سبيل الشرك..

واليوم نأتي إلى القبوريين فنسأل: كيف تبدأ علاقاتهم بالضريح؟ وكيف تنتهي بهم إلى الشرك..؟

تبدأ العلاقة بتقديس الأشخاص ذوي الصلاح والتقوى.. ومن ثم تستحب زيارة تلك البقاع، ليس لتذكر الموت والآخرة، بل لتذكر الشيخ الصالح ودعاء الله عنده رجاء الإجابة.. ثم لمس القبر والتمسح به.. واتخاذه واسطة ووسيلة للشفاعة عند الله.. ويزعمون أن

صاحب الضريح له جاه عند الله.. بينما صاحب الحاجة متلطخ بالذنوب.. لا يصلح أن يدعو الله مباشرة.. فلا بد أن يجعل صاحب القبر واسطة بينه وبين الله!

ثم يقذف الشيطان في قلوب الزائرين، يقول لهم: ما دام هذا المقبور مكرمًا فقد يعطيه الله تصرفًا وقدرة.. فيبدأ الزائر المسكين يعظم المقبور في نفسه.. ويهابه ويرجوه.. ثم بعد ذلك يدعوه، ثم يبني عليه مسجدًا، أو قبة، أو ضريحًا.. ثم ينسجون حوله الكرامات والقصص والحكايات.. فهذه امرأة دعته فرزقت زوجًا.. والثانية أنجبت ولدًا.. هكذا.

وبعضهم يردد قائلاً: مَن زار الأعتاب ما خاب..

أي: مَن زار الأضرحة والأعتاب المقدسة.. قضيت حاجته ونال مراده.. بل سئل أحد التجار: لماذا تقسم للزبائن بضريح الشيخ ولا تقسم بالله؟ فقال: إنهم لا يصدقونني إذا أقسمت باسم الله! ولا يرضون إلا أن أقسم بضريح سيدنا فلان!

أعوذ بالله.. انظر كيف صار تعظيمهم للضريح أكبر من تعظيمهم لله!

ربّ من حجر! وما أقرب حال هؤلاء بما حكاه أبو رجاء العطاردي رضي الله عنه لما قال:

كنا في الجاهلية نعبد الأصنام، والأحجار والأشجار.. فكان أحدنا يعبد حجرًا.. فإذا رأى حجرًا آخر أحسن منه ألقى حجره وعبد الآخر.. فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا حوله..

قال: فخرجنا مرة في سفر.. ومعنا إلهنا الذي نعبد.. وهو حجر.. قد جعلناه معنا في كيس.. فكنا إذا أشعلنا نارًا لطعام فلم نجد حجرًا ثالثًا للقدر.. وضعنا إلهنا.. وقلنا: هو أدفأ له إذا اقترب من النار.. قال: فنزلنا منزلاً يومًا وأخرجنا الحجر من كيسنا.. فلما ارتحلنا صاح صائح من قومي فقال: ألا إن ربكم قد ضلّ فالتمسوه.. يعني الحجر الذي تعبدون ضاع! ابحثوا عنه!

قال: فركبنا كل بعير صعب وذلول نبحث عن ربنا..

فبينما نحن نبحث إذ سمعت صائحًا آخر من قومي يقول: ألا إني قد وجدت ربكم، أو ربًّا يشبهه! فرجعت إلى موضع رحالنا، فرأيت قومي ساجدين عند صنم، فأتينا فنحرنا عنده الإبل..

سُبْحَنَهُۥ وَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ليونس:١٨﴾

ونقول لهم أيضًا: نحن قوم معكم بأن الله تعالى أعطى الأنبياء والأولياء الشفاعة، وهم أقرب الناس إليه.. لكن ربنا نهانا عن سؤالهم ودعائهم..

نعم الأنبياء والأولياء والشهداء لهم شفاعة عند الله.. ولكنها ليست بأيديهم فيشفعوا لمن شاءوا ويتركوا من شاءوا.. كلا.. بل لا يشفعون إلا بعد أن يأذن الله لهم، ويرضى عن المشفوع..

فأقول للمتعلقين بالمقبورين: يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به.. الله عليكم هل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يتوسلون بضريح ومقام؟ ويغفلون عن الملك العلام؟ وهل تعلمون أن واحدًا منهم وقف عند قبر النبي ﷺ أو وقف عند قبر أحد من أصحابه أو من آل بيته.. يسأله حاجة من الحاجات.. أو تفريج كربة من الكربات؟

التوسّل المشروع..

وانظر إلى الصحابة رضي الله عنهم في عهد عمر رضي الله عنه في المدينة النبوية.. لما انقطع المطر وشكوا ذلك إلى عمر بن الخطاب.. خرج بهم ثم صلى صلاة الاستسقاء، ثم رفع يديه إلى الله داعيًا مبتهلاً باكيًا.. وقال: اللهم إنا كُنّا إذا أجدبنا توسلنا بدعاء نبينا لنا فأسقيتنا.. اللهم وإنا نتوسل إليه بدعاء عم نبيك ﷺ.. ثم التفت إلى العباس رضي الله عنه وقال: قم يا عباس فادع الله أن يسقينا.. فقام العباس رضي الله عنه ودعا الله تعالى.. وأمَّن الناس على دعائه وبكوا وابتهلوا حتى اجتمع فوقهم السحاب وأمطروا..

فانظر إلى الصحابة الكرام.. وهم أكثر منا فقهًا.. وأعظم محبة للنبي ﷺ لما نزلت بهم الكربات.. ما ذهبوا إلى قبر نبيهم ﷺ.. بل ما قالوا: يا رسول الله اشفع لنا عند الله.. كلا.. فهم يعلمون أن دعاء الميت لا يجوز وإن كان نبيًا مرسلاً..

فآه ثم آه لمساكين اليوم.. يزدحمون على عظام ورفات.. يلتمسون منها المغفرة والرحمات..

يا قومنا.. ويحكم هل تعلمون أن النبي ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثًا ولعبًا أم أنه خاف أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى بعبادة الصور والتماثيل..

وأي فرق بين مَن يعظّم الصور والتماثيل، و بين من يعظم الأضرحة والقبور.. فهذه صور من صور الشرك..

من وسائل الشرك..

ومن وسائل الشرك الحلف بغير الله.. فلا يجوز الحلف بالكعبة،ولا بالأمانة، ولا بالشرف، ولا بحياة فلان، ولا بجاه النبي، ولا بجاه الولي.. كلّ ذلك حرام؛ لأن الحلف تعظيم لا يصح إلا لله..

وقد روى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: «مَن حلف بغير الله فقد أشرك»، وقال ﷺ: «مَن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»..

فإذا حلف المرء بغير الله، وهو يعتقد أن عظمة المحلوف به كعظمة الله فهو شرك أكبر.. وإن اعتقد أن المحلوف به أقل من الله فهو شرك أصغر..

ومن حلف بغير الله ناسيًا فكفارته أن يقول بعد حلفه مباشرة: لا إله إلا الله، كما روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «من حلف فقال في حلفه باللات والعزى.. فليقل: لا إله إلا الله».

ومن كان الحلف بغير الله يجري على لسانه، فيجب أن يجاهد نفسه على تركه.. وكذلك أو: لولا الله وفلان.. أو يقول: ما لي إلا الله وأنت.. أو يقول: هذا من بركات الله وبركاتك..

والصواب أن يقول: ما شاء الله ثم فلان، ولولا الله ثم فلان.. ونحو ذلك.

ومن وسائل الشرك: تعليق التمائم والحروز والأوراق والحجب، خوفًا من العين وغيرها.. فإذا اعتقد أن هذه مجرد أسباب وطرق لرفع البلاء أو دفعه، فهذا شرك أصغر.. أما إن اعتقد أنها تتحكم وتدفع البلاء بنفسها، فهذا شرك أكبر لأنه تعلق بغير الله..وجعل لغير الله تصرفًا في الكون مع الله..

والتمائم نوعان:

الأول من القرآن؛ كمن يعلق قماشًا وجلدًا، أو قطعة ذهب، أو غيرها.. قد كتب عليها آيات من القرآن.. وهذه لا تجوز..

أولاً؛ لأنها لم ترد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فعلها أو أذن بفعلها، ولأنها قد تجر إلى تعليق غيرها.. ما كتب فيه غير القرآن..

والنوع الثاني من التمائم من غير القرآن؛ كمن يعلق قماشًا أو جلدًا، أو يعلق غير ذلك، وقد كتب عليه أسماء الجن، أو رموز السحرة.. وهذا من وسائل الشرك عياذًا بالله..

قال ابن مسعود ﷺ: مَن قطع تميمة من إنسان فكأنه أعتق رقبة..

بل رأى النبي ﷺ رجلاً قد علّق في يده حلقة من صفر ـ يعني: من حديد ـ فقال ﷺ له: «ما هذا؟» فقال الرجل: هي من الواهنة ـ أي: علقتها اتقاءً للأمراض ـ فقال ﷺ: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا ـ أي: مرضًا ـ لو متّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا»..

ومن الشرك ادعاء علم الغيب.. فلا يعلم الغيب إلا الله وحده لا شريك له.. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

فلا يمكن لأحد أبدًا أن يعلم الغيب.. لا ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل.. لا يعلم الغيب إلا الله.. إلا أن يكون رسولاً يوحي الله إليه بشيء من المغيبات.. كما أخبر الله نبيَّه ﷺ بمكائد الكفار له، وشيء من أشراط الساعة، ونحو ذلك..

فمن ادعى علم الغيب بأي وسيلة من الوسائل كقراءة الكف أو الفنجان أو النظر في النجوم أو الكهانة أو السحر؛ فهو كاذب كافر..

ومما يحصل من المشعوذين والدجالين من الإخبار بالمفقودات أو الغائبات أو الإخبار عن أسباب بعض الأمراض، إنما يحصل باستخدام الجن والشياطين.. فلا تظنّ أن عندهم قدرة فائقة على كشف الغيب.. بل أحيانًا قد يذهب ـ عياذًا بالله ـ بعض ضعاف الإيمان إلى المنجمين فيسألونهم عن مستقبلهم وعن زواجهم.. وهذا حرام.. ومن ادعى علم الغيب أو صدق مَن يدعيه فهو كافر..

ومن ذلك اللجوء إلى أبراج الحظّ في الجرائد والمجلات.. أو الاتصال هاتفيًا على بعض مَن يدعي معرفة الغيب، أو سؤالهم.. كل ذلك حرام..

ومن وسائل الشرك: السحر والكهانة والعرافة.. وهو من أعظم الذنوب.. قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات».. قالوا: وما هي يا رسول الله؟. قال: «الإشراك بالله والسحر..».

السحر فيه استخدام الشياطين والتقرب إليهم بما يحبونه، ليقوموا بخدمة الساحر.. وفيه ادعاء علم الغيب.. وهذا كفر وضلال.. لذا قال تعالى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه:٦٩].. وحكم الساحر القتل، كما فعل جماعة من الصحابة ﷺ.

ومع الأسف.. اليوم تساهل الناس بالسحر.. بل صار فنًّا من الفنون.. بل يقيمون للسحرة الحفلات والمسابقات ويحضرها آلاف المتفرجين والمشجعين.. وهذا من التهاون بالعقيدة..

حد الساحر..

وما أجمل أن يصنع الساحر ما صنعه أبو ذر الغفاري ﷺ.. أبو ذر دخل يومًا على أحد الخلفاء، فرأى بين يديه ساحرًا يلعب بسيف في يده.. ويخيل للناس أنه يقبل على الرجل فيقطع رأسه ثم يعيده..

فجاء أبو ذر من اليوم التالي، وقد لبس رداءه، وخبأ معه سيفًا، ثم دخل على الخليفة، فلما بدأ ذلك الساحر يلعب بالسيف ويسحر أمام الناس.. والناس في عجب وإعجاب.. اقترب منه أبو ذر.. أخرج سيفه فجأة ورفعه ثم هوى به على رقبة هذا الساحر، فأطار رأسه فسقط الساحر صريعًا، ثم التفت إليه أبو ذر وقال: أحيي نفسك.. أحيي نفسك إن كنت تستطيع.. ثم قال أبو ذر: سمعت النبي ﷺ يقول: «حد الساحر ضربة بالسيف».. وقد قال ﷺ: «مَن أتى كاهنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»..

تنبّـــه..

ومما يجب التنبه له: أن السحرة والكهّان والعرافين يظهرون أحيانًا بمظهر الصالحين، ويأمرون المرضى بالذبح لغير الله.. بأن يذبحوا خروفًا صفته كذا أو كذا.. أو يذبحون دجاجة..

وأحيانًا يكتبون لهم الطلاسم الشركية، والتعاويذ الشيطانية، بصفة حروز يعلقونها في رقابهم، أو يضعونها في بيوتهم، وبعضهم يظهر بمظهر الولي الذي له خوارق وكرامات.. كأن يضرب نفسه بالسلاح أو يضع نفسه تحت عجلات السيارة ولا تؤثر فيه.. إلى غير ذلك من الشعوذات التي هي في حقيقتها سحر من عمل الشيطان.. يجريه الشيطان

على أيديهم.. وشياطينهم تفرّ عند ذكر الله..

كيد الشيطان ضعيف..

كما ذكر أحدهم أنه سافر يومًا إلى إحدى الدول.. ودخل أحد مسارحها.. ثم أخذ ينظر إلى ما يسمّى بـ(السيرك).. قال: وبينما نحن ننظر إلى الألعاب المتنوعة فإذا امرأة تأتي ثم تمشي على حبل بقدرة عجيبة، ثم قفزت فجأة على الجدار، ومشت عليه كما تمشي البعوضة.. والناس قد أخذ منهم العجب منها كلّ مأخذ.. فقلت في نفسي: لا يمكن أن يكون ما تفعله حركات بهلوانية تدربت عليها.. ثم قال: قلت في نفسي: صحيح أنا عاصٍ لكني موحد لا أرضى بمثل هذا.. فتحيرت ماذا أفعل..

فتذكرت أني حضرت خطبة جمعة عن السحر والسحرة، وكان مما ذكر الخطيب أن السحرة يستعلمون الشياطين، وأن الشياطين يبطل كيدها وتفنى قوتها إذا ذُكر الله.. قال: فقمت من على كرسيي ومضيت أمشي متجهًا إلى خشبة المسرح، والناس يصفقون معجبين.. ويظنوني لفرط إعجابي أقترب من الساحرة.. فلما وصلت إلى المسرح وصرت قريبًا من هذه الساحرة، وجّهت نظري إليها ثم قرأت آية الكرسي.. فما كدت أتم قراءة آية الكرسي حتى بدأت المرأة تضطرب، وتضطرب.. فوالله ما ختمت الآية إلا وقعت على الأرض، وأخذت تنتفض.. وقام الناس وفزعوا وحملوها إلى المستشفى..

وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، وقال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤].

ومن وسائل الشرك: تعظيم التماثيل والنُصُب التذكارية والتماثيل - جمع تمثال - وهو الصورة المجسمة على شكل إنسان أو حيوان.. والنُصُب التذكارية تماثيل يقيمونها على صور الزعماء والعظماء.. وينصبونها في الميادين والحدائق ونحوها.. وما وقع الشرك في الأرض إلا بسبب هذه التماثيل.. أما ترى قوم نوح عليه السلام لما صنعوا تماثيل لرجال منهم.. لم يمض عليهم زمن حتى عبدوهم من دون الله.. لذا نهى ﷺ عن التماثيل والصور.. لأنه وسيلة من وسائل الشرك..

بل لعن ﷺ المصورين.. وأخبر أنهم أشد عذابًا يوم القيامة.. وأمر بطمس الصور وأخبر

أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة..

ومن وسائل الشرك: التوسل البدعي.. كالتوسل بجاه النبي ﷺ، أو بذوات المخلوقين أو حقهم.. فلا يجوز أن يقول في دعائه: اللهم إني أسألك بجاه نبيّك.. أو بحق فلان.. أو بروح الميت فلان.. كل هذا لا يجوز..

أما التوسل الجائز: فهو التوسل إلى الله بأسمائه و صفاته.. فيقول: يا رحيم ارحمني.. يا غفور اغفر لي.. وكذلك التوسل إلى الله بالإيمان والأعمال الصالحات.. كأن يقول: اللهم بإيماني بك وتصديقي لرسلك أدخلني جنتك..

وكذلك التوسل إلى الله بدعاء الصالحين الأحياء.. كأن يطلب من عبد صالح حيّ أن يدعو الله له.. فإن دعاء المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب مستجاب.. أما طلب الدعاء من صالح ميت في قبره فلا يجوز.. فكل ما سبق هو من حقوق الله على عباده.. لا يجوز صرفه لغير الله تعالى أبدًا..

عقيدتنا..

ومن الإيمان بالله أيضًا: اعتقاد أن الله رب كل شيء، وأنه المستحق للعبادة، وله الأسماء الحسنى والصفات العُلى.. كما قال جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

واعتقاده أنه جل وعلا يتكلم متى شاء، بما شاء، كيف شاء.. وأنه عالٍ على خلقه بذاته وصفاته، مستوٍ على عرشه.. يعلم أحوال خلقه.. ويسمع أقوالهم ويرى أفعالهم.. ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة.. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣].

وكذلك الإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب.. فالقرآن أنزله الله تعالى على محمد ﷺ، والتوراة أُنزلت على موسى، والإنجيل أُنزل على عيسى، والزبور أُنزل على داود عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام.. وكل هذه الكتب كلام الله تعالى..

وكذلك الإيمان بالأنبياء عليهم السلام.. وهم كثير.. منهم مَن أخبرنا الله تعالى باسمه، ومنهم مَن لم يخبرنا الله به.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم

مَن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر:٧٨].

وكذلك الإيمان باليوم الآخر.. فنؤمن أولاً بعذاب القبر ونعيمه، وهو ثابت بالكتاب والسنة.. قال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥، ٤٦]..

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة:١٠١]..

قال ابن مسعود رضي الله عنه: العذاب الأول في الدنيا، والثاني عذاب في القبر.. ثم يُردّون إلى عذاب عظيم في النار..

أما الأحاديث في إثبات عذاب القبر ونعيمه فهي كثيرة.. بل قد صرح ابن القيم وغيره أنها متواترة.. وفي السنة أكثر من خمسين حديثًا في ذلك.. منها ما في «الصحيحين» أنه صلى الله عليه وسلم مرّ بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة».. ومنها ما في «الصحيحين» أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر».

ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بالبعث وإحياء الموتى، حين ينفخ في الصور فيقومون حفاة عراة غرلاً ـ أي: غير مختونين ـ كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦].

والإيمان بالحساب والجزاء والجنة والنار واجب.. وكذلك نؤمن بأشراط الساعة.. الصغرى والكبرى.. كخروج الدجّال.. ونزول عيسى عليه السلام من السماء.. وطلوع الشمس من مغربها.. وخروج دابة الأرض من موضعها..إلى غير ذلك. وكذلك نؤمن بالشفاعة، والحوض، والميزان، ورؤية الله تعالى، وغير ذلك من أمور الآخرة..

ومن الإيمان أيضًا: الإيمان بالقَدَر خيره وشرّه.. وأنه مقدور ومكتوب من الله تعالى.

قوادح الإيمان..

ومما يقدح في الإيمان: الاستهزاء بالدين.. فهو ردة عن الإسلام.. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ومثل هذا ما يقوله بعض المتفيهقين: إن الإسلام دين قديم لا يصلح لعصرنا.. أو إنه تأخُّر ورجعية.. أو يقولون: إن القوانين الوضعية أحسن من الإسلام.. وهذا كلّه ردة عن الإسلام..

ومن أكبر القوادح في الإيمان: الحكم بغير ما أنزل الله.. فمن مقتضى الإيمان بالله الحكم بشرعه.. في الأقوال والأفعال.. والخصومات والأموال.. وفي سائر الحقوق.. قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].. فلا بد من الحكم بما أنزل الله في كل شيء.. في البيع والشراء.. والسرقة والزنا.. وفي غيرها.. وليس في أحكام الطلاق والزواج والأحوال الشخصية فقط..

بل من شرع قوانين للناس وزعم أن هذه القوانين أنسب وأفضل من حكم الله فهو كافر.. قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]..

وفي «الصحيح»: أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، قال عدي بن حاتم رضي الله عنه لما قرأها: يا رسول الله.. لسنا نعبدهم.. فقال ﷺ: «أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه.. ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟» قال: بلى.. فقال ﷺ: «فتلك عبادتهم».

ومن القوادح في الإيمان: موالاة الكفار، أو معاداة المؤمنين.. ولا شك أنه يجب على المسلمين أن يحذروا موادة الكافرين.. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المتحنة:١]، بل الآيات كلها تدل على كفرهم بالله، وعلى كيدهم للإسلام وأهله..

ومن صور موالاة بعض المسلمين للكافرين اليوم:

مخالطتهم، وموادتهم من غير قصد الدعوة.. أو مساكنتهم في بلادهم.. أو السفر إليهم من غير ضرورة.. أو التشبه بهم في اللباس أو المظهر، أو طريقة الحياة.. أو التكلم بلغتهم من غير حاجة..

ومن أكبر القوادح في الإيمان: تنقص أصحاب النبي ﷺ أو سبّهم.. أو تنقص أهل بيته الكرام.. فنحب أصحاب النبي ﷺ ولا نغلو في حب أحد منهم.. لا في عليّ رضي الله عنه ولا في

غيره.. ولا نتبرأ من أحد منهم.. بل نبغض مَن يبغضهم ولا نذكرهم إلا بخير..

ومذهب أهل السنة والجماعة فيما حدث بينهم من خلافات أو حروب؛ الإمساك والسكوت عن ذلك كلّه.. فهم بشر يخطئون ويصيبون.. وكما عصم الله سيوفنا عن الدخول في تلك الفتن، ألا فلنعصم منها ألسنتنا.. ونقول: هم بشر، لهم ربّ يجمعهم يوم القيامة ويحكم بينهم..

ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر.. تفضيلاً له وتقديمًا على جميع الأمة.. ثم لعمر.. ثم لعثمان.. ثم لعليّ رضي الله عنهم..

ومن القوادح في الإيمان: ما استحدثه بعض المسلمين من بدع يزعمون أنها تقربهم إلى الله.. كالاحتفال بمولد النبي.. أو لاحتفال بمولد غيره من الأولياء والصالحين.. وهذا كله من البدع التي لم يفعلها النبي ﷺ ولا الصحابة الكرام..

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» أي: مردود عليه.. وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]..

نعم أكمل الله لنا الدين.. ولو كان الاحتفال بالموالد من الدين الذي يرضاه الله لبيّنه الرسول ﷺ للأمّة.. بل قد صرح العلماء بإنكار الموالد.. خاصة إذا وقع فيها غلو في الرسول ﷺ.. أو اختلاط النساء بالرجال.. أو استعمال لآلات الملاهي.. بل قد يقع فيها الشرك الأكبر بدعاء الرسول ﷺ من دون الله.. والاستغاثة به.. وطلبه المدد.. واعتقاد أنه يعلم الغيب.. ونحو ذلك من الأمور الكفرية.. كما يردد بعضهم قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي مَن ألوذ به ... سواك عند حدوث الحادث العمم

إن لم تكن آخذًا يوم المعاد يدي ... صفحًا وإلا فقل يا زلّة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ومثل هذه الأوصاف من علم الغيب، والمغفرة يوم القيامة، والتحكم في الدنيا والآخرة.. لا تصح إلا لمن بيده ملكوت السموات والأرض جل جلاله.. وهذه تقع كثيرًا في الاحتفال بمولد النبي ﷺ، أو مولد غيره من الأولياء..

فإن قيل: إن هذه الموالد يذكر فيها الرسول.. وتقرأ سيرته..

قلنا: هذا كلام حسن.. ولكن يمكن أن يذكر الرسول ﷺ وسيرته من غير تحديد موعد معين كل سنة.. فيذكر على المنابر أو في المحاضرات، أو في المجالس العامة وغيرها..

وقد قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]. فبحثنا في القرآن.. فلم نجد أن الله أمرنا بالموالد.. بل يخبر أن الدين كامل.. وبحثنا في السنّة فلم نجد فيها أنه ﷺ فعله.. ولا أمر به ولا فعله أصحابه..

ولا ينبغي للعاقل أن يغترّ بكثرة مَن يفعله من الناس.. قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

ومن العجائب: أن بعض الناس يجتهد في حضور الاحتفالات المبتدعة.. ويتخلف عن الجمع والجماعات.. وبعضهم يظن أن النبي ﷺ يحضر المولد.. ولذا يقومون مرحبين.. ونعلم جميعًا أنه لا يتم إيمان عبدٍ حتى يحب الرسول ﷺ وحتى يعظمه.. ومن تعظيمه وتوقيره اتخاذه إمامًا متبوعًا.. فلا نتجاوز ما شرعه من العبادات..

ومن البدع الظاهرة: الاحتفال بليلة (٢٧ من رمضان).. فقد قال ﷺ: «مَن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.. ومَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه».. نعم.. ولم يأمرنا في شيء من ذلك بالاحتفال..

ومن البدع أيضًا: الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج.. مع أن الليلة التي حصل فيها الإسراء والمعراج لم يأت في الأحاديث الصحيحة تعيينها.. لا في (رجب) ولا غيره..

ولو ثبت تعيينها لم يجز تخصيصها بشيء من عبادة أو احتفال.. لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يحتفلوا بها.. ولم يخصوها بشيء.. والنبي ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة.. فلو كان تعظيم هذه الليلة والاحتفال بها من دين الله لبيّنه لنا..

ومن البدع: الاحتفال بليلة النصف من شعبان.. وتخصيص يومها للصيام.. وليس على ذلك دليل يجوز الاعتماد عليه.. قال زيد بن أسلم: ما أدركنا أحدًا مِن مشيختنا ولا فقهائنا يلتفتون إلى النصف من شعبان..

أكبر المعاصي..

وأخيرًا.. فإن الجريمة الكبرى والداهية العظمى أن يترك المرء الصلاة.. وقد قال ﷺ فيما رواه مسلم: «بين الرجل وبين الكفر أو الشرك ترك الصلاة».. وقد صحّ عند الترمذي عن عبدالله بن شقيق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة..

ومن أكبر المعاصي منع الزكاة.. فهي الركن الثالث من أركان الإسلام.. روى البخاري أنه ﷺ قال: «مَن آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني: بشدقيه عند فمه ـ ثم يقول: أنا مالك.. أنا كنزك..»، ثم تلا النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠]..

وختامًا.. أقول لجميع المسلمين والمسلمات: ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١].. والله إني لكم ناصح.. والحق قد تبين.. والدين واحد لا يتعدد.. فالله فردٌ صمد.. لا يرضى أن يشرك معه أحد.. ولا تكن من أولئك الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]..

بل قل: إنا موحدون طائعون متّبعون.. ولا تغتر بكثرة مَن يذبح عند القبور.. أو يشرك بالله عندها.. ولا تأخذك كثرة الأحاجي والقصص التي ينسجها هؤلاء عن مقبوريهم..

وانظر إلى أبي طالب عمّ النبي ﷺ.. كان ينصر النبي ﷺ ويحميه.. ومع ذلك لما مات كافرًا قال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» أنزل الله قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]..

بل انظر إلى محطم الأصنام.. وباني البيت الحرام.. إبراهيم عليه السلام.. الذي ابتُلي في مولاه.. وعذّب في سبيل الله.. لا يستطيع يوم القيامة أن ينفع أباه.. لأن أباه مات مشركًا بالله..

فتنبّه لهذا كله وتذكر: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤ - ٣٧].. وتذكر: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]..

وكُن رجّاعًا إلى الحق.. ناصحًا لغيرك.. داعيًا إلى التوحيد.. أسأل الله تعالى للجميع الهُدى والرشاد.. الله تعالى أجلّ وأكرم، وأعلم.. وصلى الله وبارك على رسول الله..



قصة السجين

الحمد لله الذي أنشأ خلقه وبرأ وقسّم أحوال عباده غِنًى وفقرًا، وأنزل الماء وشق أسباب الثرى..

أحمده سبحانه؛ الذي أجرى على الطائعين أجرًا، وأسبل على العاصين سترًا.. وهو سبحانه الذي يعلم ما فوق السماء وما تحت الثرى، ولا يغيب عن علمه دبيب النمل في الليل إذا سرى.. سبحت له السموات وأملاكها، وسبحت له النجوم وأفلاكها، وسبحت له الأنهار وأسماكها، وسبحت له الأرض وسكانها، وسبحت له البحار وحيتانها.. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيّه وخليله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه، أرسله رحمة للعالمين، وحجة على الناس أجمعين، فصلوات الله عليه، ما ذكره الذاكرون الأبرار، وصلوات الله وسلامه عليه ما تعاقب الليل والنهار، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من صالح أمته وأن يحشرنا يوم القيامة في زمرته..

أما بعد.. أيها الإخوة والأخوات..

إن الله جل وعلا قد ذكر في كتابه عبرًا، وحكى علينا من أخبار السابقين قصصًا، وأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يحكي لنا شيئًا من هذه الأخبار ويقصّ علينا من تلك الآثار.. من ذلك أن الله جل وعلا قصّ في كتابه قصة يوسف عليه السلام، ثم قال في آخر القصة: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ [يوسف:١١١]، ومَن أصدق من الله قيلًا! نعم ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾، ولما جعل النبي ﷺ ينظر في كتاب الله وينظر في قصص الأولين كان مما تلي من كتاب الله جل وعلا قول الله تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠]، وفي الآية الأخرى قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩].

عندما جعل النبي ﷺ يقص لأصحابه ما يثبّت به أفئدتهم على الخير.. فكما تُلي في القرآن قصة نوح عليه السلام، جعل يقص شيئًا من ذلك لأصحابه.. وكما تُلي في القرآن قصة لوط وشعيب وغيرهما من الأنبياء، جعل النبي ﷺ يقص من مثل هذه الأخبار على أصحابه..

وأنت إذا نظرت في التاريخ وجدت أن فيه من العبر ما يتجاذبك من كل ناحية.. وأيضًا إذا نظرت في التاريخ النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام تتعجب عن ماذا تتحدث؟ هل تتحدث عن عبادته ﷺ، أم تتحدث عن قيامه لليل، أم صيامه للنهار، أم تتحدث عن حرصه على تعليم الناس وعلى دعوتهم وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. تتجاذبك أبواب الفضائل والبطولة من كل ناحية فلا تدري والله ماذا تختار منها..

لذا أحببت أن أقف معكم على باب من هذه الأبواب التي كان النبي ﷺ يحرص على حفظه ويحرص أصحابه على حفظه، بل كان الرجل يسأل النبي ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس إلى النار، فيشير له ﷺ إلى هذا الشيء الذي سنتحدث عنه..

هذا الشيء الذي ستتذاكر شيئًا من حال النبي ﷺ وحال أصحابه معه، هو شيء صغير في حجمه، لكنه كبير في جُرمه.. ألا وهو اللسان..

أيها الأحبة الكرام.. خلق الله تعالى الإنسان ووهب له نِعَمًا كثيرة متنوعة، وقسّم الله تعالى هذه النعم بين الناس، فمن الناس مَن آتاه الله مالاً، ولم يؤته صحّة، فتجده مقعدًا على سرير أبيض مع أنه يملك الملايين..

ومنهم مَن آتاه الله تعالى صحة وقوّة في بدنه، لكنه لم يؤته مالاً، فتجده يشتغل حمالاً في سوق أو عاملاً في منجم.. ومن الناس مَن آتاه الله تعالى صحة، ووسع عليه في المال، لكنه أخذ منه العقل، فتراه محبوسًا في غرفة في مستشفى المجانين.. ومن الناس من أخذ الله تعالى سمعه.. فتجده يتلفت بين الناس بعينيه، ويشير لهم بيديه، فلا هو يفهمهم ولا هم يكادون يفهمونه..

ومنهم مَن أخذ الله تعالى بصره، ومنهم من أبكم لسانه.. وقد قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢].

اسأل: ما حملك على هذا؟!

حدثني أحد الإخوة أنه وقف مرة عند إشارة مرور، قال: فسمعت صوت غناء بصوت عالٍ جدًّا حتى أزعجني وأزعج الناس الذين حوله، فالتفت يمينًا ويسارًا أبحث عن مصدره، فإذا بسيارة بجانبي قد فتح صاحبها جميع نوافذها، وشغل المسجل على صوت عالٍ يصدح بالغناء.. وإذا بأصحاب السيارات الذين من حوله كلهم يلتفتون إليه ويتعجبون من رفعه الغناء لهذا الحد..

قال: فضربت على منبّه السيارة مرارًا لأجل أن يتلفت إليّ، ولأجل أن أنبهه إلى أن يخفض من صوت هذا المسجل، أو أن يطفئه، أو يشغل ما هو خير منه.. القرآن.. لكن الرجل لم يلتفت إليّ قط مع كثرة تنبيهي له بسيارتي..

فتقدمت بالسيارة قليلاً من أجل أن أشير له بيدي، فلما التفتّ إليه أنظر، فإذا هو شاب قد أسدل غترته على يمينه ويسره، وإذا له لحية كثة تصل إلى صدره.. قال: فتعجبت.. شاب بهذه الصورة، ورجل قد أعفى لحيته، ومع ذلك حتى لو أراد أن يسمع كيف يسمع بهذه الصورة التي تدل على الجرأة الشديدة وعلى عدم التفاته إلى الناس أبدًا.. قال: فضربت منبّه السيارة عدة مرات، فلم يلتفت إليّ أيضًا حتى أضاءت الإشاءة الخضراء.. فمضى ومشيت وراءه..

قال: جعلت أحاول أن أوقفه لأجل أن أناصحه، وأن أذكره بالله، وأن أنبهه إلى أن هذا أصلاً هو حرام، وفعلك له أمام الناس بكل هذه الجرأة يزيده حرمة، لأنه نوع من المجاهرة، لكن الرجل لم يلتفتّ إليَّ قط.. حتى وقف بسيارته عند بقالة.

فأوقفت سيارتي وراءه، ونزل الرجل يمشي إلى البقالة، فإذا ثوبه قصير فوق الكعبين.. الرجل ليس مسبلاً.. فتعجبت! فدخل البقالة، فقلت في نفسي: سيخرج الآن معه

علبة دخان! قال: فلما خرج فإذا في يديه مجلة إسلامية، قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.. كيف يكون حاله كذلك..

قال: فأقبل إلى سيارته ثم شغّلها، واشتغلت الموسيقى مباشرة.. فقلت: والله ما على هذا صبر.. نزلت من سيارتي وأقبلت إليه وجعلت أنصح به فلم يلتفت إليّ.. فتمسكت بباب سيارته قبل أن يقفله، ثم قلت: يا أخي ما تتقي الله؟ ما تخاف الله؟ تشغل الموسيقى طوال هذه المسافة؟ وتشغلها الآن بصوت عالٍ.. يا أخي إذا كنت تريد أن تسمع المعازف اسمعها وحدك، أيجب أن تسمع الناس معك؟ ما تتقي الله، ما تخاف الله؟

يقول: والرجل ينظر إليّ ويتعجب من صراخي، ثم يخفض رأسه ويرفعه وهو ينظر إليّ.. قال: فلما رآني قد احتددت في الصراخ عليه جعل يشير لي بأصابعه على أذنيه وعلى لسانه ويشير بيديه أن «لا.. لا».. ففهمت أن الرجل لا يسمع ولا يتكلم.. أصم.. وأبكم. قال: فكدت أن أبكي، وخفضت رأسي، وأدلت يدي برفق إلى سيارته وأقفلت هذ المسجل..

قال: فجعل الرجل يشير بيده «ماذا تريد؟ لماذا أنت غضبان؟» ثم تحسس دفترًا بجانبه وقلم وأعطاني الورقة والقلم، وجعل يشير بيده ـ يعني يقول لي ـ: اكتب ما تريد.. فكتبت له: أنت يا أخي الكريم قد شغلت الموسيقى بصوت عال جدًا جدًا جدًا جدًا.. وقد كنتَ قبل قليل عند الإشارة والسيارات التي حولك تتلفت عليك، مما جعلني أتبعك حتى أنصحك فيما تفعل..

قال: فلما أخذ الورقة وقرأها، خفض رأسه قليلاً ثم جعل يهز نفسه، يعني كهيئة الحزين، ثم كتب أسفل كلامي: جزاك الله خيرًا على نصيحتك.. لكن اعلم يا أخي أني رجل أصم أبكم، لا أسمع ولا أتكلم، وهذه سيارة أخي، ووالله العظيم إني لم أعلم أصلاً بأن الموسيقى تعمل، إلا ما نبهتني أنت على ذلك فجزاك الله خيرًا..

انظر ـ سبحان الله ـ إلى حال هذا الرجل.. أخذ الله سمعه فجعله أصم وأبكم، ومع ذلك هو حريص على الطاعات.. ومَن يدري؟ مَن يدري.. ربما لو أن الله تعالى أعطاه السمع والكلام لكانت هي سبب هلاكه يوم القيامة، فكم من رجل تردّى في النار بسبب كلمة من لسانه..

في «الصحيحين» قال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها..».

أمسِكْ عليكَ لسانَكَ..

قد يخرج الكلمة في مجلس أو في سيارة مع رجل يتحدث إليه.. دون أن يفكر ما فيها من سخط الله ومن غضبه.. ومن الحرام، قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزلّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»[1].. وإذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ونصب كرسيه ليوم القضاء، وارتعدت الفرائص وبلغت القلوب الحناجر، وزاغت الأبصار في المحاجر، وجثت الأمم على الركب، وألجمهم الخوف والتعب.

عندها تجمع الحيوانات، ليفصل القضاء بينهم، وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ أخبر: «أنه يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»: الشاة الحلجاء التي لم ينبت لها قرن أصلاً، والشاة القرناء هي التي لها قرن.. فإذا كانت الشاة القرناء قد نطحت الشاة الحلجاء في الدنيا، نزعت القرناء: من القرناء يوم القيامة، وجعلت للشاة الجلحاء: هي التي لم يكن لها قرن، ثم قيل لها: انطحيها الآن اقتصي كما نطحتك في الدنيا.. ثم يقضي بين الإبل والبقر وبين الوحوش والحشرات، فإذا فرغ من القضاء بينها يقال لها: كوني ترابًا..

عندها ينظر قوم من الناس إلى هذا المنظر ويتمنون أنهم يكونون أيضًا ترابًا.. قال الله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]..

نعم يتمنى كلّ مَن كفر بالله أنه لو كان في الدنيا حمارًا، يتمنى أنه لو لم يكن إنسانًا، يتمنى أن لو كان حمارًا أو خنزيرًا أو حيوانًا أو ذبابًا.. لأجل أن يكون يوم القيامة ترابًا..

ومن يدري؟ ربما يتمنى أقوام يوم القيامة أن لو كانوا عميًا لا يبصرون، لأنه ما ثقل موازينهم بالسيئات إلا ما نظروا إليه من المحرمات، وربما يتمنون أن لو كانوا بُكمًا لا يتكلمون لأنه ما أوبقهم أصلاً في صحائفهم إلا ما كان من غيبة وسباب وكذب وفحشاء.. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]..

الكلمة والنظرة وما في القلب يكون الإنسان عنه يوم القيامة مسئولاً..

---

(١) رواه الإمام مسلم في «صحيحه» (٤٩) (٢٩٨٨).

وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث بن المزني أنه ﷺ قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظنّ أن تبلغ ما بلغت» كرجل يلقي كلمة نصيحة في مجلس أو يقدم نصيحة إلى إنسان، أو يذب عن عرض أخيه المسلم، أي كلام فيه نوع من رضوان الله أو تسبيح أو تهليل، أو غير ذلك.. أهم شيء: أنه كلام فيه نوع من رضوان الله.. ويكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه»، ثم قال: «وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى بها سخطه إلى يوم يلقاه»[1].

نعوذ بالله أن يكون الإنسان ينام ويأكل ويشرب ويذهب ويجيء وهو قد بقي له سنة وشهر و شهران وسنة أو عشر سنوات.. قد تساهل في كلمة من سخط الله فألقاها، ولا يزال الله ساخطًا عليه إلى يوم أن يلقاه..

هل نظرت في مقدار عظمة هذه الكلمات؟

يقول عليّ بن المبارك عليه رحمة الله ـ وهو أحد رواة هذا الحديث ـ: «والله كم من كلام أردت أن أتكلم به فمنعنيه حديث بلال بن الحارث» يعني هذا الحديث..

وفي البخاري قال ﷺ: «مَن يضمن لي ما بين لحييه ـ يعني: ما بين فكيه ـ وما بين رجليه أضمن له الجنة»[2].

ولما سُئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس إلى النار قال: «الربا، وعقوق الوالدين، وأكل أموال الناس بالباطل».. قال ﷺ ـ مع عظمة هذه الأمور ولا شك وإنما بيّن أمورًا أخرى تدخل الناس إلى النار ـ: «أكثر ما يدخل الناس إلى النار الفم والفرج».. أما الفم فهو ما يتكلم به من الحرام، وما يأكله من الحرام، والفرج فيما يقع فيه من الفواحش..

وإن شئت فانتقل معي الآن إلى هناك.. انتقل إلى حال النبي ﷺ وأصحابه في المدينة.. كيف كانوا يتكلمون؟ كيف كانوا يحاسبون أنفسهم على ما يخرج منهم من عبارات أو اعتراضات، أو أحيانًا أحاديث المجالس.. كيف كان الواحد يقف مع نفسه وقفة جادة في محاسبة النفس على كل ما ينطق به لسانه.. سواء كانوا مع النبي ﷺ في المدينة أو غزوة من الغزوات.. أو كانوا معه في مكة، أو كانوا في غير ذلك..

---

(١) بهذا اللفظ رواه الإمام مالك والترمذي، وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه والحاكم وابن حبّان.

(٢) رواه البخاري، والترمذي.

لما خرج النبي ﷺ مع أصحابه يريدون العمرة: خرج ﷺ مع ألف وأربعمائة من الصحابة يريدون أن يعتمروا إلى البيت الحرام.. في هذه الأثناء وصلوا إلى هناك، فمنعتهم قريش من أن يدخلوا إلى مكة لأجل أن يطوفوا بالبيت، كما هو معلوم في القصة الطويلة للحديبية وما وقع فيها من صلح.. أقبل قوم من قريش مرارًا إلى رسول الله ﷺ يريدون أن يصالحوا، وأن يحلوا المشكلة التي بينه وبينهم من منعهم إياه من دخول مكة، من بين هؤلاء الذين جاءوا سهيل بن عمرو، أقبل إلى النبي ﷺ بعدما جاءه عدد من أصحابه، أقبل هو الآخر إلى النبي ﷺ واتفقا تفاقًا.. ومن بين بنود هذا الصلح أن مَن ارتدّ عن دينه من المسلمين الذين في المدينة ثم أراد أن يذهب إلى مكة ليقيم بين أهلها الكفار، فإن أهل مكة يقبلونه، والمسلمون لا يمنعونه، ومن أسلم من الكافرين ـ دخل في الإسلام ـ وأراد أن يهاجر إلى المدينة لأجل أن يقيم بين ظهراني المسلمين لأجل أن يتقوى على الدين ويتمسك بالشريعة، فإن الكفار يمنعونه، ولو تفلت من بينهم فإن المسلمين لا يقبلونه..

تعجب الصحابة.. كيف؟ إذا ارتد واحد من عندنا نقول: اذهب إلى مكة يعينونك على كفرك، وإذا واحد أسلم نقول: لا.. ابقَ في مكة ليفتنوك في إسلامك..

سكت الصحابة، وأقبل عمر إلى رسول الله ﷺ.. انظر ماذا قال؟ ثم انظر إلى تأثير ذلك فيه بعد ذلك.. مع أنه الآن ما تعمد أن ينتقص أحدًا ولم يسبّ أحدًا ولم يغضب أحدًا، وإنما الآن يعرض وجهة نظر عنده، أقبل.. قال: يا رسول الله! أولسنا بمسلمين ـ مقدمات ليصل إلى نتيجة ـ قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى».. فإلى الآن النبي ﷺ لعلّه لا يدري ماذا يريد عمر بهذا السؤال..

قال: أوليسوا بالمشركين؟.. قال: «بلى».

قال: أولسنا على الحق؟.. قال: «بلى».

قال: وليسوا على الباطل؟.. قال: «بلى».

قال: يا رسول الله، فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا.. ـ لماذا نكون نحن الأذلة ونحن الذين نوافق على كل شرط يذكرونه ـ؟

قال ﷺ: «أولستُ رسول الله؟»، قال: بلى..

فقال ﷺ: «وإني رسول الله ولن يضيعني»..

قال: يا رسول الله، أو لم تكن تحدثنا ونحن في المدينة أنا نعتمر بالبيت الحرام.. ها نحن الآن جئنا، وهم يمنعوننا عن الطواف..

قال ﷺ: «أو قلت لك أنك تطوف به في عامك هذا؟».

قال: لا..

قال: «فإني صادق» ـ يعني: ستطوف ـ «إنك آتٍ إلى البيت فمطوّف به»..

ومضت الأيام.. اسمع ماذا يقول عمر رضي الله عنه بعد ذلك.. يقول: والله ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت في الحديبية، مخافة كلامي الذي تكلمت به[1]..

هذا يا إخوتاه عمر يقدم اقتراحًا.. لم يعترض، لم يسب الدين، لم يكفر بالله.. لم يغتب أحدًا، لم يخالف بلفظة فيها مخالفة صريحة، إنما مجرد تقديم اقتراح.. ومع ذلك يقول: والله ما زلت أعمل أعمالاً صالحة حتى يكفّر الله تعالى عني هذه الكلمات التي قدمتها بين يدي النبي ﷺ

بالله عليك.. اكتب هذا الكلام الذي قاله عمر، وابعثه رسالة إلى بعض مَن يتكلم في عرض الناس ولا يهتم.. إلى بعض مَن يستهزئ بالصالحين ولا يهتم، إلى بعض مَن ينتقص الناس في المجالس ولا يلتفت إلى كلامه.. انظر إلى محاسبة عمر رضي الله عنه لنفسه، ومع ذلك تجد بعضنا يتكلم بكلام أعظم من هذا ولا يهمه ذلك، كما قال ﷺ: «يتكلم الرجل بالكلمة ما يتبين فيها ـ ما تهمه ـ ولا يظن أن تبلغ به ما بلغت ـ ثم تكون العاقبة ـ يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب».

ولما خرج ﷺ إلى معركة بدر، وصل وقد فاتتهم القافلة التي خرجوا لأجلها ـ قافلة أبي سفيان التي خرجوا لأجل أخذ ما معها فاتتهم وذهبت في طريق آخر ـ وأقبلت جموع المشركين في جيش من مكة لقتال المسلمين..

ولما وصل النبي ﷺ إلى مكان معركة بدر؛ علم أنهم الآن في ساحة قتال، وعلم أن المشركين قد جاءوا في فلولهم لقتال المسلمين.. وكان من بين الذين مع المشركين العباس

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي.

ابن عبدالمطلب رضي الله عنه عمّ رسول الله ﷺ، قيل: إن العباس كان مسلمًا يكتم إسلامه.. وقيل: إنه لم يسلم بعد.. وهما قولان لأهل العلم..

المقصود: أن النبي ﷺ لما وقف أمام أصحابه التفت إلى الجيش، فإذا كلهم رجال أبطال قد استعدوا الآن لأجل الحرب والقتال، فقال ﷺ لأصحابه: «إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرهًا ـ قد أخرجتهم قريش غصبًا عنهم بغير رضاهم ـ لا حاجة لهم في قتالنا ـ يعني: سوف يحضرون ساحة القتال ـ لكن اعلموا أنهم لن يقتلونا، سيكونون في مكان بجانب المعركة»..

مَن هؤلاء يا رسول الله الذين لن يقاتلونا؟

قال: «لا حاجة لهم في قتالنا.. فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله، ومَن لقي أبا البختري بن هاشم بن الحارث فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبدالمطلب فلا يقتله».. عندها جعل الصحابة ينظر بعضهم إلى بعض، حذيفة بن عتبة من الصحابة ومن خيارهم فهو رجل بدري، ويكفيك أن النبي ﷺ أخبر «أن الله أطّلَعَ على أهل بدر فغفر لهم وقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم»[1]، والبدريون هم خيار الصحابة..

قام حذيفة وهو يتذكر أباه عتبة بن ربيعة ـ رأس من رءوس الكافرين سوف يأتي الآن ليقاتلنا ـ، حذيفة رضي الله عنه من شدة ما في قلبه من غيظ على الكافرين أجمعين، ومن تفاعل المشاعر في داخله كيف تفوت القافلة! كيف الآن نقاتل أكثر من ألف وثلاثمائة ونحن مجرد ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً ما استعددنا للقتال!

فقام، قال: يا رسول الله أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه السيف فوق رأسه.. عندها التفت رسول الله ﷺ إلى عمر وقال: «يا عمر أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟» هذا من ذكائه ﷺ.. لم يحب أن يقول: يا حذيفة العباس مسلم يكتم إسلامه.. مخافة أن يخرج للناس مثل هذا الخبر، فالتفت النبي ﷺ بأسلوب آخر لحل هذا الكلام، قال: «يا عمر أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف يا أبا حفص؟».. قال عمر: فوالله إنها أول مرة يكنيني رسول الله ﷺ، فسلّ عمر سيفه، قال: يا

(١) رواه البخاري، ومسلم، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

رسول الله أضرب عنقه، فوالله إنه منافق.. قال: «لا. دعه».

قال حذيفة رضي الله عنه ـ اسمع كيف كان يحاسب نفسه بعد هذا، وهو بدري يقاتل مع المسلمين وما ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا:

والله ما أنا بآمن ـ يعني: على نفسه من العذاب ـ بعد تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفًا، ووالله لا أرى يكفرها عني إلا الشهادة في سبيل الله..

يقول: هذه الكلمة الكبيرة ـ كبيرة عنده رضي الله عنه ـ التي قلتها ما أرى أنه يكفرها عني ـ يغفرها لي ـ إلا حسنة كبيرة جدًّا وهي أن أموت شهيدًا في سبيل الله، فقتل رضي الله عنه شهيدًا في يوم اليمامة.

أيها الأحبة الكرام..

كان الصحابة رضي الله عنهم على هذا الحال من حفظ ألسنتهم والتدقيق في كلامهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا يدقق عليهم في عباراتهم..

روى أبو داود والترمذي أنه صلى الله عليه وسلم جلس يومًا مع عائشة فذكرت له صفيّة إحدى زوجاته.. تعلمون ما يقع بين الضرائر من الغيرة الشديدة في النفوس ـ فقالت له عائشة: يا رسول الله حسبك من صفية ـ يعني: يكفيك ذمًّا في صفية زوجتك الثانية ـ أنها كذا، وأشارت بيدها تعني أنها قصيرة، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها وغضب.. وقال: «مه يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته».. يعني هذه الكلمة يا عائشة التي لم تعرفي خطرها ولا كبرها، لو أخذت ووضعت في ماء البحر لمزجته وغيرت ريحه، أو غيرت طعمه أو غيرت لونه، هذه الكلمة التي ترينها صغيرة لو تؤخذ في البحر كله لغيرته من كبرها عند الله تعالى..

وقالت عائشة رضي الله عنها: وجلست يومًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاكيت له إنسانًا ـ يعني قلدت له إنسانًا ـ ما ذكرت هذا الإنسان، لعلها قلدت زوجة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أو غير ذلك على هيئة الضحك عليه والاستهزاء به والتنقص، وهذا نوع من الغيبة..

قالت: فالتفت إليّ صلى الله عليه وسلم وقال منكرًا عليها: «ما أحب أني حاكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا» يعني لو أعطى كذا وكذا من أشياء عظيمة في الدنيا، ويقال لي: قلد فلانًا على سبيل الاستهزاء، لما وافقت على ذلك..

وفي يوم.. ذُكر للنبي ﷺ حال امرأة وذكر له من صلاتها وصيامها وعبادتها، يقال: يا رسول الله، هذه امرأة صالحة، قيام ليل، صيام نهار، عبادات، تبتل، قراءة قرآن، بكاء من خشية الله.

يا رسول الله هذه فلانة تصلي وتصوم وتتصدق، وتفعل وتفعل.. قالوا: يا رسول الله غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ـ تغتاب، تسب، تصرخ، تتكلم عليهم، تشتمهم..

فماذا قال ﷺ؟

هل قال: حسناتها تذهب سيئاتها؟ وإلا فهي قد بلغت درجة عظيمة إن شاء الله رب العالمين يتجاوز عنها.. وإنما قال: أول كلمة قالها من ثلاث كلمات، حكم عليها.. قال: «هي في النار»[1].

إذا تأملت هذه الأحاديث وجدتها تدور على شيء واحد صغير في حجمه لكنه كبير في جرمه.. فقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

وتوعد الله تعالى على إطلاقه في الحرام، فقال جل وعلا: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

ولشدة خطره، وعظيم جرمه، جعل الله تعالى عليه غطاءين: الفكين والشفتين، حتى ما يتفلت من سجنه فيؤذي الآمنين.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما من شيء أحق بالسجن من اللسان[2].. وقال غيره: مثل اللسان كمثل السبع إن لم توثقه عدا عليك فأكلك..

وكان أبو بكر رضي الله عنه يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد[3].. يعني: هذا الذي أوقعني في المهالك..

كانوا يحرصون على سجنه، ويخافون من جرمه، فما قصة هذا السجن؟ وكيف تواصى العلماء بسجنه، ولماذا حذر العقلاء من فك قيده، ولماذا كانوا يؤثرون السكوت

---

(١) رواه أحمد والبزار وابن حبان والحاكم.

(٢) قال الإمام المنذري: رواه الطبراني موقوفاً بإسناد صحيح.

(٣) رواه الإمام مالك، وابن أبي الدنيا، والبيهقي.

على الكلام؟

كان محمد بن واسع كثير السكوت، كثير الصمت إلا في درس أو حديث أو خير أو مؤانسة لأصحابه أو كلام مباح، حتى قال بعض أصحابه: والله لو شئت لعددت كلامه من الجمعة إلى الجمعة..

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ بلسانه ويقول: ويحك! قل خيرًا تغنم، أو اسكت عن شرّ تسلم..

اللّسان..

أوصى النبي ﷺ ألاّ يطلق من سجنه ولا يفك من قيده إلا في خير..

فقال ﷺ كما في «الصحيحين»: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا» والذي لا يريد أن يقول خيرًا ماذا يفعل؟ يسكت.. اجعل لسانك مسجونًا لا تخرجه من زنزانته، اجعل الفكين على حالهما مغلقين واجعل الشفتين كذلك..

قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[(١)].

وعند الترمذي أن عقبة بن عامر رضي الله عنه أقبل يومًا إلى رسول الله ﷺ يسأله بعض الوصايا، قال: يا رسول الله! ما النجاة؟ ـ كيف ينجو الإنسان من الدنيا كثيرة الفتن ـ فقال: «أمسك عليك لسانك» أول شيء «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»[(٢)].

وصح عند الإمام أحمد أن أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة ـ سؤال جميل مختصر..

فقال ﷺ: «لئن كنت اقتصرت الخطبة ـ يعني: كلامك قليل ـ لقد أعظمت المسألة» إلا أن سؤالك يحتاج إلى جواب طويل «أعتق النسمة، وفك الرقبة»، قال: يا رسول الله

---

(١) البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن غريب. وابن أبي الدنيا في «العزلة» وفي «الصمت»، والبيهقي في كتاب «الزهد» وغيره.

أوليستا بواحدة؟ ـ إعتاق النسمة وفك الرقبة أليس معناهما واحدًا ـ فقال: «لا.. إن عتق النسمة أن تفرد بعتقها ـ تأتي إلى عبد مملوك ثم تعتقه ـ وفك الرقبة أن تعين على عتقها».

ثم قال: «والمنحة الوفور ـ يعني: أن تقبل إلى أهل بيت فقراء فتمنحهم ـ تهدي إليهم ـ شاة فيها لبن أو ناقة فيها لبن ـ والفيض على ذي الرحم الظالم»، ثم قال: «فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسقِ الظمآن»، إذا لم تكن تستطيع أن تعتق النسمة أو تفك الرقبة، وليس عندك مال أن تهدي إليهم ناقة كاملة أو شاة، إذا لم تستطع ذلك أطعم الجائع.. كسرة خبز أطعم بها جائع، واسقِ الظمآن وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر.

ثم قال: «فإن لم تطق ذلك ـ واحد لا يستطيع أن يفك نسمة ولا رقبة، ولا يطعم جائع، ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر.. خلاص مع عنده عمل صالح ـ فكفّ لسانك إلا من خير»[1] ما دام لا تستطيع أن تفعل هذه الأمور من الصالحات، على الأقل لا تكتسب سيئات، أمسك عليك لسانك..

ويروى أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وكلاهما من كبار العقلاء والحكماء، جلس أحدهما عند الآخر، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟

فقال: هي أكثر من أن تحصى ولقد أحصيت منها ثمانية آلاف عيب، التي تقع من الناس من أخطاء، ثم قال: فما أعظمها؟

قال: لقد وجدت والله خصلة إن استعملتها ـ إذا أنت فعلتها ـ سترت هذه العيوب كلها.. قال: وما هي؟.. قال: أن تحفظ لسانك.. يعني من العيوب؛ السب.. ومن العيوب ما يقع من خلافات بين الرجل وزوجته، لو حفظ لسانه وحفظتْ لسانها لتُرِكَتْ كثير من هذه الخلافات.

ومن العيوب: غيبة الناس.. كيف تستطيع أن تتقي ذلك؟

احفظ لسانك من العيوب..

من العيوب: ما يقع في قلوب الناس عليك من الحسد، لو نظرت لوجدت أحيانًا أنه

(١) أحمد وابن حبان في «صحيحه» والبيهقي.

بسبب كلمات خرجت منك حسدوك بسببها.. والحل: احفظ لسانك..

ومن العيوب: التنابز بالألقاب.. والحل: احفظ لسانك..

من العيوب: السخرية من الآخرين.. والحل: احفظ لسانك.

ولو ذهبت تنظر في عيوب كثيرة سببها هذا اللسان لما استطعت أن تقف على موقف في ذلك إلا بشق الأنفس من كثرة هذه العيوب..

فكم بهذه الألسنة عُبِدَ غير الله تعالى وأُشرك به.. وكم بهذه الألسنة حُكِمَ بغير حكمه ﷻ.. وكم بهذه الألسنة أحدثت بدع، وأدميت أفئدة، وقرّحت أكباد.. وكم بهذه الألسنة أرحام تقطعت وأوصال تحطمت، وقلوب تفرقت.. وكم بهذه الألسنة نزفت دماء، وقتل أبرياء وعذب مظلومون.. وكم بها طلقت أمهات.. وقذفت محصنات.. وكم بها من أموال أُكلت، وأعراض انتهكت، ونفوس زُهِقَت..

يموت الفتى من عثرة بلسانه   وليس يموت المرء من عثرة الرجل

ذبحها بالسكين..!

في يوم من الأيام ألقيتُ محاضرة في أحد السجون.. جمع السجناء في المسجد الكبير، قرابة الخمسمائة أو الألف سجين.. انتهيت من المحاضرة، وأول ما انتهيت قال لي بعض الإخوة الذين كانوا مرافقين معي - وهو مشرف على بعض المحاضرات في السجن -: يا شيخ هنا الجناح الخاص بأصحاب القضايا الكبيرة، الجناح الانفرادي، لم يحضروا معك المحاضرة، فليتك تمر بهم، وتلقي عليهم كلمة وتجيب عني أسئلتهم إن كان لديهم أسئلة؟.. قلت: حسنًا..

أقبلنا، فإذا مجموعة كل واحد في زنزانة خاصة به، مررنا بهم وألقيت عليهم كلمة يسيرة، ثم أجبت عن أسئلتهم، مررت في أثناء ذلك بزنزانة فيها شاب عمره تقريبًا ثلاث وعشرون سنة، أو في الخامسة والعشرين تقريبًا.. كان جالسًا هادئًا في زنزانته.. مررت به وسلمت عليه.. كان هادئًا لطيفًا، ثم تجاوزته.. سألت صاحبي؛ قلت: ما قضيته؟

قال: هذا الشاب يا شيخ عليه جريمة قتل لزوجته.. قتل لزوجته؟ ما السبب؟ قال: هل

تصدق أنه ما مضى على زواجهما إلا قرابة ثلاثة أشهر وقتلها.. كيف قتلها؟ يعني أعوذ بالله وجدها على فعل معين أو محرم أو فاحشة أو وجدها مع رجل، مع أنه لا يجوز أن يعاملها بالقتل في تلك المواقف.. ولكن بعض الناس قد يثور ويتهور ويضربها بشيء فتموت بسببه..

قال: لا.. ذبحها بالسكين.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. كيف؟

قال: هذا تزوج وسكن مع زوجته في أحسن حال.. حقد عليه مجموعة من الناس، ربما كان بينه وبينهم مشاكل قديمة، أو أنهم كانوا يريدون أن يتزوجوا هذه الفتاة؛ فأقبل إليه أحدهم، قال: يا فلان! قال: ماذا تريد؟ قال: أنت اشتريت سيارة خضراء بدل سيارتك؟ وذكر له أحد أنواع السيارات..

قال: لا والله ما اشتريت، أنا سيارتي السوداء التي معي.. تعرفونها..

قال: والله ما أدري، أنا أمس الضحى وأنت في العمل خرجت في حاجة ومررت أمام بيتك ورأيت سيارة خضراء واقفة عند الباب وخرجت امرأة من بيتك وركبت معه، وبعد ساعتين رجعت إلى البيت.. عندك في البيت أحدًا، أو كذا.. قال: لا والله ما فيه إلا زوجتي، حتى ما عندي خادمة ولا عندي أحد..

قال: ما أدري، إن شاء الله ما تكون زوجتك، ومضى.

بعدها بيومين بدأ الرجل يشك.. يسأل زوجته: هل أحد جاء، أو ذهب.. بعدها بيومين أو ثلاثة أقبل إليه رجل آخر، قد اتفق مع الأول، قال: يا فلان! قال: نعم.. قال: إنت غيرت سيارتك؟ اشتريت سيارة بيضاء.. قال: لا والله هذه سيارتي تحت واقفة..

قال: لا والله ما أدري لكن أمس العصر يبدو أنك ما كنت في البيت، كان هناك سيارة بيضاء وقفت عند الباب وأقبلت امرأة وركبت معه وذهبت..

جعل الرجل ينتفض.. ثم جاءوا إليه في اليوم الثالث وزادوا عليه الكلام.. وجاءوا إليه في اليوم الرابع - انظر الألسنة كيف تحدث من عقوق وقطيعة - فلا زالوا به حتى تخاصم مع زوجته وأكثر عليها الكلام.. وهي صرخت عليه: كيف تتهمني في عرضي..؟ قال: نعم أتهمك..اعترفي. ما اعترفت. كثر الكلام، فذهبت إلى بيت أهلها، لبثت عندهم أيامًا..

فلم يرضهم ذلك.. أقبلوا إليه، قالوا: يا أخي ترى السيارات نفسها الآن تقف عند بيت

أهلها، بكرة البنت تحمل، وتقول هذا ولدك.. أنت لست رجلاً؟ أنت ما عندك مروءة؟ أنت تلعب بعقلك الفتاة؟ والله لو أنك رجل.. فلم يزالوا يعينون الشيطان عليه بالوساوس حتى تغلب عليه الشيطان في ليلة من الليالي، فخرج من بيته ومضى إلى بيت أهلها، وقفز من فوق السور، ودخل إلى البيت والكل نائم، مضى إلى المطبخ، وأخذ سكينًا ثم مضى إلى غرفتها ودخلها بهدوء،وإذا الفتاة نائمة في أمان الله.. قد نامت على بطنها في أمان على فراشها.. فأقبل من خلف رقبتها وأبعد شعرها قليلاً وذبح.. حتى قطع أوداجها.. انتفضت قليلاً، وماتت..

مسح السكينة بثيابه وتركها، وذهب إلى الشرطة، وقال: أنا قتلت فلانة.. أدري أني سأتعب لو هربت، وسوف ألاحق في كل مكان، من الآن أنا قتلتها، لكن بردت ما في قلبي.. وحكم عليه بالقصاص «النفس بالنفس».

شاب.. والله يا جماعة لو ترونه، ترونه من أحسن الشباب خلقة، وأقواهم بدنًا، لكن بكثرة ما وقع من ألسنة أولئك الظلمة الفجرة.. انظر كيف تحولت الأمور.. قد هتكت بها أعراض.. وهدمت بيوت.. بسبب ما يخرج من هذا اللسان..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

اتق الله فينا..

لما أقبل أبو موسى الأشعري إلى رسول الله ﷺ مستنصحًا، قال: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟ وفي رواية: أي المسلمين خير؟

ما قال ﷺ خير المسلمين قوام الليل، ولا قال خير المسلمين صوّام النهار، ولا قال: خير المسلمين الحجاج والمعتمرون، أو المجاهدون.. لا.. ترك كل هذه الفضائل ـ مع حسنها ـ وقال: «خير المسلمين مَن سلم المسلمون من لسانه ويده»(١).

وفي البخاري قال ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان – يعني

(١) البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، عن أبي موسى رضي الله عنه.

تخوّفه ـ تقول: اتق الله فينا».. اليد تكلم اللسان، الرجل تكلم اللسان: «اتق الله فينا فإنما نحن منك» يعني نحن لك تبع.. «فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[1].

فعلاً.. تجد بعض الناس يده هادئة ورجله هادئة، وجالس على كرسي.. ثم يبدأ لسانه يتحرك ويسبّ الذي أمامه، فيثور من أمامه، ويسبه بمثلها، فيسبّه، ثم يتسابان، فتتحرك اليد بالضرب.. وتتحرك الرجل بالمشي.. ويتحرك الرأس بغيره من ضرب أو نحوه..

تقول له هذه الأعضاء: «إنما نحن منك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا». لذا كان السلف ـ أيها الإخوة والأخوات ـ يدققون على كلامهم المباح، فضلاً عن الكلام المحرّم..

جلست عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قبيل صلاة المغرب وهي صائمة، فأذّن لصلاة المغرب، فأقبلت إليها الجارية، قالت: يا أم المؤمنين أقرب لك المائدة؟ أقرب لك فطورك؟.. وكانت عائشة ليست بجائعة ولا عطشانة.. وهذا يقع أحيانًا لبعض الصائمين، قد يكون لم يبذل جهدًا، والجو جميل، فلا يشعر بالجوع والعطش أحيانًا إلى المغرب.. إلى العشاء..

فقالت عائشة: والله ما لي بالطعام حاجة لكن قربي المائدة، نلهو بها ـ نلعب، نأكل من هنا ومن هنا ـ نلهو بها..

ثم قالت عائشة: أستغفر الله، أستغفر الله، ألهو بنعمة الله؟

ألعب بنعمة الله؟ أستغفر الله..

مع أنها لم تقصد اللهو، يعني: تأخذ من هنا قليلاً ومن هذا قليلاً، لكن كان لأجل أن تفطر عليه.. قالت: أستغفر الله، ألهو بنعمة الله؟.. ثم بكت، ثم جعلت تجمع ما عندها من مال، واشترت به عبدين مملوكين، وأعتقتهما لوجه الله، توبة من هذه الكلمة..

هذه يا جماعة ما اغتابت أحدًا ولا سبت ولا لعنت، ولا كفرت بكلمة.. فقط تقول نتسلى بالطعام.

والإمام أحمد رحمه الله دخل مرّة يعود مريضًا.. فلما عاده سأل الإمام أحمد هذا الرجل،

---

(١) قال في الترغيب والترهيب: رواه الترمذي وابن أبي الدنيا وغيرهما، وقال الترمذي: رواه غير واحد عن حماد بن زيد، ولم يرفعوه، وهو أصحّ.

قال: يا أيها المريض! هل رآك الطبيب؟ يريد أن يطمئن على صحته..

قال: نعم، ذهبت إلى فلان.

فقال أحمد: اذهب إلى فلان الآخر، فإنه أطب منه - يعني أعلم بالطب منه - كلمة عادية.. ثم قال الإمام أحمد: أستغفر الله، أراني قد اغتبت الأول، أستغفر الله.. لأنه قال: اذهب إلى الطبيب الثاني؛ لأنه أحسن من الأول.. المفروض أني لا أقول أفضل منه، أقول: جرب فلانًا..

والمعافى بن سليمان ذكروا في سيرته أنه كان يمسك لسانه عن جميع الكلام إلا ما فيه طاعة أو فيما يرجو منه ثوابًا.. في يوم من الأيام كان المعافى بن سليمان يمشي في طريق بجانب رجل، والمعافى يستغفر، يسبح، يهلل، يأمر بمعروف، ينهى عن منكر، فقال الرجل: ما أشد البرد اليوم؟

فالتفت إليه المعافى وقال: آستدفئت الآن؟

قال: لا..

قال: إذن لماذا قلتها ما دام أنك قد حركت لسانك، فسبح وهلل..

انظر الدقة.. يقول: أنت تتكلم بالكلام، فماذا استفدت منه؟

وإذا هممت بالنطق بالباطل فاجعل مكانه تسبيحا

والإمام الشافعي رحمه الله تعالى كان جالسًا مرة مع صاحبه المزني، كلاهما من العلماء، وكانوا يدرسون أسانيد الأحاديث، يمرون على بعض العلماء.. والإسناد أن يقول الشيخ: حدثنا فلان، عن فلان، عن أبي بكر، أو عن أبي هريرة، أو عن أحد الصحابة رضي الله عنهم.. أن رسول الله ﷺ قال.. هذه السلسلة من الرجال هي الإسناد، لكي تعرف هذا الحديث صحيح أم ضعيف؛ تحتاج أن تتأكد من هذه السلسلة كلها، هل هم يكذبون، هل حفظهم قوي، هل هم ثقات، أم ليسوا ثقات، هم عدول، أم ليسوا بعدول؟

المزني جلس مع الشافعي يتذاكران بعض الأحاديث، فقال له الشافعي: ما تقول في فلان؟ فقال المزني: فلان كذّاب..

فقال له الشافعي - اسمع التربية -: يا إبراهيم! اكس ألفاظك - يعني: لا تخرج ألفاظك

عارية، لبسها، جملها ـ، لا تقل كذّاب: قل حديثه ليس بشيء.. تلطف قليلاً في العبارة..

ولما جلس يحيى بن معين يومًا يفصل الكلام في بعض الأسانيد، يقول: فلان ليس بشيء، فلان كذاب، فلان وضّاع، فلان ينسى كثيرًا، فلان...

هو عالم من العلماء، ولو لم يقل هذا الكلام لأخذ الناس بعض الأحاديث الضعيفة واعتبروها صحيحة.. فأقبل رجل من العباد ـ رجل يعني ما عنده معرفة بالأحاديث والأسانيد والرجال لكن عنده تقوى شديدة ما يحب الكلام في الناس ولا أعراضهم ولا الوقيعة فيهم ـ أقبل وجلس في حلقة ذكر، فسمع يحيى بن معين ـ وهو إمام من أئمة الجرح والتعديل ـ وهو يقول: لا.. لا.. فلان هذا كذّاب.. لأن هذا يضع الحديث، فلان هذا سيئ الحفظ، فلان هذا يكذب في حديثه..

فقال ذاك الرجل: يا شيخ.. قال: نعم.. قال: تتكلم في أقوام أحياء أم أموات؟ ـ الذين تتكلم أنت الآن فيهم ناس أحياء أم أموات؟ فقال: بل أموات.

قال: إنك لتتكلم في أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة؟

فبكى يحيى بن معين، مع أنه يتكلم بكلام حلال، والعلماء ألفوا كتبًا على أحد عشر مجلدًا، وعشرين مجلدًا، في الكلام في الجرح والتعديل، وأحوال الرجال، لكن انتفض يحيى من هذه الموعظة، وقطع درسه، وقام باكيًا.. لما قال: تتكلم في أقوام لعلهم حطوا رحالهم في الجنة..

يا جماعة.. هذا يتكلم بحق، فما بالك بالله عليك بمن يتكلم بغير ذلك؟

ومرّ سفيان الثوري يومًا بقوم يتحدثون، فوقف عليهم ثم سألهم، قال: لو كان معكم من ينقل الكلام إلى السلطان أكنتم تتخيرون الكلام؟ قالوا: نعم..

فقال لهم: ويحكم، فإنه والله من بينكم من ينقل إلى الرحمن جل جلاله، فانظروا فيمَ تتكلمون.

وعند الترمذي وابن ماجه عن سفيان بن عبدالله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به.. وما أجمل هذه الأحاديث أيها الفضلاء.. لمّا يأتي واحد من الصحابة ويسأل: يا رسول الله أعطني وصية، يا رسول الله علمني شيئًا يدخلني الجنة.. وصايا تصلح

لهم ولمن يأتي بعدهم، فقال ﷺ: «قل ربي الله ثم استقم»..

قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟

أنت الآن تقول: استقم على الطاعة.. فما العوائق والأخطار والحفر التي يمكن أن أقع بها في طريق الطاعة.

قال: فأخذ بلسان نفسه ﷺ وقال: «هذا»[(١)].

وعند الترمذي أنه ﷺ قال لمعاذ: «يا معاذ ألا أخبرك برأس الأمر ــ يعني: الدين ــ وعموده وذروة سنامه؟»

قلت: بلى يا رسول الله..

قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» أي: أعطيك شيئًا يجمع لك كل هذه الفضائل التي حدثتك عنها.. قلت: بلى يا رسول الله.. فرح معاذ.. قال: فأخذ بلسان نفسه ــ لاحظ كل واحد من الصحابة يوصيه النبي ﷺ بنفس الوصية لعظمها.. فأخذ بلسان نفسه وقال: «كفّ عليك هذا».. قال: قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ ـ يعني: كلامنا، السواليف والكلام، رب العالمين يدقق علينا فيه ويحاسبنا؟

فقال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ ـ يعني: فقدتك أمك ـ وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»[(٢)].

يعني ما جاء بالمصائب للناس وأدخلهم دركات النار إلا ما تتكلم به ألسنتهم..

نعم.. حصائد ألسنتهم صارت بوابة لهم إلى النار..

فكم من هذه الحصائد في مجالسنا من بذاءة في الألفاظ وفحش في الكلام، ومن سب، ولعن، وشتم بأساليب عديدة، ومع الأسف لا تطيب المجالس عند البعض ولا يحلو الحديث إلا بهذه الأساليب..

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، وابن حبان، والحاكم.

(٢) رواه أحمد والترمذي، والنسائي، وابن ماجة.. كلهم من رواية أبي وائل عن معاذ رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.. وغمز الحافظ رواية أبي وائل عن معاذ..

والأنكى من ذلك والأشد: أن بعض النفوس استمرأت هذا ويرون أنه من باب المزاح والتسلية وقضاء الأوقات وتحلية المجالس، وما علم هؤلاء أنهم وقعوا في الفسق وأضاعوا أوقاتهم، وحملوا أنفسهم الأوزار.

وربما كان الرجل أو المرأة حريصًا على سلامة ماله من الربا، وسلامة أذنه من الغناء، وسلامة يده من الأذى، وربما غضّ بصره، وحفظ فرجه، لكنه لا يستطيع أن يتحكم في حركة لسانه، من احتقار للناس، واستهزاء بهم، ووقيعة في أعراضهم، فيأتي يوم القيامة مفلسًا.

أتدرون مَن المُفلس؟!

قال ﷺ لأصحابه كما عند مسلم: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا مَن لا درهم عنده ولا متاع.. فقال: «المفلس من أمتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة..» ـ يعني: قد يكون رجلاً صالحًا.. بدأ بماذا من المعاصي؟ هل قال: يأتي وقد زنا؟ لا.. يأتي وقد شرب خمرًا؟ لا. فهو رجل يصلي ويصوم ويزكّي.. لكن اسمع بماذا بدأ من الأخطاء التي وقعت منه، قال: «يأتي وقد شتم هذا» بدأ باللسان، ثم ذكر أمرًا آخر يتعلق باللسان: «وقذف هذا»، لاحظ كلها تتعلق باللسان، ثم قال: «وأكل مال هذا، وسفك دم هذا».

فنصف ما في الحديث يتعلق باللسان.. الشتم والقذف، ثم قال: «وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا» قال: «فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار».

إذن اسجن لسانك عن غيبة الناس، والوقيعة في أعراضهم، والاستهزاء بهم في أشكالهم، أو في وظائفهم، أو في بيوتهم، سواء انتقصت أخاك في بدنه أو في دينه أو في دنياه، أو في ماله، أو في أهله، أو في مشيته، أو ذكرته بلفظك، أو في كتابك، أو أشرت إليه بعينك، أو يدك، أو برأسك، كل هذا حرام..

وعند مسلم قال ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره».

في «الصحيحين» أنه ﷺ رقى يخطب أصحابه في الحج، فنظر فإذا بين يديه أكثر من مائة ألف فيهم الكبير والصغير، والغني والفقير، العربي والأعجمي، الحرّ والعبد، الأسود والأبيض، فخطب بهم ﷺ وقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم» ـ يعني أعراضكم إما أن تعتدي عليهم بالفاحشة، أو أن تعتدي بالكلام، غيبة، تنقص، استهزاء، سخرية، تنابز بالألقاب..

قال: «وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا بلغت؟ اللهم فاشهد»..

وصح عند الإمام أحمد أنه ﷺ قال: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا أخي يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم».

لذا كان جزاء المغتاب أن يعامل بنقيض قصده فهو يغتاب الناس لأجل أن يعضهم من بغضهم لهم، فيكافئه الله بأن يأخذوا من حسناته يوم القيامة، فيسروا ويضرّ هو ويحزن..

الحسن البصري رحمه الله أقبل إليه رجل، قال: بلغني أنك تغتابني، فقال الحسن: والله ما بلغ قدرك عندي أن أهديك من حسناتي.. ثم قال الحسن: ولو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت أمي وأبي، فإنهما أحق الناس بأخذ حسناتي..

وفي يوم من الأيام كان الحسن في بيته.. فأقبل إليه رجل فطرق عليه الباب عصرًا، ففتح الحسن الباب، فقال: ماذا تريد؟ قال: يا أبا سعيد! قال: ماذا تريد؟ قال: أما والله لو كنت معنا الضحى في مجلس فلان..

في مجلس فلان؟ ما الخبر، ما الذي فاتني؟ ختمتم القرآن أم حدثتم بأحاديث ما الذي اغتابك.. ماذا قال الحسن؟ هل قال: ماذا قال فيّ؟ بسرعة، هل من أحد رد عليه؟ لا لا.. التفت الحسن إليه ثم قال: أعوذ بالله ما وجد الشيطان أحدًا يرسله غيرك.. أنت جئت لأجل أن تفسد.. ثم طرده بين يديه، ثم دخل الحسن وأخذ رطبًا عنده في البيت ـ رطبًا من هذا التمر الجميل ـ وذهب به إلى ذاك الرجل في طبق، وطرق عليه الباب ـ الذي اغتابه طرق عليه الباب ـ ففتح ذلك الرجل الباب، قال له الحسن البصري: خذ هذا هدية جزاك الله خيرًا..

قال: والله أشكرك على الهدية، لكن ما المناسبة؟

قال: والله بلغني أهديتني اليوم الضحى حسنات، فأحببت أن أقدم لك هدية بدل الهدية التي أعطيتنيها، خذ جزاك الله خيرًا..

انظر الفقه الذي كان يعيشونه، ويجمع على مَن سمع غيبة مسلم أن يردها وأن يستر قائلها..

صحّ عند الترمذي أنه ﷺ قال: «مَن ردّ عن عرض أخيه، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»..

وفي «الصحيحين» أنه ﷺ كان مع بعض أصحابه يومًا، فقام رجل واحد فقال: أين مالك بن الدخشم؟.. صحابة كانوا جالسين مع النبي ﷺ فقدوا مالك بن الدخشم، فقال رجل: ذاك منافق لا يحب الله ورسوله.. يعني لأجل ذلك ما جاء ليحضر مجلسنا.. فغضب النبي ﷺ والتفت إليه ـ يذب عن عرض أخيه ـ، وقال: «لا تقل ذلك ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله» النبي ﷺ بنفسه يذب عن أعراض الناس الذين حوله..

وصحّ عند أبي داود أنه ﷺ قال: «ما من امرئ يخذل امرًا مسلمًا في موطن تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته».. إذا تكلم عن أحد المسلمين وأنت تحب فيه النصرة..

ثم قال: «وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»..

سفيان بن الحصين، كان جالسًا يومًا عند إياس بن معاوية، فجاء رجل فنال منه سفيان، فقال إياس: اسكت يا سفيان فسكت، ثم التفت إليه وسأله: هل غزوت الروم؟ ـ عجيب ما دخل الروم في الموضوع؟ المفروض أن يقول: اتق الله، الغيبة حرام ـ.

فقال سفيان: لا.

فقال إياس: هل غزوت الترك؟

قال سفيان: لا.

قال: هل غزوت كذا، وكذا؟ وجعل يعدد عليه الأعداء، وهو يقول: لا. لا.

فقال له إياس: سبحان الله.. سلم منك الروم، وسلم منك الترك، وسلم منك المجوس، ولم يسلم منك إخوانك المسلمون!

أعظم الغِيبَة..!

ومن أعظم الغيبة: أن يستهزئ المرء بمن صلح في دينه، أو ارتفع شأنه في عبادته، غيبة العلماء، غيبة الدعاة، غيبة طلبة العلم، غيبة أئمة المساجد، غيبة الناس، خاصة إذا كانت الغيبة بسبب ديني، يعني ما اغتبته مثلاً لأمر دنيوي، لا ولكن اغتبته بسبب دينه.. تتكلم في لحيته.. تتكلم في قصر ثوبه.. تتكلم في أسلوبه في الخطابة.. أو تستهزئ به لأجل دينه، هذا من أعظم الحرام، لأنه في الحقيقة استهزاء بالدين.. الله الذي أمره أن يعفي لحيته، الله الذي أمره أن يقصّر ثوبه.. الله الذي أمره أن يحجب نساءه، الله الذي أمره أن ينصح الناس، أن يخطب بهم الجمعة..

انظر إلى النبي ﷺ لما وقع في عصره شيء من ذلك، كيف كانت الآيات تنزل وتُتلى إلى يوم القيامة.. خرج ﷺ مع أصحابه في غزوة تبوك، في ساعة عسرة شديدة.. وحر حارق، ورمضاء، وغبار.. مكثوا هناك في تبوك ما شاء الله، ثم رجعوا إلى المدينة..

كان خيار الصحابة حول رسول الله ﷺ يمشون معه يشاورهم ويشاورونه، حقد جمع من المنافقين عليهم، حقدوا على أبي بكر، عمر، عثمان، عليّ، طلحة، الزبير، أُبيّ بن كعب، عبدالله بن مسعود.. الصحابة الأخيار الذين كان النبي ﷺ يجالسهم، يستمع منهم القراءة أحياناً.

حقد هؤلاء المنافقون على هؤلاء الصحابة، فجعلوا يستهزئون، ينكتون، يحدثون النكت والطرائف على الصحابة، وكأنه ما بقي على وجه الأرض إلا هؤلاء الصالحون حتى ينكتوا عليهم، ويجعلوهم مجالاً للطرفة والضحك.. حتى قال واحد منهم ـ وهم ينكتون ـ: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ـ والله ما رأيت مثل هؤلاء المشايخ، مثل هؤلاء المطاوعة، مثل هؤلاء الصالحين ـ أرغب بطوناً ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء..

يقول: هؤلاء جيدون فقط في الأكل والشرب والمفاطيح أما صدق الكلام فثلاثة أرباع كلامهم يكذبون على الناس، وجبناء والله ما يشارك في قتال ولا في معركة.. فسمعهم

عوف بن مالك ـ كيف يتكلم على إخوانه المسلمين، يجب أن يذب عن أعراضهم ـ، سمع هذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام؛ فذبّ عن عرض إخوانه، قال: كذبت، كذبت، لكنك منافق.. لأخبرن عنك رسول الله ﷺ، ثم قفز عوف بن مالك إلى النبي ﷺ، فإذا القرآن قد سبقه..

انظر لعلها لحظات أو دقائق، فإذا القرآن قد سبقه وأنزل الله ﷻ قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ ﴾ [التوبة:٦٥].. يعني ما وجدتم شيئًا تخوضون وتلعبون به إلا الدين، أعوذ بالله، قلت الأشياء التي يمكن أن تتكت عليها وتضحك عليها أو تكتب فيها مقالات في جريدة أو في إنترنت أو غيره، فما وجدت إلا الدين! ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾، لاحظ الآية كيف كانت صريحة: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٥، ٦٦]، نزلت الآيات.. جعل النبي ﷺ يتلوها، انتفض الصحابة، ثلاثون ألف صحابي معه، فأقبل أولئك يعتذرون..

تعتذر.. بعدما فعلت ما فعلت.. وأنت تظن أن المسألة سهلة إلى هذه الدرجة؟ أقبل المعتذرون، والنبي ﷺ لا يلتفت إليهم، ولما أكثروا عليه ركب ﷺ ناقته، وقال: «أيها الناس، ارتحلوا»، فأقبلوا إليه يعتذرون وهو يردد: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾.

حتى أقبل إليه ذاك الرجل الذي أخرج ذلك الكلام، يعني كبيرهم، وجعل يتعلق بخطام ناقة النبي ﷺ، يقول ابن عمر: وأنا أراه يمشي النبي ﷺ بناقته، والرجل متعلق بالخطام، والحجارة تضرب في قدميه[1]..

الناقة رفيعة وتمشي بسرعة، والرجل يريد أن يلحق بها، يقول: والحجارة تضرب في قدميه، يقول: يا رسول الله إنما هو كلام وهو حديث الركب، نقطع به الطريق ـ سواليف ـ يا رسول الله، الموضوع إلى هذه الدرجة صار كبيرًا.

يقول: والنبي ﷺ لا يلتفت إليه، وإنما يردد: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾، ولا يزال هذا الرجل يبكي، والنبي ﷺ يقول له مثل هذا الكلام.

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة التوبة.

إذن.. أيها الأحبة الكرام؛

مَن وُفِّقَ في الحقيقة لحفظ لسانه عن أعراض المسلمين، فهو المنتصر في دنياه، وهو الموفق في أخراه، ولو ذهبت وتكلمت عن بقية آفات اللسان من كذب، وأنواع النميمة، وأنواع السباب والشتائم التي قد تصل أحيانًا إلى سب الذات الإلهية تعالى الله جل جلاله، لاحتجنا في ذلك إلى محاضرات، لكن لعل فيما تقدم معنا من تنبيهات يكون عبرة لمن أراد أن يذّكّر، أو ألقى السمع وهو شهيد..

أسأل الله تعالى أن يعيننا جميعًا على حفظ ألسنتنا، وأن يجعلنا ممن يستعملونها في طاعة الله تعالى، فيجعلنا جميعًا من الذاكرين الله تعالى كثيرًا، ويجعل أخواتنا من الذاكرات، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم مباركين أينما كُنّا، والله تعالى أجل وأكرم وأعلم..

وصلى الله وسلم وبارك على رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم..



اركب معنا

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله..

أمّا الأوّل..

فقد جلس إليَّ مهمومًا مغمومًا.. ثم قال: يا شيخ.. مللت من الغربة..

فقلت: عسى الله أن يعجل رجوعك إلى أهلك وبلدك..

فاستعبر وبكى.. ثم قال: أما والله يا شيخ لو عرفت بقدر شوقي إليهم وقدر شوقهم إليّ.. هل تصدق يا شيخ أن أمي قد سافرت أكثر من أربعمائة ميل لتدعو لي عند ضريح قبر الشيخ فلان.. وتسأله أن يردني إليها! فهو رجل مبارك تقبل منه الدعوات.. ويقضي الكربات.. ويسمع دعاء الداعين.. حتى بعد موته!

أمّا الثاني..

فقد حدثني شيخنا العلامة عبدالله بن جبرين.. قال: كنت على صعيد عرفات.. والناس في بكاء ودعوات.. قد لفوا أجسادهم بالإحرام.. ورفعوا أكفهم إلى الملك العلام.. وبينما نحن في خشوعنا وخضوعنا، نستنزل الرحمات من السماء.. لفت نظري شيخ كبير.. قد رقّ عظمه.. وضعف جسده.. وانحنى ظهره.. وهو يردد: يا ولي الله فلان، أسألك أن تكشف كربتي، اشفع لي، وارحمني.. ويبكي وينتحب.. فانتفض جسدي، واقشعر جلدي، وصحت به: اتق الله.. كيف تدعو غير الله! وتطلب الحاجات من غير الله! هذا الولي مخلوق مثلك عبدٌ مملوك.. لا يسمعك ولا يجيبك.. ادع الله وحده لا شريك له..

فالتفت إليّ ثم قال: إليك عني يا عجوز.. أنت ما تعرف قدر الشيخ فلان عند الله! أنا أؤمن يقينًا أنه ما تنزل قطرة من السماء ولا تنبت حبة من الأرض إلا بإذن هذا الشيخ..

فلما قال ذلك.. قلت له: تعالى الله، ماذا أبقيت لله.. اتق الله..

فلما سمع مني ذلك ولّاني ظهره ومضى..

وأمّا الثالث.. والرابع.. والخامس..

فأخبارهم فيما بين يديك من أوراق..

فسبحان الله.. أين هؤلاء اللاجئون إلى غير مولاهم.. الطالبون حاجاتهم من موتاهم.. المتجهون بكرباتهم إلى عظام باليات.. وأجساد جامدات.. أين هم من الله! الملك الحق المبين، الذي يرى حركات الجنين.. ويسمع دعاء المكروبين.. ولا يرضى أن يدعوا عباده سواه..

فابكِ إن شئت على حال الأمة.. وقلّب طرفك في بلاد الإسلام.. لترى أضرحة ومقامات وقبورًا ورفات.. صارت هي الملجأ عند الملمات.. والمفزع عند الكربات.. نشأ عليها الصغير.. وشاب عليها الكبير..

فهذه كلمات لهم وهمسات.. وأحاديث ونداءات.. بل هي صرخات وصيحات.. وابتهالات ودعوات.. للغارقين والغارقات.. الذين تلاطمت بهم الأمواج.. وضلوا في الفجاج.. حتى تخلفوا عن سفينة النجاة.. وماتوا وهم مشركون.. وهم يحسبون أنهم مسلمون..

إنها سفينة التوحيد..

التي هي كسفينة نوح.. مَن ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك.. وكم رأينا في بلاد الإسلام مِن أقارب وإخوان، وجيران وخلّان.. ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا..

لذا جاء هذا الكتاب نداءً لهم جميعًا بأن يعبدوا الله وحده لا شريك له..

البحر المُتلاطم..

كانت الدنيا مليئة بالمشركين.. هذا يدعو صنمًا.. وذاك يرجو قبرًا.. والثالث يعبد بشرًا.. والرابع يُعظم شجرًا..

نظر إليهم ربهم فمقتهم؛ عربهم وعجمهم.. إلا بقايا من موحدي أهل الكتاب.. وكان من بين هؤلاء السادرين سيد من السادات هو عمرو بن الجموح.. كان له صنم اسم مناف

يتقرب إليه.. ويسجد بين يديه.. مناف هو مفزعه عند الكربات، وملاذه عند الحاجات..

صنم صنعه من خشب.. لكنه أحب إليه من أهله وماله.. وكان شديد الإسراف في تقديسه.. وتزيينه وتطييبه وتلبيسه.. وكان هذا دأبه مذ عرف الدنيا.. حتى جاوز عمره الستين سنة..

فلما بُعث النبي ﷺ في مكة وأرسل مصعب بن عمير رضي الله عنه داعية ومعلمًا لأهل المدينة.. أسلم ثلاثة أولاد لعمرو بن الجموح مع أمهم دون أن يعلم.. فعمدوا إلى أبيهم فأخبروه بخبر هذا الداعي المعلم، وقرءوا عليه القرآن، وقالوا: يا أبانا قد اتبعه الناس فما ترى في أتباعه؟

فقال: لست أفعل حتى أشاور منافًا فأنظر ما يقول!

ثم قام عمرو إلى مناف.. وكانوا إذا أرادوا أن يكلموا أصنامهم جعلوا خلف الصنم عجوزًا تجيبهم بما يلهمها الصنم في زعمهم..

أقبل عمرو يمشي بعرجته إلى مناف.. وكانت إحدى رجليه أقصر من الأخرى.. فوقف بين يدي الصنم.. معتمدًا على رجله الصحيحة.. تعظيمًا واحترامًا.. ثم حمد الصنم وأثنى عليه، ثم قال: يا مناف، لا ريب أنك قد علمت بخبر هذا القادم، ولا يريد أحدًا بسوء سواك.. وإنما ينهانا عن عبادتك.. فأشر عليَّ يا مناف.. فلم يردّ الصنم شيئًا.. فأعاد عليه، فلم يجب.. فقال عمرو: لعلك غضبت.. وإني ساكت عنك أيامًا حتى يزول غضبك.. ثم تركه وخرج.. فلما أظلم الليل أقبل أبناؤه إلى مناف.. فحملوه وألقوه في حفرة فيها أقذار وجيف.. فلما أصبح عمرو دخل إلى صنمه لتحيته فلم يجده..

فصاح بأعلى صوته: ويلكم! مَن عدا على إلهنا الليلة.. فسكت أهله.. ففزع واضطرب.. وخرج يبحث عنه، فوجده منكسًا على رأسه في الحفرة.. فأخرجه وطيبه وأعاده لمكانه.. وقال له: أما والله يا مناف لو علمتُ مَن فعل هذا لأخزيته..

فلما كانت الليلة الثانية أقبل أبناؤه إلى الصنم.. فحملوه وألقوه في تلك الحفرة المنتنة.. فلما أصبح الشيخ التمس صنمه، فلم يجده في مكانه، فغضب وهدد وتوعد.. ثم أخرجه من تلك الحفرة فغسله وطيّبه..

ثم مازال الفتية يفعلون ذلك بالصنم كل ليلة وهو يخرجه كل صباح، فلما ضاق

بالأمر ذرعًا راح إليه قبل منامه، وقال: ويحك يا مناف، إن العنز لتمنع أُستها.. ثم علق في رأس الصنم سيفًا، وقال: ادفع عدوك عن نفسك..

فلما جنّ الليل حمل الفتية الصنم وربطوه بكلب ميت وألقوه في بئر يجتمع في النتن.. فلما أصبح الشيخ بحث عن مناف، فلما رآه على هذه الحال في البئر قال:

وربٌ يبول الثعلبان برأسه   لقد خاب مَن بالت عليه الثعالب

ثم دخل في دين الله.. ومازال يسابق الصالحين في ميادين الدين.. وانظر إليه.. لما أراد المسلمون الخروج إلى معركة بدر.. منعه أبناؤه لكبر سنه، وشدة عرجه.. فأصر على الخروج للجهاد، فاستعانوا برسول الله ﷺ فأمره بالبقاء في المدينة.. فبقي فيها..

فلما كانت غزوة أحد.. أراد عمرو الخروج للجهاد، فمنعه أبناؤه فلما أكثروا عليه ذهب إلى النبي ﷺ يدافع عبرته.. ويقول: يا رسول الله، إن بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك إلى الجهاد..

قال: «إن الله قد عذرك»..

فقال: يا رسول الله، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة..

فأذن له ﷺ بالخروج فأخذ سلاحه، وقال: اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي.. فلما وصلوا إلى ساحة القتال، والتقى الجمعان، وصاح الأبطال، ورميت النبال.. انطلق عمرو يضرب بسيفه جيش الظلام.. ويقاتل عُبّاد الأصنام.. حتى توجه إليه كافر بضربة سيف كُتبت له بها الشهادة..

فدفن رضي الله عنه، ومضى مع الذين أنعم الله عليهم.. وبعد ست وأربعين سنة في عهد معاوية رضي الله عنه نزل بمقبرة شهداء أحد سيل شديد.. غطى أرض القبور.. فسارع المسلمون إلى نقل رفات الشهداء، فلما حفروا على قبر عمرو بن الجموح، إذا هو كأنه نائم.. لين جسده، تتثنى أطرافه، لم تأكل الأرض من جسده شيئًا.. فتأمّل كيف ختم الله له بالخير لمّا رجع إلى الحق لما تبين له..

بل انظر كيف أظهر الله كرامته في الدنيا قبل الآخرة.. لما حقق لا إله إلا الله.. هذه الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات.. وفطر الله عليها جميع المخلوقات.. وهي سبب

دخول الجنة.. ولأجلها خلقت الجنة والنار.. وانقسم الخلق إلى مؤمنين وكفّار.. وأبرار وفجّار.. فلا تزول قدما العبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين:

ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

سفينة النَّجاة..

وكم من إنسان هلك مع الهالكين.. واستحق اللعنة إلى يوم الدين.. بسبب أنه لم يحقق التوحيد.. فالله هو الرب الواحد.. لا يتوكل العبد إلا عليه.. ولا يرغب إلا إليه.. ولا يرهب إلا منه.. ولا يحلف إلا باسمه.. ولا ينذر إلا له.. ولا يتوب إلا إليه.. فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.. ولهذا حرّم الله على النار مَن شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة..

وانظر إلى معاذ رضي الله عنه لما مضى خلف النبي ﷺ فجأة ثم سأله: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم، فقال ﷺ: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.. وحق العباد على الله أن لا يعذب مَن لا يشرك به شيئًا..».

وسأل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي ذنب عند الله أعظم؟، فقال ﷺ: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك».. نعم التوحيد من أجله بعث الله الرسل.. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].. والطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله.. من صنم أو حجر، أو قبر، أو شجر.. والتوحيد هو مهمة الرسل الأولى كما قال تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥]..

بل إن الخلق لم يخلقوا إلا ليوحّدوا الله.. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

والأعمال كـ ا متوقفة في قبولها على التوحيد.. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨].. ومَن حقق التوحيد نجا.. كما صحّ في الحديث القدسي عند الترمذي؛ أن الله تعالى قال: «يابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض

خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة».. ولعظم أمر التوحيد خالف الأنبياء من فقده.. فذاك أبو الموحدين.. محطم الأصنام وباني البيت الحرام.. إبراهيم عليه السلام.. يبتهل إلى الملك العلام، ويقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]. ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم عليه السلام؟

بداية الانحراف..

بعث الله نوحًا، فنهاهم عن الشرك، فمن أطاعه ووحد الله نجا، ومن ظلّ على شركه أهلكه الله بالطوفان.. وبقي الناس بعد نوح على التوحيد زمانًا.. ثم بدأ إبليس في الإفساد.. ونشر الشر بين العباد.. ولم يزل الله تعالى يبعث المرسلين مبشرين و منذرين.. إلى أن بعث خاتم النبيين محمدًا ﷺ، فدعا إلى التوحيد، وجاهد المشركين، وكسر الأصنام..

ومضت الأمة من بعده على التوحيد.. إلى أن عاد الشرك إلى بعض الأمة بسبب تعظيم الأولياء والصالحين.. حتى بنيت الأضرحة على قبورهم، وصرف الدعاء والاستغاثة والذبح والنذر لمقاماتهم..

وسمّوا هذا الشرك توسلاً بالصالحين ومحبة لهم بزعمهم.. وزعموا أن محبتهم لهؤلاء وتعظيم قبورهم.. تقربهم إلى الله زلفى.. ونسوا أن هذه حجة المشركين الأولين.. حيث قالوا عن أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]

والعجب أنك إذا أنكرت على هؤلاء شركهم.. قالوا لك: كلا بل نحن موحدون.. ولربنا عابدون.. ويظنون أن معنى التوحيد هو الإقرار بوجود الله وأحقيته بالعبادة دون غيره.. وهذا مفهوم قاصر للتوحيد.. فأبو جهل، وأبو لهب؛ بهذا المفهوم موحدان.. فإنهما يعتقدان أن الله هو الإله الأعظم المستحق للعبادة، لكنهما أشركا معه آلهة أخرى ظنّا أنها توصل إليه، وتشفع لهما عنده..

قصّة..

روى البيهقي بسند حسن: أنه لما ظهر النبي ﷺ بدعوته بين الناس.. حاول كفّار قريش أن ينفروا الناس عنه.. فقالوا: ساحر.. كاهن.. مجنون.. لكنهم وجدوا أن أتباعه يزيدون ولا

ينقصون.. فاجتمع رأيهم على أن يغروه بمال ودنيا.. فأرسلوا إليه حصين بن المنذر الخزاعي ـ وكان من كبارهم ـ فلما دخل عليه حصين قال: يا محمد.. فرقت جماعتنا وشتت شملنا.. وفعلت.. وفعلت.. فإن كُنتَ تريد مالاً جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن أردتَ نساءً زوجناك أجمل النساء.. وإن كنتَ تريد مُلكًا ملّكناك علينا.. ومضى في كلامه وإغرائه.. والنبي ﷺ يُنصت إليه..

فلما انتهى من كلامه قال له ﷺ: «أفرغت يا أبا عمران».. قال: نعم.

قال: «فأجبني عمّا أسألك».. قال: سل عمّا بدا لك..

قال: «يا أبا عمران، كم إلهًا تعبد»، قال: أعبد سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء!.. قال: «فإذا هلك مالك مَن تدعو؟».. قال: أدعو الذي في السماء!

قال: «فإذا انقطع القطر مَن تدعو؟» قال: أدعو الذي في السماء..

قال: «فإذا جاع العيال مَن تدعو؟» قال: أدعو الذي في السماء..

قال: «فيستجيب لك وحده، أم يستجيبون لك كلهم».. قال: بل يستجيب وحده..

فقال ﷺ: «يستجيب لك وحده، وينعم عليك وحده، وتشركهم في الشكر، أم أنك تخاف أن يغلبوه عليك».. قال حصين: لا.. ما يقدرون عليه.. فقال ﷺ: «يا حصين، أسلم أعلّمك كلمات ينفعك الله بهن..» الحديث.

حقيقة..

نعم كانوا يعبدون اللات، والعزى.. ولكنهم يعتبرونها آلهة صغيرة تقربهم إلى الإله الأعظم، وهو جل جلاله، ويصرفون لها أنواعًا من العبادات.. لتشفع لهم عند الله.. لذا كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]..

كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت.. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥]..

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث خيلاً جهة نجد لينظروا له ما حول المدينة، فبينما هم يتجولون على دوابهم، فإذا برجل قد تقلد سلاحه،

ولبس الإحرام وهو يلبي قائلاً: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك له إلا شريكًا هو لك.. تملكه وما ملك.. ويردد: إلا شريكًا هو لك.. تملكه وما ملك..

فأقبل الصحابة عليه، وسألوه: أين يريد، فأخبرهم أنه يريد مكة.. فنظروا في حاله، فإذا هو قد أقبل من ديار مسيلمة الكذّاب الذي ادعى النبوّة.. فربطوه وأوثقوه وجاءوا به إلى المدينة ليراه النبي ﷺ ويقضي فيه ما شاء، فلما رآه النبي ﷺ قال لأصحابه: «أتدرون من أسرتم؟ هذا ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة».. ثم قال: «اربطوه في سارية من سواري المسجد.. وأكرموه»، ثم ذهب ﷺ إلى بيته وجمع ما عنده من طعام وأرسل به إليه، وأمر بداية ثمامة أن تعلف ويعتنى بها.. وتُعرض أمامه في الصباح والمساء، فربطوه بسارية من سواري المسجد.. فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ماعندك يا ثمامة؟»، قال: عندي خير يا محمد.. إن تقتلني تقتل ذا دم.. (أي: ينتقم لي قومي).. وإن تُنعِم، تُنعم على شاكر، وإن كنتَ تريد المال فسل منه ما شئت..

فتركه ﷺ حتى كان الغد، ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي ما قلت لك: إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم، تنعم على شاكر، وإن كنتَ تريد المال فسل ما شئت.. فتركه ﷺ حتى بعد الغد.. فمرّ به، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي ما قلت لك..

فلما رأى ﷺ أنه لا رغبة له في الإسلام وقد رأى صلاة المسلمين وسمع حديثهم، ورأى كرمهم.. قال ﷺ: «أطلقوا ثمامة».. فأطلقوه، وأعطوه دابته، وودعوه.. فانطلق ثمامة إلى ماء قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.. يا محمد والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك.. فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ.. والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إليّ.. والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ..

ثم قال: يا رسول الله.. إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟.. فبشّره النبي ﷺ بالخير.. وأمره أن يكمل طريقه إلى مكة ويعتمر.. فذهب إلى مكة يلبي بالتوحيد قائلاً: لبيك لا شريك لك.. لبيك لا شريك لك..

نعم.. أسلم، فقال: لبيك لا شريك لك.. فلا قبر مع الله يُعبد، ولا صنم يُصلى له

ويُسجد.. ثم دخل ثمامة رضي الله عنه مكة، فتسامع به سادات قريش فأقبلوا عليه.. فسمعوا تلبيته فإذا هو يقول: لبيك لا شريك لك.. لبيك لا شريك لك.. فقال له قائل: أصبوت؟.. قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد ﷺ..

فهمّوا به أن يؤذوه، فصاح بهم وقال: لا والله، لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها النبي ﷺ..

كانوا يعظمون الله أكثر من تعظيمهم لهذه الآلهة.. فقل لي بربك: ما الفرق بين شرك أبي جهل وأبي لهب وبين مَن يذبح اليوم عند قبر، أو يسجد على أعتاب ضريح، أو يذبح له ويطوف.. أو يقف عند مشهد الولي ذليلاً خاضعًا.. منكسرًا.. خاشعًا.. يسأله الحاجات.. وكشف الكربات.. يلتمس من عظام باليات شفاء المريض، ورد المسافر..

وعجبًا والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٤]..

وهذا الشرك الذي يقع عند القبور من ذبح لها وتقرب إلى أهلها، وطواف عليها؛ هو أعظم الذنوب.. نعم أعظم من الزنا، وأعظم من شرب الخمر والقتل وعقوق الوالدين.. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].. نعم.. الله لا يغفر أن يُشرك به.. بينما قد يغفر الله للزناة.. ويعفو عن القتلة والجناة..

ولقد أخبر النبي ﷺ كما في «الصحيحين»: «أن امرأة بغيًا من بني إسرائيل كانت تمشي في صحراء، فرأت كلبًا بجوار بئر يصعد عليه تارة، ويطوف به تارة، وفي يوم حار قد أدلع لسانه من شدة الظمأ.. قد كاد يقتله العطش.. فلمّا رأته هذه البغي التي طالما عصت ربّها.. وأغوت غيرها.. ووقعت في الفواحش والآثام.. وأكلت المال الحرام.. لما رأت هذا الكلب نزعت خفها ـ حذاءها ـ وأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء وسقته.. فغفر الله لها بذلك»..

الله أكبر.. غفر الله لها.. بماذا؟ هل كانت تقوم الليل وتصوم النهار؟ هل قُتلت في سبيل الله؟ كلا.. إنما سقت كلبًا شربة من ماء.. فغفر الله لها.. لأنها كانت تقع في المعاصي، لكنها ما كانت تشرك بالله وليًا ولا قبرًا، ولا تعظم حجرًا ولا بشرًا.. فغفر الله

لها، فما أقرب المغفرة من العاصين وما أبعدها عن المشركين..

قصّة..

بعض الناس يفزع ويضطرب.. ويحزن.. إذا رأى كثرة الزناة وشُرّاب الخمور، بينما لا يتأثر وهو يرى كثرة مَن يتمسحون بأعتاب القبور ويصرفون لها أنواع العبادات.. مع أن الزنا وشرب الخمر معاصٍ كبار.. لكنها لا تخرج من ملة الإسلام.. بينما صرف شيء من العبادة لغير الله هو شرك يموت به الإنسان كافرًا..

ولذا كان العلماء الربّانيون يجعلون تدريس العقيدة أصل الأصول..

كان أحد المشايخ قد ألّف كتابًا في أهمية التوحيد، وأخذ يشرحه لطلابه، ويعيد ويكرر مسائله عليهم.. فقال له طلابه يومًا: يا شيخ، نريد أن تغير لنا الدرس إلى مواضيع أخرى.. قصص.. سيرة.. تاريخ..

قال الشيخ: سننظر في ذلك إن شاء الله.. ثم خرج إليهم من الغد مهمومًا مفكرًا.. فسألوه عن سبب حزنه، فقال: سمعت أن رجلاً في قرية مجاورة سكن بيتًا جديدًا وخاف من تعرض الجنّ له فذبح ديكًا عند عتبة باب البيت.. تقربًا إلى الجن.. ولقد أرسلت مَن تثبت لي من هذا الأمر.. فلم يتأثر الطلاب كثيرًا.. وإنما دعوا لذلك الرجل بالهداية، وسكتوا..

وفي الغد لقيهم الشيخ.. فقال: تثبتنا من خبر البارحة، فإذا الأمر على خلاف ما نقل إليَّ، فإن الرجل لم يذبح ديكًا تقربًا إلى الجن، ولكنه زنا بأمّه.. فثار الطلاب وانفعلوا، وسبّوا، وأكثروا.. وقالوا: لا بد من الإنكار عليه.. ومناصحته، وعقوبته، وكثر هرجهم ومرجهم.. فقال الشيخ: ما أعجب أمركم.. تنكرون هذا الإنكار على مَن وقع في كبيرة من الكبائر، وهي لم تخرجه من الإسلام، ولا تنكرون على مَن وقع في الشرك. . وذبح لغير الله، وصرف العبادة لغير الله..

فسكت الطلاب، فأشار الشيخ إلى أحدهم، وقال: ناولنا كتاب التوحيد نشرحه من جديد.. والشرك أعظم الذنوب، ولا يغفره الله أبدًا.. قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

والجنّة حرام على المشركين.. وهم مخلدون في النار.. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]. ومَن وقع في الشرك أفسد عليه هذا الشرك جميع عبادته من صلاة وصوم وحج وجهاد وصدقة.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

والشرك له صور متعددة..

منها ما يُخرِج من الملة، ويخلّد صاحبه في النار إذا مات ولم يتب منه.. كدعاء غير الله، والتقرب بالذبائح والنذور لغير الله من القبور والجن والشياطين، والخوف من الموتى، أو الجن والشياطين؛ أن يضروه أو يمرضوه.. ورجاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من قضاء الحاجات، وتفريج الكربات.. مما يمارس الآن حول الأضرحة والقبور..

فالقبور تزار لأجل الاتعاظ والدعاء للأموات.. كما قال ﷺ: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» وذلك للرجال.. أما النساء فلا يشرع لهنّ زيارة القبور لأن النبي ﷺ لعن زوّارات القبور، ولأن زيارتهنّ قد يحصل بها فتنة لهنّ أو بهن..

أما زيارة القبور لدعاء أهلها، والاستغاثة بهم، أو الذبح لهم، أو التبرك بهم، أو طلب الحاجات منهم، والنذر لهم.. فهذا شرك أكبر.. ولا فرق بين كون المدعو المقبور نبيًّا أو وليًّا أو صالحًا.. فكل هؤلاء بشر.. لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا.. قال الله لأحب خلقه إليه محمد ﷺ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف:١٨٨]. ويدخل في ذلك ما يفعله الجهّال عند قبر النبي ﷺ من دعائه والاستغاثة به، أو عند قبر الحسين، أو البدوي، أو الجيلاني، أو غيرهم..

أما زيارة القبور للصلاة عندها والقراءة، فهذه بدعة.. وإنما يشرع للزائر الاتعاظ والدعاء للميّت فقط..

ومن العجب أن يذهب مسلم إلى المقبورين وهو يعلم أنهم جثث هامدة.. لا يستطيعون أن يتخلصوا مما هم فيه.. فيطلب منهم أن يستجيبوا الدعوات.. أو يفرجوا الكربات.. وكثير من هذه الأضرحة، والقبور، التي تعظّم ويبنى عليها، يكون لها خدم وسدنة، يُظهرون التُّقى والتقشف، ويختلقون للناس الأكاذيب، ويدغونهم إلى الشرك بالله..

يعبدون جوزة..

إني أقول لأولئك الذين يدعون الأموات: أمواتكم هؤلاء الذين تبكون على عتباتهم وترجون شفاعتهم ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:٧٢، ٧٣].. لا والله، لا يسمعون، ولا ينفعون.. بل يخذلون ويضرّون..

وما أجمل ما فعله ذلك الغلام الصغير، الذي عمره ١٣ سنة وسافر مع والده إلى الهند.. والهند بلاد كبيرة تتنوع فيها الآلهة، يعبدون كل شيء، من حيوان ونبات وجماد وبشر وكواكب..

دخل الغلام أحد المعابد فرأى الناس يعبدون ثمرة جوز الهند.. وقد رسموا لها عينين وأنفًا وفمًا.. ويقدمون لها البخور والطعام والشراب.. ثم رآهم يُصلّون لها.. فلما سجدوا لها.. أقبل الغلام إلى الثمرة فاختطفها وهرب بها، فلما رفعوا رءوسهم من سجودهم لم يجدوا إلههم، فالتفتوا فإذا الغلام قد حمل الإله، وفرّ به هاربًا، فقطعوا صلاتهم، وركضوا وراء الغلام.. فلما ابتعد عنهم جلس على الأرض، ثم كسر الجوزة، وشرب ماءها وألقاها على الأرض.. فتصايحوا لمّا رأوا الإله مكسورًا.. فأخذوه وضربوه، ثم ذهبوا به إلى قاضي البلد..

فقال له القاضي: أنت الذي كسرت الإله؟

فقال الغلام: لا.. ولكني كسرت جوزة.. فقال القاضي: ولكنها إلههم..

قال الغلام: أيها القاضي، هل كسرت يومًا جوز هند وأكلتها؟

قال القاضي: نعم.. قال الغلام: فما الفرق إذن؟ فسكت القاضي واحتار، ونظروا إلى عُبّادها يريد منهم الجواب..

فقالوا: هذه الجوزة لها عينان وفم.. فصاح بهم الغلام وقال: هل تتكلم؟ قالوا: لا.. قال: هل تسمع؟ قالوا: لا.. قال: فكيف تعبدونها إذن؟ فبهت الذي كفر.. والله لا يهدي القوم الظالمين.. فنظر إليهم القاضي فخاف أن يتعرضوا للغلام بسوء.. فقال للغلام: عقوبة لك.. قررنا تغريمك ١٥٠ روبية.. فدفعها الغلام مرغمًا، وخرج منتصرًا..

ومما يزيد الطين بلة أن المتعلقين بالقبور لم يكتفوا بتعظيم الأموات، وسؤالهم

الحاجات.. وإنما صرفوا الأموال في تزيينها، ورفعها، والبناء عليها..

وتنقسم القباب والأضرحة المبنيّة على القبور إلى قسمين:

الأول: قباب تُبنَى في مقابر المسلمين العامة، حيث تبدو القبة شاهقة وسط القبور..

والثاني: قباب تُبنى في المساجد.. أو تبنى عليها المساجد.. وقد تكون في قبلة المسجد أو في الخلف، أو في أحد جوانبه..

وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك، فقال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد.. لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وهذا في قبره الشريف وفي كلّ قبر..

وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال لأبي الهياج: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سوّيته».. ونهى ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يُبنى عليه، أو أن يكتب عليه.. ولعن ﷺ المتخذين عليها ـ أي: القبور ـ المساجد والسرج.

ولم يكن على عهد الصحابة و التابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام.. لا على قبر نبيّ، ولا غيره..

الواقع الأليم..

اليوم.. خذ على عجل الواقع الأليم:

في مصر: أضرحة الأولياء تنتشر في مدن مصر وقراها.. «٦٠٠٠ ضريح»، وهي مراكز لإقامة الموالد للمريدين والمحبين، بل إنه من الصعب أن تجد يومًا على مدار السنة ليس فيه احتفال بمولد ولي في مكان ما بمصر.. بل تعتبر القرية التي تخلو من أضرحة منزوعة البركة عندهم..

وتنقسم الأضرحة إلى: كبرى وصغرى.. وكلما فخم البناء واتسع وذاع صيت صاحبه زاد اعتباره.. وكثر زوّاره..

فمن الأضرحة الكبرى في القاهرة: ضريح الحسين، وضريح السيدة زينب، وضريح السيدة عائشة، والسيدة سكينة، والسيدة نفيسة، وضريح الإمام الشافعي، وضريح الليث

ابن سعد.. إضافة إلى ضريح البدوي بطنطا..

أما الثاني في الشام: فقد ذكر الباحثون الثقاة أن في دمشق وحدها ١٩٤ ضريحاً والمشهور منها ٤٤ ضريحاً، وينسب للصحابة أكثر من سبعة وعشرين قبرًا، وهي في دمشق. ضريح لرأس يحيي بن زكريا عليه السلام، يقع في المسجد الأموي.. وجانب المسجد قبر لصلاح الدين، وعماد الدين زنكي.. وقبور أخرى تزار ويتوسل بها.

وفي سورية أيضًا: ضريح لمحيي الدين بن عربي صاحب (فصوص الحكم).. وهو ضال فاجر.

وفي تركيا: أكثر من ٤٨١ جامعًا لا يكاد يخلو جامع من ضريح.. أشهرها الجامع الذي بني على القبر المنسوب إلى أبي أيوب الأنصاري في القسطنطينية.

وفي الهند: يوجد أكثر من مائة وخمسين ضريحاً يؤمها الآلاف من الناس.

أما العراق: ففي بغداد وحدها أكثر من مائة وخمسين جامعًا وقل أن يخلو جامع من ضريح.. وفي الموصل يوجد أكثر من ستة وسبعين ضريحاً مشهورًا كلها داخل جوامع.. وهذا كله بخلاف الأضرحة الموجودة في المساجد والأضرحة المفردة[1].

وفي الهند: أصبح قبر الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني.. مزارًا.. ويعملون أنواع العبادات.. كالسجود.. والنذور..

وفي باكستان: ضريح الشيخ علي الهجوري في لاهور.. وهو من القبور العظيمة.

والعجيب أن الناس مفتتنون بها.. مع أن أكثرها أضرحة مكذوبة.. لا حقيقة لها..

فالحسين رضي الله عنه .. له قبر بالقاهرة يتقربون إليه.. ويصرفون له أنواعًا من العبادات من دعاء وذبح وطواف.

وفي عسقلان: قبر للحسين أيضًا.

وفي سفح جبل الجيوشن غربي حلب: ضريح ينسب إلى رأس الحسين رضي الله عنه أيضًا.

وكذلك توجد أربعة مواضع أخرى يقال: إن بها رأس الحسين: في دمشق.. والحنانة

---

(١) انظر الانحرافات العقدية (ص٢٨٩، ٢٩٤، ٢٩٥).

[بين لنجف والكوفة] والمدينة عند قبر أمه فاطمة رضي الله عنها، وفي النجف بجوار القبر المنسوب إلى أبيه رضي الله عنه، وفي كربلاء حيث يقال: إنه أعيد إلى جسده[(١)].

أما السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها.. فقد ماتت بالمدينة ودفنت بالبقيع، إلا أن قبرًا منسوبًا إليها أقامه الشيعة في دمشق[(٢)]..

ولا يقل عنه جماهيرية الضريح المنسوب إليها في القاهرة، ولم تذكر كتب التاريخ قط أنها جاءت إلى مصر في الحياة أو بعد الممات.

وأهل الإسكندرية بمصر يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأن أبا الدرداء رضي الله عنه مدفون في الضريح المنسوب إليه في مدينتهم.. ومن المقطوع به عند أهل العلم أنه لم يدفن في تلك المدينة[(٣)]..

وقل مثل ذلك في مشهد السيدة زينب بنت الرسول ﷺ بالقاهرة.. الذي أقامته زوجة الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله، وضريح السيدة سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنه.

ومن أشهر الأضرحة أيضًا: ضريح علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف بالعراق.. وهو قبر مكذوب، فإن عليًا دفن بقصر الإمارة بالكوفة.

وفي البصرة: قبر عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه رغم أنه مات بالمدينة ودفن بالبقيع.

وفي حلب: ضريح لجابر بن عبد الله رضي الله عنه مع أنه توفى في المدينة.

بل ينسب الناس في الشام قبرًا إلى أم كلثوم ورقية بنتي رسول الله ﷺ، مع أنهما زوجتا عثمان رضي الله عنه وماتتا في المدينة النبوية.. وفي حياة النبي ﷺ ودفنهما النبي ﷺ في البقيع في المدينة.

ومن المقابر المكذوبة باتفاق أهل العلم القبر المنسوب إلى هود عليه السلام بجامع دمشق.. فإن هودًا لم يجئ إلى الشام، وهناك قبر منسوب إليه في حضرموت.

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية (ص ٢٨٨)، ومجلة لغة العرب ج٧ السنة السابعة ١٩٢٩م (ص٥٦١ ـ ٥٧٧)، ومعالم حلب الأثرية، عبد الله حجار.

(٢) انظر عبد الله بن محمد بن خميس شهر في دمشق (ص ٦٧).

(٣) انظر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحين (٢/ ٢٣).

وفي حضرموت أيضًا: قبر يزعم الناس أنه لصالح عليه السلام. رغم أنه مات بالحجاز.. وله أيضًا عليه السلام قبر في يافا بفلسطين التي بها كذلك مزار لأيوب عليه السلام.

مقام الشيخ بركات

انظر كيف تلاعب الشيطان بعقول الناس: حتى صرفهم عن عبادة رب الأرض والسماوات.. إلى تعظيم الأموات.. بل تعظيم التراب والرقاب.

وقد تبدأ المسألة أحيانًا بإشاعة عن قبر من القبور أنه لزائره نافع.. ولداعيه شافع.

حتى تنتشر قصص الكرامات بين الناس.. فتتحول إلى حقيقة.. ثم تبدأ صور الشرك تظهر عنده.. من طواف عليه.. ودعاء له من دون الله.. كما يقع عند أكثر ما تقدم من قبور.. سواء كانت نسبة القبر إلى صاحبه صحيحة أو مختلقة.

وهنا يذكرني بما حكاه أحدهم عن قصة ضريح الشيخ بركات.. وهذه القصة وقعت بين شابين هما عادل وسعيد.. تخرجا في الجامعة.. ثم توظفا مدرسين في قرية ينتشر فيها تعظيم القبور، والاغترار بالنذور.

فقد كان عادل يتبادل الحديث مع سعيد وهما في طريقهما إلى المدرسة في القرية.. وفجأة صعد الحافلة متسول نصف معتوه.. كبير في السن يهتز ويتأرجح.. ويمسح لعابه بكمه المتهدل المتسخ.. يستجدي الركاب ويتهدد ويتوعد.. يهددهم بأنه سيدعو عليهم بأن تنقلب الحافلة بهم في عُرض الطريق.. ويدعي أنه مستجاب الدعوة.

ويبدو أن سعيدًا قد نشأ في أسرة متأثرة كثيرًا بالكرامات والأولياء.. والأبدال والأوتاد.. حيث فزع واضطرب.. ثم طلب من عادل أن يبادر إلى إعطائه بعض الدراهم خشية أن تنقلب الحافلة فعلاً: لأن المتسول المذكور عبد الكريم أبو شطة من الدراويش المباركين المستجابي الدعوة.. فتعجب عادل وقال: نعم.. أهل السنة والجماعة يؤمنون بالكرامات.. ولكن هي لنصالحين الأتقياء العاملين الأخفياء.. وليست لأمثال هذا من المجاذيب.. الذين يتأكلون بدينهم.. فصح به سعيد: لا تقل ذلك.. فإن الأحاديث عن الخوارق التي جرت على يديه يتناقلها الصغير والكبير.. وسترى بعد قليل أنه سينزل ونمضي نحن في

الحافلة.. ويسبقنا إلى القرية التالية ماشيًا.. حيث سينتظرنا هناك.. نعم.. كرامة.. هل تنكر الكرامات؟

عادل: أنا لا أنكر الكرامات بشكل مطلق.. فالله قادر أن يكرم من يشاء من عباده.. لكن أن تصبح الكرامات طعامنا وشرابنا وتدخلنا في باب إشراك هؤلاء العبيد والأموات مع الله ﷻ في الخلق والأمر والتصرف في الكون.. حتى نصبح نخافهم ونتقي غضبهم فلا..

سعيد: يعني أنت لا تصدق أن الشيخ أحمد أبو سرود قد جاء من عرفات إلى إستانبول وأكل الكبة المشوية عند أهله وعاد ليلاً إلى عرفات؟

عادل: يا سعيد.. بارك الله في عقلك.. أهذا الذي تعلمته في الجامعة؟

سعيد: بدأنا بأسلوب السخرية.

عادل: أنا لا أسخر منك.. ولكن أن يكون كلام العوام وخرافاتهم كلامًا منزلاً محكمًا لا يقبل النقد.. فلا.

سعيد: ولكن هذه الكرامات لا ينقلها العوام فقط، بل إن ساداتنا المشايخ ينقلون كثيرًا منها عن أصحاب المقامات والأضرحة.

عادل: إذن يا سعيد، ما رأيك لو برهنت لك برهانًا عمليًا أن كل هذه المقامات والأضرحة خلط ودخل؟ وأن كثيرًا من هذه الأضرحة لا حقيقة لها.. فلا قبر.. ولا مقبور.. ولا ولي.. وإنما إشاعات ودجل انتشر عند الناس حتى صدقوه.

فانتفض سعيد وأخذ يردد: أعوذ بالله.. أعوذ بالله.

ثم سكت قليلاً.. وسارت الحافلة حتى وصلت بهم إلى الدوار [1] الموصل إلى قريتهم.. فالتفت عادل إلى سعيد.. وقال: هل يوجد على هذا الدوار قبر أو مقام أو ضريح لأحد الأولياء يا سعيد؟

سعيد: لا.. وهل يعقل أن يدفن ولي في عرض الطريق.. وفي دوار.

عادل: إذًا ما رأيك لو أشعنا في القرية أن على هذا الدوار قبرًا قديمًا لأحد الصالحين

---

(١) الدوار: هو الساحة أو الميدان الواسع عند تقاطع عدة طرق.

قد اندرس وضاعت معالمه؟ وألفنا قصصًا في كراماته.. واستجابة الدعاء عنده.. وننظر هل سيصدق الناس أم لا؟ وأنا متأكد أن الناس ستحمل هذه الإشاعة محمل الجد.. وربما يقيمون في العام القادم مقامًا أو ضريحًا كبيرًا للشيخ المزعوم.. ويدعونه من دون الله.. وهو تراب على تراب.. لو حفروا حتى يصلوا الأرض السفلى لما وجدوا شيئًا.

سعيد: دعك من هذا يا رجل.. وهل تظن الناس أغبياء.. سفهاء إلى هذا الحد؟

عادل: ماذا تخسر أنت إذا تعاونت معي؟ ووافقتني.. أم أنت خائف من النتيجة؟

سعيد: لا لست خائفًا.. ولكن أنا غير مقتنع.

عادل: حسنًا.. بما أنك نصف موافق فما رأيك أن نطلق إلى الشيخ المزعوم اسم: الشيخ بركات.

سعيد: كما تشاء.

واتفق عادل وسعيد على إشاعة الأمر بأسلوب هادئ بين زملائهم المدرسين في المدرسة.. وعند الحلاقين باعتبار أن دكان الحلاق من أهم وسائل الإعلان.. فلما وصلا القرية.. نزلا من الحافلة وتوجها إلى دكان الحلاق سليم.. فدخلا وحدثا الحلاق عن الأولياء.. وأن أحد الأولياء الصالحين مدفون منذ سنين.. وله مكانة عند الله.. وأن المستغيثين به قليل.

فسألهم الحلاق عن مكان قبره.. فأخبراه أنه عند الدوار الذي في مدخل القرية.

فقال الحلاق: الحمد لله الذي أكرمنا بولي في قريتنا.. كنت أتمنى هذا منذ زمن.. هل من المعقول أن القرى المجاورة (الجدية) و(أم الكوسا) عندهم عشرات الصالحين.. ونحن لا يوجد عندنا مقام واحد؟!

قال عادل: الشيخ بركات يا حاج سليم كان من كبار الصالحين وكانت له مكانته عند الباب العالي.

فصاح الحلاق: إذا أنت تعرف كل هذه المعلومات عن الشيخ بركات قدس الله سره وتسكت! ثم انتشر الخبر في القرية انتشار النار في الهشيم..

وبدأ الناس من كثرة حديثهم عنه.. يرونه في المنام.. وأخذوا يتحدثون عن مجالسهم عن طوله الفارع.. وعمامته الضخمة.. وكراماته التي لا تحصى.. وكيف أن المئذنة كانت تنزل

إذا دخل وقت الأذان.. و.. و..

وبدأ الحديث في المدرسة بين أخذ ورد بين الأساتذة جميعًا..

فلما زاد الأمر عن حده.. لم يطق الأستاذ سعيد صبرًا.. فصاح بهم.. أيها العقلاء.. دعوكم من هذه الخرافات يا ناس.. فقالوا بصوت واحد: خرافات: تعني أن الشيخ بركات غير موجود.

سعيد: طبعًا غير موجود.. وليس لقبره حقيقة.. وهذه مجرد إشاعة.. والدوار تراب فوق تراب.. لا شيخ.. ولا ولي.. ولا مقام.

فانتفض المدرسون: ما الذي تقوله يا رجل؟ وكيف تجرؤ أن تقول هذا عن الشيخ بركات؟

الشيخ بركات هو الذي انفجر الينبوع الغربي في القرية على يديه.. وهو الذي..

اضطرب سعيد من كثرة صياحهم.. ولكنه قال: لا تعطوا عقولكم لغيركم.. أنتم عقلاء ومتعلمون.. ولا ينبغي أنه كلما حدثكم أحد عن قبر أو ضريح.. أو تلاعب الشيطان بعقولكم في النوم صدقتموه.

عندها.. دخل مدير المدرسة في النقاش فقال: ولكن صفات الشيخ موجودة وأكيدة.. ألم تقرأ ما كتبت عنه الجريدة البارحة؟

فعجب سعيد وسأله: حتى الجريدة! وماذا كتبت؟

قال المدير: تحت عنوان (اكتشاف مقام الشيخ بركات) كتبت تقول: (ولد الشيخ بركات ـ قدس الله سره ـ عام ١١٠٠ هـ وهو من سلالة سيدنا خالد بن الوليد.. وقد درس على عدد كبير من العلماء منهم فلان وفلان.. ولقد اشترك مع الجيش التركي في إحدى معاركه مع الصليبيين. ولما اشتد القتال مع الصليبيين.. استبد به الحماس ففتح عليهم من فمه.. فأثار رياحًا وزوبعة ضخمة.. رفعت جيش الصليبيين مسافة مائة متر في الهواء.. وسقطوا جميعًا مضرجين بدمائهم).

قال سعيد: ما شاء الله.. من أين جاء الصحفي بهذه المعلومات الدقيقة عن الشيخ بركات؟!

قال المدير: هذه حقائق.. أتظنه جاء بها من بيت أبيه؟ هذا تاريخ.

قال سعيد: ولكن هذه دعوى وتحتاج إلى دليل.. فالبينة على من ادعى.. وعلي وعليك التثبت من صحة أي دعوى.. وإلا ادعى كل واحد منا ما يحلو له.. قبور.. أولياء.. كرامات.

ثم صاح سعيد: يا جماعة.. مقام الشيخ بركات.. قضية مختلقة.. وإشاعة ملفقة.. اخترعتها أنا والأستاذ عادل.. لنثبت بها غوغائية الناس وجهلهم.. وعدم تثبتهم.. وهذا الأستاذ عادل أمامكم فاسألوه إن شئتم.

فالتفتوا إلى عادل وقالوا: الأستاذ عادل رجل يحب الجدل مثلك.. وكل قضية يطلب عليها دليلاً.. وهو حاقد على الأولياء والصالحين.

ومهما ادعيت أنت وعادل.. فنحن مؤمنون بأن الشيخ بركات. قدس الله سره. موجود في زمن الأجداد.. والدنيا لا تخلو من الأولياء والصالحين ومقاماتهم.. نعوذ بالله من الضلال!

فسكت عادل وسعيد.. وقرع الجرس وانصرف الأساتذة إلى الدروس.

وسار الأستاذ سعيد مذهولاً مما رأى، يحدث نفسه: الشيخ بركات.. كرامات.. معقول؟ غير معقول.. أيمكن أن يكون كل هؤلاء مخطئين؟ والجريدة كاذبة؟

غريب.. والمشايخ بالأمس اجتمعوا في الدوار وأقاموا الحضرة والاحتفال للشيخ بركات؟

لكن الشيخ بركات اخترعه الأستاذ عادل أيمكن أن يكون الخرف أصابهم جميعًا؟ غير ممكن.. غير ممكن..

وبدأت تتسرب إلى ذهن سعيد فكرة جديدة.. ربما أن الشيخ بركات موجود فعلاً.. وربما أن الأستاذ عادلاً يعلم ذلك مسبقًا.. لكنه أوهمه أنه هو الذي اخترع وجود الشيخ بركات.

فكر الأستاذ سعيد في ذلك.. لكنه استعاذ من الشيطان الرجيم ليبعد هذه الفكرة من عقله.. لكنه لم يفلح.

وفي اليوم التالي.. استمر النقاش في المدرسة على هذا المنوال.. وكان العام الدراسي في أواخره.. وانتهت المناقشات بذهاب كل أستاذ إلى بلده عندما حانت العطلة الصيفية.

وفي العام التالي ركب الأستاذ عادل والأستاذ سعيد الحافلة ذاهبين إلى المدرسة في

القرية.. وكان الأستاذ عادل قد نسي الموضوع تمامًا.. مع أنه هو الذي اخترع القضية وأشاعها..

لكنه انتبه إلى الأستاذ سعيد وهو يتمتم بلسانه بأذكار وأدعية عندما اقتربوا من دوار القرية.

وكم كانت دهشتهما كبيرة عندما وصلوا إلى الدوار.. فوجدوا بناء جميلاً لمقام الشيخ بركات ينتصب شامخًا على الدوار.. وبجانبه مسجد كبير فخم على الطراز المعماري التركي.

ابتسم الأستاذ عادل وعلم أن الناس مساكين سفهاء.. وأن الشيطان قد أفلح في نشر الشرك بينهم.

فالتفت إلى الأستاذ سعيد.. ليشاركه التبسم.. لكنه فوجئ أن الأستاذ سعيدًا كان غائبًا في أدعيته.. بل صاح سعيد بالسائق طالبًا منه أن يتوقف قليلاً.. ثم رفع يديه وقرأ الفاتحة على روح الشيخ بركات [مجلة البيان - بتصرف].

ماذا يفعلون هناك؟

يقصد الكثير من القبوريين الأضرحة حاملين معهم الأغنام والأبقار.. والسكر والقهوة والشاي.. وأنواع الأطعمة إضافة إلى الأموال.. ليقدموها قربانًا إلى صاحب الضريح.. وقد يذبحون الأنعام تقربًا أيضًا للولي أو للشيخ.. ويطوفون بالقبر يتمرغون بترابه.. ويطلبون قضاء الحوائج وتفريج الكربات منه.

بل تجد أن هؤلاء المفتونين.. يحلفون بالأموات والمقبورين.. فإذا أراد أحدهم أن يحلف على شيء لم يقبلوا منه أن يحلف بالله.. بل لو حلف بالله وقال: والله العظيم.. أو أقسم بالله.. ما قبلوا منه ولا صدقوه.. فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه.

وقد آل الأمر ببعض هؤلاء أن شرعوا للقبور حجًّا.. ووضعوا له مناسك.. حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا وسماه (مناسك حج المشاهد) مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام.

بل إنهم مبالغة منهم في البدعة والشرك.. جعلوا لزيارة الضريح آدابًا.. فينبغي أن يخلع الزوار نعالهم عند زيارة الضريح.. احترامًا لصاحب الضريح.. ويتم دخول القبة بإذن من حارسها.. كما يتولى خادم الضريح [تطويف] الزوار حول الضريح كما يطوف المسلمون

حول الكعبة.

ويترك الزوار بالضريح والقبة بطرق شتى: فمنهم من يأخذ من ترابها.. ومنهم من يضع يديه على السياج المعدني الذي حول القبر ويتمسح بها.. ثم يمسح على جسده وملابسه..

وإذا دخلت الضريح رأيت أعاجيب: العبادة لغير الله.. دعاء المقبور والاستعانة به والإلحاح عليه في الدعاء..

بل ترى المرأة ترفع طفلها.. وتهزه وهي تخاطب الشيخ المقبور راجية منه البركة في صغيرها.. ترى من يسجد وهو مستقبل القبر.. إضافة إلى تقديم النذور عند هذه القباب.

ومن الناس من يعكف عند القبور أيامًا وشهورًا.. التماسًا للشفاء أو لقضاء حاجة.. وقد ألحقت ببعض القباب غرف انتظار الزائرين لهذا الغرض..

كما يظهر على الزائر الخشوع والسكينة والتأثر الذي قد يصل إلى حد البكاء.. فصار هؤلاء المقبورون آلهة من دون الله.. والله لا يرضى أن يعبد معه نبي ولا ملك.. فكيف إذا عبد معه غيره.

كيف نشأ الشرك؟

لو تأملت كيف نشأ الشرك على الأرض.. لوجدت أنه الغلو في الصالحين ورفعهم فوق منزلتهم.. في قوم نوح.. كان الناس موحدين.. يعبدون الله وحده لا شريك له.. ولم يكن شرك على وجه الأرض قط وكان فيهم خمسة رجال صالحين.. وهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر.. وكانوا يتعبدون.. ويعلمون الناس الدين.. فلما ماتوا حزن عليهم قومهم.. وقالوا: ذهب الذين كانوا يذكروننا بفضل العبادة.. ويأمروننا بطاعة الله..

فوسوس الشيطان لهم.. قائلاً: لو صورتم صورهم.. على شكل تماثيل.. ونصبتموها عند مساجدكم.. فإذا رأيتموهم ذكرتم العبادة فنشطتم لها.

فأطاعوه.. فاتخذوا الأصنام رموزًا.. لتذكرهم بالعبادة والصلاح.. فكانوا فعلاً.. يرون هذه الأصنام فيتذكرون العبادة.. ومضت السنون.. وذهب هذا الجيل.. ونشأ أولادهم من بعدهم.. وكبروا وهم يرون آباءهم يثنون على هذه التماثيل والأصنام.. ويعظمونها.. لأنها

تذكرهم بالصالحين..

ثم نشأ قوم بعدهم.. فقال لهم إبليس: «إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونها.. وكانوا إذا أصابهم قحط أو حاجة لجئوا إليها فاعبدوها».

فعبدوها.. حتى بعث الله إليهم نوحًا عليه السلام.. فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.. فما آمن معه إلا قليل.. فغضب الله على الكافرين.. فأهلكهم بالطوفان.

هذا ما حدث في قوم نوح عليه السلام..

فكيف نشأ الشرك في قوم إبراهيم؟ كانوا يعبدون الكواكب والنجوم.. ويرون أنها تتحكم في الأكوان.. وتكشف الكربات.. وتجيب الدعوات.. وتهب الحاجات.. يعتقدون أن هذه الكواكب (وسطاء) بين الله وخلقه.. وأنهم موكول إليهم تصريف هذا العالم.. ثم لم يلبثوا أن صنعوا أصنامًا.. على صور الكواكب والملائكة..

وكان أبوه يصنع الأصنام فيعطيها أولاده فيبيعونها.. وكان يلزم إبراهيم للخروج لبيع الأصنام.. فكان إبراهيم ينادي عليها: «من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟» فيرجع إخوته وقد باعوا أصنامهم.. ويرجع إبراهيم بأصنامه كما هي.. ثم دعا أباه وقومه إلى نبذ هذه الأصنام.. فلم يستجيبوا له.. فحطم أصنامهم.. فحاولوا إحراقه، فأنجاه الله من النار.

الوارثون للشرك

هذا حال قوم نوح وإبراهيم.. واليوم نأتي إلى القبوريين فنسأل: كيف تبدأ علاقتهم بالقبر أو الضريح؟ وكيف تنتهي بهم إلى الشرك؟

تبدأ العلاقة بتقديس الأشخاص ذوي الصلاح والتقوى.. ومن ثم.. تستحب زيارة تلك البقاع.. ليس لتذكر الموت والآخرة بل لتذكر الشيخ الصالح والاعتبار به.. ثم دعا الله عندها رجاء الإجابة.. ثم لمس القبر وتقبيله.. والتمسح به.. ثم اتخاذه (واسطة) و(وسيلة) للاستشفاع به عند الله، ويزعمون أن صاحب الضريح طاهر مكرم.. مقرب معظم.. له جاه عند الله.. بينما صاحب الحاجة متلطخ بالذنوب.. لا يصلح أن يدعو الله مباشرة.. فلا بد أن يجعل صاحب القبر واسطة بينه وبين الله.

ثم يقذف الشيطان في قلوب الزائرين.. يقول لهم: ما دام هذا المقبور مكرمًا فقد يعطيه الله تصرفًا وقدرة.. فيبدأ الزائر يعظم المقبور في نفسه.. ويهابه.. ويرجوه.. ثم بعد ذلك يدعوه.. ويستغيث به.. ثم يبني عليه مسجدًا.. أو قبله وضريحًا.. ويوقد فيه القناديل.. ويعلق عليه الستور.. ويعبده بالسجود له.. والطواف به.. وتقبيله واستلامه.. والحج إليه.. والذبح عنده.. ثم ينسجون حوله الكرامات.. والقصص والحكايات.. فهذه امرأة دعته فرزقت زوجًا.. والثانية أنجبت ولدًا وهكذا..

وما دام الأمر كذلك.. فما الفرق بين كوم تراب.. وحجارة وأخشاب.. أو ضريح ومقام.. أو صور وأصنام.. أو أي شيء من المخلوقات؟ لا فرق.. المهم وجود [السر] والتوجه إلى صاحبه.. واعتقاد أنه يضر وينفع.. ويغني ويشفع.

أربعة اعتراضات..

الأول: قد يقول بعض المتعلقين بالقبور.. الداعين لها.. أنتم تشددون علينا.. فنحن لا نعبد الأموات.. لكن هؤلاء المقبوريين أولياء صالحون.. لهم عند الله جاه ومكان.. فهم يشفعون لنا عند الله.

فنقول: هذا شرك كفار قريش في عبادتهم للأصنام.. فمشركو العرب كانوا مقرين بتوحيد الربوبية.. وأن الخالق الرازق والمدبر هو الله وحده لا شريك له.. كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[يونس:٣١].

ومع ذلك قاتلهم النبي ﷺ.. واستحل دماءهم.. وأموالهم.. لأنهم لم يفردوا الله ﷻ بجميع أنواع العبادة.

والآيات القرآنية.. والأحاديث النبوية.. التي حذرت من عبادة غير الله.. بينت أن الشرك بالله هو أن يجعل العبد لله ندًا شريكًا في العبادة سواء كان صنمًا أو حجرًا.. أو نبيًا.. أو وليًا.. أو قبر.

ومن الشرك: أن يفعل لغير الله شيئًا يختص به الله سبحانه، سواء أطلق على ذلك الغير

ما كان تطلقه عليه الجاهلية كالصنم والوثن.. أو أطلق عليه اسم آخر كالولي والقبر والمشهد.

ولو ظهرت علينا اليوم فرقة جديدة من الفرق.. وادعت أن لله صاحبة وولدًا لصار حكمهم حكم النصارى.. وانطبقت عليهم الآيات التي نزلت في النصارى.. وإن لم يسموا أنفسهم نصارى.. لأن حكمها واحد.. فكذلك عباد القبور اليوم..

الثاني: وقد يعترض بعض المتعلقين بالقبور.. ويقولون: نحن نتقرب إلى المقبورين.. من الأولياء والصالحين.. من أجل طلب الشفاعة.. فهؤلاء الموتى قوم صالحون كانوا في الدنيا صوامين في النهار.. بكائين في الأسحار.. فلهم جاه وقدر عند الله.. نحن نطلب منهم أن يشفعوا لنا عند الله..

فنقول لهم: يا قوم.. ويحكم أجيبوا داعي الله وآمنوا به.. إن الله قد سمى اتخاذ الشفعاء شركًا..

فقال سبحانه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس:١٨].

ونقول لهم أيضًا: نحن نؤمن معكم.. بأن الله تعالى أعطى الأنبياء والأولياء الشفاعة.. وهم أقرب الناس إليه.. لكن ربنا نهانا عن سؤالهم ودعائهم.

نعم.. الأنبياء والأولياء والشهداء.. لهم شفاعة عند الله.. ولكنها ليست بأيديهم: يشفعون لمن شاءوا.. ويتركون من شاءوا.. كلا.. بل لا يشفعون إلا بعد أن يأذن الله لهم.. ويرضى عن المشفوع.

الثالث: قد يعترض بعض المتعلقين بالقبور فيقولون: إن الكثير من المسلمين في القديم والحديث يبنون على القبور.. ويتخذون المشاهد والقباب.. ويتحرون الدعاء عندها.. فهل الأمة كلها على باطل.. وأنتم على الحق..

فنقول لهم: أكثر هذه المشاهد والأضرحة مكذوبة.. لا تصح نسبتها إلى أصحابها.. كما تقدم..

وأيضًا.. فإن البناء على القبور وتحري الدعاء عندها.. من البدع المنكرة.. كما في قوله

ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا [متفق عليه].

الرابع: وهنا شبهة.. قد يقذفها الشيطان في بعض القلوب.. وهي أن قبر النبي ﷺ قد ضمن المسجد النبوي دون نكير.. ولو كان ذلك حرامًا لم يدفن فيه.. كما يحتجون بوجود القبة على قبره ﷺ؟

والجواب: أن النبي ﷺ دفن حيث مات.. والأنبياء يدفنون حيث يموتون كما جاء بذلك الأحاديث.. فدفن في حجرة عائشة رضي الله عنها فلم يدفن في المسجد.. وإنما دفن في الحجرة.. هذا في أول الأمر.

والصحابة رضي الله عنهم دفنوه في حجرة عائشة كي لا يتمكن أحد بعدهم من اتخاذ قبره مسجدًا كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت: فلولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا[(١)].

نعم دفن أول الأمر في بيت عائشة: وكان بيت عائشة ملاصقًا للمسجد من الجهة الشرقية..

ومضت السنوات والناس يكثرون.. والصحابة يوسعون المسجد من جميع الجهات.. إلا من جهة القبر.. وسعوه من جهة الغرب والشمال والجنوب.. إلا الجهة الشرقية فلم يوسعوه منها؛ لأن القبر يحجزهم عن ذلك..

وفي سنة ثمان وثمانين أي بعد وفاة النبي ﷺ بسبع وسبعين سنة.. وبعدما مات عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة.. أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد لتوسعته.. وأمر بتوسعته من جميع الجهات.. وإضافة جميع حجر أزواج النبي ﷺ.. عندها وسع من الجهة الشرقية.. وأدخلت فيه الحجرة النبوية.. حجرة عائشة رضي الله عنها فصار القبر بذلك في المسجد[(٢)].

فهذه قصة القبر والمسجد.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) انظر الرد على الأخنائي (ص ١٨٤)، ومجموع الفتاوى (٢٧/٢٣٢)، تاريخ ابن كثير (٩/٧٤).

إذن.. لا يصح لأحد أبدًا أن يحتج بما وقع بعد الصحابة رضي الله عنهم لأنه مخالف للأحاديث الثابتة.. وما فهمه سلف الأمة.. وقد أخطأ الوليد بن عبد الملك ـ عفا الله عنه ـ في إدخاله الحجرة النبوية ضمن المسجد.. لأن النبي ﷺ نهى عن بناء المساجد على القبور.. وكان الأصل أن يوسع المسجد من الجهات الأخرى دون أن يتعرض للحجرة النبوية.

وكذلك القبة التي فوق قبره ﷺ.. فإنها ليس بناؤها منه ﷺ ولا من الصحابة رضي الله عنهم ولا من تابعيهم.. ولا تابعي التابعين.. ولا من علماء أمته وأئمة ملته.. بل هذه القبة المعمولة على قبره ﷺ من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين.. وهو قلاوون الصالحي المعروف بالملك المنصور في سنة (٦٧٨هـ)(١).

نداء.. نداء..

أقول للمتعلقين بالمقبورين يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به..

بالله عليكم.. هل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصصون قبرًا أو يرجون بشرًا؟ أو يتوسلون بضريح ومقام؟ ويغفلون عن الملك العلام؟

وهل تعلمون أن واحدًا منهم وقف عند قبر النبي ﷺ أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته.. يسأله قضاء حاجة من الحاجات.. أو تفريج كربة من الكربات؟

وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين.. والصحابة والتابعين؟

يا قومنا.. ويحكم.. هل تعلمون أن النبي ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل.. نهى عنها عبثًا ولعبًا.. أم أنه خاف أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى.. بعبادة الصور والتماثيل؟

وأي فرق بين من يعظم الصور والتماثيل.. وبين من يعظم الأضرحة والقبور.. ما دام كل منها يجر إلى الشرك.. ويفسد عقيدة التوحيد؟

---

(٢) انظر: تحذير الساجد للألباني (ص ٩٣) وصراع بين الحق والباطل لسعد صادق (ص ١٠٦) وتطهير الاعتقاد (ص ٤٣).

ومن الإيمان بالله أيضًا

اعتقاد أن الله رب كل شيء، وأنه المستحق للعبادة.. وله الأسماء الحسنى والصفات العلى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] .. ونؤمن بأن الله يتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء.. كما قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] .. والقرآن وجميع الكتب السماوية.. هي كلام الله..

ونؤمن بأن الله عال على خلقه بذاته وصفاته.. وبأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش.. واستواؤه على العرش يليق بجلاله وعظمته لا يعلم كيفيته إلا هو ﷻ .. ومع أنه عال على عرشه.. يعلم أحوال خلقه.. ويسمع أقوالهم.. ويرى أفعالهم.. ويدبر أمورهم.. ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة.. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] .

وكل ما أخبر الله به في كتابه وما أخبر به رسوله ﷺ من صفات ربنا فنحن مؤمنون بها.. مصدقون بحقيقتها.. على الوجه اللائق به ﷻ ..

والإيمان بالملائكة

وأن الله خلقهم من نور.. ووكلهم بأعمال يقومون بها.. وهم عباد لا يعصون الله ما أمرهم.. ويفعلون ما يؤمرون.. هم أكثر منا عددًا.. وأكثر منا خوفًا وتعبدًا.

روى البخاري ومسلم أن في السماء بيتًا يسمى بالبيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك فيصلون ثم يخرجون منه.. ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة..

وصح عند أبي داود والطبراني أنه ﷺ قال: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله ﷻ من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام..».

ولبعض الملائكة أعمال خاصة.. فجبريل موكل بالوحي إلى الأنبياء.. وميكائيل بالمطر والنبات.. وإسرافيل بالنفخ في الصور عند قيام الساعة.. وملك الموت موكل بقبض الأرواح.. ومالك خازن النار.

ولله ملائكة موكلون بالجنة في الأرحام.. وآخرون موكلون بحفظ بني آدم.. ومنهم موكلون بكتابة أعمال بني آدم.. وملائكة موكلون بسؤال الميت في قبره.. وغير ذلك..

هؤلاء هم الملائكة.. وهم عالم غيبي.. نؤمن بوجودهم وإن كنا لا نراهم.

وهناك مخلوقات أخرى غائبة عنا أيضًا.. وهم: الجن.. وهم مخلوقون من نار.. وخلقهم الله قبل خلق الإنسان.. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٦، ٢٧]

وهم مكلفون مأمورون بالعبادة.. فمنهم المؤمن ومنهم الكافر..

ومنهم المطيع ومنهم العاصي.. وهم يعتدون على الإنس أحيانًا.. كما يعتدي الإنس عليهم أحيانًا.. ومن عدوان الإنس عليهم أن يستجمر الإنسان (أي: يمسح فرجه بعد البول والغائط) بعظم أو روث.. ففي «صحيح مسلم» قال النبي ﷺ عن العظم والروث: «لا تستنجوا بهما فإنها طعام إخوانكم من الجن»..

ومن عدوان الجن على الإنس.. تسلطهم بالوسوسة وتخويفهم.. وصرعهم.. ويمكن للمسلم أن يتحصن منهم بالأذكار الشرعية.. كقراءة آية الكرسي.. والمعوذات.. والأذكار الشرعية عن النبي ﷺ.. أما التقرب إليه بالذبح لهم ودعائهم لاتقاء شرهم، فهذا من صور الشرك.

ولا شك أن الجن والشياطين ضعفاء.. وكيدهم ضعيف.. ولكن الإنسان إذا كثرت معاصيه.. وصار ينظر إلى الحرام.. ويسمع المعازف.. وضعف إيمانه وقل تعلقه بربه.. وغفل عن ذكر الله.. وعن التحصن بالأذكار الشرعية.. استطاعوا التسلط عليه.. قال تعالى عن الشيطان وجنده: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩، ١٠٠]

والإيمان بالكتب

وهي الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه.. هداية للخلق.. وهي كثيرة.. نؤمن بها كلها.. وقد أخبرنا الله بأربعة منها.. فالقرآن أنزله الله على محمد.. والتوراة على موسى.. والإنجيل

على عيسى.. والزبور على داود.. عليهم الصلاة والسلام..

وكلها كلام الله تعالى.. والقرآن هو آخرها وأعظمها.. جمع الله فيه ما في الكتب السابقة.. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

والإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام

فقد بعث الله في كل أمة رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.. وأول الرسل: نوح، وآخرهم محمد، عليه الصلاة والسلام..

والرسل عددهم كثير.. منهم من أخبرنا الله باسمه.. وقص علينا خبره.. ومنهم من لم يخبرنا به.. فنؤمن بهم كلهم.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨].. وهم بشر مخلوقون لا فرق بينهم وبين الناس إلا أنهم يوحى إليهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠].. نعم.. هم بشر يأكلون ويشربون.. ويمرضون ويموتون.. ويجب الإيمان بهم جميعًا.. فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع..

قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، وقال عن قوم هود: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣].. مع أن كل أمة لم تكذب إلا نبيها.. ولكن لأن رسالة جميع الأنبياء واحدة، فمن كذب بواحد منهم، فقد كذب بالجميع.

وعلى هذا فالنصارى الذين كذبوا محمدًا ﷺ ولم يتبعوه هم مكذبون للمسيح ابن مريم.. لأنه بشرهم بمحمد ﷺ وأمرهم باتباعه.. فلم يطيعوه.. وقل مثل ذلك في اليهود.. وغيرهم..

الإيمان باليوم الآخر

وهو التصديق بما ذكر الله في كتابه.. وأخبر به رسوله ﷺ.. بما يقع بعد الموت.. فنؤمن أولاً بعذاب القبر ونعيمه.. وهو ثابت بالكتاب والسنة.. قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ

سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥، ٤٦].

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ [التوبة:١٠١].

قال ابن مسعود وغيره: «العذاب الأول في الدنيا.. والثاني عذاب في القبر.. ثم يردون إلى عذاب عظيم في النار».

أما الأحاديث في إثبات عذاب القبر ونعيمه فهي كثيرة.. بل قد صرح ابن القيم وغيره أنها متواترة.. وفي السنة أكثر من خمسين حديثًا في ذلك.

منها ما في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ مر بقبرين.. فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة».

وفي «الصحيحين» أيضًا: أنه ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر..» وعذاب القبر ونعميه أمور غيبية.. لا تقاس بالعقل..

ومن الإيمان باليوم الآخر

الإيمان بالبعث وإحياء الموتى حين ينفخ في الصور.. فيقومون حفاة عراة غرلاً (غير مختونين) كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥، ١٦].

والإيمان بالحساب والجزاء.. قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥، ٢٦].

والإيمان بالجنة والنار.. فالجنة دار المتقين.. فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. والنار هي دار العذاب.. فيها من العذاب والنكال ما لا يخطر على البال..

ونؤمن كذلك بأشراط الساعة الصغرى.. والكبرى.. كخروج الدجال.. ونزول عيسى عليه السلام من السماء.. وطلوع الشمس من مغربها.. وخروج دابة الأرض من موضعها.. وغير ذلك.

ونؤمن بالشفاعة.. والحوض.. والميزان.. ورؤية الله تعالى.. وغير ذلك من أمور الآخرة..

والإيمان بالقدر.. خيره وشره

فنؤمن بأن الله لسعة علمه يعلم الأمور قبل أن تقع.. فعلم كل شيء جملة وتفصيلاً.. وكتبه في اللوح المحفوظ.. وخلق جميع الكائنات.. ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر:٦٢].. ولا يحدث في هذا الكون شيء إلى وقد علم الله حدوثه.. وأذن به.. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر:٤٩].. وكل إنسان له مشيئة وقدرة.. يختار بهما فعل الشيء أو تركه.. فهو إن أراد توضأ وصلى.. وإن أراد ضل وزنى.. لذا هو محاسب ومجازى.. ولا يجوز أن يحتج بالقدر على ترك الواجبات.. أو فعل المحرمات..

ومما يقدح في الإيمان

الاستهزاء بالدين.. فهو رده عن الإسلام.. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة:٦٥، ٦٦].. ومثل هذا ما يقوله بعضهم: إن الإسلام دين قديم لا يصلح لعصرنا.. أو إنه تأخر ورجعية.. أو يقول: إن القوانين الوضعية أحسن من الإسلام.. أو يقول فيمن يدعو إلى التوحيد وينكر عبادة القبور والأضرحة: هذا متطرف.. أو: هذا إرهابي.. أو يفرق بين المسلمين..

ومن أكبر القوادح في الإيمان

الحكم بغير ما أنزل الله..

فمن مقتضى الإيمان بالله الحكم بشرعه.. في الأقوال والأفعال.. والخصومات والأموال.. وسائر الحقوق.. فيجب على الحكام أن يحكموا بما أنزل الله.. ويجب على الرعية أن يتحاكموا إلى ما أنزل الله.. ولا يجتمع الإيمان مع التحاكم إلى غير ما أنزل الله.. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥]، وقال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].. فلا بد من الحكم بما أنزل الله.. في كل شيء.. في البيع والشراء.. والسرقة.. والزنى.. وغيرها.. وليس في أحكام الطلاق والزواج والأحوال الشخصية

فقط.. ومن شرع قوانين للناس.. وزعم أن هذه القوانين تغني عن حكم الله.. أو تساوي حكم الله.. أو قال: هي أنسب وأفضل من حكم الله فهو كافر.. نعم كافر.. قال الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١] وقال الله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

وفي «الصحيح» أنه لما أنزل الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].. قال عدي بن حاتم رضي الله عنه: يا رسول الله لسنا نعبدهم.. قال: «أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه.. ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟» قال: بلى، قال ﷺ: «فتلك عبادتهم».

ومن القوادح في الإيمان

موالاة الكفار.. ومعاداة المؤمنين.

ولا شك أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين.. وأن يحذروا مودتهم.. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١].. بل حرم الآباء والإخوان إن كانوا كفارًا.. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].. والآيات في هذا المعنى كثيرة.. تدل كلها على وجوب بغض الكفار ومعاداتهم لكفرهم بالله.. وعدائهم لدينه.. ومعاداتهم لأوليائه.. وكيدهم للإسلام وأهله.. كما قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١١٨ ـ ١٢٠]..

وواقع اليهود والنصارى اليوم لا يخفى.. في كيد الإسلام.. ومحاربة أهله والتنفير منه.. وإنفاق الأموال الضخمة للصد عن سبيله..

ومن صور موالاة بعض المسلمين للكافرين اليوم: مخالطتهم من غير قصد الدعوة، أو

مساكنتهم في بلادهم، أو السفر إليهم من غير ضرورة، والتشبه بهم في اللباس، أو المظهر أو طريقة الحياة.. أو التكلم بلغتهم من غير حاجة..

ومن أكبر القوادح في الإيمان

تنقص أصحاب النبي ﷺ أو سبهم أو تنقص أهل بيته الكرام..

فنحب أصحاب النبي ﷺ.. ولا نغلو في حب أحد منهم.. لا في علي رضي الله عنه.. ولا في غيره.. ولا نتبرأ من أحد منهم.. ونبغض من يبغضهم.. ولا نذكرهم إلا بخير.. قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]..

ومذهب أهل السنة والجماعة فيما حدث بينهم من خلافات أو حروب.. الإمساك عن ذلك كله.. فهم بشر يخطئون ويصيبون.. وكما عصم الله سيوفنا عن الدخول في تلك الفتن فلنعصم منها ألسنتنا.. ونقول: هم بشر لهم رب يجمعهم يوم القيامة ويحكم بينهم.

ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر.. تفضيلاً له وتقديمًا على جميع الأمة.. ثم لعمر.. ثم لعثمان.. ثم لعلي رضي الله عنهم..

ختامًا..

ذكر العلماء أن المسلم قد يرتد عن دينه بأنواع كثيرة من النواقض التي تحل دمه وماله.. ويكون بها خارجًا عن الإسلام.

ومن أخطرها وأكثرها وقوعًا عشرة نواقض:

الأول: الشرك في عبادة الله تعالى.. كما تقدم..

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم، فقد كفر إجماعًا..

الثالث: من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم؛ كفر. فكل من لا يدين بدين الإسلام فهو كافر، سواء كان نصرانيًا أو يهوديًا، أو بوذيًا، أو غير ذلك.. وسواء كان قريبًا أو بعيدًا..

الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه.. أو أن حكم غيره أحسن من حكمه.. كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه.. فهو كافر..

ويدخل في ذلك: من اعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنها الناس أفضل من شريعة الإسلام، أو أنها مساوية لها.. أو أنه يجوز التحاكم إليها (حتى لو اعتقد أن الحكم بالشريعة أفضل).. أو اعتقد أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في القرن العشرين.. أو أنه كان سببًا في تخلف المسلمين.. أو أنه يحصر في علاقة المرء بربه دون أن يتدخل في شئون الحياة الأخرى.

وكذلك.. من يرى أن إنفاذ حكم الله في قطع يد السارق أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحاضر.

وكذلك.. كل من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير شريعة الله في المعاملات والحدود أو غيرهما.. وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة، لأنه بذلك يكون قد استباح ما حرم الله إجماعًا؛ وكل من استباح ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة.. كالزنى.. والخمر.. والربا..

وكذلك.. الحكم بغير شريعة الله.. فهو كافر بإجماع المسلمين.

الخامس: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل، فقد كفر.. لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩].

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثوابه أو عقابه؛ كفر.. والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥، ٦٦]..

السابع: السحر.. ومن الصرف [وهو أن يعمل لأحد الزوجين ما يبغضه في الآخر] والعطف [وهو أن يعمل لأحد الزوجين ما يحبه في الآخر]. فمن فعله أو رضي به؛ كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين.. والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى عليه السلام.. وكما يعتقد بعض الصوفية أنهم تسقط عنهم التكاليف الشرعية.. فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

العاشر: الإعراض عن دين الله.. لا يتعلمه ولا يعمل به.. والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢]

ومن أكبر المعاصي: منع الزكاة..

فهي الركن الثاني من أركان الإسلام..

وفي «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار.. فأحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت عليه.. في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما في الجنة وإما في النار..».

وروى البخاري أنه ﷺ قال: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني: شدقيه - ثم يقول: أنا مالك.. أنا كنزك».. ثم تلا النبي ﷺ الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٠]

وأخيرًا..

يا أخي الكريم.. وأختي الكريمة..

يا قومنا.. أجيبوا داعي الله وآمنوا به.. يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم..

والله إني لك ناصح.. وهذا الحق قد تبين لك.. وعرفت أن الدين واحد لا يتعدد.. فهو الله لا إله إلا هو.. حي قيوم.. فرد صمد.. لا يرضى أن يشرك معه أحد.. ولا تكن من أولئك الذين يقولون: «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون».. بل قل: إنا موحدون

طائعون متبعون.. ولا نغتر بكثرة من يذبح عند القبور.. أو يشرك بالله عندها..

ولا تأخذك كثرة الأحاجي والقصص التي ينسجها هؤلاء عن مقبوريهم.. إنهم يكشفون الكربات.. ويجيبون الدعوات..

وانظر إلى أبي طالب عم النبي ﷺ.. الذي كان مصدقًا بأن النبي ﷺ حق.. وأن الدين الحق هو الإسلام.. ونبذ عبادة الأصنام حتى إنه كان يردد دائمًا قوله:

والله لن يصلوا إليكم بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي	فلقد صدقت وكنت فينا أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

ولكن منعه من اتباع الحق.. خوفه من مخالفة الآباء والأجداد..

بل انظر إليه.. وهو على فراش الموت.. شيخ كبير قد رق عظمه.. وضعف جسده.. وحانت منيته.. والنبي ﷺ واقف عند رأسه يدافع عبراته.. ويقول: «يا عم قل: لا إله إلا الله.. قل: لا إله إلا الله..» وعند رأسه وقف كفار قريش.. فلما أراد أن يتلفظ بشهادة التوحيد قالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ أترغب عن ملة عبد المطلب؟

ولم يزل النبي ﷺ يناشده أن يلفظ بالشهادتين.. وهم يحثونه على البقاء على ملة آبائه وأجداده.. حتى مات.. وهو على دين آبائه وأجداده.. على عبادة الأصنام.. والشرك بالملك العلام..

مات.. وارتحل من هذه الدنيا ومقره إلى جهنم وبئس المصير.. والله قد حرم الجنة على الكافرين.. وفي «الصحيحين» أنه ﷺ سئل، فقيل له: يا رسول الله، إن عمك كان يحوطك وينصرك فهل أغنيت عنه شيئًا؟ فقال: «نعم.. وجدته في غمرات من النار.. فأخرجته.. إلى ضحضاح من نار.. تحت قدميه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه..».

بل انظر إلى محطم الأصنام.. وباني البيت الحرام.. إبراهيم عليه السلام.. الذي ابتلي في مولاه.. وعذب في سبيل الله.. لا يستطيع يوم القيامة أن ينفع أباه.. لأن أباه مات مشركًا بالله. فعند البخاري: قال ﷺ: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة.. وعلى وجه آزر قترة وغبرة.. فيقول له

إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك.. فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون.. وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين».

فتنبه لهذا كله وتذكر: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤ - ٣٦].. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

وكن رجاعًا إلى الحق.. ناصحًا لغيرك.. داعيًا إلى التوحيد..

أسأل الله للجميع الهدى والرشاد..

والله تعالى أعلم.. وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله..



إنها ملكة

البداية..

أما هي.. فكانت فتاة روسية.. من عائلة محافظة.. لكنها (آرثوذكسية) شديدة التعصب للنصرانية.. عرض عليها أحد التجار الروس أن تصحبه مع مجموعة من الفتيات.. إلى دولة خليجية لشراء أجهزة كهربائية.. ثم بيعها في روسيا.. كان هذا هو الهدف المتفق عليه بين الرجل.. وهؤلاء الفتيات..

وعندما وصلوا إلى هناك.. كشر عن أنيابه.. وعرض عليهم ممارسة الرذيلة.. وبدأ في تقديم الإغراءات لهن.. مال وافر.. علاقات واسعة.. إلى أن اقتنع أكثر الفتيات بفكرته.. إلا هذه الفتاة.. كانت شديدة التعصب لدينها النصراني.. فتمنعت.. فضحك منها.. وقال: أنت في هذا البلد ضائعة.. ليس معك إلا ما تلبسين من الثياب.. ولن أعطيك شيئًا.. وبدأ يضيق عليها.. أسكنها في شقة مع بقية الفتيات.. وخبأ جوازات سفرهن عنده.. وانجرفت الفتيات مع التيار.. وثبتت هي على العفاف.. لا زالت تلح عليه كل يوم.. في تسليمها جوازها.. أو إرجاعها إلى بلدها.. فيأبى عليها ذلك.. فبحثت يومًا في الشقة حتى وجدت جوازها.. فاختطفته.. وهربت من الشقة.. خرجت إلى الشارع.. لا تملك إلا لباسها.. هامت على وجهها.. لا تدري أين تذهب.. لا أهل.. ولا معارف.. ولا مال.. ولا طعام.. ولا مسكن.. أخذت المسكينة تتلفت حائرة يمنة ويسرة.. وفجأة رأت شابًا.. يمشي مع ثلاث نساء.. اطمأنت لمظهره.. فأقبلت عليه.. وبدأت تتكلم باللغة الروسية.. فاعتذر أنه لا يفهم الروسية.. قالت هل تتكلمون الإنجليزية؟.. قالوا: نعم! فرحت.. وبكت.. وقالت: أنا امرأة من روسيا.. قصتي كذا وكذا.. ليس معي مال.. وليس لي مسكن.. أريد العودة إلى بلادي.. أريد منكم فقط إيوائي.. يومين أو ثلاثة.. حتى أتدبر أمري مع أهلي وإخوتي في بلادي.. أخذ الشاب (خالد) يفكر في

أمرها.. ربما تكون مخادعة..! أو محتالة..! وهي تنظر إليه وتبكي.. وهو يشاور أمه وأختيه.

وفي النهاية.. أخذوها إلى البيت.. وبدأت تتصل بأهلها.. ولكن لا مجيب.. الخطوط متعطلة في ذاك البلد..! وكانت تعيد في كل ساعة الاتصال.. عرفوا أنها نصرانية.. تلطفوا معها.. رفقوا بها.. أحبتهم.. عرضوا عليها الإسلام.. ولكنها رفضت.. لا تريد.. بل لا تقبل النقاش في موضوع الدين أصلاً.. لأنها من أسرة (أرثوذكسية) متعصبة تكره الإسلام والمسلمين! فذهب خالد.. إلى مركز إسلامي للدعوة.. وأحضر لها كتبًا عن الإسلام باللغة الروسية.. فقرأتها.. وتأثرت بها.. ومرت الأيام.. وهم يحاولون ويقنعون.. حتى أسلمت.. وحسن إسلامها.. وبدأت تهتم بتعاليم الدين.. وتحرص على مجالسة الصالحات.. خافت أن ترجع إلى بلدها فترتد إلى نصرانيتها..

زواج..

فتزوجها خالد.. وكانت أكثر تمسكًا بالدين.. من كثير من المسلمات.. ذهبت يومًا مع زوجها إلى السوق.. فرأت امرأة متحجبة.. قد غطت وجهها.. وكانت هذه أول مرة ترى فيها امرأة متحجبة تمامًا.. فاستغربت من هذا الشكل! وقالت: خالد.. لماذا هذه المرأة بهذا الشكل؟ لعل هذه المرأة مصابة بعلة شوهت وجهها.. فغطته؟..

قال: لا.. هذه المرأة تحجبت الحجاب الذي ارتضاه الله تعالى لعباده.. والذي أمر به رسوله..

فسكتت قليلاً.. ثم قالت: نعم.. فعلاً.. هذا هو الحجاب الإسلامي.. الذي أراده الله منا.. قال: وما أدراك؟ قالت: أنا الآن إذا دخلت أي محل تجاري.. لا تنزل أعين أصحاب المحل عن وجهي! تكاد تلتهم وجهي قطعة قطعة!

إذن وجهي هذا لا بد أن يغطى.. لا بد أن يكون لزوجي فقط.. إذن لن أخرج من هذا السوق إلا بمثل هذا الحجاب.. فمن أين نشتريه..؟

قال: استمري على حجابك هذا.. كأمي وإخوتي..

قالت: لا.. بل أريد الحجاب الذي يريده الله..

مرت الأيام على هذه الفتاة.. وهي لا تزداد إلا إيمانًا.. وأحبها من حولها.. وملكت على

زوجها قلبه ومشاعره..

وفي ذات يوم نظرت إلى جواز سفرها.. فإذا هو قارب الانتهاء.. ولا بد أن يجدد.. والأصعب من ذلك.. أنه لا بد أن يجدد من المدينة نفسها التي تنتمي إليها المرأة..

إذن لا بد من السفر إلى روسيا.. وإلا تعتبر إقامتها غير نظامية.. قرر خالد السفر معها.. فهي لا تريد السفر من غير محرم..

ركبوا في طائرة تابعة للخطوط الروسية..

وركبت هي بحجابها الكامل!

وجلست بجانب زوجها شامخة بكل عزة.. قال لها خالد: أخشى أن نقع في إشكالات بسبب حجابك.. قالت: سبحان الله!.. تريد مني أن أطيع هؤلاء الكفرة وأعصى الله.. لا.. والله.. فليقولوا ما شاءوا..

بدأ الناس ينظرون إليها.. وبدأت المضيفات يوزعن الطعام.. ومع الطعام الخمر.. وبدأ الخمر يعمل في الرءوس.. وبدأت الألفاظ النابية.. توجه إليها.. من هنا وهناك.. فهذا يتندر.. وذاك يضحك.. والثالث يسخر.. ويقفون بجانبها.. ويعلقون عليها..

وخالد ينظر إليهم.. لا يفهم شيئًا.. أما هي فكانت تبتسم وتضحك.. وتترجم له ما يقولون.. غضب الزوج..

فقالت: لا.. لا تحزن.. ولا يضيق صدرك.. فهذا أمر بسيط.. في مقابل ما جابهه الصحابة.. وما حصل للصحابيات من بلاء وابتلاء.. صبرت هي وزوجها.. حتى وصلت الطائرة..

في روسيا..

قال خالد: عندما نزلنا المطار..

كنت أظن أننا سنذهب إلى بيت أهلها.. ونسكن عندهم ثم بعد ذلك ننهي إجراءاتنا ونعود.. لكن نظرة زوجتي كانت بعيدة..

قالت لي: أهلي (أرثوذوكس) متعصبون لدينهم..

فلا أريد أن أذهب الآن!.. لكن نستأجر غرفة.. ونبقى فيها.. وننهي إجراءات الجواز..

وقبيل السفر نزور أهلي.. فرأيت أن هذا رأي صائب.. استأجرنا غرفة وبتنا فيها.. ومن الغد ذهبنا إلى إدارة الجوازات.. دخلنا على الموظف.. فطلب الجواز القديم وصورة المرأة.. فأخرجت له صورًا لها بالأبيض والأسود.. ولا يظهر منها إلا دائرة الوجه فقط.

فقال الموظف: هذه صورة مخالفة.. نريد صورة ملونة.. يظهر فيها الوجه والشعر والرقبة كاملة!.. فأبت أن تعطيه غير هذه الصور.. وذهبنا إلى موظف ثانٍ.. وثالث.. وكلهم يطلبون صورًا سافرة..

وزوجتي تقول: لا يمكن أن أعطيهم صورة متبرجة أبدًا.. فرفض الموظفون استقبال الطلب.. فتوجهنا إلى المديرة الأصلية..

فاجتهدت زوجتي أن تقنعها بقبول الصور.. وهي تأبى.. فأخذت زوجتي تلح وتقول: ألا ترين صورتي الحقيقية.. وتقارنينها بالصور التي معك.. المهم رؤية الوجه.. الشعر قد يتغير.. هذه الصورة تكفي؟!.. والمديرة تصر على أن النظام.. لا يقبل هذه الصور.. فقالت زوجتي: أنا لن أحضر غير هذه الصور.. فما الحل؟.. قالت المديرة: لن يحل لكم الإشكال إلا مدير الجوازات الأصلية الكبرى في موسكو.. فخرجنا من إدارة الجوازات..

فالتفتت إلي وقالت: يا خالد نسافر إلى موسكو.. عندها قلت لها: أحضري الصور التي يريدون.. ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.. فاتقوا الله ما استطعتم.. وهذه ضرورة.. والجواز سيراه مجموعة من الأشخاص فقط.. للضرورة.. ثم تخفينه في بيتك إلى أن تنتهي مدته.. دعي عنك المشاكل.. لا داعي للسفر إلى موسكو..

فقالت: لا.. لا يمكن أن أظهر بصورة متبرجة.. بعد أن عرفت دين الله تعالى..

في موسكو..

أصرت على رأيها فسافرنا إلى موسكو.. واستأجرنا غرفة وسكناها.. ومن الغد ذهبنا إلى إدارة الجوازات.. دخلنا على الموظف الأول فالثاني فالثالث.. وفي نهاية المطاف.. اضطررنا للتوجه إلى المدير الأصلي.. دخلنا عليه.. وكان من أشد الناس خبثًا!.. عندما رأى الجواز أخذ يقلب الصور.. ثم رفع رأسه إلى زوجتي وقال: من يثبت أنك صاحبة هذه الصور؟؟..

يريدها أن تكشف وجهها ليراها.. فقالت له: قل لأحد الموظفات عندك.. أو السكرتيرات.. تأتي فأكشف وجهي لها.. وتطابق الصور.. أما أنت فلن تطابق الصور.. ولن أكشف لك وجهي.. فغضب الرجل.. وأخذ الجواز القديم.. والصور.. وبقية الأوراق.. وضم بعضها إلى بعض.. وألقاها في درج مكتبه الخاص..

وقال لها: ليس لك جواز قديم.. ولا جديد إلا بعد أن تأتين إلي.. بالصور المطابقة تمامًا.. ونطابقها عليك..

أخذت زوجتي تتكلم معه.. تحاول إقناعه.. ويتكلمون بالروسية وأنا أنظر إليهما.. لا أفهم شيئًا.. لكني غضبت.. ولا أستطيع أن أفعل شيئًا.. وهو يردد: لا بد من إحضار الصور على شروطنا.. حاولت المسكينة إقناعه.. ولكن لا فائدة! فسكتت وظلت واقفة.. التفت إليها.. وأخذت أعيد عليها وأكرر: يا عزيزتي.. لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.. ونحن في ضرورة.. إلى متى نتجول في مكاتب الجوازات.. فقالت لي: ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب.. اشتد النقاش بيني وبينها.. فغضب مدير الجوازات وطردنا من المكتب.. خرجنا نجر خطانا.. وأنا بين رحمة بها.. وغضب عليها.. ذهبنا لتدارس الأمر في غرفتنا.. أنا أحاول إقناعها.. وهي تحاول إقناعي.. إلى أن أظلم الليل.. فصلينا العشاء.. وأنا مشغول البال على هذه المصيبة.. ثم أكلنا ما تيسر.. ووضعت رأسي لأنام..

كيف تنام؟!

فلما رأتني كذلك.. تغير وجهها.. ثم التفتت إلي وقالت: خالد.. تنام! قلت: نعم.. أما تحسين بالتعب!.. قالت: سبحان الله.. في هذا الموقف العصيب تنام!.. نحن نعيش موقفًا يحتاج منا إلى اللجوء إلى الله.. قم الجأ إلى الله فإن هذا وقت اللجوء..

فقمت.. وصليت ما شاء الله لي أن أصلي.. ثم نمت.. أما هي فقامت تصلي.. وتصلي.. وكلما استيقظت.. نظرت إليها.. فرأيتها إما راكعة.. أو ساجدة.. أو قائمة.. أو داعية.. أو باكية.. إلى أن طلع الفجر.. ثم أيقظتني.. وقالت: دخل وقت الفجر.. فهلم نصلي سويًا.. فقمت.. وتوضأت.. وصلينا.. ثم نامت قليلاً.. وبعدما طلعت الشمس.. استيقظت وقالت: هيا لنذهب إلى الجوازات!

فقلت لها: نذهب إلى الجوازات! بأي حجة؟! أين الصور؟؟.. ليس معنا صور؟!.. قالت: لنذهب ونحاول..

لا تيئس من روح الله.. فذهبنا.. والله ما أن وطئت أقدامنا أول مكتب من مكاتب الجوازات.. ورأوا زوجتي وقد عرفوا شكلها من حجابها.. وإذا بأحد الموظفين ينادي.. أنت فلانة؟.. قالت: نعم!.. قال: خذي جوازك.. فإذا هو مكتمل تمامًا.. بصورها المحجبة.. فاستبشرت..

والتفتت إلي وقالت: ألم أقل لك: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

فلما أردنا الخروج.. قال الموظف: لا بد أن تعودوا إلى مدينتكم التي جئتم منها.. وتختموا الجواز منها.. فرجعنا إلى المدينة الأولى.. وأنا أقول في نفسي.. هذه فرصة لنزور أهلها قبل سفرنا من روسيا.. وصلنا إلى مدينة أهلها.. استأجرنا غرفة.. وختمنا الجواز..

رحلة العذاب

ثم ذهبنا لزيارة أهلها.. وطرقنا الباب.. كان بيتهم قديمًا متواضعًا.. يبدو الفقر على سكانه ظاهرًا.. فتح الباب أخوها الأكبر.. كان شابًا مفتول العضلات.. فرحت المسكينة بأخيها.. وكشفت وجهها وابتسمت.. ورحبت!..

أما هو فأول ما رآها تقلب وجهه بين فرح برجوعها سالمة.. واستغراب من لباسها الأسود الذي يغطي كل شيء.. دخلت زوجتي وهي تبتسم.. وتعانق أخاها.. ودخلت وراءها.. وجلست في صالة المنزل.. جلست وحيدًا..

أما هي.. فدخلت البيت.. أسمعها تتكلم معهم باللغة الروسية.. لم أفهم شيئًا.. لكنني لاحظت أن نبرات الصوت بدأت تزداد حدة! واللهجة تتغير! والصراخ يعلو.. وإذا كلهم يصرخون بها.. وهي تدافع هذا.. وترد على ذاك.. فأحسست أن الأمر فيه شرٌّ!.. ولكنني لا أستطيع أن أجزم بشيء لأني لم أفهم من كلامهم شيئًا.. وفجأة بدأت الأصوات تقترب من الغرفة التي أنا فيها..

وإذا بثلاثة من الشباب.. يتقدمهم رجل كهل.. يدخلون علي.. توقعت في البداية أنهم

سيرحبون بزوج ابنتهم!..

وإذا بهم يهجمون علي كالوحوش.. وإذا بالترحيب ينقلب إلى لكمات.. وضربات.. وصفعات!.. أخذت أدافعهم عن نفسي.. وأصرخ وأستغيث.. حتى خارت قواي.. وشعرت أن نهايتي في هذا البيت.. ازدادوا لكمًا وركلاً.. وأنا التفت حولي.. أحاول أن أتذكر أين الباب الذي دخلت منه لأهرب منه..

فلما رأيت الباب.. قمت سريعًا.. وفتحت الباب وهربت.. وهم ورائي.. فدخلت في زحمة الناس.. حتى غبت عنهم.. ثم اتجهت إلى غرفتي.. وكانت ليست ببعيدة عن المنزل.. وقفت أغسل الدماء عن وجهي وفمي..

نظرت إلى نفسي.. وإذا بالضربات والصفعات.. قد أثرت في جبهتي وخدي وأنفي.. وإذا بالدم يسيل من فمي.. وثيابي ممزقة..

حمدًا لله أن أنقذني من أولئك الوحوش..

لكني قلت:.. أنا نجوت لكن ما حال زوجتي؟!.. أخذت صورتها تلوح أمام ناظري.. هل يمكن أن تتعرض هي أيضًا لمثل هذه اللكمات والضربات.. أنا رجل.. وما كدت أتحمل.. وهي امرأة فهل ستتحمل!.. أخشى أن تنهار المسكينة..

هل حان الفراق..؟

بدأ الشيطان يعمل عمله.. ويقول لي: سترتد عن دينها.. ستعود نصرانية..

وتعود إلى بلدك وحدك.. وبقيت حائرًا.. ماذا أفعل؟ في هذه البلاد.. أين أذهب.. كيف أتصرف؟.. النفس في هذه البلد رخيصة.. يمكنك أن تستأجر رجلاً لقتل آخر بعشرة دولارات!.. أو.. كيف لو عذبوها فدلتهم على مكاني.. فأرسلوا أحدًا لقتلي في ظلمة الليل.. أقفلت علي غرفتي.. وبقيت فيها فزعًا خائفًا حتى الصباح.. ثم غيرت ملابسي.. وذهبت أتجسس الأخبار.. أنظر إلى بيتهم عن بعد.. أرقبه.. وأتابع كل ما يحصل فيه.. لكن الباب مغلق.. ظللت انتظر.. وفجأة فتح الباب.. وخرج منه ثلاثة من الشباب.. وكهل.. وهؤلاء الشباب هم الذين ضربوني.. يبدو من هيئتهم.. أنهم ذاهبون إلى أعمالهم.. أغلق الباب وأقفل!

وبقيت أرقب.. وأنظر.. وأتمنى أن أرى وجه زوجتي.. ولكن لا فائدة.. ظللت على هذا الحال ساعات.. وإذا بالرجال يقدمون من عملهم ويدخلون البيت.. تعبت.. فذهبت إلى غرفتي.. وفي اليوم الثاني.. ذهبت أترقب.. ولم أر زوجتي.. وفي اليوم الثالث كذلك.. يئست من حياتها توقعت أنها ماتت من شدة العذاب.. أو قتلت!.. ولكن لو كانت ماتت.. فعلى الأقل سيكون هناك حركة في البيت.. يكون هناك من يأتي للعزاء.. أو الزيارة.. لكني عندما لم أر شيئًا غريبًا.. أخذت أقنع نفسي أنها حية.. وأن اللقاء سيكون قريبًا..

اللقاء..

وفي اليوم الرابع.. لم أصبر على الجلوس في غرفتي.. فذهبت أرقب بيتهم من بعيد.. فلما ذهب الشباب مع أبيهم إلى أعمالهم كالعادة.. وأنا أنظر وأتمنى.. إذا بالباب يفتح فجأة.. وإذا بوجه زوجتي يطل من ورائه.. وإذا بها تلتفت يمنة ويسرة.. نظرت إلى وجهها.. فإذا به دوائر حمراء.. ولكمات زرقاء.. من كثرة الصفعات والكدمات.. وإذا لباسها مخضب بالدماء.. فزعت من منظرها.. ورحمتها.. اقتربت منها مسرعًا.. نظرت إليها أكثر.. فإذا الدماء تسيل من جروح في وجهها.. وإذا يداها وقدماها.. تسيل بالدماء.. وإذا ثيابها ممزقة.. لم يبق منها إلا خرقة بسيطة تسترها.. وإذا بأقدامها مربوطة بسلسلة!.. وإذا بيديها مربوطة بسلسلة من خلف ظهرها.. لما رأيتها بكيت.. لم أستطع أن أتملك نفسي.. ناديتها من بعيد..

ثبات ووصايا..

فقالت لي وهي تدافع عبراتها.. وتئن من شدة عذابها:

اسمع يا خالد.. لا تقلق علي.. فأنا ثابتة على العهد.. ووالله الذي لا إله إلا هو.. إن ما ألاقيه الآن.. لا يساوي شعرة مما لاقاه الصحابة والتابعون.. بل والأنبياء والمرسلون..

وأرجوك يا خالد.. لا تتدخل بيني وبين أهلي.. واذهب الآن سريعًا.. وانتظر في الغرفة.. إلى أن آتيك إن شاء الله.. ولكن أكثر من الدعاء.. أكثر من قيام الليل.. أكثر من الصلاة.. ذهبت من عندها.. وأنا أتقطع آلمًا وحسرة عليها.. وبقيت في غرفتي يومًا كاملاً أترقبها.. وأتمنى مجيئها.. ومر يوم آخر.. وبدأ اليوم الثالث يطوي بساطه.. حتى إذا أظلم الليل..

وإذا بباب الغرفة يطرق علي؟!.. فزعت.. من بالباب؟! من الطارق.. أصبت بخوف شديد.. من الذي يأتي في منتصف الليل؟!.. لعل أهلها علموا بمكاني.. لعل زوجتي اعترفت.. فجاءوا لقتلي.. أصبت برعب كالموت.. لم يبق بيني وبين الموت إلا شعرة.. أخذت أردد قائلاً: من بالباب؟

فإذا بصوت زوجتي يقول بكل هدوء.. افتح الباب.. أنا فلانة.. أضاءت نور الغرفة.. فتحت الباب.. دخلت علي وهي تنتفض.. على حالة رثة.. وجروح في جسدها.. قالت لي: بسرعة هيا نذهب الآن!.. قلت: وأنت على هذا الحال؟!.. قالت: نعم.. بسرعة.. بدأت أجمع ملابسي وأقبلت هي على حقيبتها.. فغيرت ملابسها.. وأخرجت حجابًا وعباءة احتياطية.. فلبستها.. ثم أخذنا كل ما لدينا.. ونزلنا.. وركبنا سيارة أجرة.. ألقت المسكينة بجسدها المتهالك الجائع المعذب.. على كرسي السيارة..

إلى المطار..

وأول ما ركبت.. قلت للسائق باللغة الروسية: إلى المطار.. وكنت قد عرفت بعض الكلمات الروسية.. فقالت زوجتي: لا.. لن نذهب إلى المطار.. سنذهب إلى القرية الفلانية.. قلت: لماذا؟ نحن نريد أن نهرب.. قالت: صحيح.. ولكن إذا اكتشف أهلي هروبي.. فسيبحثون عنا في المطار.. ولكن نهرب إلى قرية كذا.. فلما وصلنا تلك القرية.. نزلنا.. وركبنا سيارة أخرى إلى قرية أخرى.. ثم إلى قرية ثالثة.. ثم إلى مدينة من المدن التي فيها مطار دولي..

فلما وصلنا إلى المطار الدولي.. حجزنا للعودة إلى بلادنا.. وكان الحجز متأخرًا فاستأجرنا غرفة وسكناها.. فلما استقر بنا المقام في الغرفة.. وشعرنا بالأمان.. نزعت زوجتي عباءتها.. فأخذت أنظر إليها.. يا ألله ليس هناك موضع سلم من الدماء أبدًا!.. جلد ممزق.. دماء متحجرة.. شعر مقطع.. شفاه زرقاء..

قصة الرعب

سألتها: ما الذي حصل؟

فقالت: عندما دخلنا إلى البيت جلست مع أهلي.. فقالوا لي: ما هذا اللباس؟!.. قلت: إنه

لباس الإسلام.. قالوا: ومن هذا الرجل؟!.. قلت: هذا زوجي.. أنا أسلمت وتزوجت بهذا الرجل المسلم.. قالوا: لا يمكن هذا..

فقلت: اسمعوا.. أحكي لكم القصة أولاً.. فحكيت لهم القصة.. وقصة ذلك الرجل الروسي الذي أراد أن يجرني إلى الدعارة.. وكيف هربت منه.. ثم التقيت بك..

فقالوا: لو سلكت طريق الدعارة.. كان أحب إلينا من أن تأتينا مسلمة.. ثم قالوا لي: لن تخرجي من هذا البيت إلا أرثوذكسية أو جثة هامدة!..

ومن تلك اللحظة.. أخذوني ثم كتفوني.. ثم جاءوا إليك وبدءوا يضربونك وأنا أسمعهم يضربونك.. وأنت تستغيث.. وأنا مربوطة..

وعندما هربت أنت.. رجع إخوتي إلي.. وعاودوا سبي وشتمي.. ثم ذهبوا واشتروا سلاسل.. فربطوني بها.. وبدءوا يجلدونني.. فأتعرض لجلد مبرح بأسواط عجيبة.. غريبة!

كل يوم.. يبدأ الضرب بعد العصر إلى وقت النوم.. أما في الصباح فإخوتي وأبي في الأعمال.. وأمي في البيت.. وليس عندي إلا أخت صغيرة عمرها ١٥ سنة.. تأتي إلى وتضحك من حالتي.. وهذا هو وقت الراحة الوحيد عندي.. هل تصدق أنه حتى النوم.. أنام وأنا مغمى علي! يجلدونني إلى أن يغمى علي وأنام.. وكانوا يطلبون مني فقط أن أرتد عن الإسلام.. وأنا أرفض وأتصبر.. بعد ذلك.. بدأت أختي الصغيرة تسألني لماذا تتركين دينك.. دين أمك.. دين أبيك.. وأجدادك؟

يجعل له مخرجًا..

فأخذت أقنعها.. أبين لها الدين.. وأوضح لها التوحيد.. فبدأت فعلاً تشعر بالقناعة.. بدأت تتأثر بدأت صورة الإسلام أمامها تتضح!.. ففوجئت بها تقول لي:

أنت على الحق.. هذا هو الدين الصحيح.. هذا هو الدين الذي ينبغي أن ألتزمه أنا أيضًا!.. ثم قالت لي: أنا سأساعدك .. قلت لها: إذا كنت تريدين مساعدتي.. فاجعليني أقابل زوجي!.. فبدأت أختي تنظر من فوق البيت.. فتراك وأنت تمشي.. فكانت تقول لي: إنني أرى رجلاً صفته كذا وكذا..

فقلت: هذا هو زوجي.. فإذا رأيته فافتحي لي الباب لأكلمه.. وفعلاً فتحت الباب فخرجت وكلمتك.. لكني لم أستطع الخروج إليك.. لأني كنت مربوطة بسلسلتين.. مفتاحهما مع أخي.. وسلسلة ثالثة.. مربوطة بأحد أعمدة البيت.. حتى لا أخرج.. مفتاحها مع أختي هذه.. لأجل أن تطلقني للذهاب إلى الحمام..

وعندما كلمتك.. وطلبت منك أن تبقى إلى أن آتيك.. كنت مربوطة بالسلاسل.. فأخذت أقنع أختي بالإسلام فأسلمت.. وأرادت أن تضحي تضحية تفوق تضحيتي.. وقررت أن تجعلني أهرب من البيت.. لكن مفاتيح السلاسل مع أخي.. وهو حريص عليها.

وفي ذاك اليوم أعدت أختي لإخوتي خمرًا مركزًا ثقيلاً.. فشربوا.. وشربوا.. إلى أن سكروا تمامًا فلا يشعرون بشيء.. ثم أخذت المفاتيح من جيب أخي.. وفكت السلاسل عني..

وجئت أنا إليك في ظلمة الليل.. فقلت لها: وأختك.. ماذا سيحصل لها؟؟.. قالت: ما يهم.. قد طلبت منها ألا تعلن إسلامها.. إلى أن نتدبر أمرها.. نمنا تلك الليلة.. ومن الغد رجعنا إلى بلدنا.

وأول ما وصلنا أدخلت زوجتي إلى المستشفى.. ومكثت فيها عدة أيام تعالج من آثار الضربات والتعذيب.. وها نحن اليوم ندعو لأختها أن يثبتها الله على دينه.

يا أختنا الغالية..

ما سقت لك هذه القصة لأهيج عواطفك.. ولا لأستدر دمعاتك.. أو أستثير مشاعرك.. كلا.. ولكن لتعلمي أن لهذا الدين.. أبطالاً يحملونه.. يضحون من أجله.. يسحقون لعزه جماجمهم.. ويسكبون دماءهم.. ويقطعون أجسادهم..

ولئن كان كفار الأمس.. أبو جهل وأمية.. عذبوا بلالاً وسمية.. فإن كفار اليوم لا يزالون يبذلون.. ويخططون ويكيدون.. في سبيل حرب هذا الدين.. فاحذري من أن تكوني فريسة.. وحتى تنتبهي لعزك فاعلمي أن:

أول من سكن الحرم.. امرأة..

عند البخاري: أن إبراهيم عليه السلام .. انطلق من الشام.. إلى البلد الحرام.. معه زوجه هاجر وولدها إسماعيل وهو طفل صغير في مهده.. وهي ترضعه.. حتى وضعهما في مكان البيت..

فقلت: هذا هو زوجي.. فإذا رأيته فافتحي لي الباب لأكلمه.. وفعلاً فتحت الباب فخرجت وكلمتك.. لكني لم أستطع الخروج إليك.. لأني كنت مربوطة بسلسلتين.. مفتاحهما مع أخي.. وسلسلة ثالثة.. مربوطة بأحد أعمدة البيت.. حتى لا أخرج.. مفتاحها مع أختي هذه.. لأجل أن تطلقني للذهاب إلى الحمام..

وعندما كلمتك.. وطلبت منك أن تبقى إلى أن آتيك.. كنت مربوطة بالسلاسل.. فأخذت أقنع أختي بالإسلام فأسلمت.. وأرادت أن تضحي تضحية تفوق تضحيتي.. وقررت أن تجعلني أهرب من البيت.. لكن مفاتيح السلاسل مع أخي.. وهو حريص عليها.

وفي ذاك اليوم أعدت أختي لإخوتي خمرًا مركزًا ثقيلاً.. فشربوا.. وشربوا.. إلى أن سكروا تمامًا فلا يشعرون بشيء.. ثم أخذت المفاتيح من جيب أخي.. وفكت السلاسل عني..

وجئت أنا إليك في ظلمة الليل.. فقلت لها: وأختك.. ماذا سيحصل لها؟؟.. قالت: ما يهم.. قد طلبت منها ألا تعلن إسلامها.. إلى أن نتدبر أمرها.. نمنا تلك الليلة.. ومن الغد رجعنا إلى بلدنا.

وأول ما وصلنا أدخلت زوجتي إلى المستشفى.. ومكثت فيها عدة أيام تعالج من آثار الضربات والتعذيب.. وها نحن اليوم ندعو لأختها أن يثبتها الله على دينه.

يا أختنا الغالية..

ما سقت لك هذه القصة لأهيج عواطفك.. ولا لأستدر دمعاتك.. أو أستثير مشاعرك.. كلا.. ولكن لتعلمي أن لهذا الدين.. أبطالاً يحملونه.. يضحون من أجله.. يسحقون لعزه جماجمهم.. ويسكبون دماءهم.. ويقطعون أجسادهم..

ولئن كان كفار الأمس.. أبو جهل وأمية.. عذبوا بلالاً وسمية.. فإن كفار اليوم لا يزالون يبذلون.. ويخططون ويكيدون.. في سبيل حرب هذا الدين.. فاحذري من أن تكوني فريسة.. وحتى تتنبهي لعزك فاعلمي أن:

أول من سكن الحرم.. امرأة..

عند البخاري: أن إبراهيم عليه السلام .. انطلق من الشام.. إلى البلد الحرام.. معه زوجه هاجر وولدها إسماعيل وهو طفل صغير في مهده.. وهي ترضعه.. حتى وضعهما في مكان البيت..

وليس بمكة يومئذٍ أحد.. وليس بها ماء.. فوضعها هنالك.. ووضع عندهما جرابًا فيه تمر.. وسقاء فيه ماء..

ثم قفل عليه السلام منطلقًا إلى الشام.. فتلفتت أم إسماعيل حولها.. في هذه الصحراء الموحشة.. فإذا جبال صماء وصخور سوداء.. وما رأت حولها من أنيس ولا جليس.. وهي التي نشأت في قصور مصر.. ثم سكنت في الشام في مروجها الخضراء.. وحدائقها الغناء.. فاستوحشت مما حولها.. فقامت.. وتبعت زوجها..

فقالت: يا إبراهيم.. أين تذهب.. وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟.. فما رد عليها.. ولا التفت.. فأعادت عليه.. أين تذهب وتتركنا.. فما رد عليها.. فأعادت عليه.. وما أجابها.. فلما رأت أنه لا يلتفت إليها..

قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم..

قالت: حسبي.. قد رضيت بالله.. إذن لا يضيعنا..

ثم رجعت.. فانطلق إبراهيم الشيخ الكبير.. وقد فارق زوجه وولده.. وتركهما وحيدين.. حتى إذا كان عند ثنية جبل.. حيث لا يرونه.. استقبل بوجهه جهة البيت.. ثم رفع يديه إلى الله داعيًا.. مبتهلاً.. راجيًا.. فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].. ثم ذهب إبراهيم إلى الشام.. ورجعت أم إسماعيل إلى ولدها.. فجعلت ترضعه.. وتشرب من ذاك الماء.. فلم تلبث أن نفد ما في السقاء.. فعطشت.. وعطش ابنها.. وجعل من شدة العطش يتلوى.. ويتلمظ بشفتيه.. ويضرب الأرض بيديه وقدميه.. وأمه تنظر إليه يتلوى ويتلمظ.. كأنه يصارع الموت..

فالتفتت حولها.. هل من معين أو مغيث.. فلم تر أحدًا.. فقامت من عنده.. وانطلقت كراهية أن تنظر إليه يموت.. فاحتارت أين تذهب؟!.. فرأت جبل الصفا أقرب جبل إليها.. فصعدت عليه.. وهي المجهدة الضعيفة!.. لعلها ترى أعرابًا نازلين.. أو قافلة مارة.. فلما وصلت إلى أعلاه.. استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا.. فلم تر أحدًا.. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف ذراعها.. ثم سعت سعي الإنسان المجهد.. حتى جاوزت الوادي..

ثم أتت جبل المروة فقامت عليه.. ونظرت.. هل ترى أحدًا.. فلم تر أحدًا.. فعادت إلى الصفا.. فلم تر أحدًا.. ففعلت ذلك سبع مرات.. فلما أشرفت على المروة في المرة السابعة.. سمعت صوتًا.. فقالت: صه.. ثم تسمعت..

فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فأغثني.. فلم تسمع جوابًا.. فالتفتت إلى ولدها.. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم.. فضرب الأرض بعقبه أو بجناحه حتى تفجر الماء.. فنزلت إلى الماء سريعًا.. وجعلت تحوضه بيديها وتجمعه.. وتغرف بيدها من الماء في سقائها.. وهو يفور بعدما تغرف..

فقال لها جبريل: لا تخافوا الضيعة.. إن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه..

فلله درها ما أصبرها.. وأعجب حالها.. وأعظم بلاءها..

هذا خبر عن هاجر.. التي صبرت.. وبذلت.. حتى سطر الله في القرآن ذكرها.. وجعل من الأنبياء ولدها.. فهي أم الأنبياء وقدوة الأولياء.. هذا حالها.. وعاقبة أمرها.. نعم.. تغربت وخافت.. وعطشت وجاعت.. لكنها راضية بذلك ما دام أن في ذلك رضا ربها.. عاشت غريبة في سبيل الله.. حتى أعقبها الله فرحًا وبشرًا.. وطوبى للغرباء..

فمن الغربـاء؟

إنهم قوم صالحون.. بين قوم سوء كثير.. إنهم رجال ونساء.. صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. يقبضون على الجمر.. ويمشون على الصخر.. ويبيتون على الرماد.. ويهربون من الفساد.. صادقة ألسنتهم.. عفيفة فروجهم.. محفوظة أبصارهم.. كلماتهم عفيفة.. وجلساتهم شريفة.. فإن وقفوا بين يدي الله.. شهدت الأيدي والأرجل.. وتكلمت الأذن والأعين.. فرحوا واستبشروا.. فلم تشهد عليهم عين بنظر إلى محرمات.. ولا أذن بسماع أغنيات.. بل شهدت لهم بالبكاء في الأسحار.. والعفة في النهار.. حتى إنهم يفدون دينهم بأرواحهم..

تغلي بهم القدور..!

ماشطة بنت فرعون..

لم يحفظ التاريخ اسمها.. لكنه حفظ فعلها.. امرأة صالحة كانت تعيش هي وزوجها..

في ظل ملك فرعون.. زوجها مقرب من فرعون.. وهي خادمة ومربية لبنات فرعون.. فمنَّ الله عليهما بالإيمان.. فلم يلبث زوجها أن علم فرعون بإيمانه فقتله.. فلم تزل الزوجة تعمل في بيت فرعون تمشط بنات فرعون.. وتنفق على أولادها الخمسة.. تطعمهم كما تطعم الطير أفراخها.. فبينما هي تمشط ابنة فرعون يومًا.. إذ وقع المشط من يدها..

فقالت: باسم الله..

فقالت ابنة فرعون: الله.. أبي؟.. فصاحت الماشطة بابنة فرعون:

كلا.. بل الله.. ربي وربك.. ورب أبيك..

فتعجبت البنت أن يعبد غير أبيها.. ثم أخبرت أباها بذلك.. فعجب أن يوجد في قصره من يعبد غيره.. فدعا بها.. وقال لها: من ربك؟

قالت: ربي وربك الله..

فأمرها بالرجوع عن دينها.. وحبسها.. وضربها.. فلم ترجع عن دينها.. فأمر فرعون بقدر من نحاس فملئت بالزيت.. ثم أحميت.. حتى غلا.. وأوقفها أمام القدر.. فلما رأت العذاب.. أيقنت إنما هي نفس واحدة تخرج وتلقى الله تعالى.. فعلم فرعون أن أحب الناس إليها أولادها الخمسة.. الأيتام الذين تكدح لهم.. وتطعمهم فأراد أن يزيد في عذابها فأحضر الأطفال الخمسة.. تدور أعينهم.. ولا يدرون إلى أين يساقون.. فلما رأوا أمهم تعلقوا بها يبكون.. فانكبت عليهم تقبلهم وتشمهم وتبكي..

وأخذت أصغرهم وضمته إلى صدرها.. وألقمته ثديها.. فلما رأى فرعون هذا المنظر.. أمر بأكبرهم.. فجره الجنود ودفعوه إلى الزيت المغلي.. والغلام يصيح بأمه ويستغيث.. ويسترحم الجنود.. ويتوسل إلى فرعون.. ويحاول الفكاك والهرب.. وينادي إخوته الصغار.. ويضرب الجنود بيديه الصغيرتين.. وهم يصفعونه ويدفعونه.. وأمه تنظر إليه.. وتودعه..

فما هي إلا لحظات حتى ألقى الصغير في الزيت.. والأم تبكي وتنظر.. وإخوته يغطون أعينهم بأيديهم الصغيرة.. حتى إذا ذاب لحمه من على جسمه النحيل.. وطفت عظامه بيضاء فوق الزيت.. نظر إليها فرعون وأمرها بالكفر بالله..

فأبت عليه ذلك.. فغضب فرعون..

وأمر بولدها الثاني.. فسحب من عند أمه وهو يبكي ويستغيث.. فما هي إلا لحظات حتى ألقي في الزيت.. وهي تنظر إليه.. حتى طفت عظامه بيضاء واختلطت بعظام أخيه.. والأم ثابتة على دينها.. موقنة بلقاء ربها..

ثم أمر فرعون بالولد الثالث.. فسحب وقرب إلى القدر المغلي ثم حمل وغيب في الزيت.. وفعل به ما فعل بأخويه.. والأم ثابتة على دينها.. فأمر فرعون أن يطرح الرابع في الزيت.. فأقبل الجنود إليه.. وكان صغيرًا قد تعلق بثوب أمه.. فلما جذبه الجنود.. بكى وانطرح على قدمي أمه.. ودموعه تجري على رجليها.. وهي تحاول أن تحمله مع أخيه.. تحاول أن تودعه وتقبله وتشمه قبل أن يفارقها.. فحالوا بينه وبينها.. وحملوه من يديه الصغيرتين.. وهو يبكي ويستغيث.. ويتوسل بكلمات غير مفهومة.. وهم لا يرحمونه..

وما هي إلا لحظات حتى غرق في الزيت المغلي.. وغاب الجسد.. وانقطع الصوت وشمت الأم رائحة اللحم وعلت عظامه الصغيرة بيضاء فوق الزيت يفور بها.. تنظر الأم إلى عظامه.. وقد رحل عنها إلى دار أخرى.. وهي تبكي وتتقطع لفراقه..

طالما ضمته إلى صدرها.. وأرضعته من ثديها..

طالما سهرت لسهره.. وبكت لبكائه..

كم ليلة بات في حجرها.. ولعب بشعرها..

وكم قربت منه ألعابه.. وألبسته ثيابه.. فجاهدت نفسها أن تتجلد وتتماسك.. فالتفتوا إليها.. وتدافعوا عليها..

الطفل الرضيع..

وانتزعوا الخامس الرضيع من بين يديها.. وكان قد التقم ثديها.. فلما انتزع منها.. صرخ الصغير.. وبكت المسكينة.. فلما رأى الله تعالى ذلها وانكسارها وفجيعتها بولدها..

أنطق الله الصبي في مهده وقال لها: يا أماه اصبري فإنك على الحق..

ثم انقطع صوته عنها.. وغيب في القدر مع إخوته.. ألقي في الزيت.. وفي فمه بقايا من حليبها.. وفي يده شعرة من شعرها.. وعلى أثوابه بقية من دمعها.. وذهب الأولاد الخمسة.. وها هي عظامهم يلوح بها القدر.. ولحمهم يفور به الزيت.. تنظر المسكينة.. إلى هذه العظام

الصغيرة.. عظام من؟ إنهم أولادها.. الذين طالما ملئوا عليها البيت ضحكًا وسرورًا، إنهم فلذات كبدها وعصارة قلبها.. الذين لما فارقوها.. كأن قلبها أخرج من صدرها.. طالما ركضوا إليها.. وارتموا بين يديها.. وضمتهم إلى صدرها.. وألبستهم ثيابهم.. بيديها.. ومسحت دمعهم بأصابعها.. ثم ها هم ينتزعون من بين يديها.. ويقتلون أمام ناظريها.. وعن قريب ستكون معهم.. كانت تستطيع أن تحول بينهم وبين هذا العذاب.. بكلمة كفر تسمعها لفرعون.. لكنها علمت أن ما عند الله خير وأبقى.. ثم.. لم يبق إلا هي.. أقبلوا إليها كالكلاب الضارية.. ودفعوها في القدر.. فلما حملوها ليقذفوها في الزيت.. نظرت إلى عظام أولادها.. فتذكرت اجتماعها معهم في الحياة.. فالتفتت إلى فرعون وقالت: لي إليك حاجة..

فصاح بها وقال: ما حاجتك؟

فقالت: أن تجمع عظامي وعظام أولادي فتدفنها في قبر واحد.. ثم أغمضت عينها.. وألقيت في القدر.. واحترق جسدها.. وطفت عظامها..

فلله درها.. ما أعظم ثباتها.. وأكثر ثوابها..

ولقد رأى النبي ﷺ ليلة الإسراء شيئًا من نعيمها.. فحدث به أصحابه وقال لهم فيما رواه البيهقي..: «لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة.. فقلت: ما هذه الرائحة؟ فقيل لي: هذه ماشطة بنت فرعون وأولادها..».

الله أكبر.. تعبت قليلاً.. لكنها استراحت كثيرًا.. مضت هذه المرأة المؤمنة إلى خالقها.. وجاورت ربها.. ويرجى أن تكون في جنات ونهر.. ومقعد صدق عند مليك مقتدر.. وهي اليوم أحسن منها في الدنيا حالاً.. وأكثر نعيمًا وجمالاً..

وعند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا.. ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»..

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «من دخل الجنة ينعم لا ييؤس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».. وله في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. ومن دخل إلى الجنة نسي عذاب الدنيا»..

ولكن لن يصل أحد إلى الجنة إلا بمقاونة شهواته.. فقد حفت الجنة بالمكاره.. وحفت

النار بالشهوات.. فاتباع الشهوات في اللباس.. والطعام.. والشراب.. والأسواق.. طريق إلى النار.. قال ﷺ كما في «الصحيحين»: «حفت الجنة بالمكاره.. وحفت النار بالشهوات».. فاتعبي اليوم وتصبري.. لترتاحي غدًا..

فإنه يقال لأهل الجنة يوم القيامة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]..

أما أهل النار فيقال لهم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠]..

مال في قبر..!

ماشطة بنت فرعون.. ثبتت على دينها برغم الفتنة العظيمة التي أحاطت بها..

فعجبًا والله لفتيات لا تستطيع إحداهن الثبات ولو على إقامة الصلاة.. فلا تزال تتساهل بأدائها حتى تتركها حتى تكفر..

وقد قال النبي ﷺ كما عند الترمذي: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر».. ومن تركت الصلاة خلدها الله في النيران.. وعذبها مع الشيطان.. وأبعدها عن النعيم.. وسقاها من الحميم..

ذكر الذهبي في «الكبائر».. أن امرأة ماتت فدفنها أخوها.. فسقط كيس منه فيه مال في قبرها فلم يشعر به حتى انصرف عن قبرها.. ثم ذكره فرجع إلى قبرها فنبش التراب.. فلما وصل إليها وجد القبر يشتعل عليها نارًا.. ففزع.. ورد التراب عليها.. ورجع إلى أمه باكيًا فزعًا وقال: أخبريني عن أختي وماذا كانت تعمل؟..

فقال الأم: وما سؤالك عنها؟.. قال: يا أمي إني رأيت قبرها يشتعل عليها نارًا.. فبكت الأم وقالت: كانت أختك تتهاون بالصلاة.. وتؤخرها عن وقتها.. فلا تصلي الفجر إلا بعد طلوع الشمس.. أو تؤخر غيرها من الصلوات.. فكيف حال من لا تصلي؟..

وقد أخبر النبي ﷺ عن رؤياه لعذاب من يخرج الصلاة عن وقتها.. فقال: «أتاني الليلة آتيان.. وإنهما ابتعثاني.. وإنهما قالا لي: انطلق.. وإني انطلقت معهما.. وإنا أتينا على رجل مضطجع.. وإذا آخر قائم عليه بصخرة.. وإذا هو يهوي بالصخرة على رأسه.. فيثلغ رأسه..

فيتدهده الحجر هاهنا.. فيتبع الحجر فيأخذه.. فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه..

فيفعل به مثل ما فعل به في المرة الأولى.. فقلت: سبحان الله ما هذان؟.. فقال: الملكان: هذا الرجل.. يأخذ القرآن فيرفضه.. (يعني لا يعمل بما فيه) وينام عن الصلاة المكتوبة»..

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣]..

الملكة..

هل تعرفينها؟ كانت ملكة على عرشها.. على أسرة ممهدة.. وفرش منضدة.. بين خدم يخدمون.. وأهل يكرمون.. لكنها كانت مؤمنة تكتم إيمانها..

إنها آسية.. امرأة فرعون..

كانت في نعيم مقيم.. فلما رأت قوافل الشهداء.. تتسابق إلى أبواب السماء.. اشتاقت لمجاورة ربها.. وكرهت مجاورة فرعون.. فلما قتل فرعون الماشطة المؤمنة.. دخل على زوجه آسية يستعرض أمامها قواه.. فصاحت به آسية: الويل لك ما أجرأك على الله.. ثم أعلنت إيمانها بالله.. فغضب فرعون.. وأقسم لتذوقن الموت.. أو لتكفرن بالله.. ثم أمر فرعون بها فمدت بين يديه على لوح.. وربطت يداها وقدماها في أوتاد من حديد..

وأمر بضربها فضربت.. حتى بدأت الدماء تسيل من جسدها.. واللحم ينسلخ عن عظامها.. فلما اشتد عليها العذاب.. وعاينت الموت.. رفعت بصرها إلى السماء..

وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١]..

وارتفعت دعوتها إلى السماء..

قال ابن كثير: فكشف الله لها عن بيتها في الجنة.. فتبسمت.. ثم ماتت.. نعم..

ماتت الملكة.. التي كانت بين طيب وبخور.. وفرح وسرور.. نعم تركت فساتينها.. وعطورها وخدمها.. وصديقاتها.. واختارت الموت.. لكنها اليوم.. تتقلب في النعيم كيفما شاءت.. قد نفعها صبرها على الطاعات ومقاومتها للشهوات..

أول من أسلم.. امرأة..

ومضت تلك الملكة إلى ربها.. ولا يزال الخير في النساء..

عند البخاري: أن النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه بالنبوة.. كان يذهب إلى غار حراء.. بجانب المدينة.. فيتعبد فيه.. فبينما هو ﷺ في هدوء الغار يومًا.. إذ جاءه جبريل فجأة.. فقال: اقرأ.. ففزع النبي ﷺ منه.. وقال: «ما قرأت كتابًا قط.. ولا أحسنه، وما أكتب.. وما أقرأ».. فأخذه جبريل فضمه إليه.. حتى بلغ منه الجهد.. ثم تركه.. فقال: اقرأ.. فقال ﷺ: «ما أنا بقارئ».. فأخذه فضمه إليه الثانية.. حتى بلغ منه الجهد.. ثم تركه.. فقال: اقرأ.. فقال ﷺ: «ما أنا بقارئ».. فأخذه جبريل فضمه إليه الثالثة.. حتى بلغ منه الجهد.. ثم تركه.. فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١ ـ ٥]..

فلما سمع النبي ﷺ هذه الآيات.. ورأى هذا المنظر.. اشتد فزعه.. ورجف فؤاده.. ثم رجع إلى مكة.. فدخل على خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقال: «زملوني.. زملوني».. (أي: غطوني بالفراش).. ثم اضطجع.. وغطوه.. وأم المؤمنين.. تنظر إليه.. لا تدري ما الذي أفزعه.. فلبث ﷺ مليًا حتى سكن روعه.. ثم التفت إلى خديجة فأخبرها الخبر..

وقال لها: «يا خديجة.. لقد خشيت على نفسي»..

فقالت خديجة: كلا.. والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم.. وتقري الضيف.. وتحمل الكَلّ.. وتكسب المعدوم.. وتعين على نوائب الحق.. ثم لم ينقطع خيرها.. ولم يقف حماسها.. وإنما أخذت بيده ﷺ.. فانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها.. وكان شيخًا كبيرًا أعمى.. وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية.. وكان يقرأ الإنجيل.. ويكتبه.. ويعرف أخبار الأنبياء..

فلما دخلت عليه خديجة.. جلست إليه ومعها رسول الله ﷺ.. فقالت له: يا عم! اسمع من ابن أخيك.. فقال له ورقة: يابن أخي ماذا ترى؟.. فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.. وما سمع من القرآن.. فقال ورقة: سبوح.. سبوح.. أبشر ثم أبشر.. هذا الناموس الذي أنزل على

موسى.. ثم قال ورقة: يا ليتني فيها جذعًا.. حين يخرجك قومك.. أي: شابًا قويًا لأخرج معك وأنصرك؟.. ففزع ﷺ وقال: «أو مخرجي هم؟!».. فقال: نعم! إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي.. وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.. أي: أنصرك نصرًا عزيزًا أبدًا..

ثم خرج ﷺ مع زوجه خديجة.. وقد أيقنت خديجة أن عهد النوم قد تولى.. وأنها مع زوج سيبتلى.. وقد تخرج من بيتها.. وتؤذي في نفسها..

وهي المرأة التي نشأت غنية منعمة.. حسيبة مكرمة.. وها هي تستقبل البلاء.. فهل تخاذلت عن نصرة الدين.. أو خلطت الشك باليقين.. كلا.. بل آمنت بربها.. ونصرت نبيها.. بمالها.. ورأيها.. وجهدها.. ولم يزل هذا حالها حتى لقيت ربها..

وقد روى أن النبي ﷺ أتاه جبريل فقال: يا رسول الله..

هذه خديجة.. قد أتتك ومعها إدام أو طعام أو شراب.. فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها.. ومني.. وبشرها ببيت في الجنة من قصب.. لا صخب فيه ولا نصب..

هذا خبر خديجة.. أول من دخل الإسلام.. ونبذ عبادة الأصنام.. فرضي الله عن أم المؤمنين خديجة.. رضي الله عن أمنا.. فهلا اقتدت بها بناتها.. هلا اقتديت أنت بها.. ليكون لك في الجنة مثلها بيت من قصب.. لا نصب فيها ولا وصب..

الطعنة الأخيرة..!

كانت أم عمار.. سمية بنت خياط.. أمة مملوكة لأبي جهل.. فلما جاء الله بالإسلام.. أسلمت هي وزوجها وولدها.. فجعل أبو جهل يفتنهم.. ويعذبهم.. ويربطهم في الشمس حتى يشرفوا على الهلاك حرًا وعطشًا.. فكان ﷺ يمر بهم وهم يعذبون.. ودماؤهم تسيل على أجسادهم.. وقد تشققت من العطش شفاهم.. وتقرحت من السياط جلودهم.. وحر الشمس يصهرهم من فوقهم.. فيتألم ﷺ لحالهم.. ويقول: صبرًا آل ياسر.. صبرًا آل ياسر.. فإن موعدكم الجنة.. فتلامس هذه الكلمات أسماعهم.. فترقص أفئدتهم وتطير قلوبهم.. فرحًا بهذه البشرى.. وفجأة.. إذا بفرعون هذه الأمة.. أبي جهل يأتيهم.. فيزداد غيظه عليهم.. فيسومهم عذابًا.. ويقول: سبوا محمدًا وربه.. فلا يزدادون إلا ثباتًا وصبرًا.. عندها يندفع

الخبيث إلى سمية.. ثم يستل حربته.. ويطعن بها في فرجها.. فتتفجر دماؤها.. ويتناثر لحمها.. فتصيح وتستغيث.. وزوجها وولدها على جانبيها.. مربوطان يلتفتان إليها.. وأبو جهل يسب ويكفر.. وهي تحتضر وتكبر..

فلم يزل يقطع جسدها المتهالك بحربته.. حتى تقطعت أشلاء.. وماتت رضي الله عنها .. نعم ماتت فلله درها ما أحسن مشهد موتها.. وقد أرضت ربها.. وثبتت على دينها.. ماتت.. ولم تعبأ بجلد جلاد.. ولا إغراء فساد..

تشرب من ماء السماء

نعم.. كانت النساء تصبر على البلاء.. كن يصبرن على العذاب الشديد.. والكي بالحديد.. وفراق الزوج والأولاد.. يصبرن على ذلك كله حبًا للدين.. وتعظيمًا لرب العالمين.. ولا تتنازل إحداهن عن شيء من دينها.. ولا تهتك حجابها.. ولا تدنس شرفها.. ولو كان ثمن ذلك حياتها..

أم شريك غزية الأنصارية..

أسلمت مع أول من أسلم في مكة البلد الأمين.. فلما رأت تمكن الكافرين.. وضعف المؤمنين.. حملت همَّ الدعوة إلى الدين.. فقوي إيمانها.. وارتفع شأن ربها عندها.. ثم جعلت تدخل على نساء قريش سرًا فتدعوهن إلى الإسلام.. وتحذرهن من عبادة الأصنام.. حتى ظهر أمرها لكفار مكة.. فاشتد غضبهم عليها.. ولم تكن قرشية يمنعها قومها..

فأخذها الكفار وقالوا: لولا أن قومك حلفاء لفعلنا بك وفعلنا.. لكنا نخرجك من مكة إلى قومك.. فتلتلوها.. ثم حملوها على بعير.. ولم يجعلوا تحتها رحلاً.. ولا كساء.. تعذيبًا لها..

ثم ساروا بها ثلاثة أيام.. لا يطعمونها.. ولا يسقونها.. حتى كادت أن تهلك ظمأً وجوعًا.. وكانوا من حقدهم عليها.. إذا نزلوا منزلاً أوثقوها.. ثم ألقوها تحت حر الشمس.. واستظلوا هم تحت الشجر..

فبينما هم في طريقهم.. نزلوا منزلاً.. وأنزلوها من على البعير.. وأوثقوها في الشمس..

فاستسقتهم فلم يسقوها.. فبينما هي تتلمظ عطشًا.. إذا بشيء بارد على صدرها.. فتناولته بيدها فإذا هو دلو من ماء.. فشربت منه قليلاً.. ثم نزع منها فرفع.. ثم عاد فتناولته فشربت منه ثم رفع.. ثم عاد فتناولته ثم رفع مرارًا.. فشربت حتى رويت.. ثم أفاضت منه على جسدها.. وثيابها..

فلما استيقظ الكفار.. وأرادوا الارتحال.. أقبلوا إليها.. فإذا هم بأثر الماء على جسدها وثيابها.. ورأوها في هيئة حسنة..

فعجبوا.. كيف وصلت إلى الماء وهي مقيدة.. فقالوا لها: حللت قيودك.. فأخذت سقاءنا فشربت منه؟..

قالت: لا والله.. ولكنه نزل علي دلو من السماء فشربت حتى رويت..

فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كانت صادقة لدينها خير من ديننا.. وتفقدوا قربهم وأسقيتهم.. فوجدوها كما تركوها.. فأسلموا عند ذلك.. كلهم.. وأطلقوها من عقالها وأحسنوا إليها..

أسلموا كلهم بسبب صبرها وثباتها.. وتأتي أم شريك يوم القيامة وفي صحيفتها.. رجال ونساء.. أسلموا على يدها..

امرأة من أهل الجنة

نعم.. عرف التاريخ أم شريك.. وعرف أيضًا..

الغميصاء.. أم أنس بن مالك..

التي قد قال فيها النبي ﷺ فيما رواه البخاري: «دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي فإذا هي الغميصاء بنت ملحان»..

امرأة من أعجب النساء.. عاشت في بداية حياتها كغيرها من الفتيات في الجاهلية.. تزوجت مالك بن النضر.. لما جاء الله بالإسلام.. استجابت وفود الأنصار.. وأسلمت أم سليم.. مع السابقين إلى الإسلام.. وعرضت الإسلام على زوجها فأبى وغضب عليها.. وأرادها على الخروج معه من المدينة إلى الشام.. فأبت وتمنعت.. فخرج.. وهلك هناك..

وكانت امرأة عاقلة جميلة فتسابق إليها الرجال.. فخطبها أبو طلحة قبل أن يسلم..

فقالت: أما إني فيك لراغبة.. وما مثلك يرد.. ولكنك رجل كافر.. وأنا امرأة مسلمة..

فإن تسلم فذاك مهري.. لا أسأل غيره.. قال: إني على دين..

قالت: يا أبا طلحة.. ألست تعلم أن إلهك الذي تعبده خشبة نبتت من الأرض نجرها حبشي بني فلان؟.. قال: بلى.. قالت: أفلا تستحي أن تعبد خشبة من نبات الأرض نجرها حبشي بني فلان؟ يا أبا طلحة.. إن شئت أسلمت لا أريد من الصداق غيره.. قال: حتى أنظر في أمري.. فذهب ثم جاء إليها.. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..

فاستبشرت.. وقالت: يا أنس زوج أبا طلحة.. فتزوجها.. فما كان هناك مهر قط أكرم من مهر أم سليم: الإسلام.. انظري كيف أرخصت نفسها في سبيل دينها.. وأسقطت من أجل الإسلام حقها.. نعم.. فتاة تعيش لأجل قضية واحدة هي الإسلام.. كيف ترفع شأنه.. وتعلي قدره.. وتهدي الناس إليه..

بل.. حينما قدم النبي ﷺ المدينة.. استقبله الأنصار والمهاجرون فرحين مستبشرين.. ونزل ﷺ في بيت أبي أيوب فأقبلت على بيته لزيارته ﷺ.

فخرجت أم سليم الأنصارية من بين هذه الجموع.. وأرادت أن تقدم لرسول الله ﷺ شيئاً.. فلم تجد أعزّ إليها من فلذة كبدها.. فأقبلت بولدها أنس.. ثم وقفت بين يدي النبي ﷺ.

فقالت: يا رسول الله هذا أنس يكون معك دائماً يخدمك.. ثم مضت.. وبقي أنس عند رسول الله ﷺ يخدمه صباحاً ومساء..

ليلة مع أم سليم..!

لم تكن أم سليم تتصنع البذل أمام الناس وتتساه في نفسها.. وإنما العجب حالها في بيتها.. من عناية بزوجها.. ورضا بقسمة ربها.. تزوجت أم سليم أبا طلحة.. ورزقت منه بغلام صبيح.. هو أبو عمير.. وكان أبو طلحة يحبه حباً عظيماً.. بل كان ﷺ يحبه.. ويمر بالصغير فيرى معه طيراً يلعب به.. اسمه النغير.. فكان يمازحه ويقول: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟».

فمرض الغلام.. فحزن أبو طلحة عليه حزناً شديداً.. حتى اشتد المرض بالغلام يوماً.. وخرج أبو طلحة في حاجة إلى رسول الله ﷺ.. وتأخر عنده.. فازداد مرض الغلام ومات.. وأمه

عنده.. بكى بعض أهل البيت.. فهدأتهم وقالت: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه.. فوضعت الغلام في ناحية من البيت وغطته.. وأعدت لزوجها طعامه.. فلما عاد أبو طلحة إلى بيته سألها: كيف الغلام؟..

قالت: هدأت نفسه.. وأرجو أن يكون قد استراح.. فتوجه إليه ليراه.. فأبت عليه.. وقالت: هو ساكن فلا تحركه.. ثم قربت له عشاءه فأكل وشرب.. ثم أصاب منها ما يصيبه الرجل من امرأته.. فلما رأت أنه قد شبع واستقر..

قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم؟.. قال: لا.. قالت: ألا تعجب من جيراننا؟.. قال: وما لهم؟!.. قالت: أعارهم قوم عارية.. وطال بقاؤها عندهم حتى رأوا قد ملكوها.. فلما جاء أهلها يطلبونها.. جزعوا أن يعطوهم إياهم.. فقال: بئس ما صنعوا..

فقالت: هذا ابنك.. كان عارية من الله.. وقد قبضه إليه.. فاحتسب ولدك عند الله.. ففزع.. ثم قال: والله.. ما تغلبيني على الصبر الليلة.. فقام وجهز ولده.. فلما أصبح غدًا على رسول الله ﷺ فأخبره.. فدعا لهما بالبركة..

قال راوي الحديث: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن..

فانظري كيف ارتفعت بدينها.. عن شق الجيوب.. وضرب الخدود.. والدعاء بالويل والثبور..

هل رأيتم امرأة توفى ابنها.. بين يديها.. وتقوم بخدمة زوجها.. وتهيئ له نفسها.. بل هل رأيت ألطف من لطفها.. أو ألين من طريقتها..

امرأة تربي زوجها..!

إن امرأة بهذا الإيمان والصدق واليقين.. لينتشر خيرها.. وتعم بركة فعلها.. على أهل بيتها.. فيصلح أولادها.. وتستقيم بناتها.. ويتأثر زوجها بصلاحها.. فلا عجب أن يرتفع شأن أبي طلحة بعد زواجه منها.. كانت أم سليم تحثه على الدعوة والجهاد.. وطاعة رب العباد.. حتى إذا كانت غزوة أحد.. خرج أبو طلحة مع المجاهدين.. فاشتد عليهم البلاء.. فاضطرب المسلمون.. وقتلوا.. وتفرقوا..

وأقبل المشركون على رسول الله ﷺ يريدون قتله.. فأقبل عليه أصحابه الأخيار.. وهم

جرحى.. وجوعى.. دماؤهم تسيل على دروعهم.. ولحومهم تتناثر من أجسادهم..

أقبلوا على رسول الله ﷺ فأحاطوه بأجسادهم يصدون عنه الرماح.. وضربات السيوف.. تقع في أجسادهم دونه..

وكان أبو طلحة يرفع صدره ويقول: يا رسول الله لا يصيبك سهم.. نحري دون نحرك.. وهو يقاتل عن رسول الله ﷺ ويحامي..

والكفار يضربونه من كل جانب.. هذا يرميه بسهم.. وذلك يضربه بسيف.. والثالث يطعنه بخنجر.. فلم يلبث أن صرع ووقع من كثرة الضرب عليه.. فأقبل أبو عبيدة يشتد مسرعًا.. فإذا أبو طلحة صريعًا.. فقال النبي ﷺ: «دونكم أخاكم فقد أوجب».. فحملوه.. فإذا بجسده بضع عشرة ضربة وطعنة.. نعم.. كان أبو طلحة بعدها.. يرفع راية الدين..

وكان ﷺ يقول: «لصوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة!»..

هذا صوته في الجيش.. فما بالك بقوته وقتاله؟..

من النرويج إلى أفريقيا..!

كيف تتقاعس فتيات اليوم عن نصرة الدين.. بل كيف نرى المنكرات ظاهرة.. بصورة فاجرة.. أو علاقات سافرة.. ومحرمات في اللباس والحجاب.. مؤذنة بقرب نزول العذاب.. ترى هذه المنكرات بين قريباتها.. وأخواتها وزميلاتها.. ثم لا تنشط للإنكار..

وقد قال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره».. فهل غيرت ما استطعت من منكرات؟.. ليت شعري.. كيف يكون حالك يوم القيامة.. إذا تعلقت بك الصديقة والزميلة.. والحبيبة والخليلة.. وبكين وانتحبن.. لم رأيتينا على المنكرات.. ومقارفة المحرمات.. ولم تنهي أو تنصحي.. أو تعظي وتذكري.. وانظر إلى تضحية الكافرات لدينهن.. يقول أحد الدعاة: كنت في رحلة دعوية إلى اللاجئين في أفريقيا.. كان الطريق وعرًا موحشًا.. أصابنا فيه شدة وتعب.. ولا نرى أمامنا إلا أمواجًا من الرمال.. ولا نصل إلى قرية في الطريق.. إلا ويحذرنا من قطاع الطرق.. ثم يسر الله الوصول إلى اللاجئين ليلاً.. فرحوا بمقدمي.. وأعدوا خيمة فيها فراش بال.. ألقيت بنفسي على الفراش من شدة التعب..

ثم رحت أتأمل رحلتي هذه.. أتدري ما الذي خطر في نفسي؟!

شعرت بشيء من الاعتزاز والفخر.. بل أحسست بالعجب والاستعلاء! فمن ذا الذي سبقني إلى هذا المكان؟!.. ومن الذي يصنع ما صنعت؟!.. ومن ذا الذي يستطيع أن يتحمل هذه المتاعب؟!..

وما زال الشيطان ينفخ في قلبي حتى كدت أتيه كبرًا وغرورًا.. خرجنا في الصباح نتجول في أنحاء المنطقة.. حتى وصلنا إلى بئر يبعد عن منازل اللاجئين.. فرأيت مجموعة من النساء يحملن على رءوسهن قدور الماء..

ولفت انتباهي امرأة بيضاء من بين هؤلاء النسوة.. كنت أظنها ـ بادئ الرأي ـ واحدة من نساء اللاجئين مصابة بالبرص.. فسألت صاحبي عنها.. قال لي مرافقي: هذه منصرة.. نرويجية.. في الثلاثين من عمرها.. تقيم هنا منذ ستة أشهر.. تلبس لباسنا.. وتأكل طعامنا.. وترافقنا في أعمالنا.. وهي تجمع الفتيات كل ليلة.. تتحدث معهن.. وتعلمهن القراءة والكتابة.. وأحيانًا الرقص.. وكم من يتيم مسحت على رأسه! ومريض خففت من ألمه!..

فتأملي في حال هذه المرأة.. ما الذي دعاها إلى هذه القفار النائية وهي على ضلالها؟!.. وما الذي دفعها لتترك حضارة أوربا ومروجها الخضراء؟!..

وما الذي قوى عزمها على البقاء مع هؤلاء العجزة المحاويج وهي في قمة شبابها؟!.. أفلا تتصاغرين نفسك.. هذه منصرة ضالة.. تصبر وتكابد.. وهي على الباطل..

بل في أدغال أفريقيا.. تأتي المنصرة الشابة من أمريكا وبريطانيا وفرنسا.. تأتي لتعيش في كوخ من خشب.. أو بيت من طين.. وتأكل من أردأ الطعام.. كما يأكلون.. وتشرب من النهر كما يشربون.. ترعى الأطفال.. وتطيب النساء.. فإذا رأيتها بعد عودتها إلى بلدها.. تراها قد شحب لونها.. وخشن جلدها.. وضعف جسدها.. لكنها تنسى كل هذه المصاعب لخدمة دينها..

عجبًا.. هذا ما تبذله تلك النصرانيات الكافرات.. ليعبد غير الله.. ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء:١٠٤]..

ويقول آخر: كنت في ألمانيا.. فطرق علي الباب.. وإذا بصوت امرأة شابة ينادي من

ورائه.. فقلت لها: ما تريدين؟.. قالت: افتح الباب..

قلت: أنا رجل مسلم.. وليس عندي أحد.. ولا يجوز أن تدخلي علي.. فأصرت علي.. فأبيت أن أفتح الباب..

فقالت: أنا من جماعة شهود يهوه الدينية.. افتح الباب.. وخذ هذه الكتيبات والنشرات.. قلت: لا أريد شيئًا.. فأخذت تترجى.. فوليت الباب ظهري.. ومضيت إلى غرفتي.. ما كان منها إلا أن وضعت فمها على ثقب في الباب.. ثم أخذت تتكلم عن دينها.. وتشرح مبادئ عقيدتها لمدة عشر دقائق..

فلما انتهت.. توجهت إلى الباب وسألتها: لم تتعبين نفسك هكذا.. فقالت: أنا أشعر الآن بالراحة.. لأني بذلت ما أستطيع في سبيل خدمة ديني.. ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ﴾ [النساء:١٠٤]..

وأنت.. أفلا تساءلت يومًا

ماذا قدمت للإسلام؟ كم فتاة تابت على يديك؟ كم تنفقين لهداية الفتيات إلى ربك؟

تقول بعض الصالحات: لا أجرؤ على الدعوة.. ولا إنكار المنكرات..

عجبًا!.. كيف تجرؤ مغنية فاجرة.. أن تتغنى أمام عشرة آلاف يلتهمونها بأعينهم قبل آذانهم.. ولم تقل إني خائفة.. أخجل..

كيف تجرؤ راقصة داعرة.. أن تعرض جسدها أمام الآلاف.. ولا تفزع وتوجل.. وأنت إن أردنا منك مناصحة أو دعوة.. خذلك الشيطان.. بل بعض الفتيات.. تزين لغيرها المنكرات.. فتتبادل معهن مجلات الفحشاء.. وأشرطة الغناء.. أو تدعوهن إلى مجالس منكر وبلاء.. وهذا من التعاون على الإثم والعدوان.. والدخول في حزب الشيطان.. ولتتقلن هذه المحبة إلى عداوة وبغضاء..

قال الله ﷻ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].. هذا حالهن في عرصات القيامة.. يلبسن لباس الخزي والندامة.. أما في النار.. فكما قال الله عن فريق من العصاة: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ

ﭐلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٥].

ثم يلعن بعضهن بعضًا.. تقول لصاحبتها التي طالما جالستها في الدنيا.. وضاحكتها وقبلتها.. تقول لها يوم القيامة: لعنك الله أنت التي أوقعتيني في الغزل والفحشاء.. فتصيح بها الأخرى: بل لعنك الله أنت.. فأنت التي أعطيتني أشرطة الغناء.. فتجيبها: بل لعنك الله أنت.. أنت التي زينتي لي التسكع والسفور.. فترد عليها: بل لعنك الله أنت.. أنت التي دللتيني على طرق الفجور.. عجبًا.. كيف غابت تلك الضحكات.. والهمسات واللمسات.. طالما طفتما في الأسواق.. وضاحكتما الرفاق.. واليوم يكفر بعضكن ببعض.. نعم.. لأنهن ما اجتمعن يومًا على نصيحة أو خير.. فهن يوم القيامة يجتمعن.. ولكن أين يجتمعن؟.. في نار لا يخبو سعيرها.. ولا يبرد لهيبها.. ولا يخفف حرها.. إلا أن يشاء الله..

فأين نساؤنا اليوم؟..

أين نساؤنا عن سير هؤلاء الصالحات.. أين النساء اللاتي يقعن في المخالفات الشرعية في لباسهن.. وحديثهن.. ونظرهن.. ثم إذا نصحت أحداهن قالت: كل النساء يفعلن مثل ذلك.. ولا أستطيع مخالفة التيار..

سبحان الله!.. أين القوة في الدين.. والثبات على المبادئ..

إذا كانت الفتاة بأدنى فتنة تتخلى عن طاعة ربها.. وتطيع الشيطان.. أين الاستسلام لأوامر الله.. والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦].

أين تلك الفتيات العابثات.. اللاتي تتعرض إحداهن للعنة ربها.. فتلبس عباءتها على كتفها.. فيرى الناس تفاصيل كتفيها وجسدها.. إضافة إلى تشبهها بالرجال.. لأن الرجال هم الذين يلبسون عباءاتهم على أكتافهم.. ومن تشبهت بالرجال فهي ملعونة.. وأين تلك الواشمة.. التي تضع الوشم على وجهها على شكل نقط متفرقة.. أو على شكل رسوم في مناطق من جسدها.. وهذا فعل الموسسات..

والنبي ﷺ قد قال: «لعن الله الواشمة والمستوشمة».. بل.. أين المرأة التي تلبس الشعر المستعار.. أو ما يسمى بالباروكة.. والله تعالى قد لعن الواصلة والمستوصلة.. فهؤلاء النساء

ملعونات.. أتدرين ما معنى ملعونة؟! أي مطرودة من رحمة الله.. مطرودة عن سبيل الجنة.. أو ترضين أن تطردي من الجنة.. بسبب شعرات تنتفينها من حاجبيك.. أو عباءة تنزلينها على كتفيك.. أو نقاط من وشم في أنحاء جسمك؟!

المحرومات..!

من اتباع الهوى.. والشيطان.. تكلف الفتاة في تزيين مظهرها.. ولو كان في ذلك التعرض للعنة الله.. ومن ذلك نمص الحواجب.. إما بالنتف أو الحلق.. وهو تحقيق لوعيد الشيطان لما قال لربه: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٩].

والنمص.. تعرض للعنة الله.. فقد صح عند أبي داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة المغيرات لخلق الله..

سبحان الله.. كيف تفعلين ما يعرضك للعنة الله.. وأنت تسألين الله المغفرة والرحمة في الصلاة وخارجها.. أليس هذا تناقضاً بين قولك وفعلك؟!.. تطلبين الرحمة وتفعلين ما يطردك منها.. إن هذا لشيء عجاب!.. وأفتى أهل العلم الربانيون بتحريمه.. وبين يدي أكثر من عشرين فتوى بتحريمه.. فمن مقتضى إيمانك بالله.. طاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر.. بل إن النمص تشبه بالكافرات.. ومن تشبه بقوم فهو منهم.. والله يقول يوم القيامة: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢].. أي أشباههم ونظراءهم..

ومن أحب قوماً حشر معهم.. ولا تقولي: كثيرات يفعلن ذلك.. فكثيرات أيضاً يعبدن الأصنام.. فهل تعبدين معهن.. وكثيرات يعلقن الصليب.. فهل تفعلين مثلهن.. إن كثرة العاصيات لا تعذرك عند الله.. فأنت مسئولة عن عملك.. وكما كنت في ظهر أبيك وحدك.. ثم في بطن أمك وحدك.. ثم ولدت وحدك.. فإنك تموتين وحدك.. وتبعثين يوم القيامة وحدك.. وتمرين على الصراط وحدك.. وتأخذين كتابك وحدك.. وتسألين بين يدي الله وحدك..

قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٣ - ٩٥]..

على موج البحر

كم من الفتيات المؤمنات.. انجرفت إحداهن مع الأمواج.. فبدأت تتساهل بالحجاب والعباءة وترضى أن تتبع ما يصنعه المفسدون.. بل يصممه الفجرة والكافرون.. من العباءات التي تظهر الزينة بدل أن تسترها..

عجبًا!.. كيف ترضين أن تكوني دمية يلبسونها ما شاءوا؟..

فهذه عباءة مطرزة.. وتلك مخصرة.. والثالثة على الكتفين.. والرابعة واسعة الكمين.. أصبحت أكثر العباءات.. تحتاج إلى سترها بعباءة.. فالحجاب.. إنما شرع لستر الزينة عن الرجال.. فإذا كان الحجاب في نفسه زينة.. فما الحاجة إليه..

وقد قال ﷺ فيما رواه مسلم: «صنفان من أهل النار لم أرهما: رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس.. ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».. فمن الفتاة التي لا تريد الجنة ولا رائحتها؟..

أما تعلمين أنك بتبرجك وسفورك تصبحين وسيلة من وسائل الشيطان؟.. هل ترضين أن تكوني سببًا في وقوع مسلم في الحرام؟.. أتدرين أنك إذا لبست عباءة متبرجة.. ثم رأتك فتاة فاشترت مثلها فلبستها.. أتعلمين أن عليك وزرها ووزر من قلدها هي أيضًا إلى يوم القيامة.. أيسرك أن تكوني قدوة في الشر..

تتجملين لمن؟!

ولو سألت امرأة تزينت بعباءة من هذه الأنواع.. لماذا تلبسين هذه العباءة؟ لقالت لك: هذه أجمل.. فاسأليها عند ذلك: تتجملين لمن؟!

نعم تتجملين لمن؟! لخاطب شريف.. أو زوج عفيف.. إنها تتزين لينظر إليها سفلة الناس.. ممن لا يلتفتون لمراقبة الله لهم.. ممن لا يهمهم شرفها.. ولا عفتها.. ولا كرامتها.. يسعى أحدهم لشهوة فرجه.. ولذة عينه.. ثم إذا قضى حاجته منها.. ركلها بقدمه.. وبحث عن فريسة أخرى..

هلا تفكرت يومًا.. لماذا أمرك الله بالحجاب.. وقال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور:٣١].. لماذا أمرك الله بستر زينتك.. وجهك وشعرك وسائر جسدك.. لماذا أمرك بهذا؟ هل بينه وبينك خصام.. أو ثأر وانتقام؟

كلا.. فهو الغني عن عباده.. الذي لا يظلم مثقال ذرة.. ولكنها سنة الله الباقية.. وشريعته الماضية.. وقوله الذي لا يبدل.. وحكمه الذي يعدل.. قضى على الرجل بأحكام وعلى المرأة بأحكام.. ولا يمكن أن تستقيم الدنيا إلا بطاعته.. والمرأة الصالحة تسلم لربها في أمره..

والفائزون هم الذين يسلمون لله في أمره.. أما غيرهم.. فهم يسعون جاهدين.. لنزع عباءتك.. وهتك حجابك.. يستميتون لتحقيق غايتهم..

وينفقون أموالهم.. ويبذلون من أوقاتهم.. فهذه مجلة سافرة.. وتلك مقالة فاجرة.. وهذا برنامج يشكك في الحجاب.. يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا.. يريدون التمتع بالنظر إلى زينتك في أسواقهم.. والأنس برقصك في مسارحهم.. والتلذذ بجسدك على فرشهم.. وبخدمتك لهم في طائراتهم.. وهم في الحقيقة يطالبون بحقوقهم لا بحقوقك.. عجبًا لهم..! لم يعرفوا من حقوق المرأة إلا حق التبرج ونزع الحجاب.. وحق قيادة السيارة.. وحق السفر بلا محرم.. وحق العمل ومخالطة الرجال.. وحق الخروج في وسائل الإعلام.. إلى آخر تلك الحماقات التي يسمونها حقوقًا.. تبًا لهم..!

لم نسمعهم يومًا يطالبون بحقوق الأرامل والمعوقات.. أو يطالبون الأبناء بحقوق الأمهات.. لكن يطالبون بالفساد.. ويظهرون أنهم يريدون رقي المجتمع.. وهذا حال المنافقين.. فهم أحفاد عبد الله بن أبي بن سلول.. رأس المنافقين في عهد رسول الله ﷺ. ألم ترى أنه اتهم أمنا عائشة رضي الله عنها بالزنى.. وأشاع المقالة ورددها بين الناس.. وزعم أنه يريد إشاعة الفضيلة.. وهو في الحقيقة أستاذ الرذيلة.. وموقد نارها.. ألا ترين أنه كان يشتري الجميلات ثم يأمرهن بالبغاء والزنا.. ليجمع المال من ذلك.. حتى فضحه الله في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣]

فهم يرددون: العباءة على الرأس تضايقك..

والثوب الطويل يثقل عليك..

والبنطال أسهل لمشيك..

وتغطية الوجه تكتم أنفاسك..

قوم أعجبوا بحضارة الكفار.. فظنوا أن الطريق إليها نزع الحجاب.. وتشمير الثياب.. وإن جولة واحدة في إحدى مدن الغرب أو الشرق تكفي لإدراك هذه الحقيقة.. فالمرأة تشتغل حمالة حقائب في المطار.. وعاملة نظافة في الطريق.. ومنظفة حمام في الشركة.. وإن كانت جميلة اشتغلت في مرقص أو بار..

فهذا سكير يعربد بها.. وذاك فاجر يعبث بجسدها.. والثالث يتخذها سلعة يتكسب منها.. فإذا قضوا حاجتهم منها صفعوا وجهها.. وإذا كبرت ألقيت في دار العجزة التي هي أشبه بالسجون.. بل بالمقابر.. عجبًا.. أهذه هي الحرية التي يعنونها.. والله لئن كنا نتألم لمصاب مسلمة في الفلبين.. وأخرى في كشمير.. فإن المرأة هناك لا تجد من يتألم لها..

أنت ملكة.. ملكة..

يقول أحد الأطباء: كنت أدرس في بريطانيا.. وكانت جارتنا عجوزًا يزيد عمرها على السبعين عامًا.. كانت تستثير شفقة كل من رآها.. قد احدودب ظهرها.. ورق عظمها.. ويبس جلدها.. ومع ذلك.. هي وحيدة بين جدران أربعة.. تدخل وتخرج وليس معها من يساعدها من ولد ولا زوج.. تطبخ طعامها.. وتغسل ثيابها.. منزلها كأنه مقبرة.. ليس فيه أحد غيرها.. ولا يقرع أحد بابها.. دعتها زوجتي لزيارتنا ذات يوم.. فأخبرتها زوجتي بأن الإسلام يجعل الرجل مسئولاً عن زوجته.. يعمل من أجلها.. يبتاع طعامها ولباسها.. يعالجها إذا مرضت.. ويساعدها إذا اشتكت.. وهي تجلس في بيتها.. تجب عليه نفقتها ورعايتها.. بل وحماية عرضها ونفسها.. فإذا رزقت بأولاد.. وجب عليهم هم أيضًا برها.. والذلة لها.. ومن عقها من أولادها نبذه الناس وقاطعه حتى يبرها.. فإن لم تكن المرأة ذات زوج وجب على أبيها أو أخيها.. أو وليها.. أن يرعاها ويصونها..

كانت هذه العجوز.. تستمع إلى زوجتي بكل دهشة وإعجاب.. بل كانت تدافع

عبراتها وهي تتذكر أولادها وأحفادها الذين لم ترهم منذ سنوات.. ولا يزورها أحد منهم.. بل لا تعرف أين هم.. وقد تموت وتدفن أو تحرق وهم لا يعلمون.. لأنها لا قيمة لها عندهم.. أنهت زوجتي حديثها.. فبقيت العجوز واجمة قليلاً..

ثم قالت: في الحقيقة..

إن المرأة في بلادكم: ملكة.. ملكة..

نعم والله.. أيتها الأخت الكريمة أنت عندنا ملكة..

نعم ملكة نفسك من أجلك تسفك الدماء.. فمن قتل دون عرضه فهو شهيد.. وترخص لأجلك الأرواح.. وتنفق الأموال.. ولأنك ملكة مصونة أمر الرجال حولك أن يحفظوك..

ألحان وأشجان..!

بعض الفتيات قد يجرهن الشيطان.. إلى سبيل الرذيلة.. بسماع الغناء.. والتعلق بالفحشاء.. وقد قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان:٦].

كان ابن مسعود رضي الله عنه يقسم بالله أن المراد به الغناء.. وفي «الصحيح» قال ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف»..

وصح عند الترمذي أنه ﷺ قال: «ليكونن في هذه الأمة خسف وقذف ومسخ؛ وذلك إذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا المعازف».. ونص العلماء على تحريم آلات اللهو والعزف.. والتحريم يشتد والذنب يعظم إذا رافق الموسيقى غناء.. وتتفاقم المصيبة عندما تكون كلمات الأغاني عشقًا وحبًّا وغرامًا ووصفًا للمحاسن.. بل هي مزمار الشيطان.. الذي يزمر به فيتبعه أولياؤه.. قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤].. وقال ابن مسعود: الغناء رقية الزنا.. أي: إنه طريقه ووسيلته..

عجبًا.. هذا كان يقوله ابن مسعود لما كان الغناء يقع من الجواري والإماء المملوكات.. لما كان الغناء بالدف والشعر الفصيح.. يقول هو رقية الزنى..

فماذا يقول ابن مسعود لو رأى زماننا هذا.. وقد تنوعت الألحان.. وكثر أعوان الشيطان.. فأصبحت الأغاني تسمع في السيارة والطيارة.. والبر والبحر.. بل حتى الساعات

والأجراس وألعاب الأطفال والكمبيوتر وأجهزة الهاتف.. دخلت فيها الموسيقى..

رقية الزنى..!

والأغاني طريق لنشر الفاحشة.. وإثارة الغرائز.. فما يكاد يذكر فيها إلا الحب والغرام.. والعشق والهيام..

بالله عليك، هل سمعت مغنيًا غنى في التحذير من الزنى؟ أو غض البصر؟ أو حفظ أعراض المسلمين؟! أو في الحث على صوم النهار.. وبكاء الأسحار..

كلا ما سمعنا عن شيء من ذلك..

بل أكثرهم يدعو إلى العشق المحرم.. وتعلق القلب بغير الله.. بل قد يجر إلى الداهية العظمى.. وهو عشق الفتاة لفتاة مثلها.. والإعجاب بها.. ومصاحبتها.. نعم.. تحبها.. لا لأنها قوامة ليل.. أو صوامة نهار.. لا.. ولن لجمال وجهها.. وملاحة بسمتها.. تعجبها حركاتها.. وتثيرها ضحكاتها.. تفتن بابتسامتها.. وتأنس بمجالستها.. بل.. وتعجب منها بكل شيء وإن كان قبيحًا.. وبعض الفتيات قد تتساهل بمثل ذلك.. بل قد يظهر منها ما يدل على استدعائها لذلك.. فكم نرى من الفتيات المائعات في تحركاتهن وضحكاتهن.. بل وأسلوب الكلام.. وطريقة المشي.. إضافة إلى لبس الثياب الضيقة.. والتغنج والدلال.. وكثرة اللمسات والقبلات.. وتبادل الرسائل العاطفة.. والهدايا الشيطانية..

نرى أحيانًا هذه المظاهر في بعض المدارس والكليات.. فلماذا تفعل الفتاة ذلك؟ بسبب الإعجاب والعشق والمحبة.. وهذا هو الشذوذ عن الفطرة.. وهو مؤذن بنزول العذاب الذي نزل على قوم لوط..

فماذا فعل قوم لوط؟.. اكتفى رجالهم برجالهم.. ونساؤهم بنسائهم.. وقد ذكر الله خبر هؤلاء الفجار في القرآن.. وأن لوطًا صاح بهم وقال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].. وإذا وقعت هذه الفاحشة.. كادت الأرض تميد من جانبها.. والجبال تزول عن أماكنها.. ولم يجمع الله على أمة من العذاب ما جمع على قوم لوط.. فإنه طمس أبصارهم.. وسود وجوههم.. وأمر جبريل بقلع قراهم من أصلها ثم قلبها عليهم.. ثم

خسف بهم.. ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل.. قال عز من قائل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود:٨٢]..

أما رسول الله ﷺ فقد صح عنه فيما رواه الترمذي: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط».. وصح فيما رواه ابن حبان: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط.. لعن الله من عمل عمل قوم لوط.. لعن الله من عمل عمل قوم لوط»..

وصح في «مسند أحمد» أنه ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»..

أما الصحابة فكانوا يحرقون اللوطية بالنار.. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: اللوطي إذا مات من غير توبة مسخ في قبره خنزيرًا..

فمن كانت قد أسرفت على نفسها.. ووقعت في شيء من ذلك.. فلتسارع إلى التوبة والاستغفار.. والإنابة إلى العزيز الغفار.. نعم.. توبي إلى الله.. مزقي ما عندك من رسائل وأرقام.. وأتلفي الصور والأشرطة والأفلام.. أثبتي أن حبك للرحمن أعظم من كل حب.. أثبتي أنك تقدمين طاعة الله على طاعة الهوى والشيطان..

قاتل ومقتول..!

أريد أن تكوني داعية لغيرك.. آمرة بالمعروف.. ناهية عن المنكر.. كوني شجاعة.. ولا يخذلك الشيطان.. صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ.. عجوز قد جاوز عمرها الستين سنة.. ولكن لها بطولات وأعاجيب..

لما اجتمع الكفار من قريش وغيرها.. وتآمروا على غزو المدينة.. حفر المسلمون خندقًا في جهة من جهات المدينة.. وكانت الجبال تحيط ببقية الجهات.. وكان عدد المسلمين قليلاً.. فاستنفرهم النبي ﷺ للرباط أمام الخندق لصد من يتسلل إليهم من الكفار.. أما النساء والصبيان فقد جمعهم النبي ﷺ في حصن منيع.. ولم يترك عندهم من يحرسهم.. لقلة المسلمين وكثرة الكفار.. وبينما النبي ﷺ منشغل مع أصحابه في القتال عند الخندق.. تسلل جمع من اليهود حتى وصلوا الحصن.. ثم لم يجرؤا على الدخول خشية من وجود أحد المسلمين..

فاصطفوا خارج الحصن.. وأرسلوا واحدًا منهم يستطلع لهم الأمر.. فجعل هذا اليهودي

يطوف بالحصن.. حتى وجد فرجة فدخل منها.. وجعل يبحث وينظر.. فرأته صفية رضي الله عنها ففزعت وقالت في نفسها:

هذا اليهودي يطوف بالحصن.. وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من ورائنا من يهود.. وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه.. وإن صرخت فزعت النساء والصبيان.. وعلم اليهودي أن لا رجال في الحصن..

فتناولت سكينًا وربطتها في وسطها.. ثم أخذت عمودًا من خشب.. ونزلت من الحصن إليه وتحينت منه التفاتة.. فضربته بالعمود على أم رأسه.. حتى قتلته.. فلما خمد.. تناولت سكينًا.. فقطعت رأسه.. لله در صفية.. تلك العابدة التقية..

تأملي في جرأتها وبذلها نفسها في خدمة الدين.. فكم تبذلين أنت للأمر بالمعروف.. والنهي عن المنكر.. كم ترين في المجالس من النامصات.. وفي الأسواق من المتبرجات.. وفي الأعراس من المتعريات.. ماذا فعلت تجاههن؟!.. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

إن من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استحق اللعن.. ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]..

ولا تخجلي من ذلك فالدعوة تحتاج إلى جرأة في أولها.. ثم تفرحين بآخرها..

العروس..!

والصالحات القابضات على الجمر.. إذا أتى إحداهن الأمر من الشريعة.. أطاعت.. وسلمت.. وأذعنت.. ولم تعترض.. أو تخالف.. أو تبحث عن مخارج..

وتأملي في خبر تلك الفتاة العفيفة الشريفة.. العروس..

كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: (جليبيب) في وجهه دمامة.. فعرض عليه رسول الله ﷺ التزويج.. فقال: إذًا تجدني كاسدًا.. فقال: «غير أنك عند الله لست

بكاسد».. فلم يزل النبي ﷺ يتحين الفرص لتزويج جليبيب..

حتى جاء رجل من الأنصار يومًا يعرض ابنته الثيب على رسول الله ﷺ. ليتزوجها.. فقال ﷺ: «نعم يا فلان.. زوجني ابنتك».. قال: نعم ونعمين.. يا رسول الله.. فقال ﷺ: «إني لست أريدها لنفسي».. قال: فلمن؟.. قال: «لجليبيب!» قال: جليبيب! يا رسول الله! حتى أستأمر أمها.. فأتى الرجل زوجته فقال: إن رسول الله ﷺ يخطب ابنتك.. قالت: نعم.. ونعمين.. زوج رسول الله ﷺ. قال: إنه ليس يريدها لنفسه.. قالت: فلمن؟ قال: يريدها لجليبيب.. قالت: حلقي لجليبيب.. لا لعمر الله لا أزوج جليبيبًا.. وقد منعناها فلانًا وفلانًا.. فاغتم أبوها لذلك.. وقام ليأتي رسول الله ﷺ. فصاحت الفتاة من خدرها بأبيها: من خطبني إليكما؟.. قالا: رسول الله ﷺ.

قالت: أتردان على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعاني إلى رسول الله ﷺ. فإنه لن يضيعني.. فكأنما جلت عنهما.. فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله.. شأنك بها فزوجها جليبيبًا..

فزوجها النبي ﷺ.. ودعا لها.. وقال: «اللهم صب عليهما الخير صبًا.. ولا تجعل عيشهما كدًا كدًا..» فلم يمض على زواجه أيام.. حتى خرج النبي ﷺ في غزوة.. وخرج معه جليبيب.. فلما انتهى القتال.. وبدأ الناس يتفقد بعضهم بعضًا.

سألهم النبي ﷺ: «هل تفقدون من أحد؟».. قالوا: نفقد فلانًا وفلانًا..

قال: «ولكني أفقد جليبيبًا».. فقاموا يبحثون عنه.. ويطلبونه في القتلى.. فلم يجدوه في ساحة القتال.. ثم وجدوه في مكان قريب.. إلى جنب سبعة من المشركين قد قتلهم ثم قتلوه.. فوقف النبي ﷺ ينظر إلى جثته..

ثم قال: «قتل سبعة ثم قتلوه.. قتل سبعة ثم قتلوه.. هذا مني وأنا منه».. ثم حمله رسول الله ﷺ على ساعديه.. وأمرهم أن يحفروا له قبره..

قال أنس: فمكثنا نحفر القبر وجليبيب ما له سرير غير ساعدي رسول الله ﷺ.. حتى حفر له ثم وضعه في لحده..

قال أنس: والله ما كان في الأنصار أيم أنفق منها.. تسابق الرجال إليها كلهم يخطبها

بعد جليبيب.. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢].

والنبي ﷺ يقول كما في «الصحيح»: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى».. قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»..

في ميدان السباق..!

المؤمنات يتسابقن إلى الأعمال الصالحات.. صغيرها وكبيرها.. ولهن في كل ميدان سهم.. ولا تعلمين ما العمل الذي به تدخلين إلى الجنة.. فلعل شريطًا توزعينه في مدرسة.. أو نصيحة عابرة تتكلمين بها.. يكتب الله بها لك رضاه ومغفرته..

ولقد أخبر النبي ﷺ كما في «الصحيحين»: أن امرأة بغيًا من بني إسرائيل كانت تمشي في صحراء.. فرأت كلبًا بجوار بئر يصعد عليه تارة.. ويطوف به تارة.. في يوم حار قد أدلع لسانه من العطش.. قد كاد يقتله العطش فلما رأته هذه البغي.. التي طالما عصت ربها.. وأغوت غيرها.. ووقعت في الفواحش.. وأكلت المال الحرام.. لما رأت هذا الكلب.. نزعت خفها.. وأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء.. وسقته.. فغفر الله لها بذلك..

الله أكبر.. غفر الله لها.. بماذا؟.. هل كانت تقوم الليل وتصوم النهار؟ هل قاتلت في سبيل الله؟!.. كلا.. وإنما سقت كلبًا شربة من ماء.. فغفر الله لها..

وروى مسلم عن عائشة ﵂: أنها أخبرت عن امرأة مسكينة جاءتها تحمل ابنتين لها.. فقالت: يا أم المؤمنين.. والله ما دخل بطوننا طعام منذ ثلاثة أيام..

فبحثت عائشة في بيت النبي ﷺ فلم تجد إلا ثلاث تمرات..!

فأعطتها الثلاث التمرات.. ففرحت المسكينة بها.. فكانت البنتان لفرط الجوع.. أسرع إلى تمرتيهما من الأم إلى تمرتها.. فرفعتا أيديهما تريدان التمرة التي بيد الأم.. فنظرت الأم إليهما.. ثم شقت التمرة الباقية بينهما..

قالت عائشة: فأعجبني حنانها.. فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: إن الله قد أوجب لها بها الجنة.. أو أعتقها بها من النار..

فالقابضات على الجمر يتسابقن إلى الطاعات.. وإن كانت يسيرة صغيرة.. والأعظم من

ذلك هو الحذر من المعاصي.. وعدم التساهل بها..

فقد قال تعالى عن قوم تساهلوا بالمعاصي وتصاغروها.. ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[النور:١٥].. وأخبر النبي ﷺ كما في «الصحيحين».. أنه رأى امرأة تعذب في النار.. فما الذي أدخلها إلى النار؟؟.. هل سجدت لصنم؟.. هل قتلت نبيًا؟.. هل سرقت أموال الناس؟..

كلا.. دخلت امرأة النار في هرة.. سجنتها.. فلا هي أطعمتها.. ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً.. قال ﷺ : «فلقد رأيتها في النار والهرة تخدشها»..

وروى البخاري: أنه قيل للنبي ﷺ : يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار.. وتفعل.. وتتصدق.. لكنها.. تؤذي جيرانها بلسانها؟!.. فقال رسول الله ﷺ : «لا خير فيها.. هي من أهل النار»..

قالوا : وفلانة تصلي المكتوبة.. وتتصدق بأثوار - يعني: بأجزاء يسيرة من الطعام - ولا تؤذي أحدًا.. فقال رسول الله ﷺ : «هي من أهل الجنة».

الحرب..!

هل تعلمين أن الحرب الموجهة إليك حرب ضروس.. يريدون منها استعبادك وهتك عرضك.. باسم الحرية والمساواة..

فما معنى الحرية التي يدعو إليها المفسدون؟

ولماذا لا يدعون إلى تحرير العمال المظلومين.. والضحايا المنكوبين.. والأيتام المنبوذين؟.. لماذا يصرون على أن المرأة العفيفة.. التي تعيش في ظل وليها.. ولو مد أحد العابثين يده إليها.. لما عادت إليه يده.. لماذا يصرون دائمًا على أن هذه المرأة تحتاج إلى تحرير..

هل ارتداء المرأة العباءة والحجاب لتحمي نفسها من النظرات المسعورة.. يعد عبودية تحتاج إلى أن تحرر المرأة منها؟ هل تخصيص أماكن معينة لعمل المرأة.. بعيدة عن مخالطة الرجال.. هو عبودية وذل للمرأة؟ هل تربية المرأة لأولادها.. ورأفتها ببناتها.. وقرارها في بيتها.. هو عبودية تحتاج إلى تحرير؟

ثم.. لماذا نجد أن أكثر من يتناجون ويدعون إلى تحرير المرأة.. وتكشفها لهم.. يزعمون

أن حجابها قيد وغل لا بد أن تتحرر منه.. ثم.. لماذا نجد أن أكثر هؤلاء هم ليسوا من العلماء.. ولا من المصلحين.. وإنما أكثرهم من الزناة.. وشراب الخمور.. وأصحاب الشهوات المسعورة؟ فلماذا يدعو هؤلاء إلى تحرير المرأة؟ لماذا يستميتون لإخراج العفيفة من بيتها؟

الجواب واضح.. اشتهوا أن يروها متعرية راقصة فزينوا لها الرقص.. فلما تعرت وتبذلت.. وأصبحت تلهو وترقص في المسارح.. أرضوا شهواتهم منها..

ثم صاحوا بها وقالوا: قد حررناك.. واشتهوا أن يتمتعوا بها متى شاءوا.. فزينوا لها مصاحبة الرجال.. ومخالطتهم.. حتى حولوها إلى حمام متنقل يستعملونه متى شاءوا.. على فرشهم.. وفي حدائقهم.. وباراتهم.. وملاهيهم.. فلما تهتكت وتنجست.. صاحوا بها وقالوا: قد حررناك..

خدعـوهـا بقـولهـم حسنـاء والغـوانـي يـغـرهـن الثنـاء

واشتهوا أن يروها عارية على شاطئ البحر.. وساقية للخمر.. وخادمة في طائرة.. وصديقة فاجرة.. فزينوا لها ذلك كله وأغروها بفعله..

فلما ولغت في مستنقع الفجور.. تضاحكوا بينهم وقالوا: هذه امرأة متحررة..!

فمن ماذا حرروها؟..

عجبًا.. هل كانت في سجن وخرجت منه إلى الحرية؟.. هل الحرية في تقصير الثياب.. ونزع الحجاب؟.. أم الحرية في التسكع في الأسواق.. ومضاجعة الرفاق؟.. هل الحرية في مكالمة شباب فاجر.. أو الخلوة بذئب غادر؟..

أليس الحرية الحقيقية.. والسيادة النقية.. هي أن تكوني عفيفة مستترة.. أبوك يرأف عليك.. وزوجك يحسن إليك.. وأخوك يحرسك بين يديك.. وولدك ينطرح على قدميك..

هذه هي الكرامة العظيمة التي أرادها الله تعالى لك..

سفيرة النساء..!

والمجتمع قسمان: داخلي وخارجي:

فالرجل يقوم على القسم الخارجي فيعمل ويكتسب.. ويبني البيت.. ويعالج المريض..

ويطعم الجائع.. ويقود السيارة.. ويبيع ويشتري، والمرأة تربي الأولاد.. وتقوم على حاجة البيت.. ولا يصح الخلط بينهما.. بل كل فيما يخصه..

ألا ترين إلى ما أخرجه البيهقي في «الشعب»: أن أسماء بنت يزيد أتت النبي ﷺ.. وهو بين أصحابه.. فقالت: بأبي أنت وأمي.. إني وافدة النساء إليك.. واعلم ـ نفسي لك الفداء ـ أما إنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب.. سمعت بمخرجي هذا أو لم تسمع.. إلا وهي على مثل رأيي.. إن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء.. فآمنا بك.. وبإلهك الذي أرسلك.. وإنا معشر النساء محصورات مقصورات.. قواعد بيوتكم ومقضي شهواتكم.. وحاملات أولادكم..

وإنكم معاشر الرجال.. فضلتم علينا بالجمعة والجماعات.. وعيادة المرضى.. وشهود الجنائز.. والحج بعد الحج.. وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله.. وإن الرجل منكم إذا خرج حاجًّا أو مجاهدًا.. حفظنا أموالكم.. وغزلنا أثوابكم.. وربينا أولادكم.. فما نشارككم في الآجر يا رسول الله؟.. فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟».. قالوا: لا..

فالتفت النبي ﷺ ثم قال لها:

«انصرفي أيتها المرأة.. وأعلمي من خلفك من النساء.. أن حسن تبعل أحداكن لزوجها.. وطلبها مرضاته.. واتباعها.. تعدل ذلك كله»..

فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر.. فرحًا واستبشارًا..

نعم كل في مجاله.. المرأة مملكتها بيتها.. فهي فيه ملكة.. وزوجها ملك.. وأبناؤهم الرعية.. ولكن قد تخرق هذه المقاعد.. عند الحاجة..

ما أغلاك عندنا!

نعم.. لأنك عندنا غالية، فقد أوصى الله بك أباك وأمك.. فقال ﷺ فيما رواه مسلم: «من عال جاريتين حتى تبلغا.. جاء يوم القيامة أنا وهو.. وضم أصابعه».

أوصى بك أولادك، فقال ﷺ كما في «الصحيحين».. للرجل الذي سأله فقال: من

أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك»..

بل أوصى النبي ﷺ بالمرأة زوجها، وذم من غاضب زوجته أو أساء إليها.. فعند مسلم والترمذي أن النبي ﷺ قام في حجة الوداع، فإذا بين يديه مائة ألف حاج، فيهم الأسود والأبيض، والكبير والصغير، والغني والفقير.. صاح ﷺ بهؤلاء جميعًا وقال لهم: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، ألا واستوصوا بالنساء خيرًا».

وروى أبو داود وغيره: أنه في يوم من الأيام أطاف بأزواج رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن. فلما علم النبي ﷺ بذلك، قام وقال للناس: «لقد طاف بآل محمد ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»، وصح عند ابن ماجه والترمذي أن النبي ﷺ قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

من أجلك نسحق الجماجم!

بلغ إكرام الدين للمرأة، أنها كانت تقوم الحروب، وتسحق الجماجم، وتتطاير الرؤوس لأجل عرض امرأة واحدة.

ذكر أصحاب السير: أن اليهود كانوا يساكنون المسلمين في المدينة.. وكان يغيظهم نزول الأمر بالحجاب.. وتستر المسلمات، ويحاولون أن يزرعوا الفساد والتكشف في صفوف المسلمات، ما استطاعوا.. وفي أحد الأيام جاءت امرأة مسلمة إلى سوق يهود بني قينقاع.. وكانت عفيفة متسترة، فجلست إلى صائغ هناك منهم، فاغتاظ اليهود من تسترها وعفتها.. وودوا لو يتلذذون بالنظر إلى وجهها، أو لمسها والعبث بها.. كما كانوا يفعلون ذلك قبل إكرامها بالإسلام، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها.. ويغرونها لتنزع حجابها، فأبت.. وتمنعت..

فغافلها الصائغ وهي جالسة.. وأخذ طرف ثوبها من الأسفل، وربطه إلى خمارها المتدلي على ظهرها، فلما قامت، ارتفع ثوبها من ورائها.. وانكشفت سوءتها.. فضحك اليهود منها.

فصاحت المسلمة العفيفة.. وودت لو قتلوها ولم يكشفوا عورتها.. ولما رأى ذلك رجل من المسلمين، سل سيفه.. ووثب على الصائغ فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه..



فلما علم النبي ﷺ بذلك.. وأن اليهود قد نقضوا العهد وتعرضوا للمسلمات.. حاصرهم.. حتى استسلموا ونزلوا على حكمه، فلما أراد النبي ﷺ أن ينكل بهم، ويثأر لعرض المسلمة العفيفة.. قام إليه جندي من جند الشيطان.. الذين لا يهمهم عرض المسلمات.. ولا صيانة المكرمات.. وإنما هم أحدهم متعة بطنه وفرجه..

قام رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول.. فقال: يا محمد أحسن في موالي اليهود وكانوا أنصاره في الجاهلية.. فأعرض عنه النبي ﷺ وأبى.. إذ كيف يطلب العفو عن أقوام يريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا..

فقام المنافق مرة أخرى.. وقال: يا محمد أحسن إليهم.. فأعرض عنه النبي ﷺ.. صيانة لعرض المسلمات.. وغيرة على العفيفات.. فغضب ذلك المنافق.. وأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ.. وجره وهو يردد: أحسن إلى موالي.. أحسن إلى موالي.. فغضب النبي ﷺ والتفت إليه وصاح به وقال: «أرسلني».. فأبى المنافق، وأخذ يناشد النبي ﷺ العدول عن قتلهم.. فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: «هم لك»، ثم عدل عن قتلهم.. لكنه ﷺ أخرجهم من المدينة.. وطردهم من ديارهم.

حتى على النعش!

ذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب»:

أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ كانت دائمة الستر والعفاف، فلما حضرها الموت.. فكرت في حالها وقد وضعت جثتها على النعش.. وألقي عليها الكساء.. فالتفتت إلى أسماء بنت عميس..

وقالت: يا أسماء، إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء..

إنه ليطرح على جسد المرأة الثوب فيصف حجم أعضائها لكل من رأى.

فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ﷺ، أنا أريك شيئًا رأيته بأرض الحبشة.

قالت: ما رأيت؟ فدعت أسماء بجريدة نخل رطبة فحنتها، حتى صارت مقوسة كالقبة، ثم طرحت عليها ثوبًا.

فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله.. تعرف بها المرأة من الرجل، فلما توفيت فاطمة.. جعل لها مثل هودج العروس..

هذا حرص فاطمة على الستر وهي جثة هامدة، فكيف لما كانت حية؟!

سبحان الله! أين أولئك الفتيات المسلمات.. اللاتي نعلم أنهن يحببن الله ورسوله، وقلوبهن تشتاق إلى الجنة، ولكن مع ذلك: تذهب إحداهن إلى المشغل النسائي فتكشف عورتها طائعة مختارة لتقوم امرأة أخرى بإزالة الشعر من أجزاء جسدها.. وقد قال ﷺ فيما رواه الترمذي: «ما من امرأة تضع ثيابها.. في غير بيت زوجها.. إلا هتكت الستر بينها وبين ربها».

والنبي ﷺ قد قال فيما صح عند البيهقي: «شر نسائكم المتبرجات المتخيلات، وهن المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم»..

بل أين الفتيات المسلمات اللاتي نؤمل فيهن أن ينصرن الإسلام ويبذلن أنفسهن وأرواحهن خدمة لهذا الدين، فنفاجأ بإحداهن قد لبست العباءة المطرزة.. أو الكعب العالي.. ثم ذهبت إلى سوق.. أو حديقة.. أو تلبس إحداهن البنطال.. وتقول: لا يراني إلا إخوتي.. أو أنا ألبسه بين النساء.. وكل هذا لا يجوز.. كما أفتى بذلك العلماء.. بل قد تزيد بعض النساء بأن لا تكتفي بعمل المعصية، بل تجر غيرها من الفتيات إليها فتنتشر الصور المحرمة.. أو أرقام الهواتف المشبوهة.. أو المجلات المليئة بالعهر والفساد.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩].

مسكينة!

إن تساهل المرأة بالتكشف والسفور.. يؤدي إلى فساد حياتها.. وأن تكون أحقر عند الناس من كل أحد..

سألت عددًا من الشباب.. ممن يتتبعون الفتيات في الأسواق وعند بوابات المدارس:

كيف تنظرون إلى الفتاة التي تستجيب لكم؟

فقالوا لي جميعًا ـ والله ـ:

إننا نحتقرها ونلعب بها وبعقلها، فإذا شبعنا منها ركلناها بأرجلنا.. بل قال لي أحدهم: والله يا شيخ إني إذا ذهبت إلى السوق ورأيت فتاة عفيفة قد جمعت على نفسها ثيابها فإنها تكبر في عيني.. ولا أجرؤ على الاقتراب منها، بل والله لو رأيت أحدًا يقترب منها لتشاجرت معه..

بل انظري إلى ما يحدث في البلاد التي يزعمون أن فيها حرية.. يغتصب يوميًا في أمريكا ألف وتسعمائة فتاة..

عشرون في المائة منهن يغتصبن من قبل آبائهن! ويقتل سنويًا في أمريكا مليون طفل ما بين إجهاض متعمد أو قتل فور الولادة!

وبلغت نسبة الطلاق في أمريكا ستين في المائة من عدد الزيجات! وفي بريطانيا مائة وسبعون شابة تحمل سفاحًا كل أسبوع!

كم من امرأة هناك والله تتمنى ما أنت عليه من تستر وعفاف..

ومن استغواها الشيطان.. فأطاعته وقدمت شهوات نفسها.. وتتبعت الموضات.. في اللباس.. والعباءة .. والنمص.. والوشم.. والأغاني.. والأفلام.. والمجلات.. وصارت هذه الشهوات أغلى عندها من اتباع شريعة ربها، فهي عاصية، وما خلقت النار إلا لتأديب العصاة.

أخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ يومًا، فسمعنا وجبة، فقال ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا حجر في جهنم منذ سبعين خريفًا، فالآن انتهى إلى قعرها».

هذا حال من عصت ربها، وأهملت آخرتها، ولو أن أحدًا أدخل النار، ثم أخرج منها إلى الأرض، لمات أهل الأرض من نتن ريحه.. وتشوه خلقه.

الهم الكبير

لا تعيشي لنفسك فقط، بل احملي هم الدين، لا يكن همك لباسًا وحذاء، وتسريحة شعر، وإنما الهم الأكبر كيف تخدمين هذا الدين.. إذا رأيت عاصية فكيف تنصحينها..

كوني مباركة أينما كنت.. تفيدين النساء في مجالسهن.. توزعين عليهن الأشرطة النافعة، تنصحين هذه.. وتتوددين إلى تلك.. فأنت أحسن الناس قولاً: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وأنت نحسبك من الصالحات، اللاتي تغض إحداهن بصرها عن النظر إلى الرجال، بل وتغض بصرها عن النظر إلى من قد تفتن بها من النساء.. ومن تساهلت بالنظر الحرام، والخلوة المحرمة.. جرها ذلك إلى كبيرة الزنى.. أو السحاق عياذًا بالله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

وعند البخاري أن النبي ﷺ رأى رجالاً ونساء عراة في مكان ضيق مثل التنور.. أسفله واسع وأعلاه ضيق، وهم يصيحون ويصرخون، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم.. فإذا أتاهم ذلك اللهب صاحوا من شدة حره، قال ﷺ: «فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة والزواني».

فهذا عذابهم إلى يوم القيامة.. ولعذاب الآخرة أشد وأبقى..

نسأل الله العفو والعافية.. ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

قصة..

ذكر الدمشقي في كتابه «مطالع البدور»:

عن أمير القاهرة في وقته شجاع الدين الشرزي قال: بينما أنا عند رجل بالصعيد.. وهو شيخ كبير.. شديد السمرة.. إذ حضر أولاد له بيض حسان..!

فسألناه عنهم، فقال: هؤلاء أمهم إفرنجية، ولي معها قصة.. فسألناه عنها..

فقال: ذهبت إلى الشام وأنا شاب أثناء احتلال الصليبيين له.. واستأجرت دكانًا أبيع فيه الكتان، فبينما أنا في دكاني إذ أتتني امرأة أفرنجية زوجة أحد قادة الصليبيين، فرأيت من جمالها ما سحرني.. فبعتها وسامحتها في السعر.. ثم انصرفت وعادت بعد أيام فبعتها وسامحتها.. فأخذت تتردد علي.. وأنا أتبسط معها.. فعلمت أني أعشقها..

فلما بلغ الأمر مني مبلغه.. قلت للعجوز التي معها: قد تعلقت نفسي بهذه المرأة فكيف

السبيل إليها؟ فقالت: هذه زوجة فلان القائد.. ولو علم بنا.. قتلنا نحن الثلاثة.. فمازلت بها.. حتى طلبت مني خمسين دينارًا وتجئ بها إلي في بيتي.. فاجتهدت حتى جمعت خمسين دينارًا وأعطيتها إياها..

الليلة الأولى..

انتظرتها تلك الليلة في الدار.. فلما جاءت إلي أكلنا وشربنا.. فلما مضى بعض الليل.. قلت في نفسي: أما تستحي من الله! وأنت غريب.. وبين يدي الله.. وتعصى الله مع نصرانية! فرفعت بصري إلى السماء وقلت: اللهم إن أشهدك أني عففت عن هذه النصرانية، حياءً منك وخوفًا من عقابك..

ثم تنحيت عن موضعها إلى فراش آخر.. فلما رأت ذلك قامت وهي غضبى ومضت..

وفي الصباح.. مضيت إلى دكاني.. فلما كان الضحى.. مرت علي المرأة وهي غضبى.. ووالله لكأن وجهها القمر.. فلما رأيتها.. قلت في نفسي: ومن أنت حتى تعف عن هذا الجمال؟ أنت أبو بكر.. أو عمر.. أم أنت الجنيد العابد.. أو الحسن الزاهد.. وبقيت أتحسر عليها.. فلما جاوزتني.. لحقت بالعجوز.. وقلت لها: ارجعي بها.. الليلة.. فقالت: وحق المسيح.. ما تأتيك إلا بمائة دينار.. قلت: نعم.. فاجتهدت حتى جمعتها.. وأعطيتها إياها..

الليلة الثانية..

فلما كان الليل.. وانتظرتها في الدار.. جاءت.. فكأنها القمر أقبل علي.. فلما جلست.. حضرني الخوف من الله.. وكيف أعصيه مع نصرانية كافرة.. فتركتها خوفًا من الله..

وفي الصباح.. مضيت إلى دكاني.. وقلبي مشغول بها.. فلما كان الضحى.. مرت علي المرأة وهي غضبى.. فلما رأيتها.. لمت نفسي على تركها.. وبقيت أتحسر عليها.. فسألت العجوز.. فقالت: ما تفرح بها.. إلا بخمسمائة دينار.. أو تموت كمدًا.. قلت: نعم.. وعزمت على بيع دكاني وبضاعتي.. وأعطيها الخمسمائة دينار.. فبينما أنا كذلك.. إذ منادي النصارى ينادي في السوق.. يقول: يا معشر المسلمين، إن الهدنة بيننا وبينكم.. قد انقضت.. وقد أمهلنا من هنا من المسلمين أسبوعًا.. فجمعت ما بقي من متاعي وخرجت من الشام وفي قلبي من الحسرة ما فيه..

ثم أخذت أتاجر ببيع الجواري.. عسى أن يذهب ما بقلبي من الحب ما فيه.. فمضى لي على ذلك ثلاث سنين..

ثم جرت وقعة حطين.. واستعاد المسلمون بلاد الساحل.. وطلب مني جارية للملك الناصر.. وكان عندي جارية حسناء، فاشتروها مني بمائة دينار.. فسلموني تسعين دينارًا.. وبقيت لي عشرة دنانير.. فقال الملك: امضوا به إلى البيت الذي فيه المسبيات من نساء الإفرنج.. فليختر منهن واحدة بالعشرة دنانير التي بقيت له..

الجائزة..

فلما فتحوا لي الدار.. رأيت صاحبتي الإفرنجية.. فأخذتها فلما مضيت إلى بيت.. قلت لها: تعرفيني؟

قالت: لا.. قلت: أنا صاحبك التاجر.. الذي أخذت منه مائة وخمسين دينارًا.. وقلت لي: لا تفرح بي إلا بخمسمائة دينار.. ها أنا أخذتك ملكًا بعشرة دنانير..

فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.. فأسلمت وحسن إسلامها.. فتزوجتها.. فلم تلبث أن أرسلت أمها إليها بصندوق.. فلما فتحناه.. فإذا فيه الصرتان التي أعطيتها.. في الأولى الخمسون دينارًا.. وفي الأخرى المائة دينار.. ولباسها الذي كنت أراها فيه.. وهي أم هؤلاء الأولاد.. وهي التي طبخت لكم العشاء..

نعم.. ومن ترك شيئًا لله.. عوضه الله خيرًا منه.. والعبد قد يختفي من الناس، ولكن أنى له أن يختفي من الله وهو معه..

غريقات في النهر!

والمرأة العفيفة.. لا تهتك سترها.. ولا تدنس عرضها.. وإن كان في ذلك فقدان حياتها..

ذكر الخطابي في كتابه «عدالة السماء»:

أنه كان ببغداد قبل قرابة الأربعين سنة.. رجل يعمل جزارًا يبيع اللحم.. وكان يذهب قبل الفجر إلى دكانه.. فيذبح الغنم.. ثم يرجع إلى بيته.. وبعد طلوع الشمس يفتح المحل ليبيع اللحم.. وفي أحد الليالي بعدما ذبح الغنم رجع في ظلمة الليل إلى بيته.. وثيابه ملطخة

بالدم.. وفي أثناء الطريق سمع صيحة في أحد الأزقة المظلمة.. فتوجه إليها بسرعة.. وفجأة سقط على جثة رجل قد طعن عدة طعنات.. ودماؤه تسيل.. والسكين مغروسة في جسده.. فانتزع السكين.. وأخذ يحاول حمل الرجل ومساعدته والدماء تنزف على ثيابه.. لكن الرجل مات بين يديه..

فاجتمع الناس.. فلما رأوا السكين في يده.. والدماء على ثيابه.. والرجل فزع خائف.. اتهموه بقتل الرجل.. ثم حكم عليه بالقتل..

فلما أحضر إلى ساحة القصاص.. وأيقن بالموت.. صاح بالناس..

وقال: أيها الناس.. أنا والله ما قتلت هذا الرجل..

لكني قتلت نفسًا أخرى.. منذ عشرين سنة.. والآن يقام علي القصاص..

ثم قال: قبل عشرين سنة كنت شابًا فتيًا.. أعمل على قارب أنقل الناس بين ضفتي النهر.. وفي أحد الأيام جاءتني فتاة غنية مع أمها.. ونقلتهما.. ثم جاءتا في اليوم التالي.. وركبتا في قاربي..

ومع الأيام بدأ يتعلق بتلك الفتاة.. وهي كذلك تعلقت بي.. خطبتها من أبيها، لكنه أبى أن يزوجني لفقري.. ثم انقطعت عني بعدها.. فلم أعد أرها ولا أمها.. وبقي قلبي معلقًا بتلك الفتاة.. وبعد سنتين أو ثلاث.. كنت في قاربي.. أنتظر الركاب.. فجاءتني امرأة مع طفلها.. وطلبت نقلها إلى الضفة الأخرى.. فلما ركبت وتوسطنا النهر.. نظرت إليها.. فإذا هي صاحبتي الأولى.. التي فرق أبوها بيننا.. ففرحت بلقياها.. وبدأت أذكرها بسابق عهدنا.. والحب والغرام.. لكنها تكلمت بأدب.. وأخبرتني أنها قد تزوجت وهذا ولدها.. فزين لي الشيطان الوقوع بها.. فاقتربت منها.. فصاحت بي.. وذكرتني بالله.. لكني لم ألتفت إليها.. فبدأت المسكينة تدافعني بما تستطيع.. وطفلها يصرخ بين يديها.. فلما رأيت ذلك أخذت الطفل.. وقربته من الماء وقلت: إن لم تمكنيني من نفسك.. فإذا أشرف على الهلاك أخرجته.. وهي تنظر إلي وتبكي.. وتتوسل.. لكنها لا تستجيب لي.. فغمست رأس الطفل في الماء.. وشددت عليه الخناق.. وهي تنظر.. وتغطي عينيها.. والطفل تضطرب يداه ورجلاه.. حتى خارت قواه.. وسكنت حركته..

فأخرجته فإذا هو ميت.. فألقيت جثته في الماء.. ثم أقبلت عليها.. فدفعتني بكل قوتها.. وتقطعت من شدة البكاء.. فسحبتها بشعرها.. وقربتها من الماء.. وجعلت أغمس رأسها في الماء.. وأخرجها.. وهي تأبى على الفاحشة.. فلما تعبت يداي.. غمست رأسها في الماء.. فأخذت تنتفض حتى سكنت حركتها.. وماتت.. فألقيتها في الماء.. ثم رجعت.. ولم يكتشف أحد جريمتي.. وسبحان من يمهل ولا يهمل.. فبكى الناس لما سمعوا قصته.. ثم قطع رأسه.. ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم:٤٢]..

فتأملوا في حال هذه الفتاة العفيفة.. التي يقتل ولدها بين يديها.. وتموت هي.. ولا ترضى بهتك عرضها..

فهذا طرف من أخبار أهل العفة..

بائع متجول عفيف

ذكر ابن الجوزي في «المواعظ»:

أن شابًا فقيرًا كان بائعًا يتجول في الطرقات.. فمر ذات يوم ببيت.. فأطلت امرأة وسألته عن بضاعته.. فأخبرها.. فطلبت منه أن يدخل لترى البضاعة..

فلما دخل أغلقت الباب.. ثم دعته إلى الفاحشة.. فصاح بها.. فقالت: والله إن لم تفعل ما أريده منك صرخت.. فيحضر الناس فأقول: هذا الشاب اقتحم علي داري.. فما ينتظرك بعدها إلا القتل أو السجن.. فخوفها بالله فلم تنزجر.. فلما رأى ذلك قال لها: أريد الخلاء.. فلما دخل الخلاء.. أقبل على الصندوق الذي يجمع فيه الغائط..

وجعل يأخذ منه ويلقي على ثيابه ويديه وجسده..

ثم خرج إليها.. فلما رأته صاحت وألقت عليه بضاعته.. وطردته من البيت..

فمضى يمشي في الطريق والصبيان يصيحون وراءه: مجنون.. مجنون.. حتى وصل بيته.. فأزال عنه النجاسة.. واغتسل.. فلم يزل يشم رائحة المسك حتى مات..

فأين هذه العفة.. من فتيات اليوم؟ تبيع إحداهن عرضها بمكالمة هاتفية.. أو هدية شيطانية.. وتتساق وراء كلام معسول من فاسق.. أو تنجر وراء شبهة من منافق..

دموع التائبات!

ذكر ابن قدامه في كتابه «التوابين»:

أن قومًا فساقًا.. أمروا امرأة ذات جمال أن تتعرض للربيع بن خثيم فلعلها تفتنه.. وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم.. فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب.. وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه.. ثم تعرضت له حين خرج من مسجده.. فنظر إليها.. فراعه أمرها.. فأقبلت عليه وهي سافرة..

فقال لها الربيع.. كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بكل لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك لو قد سألك منكر ونكير؟

فصرخت صرخة.. وبكت.. ثم تولت إلى بيتها.. وتعبدت.. حتى ماتت..

وذكر العجلي في «تاريخه»:

أن امرأة جميلة بمكة.. وكان لها زوج.. فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة.. فقالت لزوجها: أترى يرى أحد هذا الوجه ولا يفتتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟

قال: عبيد بن عمير العابد الزاهد في الحرم.

قالت: أرأيت إن فتنته.. وأكشف وجهي عنده..

قال: قد أذنت لك..! فأتته كالمستفتية فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام..

فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر.. فقال لها: يا أمة الله، غطي وجهك واتق الله..

فقالت: إني قد فتنت بك.

فقال: إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقت.. نظرت في أمرك؟

قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك.. قال: أخبريني.. لو أن ملك الموت أتاك يقبض روحك أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا.

قال: لو أدخلت في قبرك فأجلست للمساءلة، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا.

قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك.. أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا.

قال: لو أردت على الصراط ولا تدرين تنجين أم لا.. أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا.

قال: فلو جيء بالموازين وجيء بك لا تدرين تخفين أم تثقلين.. أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا.

قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة.. أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا.

قال: فاتقي الله يا أمة الله.. فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك..

فرجعت إلى زوجها.. قال: ما صنعت؟

قالت: أنت بطال.. ونحن بطالون.. الناس يتعبدون ويستعدون للآخرة.. وأنت على هذا الحال.. فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة.. حتى ماتت.

طوبى لها!

وكلما كانت المرأة بربها أعرف.. كانت منه أخوف.. فإذا قارفت ذنبًا أو معصية رجعت إلى ربها تائبة مفضية.. تخاف من ويلات الذنوب.. وتترك لذة عيشها.. في سبيل أن تلقى ربها وهو راض عنها.. فيغفر الله ذنبها.. ويستر عيبها.. وهو الذي يفرح بتوبة عباده إذا تابوا إليه..

ففي «الصحيحين»: أن امرأة من الصحابيات.. كانت متزوجة في المدينة.. وسوس لها

الشيطان يومًا.. وأغراها برجل فخلا بها عن أعين الناس.. وكان الشيطان ثالثهما.. فلم يزل يزين كلاً منهما لصاحبه حتى زنيا.. فلما فرغت من جرمها تخلى عنها الشيطان.. فبكت وحاسبت نفسها.. وضاقت حياتها.. وأحاطت بها خطيئتها.. حتى أحرق الذنب قلبها.. فجاءت إلى طبيب القلوب ﷺ.. ووقفت بين يديه.. ثم صاحت من حر ما تجد..

قالت: يا رسول الله، زنيت فطهرني.. فأعرض عنها.. فجاءت من شقه الآخر.. فقالت: يا رسول الله، زنيت فطهرني.. فأعرض عنها لعلها أن ترجع فتتوب بينها وبين الله.. فخرجت من عنده والذنب يأكل فؤادها.. فلم تطلق صبرًا.. فلما جلس ﷺ في مجلسه من الغد، فإذا بها تقبل عليه.. فتقول: يا رسول الله طهرني.. فأعرض عنها.. فصاحت من حر فؤادها..

قالت: يا رسول الله.. لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزًا.. والله إني لحبلى من الزنى.. فالتفت إليها ﷺ.. ثم قال: «أما لا فاذهبي حتى تلدي».. فخرجت من المسجد ومضت إلى بيتها تجر خطاها.. قد كبر همها.. وضعف جسدها.. ودمعت عينها.. ذهبت تعد الساعات والأيام.. والآلام تلي الآلام.. فلما مضت تسعة أشهر.. ضربها المخاض.. فلم تزل تتلوى من الآلام حتى ولدت..

فلما ولدت.. لم تنتظر نفاسها.. بل قامت من فراشها.. وحملت وليدها في خرقتها..

ثم مضت به إلى رسول الله ﷺ.. ثم وضعته بين يديه..

وقالت: هذا قد ولدته يا رسول الله.. فطهرني..

فنظر النبي ﷺ إليها.. فإذا هي في تعبها ونصبها.. ونظر إلى وليدها فإذا هو صبي في مهده.. يتلبد بين يدي أمه..

فقال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه».. فذهبت وغابت سنتين كاملتين عاشتهما مع فلذة كبدها.. يتقلب في حضنها.. تغسل وجهه بدمعاتها.. وتودعه بنظراتها..

فلما فطمته من الرضاع.. لفت عليها ثيابها.. ثم خرجت بولدها من بيتها.. وناولته في يده كسرة خبز.. ثم أتت به يمشي معها.. حتى وقفت به بين يدي رسول الله ﷺ..

فقالت: هذا يا نبي الله.. قد فطمته.. وقد أكل الطعام.. فطهرني..

فدفع النبي ﷺ الصبي إلى رجل من المسلمين.. ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها.. وأمر

الناس فرجموها حتى ماتت.. نعم ماتت.. لكنها غسلت وكفنت..

وقام ﷺ ليصلي عليها.. وهو يقول: «لقد تابت توبة لو تابها سبعون من المدينة لقبل منهم.. هل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها»..

ماتت.. وجادت بنفسها في سبيل الله.. ماتت.. فطوبى لها.. وقعت في الزنى.. وهتكت ستر ربها.. وشهدت الملائكة الكرام.. وأطلع عليها الملك العلام.. لكنها لما ذهبت اللذات، وبقيت الحسرات، تذكرت يوم تشهد عليها أعضاؤها التي متعتها بالزنى.. رجلها التي مشت بها.. يدها التي لمست بها.. لسانها الذي تكلمت به.. بل تشهد عليها.. كل ذرة من ذراتها.. وكل شعرة من شعراتها.. تذكرت حرارة النيران.. وعذاب الرحمن.. يوم يعلق الزناة بعراقبيهم في النار.. ويضربون عليها بسياط من حديد.. فإذا استغاث أحدهم من الضرب.. نادته الملائكة: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك.. وتفرح.. وتمزح.. ولا تراقب الله.. ولا تستحي منه!

وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ خطب الناس، فقال: «يا أمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله.. أن يزني عبده.. أو تزني أمته.. يا أمة محمد.. والله لو تعلمون ما أعلم.. لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا».. فتابت توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.

وختامًا.. أيتها الجوهرة المكنونة

والدرة المصونة.. أهمس في أذنك بكلمات أرجو أن تصل إلى قلبك قبل أذنيك..

لا تغتري بكثرة العاصيات..

لا تغتري بكثرة من يتساهلن بالحجاب.. ومغازلة الشباب.. أو يتعلقن بالعشق والهيام.. ومقارفة الحرام.. همهن المسرحيات والأفلام..

يعشن بلا قضية..

فنحن ـ بصراحة ـ في زمن كثرت فيه الفتن.. وتنوعت المحن.. فتن تفتن الأبصار.. وأخرى تفتن الأسماع.. وثالثة تسهل الفاحشة.. ورابعة تدعو إلى المال الحرام.. حتى صار حالنا قريبًا من ذلك الزمان.. الذي قال فيه النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما:

«فإن وراءكم أيام الصبر.. الصبر فيهن كقبض على الجمر.. للعامل فيهن أجر خمسين منكم.. يعمل مثل عمله».. قالوا: يا رسول الله.. أو منهم.. قال: «بل منكم». حديث حسن..

وإنما يعظم الأجر للعامل الصالح في آخر الزمان.. لأنه لا يكاد يجد على الخير أعوانًا.. فهو غريب بين العصاة.. نعم غريب بينهم.. يسمعون الغناء ولا يسمع.. وينظرون إلى المحرمات ولا ينظر.. بل ويقعون في السحر والشرك.. وهو على التوحيد.

وعند مسلم أنه ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء»..

نعم طوبى للغرباء.

وعند البخاري: قال ﷺ: «إنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم».

وأخرج البزار بسند حسن أنه ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة.. وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة».. نعم.. من كان خائفًا في الدنيا.. معظمًا لجلال الله.. أمن يوم القيامة.. وفرح بلقاء الله.. وكان من أهل الجنة الذين قال الله عنهم: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨].. أما من كان مقبلاً على المعاصي.. همه شهوة بطنه وفرجه.. آمنًا من عذاب الله.. فهو في خوف وفزع في الآخرة.. قال الله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]..

فتوكلي على الله إنك على الحق المبين.. ولا تغتري بكثرة المتساقطات.. ولا ندرة التائبات..

أسأل الله أن يحفظك بحفظه.. ويكلأك برعايته.. ويجعلك من المؤمنات التقيات.. الداعيات العاملات.. ولسوف تبقين أختًا لنا.. حتى وإن لم تستجيبي لنصحنا.. نحب لك الخير.. ولسوف ندعو الله لك آناء الليل.. وأطراف النهار.. ولن نمل أبدًا من نصحك وحمايتك.. وأملنا أن الله لن يضيع جهدنا معك.. وما توفيقنا إلا بالله.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ألحان وأشجان

الحمد لله الذي امتن على عباده بالأسماع والأبصار.. وكرم الإنسان ورفع له المقدار.. واصطفى من عباده المتقين الأبرار.. فوفقهم للطاعات.. وصرفهم عن المنكرات.. وأعد لهم عقبى الدار..

أحمده سبحانه.. فهو الذي خلق المنطق واللسان.. وأمر بالتعبد وذكر الرحمن.. ونهى عن الغيبة ومنكر البيان..

فسبحانه من إله عظيم.. يحصى ويرقب.. ويرضى ويغضب.. وينصب الميزان.. يوم تنطق الجوارح.. وتبين الفضائح.. فإذا هم أحصيت أعمالهم.. وهتكت أستارهم.. وفشت أسرارهم.. ونطقت أيديهم وأرجلهم..

فأشهد أن لا إله إلا هو الملك الحق المبين.. وأشهد أن محمدًا عبده المصطفى.. ونبيه المجتبى.. ورسوله المرتضى.. الذي لا ينطق عن الهوى..

صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين..

أما بعد:

رسالة إلى الغافلين

فهذه رسالة.. أبعثها إلى إخوة وأخوات.. من المؤمنين والمؤمنات.. أحب لهم الخير والهدى.. وأكره لهم الشر والردى.

إنها نصيحة في جموع الغافلين.. اللاهين السادرين..

إنها أشجان.. أصرخ بها.. في آذان سلم الله سمعها.. وعقول كمل الله لبها.. وأجساد زاد الله حسنها.. بل إنها صرخات نذير.. ونداءات تحذير.. أهتف بها في الجموع.. لعل عاصيًا

يتوب.. أو مفتونًا يئوب..

إنها ألحان جرت إلى أشجان.. وضحكات انقلبت حسرات.. وجلسات غمرت بالويلات..

إنها عبرات.. أنثرها بين يدي أقوام فتنت قلوبهم.. بالمعازف والألحان.. هاجت لها أحاسيسهم.. وتعلقت بها نفوسهم.. أبعثها إليهم؛ لأني أعلم أنهم مؤمنون موحدون.. تشتاق نفوسهم إلى الجنات.. ويعظمون رب الأرض والسموات.

هم خلان لنا وأصحاب.. بل إخوة وأحباب.. نرجو أن يجمعنا الله بهم في الجنات..

ولئن كان الشيطان تغلب عليهم تارة.. فهم أهل أن يغلبوه تارات.. ولكن ماذا أقول.. وبماذا أبدأ.. نعم..

ماذا أقول عن الغناء؟ صوت العصيان.. وعدو القرآن.. ومزمار الشيطان.. الذي يزمر به فيتبعه أولياؤه..

ماذا أقول عن الغناء؟ وهو قرآن الشيطان.. والحجاب عن الرحمن..

فلو رأيتهم عند سماع الغناء.. وقد علت منهم الأصوات.. وهاجت منهم الحركات.. يتمايلون تمايل السكران.. ويتكسرون تكسر النسوان..

وكم من قلوب هناك تمزق.. وأموال في غير طاعة الله تنفق.. قضوا حياتهم لذة وطربًا.. واتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا..

ماذا أقول عن الغناء؟ وما أدمن عليه عبد إلا استوحش من القرآن والمساجد.. وفر عن كل راكع وساجد.. وغفل عن ذكر الرب المعبود.. واستأنس بأصوات النصارى واليهود..

وابتلي بالقلق والوساوس.. وأحاط به الضيق والهواجس..

فسل ذا خبرة ينبيك عنه ... لتعلم كم خبايا في الزوايا
وحاذر إن شغفت به سهامًا ... مريشة بأهداب المنايا
إذا ما خالطت قلبًا كئيبًا ... تمزق بين أطباق الرزايا
ويصبح بعد أن قد كان حرًا ... عفيف الفرج عبدًا للصبايا

ماذا أقول عن الغناء؟ وقد تغلب على بعض العقول وطغى وزاد في الضلال وبغى..

بل لو سألت بعض الناس اليوم.. عن النبي ﷺ.. عن سنة من سننه.. أو هدي من هديه.. أو طريقة منامه.. واستيقاظه.. وأكله..

لقال لك: لا أدري.. وكيف له أن يدري؟ بل ومن أين يدري.. وهو يعكف على هذه الأغاني آناء الليل.. وأطراف النهار؟

فيدري عن المغنية فلانة.. كيفية أكلها.. ولون ثوبها.. ومقاس حذائها.. وعدد حفلاتها.. وأسماء ملحنيها..

ويدري عن المغني فلان.. عن سيارته.. وعن أشرطته.. وألحان أغنياته.. وكأن أحدهم عالم جليل.. أو مجاهد نبيل..

الذين يعيشون للإسلام

وما خلق الله العباد لأجل غناء وفساد.. وإنما خلقهم ليعبدوه.. ويحموا الدين وينصروه.. ومن عاش عيش المؤمنين.. ورفع راية الدين.. لم يلتفت إلى شيء من ذلك..

نعم.. لم تلتفت إلى رقص راقص.. ولم يستفزه عزف عازف.. بل أدرك سر وجوده في الحياة.. فعاش لأجله ومات..

وانظر إلى الذين يعيشون للإسلام.. يحيون من أجله.. ويموتون من أجله.. ويسكبون دماءهم فداء له.. أقوام صالحون فطن.. طلقوا الدنيا وخافوا الفتن.. بذلو لربهم حياتهم.. وأنفقوا له أموالهم.. وأذلوا بين يديه جباههم.. وفارقوا لأجله أوطانهم.. يأخذ ربهم من دمائهم.. يغسل بها سيئاتهم.. ويطيب حسناتهم..

وانظر إلى صهيب الرومي رضي الله عنه.. كان عبدًا مملوكًا في مكة.. فلما جاء الله بالإسلام.. صدق وأطاع.. فاشتد عليه عذاب الكافرين.. ثم أذن النبي عليه الصلاة والسلام للمؤمنين بالهجرة إلى المدينة.. فهاجروا.. فلما أراد أن يهاجر معهم منعه سادة قريش.. وجعلوا عنده بالليل والنهار من يحرسه.. خوفًا من أن يهرب إلى المدينة.. فلما كان في إحدى الليالي.. خرج من فراشه إلى الخلاء.. فخرج معه من يرقبه.. ثم ما كاد يعود إلى فراشه حتى خرج أخرى إلى الخلاء.. فخرج معه الرقيب.. ثم عاد إلى فراشه.. ثم خرج.. فخرج معه الرقيب.. ثم

خرج كأنه يريد الخلاء.. فلم يخرج معه أحد.. وقالوا: قد شغلته اللات والعزى ببطنه الليلة.. فتسلل رضي الله عنه.. وخرج من مكة.. فلما تأخر عنهم.. خرجوا يلتمسونه.. فعلموا بهربه إلى المدينة.. فلحقوه على خيلهم.. حتى أدركوه في بعض الطريق.. فلما شعر خلفه.. رقى على ثنية جبل.. ثم نثر كنانة سهامه بين يديه.. وقال:

يا معشر قريش.. لقد علمتم والله أني أصوبكم رميًا.. ووالله لا تصلون إلي حتى أقتل بكل سهم بين يدي رجلاً منكم..

فقالوا: أتيتنا صعلوكًا فقيرًا.. ثم تخرج بنفسك ومالك..

فقال: أرأيتم إن دللتكم على موضع مالي في مكة.. هل تأخذونه.. وتدعوني أذهب؟ قالوا: نعم..

فقال: احفروا تحت أسكفة باب كذا فإن بها أواقي من ذهب فخذوه.. واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين من ثياب.. فرجعوا وتركوه.. ومضى يطوي قفار الصحراء.. يحمله الشوق ويحدوه الأمل في لقاء النبي عليه السلام وأصحابه.. حتى إذا وصل المدينة.. أقبل إلى المسجد فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد.. وعليه أثر الطريق.. ووعثاء السفر..

فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام.. قال: ربح البيع يا أبا يحيى.. ربح البيع يا أبا يحيى.. ربح البيع يا أبا يحيى..

نعم والله ربح البيع.. ولماذا لا يربح البيع.. وهو الذي هان عليه أن يترك المال الذي جمعه.. بكد الليل وتعب النهار.. ويترك الأرض التي ألفها.. والبلد التي عرفها.. والدار التي سكنها.. في سبيل طلب مرضاة الله.. ولماذا لا يكون جزاؤه كذلك.. وهو الذي لم يلتفت إلى لهو ومعازف.. ولم يدنس دينه ويقارف.. وإنما سمت به نفسه إلى سماع كلام الرحمن والتقلب في الجنان قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

وعند أحمد بسند حسن، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أن النبي عليه السلام خرج مع بعض أصحابه يومًا فلما برزوا من المدينة، فإذا راكب يوضع نحوهم، فصوب النبي عليه السلام إليه بصره، ثم التفت إلى أصحابه فقال: «كأن هذا الراكب إياكم يريد؟!»، فأقبل الرجل

على بعيره حتى وقف عليهم ثم أخذ ينظر إليهم..

فقال له النبي ﷺ: «من أين أقبلت؟».

فقال الرجل وهو يئن من شدة الطريق.. ووعثاء السفر..:

أقبلت من أهلي وولدي.. وعشيرتي.. فقال ﷺ: «فأين تريد؟».

قال: أريد رسول الله ﷺ.. قال: «فقد أصبته»..

فابتهج الرجل.. وتهلل وجهه.. وقال: يا رسول الله علمني ما الإيمان؟

قال: «تشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمدًا رسول الله.. وتقيم الصلاة.. وتؤتي الزكاة.. وتصوم رمضان.. وتحج البيت».. قال: قد أقررت..

فما كاد الرجل يتم إقراره بالإسلام.. حتى تحرك به بعيره فدخلت يد البعير في جحر جرذان.. فهوى البعير على الأرض وهوى الرجل من فوقه.. فوقع على هامته.. فما زال ينتفض حتى مات.. فقال ﷺ: «علي بالرجل»..

فوثب إليه عمار بن ياسر.. وحذيفة.. فأقعداه فلم يقعد.. وحركاه فلم يتحرك.. فقالا: يا رسول الله.. قبض الرجل.. فالتفت إليه النبي ﷺ.. ثم أعرض عنه فجأة.. ثم التفت إلى حذيفة وعمار.. وقال: «أما رأيتما إعراضي عن الرجل..؟!

فإني رأيت ملكين.. (وفي رواية: رأيت زوجتيه من الحور العين) يدسان في فيه من ثمار الجنة.. فعلمت أنه مات جائعًا».

نعم.. أقوام عرفوا للخالق حقه.. فصدقوا في حبه.. وتنعموا بقربه.. وشكروا له نعمته.. كلما زادت نعم الله عليهم.. ازدادوا لفضله شكرًا.. وله حبًا وتعبدًا..

أقبل رجل إلى إبراهيم بن أدهم.. فقال: يا شيخ، إن نفسي تدفعني إلى المعاصي.. فعظني موعظة.. فقال له إبراهيم: إذا دعتك نفسك إلى معصية فأعصه ولا بأس عليك..

ولكن لي إليك خمسة شروط..

قال الرجل: ما هي؟

قال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله فاختبئ في مكان لا يراك الله فيه..

فقال الرجل: سبحان الله.. كيف أختفي عنه وهو لا تخفى عليه خافية..

فقال إبراهيم: سبحان الله.. أما تستحي أن تعصي الله وهو يراك..

فسكت الرجل.. ثم قال: زدني..

فقال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله فلا تعصه فوق أرضه.

فقال الرجل: سبحان الله.. وأين أذهب.. وكل ما في الكون له..

فقال إبراهيم: أما تستحي أن تعصي الله.. وتسكن فوق أرضه؟..

فقال الرجل: زدني..

فقال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل من رزقه..

فقال الرجل: سبحانه الله.. وكيف أعيش.. وكل النعم من عنده..

فقال إبراهيم: أما تستحي أن تعصي الله.. وهو يطعمك ويسقيك.. ويحفظ عليك قوتك؟

فقال الرجل: زدني..

فقال إبراهيم: فإذا عصيت الله ثم جاءتك الملائكة لتسوقك إلى النار.. فلا تذهب معهم..

فقال الرجل: سبحان الله.. وهل لي قوة عليهم.. إنما يسوقونني سوقًا..

فقال إبراهيم: فإذا قرأت ذنوبك في صحيفتك فأنكر أن تكون فعلتها..

فقال الرجل: سبحان الله.. فأين الكرام الكاتبون.. والملائكة الحافظون.. والشهود الناطقون.. ثم بكى الرجل ومضى وهو يقول.. أين الكرام الكاتبون.. والملائكة الحافظون.. والشهود الناطقون..؟

نعم.. هؤلاء قوم تسامت نفوسهم عن الهوى والألحان.. وتعلقوا بنعيم الجنان.. فلم يفلح الشيطان في جرهم إلى شهوات.. أو مجالس منكرات.. زمر الشيطان لهم فلم يتبعوه.. وصاح بهم فلم يجيبوه.. فصاروا من عباد الله المخلصين واستمع إلى ما حكاه الله عن الشيطان.. لما عصى أمر الرحمن.. وأبى أن يسجد لآدم عليه السلام.. فطرده الرب من الجنان.. وحكم عليه بالنيران.. فحقد الشيطان على آدم وذريته.. وقال لرب العالمين..: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ

﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء:٦٢ - ٦٤].. وصوت الشيطان هو الغناء.. يحضر معه الشيطان.. ويغلب على الإنسان.. فما بالك إذا اقترن بكلمات رقية.. وألحان صفيقة..

طلب ملك الروم من أحد الخلفاء أن يرسل إليه رسولاً عاقلاً.. فأرسل إليه الإمام أبا بكر الباقلاني.. فلما أقبل الباقلاني على مجلس الملك.. أمره أن يدخل راكعًا.. فأبى..

فقال الملك: أدخلوه من الباب الآخر.. وكان باب صغيرًا لا بد للداخل منه أن يحني رأسه..

فلما أقبل الباقلاني على الباب.. ولى الباب ظهره.. ودخل يمشي القهقرى على قفاه.. ثم اعتدل ووقف أمام الملك.. فلما رأى الملك فطنته وعقله أمر عازفًا عنده أن يضرب بآلة معه.. وكان لا يسمعها أحد إلا تمايل لها.. وطرب واهتز.. فلما سمعها الباقلاني.. ورأى الناس يتمايلون.. مال على أصبع يده أو رجله واجتهد حتى جرحه.. ونزف منه الدم.. فأشغله ألم الجرح عن السماع.. خوفًا من تسلط الشيطان..

الغناء صوت الشيطان

رأت عائشة.. رضي الله عنها .. رجلاً يحرك رأسه طربًا يمنة ويسرة..

فقالت: أف.. شيطان.. أخرجوه.. أخرجوه..

نعم.. صوت الشيطان الغناء..

ألا ترى أنه يثير الغرائز.. والآثام.. ويدعو إلى الاختلاط وأنواع الحرام..

ولعمر الله.. كم من حرة صارت بالغناء من البغايا؟!

وكم من حر.. أصبح به عبدًا للصبيان.. والصبايا؟!

وكم من غيور.. تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا؟!

وكم من غني.. أصبح به فقيرًا بعد المطارف والحشايا؟!

وكم من معافى.. أحل به أنواع البلايا؟!

بالله عليكم.. هل سمعتم مغنيًا غنى يومًا في التحذير من الزنا وشرب المسكرات؟؟ أو

الأمر بغض البصر.. والعفة عن الشهوات؟ أو حفظ أعراض المسلمين؟! أو شهود صلاة الجماعة مع المؤمنين؟؟

كلا.. ما سمعنا عن شيء من ذلك.. بل يبدأ أغنيته بقوله يا حبيبي.. يا بعد روحي.. ثم يصف الخد والقد.. والعينين.. والوجنتين.. وهذا ظاهر من أسماء الأغاني نفسها.. فأغنية بعنوان: آه يا زين.. آخر غرام.. الهوى ما هو كلام.. ليلة حبيبي.. سألت علي بحبها.. يا أهل الهوى.. آه يا ويلي..

وما تكاد تسمع فيها إلا الحب والغرام.. والعشق والهيام.. مع ما فيه من فتنة الرجال بأصوات النساء.. والنساء بأصوات الرجال.. وما فيه من تفنج ودلال..

وإنك لتعجب.. وتعجبين.. إذا علمت أن قوله تعالى للمؤمنات: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

معناه.. أن لا تضرب المرأة برجلها الأرض بقوة وهي لابسة خلاخل في قدميها.. حتى لا يسمع الرجل صوت الخلاخل.. فيفتتون.. عجبًا..

إذا كان هذا حرامًا.. فما بالك بمن تغني وتتمايل وترفع صوتها بالضحكات.. والهمسات.. كيف بمن تتكسر في صوتها.. وتتميع في كلامها.. تتأوه وتتغنج.. فتثير الغرائز والشهوات.. وتدعو إلى الفواحش والمنكرات.. وهذا كله من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.. وقد توعد الله من فعل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩].

وهذا الوعيد في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة.. فقط مجرد محبة.. لهم عذاب أليم.. فكيف بمن يعمل على إشاعتها..

لذا قال ابن مسعود: الغناء رقية الزنا.. أي: إنه طريقه ووسيلته.. عجبًا.. هذا كان يقوله ابن مسعود رضي الله عنه لما كان الغناء يقع من الجواري والإماء المملوكات.. يوم كان الغناء بالدف.. والشعر الفصيح.. ليس فيه رقصات.. ولا لمسات.. ولا همسات.. يقول: هو رقية الزنا..

فماذا يقول ابن مسعود لو رأى زماننا هذا.. وقد تنوعت الألحان.. وكثر أعوان الشيطان.. فأصبحت الأغاني تسمع في السيارات.. والطائرات.. والمطارات.. بل وألعاب

الأطفال.. وأجهزة الجوال.. والبر والبحر.. فالغناء والله.. هو رقية الزنا.. وداعية الخنا.. ومزمار الفساد.. وضلال العباد..

ذكر ابن قدامة في «التوابين»:

أن رجلاً عابدًا.. مر يومًا ببيت فسمع جارية تغني من داخل البيت.. فوسوس له الشيطان.. فبطأ خطاه ليسمع.. فرآه صاحب الدار.. فخرج إليه وقال: هل لك أن تدخل فتسمع؟ فتأبى عليه.. فلم يزل به حتى تسمع.. وقال: أقعدني في موضع لا أراها ولا تراني.. فقال صاحب الدار: أجعل بينكما سترًا.. فدخل وجلس خلف الستر.. فتغنت وتغنجت وتأوهت فأعجبته.. وأشتاق إليها..

فقال صاحب الدار: هل أكشف الستر؟ قال: لا.. فلم يزل به.. حتى كشفه فرآها.. فاجتمعت فتنة السمع والبصر.. فلم يزل يسمع غناءها حتى شغفت به وشغف بها.. وأصبح في كل يوم يستمع إليها.. وافتضح أمره وأمرها.. فلما تمكن الشيطان منهما.. قالت له يومًا: أنا والله أحبك.. قال: وأنا أحبك.. فدعته إلى الفاحشة.. وقالت: ما يمنعك؟ فوالله إن الموضع لخال.. فانتفض وقال: بلى.. ولكن لا آمن أن أفاجأ بالقضا.. ثم بجمر كالغضا.. ثم بسياط وزقوم.. وتهويل ورجوم.. ثم نهض من عندها.. وعيناه تذرفان.. فلم يرجع بعد إليها.. فانظر كيف كاد أن يهلكه الشيطان.. بسماع العزف والألحان.

وقال علي بن الحسين: كان لنا جار من المتعبدين قد برز في الاجتهاد.. فصلى حتى تورمت قدماه.. وبكى حتى مرضت عيناه.. فاجتمع إليه أهله وجيرانه فسألوه أن يتزوج.. فخشى أن يتزوج حرة فتشغله عن طاعة ربه.. فاشترى جارية يقضي منها وطره.. وكانت مغنية.. وهو لا يعلم.. فبينا هو ذات يوم في محرابه يصلي.. رددت الجارية أبياتًا.. ولحنتها.. ورفعت صوتها بالغناء.. فسمعها وهو في محرابه.. فطار صوابه.. وثقلت عليه صلاته فقطعها..

فأقبلت الجارية عليه فقالت: يا مولاي.. لقد أبليت شبابك وأتعبت حياتك.. ورفضت لذاتك.. فلو سمعت غنائي وتمتعت بشبابي.. فمال إلى قولها.. واشتغل باللذات عما كان فيه من الصلوات.. فبلغ ذلك بعض أصحابه العباد.. فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم.. من الناصح الشفيق.. والطبيب الرفيق.. إلى من سلب حلاوة القرآن.. والخشوع والأحزان..

بلغني أنك اشتريت جارية.. بعت بها من الآخرة حظك.. فإن كنت بعت الجزيل بالقليل.. والقرآن بالقيان.. فإني محذرك هاذم اللذات.. ومنغص الشهوات.. وميتم الأولاد والبنات.. فكأنه قد جاء على غرة.. فأبكم منك اللسان.. وهد منك الأركان.. وقرب منك الأكفان.. واحتوشك الأهل والجيران..

ثم طوى الكتاب وبعثه مع غلام عنده.. فدخل عليه الغلام.. وناوله الكتاب وهو في مجلس سروره وغنائه.. فلما قرأ ما فيه انتفض.. وغص بريقه.. ونهض مبادرًا من مجلس سروره.. وكسر آنيته.. وهجر مغنيته.. وتاب من الغناء.. وتعبد لرب الأرض والسماء.. فلما مات رآه صاحبه في المنام.. فقال: ما فعل الله بك؟ قال: قدمنا على رب كريم.. أباحنا الجنة.. وعوضني ذو العرش جارية حوراء.. تسقيني طورًا وتهنيني.. وتقول:

اشرب بما قد كنت تأملني ... وقر عينًا مع الولدان والعين

يا من تخلى عن الدنيا وأزعجه ... عن الخطايا وعيد في الطواسين

وكم من شاب تعلق قلبه بمغنية فاجرة.. يهتز فؤاده.. كلما سمع صوتها أو رأى صورتها.. وكم من فتاة عفيفة.. سمعت مطربًا فاجرًا.. فاشتاقت إلى صوته وصورته..

فلا تعجب إذا رأيته أو رأيتها.. قد يعلقون الصور.. ويجمعون الأشرطة.. والقلب يهوى ويتمنى..

فيا من يرى سقمي يزيد ... وعلتي أعيت طبيبي

لا تعجبن فهكذا يجني ... الغناء على القلوب

بل قد قرن النبي عليه السلام الغناء بالخمر والزنا.. فقال فيما رواه البخاري: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف».. ومعنى يستحلون: أنهم يفعلون هذه المحرمات.. فعل المستحل لها بحيث يكثرون منها.. ولا يتحرجون من فعلها.. أو يبحثون عمن يفتيهم بحلها..

وصح عند الترمذي أنه ﷺ قال: «نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة: لهو ولعب ومزامير الشيطان.. وصوت عند مصيبة؛ لطم وجوه وشق جيوب»..

فسمى الغناء صوتًا أحمق فاجرًا.. لأنه لأهل الحمق والفجور..

وسئل ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٦]. قيل له: ما هو لهو الحديث؟

فقال: والله الذي لا إله إلا هو إنه الغناء.. وصدق ابن مسعود رضي الله عنه.. وإن لم يقسم..

وسئل محمد ابن الحنفية رحمه الله.. عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢]

قيل: ما الزور؟ قال: هو الغناء.. لأنه يميل بك عن ذكر الله.

وقال تعالى لكفار قريش: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم:٥٩ ـ ٦١]

قال ابن عباس: سامدون: مغنون.. تقول العرب: اسمد لنا أي: غن لنا..

ووصف الله تعالى أحوال عباد الأصنام.. عند البيت الحرام.. فقال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ﴾ [الأنفال:٣٥]. والمكاء والتصدية.. نوع من المعازف.. وهو التصفيق والتصفير.

ومن عظم خطر الغناء.. توعد النبي عليه السلام.. سماع المعازف بالمسخ والقذف.. فروى الترمذي بسند حسن.. أنه صلى الله عليه وسلم قال: «يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ» قيل: يا رسول الله.. متى؟ قال: «إذا ظهرت القينات والمعازف واستحلت الخمر»..

وقال صلى الله عليه وسلم: «ليكونن من أمتي أقوام يشربون الخمر ويعزف على رءوسهم بالقيان يمسخهم الله تعالى قردة وخنازير».. والقيان: جمع قينة.. وهي المرأة المغنية..

نعم.. سيعاقب الله هذه الأمة.. بما عاقب به الأمم من قبلنا..أن يخسف الله بهم الأرض.. أو يمسخهم قردة وخنازير.. أو تنزل عليهم حجارة من السماء.. بسوء أعمالهم..

فمتى يكون ذلك؟! يكون إذا ظهرت المعازف.. وانتشرت وكثرت.. وها هي آلات المعازف لا تكاد تحصى عددًا.. بل هل هي مدارس العزف والموسيقى.. تنتشر في كثير من بلاد الإسلام.. وها هن المغنيات.. المائلات المميلات.. يحركن الشهوات، بل ها هم الأعداء يفتكون بأرواح الثكالى.. ويعبثون بأعراض العذارى.. وفريق من قومنا في لهوه وطربه.. لا يجاهد مع مجاهدين.. ولا يهتم بأمر المسلمين..

العـزف والـرقص والمزمـار عـدتنا ... والخصـم عدتـه علـم وآلات

تقـود أمتنـا في الحـرب غانيـة ... والجيش في الحرب قد ألهته مغناة

كم بددوا المال هـدرًا في مباذلهـم ... وفي ليـالي الخنـا ضاعـت مـروءات

نعم.. هذا شأن الغناء..

ولم يبق إلا تحقق الوعيد بالخسف والمسخ.. والقذف بالحجارة والحديد..

كوكـب الشـرق ضـاع قـومي لمـا ... تـاه في حبـك القطيـع وهامـا

وإذا الشـعر بـالكئوس تغنـى ... وغـدا الـدين في ربانـا حطامـا

وصـفير المزمـار صـار أذانـا ... في حمـى البيـت والنـديم إمامـا

وبكشـمير أختنـا تتهـاوى ... والمغـني يقلـد الأوسـاما

وفلسـطين لا تحـب السـكارى ... وربـى القـدس لا تريـد النيامـا

ولـو أن الغنـاء يبعـث رجـلاً ... هـوت الكـأس مـن يديـه حطامـا

يسكـر النـاس بالضـلال ويغـوي ... وتسقـي مـن راحتيـه المدامـا

ومن تتبع الكتاب والسنة.. وجد أن للغناء أسماء عدة.. كلها تدل على ضلاله فهو اللهو.. واللغو.. والباطل.. والزور.. والمكاء.. والتصدية.. ورقية الزنا.. وقرآن الشيطان.. ومنبت النفاق في القلب.. والصوت الأحمق.. الصوت الفاجر.. وصوت الشيطان.. ومزمور الشيطان.. والسمود..

أسمـاؤه دلـت علـى أوصـافـه ... تبـًا لـذي الأسمـاء والأوصـاف

وقد تكاثر وتواتر كلام الأئمة الأطهار والعلماء الأبرار في التحذير من الغناء.

ففي «المسند»: أن ابن عمر خرج يومًا في حاجة فمر بطريق فسمع زمارة راع فوضع إصبعيه في أذنيه حتى جاوزه.. فقل لي بالله: أزمارة راع أولى بالتحريم والترك.. أم هذا الغناء الذي يتغنج فيه المطرب والمطربة.. فيفتن القلوب.. ويشغل الأرواح عن علام الغيوب.

وقال عمر بن عبد العزيز لأبنائه: أحذركم الغناء.. أحذركم الغناء.. أحذركم الغناء.. فما استمعه عبد إلا أنساه الله القرآن، وكتب إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان.. وعاقبتها سخط الرحمن.. فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم أن صوت المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب

كما ينبت العشب على الماء.

وجاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما.. فقال: أرأيت الغناء أحلال هو أم حرام؟ رجل يسأل عن غناء الأعراب الذي ليس فيه معازف.. وليس فيه تصوير.. ولا فيديو كليب.. ولا لباس عار.. ولا قصات فاتنة.. ورقصات ماجنة.. غناء الأعراب في البوادي.. حلال أم حرام..

فقال ابن عباس: أرأيت الحق والباطل.. إذا جاءا يوم القيامة فأين سيكون الغناء؟

قال الرجل: يكون مع الباطل.. قال ابن عباس: فماذا بعد الحق إلا الضلال.. اذهب فقد أفتيت نفسك..

أما أبو بكر رضي الله عنه.. فكان يسمي الغناء مزمار الشيطان..

وسأل رجل الإمام مالكًا عن الغناء.. فقال: «ما يفعله عندنا إلا الفساق»..

وسئل الإمام ابن حنبل عن الغناء.. فقال: «الغناء ينبت النفاق في القلب ولا يعجبني»..

والشافعي سماه دياثة..

وأبو حنيفة أفتى بالتحريم.. بل بالغ أصحابه في النهي عن السماع فقالوا: سماع الأغاني فسق والتلذذ بها كفر..

وقال عمر بن عبد العزيز: الغناء مبدؤه من الشيطان.. وعاقبته سخط الرحمن.. نعم كيف لا.. وهو يحرك النفوس.. على كل قبيح.. ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح.. فهو والخمر رضيعا لبان.. وهما في القبائح فرسا رهان.. فإذا سمعه أحد قل حياؤه.. وفرح به شيطانه.. واشتكى إلى الله إيمانه.. وثقل عليه قرآنه.. وتراه يميل برأسه.. ويهز بمنكبه.. ويضرب الأرض برجليه.. ويصفق بيديه.. وتارة يتأوه تأوه الحزين.. وتارة يصرخ كالمجانين.. كما قال أحدهم لصاحبه:

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا ... على طيب الغناء إلى الصباح

ودارت بيننا كأس الأغاني ... فأسكرت النفوس بغير راح

فلم تر فيهم إلا سكارى ... سرورًا والسرور هناك صاحي

إذا نادى أخو اللذات فيه ... أجاب اللهو: حي على السفاح

ولم نملك سوى المهجات ... شيئًا أرقناها لألحاظ الملاح

نعوذ بالله من هذه الأحوال

وقد قال يزيد بن الوليد: يا بني أمية.. إياكم والغناء، فإنه يذهب الحياء، ويزيد الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين، فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا..

وسمع سليمان بن عبد الملك صوت غناء.. فغضب وأحضر المغنين.. وقال: إن الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة.. (يعني: أن الذكر من الخيل يصهل فتسمعه الأنثى فتستعد للوطء).. وإن الفحل ليهدر فتضبع له الناقة.. وإن التيس لينب فتستحرم له العنز.. وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة.. ثم أمر بخصائهم.. ليحمي منهم النساء..

وقال بعض السلف: الغناء يورث النفاق في قوم.. والعناد في قوم.. والكذب في قوم.. والخبث في قوم.. والرقة (أي: الميوعة) في قوم..

بل كان العقلاء يترفعون عن الغناء.. قال معمر بن المثنى: رحل الحطيئة الشاعر مع بناته.. فجاور قومًا من بني كلب.. فخافوا أن يرى منهم شيئًا يكرهه فيهجوهم.. فأتوه فقالوا: يا أبا مليكة إنه قد عظم حقك علينا.. بتخطيك القذى إلينا.. فمرنا بما تحبه فنأتيه.. ومرنا بما تكرهه فننهيه.

فقال: لا تأتوني كثيرًا فتملوني.. ولا تسمعوني أغاني شبيباتكم فإن الغناء رقية الزنا.. وإن ههنا بنيات..

وكان مشهورًا عند العرب.. أن الرجل إذا أراد امرأة على الفاحشة فأبت.. اجتهد أن يسمعها صوت الغناء فإن سمعت المرأة صوت الغناء لانت وهانت عليها الفاحشة..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإنهم متفقون. أي الأئمة الأربعة. على تحريم المعازف التي هي آلات اللهو كالعود ونحوه»..

وقد حكى الإجماع على تحريم المعازف.. الإمام القرطبي.. وأبو الطيب الطبري.. وابن الصلاح.. وابن رجب الحنبلي.. وابن القيم.. وابن حجر الهيثمي.. وغيرهم.. فهل بعد هذه الأقوال من قول في إباحة هذه الآفة.. هل بعد هذه الأقوال من متفلسف يقول لنا: الغناء

قسمان: قسم فيه فجور.. وخنا.. وهو حرام.. وقسم يباح إذا لم يكن فيه ذلك! هل يؤخذ بعد ذلك قول أحد؟! إلا أن يكون الدافع إلى ذلك الهوى والشهوة.. وإنا نعوذ بالله من زيغ الهوى.. وتحكم الشهوة..

والغناء اليوم أعظم وأطم.. فهو يقترن بالتصوير الفاضح للبغايا والمومسات.. فما من مطرب إلا ويترنح حوله نفر من الراقصات.. وما من مطربة إلا وحولها نفر من الرجال يتراقصون ويتمايلون.. فمن يجيز يا أمة الإسلام مثل هذا الاختلاط والسفور والرقص وتعرية النحور؟! إضافة إلى شرب الخمور والمسكرات في أغلب الأوقات.. فلا يحلو الغناء والطرب إلا به.. والعري الفاضح.. والحضور الواضح.. للراقصات المحترفات والبغايا السافلات وانتهاء الحفلات غالبًا بجريمة الزنا.. ظلمات بعضها فوق بعض.. وإنفاق الأموال الطائلة في هذه المعصية.. للمطربين.. والمنظمين.. والعازفين.. وإيجار الصالات.. وتكاليف الحفلات.. وهذا سفه وتبذير.. والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧].. فهذه حرمات الله ﷻ.. فلا تعتدوها.. وهذه حدوده فلا تتجاوزوها..

وما كان الله ليضل قومًا بعد إذا هداهم حتى يبين لهم ما يتقون! فهل غناء السابقين أولى بالتحريم أم هذا؟!

ابن عباس.. يحرم الغناء.. ابن مسعود يحذر منه.. جابر بن عبد الله يصفه باللهو.. مكحول.. مجاهد.. ابن تيمية.. ابن القيم.. والعلماء المعاصرون.. كلهم يحذرون منه.. كلهم يحرمونه.. فبقول من تقتنع إن لم يقنعك قول هؤلاء؟!

وقد روي أنه ﷺ كان في سفر.. ومعه حاد يحدو للإبل.. لتسرع الإبل في سيرها.. أي ينشد الأشعار بلحن.. اسمه أنجشة.. وكان حسن الصوت.. فلما حدا ورفع صوته.. خشي النبي عليه السلام أن تسمع النساء في آخر القافلة صوته فالتفت إليه ثم قال: «يا أنجشة رويدك رفقًا بالقوارير».. يعني: النساء..

قال ابن القيم: والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقحط والجدب.. وولاة السوء..

فدع صاحب المزمار والدف والغنا ... وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعش في غيه وضلاله ... على تنتنا يحيا ويبعث أشيبا
وفي تنتنا يوم المعاد تسوقه ... إلى الجنة الحمراء يدعى مقربا
سيعلم يوم العرض أي بضاعة ... أضاع وعند الوزن ما خف أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته ... إذا حصلت أعماله كلها هبا
دعاه الهدى والغي من ذا يجيبه ... فقال لداعي الغي: أهلا ومرحبا
وأعرض عن داعي الهدى قائلاً له ... هواي إلى صوت المعازف قد صبا
يراع ودف بالغناء وراقص ... وصوت مغن صوته يقنص الظبا
إذا ما تغنى فالظبا تجيبه ... إلى أن تراها حوله تشبه الدبا
فما شئت من صيد بغير تطارد ... ووصل حبيب كان بالهجر عذبا
فيه أمري بالرشد لو كنت حاضرًا ... لكان توالي اللهو عندك أقربا

كلمات الأغاني

أما كلمات الأغاني، ففي كثير منها محادة لله ولرسوله.. وشرك أكبر وأصغر.. وتعد على الرسل الكرام.. واعتراض على رب العالمين.. واعتداء عليه وعلى ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.. وغير ذلك.. مما يردد ويسمع ويذاع.. فقد لحنوا الكفر الصريح.. في قصيدة الشاعر النصراني الذي يقول:

جئت لا أعلم من أين.. ولكني أتيت!

ولقد أبصرت قدامي طريقًا.. فمشيت!

وسأبقى سائرًا فيه.. إن شئت هذا أو أبيت!

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري!

وتقول قائلتهم: لبست ثوب العيش ولم أستشر..

تعني خلقني ربي وما استشارني!

كما أنهم يصرحون بعبادة المحبوب.. ولأجله يعيشون في الدنيا.. بل يقولون: إنهم ما

خلقوا في هذه الدنيا إلا من أجله.. قال قائلهم:.. أو قائلتهم: عشت لك وعلشانك.. والله يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]..

وتجد منهم من يغني تصريحًا بعبادة المحبوب كقول أحدهم: اعشق حبيبي وأعبد حبيبي.. وآخر يقول: أنا أعبدك.. وقول الآخر: قلت المحبة عندي لو تعلمين عبادة.. وبعضهم ينافي ويضاد ويكذب على الله يقول: الله أمر.. لعيونك أسهر.. سبحان الله! قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء.. أتقولون على الله ما لا تعلمون..

أما اعتداؤهم على أنبياء الله ورسله فاسمع إلى قولهم.. في فراق المحبوب: صبرت صبر أيوب.. وأيوب ما صبر صبري..

اعتداء فاحش على نبي الله الكريم الذي ابتلاه مولاه سنوات طويلة فصبر.. حتى قال الله عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

أما الاعتراض على القضاء والقدر ولوم الرب ﷻ.. فلهم فيها النصيب الأوفر.. يقول قائلهم: ليه القسوة؟ ليه الظلم؟ ليه يا رب ليه؟ هكذا يتهم الله - تعالى الله - بالقسوة والظلم.. وهذا المغني هو الآن تحت أطباق الثرى.. الله أعلم.. ماذا يفعل به.. نسأل الله حسن الخاتمة والستر في الدنيا والآخرة.

ومنهم من يصرح بأنه مستعد للذهاب إلى جهنم مع محبوبته: يا تعيش وياي في الجنة.. يا أعيش وياك في النار.. بطلت أصوم وأصلي.. بدي اعبد سماك.. لجهنم ماني رايح إلا أنا وإياك..

وآخر يقول: خذي لك الجنة.. وأعطيني النار.. ما دام هذا كل ما تشتهينه.. بل حتى منزلة الشهداء.. الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون.. ادعوا الوصول إليها بالغناء.. كما يقول أحدهم: يا ولدي قد مات شهيدًا.. من مات فداء للمحبوب..

بل لهم مخالفات في العقيدة كقولهم:

قالت والخوف بعينيها.. تتأمل فنجاني المقلوب..

قالت يا ولدي لا تحزن.. فالحب عليك هو المكتوب..

اشتمل هذا الكلام على جلوس هذا الفاجر مع امرأة كاهنة مشعوذة تقرأ الفنجان..

وتدعي علم الغيب..

بل اشتمل على الكذب على الله.. في أنه كتب الحب على هذا الرجل..

وفي أغانيهم الاستعانة بغير الله.. ونداء الأموات.. فيقول قائلهم: مدد يا نبي مدد..

أما الحلف بغير الله فهو كثير.. كقولهم في أغانيهم.. وحياتك.. وحياة عينيك.. والنبي ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»..

ويشيع عند المغنين سب الدهر والساعة والزمان.. والعمر.. يقولون: الله يلعن اليوم.. ملعونة الساعة.. جابني في زمان غدار.. والنبي ﷺ يقول: «لا تسبوا الدهر»..

ثم هم يعتدون على ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ كما قال أحدهم: الفرح مسطر غلط مكتوب.. يعني أن الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ غلط..

وتأمل قول كوكب الشرق: ما أضيع اليوم الذي مر بي..

من غير أن (أصلي وأصوم)؟ لا.. من غير أن (أتقرب إلى الله)؟ لا.

من غير أن أهوى وأن أعشق!

تتحسر على اليوم الذي يضيع دون هوى أو عشق..

ومنهم من لم يكفه أن يتغزل بصديقاته الفاجرات.. بل تربص بالطائفات الغافلات.. وهن محرمات.. فيتغنى بقوله:

قف بالطواف ترى الغزال المحرم   حج الحجيج وعاد يقصد زمزم

فانظر كيف يتعرض لوفد الرحمن بالغزل والمجون.. وبقية أبيات الأغنية فاضحة فاجعة..

وفي بعض الأغاني استخفاف بالموت والقبر.. فهذا مطرب مشهور.. يقول في أحد أغنياته: أوصي أهلي وخلاني حين أموت.. يضعوا في قبري ربابة وعود..

بل منهم من يكفر.. فيستهزئ بالقرآن.. ويغني بكلام الرحمن.. ويضرب عليه بمزمار الشيطان.. كقول أحدهم: حبك سقر.. وما أدراك ما سقر.. ومنهم من غنى سورة الزلزلة.. ومنهم من غنى سورة الكافرون.. وكل هذا مسجل في أشرطة.. هذا بعض ما يقال..

لقد اعتدى هؤلاء المغنون على الشريعة.. وما أبقوا عزيزًا إلا أذلوه.. ولا غاليًا إلا لطخوه..

أصلاً.. لو تأملتم من كتب كلمات هذه الأغاني.. ابن تيمية؟! ابن القيم؟! ابن باز؟! كتب كلماتها في الغالب شاعر فاجر.. إما عاشق ماجن.. أو فاسق خائن.. أو ضال لا يسجد لله سجدة.. أو قد يكتب الكلمات نصراني.. ويلحنها يهودي.. ويعزف لها بوذي.. ويغنيها فاجر أو فاجرة.. وإن شئت فانظر إلى أشرطة الغناء.. واقرأ أسماء المغنين.. ستجد من بينهم نصارى.. سواء من نصارى العرب.. أو غيرهم.. وستجد لا دينيين.. وستجد فجرة كفرة.. لا يصلون ولا يعظمون الدين.. ولولا الحرج لسميت لكم بعضهم.

التوبة من الغناء

أيها الأحبة الفضلاء..

هذه أحوال الغناء وأهله.. طرب.. ومزمار.. وفضائح وأسرار.. وغفلة بالليل والنهار..

ومما يعين المرء على التوبة من الغناء.. وطاعة رب الأرض والسماء.. الرغبة في دار الأخرى.. فيها متع عظيمة.. والتفكر في السماع في دار القرار..

فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار على ما حرم الله عليه منعه من الاستمتاع هناك.. قال ﷺ: «من يلبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة.. ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»..

فلا يكاد يجمع للعبد بين لذائذ الدنيا المحرمة.. ولذائذ الآخرة الدائمة.. فمن تلذذ في الدنيا بشرب الخمر.. ولبس الحرير.. وسماع الغناء.. خشي أن يحرم من هذا كله في الآخرة.. ومن تعلقت نفسه بالجنة وما أعد الله فيها من المتع هانت عليه متع الدنيا قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٤ - ١٥].. والحبرة هي اللذة والسماع..

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: في الجنة شجرة على ساق قدر يسير الراكب في ظلها مائة عامة.. فيتحدثون في ظلها.. فيشتهي بعضهم فيذكر لهو الدنيا.. فيرسل الله ريحاً من الجنة.. فيحرك تلك الأغصان.. بكل لهو كان في الدنيا..

وعن محمد بن المنكدر قال: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين كانوا ينزهون

أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان.. أسكنوهم رياض المسك.. ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي..

قال ابن عباس ويرسل ربنا ريحًا تهز ذوائب الأغصان
فتثير أصواتًا تلذ لمسمع الـ إنسان كالنغمات بالأوزان
يا لذة الأسماع لا تتعوضي بلذاذة الأوتار والعيدان
أو ما سمعت سماعهم فيها غنا ء الحور بالأصوات والألحان
واهًا لذياك السماع فإنه ملئت به الأذنان بالإحسان
واهًا لذياك السماع وطيبه من مثل أقمار على أغصان
واهًا لذياك السماع فكم به للقلب من طرب ومن أشجان
واهًا لذياك السماع ولم أقل ذياك تصغيرًا له بلسان
ما ظن سامعه بصوت أطيب الـ أصوات من حور الجنان حسان
نحن النواعم والخوالد خيرا ت كاملات الحسن والإحسان
لسنا نموت ولا نخاف ومالنا سخط ولا ضغن من الأضغان
طوبى لمن كنا له وكذلك طو بى للذي هو حظنا لفظان

وروى ابن أبي الدنيا عن الأوزاعي قال: **بلغني أنه ليس من خلق الله أحسن صوتًا من إسرافيل.. فيأمره الله تعالى فيأخذ في السماع.. فيمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث.. فيقول الله ﷻ : وعزتي لو يعلم العباد قدر عظمتي ما عبدوا غيري..**

وروى حماد بن سلمة عن شهر بن حوشب قال: **إن الله جل ثناؤه يقول لملائكته: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا.. فيدعونه من أجلي.. فأسمعوا عبادي.. فيأخذون بأصوات من تسبيح وتكبير لم يسمعوا بمثله قط.. ولهم سماع أعلى من هذا.. يضمحل دونه كل سماع.. وذلك حين يسمعون كلام الرب جل جلاله وسلامه عليهم.. وخطابه.. ومحاضرته لهم.. ويقرأ عليهم كلامه.. فإذا سمعوه منه كأنهم لم يسمعوه قبل ذلك..**

فنزه سماعك إن أردت سماع ذياك الغنا عن هذه الألحان، لا تؤثر الأدنى على الأعلى فتحرم ذا وذا يا ذلة الحرمان.. إن اختيارك للسماع النازل الأدنى على الأعلى من النقصان..

والله إن سماعهم في القلب والإيما ... ن مثل السم في الأبدان
والله ما انفك الذي هو دأبه ... أبدًا من الإشراك بالرحمن
فالقلب بين الرب جل جلاله ... حبًا وإخلاصًا مع الإحسان
فإذا تعلق بالسماع أصاره ... عبدًا لكل فلانة وفلان
حب الكتاب وحب ألحان الغنا ... في قلب عبد ليس يجتمعان
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بشرائع الإيمان
واللهو خف عليهم لما رأوا ... ما فيه من طرب ومن ألحان
قوت النفوس وإنما القرآن قو ... ت القلب أنى يستوي القوتان
ولذا تراه حظ ذي النقصان ... كالجهال والنسوان والصبيان
وألذهم فيه أقلهم من العقل ... الصحيح فسل أخا العرفان
يا لذة الفساق لست كلذة ... الأبرار في عقل ولا قرآن

يا سامع الغناء..

فيا سامع الغناء.. أيها المؤمن الموحد.. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]..

يا سامع الغناء.. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦ ـ ٨]..

يا سامع الغناء: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور:٥١، ٥٢].

يا سامع الغناء: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

يا سامع الغناء.. تصور نفسك وأنت بين زملائك في لهو وطرب.. وإعراض ولعب.. وفجأة.. إذا خسف الله بكم الأرض.. أو مسخكم قردة وخنازير.. كما توعد النبي ﷺ أهل

الغناء.. فما موقفك؟ وما مصيرك؟ وكيف يكون جوابك أمام الجبار جل جلاله.. وأنت على هذه الحال؟

يا سامع الغناء.. أرأيت لو سلب الله سمعك.. فصرت تقعد بين الناس.. لا تدري عنهم إذا تكلموا.. ولا تفهم مرادهم إذا ضحكوا.. تتلفت بينهم بعينيك.. أو تشير لهم بيديك.. ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق:٦، ٧].

يا سامع الغناء.. أين المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم.. وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا.. وعلى ربهم يتوكلون؟

أين الذين يسبحون بحمد ربهم بكرة وأصيلاً.. أين الذين إذا سمعوا حكم الله أذعنوا وأطاعوا.. وذلوا وانصاعوا؟ أما تخشى سوء الخاتمة.. فتلقى الله سامعًا.. أو مغنيًا.. أو عازفًا..

ذكر ابن القيم: أن رجلاً من أهل الغناء والمعازف حضرته الوفاة.. فلما اشتد به نزع روحه.. قيل له: قل لا إله إلا الله.. فجعل يردد أبياتًا من الغناء.. فأعادوا عليه التلقين: قل لا إله إلا الله.. فجعل يردد الألحان.. ويقول: تنتنا.. تنتنا.. حتى خرجت روحه من جسده.. وهو إنما يلحن ويغني..

ذات يوم..

أما في عصرنا.. فيقول أحد العاملين في أمن الطرق: كانت مهنتي الأمن ومراقبة السير.. تعودت مشاهدة الحوادث والمصابين.. وذات يوم كنت في دورية أراقب الطريق معي أحد الزملاء.. وفجأة سمعنا صوت ارتطام قوي التفتنا.. فإذا سيارتان قد ارتطمتا وجهًا لوجه.. بشكل مروع.. أسرعنا لإنقاذ المصابين..

حادث لا يكاد يوصف.. في السيارة الأولى شخصان في حالة خطرة.. أخرجناهما من السيارة.. والدماء تسيل منهما.. وهما يصيحان ويتأوهان.. وضعناهما على الأرض.. أسرعنا لإخراج صاحب السيارة الثانية.. وجدناه قد فارق الحياة..

عدنا للشخصين فإذا هما في حال الاحتضار.. هب زميلي يلقنهما الشهادة..

قولا: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

وهما يئنان ويشهقان.. وصاحبي يردد.. لا إله إلا الله..

وهما لا يستجيبان.. حتى إذا بدأ بهما النزع.. واشتد شهيقهما..

بدأ يرددن كلمات من الأغاني..

لم أستطع تحمل الموقف.. بدأت أنتفض.. وصاحبي يكرر عليهما.. ويرجوهما.. لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. وهما على حالهما حتى بدأ صوت الغناء يخف شيئًا فشيئًا.. سكت الأول وتبعه الثاني.. لا حراك.. فارقا الدنيا.. حملناهما إلى السيارة.. مع الميت الأول.. وأخذنا نسير بهؤلاء الموتى الثلاثة..

صاحبي مطرق لا يتكلم.. وفجأة التفت إلي ثم حدثني عن الموت وسوء الخاتمة.. وصلنا إلى المستشفى.. وأنزلنا الموتى.. ومضينا إلى سبيلنا.. أصبحت بعدها كلما أردت أن أسمع الأغاني.. برزت أمامي صورة الرجلين.. وهما يودعان الدنيا بصوت الشيطان..

وبعد ستة أشهر وقع حادث عجيب..

شاب يسير بسيارته سيرًا عاديًا.. تعطلت سيارته.. في أحد الأنفاق.. نزل من سيارته لإصلاح إحدى العجلات.. وعندما وقف خلف السيارة لينزل العجلة السليمة.. جاءت سيارة مسرعة وارتطمت به من الخلف سقط الشاب مصابًا إصابات بالغة.. اتصل بعض الناس بنا.. فتوجهت مع أحد زملائي إلى موقع الحادث سريعًا..

شاب في مقتبل العمر.. ممدد على الأرض عليه مظاهر الصلاح.. إصاباته بالغة.. حملناه معنا في السيارة..

كنت أحدث نفسي وأقول سألقنه الشهادة مثل ما فعلى زميلي الأول..

عندما حملناه.. سمعناه يهمهم بكلمات.. خالطها أنات وآهات.. لم نفهم منه شيئًا.. أسرعنا إلى المستشفى.. فبدأت كلماته تتضح، إنه يقرأ القرآن.. وبصوت ندي.. التفتنا إليه.. فإذا هو يرتل في خشوع وسكون.. سبحان الله! الدم قد غطى ثيابه وقد تكسرت عظامه.. بل هو على ما يبدو على مشارف الموت.. أسرعنا المسير.. استمر يقرأ.. بصوت جميل.. يرتل القرآن..

لم أسمع في حياتي مثل تلك القراءة.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ

﴿الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٦]..

انصت أنا وزميلي لسماع ذلك الصوت الرخيم.. أحسست برعشة في جسدي.. فجأة.. سكت ذلك الصوت.. التفت إلى الخلف.. فإذا به رافع إصبع السبابة يتشهد.. ثم انحنى رأسه..

أوقفت السيارة.. قفزت إلى الخلف.. لمست يده.. أنفاسه.. قلبه.. حركته.. لا شيء.. فارق الحياة.. نظرت إليه طويلاً.. التفت.. وصرخ بي.. ماذا حدث؟

قلت: مات الشاب.. مات وهو يقرأ القرآن.. مات.. انفجر صاحبي باكيًا.. أما أنا فلم أتمالك نفسي.. أخذت أشهق ودموعي لا تقف.. أصبح منظرنا داخل السيارة مؤثرًا..

واصلنا سيرنا إلى المستشفى.. أخبرنا كل من قابلنا عن قصة الرجل.. أخبرنا أهله وإخوانه.. سألناهم عنه فإذا هو صالح قانت آناء الليل وأطراف النهار..

أما يعتبر بذلك أولئك الذين يسمعون الغناء في سياراتهم وفي أسفارهم.. ومن سماعات آذانهم.. وهم يقودون الدراجات.. أو يركبون الطائرات.. ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩ - ١٠٠].

فيا سامع الغناء.. أما تعتبر بهذا..

أما عقبة بن عامر رضي الله عنه.. فيقول: من قرأ كان رديفه ملك.. ومن تغني كان رديفه شيطان..

أين الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. ألا تكون منهم؟!

أين الذين إذا جاءهم أمر الله قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

رسالة إلى كل مغن..

نعم.. هذه رسالة إلى مستمع الغناء..

ورسالة ثانية.. أهمس بها في أذن كل مغن..

فأقول: أنت عبد الله تعالى تقف بين يديه خمس مرات في اليوم.. وكل ذرة من ذرات جسمك.. بل وكان نفس من أنفاسك.. لا يتحرك إلا بإذن خالقك.. فهل سألت نفسك يومًا.. كيف علاقتي معه؟! هل هو راضٍ عني أم لا؟؟ كيف سيكون اللقاء يوم القيامة؟! أنت وحدك الذي تستطيع أن تجيب عن هذه الأسئلة..

والسيئات قسمان:

قسم لازم لفاعله.. لا يتعدى إلى غيره.. كشرب الخمر.. والنظر المحرم..

وقسم يتعدى إلى الغير كالغناء.. والزنى..

وما تفعله أنت الآن.. هو من القسم الذي يتعدى إلى الغير.. فعليك وزرك، ووزر من سمعك أو سمع شريطك.. إلى يوم القيامة..

وطوبى لمن مات وماتت معه سيئاته.. وويل لمن مات وعاشت سيئاته بعده خمس سنين.. وعشرًا.. فهل تتحمل هذا؟! ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥].

وقال حبيبك أبو القاسم ﷺ: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئًا»..

وقد جعل الله لك عينين.. ولسانًا وشفتين.. فهل يكون جزاؤه منك أن تحاربه بها؟! بدل أن تسخر هذا الصوت لقراءة القرآن والتغني به.. والبصر للنظر في المصحف.. واليدين والرجلين للصلاة.. سخرتها في إقامة المنكر ودعوة الناس إليه.. وبصراحة.. مات من مات من المغنين.. وقد كنت تجتمع بهم في الدنيا.. فهل تتمنى أن تجتمع بهم في مكان واحد يوم القيامة؟؟!

لا أدري.. والموت إن لم ينزل بك اليوم نزل بك غدًا..

فأين وجهك.. يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.. وأين تذهب بوجهك؟ يوم أن يعلم النبي ﷺ أن أمته قد عكفت على الغناء.. والموسيقى بسببك؟!

أين تذهب بوجهك يوم تعلم أن الناس سهروا إلى الفجر على صوتك وزمرك.. أين تذهب بوجهك إذا بعثر ما في القبور.. وحصل ما في الصدور.. أين تذهب بوجهك.. إذا سال عرقك.. وانتفض جسدك.. وطار فؤادك.. ووقفت بين يدي الله وسئلت عن عملك.. فإذا هو عشرون أغنية.. وثلاثون لحنًا.. وأربعون حفلة.. ولا تحفظ من كتاب الله جزءًا.. وإذا أصحابك الذين ترجو نفعهم يوم القيامة.. ما بين مغنى وعازف.. وسكير وراقص..

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٤].

هل سمعت عن زاذان الكندي؟

كان صاحب لهو وطرب فجلس مرة في طريق يغني.. ويضرب بالعود.. وله أصحاب يطربون له ويصفقون.. فمر بهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .. فأنكر عليهم فتفرقوا..

فأمسك ابن مسعود بيد زاذان وهزه وقال:

ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة القرآن..

ثم مضى.. فصاح زاذان بأصحابه: من هذا؟

قالوا: عبد الله بن مسعود.. قال: صاحب رسول الله ﷺ ؟! قالوا: نعم..

فبكى زاذان.. ثم قام وضرب بالعود على الأرض فكسره ثم أسرع فأدرك ابن مسعود.. وجعل يبكي بين يديه.. فاعتنقه عبد الله بن مسعود.. وبكى وقال: كيف لا أحب من قد أحبه الله..

ثم لازم زاذان ابن مسعود.. حتى صار إمامًا في القرآن.. بعد أن كان إمامًا في المعازف والألحان..

فاعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل

إن أهنى عيشة قضيتها ذهبت لذاتها والإثم حل

ثم أقول: ألا تخاف وأنت تهيج المشاعر والشهوات.. وتحرك الغرائز واللذات.. أن يبتليك الله في عرضك.. في ابنتك أو زوجتك.. وربما ابتلاك بأختك وقريبتك.. وأنت رجل مسلم.. أعلم أنه لا تزال فيك غيرة على محارمك..

ذكر الخطاب في «عدالة السماء»:

أن رجلاً تاجرًا.. بعث أحد أولاده في بضاعة له إلى بلد بعيد ولما أراد ولده أن يغادر.. قال له أبوه: يا بني احفظ عرض أختك في سفرك..

فعجب الولد.. كيف أحفظ عرضها وهي في البيت عندك؟

فقال أبوه: احفظ عرضها.. وإن كنت بعيدًا عنها.. فمضى الولد وسافر.. ومضت الأيام.. وكان في قريتهم شيخ كبير فقير.. يطوف بالبيوت ويبيع الماء.. فأتى في أحد الأيام.. ففتحت الفتاة الباب لهذا السقاء.. فدخل كعادته وسكب ما في قربته في آنيتهم.. والفتاة تنتظر خروجه لتغلق الباب..

فلما مر بها خارجًا.. مال إليها وقبلها قبلة سريعة.. ومضى وهو شيخ كبير.. ولم يعرف عنه السوء أو الخيانة.. ورآه الأب من إحدى النوافذ.. فسكت.. فلما عاد الولد بدأ يحدث أباه بما رأى واشترى..

فقال له أبوه: ألم أقل لك أن تحفظ عرض أختك.. فاصدقني: هل تعرضت لامرأة في سفرك..

فقال الشاب: نعم.. أصبت من امرأة قبلة..

فقال له أبوه.. نعم.. دقة بدقة.. ولو زدت زاد السقا..

ومن يزن.. يزن به ولو بجداره..

إن كنت يا هذا لبيبًا فافهم..

أسأل الله تعالى أن يهديك ويحفظك من المنكرات.. وأن يجعلك من الدعاة إلى الله.. آمين..

رسالة إلى من يسوقون مزامير الشيطان

ورسالة ثالثة.. أبعثها.. إلى الذين جعلوا من أنفسهم مسوقين لمزامير الشيطان.. وإلى أولئك.. الذين يتعاونون معهم على الإثم والعدوان.. فيؤجرون محلاتهم لمن يبيع الغناء.. أو يوزعون الأشرطة لهم.

وإلى أولئك الذين يجعلون الموسيقى في وقت الانتظار.. وأجهزة السنترال.. فيسمعون الناس رغمًا عنهم.

وإلى أولئك الذين يرفعون أصوات الغناء من السيارات.. أو من أجهزة التسجيل في الحدائق والمنتزهات.

إلى جميع هؤلاء الذين يتعاونون على إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.. أقول لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور:١٩].

فكم من أعراض بسبب الغناء انتهكت؟! وكم من أموال أهدرت؟! وفضيلة تلاشت؟ وأوقات ذهبت؟؟ هؤلاء كلهم تعود أوزارهم إليكم..

ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة..

فلماذا تحملون أنفسكم ما لا تطيقون؟!

سبحان الله! هل أغلقت أبواب الرزق في وجوهكم.. حتى لم تجدوا إلا باب الحرام؟ والله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه وكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به.. ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا يطلب إلا بطاعته.

ثم ألم تعلم يا رعاك الله أن الذي يأكل الحرام لا تستجاب له دعوة؟ فهل أنت مستغن عن ربك ﷻ ودعائه؟!

قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ

عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١] ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢] »، ثم ذكر ﷺ «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»..

وقال سعد بن أبي وقاص يومًا للنبي ﷺ: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة.. فقال له: «يا سعد أطب مطعمك.. تكن مستجاب الدعوة».. ومن ترك شيئًا لله.. عوضه الله خيرًا منه..

ذكر ابن رجب في «ذيل الطبقات».. في ترجمة القاضي أبي بكر الأنصاري البزاز.. أنه قال: كنت مجاورًا مكة حرسها الله.. فأصابني يومًا جوع شديد فخرجت أبحث عن طعام.. فلم أجد.. فبينما أنا أسير.. وجدت كيسًا من حرير.. مشدودًا برباط من حرير فاخر.. فأخذته وجئت به إلى بيتي.. وحللته فوجدت فيه عقدًا من لؤلؤ لم أر مثله قط.. فربطته.. وأعدته كما كان.. ثم خرجت أبحث عن طعام.. فإذا بشيخ من الحجاج ينادي ويقول: من وجد كيسًا صفته كذا وكذا.. وله (٥٠٠) دينار من الذهب..

فقلت في نفسي: أنا محتاج وجائع.. أفآخذ هذه الدنانير.. لأنتفع بها وأرد له كيسه..

فصحت به: تعالى إلي.. فأقبل إلي مستبشرًا.. فأخذته إلى بيتي.. وسألته عن علامة الكيس.. وعلامة اللؤلؤ.. وعدده وصفة ما فيه.. فإذا هو كما كان.. فأخرجته ودفعته إليه.. فسلم إلي (٥٠٠) دينار.. الجائزة التي ذكرها..

فقلت له: هذا أمانة.. ويجب علي أن أعيده إليك.. ولا آخذ له جزاء..

فقال: لا بد أن تأخذ.. وألح علي كثيرًا..

وأنا أحوج ما أكون إلى المال..

فأقسمت أن لا آخذ درهمًا واحدًا.. فمضى الشيخ وتركني.. وأكمل حجه ورجع إلى بلده.. وأما أنا.. فاشتدت علي الفاقة.. حتى خرجت من مكة..

وركبت البحر.. في مركب قديم مع جماعة.. فأصابنا وسط البحر موج عظيم.. وأهوال ورياح.. وتكسر المركب.. وغرق الناس.. وهلكت الأموال.. وسلمني الله من بينهم.. وتعلقت بخشبة..

حتى قذفني الموج إلى جزيرة.. فنزلت.. فإذا فيها قوم مسلمون.. وإذا هم جهلة أميون.. لا يقرءون ولا يكتبون.. فذهبت إلى مسجدهم.. وصليت.. وقمت أقرأ القرآن.. فما إن رآني أهل المسجد.. حتى اجتمعوا علي.. فلم يبق في الجزيرة أحد إلا قال علمني القرآن.. فعلمتهم القرآن.. وحصل إلي خير كثير من جراء ذلك.. ثم رأيت في مسجدهم مصحفاً قديماً ممزقاً.. فأخذته وأوراقه أقرأ فيه.. فقالوا: أتحسن القراءة والكتابة..؟

فقلت: نعم.. قالوا: علمنا الخط.. فقلت: لا بأس.. فجاءوا بصبيانهم.. وشبابهم فكنت أعلمهم.. وحصل لي خير كثير.. ورغبوا في بقائي معهم..

فقالوا لي: عندنا جارية يتيمة.. ومعها شيء من الدنيا.. ونريد أن نزوجها لك.. وتبقى معنا في هذه الجزيرة فتمنعت.. فألحوا علي.. وألزموني.. حتى أجبتهم.. فجهزوها لي.. وأقاموا لذلك وليمة.. فلما دخلت عليها.. فإذا بالعقد الذي رأيته بمكة بعينه.. معلق في عنقها.. فدهشت لذلك.. وأخذت أحد النظر إلى العقد.. وغفلت عن الفتاة..

فقال لي بعض أهلها: يا شيخ كسرت قلب اليتيمة..

لم تنظر إليها.. وإنما تنظر إلى العقد..

فقلت: إن في هذا العقد قصة..

قالوا: ما قصته؟

فأخبرتهم بخبري مع الشيخ الحاج.. الذي أضاع العقد ثم أعدته إليه.. ووصفت لهم ذلك الشيخ.. فلما أتممت القصة صاحوا وضجوا.. بالتهليل.. والتكبير.. فقلت: سبحان الله ما بكم؟

قالوا: إن الشيخ الذي رأيته.. صاحب العقد بمكة.. هو أبو هذه الصبية.. وكان يذكرك بعد عودته.. من الحج.. ويقول: والله ما رأيت مسلماً كهذا.. الذي رد علي العقد بمكة.. اللهم اجمع بيني وبينه.. حتى أزوجه ابنتي.. وتوفى الشيخ وحقق الله دعوته..

فقال: فدخلت بالفتاة.. فبقيت معها مدة من الزمن.. فكانت خير امرأة.. ورزقت منها بولدين.. ثم توفيت.. فورثت العقد.. أنا وولداي..

ثم نزل بولدي نازل فماتا.. فورثت العقد منهم.. فبعته بمائة ألف دينار..

قال ابن رجب: ولا زال هذا القاضي ينفق أموالاً عظيمة فإذا سئل عنها قال: هذا من

بقايا ثمن العقد المبارك..

ومن ترك شيئًا لله.. عوضه الله خيرًا منه..

رسالة إلى مستمعي الأناشيد الإسلامية

ورسالة أخيرة..

إلى فريق من أحبابنا.. طهروا أسماعهم عن الغناء.. لكنهم انشغلوا بسماع آخر.. وهم المبالغون في استماع الأناشيد الإسلامية.. نعم.. لا أنكر أن النبي ﷺ سمع الأشعار.. وربما سمع الحداء.. في الأسفار..

ولكن لو تأملت في الأناشيد الموجودة اليوم.. لوجدت فيها توسعًا كثيرًا..

ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أشعار راقية.. تحث على الجهاد ومعالي الأخلاق ويتغنى بهذه الأشعار.. رجال ينشدونها بألحان جادة ليس فيها تغنج ولا آهات.. فهذه لا بأس بسماعها.. على أن لا يكثر المرء من ذلك.. بل لو سمعها أحيانًا في سفر ونحوه فلا بأس..

النوع الثاني: أشعار.. فيها معاني الحب والغرام.. أو آهات الفراق.. وإن كانوا يسمونه حبًا في الله.. وينشدها شباب ينعمون أصواتهم.. ويكثرون من المؤثرات الصوتية.. حتى تكون أشبه بالغناء.. إضافة إلى ما يقع فيها من آهات.. وتأوهات.. وصرخات.. وترديدات.. وخلفيات.. فهذه لا ينبغي سماعها.. ولا الاشتغال بها.. وهي مشغلة لسامعها عن القرآن الكريم.. ومعلقة لقلبه بالغلمان..

النوع الثالث: أناشيد يحرم الاستماع إليها.. وهي التي تكون بأصوات النساء.. أو التي يرافقها دف أو طبل.. فهذه لا يجوز سماعها.. بل هي من المعازف المحرمة..

وأنبه هنا.. إلى مسألة استعمال الدف والطبل.. في الأعراس.. فاستعمال الطبل وهو المختوم من الجهتين.. أو الزير.. والتنكة.. لا يجوز في أي حال من الأحوال.. لا في العرس ولا غيره.. لا للنساء ولا للرجال..

ويجوز في العرس للنساء استعمال الدف وهو المختوم المغلق من جهة واحدة.. ومفتوح من

الجهة الأخرى.. فيجوز استعماله للنساء في العرس.. بشرط أن لا يصاحبه منكرات أخر.. كأن تكون الكلمات التي تغنى معه من كلمات الأغاني المثيرة للشهوة.. أو المحركة للحب والغرام.. أو أن يتكشف النساء راقصات.. أو يختلطن بالرجال..

أسأل الله أن ينفعنا جميعًا بما سمعنا.. وأن يعيذنا من منكرات الأسماع والأبصار.. آمين..

هذا والله تعالى أعلم.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



المشتاقون إلى الجنة

الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين نزلاً.. ويسرهم للأعمال الصالحة الموصلة إليها فلم يتخذوا سواها شغلاً.. وسهل لهم طرقًا.. فسلكوا السبيل الموصلة إليها ذللاً.. وكمل لهم البشرى بكونهم خالدين فيها أبدًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١].. وباعث الرسل: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

والحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العمل وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل.. أفاض عليهم النعمة وكتب على نفسه الرحمة.. وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته سبقت غضبه..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه.. ومن سار على هديه واقتفى أثره إلى يوم الدين..

أما بعد..

أيها الأخوة الكرام.. فإن الله ﷻ لم يخلق خلقه عبثًا ولم يتركهم سدى.. بل خلقهم لأمر عظيم وهيأهم لخطب جسيم..

عرض على السماوات والأرض والجبال فأبين وأشفقن منه إشفاقًا ووجلاً.. وحمله الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً..

والعجب كل العجب من غفلة من لحظاته معدودة عليه.. وكل نفس من أنفاسه إذا خرج لم يرجع إليه.. وإنما يتبين سفه المفرط يوم الحسرة والندامة.. إذا حشر المتقون إلى الرحمن وفدًا وسيق المجرمون إلى جهنم وردًا.. فالأولون في روضات الجنة يتنعمون.. وعلى أسرتها يجلسون وعلى بطائنها يتكئون.. والآخرون في أودية جهنم يصطلون.. جزاء بما

كانوا يعملون..

ومن هنا اشتاقت نفوس الصالحين إلى الجنة.. حتى قدموا في سبيل الوصول إليها كل ما يملكون.. هجروا لذيذ النوم والرقاد.. وبكوا في الأسحار.. وصاموا النهار.. وجاهدوا الكفار.. فلله كم من صالح وصالحة اشتاقت إليهم الجنة كما اشتاقوا هم إليها.. من حسن أعمالهم وطيب أخبارهم ولذة مناجاتهم..

وكان لكل واحد منهم ولكل واحدة منهن مع الله جل جلاله أخبار وأسرار.. لم يطلعوا غيرهم عليها قط.. جعلوها بين أيديهم عددًا.. لا يطلبون جزاءهم إلا منه.. فطريقهم إليه ومعولهم عليه ومآلهم يكون بين يديه..

فلا إله إلا الله.. كم بكت عيون في الدنيا خوفًا من الحرمان من النظر إلى وجه الله الكريم.. وكم تقطعت أكباد شوقًا إلى لقاء الله جل جلاله.. فهو سبحانه أعظم من سجدت الوجوه لعظمته.. وبكت العيون حياء من مراقبته.. وتقطعت الأكباد شوقًا إلى لقائه ورؤيته..

المشتاقون إلى الجنة لهم مع ربهم تعالى أخبار وأسرار.. فإليكم شيئًا من أخبارهم وطرفًا من أسرارهم..

أول هذه الأخبار.. (صاحبة الشكال وابنها)

ما أورده الإمام ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة».. وذكره ابن النحاس في «مصارع الأشواق» عن رجل من الصالحين اسمه أبو قدامه الشامي:

كان رجلاً قد حبب إليه الجهاد والغزو في سبيل الله.. فلا يسمع بجهاد بين المسلمين والكفار ولا بغزوة في سبيل الله لنصر الإسلام إلا وسارع وجاهد مع المسلمين هناك.. جلس أبو قدامة يومًا في الحرم المدني فسأله سائل فقال: يا أبا قدامة حدثنا بأعجب ما رأيته من أمر الجهاد والغزو.. أنت رجل قد أكثرت من الجهاد في سبيل الله.. ومن حضور المعارك التي كانت بين المسلمين والكفار..

فقال أبو قدامة: إني محدثكم عن ذلك: خرجت مرة مع أصحاب لي إلى الرقة.. لنقاتل

بعض المشركين في الثغور - والثغور هي مراكز عسكرية تجعل على حدود البلاد الإسلامية لصد الكفار عنها - قال: فلما نزلت في الرقة.. وهي مدينة في العراق على نهر الفرات - اشتريت منها جملاً أحمل عليه سلاحي.. ووعظت الناس في مساجدها.. وحثثتهم على الجهاد في سبيل الله والإنفاق لنصرة الإسلام الذي جعلهم الله تعالى قائمين عليه.. قال: فلما تكلمت في بعض مساجدها.. ودعوت الناس للخروج للقتال في سبيل الله.. ثم جن علي الليل اكتريت منزلاً أبيت فيه.. فلما ذهب بعض الليل فإذا بباب المنزل يطرق علي.. قال: فعجبت عجبًا شديدًا.. من هذا الذي يطرق علي الباب؟ فأنا رجل غير معروف في هذه البلاد.. وليس لي بأحد اتصال ولا معرفة.. فمن هذا الذي سيأتي إلي في هذه الظلمة؟! قال: فلما فتحت الباب وأنا وجل.. فإذا بامرأة متحصنة عفيفة قد تلفعت بجلبابها.. فلا ترى منها شيئًا.. فلما رأيتها فزعت منها وقلت: يا أمة الله.. ماذا تريدين رحمك الله؟

قالت لي: أنت أبو قدامة؟

فقلت: نعم..

قالت: أنت الذي جمعت المال اليوم للثغور؟

قلت: نعم..

قال: فلما سمعت مني ذلك دفعت إلي رقعة وخرقة مشدودة ثم انصرفت باكية..

قال: فعجبت والله من شأنها.. والخرقة بين يدي..

فنظرت في هذه الرقعة فإذا مكتوب فيها:

يا أبا قدامة إنك قد دعوتنا اليوم إلى الجهاد.. وأنا امرأة لا أستطيع الجهاد ولا قدرة لي على ذلك.. ولم أجد مالاً أزودك به لتذهب به إلى المجاهدين.. فقطعت أحسن ما في وهما ضفيرتاي.. ثم صنعت منهما شكالاً - يعني حبلاً - يربط بهما الفرس فأنفذتهما إليك لتجعلهما قيد فرسك.. لعل الله تعالى يرى شعري قيد فرسك في سبيل أن يغفر الله تعالى لي وأن يدخلني إلى الجنة.

قال أبو قدامة: فعجبت والله من حرصها وبذلها لكل ذلك في سبيل الله.. وشدة شوقها إلى المغفرة والجنة.. مع أنها صنعت أمرًا غير مشروع في الدين.. أن تقص شعرها بهذه

الطريقة.. لكن شوقها إلى الجنة غلبها على ذلك..

قال: فجعلت هذه الخرقة في بعض متاعي.. ثم لما أصبحنا وصليت الفجر خرجت أنا وأصحابي من الرقة..

فلما بلغنا حصن مسلمة بن عبد الملك.. إذا بفارس يصيح وراءنا وينادي يقول: يا أبا قدامة.. يا أبا قدامة..

قف علي يرحمك الله..

قال: فقلت لأصحابي: تقدموا أنتم عني وأنا أرجع أنظر في خبر هذا الفارس.. فلما رجعت إليه.. بدأني بالكلام وقال: الحمد لله الذي لم يحرمني صحبتك ولم يردني خائبًا إلى أهلي..

قال: فقلت له: ما تريد رحمك الله؟

قال: أريد الخروج معك للقتال..

فقلت له: أسفر عن وجهك أنظر إليك فإن كنت كبيرًا يلزمك القتال قبلتك.. وإن كنت صغيرًا لا يلزمك الجهاد رددتك..

فقال: فكشف اللثام عن وجهه.. فإذا بوجه مثل القمر وإذا هو شاب غلام عمره سبع عشرة سنة..

فقلت له: يا بني؟ عندك والد؟

فقال: أبي قد قتله الصليبيون وأنا خارج أقاتل الذين قتلوا أبي..

فقلت له: أعندك والدة؟

قال: نعم..

فقلت: ارجع إلى أمك فأحسن صحبتها فإنك إذا أحسنت صحبتها فإن الجنة تحت قدمها..

قال أبو قدامة: فتعجب مني..

وقال: سبحان الله أما تعرف أمي؟

قلت له: لا والله.. ما أعرف أمك..

فقال: أمي هي صاحبة الوديعة..

قلت: أي وديعة؟ قال: هي صاحبة الشكال. قلت: أي شكال؟!

قال: سبحان الله.. ما أسرع ما نسيت! أما تذكر المرأة التي أتت إليك البارحة ثم أعطتك الكيس والشكال.. الحبل الذي تربط به فرسك؟

قال أبو قدامة: فقلت: بلى ما خبرها؟

قال: تلك والله أمي.. أمرتني أن أخرج إلى الجهاد.. وأقسمت علي أن لا أرجع إليها..

وقالت لي: يا بني إذا لقيت الكفار فلا تولهم الأدبار.. وهب نفسك لله.. واطلب مجاورة الله.. ومساكنة أبيك وأخوالك في الجنة.. فإذا رزقك الله الشهادة فاشفع في.. ثم ضمتني إلى صدرها ورفعت بصرها إلى السماء..

وقالت: إلهي وسيدي ومولاي هذا ولدي وريحانة قلبي وثمرة فؤادي.. سلمته إليك فقربه من أبيه وإخوانه..

ثم قال أبو قدامة: فعجبت والله من هذا الغلام.. ثم عاجلني الغلام بقوله: فسألتك بالله يا عمي.. يا أبا قدامة.. ألا تحرمني الغزو في سبيل الله معك.. أنا إن شاء الله الشهيد ابن الشهيد.. فإني حافظ لكتاب الله.. عارف بالفروسية والرمي.. فلا تحقرني لصغر سني..

قال أبو قدامة: فلما سمعت ذلك منه لم أستطع والله أن أرده.. فأخذناه معنا..

فوالله ما رأينا أنشط منه، إن ركبنا فهو أسرعنا..

وإن نزلنا فهو أنشطنا.. وهو في كل أحواله.. في الطريق وفي النزول.. لا يفتر لسانه عن ذكر الله جل جلاله قط..

فنزلنا منزلاً لما أقبلنا إلى الثغور مع غروب الشمس.. وكنا صائمين فأردنا أن نطبخ فطورنا وعشاءنا.. قال: فلما نزلنا أقسم الغلام علينا أن لا يصنع لنا الفطور إلا هو.. فأردنا أن نمنعه عن ذلك.. إذ هو لا يزال في تعب شديد من طول الطريق وعسره.. لكنه أبى علينا ذلك.. فلما نزلنا قلنا له: تنح عنا قليلاً حتى لا يؤذينا دخان الحطب.. قال: فجلسنا ننتظر الغلام فأبطأ علينا شيئًا يسيرًا.. فقال لي بعض أصحابي: يا أبا قدامة اذهب إلى صاحبك فانظر لنا خبره فما هذا بصنع فطور ولا طعام.. قد أبطأ علينا كثيرًا..

قال: فلما توجهت إليه فإذا الغلام قد أشعل النار في الحطب.. ووضع من فوقها القدر.. ثم غلبه التعب والنوم.. ووضع رأسه على حجر ثم نام.. فلما رأيته على هذا الحال.. كرهت والله أن أوقظه من منامه.. وكرهت أن أرجع إلى أصحابي وليس معي طعام لهم.. فلما رأيت حاله كذلك قلت في نفسي: أنا أكمل الفطور لأصحابي.. فأخذت أصنعه شيئًا يسيرًا وأسارق الغلام النظر خلال ذلك.. فبينما أنا أنظر إلى الغلام إذ لاحظت الغلام بدأ يبتسم.. ثم اشتد ضحكه.. ثم استيقظ من منامه.. قال: فلما رأيت الغلام على ذلك عجبت والله.. فلما استيقظ ورآني فزع الغلام.. وقال: يا عمي أبطأت عليكم..

قلت له: ما أبطأت علينا.. قال: دع عنك صنع الطعام.. أنا أصنعه لكم.. أنا خادمكم في الجهاد.. قلت له: لا والله.. لا تصنع فطورًا ولا طعامًا حتى تحدثني بشأنك.. ما الذي جعلك في منامك تضحك؟! ما الذي جعلك تتبسم؟! هذا أمر عجيب!

فقال الغلام: يا عمي.. هذه رؤيا رأيتها..

قلت له: بالله عليك ما هذه الرؤيا؟

قال: دعها بيني وبين الله تعالى..

قلت له: أقسمت بالله عليك أن تحدثني بهذه الرؤيا..

فقال الغلام: رأيت يا عمي في منامي أني قد دخلت إلى الجنة.. فإذا هي في حسنها وبهائها كما أخبر الله ﷻ في كتابه.. فبينما أنا أمشي فيها.. وأنا في عجب شديد من حسنها وجمالها.. فإذا رأيت قصرًا يتلألأ أنوارًا.. لبنة من ذهب ولبنة من فضة.. وإذا شرفاته من الدر والياقوت والجوهر.. وأبوابه من ذهب.. وإذا ستور مرخية على شرفاته.. وإذا بجوار يرفعن الستور.. وجوههن كالأقمار.. قال: فلما رأيت حسنهن أخذت أنظر إليهن.. وأتعجب من حسنهن وجمالهن.. قال: فإذا بجارية كأحسن ما أنت راء من الجواري.. تحدث صاحبتها التي عن يمينها.. وتشير إلي وتقول: هذا زوج المرضية.. هذا زوج المرضية.. هذا زوج المرضية.. يقول: وأنا لا أدري من هي المرضية.. فسألتها.. قلت لها: أنت المرضية؟ فقال: أنا خادمة من خدم المرضية.. تريد المرضية.. ادخل إلى القصر.. تقدم يرحمك الله..

قال: فتقدمت.. فإذا في أعلى القصر غرفة من الذهب الأحمر عليها سرير من الزبرجد

الأخضر.. قوائمه من الفضة البيضاء.. عليه جارية وجهها كأنه الشمس.. لولا أن الله ثبت علي بصري لذهب عني ولذهب والله عقلي من حسنها وجمالها.. ومن بهاء السرير وجمال الغرفة..

قال: فلما رأتني الجارية بدأتني بالكلام والحديث.. فقالت: مرحبًا بولي الله وحبيبه.. أنا لك وأنت لي..

قال: فلما رأيتها وسمعت كلامها اقتربت منها.. فلما كدت أن أضع يدي عليها قالت لي: يا خليلي يا حبيبي أبعد الله عنك الخنا..

قد بقي لك في الحياة شيء.. وموعدنا معك غدًا بعد صلاة الظهر..

قال: فتبسمت من ذلك وفرحت والله منه..

قال أبو قدامة: فلما سمعت هذه الرؤيا من مثل هذا الغلام قلت له: رأيت خيرًا إن شاء الله..

قال أبو قدامة: ثم إننا أكلنا فطورنا.. ثم ركبنا على دوابنا.. ومضينا إلى أصحابنا المرابطين في الثغور..

قال: فلما نزلنا عندهم وبتنا عندهم قمنا وصلينا الفجر..

ثم حضر عدونا.. فقام قائدنا وصف الجيوش بين يديه..

ثم تلى علينا صدرًا من سورة الأنفال..

وذكرنا بأجر الجهاد في سبيل الله وبثواب الشهادة في سبيل الله.. فما زال يحثنا على الجهاد والقتال.. قال: فبينما أنا أتأمل في الناس حولي فإذا بكل واحد منهم يجمع حوله إخوانه وأقرباءه..

أما الغلام فلا أب يدعوه إليه ولا عم يقربه إليه ولا أخ يجعله بين يديه.. فأخذت أرقبه وأنظر في حاله..

فلما نظرت فإذا الغلام في مقدمة الجيش.. فأخذت أشق الصفوف مشيًا إليه.. فلما وصلت إليه قلت له: يا بني.. ألك خبرة بالقتال والجهاد؟

قال: لا.. هذه والله أول معركة وأول مشهد أراه وأقاتل الكفار فيه..

فقلت له: يا بني.. إن الأمر على خلاف ما في بالك وذهنك.. إن الأمر قتال وإن الأمر دماء وصهيل وجولات أبطال ورمي نبال..

يا بني فكن في آخر الجيش.. فإن كان نصر انتصرت معنا.. وإن كانت هزيمة لم تكن أنت أول مقتول..

قال: فنظر إلي عجبًا وقال: أنت تقول لي ذلك..

قلت له: نعم.. أنا أقول لك ذلك..

فقال: يا عم.. هل تريدني أن أكون من أهل النار؟

فقلت له: لا.. أعوذ بالله.. والله ما جئنا إلى الجهاد إلا هربًا من النار وطلبًا للجنان..

قال: فقال لي إن الله يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ [الأنفال:١٥، ١٦].

هل تريدني أن أولهم الأدبار فيكون مأواي جهنم؟

فقال أبو قدامة: فعجبت والله من حرصه ومن تمسكه بهذه الآيات.. فقلت له: يا بني إن الآية مخرجها على غير كلامك.. فأبى علي أن يرجع.. فأخذت يده أجذبه حتى أرجعه إلى آخر الصفوف.. فجعل يجذب يده مني..

ثم بدأ القتال.. فحالت الخيل بيني وبينه.. فلما بدأ القتال جالت الأبطال ورميت النبال وجردت السيوف وتكسرت الجماجم.. وتطايرت الأيدي والأرجل.. واشتد علينا القتال حتى اشتغل كل منا بنفسه..

وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول

حتى إن السيوف والله من شدة الحر فوقنا كأنما هي تنور يشعل من فوق رؤوسنا.. إن السيوف والله لا تثبت في أيدينا.. فما زال القتال يشتد علينا.. قد انشغل كل منا عن الآخر بنفسه.. وما زال يشتد علينا ويزيد حتى زالت الشمس ودخل وقت صلاة الظهر.. ثم هزم الله تعالى الصليبين..

قال: فلما هزمهم اجتمعت مع أصحابي.. ثم صلينا الظهر.. فبدأ كل واحد من الناس يبحث في أقربائه وأحبابه.. أما الغلام فلا أحد يسأل عنه ولا ينظر في خبره..

فبينما الحال على هذا قلت: والله لأنظرن في خبره.. لعله مقتول أو جريح أو لعل بعض هؤلاء الكفار أخذه أسيرًا وذهب به معهم لما هربوا وولوا الأدبار..

فبدأت أمشي بين القتلى والجرحى.. وأتلفت بينهم أنظر..

فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوتًا يصيح من ورائي ويقول: أيها الناس.. ابعثوا إلى عمي أبي قدامة.. ابعثوا إلى عمي أبا قدامة.. فالتفت إلى مصدر الصوت.. فإذا الجسد جسد الغلام.. وإذا الرماح قد تسابقت إليه.. والخيل قد وطئت عليه.. فمزقت اللحمان وأدمت اللسان وفرقت الأعضاء وكسرت العظام وإذا هو يتيم ملقى في الصحراء.. فأقبلت والله إليه.. وانطرحت بين يديه.. ثم صرخت بأعلى صوتي وقلت: ها أنا أبو قدامة.. ها أنا أبو قدامة..

فقال: الحمد لله الذي أحياني إلى أن أوصي إليك فاسمع مني وصيتي.

قال أبو قدامة: فبكيت والله على محاسنه وجماله.. وبكيت والله رحمة بأمه المقيمة في الرقة.. التي فجعت عام أول بأبيه وأخواله.. وستفجع هذا العام به.. فأخذت طرف ثوبي أمسح الدم عن وجهه وجماله..

فلما شعر بذلك رفع بصره إلي وقال: يا عم تمسح الدم بثوبك! امسح الدم بثوبي لا بثوبك يا عمي..

قال أبو قدامة: فبكيت والله ولم أحر جوابًا.

ثم قال بصوت ضعيف: يا عم.. أقسمت عليك إذا أنا مت أن ترجع إلى الرقة.. ثم تبشر أمي بأن الله قد تقبل هديتها إليه.. وأن ولدها قد قتل في سبيل الله مقبلاً غير مدبر.. وأن الله إن كتبني في الشهداء فإني سأوصل سلامها إلى أبي وأخوالي في الجنة..

ثم قال: يا عمي إني أخاف ألا تصدق أمي كلامك فخذ معك بعض ثيابي التي فيها الدم.. فإن أمي إذا رأتها صدقت أني مقتول.. وقل لها: إن الموعد الجنة إن شاء الله تعالى..

يا عم.. إنك إذا رجعت إلى بيتنا فستجد أختًا لي صغيرة عمرها تسع سنوات.. ما دخلت المنزل إلا استبشرت وفرحت.. ولا خرجت إلا بكت وحزنت.. وقد فجعت بمقتل أبي عام أول

وفجعت بمقتلي هذا العام.. وإنها قالت لي عندما رأت على ثياب السفر.. ورأت أمي تلف الثياب علي: يا أخي.. لا تبطئ علينا وعجل الرجوع إلينا.. فإذا رأيتها فطيب صدرها بكلمات.. وقل لها: يقول لك أخوك: الله خليفتي عليك..

قال أبو قدامة: ثم تحامل الغلام على نفسه وضاق نفسه في صدره.. وضعف صوته حتى لم أعد أفهم شيئًا من كلامه..

ثم تحامل الغلام على نفسه وقال: يا عم صدقت الرؤيا والله.. صدقت الرؤيا ورب الكعبة.. والله إني لأرى المرضية الآن عند رأسي وأشم ريحها..

قال: ثم انتفض صدره.. وتصبب العرق من جبينه ثم شهق شهقات.. حتى اشتد عليه الشهاق.. قال: ثم مات الغلام بين يدي..

قال أبو قدامة: فأخذت بعض ثيابه التي فيها الدم.. وجعلتها في كيس.. ثم دفناه ولم يكن عندي هم أعظم من أن أرجع إلى الرقة وأبلغ رسالته لأمه..

قال: فرجعت إلى الرقة وأنا لا أعرف اسم أمه ولا أين مسكنهم ومأواهم..

فبينما أنا أمشي في طرقات الرقة إذ وقفت إلى منزل.. وقفت عند بابه فتاة صغيرة.. عمرها تسع سنوات تنظر في الغادين والرائحين.. ما يمر بها أحد ترى عليه أثر السفر إلا سألته وقالت: يا عمي.. من أين أقبلت؟ فيقول لها: أقبلت من الجهاد.. فتقول: أمعكم أخي؟ فيقول: ما أدري من أخوك.. ثم يمضي عنها..

قال: فمر بها آخر فقالت له: من أين أقبلت؟ قال لها: أقبلت من الجهاد.. قالت: معكم أخي؟ قال: ما أدري من أخوك.. ثم مضى.. قال: فمر بها ثالث.. فنظرت إليه فإذا عليه أثر السفر.. فقالت: يا عم.. من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من القتال.. قالت: معكم أخي؟ قال: ما أدري والله من أخوك.. ثم مضى.. فما زالت تسأل الرابع والخامس والعاشر.. ثم لما لم تسمع منهم جوابًا بكت وخفضت رأسها.. وقالت: ما لي أرى الناس يرجعون وأخي لا يرجع؟ فلما رأيت حالها كذلك أقبلت إليها.. فلما رأت على أثر السفر وبيدي الكيس قالت لي: يا عم.. من أين أقبلت؟

قلت لها: أقبلت من الجهاد..

قالت: معكم أخي؟

قلت: أين أمك؟ قالت: أمي بالداخل.. قلت: قولي لها تخرج إلي..

قال: فلما خرجت إلي العجوز فإذا هي متلفعة بجلبابها.. فلما سمعت صوتها وسمعت صوتي..

قالت لي: يا أبا قدامة.. أقبلت معزيًا أم مبشرًا؟

قال: فقلت لها: رحمك الله بيني لي ما معنى العزاء وما معنى البشارة؟

قالت: إن كنت قد أقبلت تخبرني أن ولدي قد قتل في سبيل الله مقبلاً غير مدبر فأنت والله مبشر.. إذ تقبل الله هديتي إليه التي أعددتها منذ سبع عشرة سنة..

وإن كنت قد أقبلت تخبرني أن ولدي رجع سالمًا معه الغنيمة فأنت والله معزٍّ.. إذ لم يتقبل الله هديتي إليه..

قال أبو قدامة: فقلت لها: بل أنا والله مبشر..

إن ولدك قد قتل في سبيل الله مقبلاً غير مدبر.. وقد وطئت عليه الخيل وقد أخذ الله من دمه حتى رضي.. فقالت: ما أظنك صادقًا.. قال: وهي تنظر إلى الكيس والطفلة تنظر إلينا.. قال: ففتحت الكيس ثم أخرجت الثياب إليها.. يتساقط منها الدم ويتساقط منها لحم وجهه وشعره.. قال: فقلت لها: أليست هذه ثيابه؟ أليست هذه عمامته؟ أليس هذا قميصه الذي ألبستيه إياه بيدك؟

قال: فلما رأت ذلك العجوز قالت: الله أكبر.. وفرحت..

أما الصغيرة فقد شهقت ثم وقعت على الأرض..

قال: فلما وقعت على الأرض.. ما زالت والله تشهق.. ففزعت أمها ودخلت إلى البيت وأحضرت ماء ترشه عليها.. أما أنا فجلست عند رأسها أسكب الماء وأقرأ عليها القرآن..

فوالله ما زالت تشهق وتنادي باسم أخيها وأبيها.. وأمها عند رأسها تبكي..

فما زالت والله تشهق.. وما غادرتها إلا ميتة..

قال: فلما ماتت أمسكت أمها بيدها.. ثم جرتها إلى داخل البيت.. ثم أغلقت الباب في

وجهي.. ثم سمعتها تقول: اللهم إني قد قدمت زوجي وإخواني وولدي في سبيلك.. اللهم فلعلك أن ترضى عني.. وأن تجمعني بهم في جنتك..

قال أبو قدامة: فأخذت أطرق الباب.. لعلها تفتح الباب.. أعطيها شيئًا من المال.. أو لأحدث الناس بخبرها حتى يرتفع شأنها بينهم.. والله ما فتحت لي ولا ردت إلي جوابًا.. قال: فوالله ما رأيت أعجب منها..

هذه المرأة قدمت كل ذلك في سبيل الله.. في سبيل أن تدخل تلك الدار التي اشتد شوقها إليها.. وقدم ولدها نفسه رخيصة لله وتناسى لذاته وشبابه.. فليت شعري ماذا قدم للجنة المفرطون أمثالنا؟!

رحم الله فتى هذب الدين شبابه
ومضى يجري إلى العلياء في عزم ركابه
مخبتًا لله صير الزاد كتابه
واردًا من منهل الهادي ومن نبع الصحابة
إن طلبت الجود منه فهو دومًا كالسحابة
أو نشدت العزم فيه فهو ضرغام بغابة
جاذبته النفس للشر فلم يبد استجابة
متق لله تعلو من يلاقيه المهابة
رق منه القلب لكن زاد في الدين صلابة
بلسم للأرض يمحو عن محياها الكآبة
ثابت الخطو فلم تطفي الأعاصير شهابه
جربته صولة الدهر فألفته ذا نجابة
إن يقم يومًا خطيبًا يسمع الصم خطابه
أو يسر في الدرب يومًا أبصر الأعمى جنابه
مسلم يكفيه فخرًا أن للدين انتسابه

المشتاقون إلى الجنة.. لهم مع ربهم تعالى أخبار وأسرار.. ارتفع قدرها عندهم.. حتى لم

يرضوا لها مثلاً ولا ثمنًا إلا أرواحهم التي بين جنوبهم.. ولماذا لا يبذلون للجنة ذلك وأكثر وهي الدار التي أخبر النبي ﷺ بأقل أهلها نعيمًا.. وأدناهم ملكًا فكان له في ذلك نبأ عجيب..

آخر من يدخل الجنة

ففي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن مسعود والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى سأل ربه فقال: يا ربي ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ فأخبره الله تعالى بخبره، وهو آخر من يدخل الجنة، وهو رجل يمشي على الصراط فيكبو مرة.. وتسفعه النار مرة.. فإذا جاوز النار التفت إليها ثم قال: تبارك الذي نجاني منك.. لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين.. فيجلس على شفير جهنم ولكنه قد نجا من النار.. فيرى أنه لا أحد من الناس يكون جزاؤه أعظم من الجزاء الذي أعطي إياه.. إذ قد نجا من النار.. فبينما هو على ذلك إذ ارتفعت له شجرة.. فلما رآها قال: يا رب أدنني من هذه الشجرة.. أستظل بظلها وأشرب من مائها..

فيقول الله تبارك وتعالى: يابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا يا رب.. ثم يعاهد ربه أن لا يسأله غير تلك الشجرة أبدًا.. وربه تعالى يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه.. فيأذن الله تعالى له فيدنو من تلك الشجرة.. يستظل بظلها ويشرب من مائها.. فبينما هو على ذلك إذ رفعت له شجرة أحسن من الشجرة الأولى.. فيقول: يا رب أدنني من تلك الشجرة الثانية لأشرب من مائها واستظل بظلها.. وعزتك وجلالك لا أسألك غيرها أبدًا..

فيقول الله تعالى: يا ابن آدم ألم تكن عاهدتني ألا تسألني غير تلك الشجرة؟ فيقول: يا رب.. وعزتك وجلالك لا أسألك غيرها أبدًا.. فيأذن الله تعالى له إذ إنه يعذره لأنه يرى شيئًا لا صبر له عليه، فيأذن الله تعالى له فيدنو من الشجرة الثانية.. يستظل بظلها ويشرب من مائها.. فبينما هو على ذلك إذ رفعت له شجرة ثالثة عند باب الجنة.. هي أحسن من الشجرتين الأوليين.. فيتصبر فلا يصبر.. فيقول: يا رب.. أدنني من تلك الشجرة الثالثة لأستظل بظلها وأشرب من مائها.. وعزتك وجلالك لا أسألك شيئًا غيرها أبدًا..

فيقول الله تعالى: يابن آدم ما أغدرك ألم تكن عاهدت أن لا تسألني غيرها؟.. فيقول: بلى يا رب.. هذه ولا أسألك غيرها أبدًا.. وربه جل جلاله يعذره.. فإذا أدناه الله تعالى من تلك الشجرة وجلس عند باب الجنة.. سمع أصوات أهل الجنة وما هم فيه من النعيم والحبور والسرور.. فيسكت ما شاء الله له أن يسكت.. لكنه لا يصبر على ذلك..

فيقول: يا رب.. يا رب.. أدخلني إلى الجنة..

فيقول الله تعالى له.. وهو الذي عنده خزائن السموات والأرض: يا عبدي أدخل إلى الجنة.. فإذا دخلها خيل إليه أنها ملأى.. خيل إليه وظن أن الجنة ممتلئة بهؤلاء الأقوام الذين سبقوه إليها.. وأن القصور قد نزلت وأن الحور العين قد تزوجت.. فيقول: يا رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم..

فيقول الله تعالى: يابن آدم ما يرضيك مني؟!

أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ ـ هذا العبد يسمع مثل ذلك.. مثل ملك من ملوك الدنيا..

فيقول: رضيت رب.. فيقول الله تعالى له: ذلك لك ومثله.. ومثله.. ومثله.. ومثله.. ومثله..

خمسة أضعاف.. فيقول الخامسة: رضيت رب..

رضيت رب.. فيقول الله تعالى: هذا لك وعشرة أمثاله.. ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك.. ثم يقول الله تعالى له: تمن يا عبدي.. تمنى ماذا تريد.. فيتمنى.. يقول: يا رب أريد كذا وكذا.. فيقول الله: ذلك لك.. يقول: وأريد كذا.. ويقول: ذلك لك.. يقول: وأريد كذا.. ويقول: ذلك لك..

فإذا انقطعت به الأماني.. قال الله تعالى له: أفلا تريد كذا؟

انظر إلى رحمة أرحم الراحمين.. يذكره بهذه النعم..

يقول: أفلا تريد كذا؟ يقول: بلى يا رب.. يقول: هو لك.. يقول الله: أفلا تريد كذا؟ سل مني كذا.. ثم يعطيه الله تعالى كل ذلك حتى تنقطع الأماني عنه.. ثم يأذن الله تعالى له أن يدخل إلى قصوره وبيوته.. فإذا دخل إلى قصره دخلت عليه زوجتاه من الحور العين.. فتقولان له: الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك.. فينظر في نعيمه ثم يقول: والله ما

أعطى أحد من النعيم مثل ما أعطيته أنا..

هذا أدنى أهل الجنة منزلة.. فلما سمع موسى هذا.. وهو الذي سأل ربه عن أدناهم منزلة قال: رب فما أعلاهم منزلة؟

فقال تعالى: أولئك يا موسى الذين غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر. فسبحان الله العظيم»..

الـــذي غرســت يـــداه جنــة الفـــر — دوس عنـــد تكامـــل البنيـــان
ويـــداه أيضـــا أتقنـــت لبنائهـــا — فتبـــارك الـــرحمن أعظـــم بـــان
لمـــا قضـــى رب العبـــاد العـــر — ش قـــال تكلمـــي فتكلمـت ببيـــان
قـــد أفلـــح العبــد الـــذي هـــو مـــؤمن — مـــاذا ادخـــرت لـــه مـــن الإحســـان
فيهـــا الـــذي والله لا عـــين رأت — كـــلا ولا سمعـــت بـــه الأذنـــان
كـــلا ولا قلـــب بـــه خطـــر المثـــال — لـــه تعـــالى الله ذو الســـلطان
هـــي جنـــة طابـــت وطـــاب نعيمهـــا — فنعيمهـــا بـــاق ولـــيس بفـــان
دار الســـلام وجنـــة المـــأوى — ومنـــزل عســـكر الإيمـــان والقـــرآن
أمشـــاطهم ذهـــب ورشـــحهم — فمســـك خـــالص يـــا ذلـــة الحرمـــان
هـــذا وســـنهم ثـــلاث مـــع ثـــلا — ثـــين الـــتي هـــي قـــوة الشـــبان
وبناؤهـــا اللبنـــات مـــن ذهـــب — وأخـــرى فضـــة نوعـــان مختلفـــان
وقصـــورها مـــن لؤلـــؤ وزبرجـــد — أو فضـــة أو خـــالص العقيـــان
وكـــذاك مـــن در ويـــاقوت بـــه — نظـــم البنـــاء بغايـــة الإتقـــان
والطـــين مســـك خـــالص أو زعـــ — فـــران جابـــذا أثـــران مقبـــولان
حصـــباؤها در ويـــاقوت كـــذا — ك لآلـــئ نثـــرت كنثـــر جمـــان
وترابهـــا مـــن زعفـــران أو مـــن الـــ — مســـك الـــذي مـــا استل مـــن غـــزلان
أنهارهـــا في غـــير أخـــدود جـــرت — ســـبحان ممســـكها عـــن الفيضـــان
مـــن تحـــتهم تجـــري كمـــا شـــاءوا — مفجـــرة ومـــا للنهـــر مـــن نقصـــان
عســـل مصـــفى ثـــم مـــاء ثـــم خمـــر — ثـــم أنهـــار مـــن الألبـــان
ســـبحان ذي الجـــبروت والملكـــوت — والإجـــلال والإكـــرام والســـبحان

والله أكبر عالم الإسرار والإعـ ـلان واللحظات بالأجفان
والحمد لله السميع لسائر الأصـ ـوات من سر ومن إعلان
وهو الموحد والمسبح والممـ ـجد والحميد ومنزل القرآن
والأمر من قبل ومن بعد له سبحانك اللهم ذا السلطان

المشتاقون إلى الجنة.. لهم مع ربهم تعالى أخبار وأسرار.. بل كانوا إذا حصلوا الجنة لم يلتفتوا إلى غيرها أبدًا..

حارثة بن سراقة..

غلام من الأنصار.. له حادثة عجب ذكرها أصحاب السير وأصلها في «صحيح البخاري» وذلك أن النبي ﷺ دعا الناس للخروج إلى بدر.. فلما دعاهم إلى ذلك جاء حارثة رضي الله عنه إلى أمه.. وكانت عجوزًا قد كبر سنها.. تحبه كأشد ما تحب الأمهات أبناءها.. تخاف عليه من نسيم الريح إذا مر به.. تخاف عليه من حر الشمس لو وقف فيها ولو شيئًا يسيرًا.. فلما مثل بين يديها.. لو طلب روحها التي بين جنبيها لأعطته إياها.. فلما وقف بين يديها ترجو منه أن يتزوج لترى أولاده.. قال لها: يا أماه.. قالت: ما تريد يا بني؟ قال: يا أماه.. إن رسول الله ﷺ قد دعا الناس للخروج إلى القتال.. وإني خارج معهم.. فقالت: يا بني.. والله إني ليشتد علي فراقك.. يا بني فكن عندي ولا تذهب..

فما زال بها يرجوها.. يقبل رأسها.. يقبل يديها ورجليها حتى أذنت له بذلك.. قالت: يا بني اذهب.. فوالله ما أظنني أذوق غمضًا ولا أتلذذ بطعام ولا شراب حتى ترجع إلي.. ثم ألبسته ثيابه بيدها وشدت عليه سلاحه وقبلت جبينه ثم مضى من بين يديها.. فلما وصل المسلمون إلى بدر عسكروا إلى بئر بدر.. فلما عسكروا بدأت فلول الكفار يحضر أولهم ثم اجتمعوا حتى حضر آخرهم.. ثم كاد أن يبدأ القتال.. فلما تصاف الجيشان عمد حارثة رضي الله عنه إلى بئر بدر وقد أصابه عطش.. فأراد أن يشرب ماء.. فلما وضع يديه في البئر وأخرج ماء يبل به هذا العطش.. فإذا بصحابي كان يحرس عند هذا البئر.. رجل مسلم من بني النجار.. يحرس عند البئر خوفًا من أن يأتي أحد من الكفار فيؤذي المسلمين أو يضع شيئًا يضرهم في البئر.. فلما رأى حارثة مقبلاً إلى البئر ظنه واحدًا من الكفار.. فقال: أعوذ

الله.. هذا الكافر يريد أن يفسد علينا البئر.. فأخذ سهمًا ثم وضعه في كبد القوس أطلقه بقوة على حارثة.. فوقع في نحره.. فلما وقع في نحره صاح حارثة من حر ما وجد.. ثم وقع على الأرض فصاح بالناس: أغيثوني.. ولا يكاد يستطيع الكلام.. فلم يغثه أحد إذ قد ضجوا من الكفار.. ثم حاول أن يخرج هذا السهم فإذا بجسده يتقطع مع السهم.. ثم سبح في دمائه.. ولا زال يخور حتى مات.. فلما مات أقبل إليه ذلك الحارس ينظر إلى خبره.. فإذا هو حارثة بن سراقة.. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله.. وأخبر النبي ﷺ فعفا عنه..

ثم لما رجعوا إلى المدينة أقبلت جموع المسلمين إلى المدينة.. كان النساء والأطفال والعجائز ينتظرون عند مدخل المدينة.. في حر هذه الشمس وحر هذه الرمضاء.. النساء تنتظر أزواجها.. والأطفال ينتظرون آباءهم.. والعجائز تنتظر أولادها.. وكان من بين هؤلاء الجموع التي تنتظر أحبابها وأهليها عجوز ثكلى.. كبدها حرى تنتظر مقدم ولدها..

فلما دخل المسلمون المدينة بدأ الأطفال يتسابقون إلى آبائهم.. والنساء تسرع إلى أزواجها. والعجائز تسرع إلى أولادهن.. وأم حارثة تنتظر إقبال ولدها.. أقبلت الجموع تتابع.. جاء الأول ثم الثاني والثالث والعاشر والمائة والمائتان.. ولم يحضر حارثة بن سراقة.. وأم حارثة تنظر وتنتظر تحت حر هذه الشمس ترقب إقبال فلذة كبدها.. وثمرة فؤادها.. كانت تعد في غيابه الأيام عدًا بل تعد والله الساعات.. وتتلمس عنه الأخبار.. تصبح وتمسي وذكره على لسانها..

تسائل عنه كل غاد وراح	وتومئ إلى أصحابه وتسلم
فلله كم من عبرة مهراقة	وأخرى على آثارها لا تقدم
وقد شرقت عين العجوز بدمعها	فتنظر من بين الجموع وتكتم
وكانت إذا ما شدها الشوق والجوى	وكادت عرى الصبر الجميل تفصم
تذكر نفسًا بالتلاقي وقربه	وتوهمها لكنها لا تتوهم
وكم يصبر المشتاق عمن يحبه	وفي قلبه نار الأسى تتضرم

كان الأسى يتضرم في قلبها.. ترقبت العجوز ولدها.. فلم تره بين هذه الجموع.. فأمسكت واحدًا من الصحابة القادمين ثم قالت له: أتعرف حارثة بن سراقة؟

قال لها: نعم.. ما تكونين له؟ قالت: أنا أمه.. أنا أم حارثة.. قال: أنت أم حارثة؟ قالت: نعم.. قال: احتسبي ولدك.. لقد قتل.. فلما سمعت: قتل.. تذكرت الجنة وما أعد للشهداء فيها.. قالت: الله أكبر.. شهيد يشفع لي بالجنة.. فقال لها: شهيد! ما أظنه شهيدًا.. قالت: لم؟ ما قتله الكفار؟ قال: لا.. قالت: ما قتل وهو يقاتل بين المسلمين والكفار؟ قال: لا.. قالت: ما قتل وهو يرفع راية الإسلام ويزود عن حماه؟! قال لها: لا.. قالت: كيف قتل؟ أين ولدي حارثة؟ قال: إن ولدك حارثة قد قتل قبل أن تبدأ المعركة أصلاً.. والذي قتله رجل من المسلمين.. إن ولدك حارثة لم يحضر شيئًا من القتال..

قالت: ماذا تعني؟ ليس شهيدًا؟! قال: ما أظنه شهيدًا لكن لعل الله أن يدخله إلى الجنة.. فلما سمعت العجوز ذلك قالت له: فأين رسول الله ﷺ؟ قال: هو ذاك مقبل.. فتحركت الأم الثكلى تجر خطاها إلى النبيﷺ ودموعها تجري على خديها.. وليس الذي يجري من العين.. ماؤها ولكنها نفس تسيل فتقطر.. ثم لما وقفت بين يدي النبيﷺ نظر إليهاﷺ .. إلى هذه العجوز الثكلى التي لم تجد مآلاً ولا أحدًا يتكلم معها أو يصبرها على مصيبتها.. فنظر إليها.. قال: «من؟»، قالت: أنا أم حارثة.. قال: «ما تريدين يا أم حارثة؟».

قالت: يا رسول الله.. قد علمت بحبي لحارثة وعلم الناس جميعًا بحبي لحارثة.. يا رسول الله قد بلغني أن حارثة قد قتل.. يا رسول الله أخبرني أين حارثة الساعة؟ الآن أخبرني أين ولدي؟

إن كان في الجنة صبرت.. وإن كانت الأخرى فليرين الله تعالى ما أصنع.. تعني من النياحة والبكاء ولم تكن حرمت بعد.. نظر إليها رسول اللهﷺ قال: «ما قلت يا أم حارثة؟». قالت: هو ما سمعت يا رسول الله.. إن كان في الجنة صبرت.. وإن كان الأخرى فليرين الله تعالى ما أصنع..

فنظر الرحيم الشفيق إليها.. فإذا هي عجوز قد هدها الهرم والكبر.. وأضناها التعب وقل الصبر.. قد طال شوقها إلى ولدها.. تتمنى لو أنه بين يديها تضمه ضمة.. وتشمه شمة قبل أن يأتيها موتها ولو كلفها ذلك حياتها.. اضطربت القدمان.. وانعقد اللسان.. وجرت الدموع العينان.. كبر سنها ورق عظمها.. واحدودب ظهرها.. ويبس جلدها.. واحتبس صوتها

في حلقها.. وقد رفعت بصرها تنتظر ماذا يجيبها الذي لا ينطق عن الهوى..

فلما رأى النبي ﷺ ذلها وانكسارها وفجيعتها بولدها.. التفت إليها ثم قال: «ما قلت؟» قالت: هو ما سمعت.

قال: «ويحك يا أم حارثة أهبلت؟! أو جنة واحدة.. إنها جنان.. وإن حارثة قد أصاب الفردوس الأعلى»..

الفردوس الأعلى سقفه عرش الرحمن.. كان جنة فوقه جنة.. الفردوس الأعلى سقفه عرش الرحمن جل جلاله.. فلما سمعت العجوز الحرى هذا الجواب جف دمعها وعاد صوابها.. وقالت: يا رسول الله.. في الجنة؟ قال: «نعم».. فقالت: الله أكبر.

ثم رجعت الأم الجريحة إلى بيتها.. رجعت تنتظر أن ينزل بها هادم اللذات.. ليجمعها مع ولدها في الجنة..

لم تطلب غنيمة ولا مالاً.. ولم تلتمس شهرة ولا حالاً.. وإنما رضيت بالجنة.. ما دام أنه في الجنة يأكل من ثمارها الطاهرة.. تحت أشجارها الوافرة.. مع قوم وجوههم ناضرة.. وعيونهم إلى ربهم ناظرة.. فهي راضية.. ولماذا لا يكون جزاؤهم كذلك.. وهم طالما يبست بالصيام حناجرهم.. وغرقت بالدموع محاجرهم.. طالما غضوا أبصارهم عن الحرام.. واشتغلوا بخدمة العزيز العلام.. فهم في روضة ربهم وفي جنات ربهم يتنعمون ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾ [الواقعة: ١٥ - ٢٦]..

وأينما سرت في ركب الصالحين لتجدن طلب الجنة يملأ قلوبهم ويشغل نفوسهم.. قد تعلقت بها أرواحهم حتى لم تقم لغيرها وزن.. هان عليهم كل شيء في سبيل الوصول إليها..

أبو الدحداح ثابت بن الدحداح رضي الله عنه ..

كان له نبأ عجيب.. روى البخاري ومسلم أن غلامًا يتيمًا من الأنصار كان له بستان ملاصق لبستان رجل منذ سنين..

فأراد الغلام يومًا أن يبني جدارًا يفصل بستانه عن بستان صاحبه.. فلما بدأ يبني هذا الجدار اعترضته نخلة في طريق هذا الجدار.. فذهب إلى صاحبه وقال: يا أخي أنت عندك نخل كثير في بستانك.. فلا يضرك أن تعطيني هذه النخلة التي اعترضت جداري إذ هي من نصيبك.. لو كانت من نصيبي لأقمت الجدار وأدخلته فيه.. لكن المشكلة أنها من نصيبك ولا يستقيم الجدار حتى أدخلها في نصيبي.. فقال صاحبه: لا والله.. لا أعطيك النخلة..

قال: يا أخي ما يضرك.. أعطني النخلة أو بعني إياها..

قال: لا والله ما أفعل شيئًا من ذلك.. قال: يعني ما أقيم جداري؟ قال: ذلك أمر إليك وليس إلي..

فذهب هذا اليتيم إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله.. إن بستاني بجانب بستان فلان.. وإنني أردت أن أبني جدارًا في وسط البستان فاعترضتني نخلة.. لا يستقيم الجدار إلا إذا أدخلتها في نصيبي.. لكنها يا رسول الله من نصيب صاحبي.. وقد سألته أن يعطيني إياها فأبى علي يا رسول الله.. يا رسول الله فاشفع لي عنده أن يعطيني النخلة..

فقال ﷺ: «ادعه إلي».. ذهب هذا اليتيم إلى صاحبه فقال: إن رسول الله ﷺ يدعوك.. فلما جاء حتى مثل بين يدي النبي ﷺ التفت إليه ﷺ وقال: «قد كان بستانك بجانب بستان صاحبك وأراد هذا اليتيم أن يبني يفصل بينه وبين بستانك.. فاعترضته نخلة هي من نصيبك»..

قال: نعم..

قال: «فأعطى هذه النخلة لأخيك».. قال: لا..

قال: «أعطى النخلة لأخيك».. قال: لا..

قال: «أعطى النخلة لأخيك».. قال: لا..

فقال ﷺ: «أعطه النخلة ولك بها نخلة في الجنة»..

قال: لا..

سكت النبي ﷺ.. ماذا يقول النبي أكثر من ذلك..

كان من بين الصحابة الحاضرين أبو الدحداح رضي الله عنه .. فلما رأى هذا العرض.. نخلة في

الدنيا تموت اليوم أو غدًا بنخلة في الجنة.. ونخل الجنة منها (طوبى).. يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها.. لما سمع أبو الدحداح ذلك لم يصبر على ما يسمع.. قام ثم قال: يا رسول الله.. أرأيت إن اشتريت نخلته هذه ثم أعطيتها لفلان أيكون عندي نخلة في الجنة؟ فقال ﷺ: «نعم.. يكون عندك نخلة في الجنة»..

أبو الدحداح بدأ يفكر.. ماذا عنده من الأموال يستطيع أن يغري بها صاحب النخلة.. ليستخرجها منه إلى ملكه ثم يعطيها إلى ذلك اليتيم.. بدأ يفكر.. فتذكر أن له بستانًا يتمناه أكثر نجار أهل المدينة.. بستان فيه ستمائة نخلة وبئر وبيت.. فقال أبو الدحداح: يا فلان.. يا صاحب النخلة.. قال: ما تريد؟ قال: أتعرف بستاني الذي في المكان الفلاني؟ قال: نعم أعرفه.. وهل يجهله أحد.. بستان فيه تمر طيب.. وهل يجهله أحد.. قال: يا فلان.. خذ بستاني كله وأعطني هذه النخلة!

خذ البستان كله.. بما فيه من شجر وبئر وبيت وغير ذلك وأعطني هذه النخلة.. ذاك الرجل نظر إلى أبي الدحداح.. ثم التفت إلى الناس فإذا هم يشهدون على هذا البيع.. فقال: نعم أخذت البستان وأعطيتك النخلة..

فالتفت أبو الدحداح رضي الله عنه إلى اليتيم ثم قال: يا فلان النخلة مني إليك.. خذها واذهب.. فأخذها.. ثم التفت أبو الدحداح إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله.. الآن أصبح عندي نخلة في الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: «كم من عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة».. كم من عذق رداح مليء بالثمر.. لأبي الدحداح في الجنة..

يقول: إن راوي الحديث ما قالها مرة ولا مرتين ولا ثلاثة.. ما زال ﷺ يكررها: «كم من عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة» حتى خرج أبو الدحداح.. أبو الدحداح.. بعدما تم البيع.. ذهب إلى بستانه يخرج بعض أغراضه منه.. من باع شيئًا يكون له شيئ من اللباس أو الآنية أو شيء من ذلك.. فلما حرك باب البستان ليدخل فإذا بصوت زوجته وأولاده يلعبون داخل البستان.. أراد أن يفتح الباب ليدخل.. ما تحملت نفسه ذلك.. يدخل إليهم ويقول: اخرجوا ما عندنا بستان.. هذا البستان الذي نجمع من الأموال سنين عديدة حتى نشريه أو حتى نقيمه ويبقى لأولادنا من بعدنا.. الآن ذهب عنا بطرفة عين..

ما تحمل أن يخرج أولاده من هذه السعة إلى هذا الضيق.. حرك الباب.. ما استطاع أن يدخل.. فصاح بأعلى صوته وهو في خارج البستان قال: يا أم الدحداح.. أم الدحداح داخل البستان تعجب.. ما دخل أبو الدحداح اليوم! هذا بستانه.. العادة أنه يدخل مباشرة.. قالت: لبيك يا أبا الدحداح.. قال: اخرجي من البستان.. قالت: أخرج من البستان؟ قال: نعم لقد بعته.. قالت: بعته.. بعت البستان يا أبا الدحداح.. بعته لمن؟! قال: بعته لربي بنخلة في الجنة.. قالت: الله أكبر.. ربح البيع يا أبا الدحداح.. ربح البيع يا أبا الدحاح.. ما تدخل.. ثم أخذت أطفالها تخرجهم..

فلما وصلوا إلى باب البستان أوقفته.. ثم فتشت جيوبهم.. فمن كان معه شيء من التمر أخرجته ثم وضعته في البستان.. قالت: هذا ليس لنا.. هذا لله رب العالمين.. أحد أطفاله الصغار جائع.. أخذ تمرة ووضعها في فيه يأكلها وهو خارج.. فأوقفته ثم فتحت فمه وأخرجت هذه التمرة ووضعتها..

قالت: هذه ليست لنا.. هذه لرب العالمين.. ثم خرجوا من البستان..

نعم خرجت أم الدحداح وخرج أبو الدحداح.. تركوا البستان والأشجار.. فارقوا الظلال والثمار.. نقلوا عيش دنياهم من الحدائق إلى المضائق..

تركوا الشهوات.. واشتغلوا بالقربات.. عطشوا في دنياهم وجاعوا.. وذلوا لربهم وأطاعوا.. فارقوا في طلب رضاه كل شيء وباعوا.. فعل ذلك أبو الدحداح حتى يكون هو وزوجته مع أولادهما في ظلال على الأرائك يتكئون: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس:٥٥ ـ ٥٨].

ولا يزالون في مزيد فهو سبحانه البر الرءوف الرحيم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ

عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ١٧ - ٢٨].

المشتاقون إلى الجنة.. لهم مع ربهم أخبار وأسرار.. لم يكتفوا بقيام الليل وصيام النهار.. والعفة عن النظر إلى المحرمات.. والاشتغال بالطاعات.. بل نظروا إلى أعز ما يملكون.. إلى أنفسهم التي بها قوام حياتهم.. ثم قدموها في سبيل أن يرضى عنهم العزيز الحكيم.. كل ذلك تجد أنهم قدموه في سبيل الله..

عمير بن الحمام..

في معركة بدر.. اشتد البلاء على المسلمين.. إذ خرج المسلمون.. لا لأجل القتال وإنما خرجوا لأخذ قافلة لقريش كانت قادمة من الشام.. ففوجئوا أن القافلة قد فاتتهم.. وأن قريشًا قد جاءت بجيش عظيم من مكة كثير العدد والعدة لحربهم.. ففاجئوا المسلمين بذلك.. فلما رأى رسول الله ﷺ ضعف أصحابه وقلة عددهم وضعف عتادهم.. صف قدميه بين يدي الله ﷻ.. ثم استغاث بربه جل جلاله.. وأنزل به ضره ومسكنته.. فما زال يدعو الله تعالى حتى جاء النصر وبشره ربه بالظفر.. فخرج ﷺ إلى أصحابه.. خرج إليهم ثم تأمل في حالهم.. فإذا هم قد لبسوا للحرب لأمتها.. واصطفوا للموت كأنما هم في صلاة.. تركوا في المدينة أولادهم.. وهجروا بيوتهم وأموالهم.. شعثًا رءوسهم.. غبرًا أقدامهم.. ضعيفة عدتهم وعتادهم..

فلما رأى النبي ﷺ ذلك.. وقف بين أصحابه بحيث يرونه جميعًا.. ثم صاح بهم وقال: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض.. والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»..

فلما سمع الصحابة كلمة الجنة رنت في آذانهم.. فقام عمير بن الحمام فقال: يا رسول الله.. الجنة؟

قال: «نعم»..

قال: ما بين وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟

قال: «نعم»..

قال: الله أكبر.. ثم أخرج تمرات من جيبه.. هي غداؤه وفطوره وعشاؤه ما يملك غيرها.. يملأ بها جوفه.. أخرج سبع تمرات ثم أكل الأولى يتقوى بها على القتال.. ثم مضغها بسرعة وألقى النواة من فيه.. ثم أكل الثانية والثالثة..

ثم نظر فإذا بأربع تمرات في يده فقال: إنها لحياة طويلة إن عشت حتى أكل هذه التمرات..

ثم ألقاها من يده وأخرج سيفه من غمده.. ثم كسر غمد سيفه.. ثم ألقى بنفسه بين الكفار.. فما زال يدافع عن دين الله ﷻ والجنة تلوح أمامه.. يشم ريحها وريحانها حتى خر صريعًا مجندلاً.. نعم خر صريعًا مجندلاً..

رحل عمير بن الحمام.. رحل من دار الأشرار ونزل في جوار الملك الجبار.. انتفع بما قدم من أعمال.. ومن صيام النهار.. رفعه بكاء الأسحار وسكن في جنات تجري من تحتها الأنهار.. برحمة العزيز الحكيم.. الذي أجزل لهم الثواب.. وسماهم الأحباب وأمنهم من العذاب.. الملائكة يدخلون عليهم من كل باب.. لهم فيها ما تشتهي أنفسهم.. ولا يزالون في مزيد.. ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣٨].

المشتاقون إلى الجنة.. لهم مع ربهم تعالى أخبار وأسرار.. كلما زاد ربهم في بلائهم وامتحانهم ازدادوا صبرًا واحتسابًا.. فهو سبحانه أكبر المنعمين.. لا يقبل أن يعامله عباده بالمجان بل يعظم لهم الأجور ويكفر عنهم السيئات.. وما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر عنه من خطاياه..

امرأة من أهل الجنة

استمع إلى هذا الخبر العجيب.. روى البخاري في «صحيحه» عن عطاء بن أبي رباح أنه وقف يومًا مع عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما.. فمرت عجوز.. أمة سوداء.. فالتفت ابن عباس إلى عطاء ثم قال له: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟!

فتعجب عطاء.. وقال: امرأة من أهل الجنة!.. قال: نعم.. أريك امرأة من أهل الجنة.. قال: عجبًا.. من أهل الجنة وتمشي بيننا الآن؟!

قال: نعم.. امرأة إذا ماتت دخلت الجنة.. فتعجب عطاء وقال: أرني هذه المرأة.. التي علمت أنها من أهل الجنة.. وهي لا تزال تسكن بيننا وتأكل معنا وتمشي في أسواقنا وطرقنا..

فأشار عبد الله بن عباس إلى الأمة السوداء.. قال: تلك الأمة السوداء.. امرأة من أهل الجنة..

قال عطاء: وما أدراك يا بن عباس؟ فقال: تلك الأمة السوداء جاءت قبل سنين إلى النبي ﷺ وكانت تصرع.. كان فيها جن يصرعها حتى تصرع بين الناس.. ويصيبها شيء مثل الجنون..

قال: جاءت إليه ﷺ تلتمس عن طريقه الشفاء.. جاءت إليه تلتمس منه أن يغير مجرى حياتها فقد تعذبت فيها أشد العذاب.. لا أحد يتزوجها ولا يجلس معها.. الناس يخافون منها والأطفال يضحكون منها.. تصرع بين الناس في أسواقهم.. وفي بيوتهم وفي مجالسهم.. حتى استوحشوا من مخالطتها.. ملت هذه الحياة فجاءت إلى الرحيم الشفيق.. ثم صرخت بين يدي رسول الله ﷺ من حر ما تجد في حياتها.. قالت: يا رسول الله.. إني أصرع فادع الله تعالى أن يشفيني..

فأراد النبي ﷺ أن يعطي أصحابه درسًا في الصبر.. فقال لها: «إن شئت دعوت الله لك فشفاك.. وإن شئت صبرت ولك الجنة».. إن شئت دعوت الله لك فشفاك؛ لكن لا أضمن لك أن تدخلي الجنة بل تكوني مثل بقية الناس.. وإن شئت صبرت على ما أنت فيه وكنت من أهل الجنة..

فنظرت المرأة إلى رسول الله ﷺ وقالت: ما قلت؟ فأعاد عليها كلامه.. فلما انتهى ﷺ من كلامه..

نظرت المرأة وتأملت في حالها ومرضها.. ورددت كلامه ﷺ في عقلها.. فإذا هو يخيرها بين المتعة في دنيا فانية.. يمرض ساكنها.. ويجوع طاعمها.. ويبأس مسرورها.. وبين دار ليس فيها ما يشينها.. ولا يزول عزها وتمكينها.. دار قد أشرقت حلاها.. وعزت علاها.. دار جل

من بناها.. وطاب للأبرار سكناها.. وتبلغ النفوس فيها مناها..

فقالت الأمة المريضة: يا رسول الله، بل أصبر.. ثم صبرت حتى ماتت.. وليتعب جسدها ولتحزن نفسها ما دام أن الجنة جزاؤها..

أولئك الصابرون الذين اشتاقوا إلى الجنات واستبشروا بها.. فتحملوا مرضهم وكتموا أنينهم.. وسكبوا في المحراب دموعهم.. فما مضى إلا قليل حتى فرحوا بجنات النعيم.. وإذا رأى أهل العافية يوم القيامة ما يؤتيه الله تعالى من الأجور العظيمة لأهل البلاء ودوا لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض في الدنيا.. وأن أعظم البلاء قد صب عليهم في سبيل الله أن يكونوا من أهل الجنة ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ ﴾ [فاطر:٣٣، ٣٤].

أذهب عنا الشدة.. أذهب عنا المرض.. أذهب عنا الفقر.. ﴿ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴾ [فاطر:٣٤، ٣٥].

بل استمع إلى هذا الامتحان الصعب.. الذي أثبت فيه المحبون أنهم إلى ربهم مشتاقون وفي رضاه راغبون ولسان حالهم:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بين وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

في معركة أحد..

في معركة أحد كان للمحبين امتحان عظيم..

روى مسلم في «صحيحه» عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن المشركين لما ظهروا على المسلمين في معركة أحد، فر جمع من المسلمين وقتل جمع آخر.. ثم بقي النبي ﷺ مكشوفًا ليس معه إلا سبعة من الأنصار ورجل من قريش.. فجاء إليه جمع من المشركين يسوق بعضهم بعضًا.. يتدافعون لقتل رسول الله ﷺ..

قال أنس: فلما رأى النبي ﷺ المشركين مقبلين إليه التفت إلى أصحابه وقال.. وهم سبعة من الأنصار وواحد من قريش قال: «من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟».

قال: فلما سمعوا ذلك تقدم رجل من الأنصار فردهم.. وقاتلهم حتى قتل.. ثم أقبل المشركون أخرى.. فالتفت ﷺ وقال: «من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟».

ثم اندفع رجل آخر فقاتلهم حتى قتل.. ثم جاء الكفار..

فالتفت النبي ﷺ وقال: «من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة؟» قال: فقاتل الثالث ثم الرابع ثم الخامس والسادس والسابع.. كلهم قتلوا وصرعوا.. بين يدي النبي ﷺ..

فعلوا كل ذلك طمعًا في دخول الجنة.. وخوفًا من شر يوم الحسرة والندامة.. فلما رأى الله تعالى منهم ذلك وقاهم جل جلاله شر ذلك اليوم.. ولقاهم في جنة نضرة وسرورًا..

قال الله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:١٢ ـ ٢٠] وهؤلاء السبعة الذين قدموا ذلك ملوك على الأسرة في الجنة.. ومن صدق الله تعالى صدقه الله..

فهم الملوك على الأسرة فوق	هاتيك الرءوس مرصع التيجان
ولباسهم من سندس خضر ومن	استبرق نوعان معروفان
هذا وتصريف المآكل منهم	عرق يفيض لهم من الأبدان
كروائح المسك الذي ما فيه	خلط غيره من سائر الألوان
فتعود هاتيك البطون ضوامرًا	تبغي الطعام على مدى الأزمان
لا غائط فيها ولا بول ولا	مخط ولا بصق من الإنسان
ويرونه سبحانه من فوقهم	نظر العيان كما يرى القمران
أو ما سمعت منادي الإيمان	يخبر عن منادي الجنة الحيوان
يا أهلها لكم لدى الرحمن وعدًا	وهو منجزه لكم بضمان
قالوا أما بيضت أوجهنا كذا	أعمالنا أثقلت في الميزان

وكذاك قد أدخلتنا الجنات حين ... أجرتنا من مدخل الميزان

فيقول لكم عندي موعد قد آن ... أن أعطيكموه برحمتي وحناني

فيرونه من بعد كشف حجابه ... جهرًا روى ذا مسلم ببيان

والله لولا رؤية الرحمن في ... الجنات ما طابت لذي العرفان

والله ما في هذه الدنيا ألذ ... من اشتياق العبد للرحمن

المشتاقون إلى الجنة.. لهم مع ربهم أخبار وأسرار.. قد يذنبون.. لكنهم إذا لاحت لهم ذنوبهم تجافت عن المضاجع جنوبهم.. وإذا ذكر الله وجلت قلوبهم..

صفوا أقدامهم في المحراب.. وأناخوا مطاياهم على الباب.. في طلب المغفرة من الرحيم التواب.. فهم في محاريبهم أسعد من أهل اللهو في لهوهم..

فلو أبصرت عيناك موقفهم بها ... وقد بسطوا تلك الأكف ليرحموا

فلا ترى إلا خاشعًا متذللاً ... وآخر يبكي ذنبه يترنم

تراهم على المحراب تجري دموعـ ... ـهم بكيًا وهم فيها أسر وأنعم

ينادونه يا رب يا رب إننا ... عبيدك لا نبغي سواك وتعلم

وها نحن نرجو منك ما أنت أهله ... فأنت الذي تعطي الجزيل وتنعم

فما منكم بد ولا عنكم غنى ... وما لنا من صبر فنسلو عنكم

ومن شاء فليغضب سواكم فلا ... إذا كنتم عن عبدكم قد رضيتم

فلله ذاك المشهد الأكرم الذي ... كموقف يوم العرض بل ذاك أعظم

ويدنو به الجبار جل جلاله ... يباهي بهم أملاكه فهو أكرم

يقول عبادي قد أتوني محبة ... وإني بهم بر أجود وأكرم

فأشهدكم أني غفرت ذنوبهم ... وأعطيتهم ما أملوه وأنعم

حاسبوا أنفسهم أشد المحاسبة.. وصاحوا بها بألسن المعاتبة.. وبارزوا إبليس بالمحاربة.. علموا أن عدوهم الأكبر هو إبليس.. تكبر أن يسجد لأبيهم آدم.. ثم كاد له فأخرجه من الجنة.. ثم أقسم ليحتنكن ذريته إلا قليلاً.. لم يفرح إبليس منهم بمعصية.. فعجبًا لهم من أقوام.. جن عليهم الليل فسهروا.. وطالعوا صحف الذنوب فانكسروا.. وطرقوا باب المحبوب واعتذروا..

ثعلبة بن عبد الرحمن رضي الله عنه ..

واستمع إلى قصة من أعجب القصص.. أوردها أبو نعيم في «حلية الأولياء» وأشار إليها ابن حجر في «الإصابة» وابن حبان في «الثقات»..

وهي عن شاب من الصحابة.. غلام لم يتجاوز عمره ست عشرة سنة.. ثعلبة بن عبد الرحمن.. غلام كان يكثر الجلوس عند النبي ﷺ.. فكان ﷺ إذا أراد حاجة من أحد أصحابه أرسله فيها.. فدعاه النبي ﷺ يومًا ثم أرسله في حاجة من الحاجات.. فذهب ثعلبة فمر ببيت من بيوت الأنصار.. وكان باب البيت مفتوحًا.. فلما مر به ثعلبة مر ثم التفت ينظر إلى داخل البيت.. فإذا بستر يرخى على حمام.. فنظر إلى هذا الستار فأتت الريح ثم حركت الستر.. فإذا وراء الستر امرأة تغتسل.. كأنه نظر إليها نظرة أو نظرتين.. ثم قال: أعوذ بالله.. رسول الله يرسلني في حاجاته وأنا أنظر إلى عورات المسلمين.. والله لينزلن الله في آيات.. وليذكرني الله تعالى مع المنافقين.. ثم خشي أن يرجع إلى النبي ﷺ.. وخاف أن يرجع إلى منزله ثم يرسل النبي ﷺ في طلبه.. فهام على وجهه ما يدرون أين ذهب.. انتظره النبي ﷺ فما زال ينتظر.. وينتظر فلم يأتي بعد.. قال: «يا عمر يا سلمان.. أين ثعلبة بن عبد الرحمن؟» قالوا: يا رسول الله لعله عرض له حاجة فانتظره.. فما زال ﷺ ينتظر اليوم واليومين فلم يأت ثعلبة.. فقال ﷺ: «يا عمر يا سلمان.. اذهبا وابحثا عنه في المدينة».. ذهبا وبحثا ثم عادا إلى رسول الله ﷺ.. قالا: يا رسول الله.. بحثنا عنه في المدينة.. في طرقها وأسواقها وبساتينها.. في كل مكان.. فما وقفنا له على أثر.. لعله ذهب يمينًا أو لعله يأتي إليك بعد حين..

فمضت الأيام والنبي ﷺ يتلمس خبره ويتأمله.. ثم لما لم يرجع إليه بخبر عنه قال: «يا عمر يا سلمان.. يا فلان يا فلان.. اذهبوا وابحثوا عنه في الفلوات.. ابحثوا عنه في الصحراء».. فمضى الصحابة الأخيار يبحثون عنه في الفلوات.. فبينما هم يمشون ينظرون في الآثار.. إذ وقفوا على جبال بين مكة والمدينة.. وأخذوا ينظرون في الآثار التي حولها.. فإذا بأعراب يرعون غنمًا لهم في أسفل هذه الجبال.. فلما رأى أحد أولئك الأعراب الصحابة ينظرون في الآثار سألهم، وقال: عن ماذا تبحثون؟ قالوا: نبحث عن فتى من صفته كذا وكذا .

فقال ذاك الأعرابي، لعلكم تبحثون عن الفتى البكاء؟ قال عمر: والله ما ندري عن بكائه لكن ما خبر هذا الفتى؟ قال الأعرابي: إن في سطح هذا الجبل شابًا.. منذ أربعين يومًا لا نسمع إلا بكاءه وعويله واستغفاره.. قال عمر: فمتى ينزل.. وكيف السبيل إليه؟ قال: إنه ينزل إذا غربت الشمس.. فيأتي إلينا فنحلب له مزقة لبن فيشربها.. يخلطها بدمعه وبكائه.. ثم يصعد في الجبل مرة أخرى..

فاختبأ له عمر وسلمان ومن معهما من الصحابة.. اختبئوا له وراء صخرة.. فما زالوا يترقبونه.. فلما قاربت الشمس الغروب ثم غربت نزل.. فإذا هو كأنه فرخ منتوف بال من شدة البكاء.. نزل منكس الرأس كسير الفؤاد دامع العينين.. يجر خطاه على الأرض حزنًا وذلاً.. أتى حتى وقف عند أولئك الأعراب.. ولم ير الصحابة.. وقف عند الأعراب.. ثم قربوا له ذلك اللبن.. فلما قربه إلى فيه بكى ثم تجرع منه شيئًا يسيرًا.. ثم وضعه على الأرض.. ثم قام يجر خطاه يصعد في الجبل.. فخرج له عمر وبدر به سلمان.. فلما رآهما فزع وقال: ما تريدون مني؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ يطلبك.. قال: ما يريد مني؟ قالوا: ما ندري.. قال: يا قوم لعل الله أنزل في آيات؟ قالوا: ما ندري.. قال: ذكرني الله تعالى مع المنافقين؟ قالوا: ما ندري.. لكنه ﷺ يطلبك.. قال: يا قوم ارحموني واتركوني أموت في سفح هذا الجبل.. قالوا له: لا والله ما نتركك.. فما زال بهم يتمنع عنهم وما زالوا به يجذبونه حتى حملوه إلى المدينة.. وهو يبكي بين أيديهم ثم أتوا به إلى بيته وأضجعوه على فراشه.. ومضى عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. قد وجدنا ثعلبة بن أبي عبد الرحمن.. قال: «أين وجدتموه؟».. قالا: يا رسول الله وجدناه في سفح جبال بين مكة والمدينة.. قال: «أين هو؟».. قال: يا رسول الله هو ذاك في منزله.. إن شئت أن تأتيه فافعل.. فمضى النبي ﷺ حتى وصل إلى بيت ثعلبة.. حرك الباب ليدخل.. فإذا هو مطرح على فراشه كأنه جلد بال.. فلما سمع صوت رسول الله ﷺ التفت وما يكاد يستطيع.. قال: يا رسول الله.. أنزل الله في آيات؟ قال: «كلا».. قال: ذكرني الله تعالى مع المنافقين؟ قال: «كلا».. ثم جاء النبي ﷺ وتربع جالسًا بجانب ثعلبة.. ثم حمل ﷺ رأس ثعلبة ووضعه على فخذه الشريفة ﷺ.. فبكى ثعلبة وقال: يا رسول الله.. أبعد رأسًا قد امتلأ بالذنوب والمعاصي عن فخذك.. يا رسول الله أنا أقل وأحقر.. أبعد رأسي عن فخذك.. قال رسول الله ﷺ: «كلا».. فبكى ثعلبة.. قال: يا

رسول الله أنزل رأسي من على فخذك.. قال: «كلا».. فبكى ثعلبة واشتد بكاؤه.. فقال ﷺ: «يا ثعلبة ما ترجو؟».. قال: أرجو رحمة ربي.. قال: «ومم تخاف؟».. قال: أخاف من عذاب الله.. وقال: «وماذا تؤمل؟».. قال: آمل مغفرة الله تعالى.. فقال ﷺ: «إني لأرجو الله أن يعطيك ما ترجو وأن يؤمنك مما تخاف».

ثم بكى ثعلبة.. ورسول الله ﷺ يذكره ويرجيه في ربه تعالى.. ثم تحامل ثعلبة على نفسه وقال: يا رسول الله إني أشعر بدبيب كدبيب النمل يدب بين لحمي وعظمي.. قال رسول الله ﷺ: «أو تجد ذلك يا ثعلبة؟» قال: نعم..

قال: «ذاك الموت قد نزل بك»..

ثم تشهد ثعلبة ولقنه النبي ﷺ الشهادة.. فمازال يرددها بلسانه حتى انتفض جسده الضعيف.. ثم مات..

فلما مات غسله النبي ﷺ ثم كفنه وصلى عليه ثم مشى وراءه.. والصحابة يحملونه على نعشه.. يمضون به إلى قبره لدفنه.. ورسول لله ﷺ يمشي وراءه.. فكان ﷺ وهو يمشي وراء النعش يمشي على أطراف قدميه كأنما هو في زحام.. فالتفت إليه عمر وقال: يا رسول الله.. تمشي على أطراف قدميك والناس قد أوسعوا لك!

يا رسول الله ما عندك زحام.. لماذا تمشي على أطراف قدميك! فقال ﷺ: «ويحك يا عمر ويحك يا عمر.. والله لا أجد لقدمي موضعًا من كثرة ما يزاحمني عليه من الملائكة: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:١١ - ١٢]».

أيها الأحبة الكرام.. هذه هي الجنة.. وهؤلاء هم المشتاقون إليها.. الذين راغموا الشيطان.. وتقربوا إلى الرحمن..

المشتاقون إلى الجنة.. الذين أخلصوا لله تعالى توحيدهم فلم يدعوا غير الله.. ولم يتوجهوا إلى أحد ولا إلى قبر في طلب حاجة.. لم يحلفوا بغير الله تعالى.. ولم يتدنسوا بسحر ولا بشعوذة.. بل حرصوا على أن تصفو عقائدهم من شوائب الشرك والكفران.. حتى يلقوا ربهم الرحمن وهو راضٍ عنهم.

كيف يكون مشتاقًا إلى الجنة.. وكيف يرجو دخولها من يتمسح بالقبور لطلب

البركات؟ أو يذبح عند هذه القبور تقربًا إلى أهلها؟ أو يعتقد أن الأولياء والصالحين منهم من يملك له ضرًّا أو نفعًا.. فيتبرك به أو يعظمه طلبًا لهذا النفع أو دفعًا لذلك الضر؟

المشتاقون إلى الجنة.. الذين غضوا أبصارهم عن المحرمات.. الذين حفظوا نساءهم.. وأحسنوا تربية أولادهم.. علموهم الصلاة وحفظوهم القرآن.. وأخلصوا في عبادة ربهم..

المشتاقون إلى الجنة.. الذين عزموا على الرجوع إليها إذ هي منازلهم الأولى قبل أن يكيد لهم إبليس مكائده.. فإن تكن اشتقت إلى الجنة فهي قريبة..

نسأل الله جل جلاله أن يجعلنا من المتقين الأبرار.. وأن يسكننا معه في دار القرار.. اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.. هذا والله تعالى أعلم.. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد..



حدائق الموت

الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم.. مالك يوم الدين.. الحمد لله الكريم الوهاب.. الحمد لله الرحيم التواب الحمد الله الهادي إلى الصواب.. مزيل الشدائد وكاشف المصاب..

الحمد لله فارج الهم.. وكاشف الغم مجيب دعوة المضطر.. فما سأله سائل فخاب.. يسمع جهر القول وخفي الخطاب.. أخذ بنواصي جميع الدواب فسبحانه من إله عظيم لا يماثل ولا يضاهى.. ولا يرام له جناب.. هو ربنا لا إله إلا هو.. عليه توكلنا.. وإليه أنبنا.. وإليه المرجع والمتاب..

وسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء.. واستأثر باستحقاق البقاء.. وأذل أصناف الخلائق بما كتب عليهم من الفناء..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وبارك عليه وعلى آله وصحبه.. ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين أما بعد..

حدائق الموت؟ تلك القبور التي غيبت فيها أجساد تحت التراب.. تنتظر البعث والنشور وأن ينفخ في الصور.. اجتمع أهلها تحت الثرى.. ولا يعلم بحالهم إلا الذي يعلم السر وأخفى..

نعم.. إنه الموت.. أعظم تحد تحدى الله به الناس أجمعين.. الملوك والأمراء والحجاب والوزراء والشرفاء والوضعاء والأغنياء والفقراء..

كلهم عجزوا أن يثبتوا أمام هذا التحدي الإلهي: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨] أين الجنود؟ أين الملك؟ أين الجاه؟ أين الأكاسرة؟ أين القياصرة؟ أين الزعماء؟ أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا.. فكأن القوم ما كانوا.. وصار ما كان من ملك ومن ملك كما حكى عن خيال الطيف وسنان..

مرض أبو بكرة رضي الله عنه.. فلما اشتد مرضه.. عرض عليه أبناؤه أن يأتوا بطبيب فأبى..

فلما نزل به الموت.. واشتدت عليه السكرات.. صرخ بأبنائه وقال: أين طبيبكم؟.. ليردها علي إن كان صادقًا.. والله لو جاءه أطباء الدنيا.. ما ردوا روحه إليه قط.. قال الله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٨٣ ـ ٩٦].

إنه الموت.. هادم اللذات ومفرق الجماعات.. وميتم البنين والبنات..

المنايـــا تجـــوس كـــل الـــبلاد ... والمنايـــا تبيـــد كـــل العبـــاد
لتنـــالن مـــن قـــرون أراهـــا ... مثـــل مـــا نلـــن مـــن ثمـــود وعـــاد
هل تذكرت من خلا من بني الأصـ ... ـفر أهـــل القبـــاب والأطـــواد
هـل تـذكرت مـن خـلا مـن بـني سا ... ســـان أربـــاب فـــارس والســـواد
أيـــن داود أيـــن أيـــن ســـليمان ... المنيـــع الأعـــراض والأجنـــاد؟
أيـــن نمـــرود وابنـــه أيـــن قـــارون ... وهامـــــان أيـــــن ذو الأوتـــــاد
وردوا كلـــهم حيـــاض المنايـــا ... ثـــم لم يصـــدروا عـــن الإيـــراد
أتناســـيت أم نســـيت المنايـــا؟ ... أنســـيت الفـــراق لـــلأولاد؟
أنســـيت القبـــور إذ أنـــت فيهـــا ... بـــين ذل ووحشـــة وانفـــراد
أي يـــوم يـــوم الممـــات وإذ أنـــت ... تنـــادي فمـــا تجيـــب المنـــادي
أي يـــوم يـــوم الفـــراق وإذ نفـــ ... ـــسك ترقـــى عـــن الحشـــا والفـــؤاد
أي يـــوم يـــوم الفـــراق وإذ أنـــ ... ـــت مـــن النـــزاع في أشـــد الجهـــاد
أي يـــوم يـــوم الصـــراخ وإذ يلـــ ... ـــطمن حـــر الوجـــوه والأجيـــاد
باكيـــات عليـــك ينـــدبن شـــجوًا ... خافقـــات القلـــوب والأكبـــاد
يتجـــاوبن بـــالرنين ويـــذرفن ... دموعًـــا تفـــيض فـــيض المـــزاد
أي يـــوم يـــوم الوقـــوف إلى الله ... ويـــوم الحســـاب والإشـــهاد
أي يـــوم يـــوم المـــرور علـــى النـــار ... وأهوالهـــا العظـــام الشـــداد
أي يـــوم يـــوم الخـــلاص مـــن النـــار ... وهـــول العـــذاب والأصـــفاد

كم وكم في القبور من أهل ملك ... كم وكم في القبور من قواد
كم وكم من في القبور من أهل دنيا ... كم وكم في القبور من زهاد
وردوا كلهم حياض المنايا ... ثم لم يصدروا عن الإيراد

ومن تأمل في الموت علم أنه أمر كبار.. وكأس تدار.. على من أقام أو سار.. يخرج به العباد من هذه الدنيا إلى جنة أو نار.. ولو لم يكن في الموت إلا الإعدام.. وانحلال الأجسام.. ونسيان أجمل الليالي والأيام.. لكان والله لأهل اللذات مكدرًا.. ولأصحاب النعيم مغيرًا وليست المشكلة في الموت.. فالموت باب وكل الناس داخله.. لكن المشكلة الكبرى والداهية العظمى.. ما الذي يكون بعد الموت؟ أ: ﴿ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾ [القمر:٥٤، ٥٥] أم ﴿ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر:٤٧، ٤٨]..

ولأجل ذلك.. فالصالحون يشتاقون إلى لقاء ربهم ويعدون الموت جسرًا يعبرون عليه إلى الآخرة.. نعم هم يفرحون بالموت ما دام يقربهم إلى ربهم..

تزوج ابنها من الحور العين

ذكر بعض المؤرخين أن العدو أغار على ثغر من ثغور الإسلام.. فقام عبد الواحد بن زيد وكان خطيب البصرة وواعظها.. فحث الناس على البذل والجهاد ووصف لهم ما في الجنة من نعيم.. ثم وصف الحور العين.. وقال:

غادة ذات دلال ومرح ... يجد الواصف فيها ما اقترح
خلقت من كل شيء حسن ... طيب فالليت عنها مطرح
أترى خاطبها يسمعها ... إذا ندير الكأس طورا والقدح
يا حبيبا لست أهوى غيره ... بالخواتيم يتم المفتتح
لا تكونن كمن جد إلى ... منتهى حاجته ثم جمح
لا فما يخطب مثلي من سها ... إنما يخطب مثل من ألح

فاشتاق الناس إلى الجنة.. وارتفع بكاء بعضهم.. ورخصت عليهم أنفسهم في سبيل الله..

فوثبت عجوز من بين النساء.. هي أم إبراهيم البصرية.. وثبت ثم قالت: يا أبا عبيد أتعرف ابني إبراهيم! الذي يخطبه رؤساء أهل البصرة إلى بناتهم.. وأنا أبخل به عليهن..

قال: نعم..

قالت: والله قد أعجبتني هذه الجارية وقد رضيتها عروسًا لابني إبراهيم.. فكرر ما ذكرت من أوصاف.. لعله نفسه تشتاق.. فقال أبو عبيد:

إذا مـا بـدت والبـدر ليلـة تمـه	رأيت لها فضلاً مبينًا على البدر
وتبسـم عـن ثغـر نقـي كأنـه	من اللؤلؤ المكنون في صدف البحر
فلـو وطئـت منهـا علـى الحصـى	لأزهـرت الأحجار من غير ما قطر
ولو شئت عقد الخصر منها عقدته	كغصن من الريحان ذي ورق خضر
ولـو تفلـت في البحـر حلـو لعابهـا	لطـاب لأهـل البر شـرب مـن البحـر
أبـى الله إلا أن أمـوت صبـابـة	بسـاحـرة العينيـن طيبـة النشـر

فلما سمع الناس ذلك اضطربوا.. وكبروا.. وقامت أم إبراهيم.. وقالت: يا أبا عبيد.. قد والله رضيت بهذه الجارية.. زوجة لابني إبراهيم.. فهل لك أن تزوجها له في هذه الساعة؟ وتأخذ مني مهرها عشرة آلاف دينار.. لعل الله أن يرزقه الشهادة.. فيكون شفيعًا لي ولأبيه يوم القيامة..

فقال أبو عبيد.. لئن فعلت.. فأرجو والله أن تفوز فوزًا عظيمًا.. فصاحت العجوز: يا إبراهيم.. يا إبراهيم.. فوثب شاب نضر من وسط الناس.. قال: لبيك يا أماه..

فقالت: أي بني.. أرضيت بهذه الجارية زوجة لك.. ومهرها أن تبذل مهجتك في سبيل الله؟

فقال: إي والله يا أماه..

فذهبت العجوز مسرعة إلي بيتها.. ثم جاءت بعشرة آلاف دينار.. وضعتها في حجر عبد الواحد بن زيد.. ثم رفعت بصرها إلى السماء وقالت: اللهم إني أشهدك.. أني زوجت ولدي من هذه الجارية. على أن يبذل مهجته في سبيلك.. فتقبله مني يا أرحم الراحمين..

ثم قالت: يا أبا عبيد.. هذا مهر الجارية عشرة آلاف دينار.. تجهز به وجهز الغزاة في

سبيل الله.. ثم انصرفت.. واشترت لولدها فرسًا حسنًا.. وسلاحًا جيدًا.. ثم أخذت تعد الأيام لمفارقته.. وهي تودعه في كل نظرة تنظرها.. وكلمة تسمعها.. والمجاهدون يعدون العدة للخروج.. فلما حان وقت النفير خرج إبراهيم يعدو.. والمجاهدون حوله يتسابقون.. والقراء يتلون قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]..

فلما أرادت فراق ولدها.. دفعت إليه كفنًا وطيبًا يطيب به الموتى.. ثم نظرت إليه لما أرادت فراقه.. وكأنما قلبها يخرج من صدرها..

ثم قالت: يا بني إذا أردت لقاء العدو فالبس بهذا الكفن وتطيب بهذا الطيب.. وإياك أن يراك الله مقصرًا في سبيله.. ثم ضمته إلى صدرها.. وكتمت من عبرتها.. وأخذت تشمه وتودعه وتقبله..

ثم قالت: اذهب يا بني فلا جمع الله بيني وبينك إلا بين يديه يوم القيامة..

فمضى إبراهيم.. والعجوز تتبعه بصرها حتى غاب مع الجيش.. فلما بلغوا بلاد العدو وبرز الناس للقتال.. أسرع إبراهيم إلى المقدمة.. فابتدأ القتال.. ورميت النبال.. وتنافس الأبطال..

أما إبراهيم فقد جال بين العدو وصال.. وقاتل قتال الأبطال.. حتى قتل أكثر من ثلاثين من جيش العدو.. فلما رأى العدو ذلك.. أقبل عليه جمع منهم.. هذا يطعنه وهذا يضربه وهذا يدفعه.. وهو يقاوم.. ويقاتل.. حتى خارت قواه ووقع من فرسه فقتلوه.. وانتصر المسلمون وهزم الكافرون.. ثم رجع الجيش إلى البصرة.. فلما وصلوا البصرة تلقاهم الناس الرجال والعجائز والأطفال.. وأم إبراهيم بينهم.. تدور عيناها في القادمين..

فلما رأت أبا عبيد قالت: يا أبا عبيد.. هل قبل الله هديتي فأهنا؟ أم ردت علي فأعزى؟

فقال لها: بل والله قد قبل الله هديتك.. وأرجو أن يكون ابنك الآن مع الشهداء يرزق..

فصاحت قائلة: الحمد لله الذي لم يخيب فيه ظني وتقبل نسكي مني.. ثم انصرفت إلى بيتها وحدها بعدما فارقت ولدها.. يشتد شوقها.. فتأتي إلى فرشه فتشمه.. وإلى ثيابه فتقبلها.. حتى نامت فلما كان الغد.. جاءت أم إبراهيم إلى مجلس أبي عبيد وقالت: السلام

عليك يا أبا عبيد.. بشراك.. بشراك..

فقال: مازلت مبشرة بالخير يا أم إبراهيم.. ما خبرك؟

فقالت: يا أبا عبيد.. نمت البارحة فرأيت ولدي إبراهيم في المنام.. في روضة حسناء.. وعليه قبة خضراء.. وهو على سرير من اللؤلؤ.. وعلى رأسه تاج يتلألأ وإكليل يزهر.. وهو يقول: يا أماه أبشري قد قبل المهر وزفت العروس..

نعم والله.. إن ذلك لهو الفوز الكبير.. هؤلاء أقوام.. أيقنوا أنه لا مهرب من نزول الموت.. فسعوا إليه قبل أن يسعى إليهم.. أحبوا لقاء الله فأحب الله لقاءهم.. وبذلوا مهجهم رخيصة في سبيل الله تعالى.. فما الجزاء؟: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٢].

نعم والله.. ذلك الفوز الكبير.. إذا أوقفهم ربهم بين يديه.. فرحوا بما ماتوا عليه.. فيبيض وجوههم.. ويرفع درجاتهم..

بل كان الصالحون يفتنون في دينهم.. ويهددون بالموت فلا يلتفتون إليه.. نفوسهم صامدة على غاية واحدة.. هي الموت على ما يرضي الله.. فهم كما قال الله لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] نعم.. ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

لما ربط الكفار خبيب بن عدي رضي الله عنه على جذع نخله ليقتلوه لم يفزع ولم يجزع.. بل أخذ ينظر إليهم ويقول:

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي ... وما أرصد الأعداء لي عند مصرعي

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزق

ولما دخل سعد بن أبي وقاص على ملك الفرس.. صرخ في وجهه وقال:

جئتك بأقوام يحبون الموت.. كما تحبون الحياة..

بل في معركة أحد يكثر القتل بالمسلمين.. وتتسابق السهام من الكفار إلى رسول الله ﷺ. فكان أبو طلحة رضي الله عنه يرفع صدره ويقي به رسول الله ﷺ ويقول: يا رسول الله، نحري دون نحرك.. لتقع السهام في صدري دون صدرك يا رسول الله.. نعم نحري دون نحرك يا رسول الله.. ما دام أن الموت في رضا الرحمن فمرحبًا بالموت.. بل كانت المعاصي والشهوات.. والآثام والملذات.. تعرض على الصالحين.. فلا يلتفتون إليها.. فيهددون بالموت.. فيختارونه.. فربهم أعظم عندهم من كل شيء..

عبد الله بن حذافة رضي الله عنه..

ذكر ابن كثير وغيره: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث جيشًا لحرب الروم.. وكان من ضمن هذا الجيش.. شاب من الصحابة.. هو عبد الله بن حذافة.. رضي الله عنه..

وطال القتال بين المسلمين والروم.. وعجب قيصر ملك الروم من ثبات المسلمين.. وجرأتهم على الموت.. فأمر أن يحضر بين يديه أسير من المسلمين.. فجاءوا بعبد الله بن حذافة.. يجرونه.. الأغلال في يديه.. والقيود في قدميه فلما أوقفوه أمام الملك.. تحدث قيصر معه فأعجب بذكائه وفطنته..

فقال له: تنصر وأطلقك من الأسر..

فقال عبد الله: لا..

فقال قيصر: تنصر وأعطيك نصف ملكي.

فقال: لا..

فقال: تنصر وأعطيك نصف ملكي وأشركك في الحكم معي..

فقال عبد الله: والله لو أعطيتني ملكك وملك آبائك.. وملك العرب والعجم على أن أرجع على ديني طرفة عين ما فعلت..

فغضب قيصر.. وقال: أذن أقتلك..

قال: اقتلني.. فأمر قيصر به فسحب.. وعلق على خشبة.. وجاء قيصر وأمر الرماة أن

يرموا السهام حوله ولا يصيبوه... وهو في أثناء ذلك يعرض عليه النصرانية.. وهو يأبى وينتظر الموت.. فلما رأى قيصر إصراره.. أمر أن يمضوا به إلى الحبس.. ففكوا وثاقه.. ومضوا به إلى الحبس.. وأمر أن يمنعوا عنه الطعام والشراب.. فمنعوهما.. حتى إذا كاد أن يهلك من الظمأ والجوع.. أحضروا له خمرًا ولحم خنزير..

فلما رآهما عبد الله قال: والله إني لأعلم أني مضطر.. وأن ذلك يحل لي الآن في ديني.. ولكني لا أريد أن يشمت بي الكفار.. فلم يقرب الطعام.. فأخبر قيصر بذلك.. فأمر له بطعام حسن.. ثم أمر أن تدخل عليه امرأة حسناء تتعرض له بالفاحشة.. فأدخلت عليه أجمل النساء.. وجعلت تتعرض له وتتزين.. وهو معرض عنها.. وهي تتمايل أمامه وتتغنج ولا يلتفت إليها فلما رأت المرأة ذلك خرجت وهي غضبى وهي تقول: والله لقد أدخلتموني على رجل. لا أدري أهو بشر أم حجر.. وهو والله لا يدري عني أأنا أنثى أم ذكر..

فلما يئس منه قيصر.. أمر بقدر من نحاس.. ثم أغلي فيها الزيت.. ثم أوقف عبد الله بن حذافة أمامها.. وأحضروا أحد الأسرى المسلمين موثقًا بالقيود.. حتى ألقوه في هذا الزيت.. وغاب جسده في الزيت.. ومات وطفت عظامه تتقلب فوق الزيت.. وعبد الله ينظر إلى العظام.. فالتفت قيصر إلى عبد الله.. وعرض عليه النصرانية.. فأبى.. فاشتد غضب قيصر وأمر به أن يطرح في القدر فلما جروه إلى القدر.. وشعر بحرارة النار.. بكى ودمعت عيناه.. ففرح قيصر وقال: تتنصر وأعطيك وأمنحك..

قال: لا.. قال: إذًا ما الذي أبكاك؟..

فقال عبد الله: أبكي والله لأنه ليس لي إلا نفس واحدة تلقى في هذه القدر.. فتموت ولقد وددت والله أن لي بعدد شعر رأسي نفوسًا كلها تموت في سبيل الله.. مثل هذه الموتة.. فقال له قيصر: قبل رأسي وأخلي عنك؟

فقال له عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين عندك..

قال: نعم.. فقبل رأسه.. ثم أطلقه مع الأسرى.

عجبًا! لله در هذا الصحابي!

أين نحن اليوم من مثل هذا الثبات.. ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.. إن من المسلمين اليوم

من يتنازل عن دينه.. لأجل دراهم معدودات.. أو لأجل تتبع الشهوات.. أو الولوغ في الملذات.. ثم يختم له بالسوء والعياذ بالله..

ومن عدل الله تعالى أن العبد يختم له في الغالب بما عاش عليه.. فمن كان في حياته يشتغل بالذكر والقيام والصدقات والصيام.. ختم له بالصالحات.. ومن تولى وأعرض عن الخير.. خشي عليه أن يموت على ما إعتاده.. ولأجل هذا الفرق العظيم.. كان الصالحون يستعدون للموت قبل نزوله.. بل يغتنم أحدهم آخر الأنفاس واللحظات.. في التزود ورفع الدرجات.. فتجده يجاهد.. ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. ويشتغل بالطاعات.. إلى آخر نفس يتنفسه.. وآخر خطوة يخطوها.. ثبت في «الصحيحين» وغيرهما..

عندما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع

أن النبي ﷺ بعدما رجع من حجة الوداع.. جعل مرض الموت يشتد عليه.. يومًا بعد يوم.. وهو في كل كلمة يكلمها.. وبصره يبصرها.. يودع هذه الدار.. ولما اشتدت عليه الحمى.. وأيقن النقلة للدار الأخرى.. أراد أن يودع الناس.. فعصب رأسه.. ثم أمر الفضل بن العباس أن يجمع الناس في المسجد.. فجمعهم.. فاستند ﷺ إليه.. حتى رقي إلى المنبر.. ثم حمد الله وأثنى عليه.

ثم قال: أيها الناس.. إنه قد دنى مني خلوف من بين أظهركم.. ولن تروني في هذا المقام فيكم.. ألا فمن كنت جلدت له ظهرًا.. فهذا ظهري فليستقد منه.. ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي.. فيأخذ منه.. ومن كنت شتمت له عرضًا.. فهذا عرضي فليستقد منه.. ولا يقولن قائل إني أخشى الشحناء.. ألا وإن الشحناء ليست من شأني.. ولا من خلقي.. وإن أحبكم إلى من أخذ حقًا.. إن كان له علي أو حللني.. فلقيت ربي وليس لأحد عندي مظلمة..

ثم نزل رسول الله ﷺ ومضى إلى بيته.. وبدأت الحمى تأكل جسده.. وهو يتحامل على نفسه ويخرج إلى الناس ويصلي بهم.. حتى صلى بأصحابه المغرب من يوم الجمعة.. ثم دخل إلى بيته.. وقد اشتدت عليه الحمى.. فوضعوا له فراشًا فانطرح عليه.. وظل على فراشه تكوي الحمى جسده.. ثم ثقل به مرض الموت.. وهو على هذا الفراش.. واجتمع الناس لصلاة العشاء وجعلوا ينتظرون إمامهم ﷺ ليصلي بهم.. ورسول الله ﷺ قد هده المرض.. يحاول

النهوض من فراشه.. فلا يقدر.. فلما أبطأ عليهم.. جعل بعض الناس ينادي: الصلاة.. الصلاة.. فالتفت النبي ﷺ إلى من حوله..

ثم قال: «أصلي بالناس؟»، قالوا: لا يا رسول الله هم ينتظرونك.. فتأمل النبي ﷺ فإذا حرارة جسده ﷺ تمنعه من النهوض.. فقال لهم: «صبوا لي ماء في المخضب».. وهو إناء كبير.. فصبوا له الماء.. وجعلوا يصبون الماء البارد من القرب.. فوق جسده ﷺ.. فلما برد جسده.. وشعر بشيء من النشاط.. جعل يشير لهم بيده.. فأوقفوا عنه الماء.. فلما اتكأ على يديه ليقوم أغمي عليه.. فلبث ثم أفاق.. فكان أول سؤال سأله أن قال: «أصلي بالناس؟»، قالوا: لا يا رسول الله هم ينتظرونك.. قال: «ضعوا لي ماء في المخضب».. فوضعوا الماء.. فاغتسل وجعلوا يصبون عليه الماء.. حتى إذا شعر بشيء من النشاط.. أراد أن يقوم فأغمي عليه.. فلبث مليًا.. ثم أفاق.. فكان أول سؤال سأله.. أن قال: «أصلي بالناس؟»، قالوا: لا يا رسول الله هم ينتظرونك.. قال: «ضعوا لي ماء في المخضب».. فوضعوا له الماء.. وجعلوا يصبون الماء البارد على جسده.. وأكثروا الماء حتى أشار لهم بيده.. ثم اتكأ على يديه ليقوم.. فأغمي عليه.. وأهله ينظرون إليه.. تضطرب أفئدتهم وتدمع أعينهم.. والناس عكوف في المسجد ينتظرونه.. فلبث مغمى عليه مليًّا.. ثم أفاق.. فقال: «أصلي بالناس؟»، قالوا: لا يا رسول الله هم ينتظرونك.. فتأمل في جسده.. فإذا الحمى قد هدته هدًّا.. ذاك الجسد المبارك.. الذي نصر الدين.. وجاهد لرب العالمين.. ذلك الجسد.. الذى ذاق من العبادة حلاوتها.. ومن الحياة شدتها.. الجسد الذي تفطرت منه القدمان من طول القيام.. وبكت العينان من خشية الرحمن.. عذب في سبيل الله وجاع وقاتل..

لما رأى ﷺ حاله.. وتمكن المرض من جسده.. التفت إليهم وقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».. فيقيم بلال الصلاة ويتقدم أبو بكر.. في محراب النبي ﷺ.. فيصلي بالناس ولا يكادون يسمعون قراءته من شدة بكائه وحزنه.. وانتهت صلاة العشاء.. ثم اجتمع الناس لصلاة الفجر فيصلي بهم أبو بكر.. ويجتمع الناس بعدها للصلوات.. ويصلي أبو بكر بهم أيامًا.. ورسول الله ﷺ على فراشه فلما كانت صلاة الظهر او العصر من يوم الإثنين.. وجد ﷺ نشاطا في جسده.. فدعا العباس وعليًّا.. فأسنداه عن يمينه ويساره..

ثم خرج يمشي بينهما تخط رجلاه في التراب.. وكشف الستر الذي بينه وبين المسجد

فإذا الصلاة قد أقيمت.. والناس يصلون.. فرأى أصحابه صفوفًا في الصلاة..

فنظر إليهم.. وجوه مباركة وأجساد طاهرة.. أكثرهم قد أصيب في سبيل الله..

منهم من قطعت يده.. ومنهم من فقئت عينه.. ومنهم من ملأت الجراحات جسده..

طالما صلى بهؤلاء الأخيار.. وجاهد معهم وجالسهم.. كم ليلة قامها وقاموها.. وأيام صامها وصاموها..

كم صبروا معه على البلاء.. وأخلصوا مع الدعاء..

كم فارقوا لنصرة دينه الأهل والإخوان.. وهجروا الأحباب والأوطان: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

ثم ها هو اليوم يفارقهم.. إلى تلك الدار.. التي طال شوقهم إلى سكناها..

فلما رآهم في صلاتهم.. تبسم.. حتى كأن وجهه فلقة من قمر.. ثم أرخى الستر وعاد إلى فراشه ﷺ..

وبدأت تصارعه سكرات الموت.. قالت عائشة: رأيت رسول الله ﷺ وهو يموت وعنده قدح فيه ماء.. فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء.. ثم يقول: «لا إله إلا الله.. إن للموت سكرات»..

قالت: فجعلت فاطمة تبكي وتقول: واكرب أبتاه.. فيلتفت إليها ويقول: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم».. قالت عائشة رضي الله عنها: فجعلت أمسح وجهه وأدعو له بالشفاء.. وهو يقول: «لا.. بل أسأل الله الرفيق الأعلى.. مع جبريل وميكائيل وإسرافيل».. ثم لما ضاق به النفس.. واشتدت عليه السكرات.. جعل يردد كلمات يودع بها الدنيا.. بل كان يتكلم فيما أهمه.. ويحذر من صور الشرك ويقول: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.. اشتد غضب الله على قوم جعلوا قبور أنبيائهم مساجد»..

وكان من آخر ما قال ﷺ «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم».. ثم مات ﷺ.. نعم.. مات سيد المرسلين.. وإمام المتقين وحبيب رب العالمين.. مات وليس أحد يطالبه بمظلمة.. ولا آذى أحدًا بكلمة.. لم يتدنس بأموال حرام.. ولا غيبة ولا آثام بل كان إلى الله داعيًا.. ولعفو ربه راجيًا.. يأمر بالصلاة وعبادة الرحمن.. وينهى عن الشرك والأوثان..

قال الله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]..

وكذلك كان الصالحون من بعده.. يستعدون للموت.. بالإكثار من الطاعات.. والمسارعة إلى القربات.. وهم مع كثرة أعمالهم.. وحسن أفعالهم.. إذا فجأهم الموت.. رجوا رحمة ربهم وخافوا من عقابه.. ولم يركنوا إلى أعمالهم..

عمر بن الخطاب..

الخليفة الراشد الذي نصر الدين وجاهد لرب العالمين.. وأطفأ نيران دولة المجوس حقد عليه الكافرون.. وكان من أكثرهم حقدًا عليه.. أبو لؤلؤة المجوسي.. وكان عبدًا نجارًا حدادًا في المدينة.. وكان يصنع الرحاء.. ـ جمع رحى وهي آلة لطحن الشعير، وهي حجران يوضع أحدهما فوق الآخر ويطرح الشعير بينهما.. وتدار باليد فيطحن ـ أخذ هذا العبد يتحين الفرص للانتقام من عمر..

فلقيه عمر يومًا في طريق فسأله وقال: يا أبا لؤلؤة، حدثت أنك تقول لو أشاء لصنعت رحى تدور بالريح؟!

فالتفت العبد عابسًا إلى عمر.. وقال: بلى.. لأصنعن لك رحى يتحدث بها أهل المشرق والمغرب.. فلتفت عمر إلى من معه.. وقال: توعدني العبد.. ثم مضى العبد وصنع خنجرًا له رأسان.. مقبضه من وسطه.. فهو إن طعن به من هذه الجهة قتل.. وإن طعن به من الجهة الأخرى قتل.. ثم أخذ يطليه بالسم.. حتى إذا طعن به يقتل إما بقوة الطعن أو بانتشار السم..

ثم جاء في ظلمة الليل.. واختبأ لعمر في زاوية من زوايا المسجد.. فليم يزل هناك حتى دخل عمر إلى المسجد ينبه الناس لصلاة الفجر.. ثم أقيمت الصلاة.. وتقدم بهم عمر فكبر.. فلما ابتدأ القراءة خرج عليه المجوسي.. وفي طرفة عين.. عاجلة بثلاث طعنات.. وقعت الأولى في صدره والثانية في جنبه والثالثة تحت سرته..

فصاح عمر.. ووقع على الأرض وهو يردد قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].. وتقدم عبد الرحمن بن عوف وأكمل الصلاة بالناس..

أما العبد فقد طار بسكينه يشق صفوف المصلين ويطعن المسلمين.. يمينًا وشمالاً.. حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة.. ثم وقف شاهرًا سكينه.. ما يقترب منه أحد إلا طعنه.. فاقترب منه رجل وألقى عليه رداء غليظًا فاضطرب المحوسي.. وعلم أنهم قدروا عليه فطعن نفسه..

وحمل عمر مغشيًا عليه إلى بيته.. وانطلق الناس معه يبكون.. وظل مغمى عليه حتى كادت أن تطلع الشمس..

فلما أفاق نظر في وجوه من حوله.. ثم كان أول سؤال سأله.. أن قال: أصلى الناس؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين.. قال: الحمد لله.. لا إسلام لمن ترك الصلاة.. ثم دعا بوضوء فتوضأ.. وأراد أن يقوم ليصلي فلم يقدر.. فأخذ بيد ابنه عبد الله فأجلسه خلفه وتساند إليه ليجلس فجعلت جراحه تنزف دمًا.. قال عبد الله بن عمر: والله إني لأضع يدي على جرح أبي.. فتدخل أصابعي في بطنه.. فربطنا جرحه بالعمائم.. فصلى الصبح..

ثم قال: يا بن عباس انظر من قتلني.. فقال ابن عباس: طعنك الغلام المجوسي.. ثم طعن معك رهطًا.. ثم قتل نفسه..

فقال عمر: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها لله قط.. ثم دخل الطبيب على عمر لينظر إلى جرحه.. فسقاه ماء مخلوطًا بتمر.. فخرج الماء من جروحه.. فظن الطبيب أن الذي خرج دم وصديد.. فأسقاه لبنًا فخرج اللبن من جرحه الذي تحت سرته.. فعلم الطبيب أن الطعنات قد مزقت جسده..

فقال: يا أمير المؤمنين.. أوص.. فما أظنك إلا ميتًا اليوم أو غدًا..

فقال عمر: صدقتني.. ولو قلت غير ذلك لكذبتك..

ثم قال عمر: والله لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المطلع.. يعني الوقوف بين يدي الله تعالى.. فقال له ابن عباس: وإن قلت ذلك فجزاك الله خيرًا.. أليس قد دعا لك رسول الله ﷺ أن يعز الله بك الدين والمسلمين إذ يخافون بمكة؟ فلما أسلمت كان إسلامك عزًا.. وهاجرت فكانت هجرتك فتحًا.. ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله ﷺ من قتال المشركين ثم قبض وهو عنك راضٍ.. وأزرت الخليفة من بعده.. وقبض وهو عنك

راض.. ثم وليت بخير ما ولي الناس مصر الله بك الأمصار.. وجبى بك الأموال.. ونفى بك العدو.. ثم ختم لك بالشهادة فهنيئًا لك يا أمير المؤمنين..

فقال عمر: أجلسوني.. فلما جلس.. قال لابن عباس: أعد علي كلامك.. فلما أعاده عليه.. قال: والله إن المغرور من تغرونه.. أتشهد لي بذلك عند الله يوم تلقاه يا بن عباس؟ فقال ابن عباس: نعم.. ففرح عمر..

وقال: اللهم لك الحمد.. ثم جاء الناس فجعلوا يثنون عليه ويودعونه.. وجاءه شاب.. فقال: أبشر يا أمير المؤمنين.. صحبت رسول الله ﷺ ثم وليت فعدلت ثم شهادة..

فقال عمر: وددت أني خرجت منها كفافًا لا علي ولا لي.

فلما أدبر الشاب إذا إزاره يمس الأرض فقال عمر: ردوا علي الغلام ثم قال: يا بن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك.. ثم اشتد الألم على عمر وجعل يتغشاه الكرب ويغمى عليه.. قال عبد الله بن عمر: غشي على أبي فأخذت رأسه فوضعته في حجري فأفاق..

فقال: ضع رأسي على الأرض.. ثم غشي عليه.. فأفاق ورأسه في حجري..

فقال: ضع رأسي على الأرض.. فقلت يا أبتاه.. وهل حجري والأرض إلا سواء.

فقال: يا بني.. اطرح وجهي على التراب.. لعل الله تعالى أن يرحمني.. فإذا قبضت فأسرعوا بي إلى حفرتي فإنما هو خير تقدموني إليه.. أو شر تضعونه عن رقابكم.

ثم قال عمر: ويل لعمر.. وويل لأم عمر إن لم يغفر الله له.. ثم ضاق به النفس.. واشتدت عليه السكرات.. ثم مات رضي الله عنه.. ودفنوه بجانب صاحبيه..

نعم مات عمر بن الخطاب.. لكن مثله في الحقيقة لم يمت.. قدم على أعمال صالحات ودرجات رفيعات.. صاحبه في قبره القرآن.. وبكاؤه من خشيته الرحمن.. تؤنسه صلاته في وحشته.. ويرفع جهاده من درجته.. تعب في دنياه قليلاً.. لكنه استراح في آخرته طويلاً.. بل قد عده النبي ﷺ من العشرة المبشرين بالجنة..

بل قد روى البخاري أن النبي ﷺ قال يومًا: «بينما أنا نائم رأيتني في الجنة.. فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر.. فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: هذا لعمر.. فذكرت غيرته فوليت مدبرًا».. فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله!..

نعم.. هكذا كان الصالحون.. أيقنوا بنزول الموت فاستعدوا للقائه في كل لحظة.. لما نزل الموت بالعابد الزاهد عبد الله بن إدريس.. اشتد عليه الكرب.. فلما أخذ يشهق.. بكت ابنته عند رأسه.. قال: يا بنيتي ما يبكيك؟ قالت: يا أبتاه أخاف مما أنت مقبل عليه.. فقال: يا بنيتي لا تبكي.. فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة.. كلها لأجل هذا المصرع..

ذكر بعض أحوال ممن حضرهم الموت

أما عامر بن عبد الله بن الزبير.. فلقد كان على فراش الموت.. يعد أنفاس الحياة.. وأهله حوله يبكون.. فبينما هو يصارع الموت.. سمع المؤذن ينادي لصلاة المغرب.. ونفسه تحشرج في حلقه.. وقد اشتد نزعه.. وعظم كربه..

فلما سمع النداء قال لمن حوله: خذوا بيدي..! قالوا: إلى أين؟ قال: إلى المسجد.. قالوا: وأنت على هذه الحال! قال: سبحان الله! أسمع منادي الصلاة ولا أجيبه.. خذوا بيدي.. فحملوه بين رجلين.. فصلى ركعة مع الإمام.. ثم مات في سجوده.. نعم.. مات وهو ساجد.. فمن أقام الصلاة وصبر على طاعة مولاه.. ختم له برضاه..

اصبر لم حوادث الدهر ... فلتحمدن مغبة الصبر
وامهد لنفسك قبل ميتتها ... واذخر ليوم تفاضل الذخر
فكأن أهلك قد دعوك فلم ... تسمع وأنت محشرج الصدر
وكأنهم قد هيئوك بما ... يتهيأ الهلكى من العطر
وكأنهم قد قلبوك على ... ظهر السرير وظلمة القبر
يا ليت شعري كيف أنت على ... ظهر السرير وأنت لا تدري
أم ليت شعري كيف أنت ... إذا غسلت بالكافور والسدر
أم ليت شعري كيف أنت إذا ... وضع الحساب صبيحة الحشر
ما حجتك فيما أتيت وما ... قولك لربك بل وما العذر
ألا تكون أخذت عذرك أو ... أقبلت ما استدبرت من أمر

بل كان الصالحون يتحسرون عند الممات.. على فراق الأعمال الصالحات.. ويودون لو طالت بهم الحياة للتزود ورفع الدرجات.. وتكثير الحسنات.. وتكفير السيئات..

احتضر عبد الرحمن بن الأسود.. فبكى.. فقيل له: ما يبكيك! وأنت أنت ـ يعنون في العبادة والخشوع والزهد والخضوع.

فقال: أبكي والله أسفًا على الصلاة والصوم.. ثم لم يزل يتلو القرآن حتى مات..

أما يزيد الرقاشي.. فإنه لما نزل به الموت.. أخذ يبكي ويقول: من يصلي لك يا يزيد إذا مت؟ ومن يصوم لك؟ ومن يستغفر لك من الذنوب؟.. ثم تشهد وأخذ يسبح ويذكر الله ثم مات..

هذه مشاهد الاحتضار.. لأرباب التعبد والأسرار.. فلو رأيتهم تجافوا عن دفء فرشهم في الأسحار.. يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار.. دفنوا تحت الثرى.. وقد أرضوا من يعلم السر وأخفى.. هذا هو احتضار المؤمنين.. وما عند الله خير وأبقى..

الموت لا يفرق بين كبير وصغير ولا غني وفقير.. ولا عبد وأمير..

عبد الملك بن مروان.. لما نزل به الموت.. وجعل يتغشاه الكرب ويضيق عليه النفس.. أمر بنوافذ غرفته ففتحت.. فالتفت فرأى غسالاً فقيرًا في دكانه.. فلما رآه بكى عبد الملك..

ثم قال: يا ليتني كنت غسالاً يا ليتني كنت نجارًا.. يا ليتني كنت حمالاً.. يا ليتني لم آل من أمر المؤمنين شيئًا.. ثم مات.. عجبًا..

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم … غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم … وأودعوا حفرًا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا … أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة … من دونها تضرب الأستار والكلل
أين الرماة ألم تمنع بأسهمهم … لما أتتك سهام الموت تنتصل
أين الأحبة والجيران أجمعهم … أين الأطباء ما أغنوا ولا الحيل
ما ساعدوك ولا واساك أقربهم … بل سلموك لها يا قبح ما فعلوا
ما بال ذكرك منسيا ومطرحا … وكلهم باقتسام المال قد شغلوا

ما بال قبرك وحشا لا أنيس به | يغشاه من جانبيه الروع والوهل
ما بال قبرك لا يأتي به أحد | ولا يمر به من بينهم رجل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم | تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا | فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا | فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
ولطالما شيدوا دورًا لتحصنهم | ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

نعم انتقلوا.. إلى دور ليس فيها خدم يخدمون.. ولا أهل يكرمون.. ولا وزراء ينادمون.. انتقلوا إلى دور تجالسهم فيها أعمالهم.. وتخاصمهم صحائفهم.. وما ربك بظلام للعبيد..

وهناك فريق من الناس.. وسع الله عليهم في أرزاقهم.. وعافاهم في أبدانهم، فغفلوا عن الاستعداد للموت حتى باغتهم.. فبدد شملهم وأخذهم على قبيح فعلهم.. فلما عاينوا الموت طالبوا الرجوع للدنيا.. لا لتجارة ولا مال ولا أهل ولا عيال.. وإنما لإصلاح الأحوال.. وإرضاء القوي المتعال.. ولكن قد حكم الخالق العظيم أنهم إليها لا يرجعون.. أولئك العصاة والمذنبون.. اللاهون المضيعون غلب عليهم حبهم لدنياهم وغفلتهم بها.. فكان لهم في احتضارهم عذاب وتهويل.. وحيل بينهم وبين ذكر الخالق الجليل..

ذكر القرطبي: أن أحد المحتضرين.. ممن بدنياه انشغل وغره طول الأمل.. لما نزل به الموت.. واشتد عليه الكرب.. اجتمع حوله أبناؤه يودعونه.. ويقولون: قل لا إله إلا الله.. فأخذ يشهق ويصيح.. فأعادوها عليه..

فصاح بهم وقال: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا.. والبستان الفلاني ازرعوا فيه كذا.. والدكان الفلاني اقبضوا منه كذا.. ثم لم يزل يردد ذلك، حتى مات.. نعم مات.. وترك بستانه ودكانه.. يتمتع بهما ورثته وتدوم عليه حسرته..

وذكر ابن القيم: أن أحد تجار العقار ـ ذكر بـ(لا إله إلا الله) عند احتضاره.. فجعل يردد ويقول: هذه القطعة رخيصة وهذا مشتر جيد.. وهذا كذا.. وهذا كذا.. حتى خرجت روحه.. وهو على هذا الحال.. ثم دفن تحت الثرى.. بعدما مشى عليه متكبرًا.. قد جمع الأموال.. وكثر العيال.. فما نفعوه في قبره ولا ساكنوه.

قال ابن القيم: واحتضر رجل ممن كان يجالس شراب الخمور.. فلما حضره نزع روحه.. أقبل عليه رجل ممن حوله وقال: يا فلان.. يا فلان.. قل لا إله إلا الله فتغير وجهه وتلبد لونه.. وثقل لسانه.. فردد عليه صاحبه: يا فلان.. قل لا إله إلا الله..

فالتفت إليه وصاح: لا.. اشرب أنت ثم اسقني.. اشرب أنت ثم اسقني.. ثم ما زال يرددها حتى فاضت روحه إلى باريها نعوذ بالله.. ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ:٥٤].

وذكر الصفدي: أن رجلاً كان يشرب الخمر ويجالس أهلها - وكان إذا سكر ونام.. يمشي وهو لا يعقل.. فكان ينام على سطح داره ويشد رجله بحبل كي لا يقع.. فسكر ليلة ونام.. فقام يمشي.. فسقط من السطح.. فأمسكه الحبل.. فبقي معلقاً منكساً حتى أصبح ميتاً..

وذكر في «أنموذج الزمان»: أن محمد بن المغيث كان رجلاً فاسقاً.. مفتوناً بشرب الخمر.. ولا يكاد يخرج من بيت الخمار.. فلما مرض.. ونزل به الموت.. وخارت قواه.. سأله رجل ممن حوله: هل بقي في جسمك قوة؟ هل تستطيع المشي؟ فقال: نعم.. لو شئت مشيت من هنا إلى بيت الخمار.. قال صاحبه: أعوذ بالله.. أفلا قلت أمشي إلى المسجد؟ فبكى وقال: غلب ذلك على لكل امرئ من دهره ما تعودا.. وما جرت عادتي بالمشي إلى المساجد..

بل نعوذ بالله من أم الخبائث.. ورأس الفواحش.. ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة.. بل من شرب الخمر في الدنيا كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال.. قيل: يا رسول الله وما طينة الخبال؟

فقال ﷺ: «عصارة أهل النار إلا أن يتوب قبل موته»..

أما أهل المعازف والغناء.. فلهم عند الموت كريه وبلاء.

ذكر ابن القيم: أن رجلاً من أهل الغناء والمعازف حضرته الوفاة.. فلما اشتد به نزع روحه.. قيل له: قل لا إله إلا الله.. فجعل يردد أبياتاً من الغناء.. فأعادوا عليه التلقين: قل: لا إله إلا الله.. فثقل لسانه عن ترديد الغناء..

فجعل يردد ألحان الأغاني ويقول: تتنتا.. تتنتا حتى خرجت روحه من جسده.. وهو بما

يلحن ويغني..

أما أهل الجريمة الكبرى.. والداهية العظمى.. فهم أنصار الشيطان وأعداء الرحمن.. هم خصوم المؤمنين وإخوان الكافرين.. الذين يحشرون مع فرعون وهامان ويتقلبون معهم في النيران.. هم تاركو الصلاة.. وبين الرجل وبين الكفر أو الشرك ترك الصلاة.. وحالهم عند الموت وما بعده أدهى وأفظع..

ذكر ابن القيم: أن أحد المحتضرين.. كان صاحب معاصٍ وتفريط.. فلم يلبث أن نزل به الموت.. ففزع من حوله إليه.. وانطرحوا بين يديه.. وأخذوا يذكرونه بالله.. ويلقنونه لا إله إلا الله.. وهو يدافع عبراته.. فلما بدأت روحه تنزع صاح بأعلى صوته وقال: أقول: لا إله إلا الله! وما تنفعني لا إله إلا الله؟! وما أعلم أني صليت لله صلاة! ثم مات.. هذا هو الموت.. أول طريق الآخرة.. وما بعده أفظع وأكبر..

أما أحوال أهل القبور.. فهي أدهى وأخطر.. فكم من جسد صحيح ووجه صبيح.. ولسان فصيح.. هو اليوم في قبره يصيح.. على أعماله نادم وعلى الله قادم..

خرج عمر بن عبد العزيز.. في جنازة بعض أهله فلما أسلمه إلى الديدان.. ودسه في التراب.. التفت إلى الناس فقال: أيها الناس، إن القبر قد ناداني من خلفي.. أفلا أخبركم بما قال لي؟

قالوا: بلى..

فقال: إن القبر قد ناداني فقال: يا عمر بن عبد العزيز..

ألا تسألني ما صنعت بالأحبة؟ قلت: بلى..

قال: خرقت الأكفان.. ومزقت الأبدان.. ومصصت الدم.. وأكلت اللحم..

ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟ قلت: بلى..

قال: نزعت الكفين من الذراعين.. والذراعين من العضدين.. والعضدين من الكتفين.. والوركين من الفخذين.. والفخذين من الركبتين.. والركبتين من الساقين.. والساقين من القدمين.

ثم بكى عمر وقال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل.. وعزيزها ذليل.. وشابها يهرم.. وحيها

يموت.. فالمغرور من اغتر بها.. أين سكانها الذين بنوا مدائنها.. ما صنع التراب بأبدانهم؟ والديدان بعظامهم؟ كانوا في الدنيا على أسرة ممهدة وفرش منضدة.. بين خدم يخدمون وأهل يكرمون.. فإذا مررت بهم فنادهم.. وانظر على تقارب قبورهم من منازلهم..

سل غنيهم ما بقى من غناه؟ وسل فقيرهم ما بقى من فقره؟

سلهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون.. وعن الأعين التي كانوا إلى اللذات بها ينظرون..

سلهم عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة.. ما صنع بها الديدان؟ محت الألوان وأكلت اللحمان.. وعفرت الوجوه ومحت المحاسن.. وكسرت القفا وأبانت الأعضاء ومزقت الأشلاء..

أين خدمهم وعبيدهم.. أين جمعهم ومكنوزهم؟ والله ما زودوهم فرشًا.. ولا وضعوا لهم متكئًا.. أليسوا في منازل الخلوات.. وتحت أطباق الثرى في الفلوات؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء؟ قد حيل بينهم وبين العمل.. وفارقوا الأحبة والأهل..

قد تزوجت نساؤهم.. وترددت في الطرقات أبناؤهم.. وتوزعت القرابات ديارهم وتراثهم.. ومنهم والله الموسع له في قبره.. الغض الناضر فيه.. المتنعم بلذته..

ثم بكى عمر وقال: يا ساكن القبر غدًا.. كيف أنت على خشونة الثرى.. ليت شعري بأي خديك يبدأ الدود البلى.. ليت شعري ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا.. وما يأتيني به من رسالة ربي.. ثم بكى بكاءً شديدًا، ثم انصرف فما بقى بعد ذلك إلا جمعة ومات.. رحمه الله..

مسائل تتعلق بالجنائز والقبور

أنبه على تسع مسائل هامة تتعلق بالجنائز والقبور..

المسألة الأولى: أن الموت إذا جاء فلا يؤخر لحظة واحدة ولا يقدم.. قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران:١٤٥]..

ومن مات فإنه لا يرجع من موته.. ولا يخرج من قبره حتى ينفخ في الصور يوم القيامة..

فمن ادعى أن أحدًا من الأئمة أو الأولياء أو الأنبياء يرجع بعد موته.. فقد قال بأعظم البهتان.. وصار من أنصار الشياطين..

المسألة الثانية: أن عذاب القبر ونعيمه ثابت بالكتاب والسنة.. قال الله ﷻ: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١]، قال جموع المفسرين: العذاب الأول في الدنيا.. والثاني عذاب القبر.. ثم يردون إلى عذاب عظيم في النار..

أما الأحاديث في إثبات عذاب القبر ونعيمه فهي كثيرة.. بل قد صرح ابن القيم وابن أبي العز والسيوطي وغيرهم أنها متواترة.. وبين يدي الآن أكثر من خمسين حديثًا في إثبات عذاب القبر ونعيمه.. من ذلك ما في «الصحيحين» أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة».. وفي «الصحيحين» أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه في الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر»..

المسألة الثالثة: أن عذاب القبر ونعيمه أمور غيبية لا تقاس بالعقل.. والإيمان بالغيب من أهم صفات المؤمنين كما قال الله: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:١-٣] فجعل أول صفاتهم الإيمان بالغيب..

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ.. فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه.. قبر أو لم يقبر.. فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادًا.. ونسف في الهواء.. أو صلب أو غرق في البحر . وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور..

المسألة الرابعة: من المحرمات التي تقع من بعض الناس ومن النساء خاصة.. ما يقع من العويل والنياحة والصراخ..

ففي «الصحيحين» قال ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود.. وشق الجيوب.. ودعا بدعوى

الجاهلية» وفيهما.. قال ﷺ: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها.. تقام يوم القيامة.. وعليها سربال من قطران.. ودرع من جرب».. فعلى من أصيب بموت حبيب.. أن يصبر ويحتسب وليبشر بالأجر العظيم على صبره..

ففي «الصحيحين» قال ﷺ: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسب، إلا الجنة»..

المسألة الخامسة: زيارة القبور مشروعة.. ويكون قصده من الزيارة الاعتبار والاتعاظ.. دون قصد التبرك بالقبر أو بتربة القبر.. أو الانتفاع بالمقبور.. ولا يجوز أن يخصص يومًا معينًا للزيارة لا جمعة ولا غيرها.. لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه خصص أيامًا معينة للزيارة وقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما لي منه فهو رد» والمشروع للزائر أن يدعو للميت ويستغفر له..

وبعض الناس يقرأ الفاتحة عند زيارة القبور.. وهذا من البدع.. إذ لم يثبت عنه ﷺ أنه قرأ شيئًا من القرآن عند القبور.. ولا يجوز السفر لزيارة قبر من القبور؛ لقوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام.. ومسجدي هذا.. والمسجد الأقصى»[1].

المسألة السادسة: من المخالفات والبدع في الجنائز:

وضع الزهور على الجنازة أو على القبر، وهذا تشبه بالكفار في دينهم وشعائرهم، وقد قال ﷺ كما عند أحمد في «المسند»: «من تشبه بقوم فهو منهم».

وكذلك من البدع: الحداد على أرواح الشهداء أو غيرهم بالوقوف والصمت لمدة دقيقة ترحمًا عليهم.. فهذه بدعة منكرة وإنما يكتفى بالدعاء والاستغفار لهم..

وكذلك لا يجوز تعليق صور لأموات بل ولا لأحياء، للذكرى ولا لغيرها لقوله ﷺ.. فيما رواه مسلم لعلي: «لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته».

ومن المخالفات:

رفع الصوت أثناء تشييع الجنازة بالتهليل أو التكبير الجماعي.. والمشروع أن يدعو المرء ويذكر الله مع نفسه.

---

(١) متفق عليه.

وكذلك الأذان في القبر.. أو بعد وضع الميت في قبره ولم يثبت ذلك عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه رضي الله عنهم.. وقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»..

وكذلك من البدع: الدعاء الجماعي بعد صلاة الجنازة أو بعد دفن الميت.. بل المشروع أن يدعو كل واحد مع نفسه..

ومن المخالفات دفن الميت في تابوت.. والأصل أن يدفن الميت بكفنه في القبر.. من غير تابوت.. إلا إذا دعت الحاجة إلى دفنه في تابوت كتقطع الجسم مثلاً.. أو كان نظام الدولة يلزم بدفنه بتابوت ولا يستطيع أصحب الجنازة المخالفة.. فيدفن بالتابوت..

المسألة السابعة: فعل القربات من الحي وإهداء ثوابها للميت جائز.. في حدود ما ورد الشرع بفعله.. كالدعاء له والحج والعمرة والصدقة والأضحية وصوم الواجب عمن مات وعليه صوم واجب.. أما قراءة القرآن أو الصلاة بنية أن يكون ثوابها للميت فلا تجوز؛ لأنها لم ترد عن النبي ﷺ.. وكذلك من البدع استئجار قارئ يقرأ القرآن للأموات في المآتم.

المسألة الثامنة: قبل توزيع التركة يجب إخراج تكاليف تجهيز الميت.. وسداد ديونه وتنفيذ وصيته.. وقد قال ﷺ فيما أخرجه أحمد: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه».

المسألة الأخيرة: بل هي المسألة الكبرى.. هي المصيبة العظمى.. وهي الشرك الواقع عند القبور.. كمن يطوف على القبور.. أو يسأل أهلها الحاجات.. واعتقاد أن الأولياء الموتى يقضون الحاجات..

والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٤].

وبعض عباد القبور يطوفون بها ويستلمون أركانها.. ويتمسحون بها.. ويقبلون أعتابها.. ويسجدون لها.. ويقفون أمامها خاشعين.. لحاجاتهم سائلين.. من شفاء مريض.. أو حصول ولد.. وربما نادى الزائر صاحب القبر: وقال يا سيدي المقبور! جئتك من بلد بعيد فلا تخيبني! والله يقول: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥].

وفي البخاري قال ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار».. ولا تغتر بما

يشاع أن فلانًا الفقير دعا عند القبر الفلاني فاغتنى، أو أن فلانًا المريض دعا فشفي أو رزق بولد.. فإن كل ذلك من الباطل.. ولا يدعى إلا الله تعالى.

ويحرم بناء المساجد على القبور.. بل لا تجوز الصلاة في المسجد إذا كان فيه أو في ساحته أو قبلته قبر؛ لقوله ﷺ فيما رواه مسلم: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك».. بل يحرم البناء على القبور.. على أي شكل كان.. ففي «صحيح مسلم» نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه.. والمشروع أن يدفن الميت ثم يعاد على القبر التراب الذي أخرج منه.. ولا يزيد ارتفاعه عن الشبر.

كما يحرم بناء القباب على القبور لقوله ﷺ لعلي: «لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[١].

وقال جابر رضي الله عنه: «نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه»[٢].

ومن على القبر سراجًا أوقدا.. أو ابتنى على الضريح مسجدًا.. فإنه مجدد جهارًا لسنن اليهود والنصارى..

كم حذر المختار عن ذا ولعن ... فاعله كما روى أهل السنن

بل قد نهى عن ارتفاع القبر ... وأن يزاد فيه فوق الشبر

وكل قبر مشرف فقد أمر ... بأن يسوى هكذا صح الخبر

فانظر إليهم قد غلوا وزادوا ... ورفعوا بناءها وشادوا

بالشيد والآجر والأحجار ... لا سيما في هذه الأعصار

وللقناديل عليها أوقدوا ... وكم لواء فوقها قد عقدوا

ونصبوا الأعلام والرايات ... وافتتنوا بالأعظم الرفات

بل نحروا في سوحها النـ ... ـحائر فعل أولي التسييب والبحائر

والتمسوا الحاجات من موتاهم ... واتخذوا إلههم هواهم

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

سبحان الله.. قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[الأعراف:١٩١ - ١٩٨] ..

أسأل الله تعالى بمنه وكرمه أن يخلص توحيدنا له وحده لا شريك له.. وأن يهدي ضال المسلمين.. وأن يهدي ولاة أمور المسلمين في كل بلد لإقامة التوحيد ولنسف مظاهر الشرك في جميع بلاد المسلمين.. اللهم اجعلنا بطاعتك عاملين وعلى ما يرضيك مقبلين.. وتوفنا وأنت راض عنا يا أرحم الراحمين.. وأمنا من الفزع الأكبر يوم الدين، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله..



صرخة في مطعم الجامعة

مدخل..

في جزيرة الكنز لم تكن سارة تختلف كثيرًا عن بنات جنسها.. وجه جميل.. وقوام رائع.. وطلعة بهية..

منذ صغرها كانت متميزة..

وكانت أمها حريصة على أن تتميز في كل شيء.. كانت غالية على قلبها.. تخاف عليها من نسمات الهواء..

ولم تكن الأوضاع في جزيرة الكنز تختلف كثيرًا عن الأوضاع في كثير من بلاد المسلمين.. فإذا سرت في الشارع.. رأيت المساجد شاهقة المآذن.. ووجوه المسلمين المشرقة تملأ الشوارع بهجة وجمالاً..

كانت قلوب الرجال مليئة غيرة ومروءة.. فلم يكن أحد يجرؤ أن يلطخ سمعته بالتعرض لامرأة في طريق أو حافلة.. وكانت النساء كذلك يلفهن غطاء الحياء.. وينشأن عليه..

كان أكثر النساء يلتزمن الحجاب الشرعي.. يحمين أنفسهن من النظرات الزائغة.. والأيدي الطويلة.. والأرقام المشبوهة.. والكلمات الجارحة..

كان في الجزيرة عالم مشهور يحبه الناس كبارًا وصغارًا.. يحبه الملوك والأمراء.. والكبراء والوزراء..

كان قد أوتي من القبول ما يجعل الجميع يصدرون عن رأيه.. ولا يخالفون قوله.. كان عالمًا ورعًا جليلاً.. يمضي ليله ونهاره فيما يقربه إلى من في السماء جل جلاله..

في جزيرة الكنز.. لو قدر لك أن تفتح التلفاز.. لما رأيت مغنية تشدو: يا ليل يا عين! ولا رأيت فيديو كليب يتمايل فيها مطرب راقص قد أسدل شعرات ناعمة على عينيه ونمص حاجبيه وحقن (السيليكون) في شفتيه!

لا.. لا ترى ذلك في تلفاز جزيرة الكنز.. بل حتى الدعايات التلفازية لا تكاد ترى فيها امرأة! لا متبرجة ولا غيرها..

كانت الحياة في جزيرة الكنز جميلة وادعة.. لم يكن الناس يختلفون في مسائل الدين.. كان العالم إذا أفتى قبل الناس فتواه وانساقوا إليها راضين..

وخطيب الجمعة إذا وجه.. تلقى المصلون توجيه بالقبول.. والداعية إذا وعظ.. تأثر الناس وأصلحوا أحوالهم..

لم يكن يصل إلى هذه الصفوة من الناس أي تأثير خارجي.. إلا دعوات خافتة تنبعث من أفواه من تشربوا بأسلوب حياة أخرى.. وفكر عدو!

نعم كانت بعض الوسائل الإعلامية تؤثر على استحياء لزرع الفساد.. من خلال مجلة فاسدة.. أو قنوات ماجنة..

لكن تأثيرها كان قليلاً.. أو قل: كان سطحيًا..

مرت السنوات.. وتطورت وسائل الاتصال..

وصار يصل إلى الناس في جزيرة الكنز بث فضائي مباشر..

ينقل إلى أهلها الوادعين العفيفين.. ثقافات أقوام لا يحكمهم دين ولا عرف ولا مروءة..

بدأ أصحاب الجزيرة يشاهدون قومًا يعيشون كالبهائم.. بل هم أضل!

أكل وشرب ونوم.. لا صلاة ولا صيام ولا غض بصر ولا حفظ فرج..

بدأت النساء العفيفات في جزيرة الكنز يرين نساء لم يكتفين بالسفور عن وجوههن بل سفرن عن سوقهن وأفخاذهن.. بل وربما في بعض الأحيان سفرن عن غير ذلك..

كان ذاك العالم الجليل يصرخ بقومه: اتقوا الله.. غضوا أبصاركم عن هؤلاء.. احذروا من تقليدهم.. تمسكوا بدينكم..

كان يركز على النساء أكثر.. لا تهتكي حجابك.. هو والله عزك.. أنت جوهرة لا

ينبغي لكل أحد أن ينظر إليك.. أنت ملكة.. أنت أمنا وأختنا وابنتنا.. أنت..

كان رحمه الله يمسك بحجزهم عن السقوط في الهاوية..

وكان غيره من العلماء يفعلون ذلك.. من خلال أحاديث إذاعية.. ولقاءات تلفازية.. وخطب جمعة.. وكتب وأشرطة..

يخافون أن تنخرق السفينة.. فتغرق..

كان الناس يتقبلون منهم.. ويحبونهم.. مرت السنوات.. ولحق ذاك العالم بربه.. ومات آخر.. وثالث.. ورابع..

وبقي العلماء الأحياء يكملون المسيرة المباركة.. ويحرسون السفينة من الغرق..

ظل الأعداء يصرخون.. أيها الناس التفتوا إلينا.. نحن في متعة وسرور.. الشاب بجانب الفتاة.. وهي تتمتع بتكشفها! في كل مكان.. انظروا إليها بـ(البكيني) على شاطئ البحر! تتمتع بالجو الجميل.. وأشعة الشمس تداعب جلد فخذيها!

انظروا إليها في الطائرة تتمتع بحريتها فتخدم المسافرين.. انظروا إليها في مطاعمنا.. تبرز مفاتنها.. وتخدم الزبائن.. انظروا إليها في..

كانت هذه الدعوات الماجنة تصل إلى النساء في جزيرة الكنز.. لكنها لا تلقى قبولاً؛ لأن الذين أطلقوها أغبياء.. لا يعلمون من أين تؤكل الكتف..

فنساء عفيفات طاهرات محصنات.. تربت الواحدة منهن منذ أن كانت في مهدها على أن لا تبدي زينتها للرجال.. ولو خرج طرف أصبعها لرجل أجنبي عنها.. لضاق صدرها.. واضطرب مزاجها.. فكيف بالله تريدونها أن تخرج وجهها أو ترمي عنها عباءتها.. يا للهول!

تكسير الموجة

رأى الأعداء أن أساليبهم للإفساد ونزع الحجاب لم تنجح.. فأدركوا أن مواجهة التيار لا تفيد.. فعمدوا إلى سياسة تكسير الموجة!

تدري ما تكسير الموجة؟

أي: تفكيك حزمة العيدان وكسر كل عود على حدة.

نظروا فإذا عباءات النساء واسعة ساترة.. إذا مشت فيها المرأة لم يكتشف أحد زينتها.. فقالوا لها: نحن لا نقول لك: انزعي عباءتك!.. لا.. لا.. حرام.. ولكن جددي في موديل عباءتك؛ فبدأ مصممو الأزياء يخترعون أشكالاً للعباءة أضيق من العباءة الساترة..

فأعجبت بها مجموعة من النساء ولبسنها..

فهي على كل حال عباءة! لبستها بعض النساء.. فصارت العباءة كأنها فستان تزداد به زينة وجاذبية.. فبدل أن كانت العباءة تلبس لستر الزينة صارت هي في نفسها زينة..

استبشر الأعداء وشعروا أن الموجة بدأت تتكسر.. فاخترعوا عباءات تلبس على الكتفين.. فانطلق وراءها جماعات من النساء..

فاستبشروا..

ثم عباءات تربط من الجنب.. ثم عباءات ضيقة جدًا تبرز مفاتن المرأة..

ثم.. حتى صارت المرأة بهذه العباءات تلفت النظر أكثر مما لو نزعت العباءة!

بدأ المجتمع يضطرب.. والسفينة تتهاوى للغرق؛ فلم يسكت المصلحون.. أصدر العلماء الفتاوى.. واهتزت المنابر بالخطب الرنانة.. وانطلق الدعاة يعظون وينصحون..

وخوفوا لابسة هذه العباءات من عاقبة فعلها.. وأنها بذلك تبرز زينتها التي أمر الله بسترها..

وكان التحريم في هذه العباءات الضيقة والشفافة المبرزة لمفاتن المرأة واضحًا لكل عاقل..

فبدأ يقل وينحسر.. وبدأت النساء تعود إلى العباءات الساترة.. وإن كان لا يزال يوجد أعداد من النساء يتساهلن بلبس هذه الأشكال من العباءات..

إلا أن هذه الأعداد من النساء تبقى قليلة في المجتمع.. ويشعرن بخطئهن دائمًا..

أدرك الأعداء ذلك.. ورأوا أنهم يتعبون لإفساد الحجاب.. وزرع الاختلاط.. ويمضون في ذلك السنة والسنتين.. فإذا تأثرت بذلك ألف امرأة..

وفرحوا بهذا الإنجاز.. أقبل داعية ناصح مفوه فتلا عليهن الآيات وسرد الأحاديث.. فتبن

كلهن في لحظة واحدة..

فإذا رأى المفسدون النساء التائبات.. عضوا أصابعهم وتهامسوا: يا خسارة..!

نعم عرفوا أن الدين متمكن من القلوب.. وأن المسلمة وإن تساهلت يومًا فتكشفت فإنها سرعان ما تعود.. فمعدنها ذهب خالص.. بأدنى مسحة بيد رقيقة.. يذهب عنه الغبار.. ويعود إلى بريقه ولمعانه..

وبعد تفكير طوييييل..

جاءت الطامة..!

المسألة فيها خلاف!

بدأ المفسدون يقلبون صفحات التاريخ..

وينظرون كيف مات الحجاب في بلاد المسلمين الأخرى..

فرأوا أنه بدأ بالدعوة إلى كشف الوجه.. ثم لما انتشر ذلك وأصبح أمرًا عاديًّا..

بدأ الوجه يصبغ بأنواع الزينة.. ثم أصبح الحجاب يتلون بألوان زاهية.. فصار الوجه أجمل.. ثم صار قماش الحجاب مزركشًا مزينًا بصور الورود.. فازداد الوجه بهاءً.. ثم بدأ الحجاب يتسع فظهرت الجبهة كاملة.. ثم أطراف الشعر.. ثم..

فبدؤوا في تطبيق هذه الخطة في جزيرة الكنز..

كانت النساء في جزيرة الكنز يسترن وجوههن.. فظهر لهن من خلال القنوات الفضائية ووسائل الإعلام الأخرى من صحف ومجلات من يقول لهن: أصلاً تغطية الوجه غير واجب! وأن المرأة يجوز لها أن تكشف وجهها! وهناك علماء يفتون بجواز كشف الوجه! والمسألة فيها خلاف!

ثم ظهر من أفتى النساء العفيفات المحصنات بجواز إلقاء الحجاب عن وجوههن.. والخروج إلى الشوارع والأسواق سافرات عن محاسن وجوههن.. فمن نظر إليها تمتع بجمال خديها.. وسحر عينيها.. ونعومة شفتيها.. ودلال بسمتها.. كل ذلك جائز على اعتبار أن كشف الوجه جائز! ولا يدخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١] !

ما علينا.. كانت سارة من بين النساء اللاتي تسلط عليهن هذه السهام.. لكنها كانت بعيدة عن التساهل بحجابها.. سعيدة بعباءتها.. تمشي بين الناس ملكة في عرشها.. الكل معجب بقوة شخصيتها وثباتها..

في كل صباح تزدحم الشوارع بالناس.. ومن بينهم ترى أخوات مسلمات.. لكنهن متساهلات بالحجاب.. وقد حسرت مجموعات منهن عن محاسن وجوههن..

كانت سارة تمر بهذه المناظر وهي ذاهبة إلى مكان دراستها.. لكنها كانت مع عدد كبير من الطالبات ترتدي حجابًا يغطي وجهها وبقية جسدها.. كانت بعض الطالبات يكشفن عن وجوههن.. وبعضهن يرتدين عباءات كالفساتين.. وكان عدد من الشباب يتجمهرون عند رؤية الطالبات.. ليصطادوا من تقع في شباكهم..

وكانت سارة تلاحظ أنها تمر أمامهم.. وهي بكامل حجابها.. فلا يجرؤ أحد أن يلقي عليها رقم هاتفه.. أو يسمعها كلمة جارحة.. كانت عليها جلالة ومهابة.. وكأن الملائكة تحرسها من كل جانب..

في المستشفى!

كانت أم سارة حاملاً في الشهر التاسع..

والبيت كله يترقب مقدم هذا الضيف الصغير إلى الدنيا..

اشتاق هذا الجنين إلى الدنيا.. وتحرك دافعًا الرحم من حوله.. أحست أم سارة بآلام المخاض.. وصلت للمستشفى.. وولدت غلامًا جميلاً أسموه خالدًا..

الجميع فرح بمقدمه.. وفي المساء ذهبت سارة مع أبيها لزيارة أمها، كان الزائر المعافى الذي يدخل المستشفى يتحسس تاج الصحة فوق رأسه الذي لا يكاد يراه إلا المرضى.. المرضى يملئون الغرف.. هذا مصاب بحادث.. وذاك بمرض في القلب.. وهذه امرأة نفساء.. وتلك عندها أمراض في الرحم..

دخلت سارة على أمها.. واطمأنت عليها.. كانت في الغرفة مع أمها أربع نساء كلهن والدات..

لمحت سارة من بين الزائرات فتاة وقورًا.. يبدو عليها الذكاء والأدب.. قد لبست عباءة فضفاضة.. غير مزينة.. ولا مزركشة.. لكنها كشفت وجهها؛ فبدا كالقمر ليلة البدر.. يراه الأطباء والممرضون والزوار..

جعلت سارة تتعجب.. كيف تبدي زينتها؟! والله يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور:٣١]!

كانت سارة جريئة بأدب.. أقبلت إليها وسلمت عليها بلطف.. وعرفت أن اسمها أريج.. ثم اكتشفت أنها جاءت زائرة لأختها الوالدة.. فدعت لهم جميعًا بالبركة والتوفيق.. ثم استأذنتها قائلة: لي معك حديث خاص.. هل يمكن أن نجلس في غرفة الاستراحة المجاورة..

جلست الفتاتان جلسة هادئة.. دارت فيها أحاديث مختصرة.. اكتشفت خلالها سارة أن أريج كثيرة القراءة في الكتب الداعية إلى التبرج والسفور باسم: تحرير المرأة..

وكأن المرأة رقيقة مملوكة تحتاج لمن يحررها..

كانت معلومات سارة لا بأس بها.. مما شجعها إلى فتح نقاش طويل مع أريج..

بين سارة وأريج

قالت سارة: تعلمين يا أريج أن الله تعالى خلق الرجل والمرأة شطرين للنوع الإنساني: ذكرًا وأنثى قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم:٤٥] والزوجان هما المقترنان اللذان لا يستغني أحدهما عن الآخر.. فالرجل والمرأة مقترنان لتسيير عجلة الحياة..

نعم.. الذكر والأنثى مخلوقان يشتركان في عمارة الكون كل فيما يخصه.. بلا فرق بين الرجال والنساء في عموم الدين..

فهما متساويان في المسئولية..

فرسول الله ﷺ دعا النساء كما دعا الرجال.. وبايع النساء على الدخول في الإسلام كما بايع الرجال.. وصلى إمامًا بالرجال والنساء.. وأفتى الرجال والنساء.. وكان الرجال والنساء يشيرون عليه ويقبل منهم..

عندها صرخت أريج: كان يقبل مشورة النساء! عجبًا! وأبو بكر وعمر موجودان!

سارة: نعم.. واستمعي إلى أم سلمة هي تحكي بكل عزة ثقتها بنفسها.. وشعورها بنظرة المجتمع المشرقة لها.. وهي تقضي برأيها على مشكلة كانت قد تعصف بجيش كامل!

أريج: كيف؟!

لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة معتمرًا ـ وهذا كله قبل قرون من اعتراف العالم الحديث للمرأة بحقها في التعبير عن رأيها الخاص بها ـ

خرج مع ألف وأربعمائة من أصحابه ليعتمروا.. وذلك قبل فتح مكة.. فكان قريش هم أهل مكة يمنعون من شاءوا ويأذنون لمن شاءوا.. وصل ﷺ مع أصحابه لا يريدون قتالاً بل سيعتمرون كبقية الناس..

منعتهم قريش من دخول مكة.. وكاد ﷺ أن يدخلها بالقوة.. لكنه عدل عن ذلك وأراد أن يكتب بينه وبينهم صلحًا..

أرسلت قريش إليه عدة أشخاص للتفاوض معه حول بنود الصلح.. حتى جاءه سهيل بن عمرو ليكتب الصلح معه..

فدعا النبي ﷺ الكاتب فجعل يملي عليه قال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»..

فاعترض سهيل قائلاً: أما الرحمن.. فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب..

فغضب المسلمون وقالوا: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم..

فقال النبي ﷺ «اكتب باسمك اللهم»..

ثم قال ﷺ: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»..

فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن أكتب محمد بن عبد الله.

فقال ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد الله».

فقال ﷺ: «اكتب على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»..

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل..

فوافق النبي ﷺ على ذلك.. وكتبه..

فأراد سهيل أن يضيق على المسلمين.. فاشترط: أنه لا يخرج من مكة مسلم يريد المدينة.. إلا رد إلى مكة.. أما من خرج من المدينة وجاء إلى مكة مرتدًّا إلى الكفر.. فيقبل في مكة..

فقال المسلمون: من جاءنا مسلمًا نرده إلى الكافرين! سبحان الله كيف نرده إلى المشركين وقد جاء مسلمًا..

فقال ﷺ : «أما من ذهب منا إليهم فأبعده الله»..

ثم سكت النبي ﷺ مفكرًا.. وجاء أبو جندل..

وكان قد أسلم فعذبه أبوه وحبسه.. فلما سمع بالمسلمين.. تفلت من الحبس وأقبل يجر قيوده.. تسيل جراحه دمًا.. وعيونه دمعًا..

ثم رمى بجسده المتهالك بين يدي النبي ﷺ .. والمسلمون ينظرون إليه..

فلما رآه سهيل.. غضب! كيف تفلت من حبسه.. ثم صاح بأعلى صوته: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي..

فقال ﷺ : «إنا لم نقض الكتاب بعد»..

قال: فوالله إذًا لا أصالحك على شيء أبدًا..

فقال ﷺ : «فأجزه لي».. قال: ما أنا بمجيزه لك.. قال: «بلى فافعل».. قال: ما أنا بفاعل..

فسكت النبي ﷺ ..

وقام سهيل سريعًا إلى ولده يجره بقيوده.. وأبو جندل يصيح ويستغيث بالمسلمين.. يقول: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا.. ألا ترون ما قد لقيت من العذاب.. ولا زال يستغيث حتى غاب عنهم.. والمسلمون تذوب أفئدتهم حزنًا عليه..

فصالح النبي ﷺ على أن يعودوا إلى المدينة.. ويعتمروا في العام القادم..

كان المسلمون قد جاءوا بإحرامهم من المدينة متحمسين للعمرة.. ثم تفاجئوا أن قريشًا تمنعهم هكذا بكل بساطة!.. فكان الحزن يسيطر على نفوسهم..

فلما فرغ النبي ﷺ من كتابة المعاهدة التفت إلى أصحابه ثم أمرهم أن ينحروا الهدي.. وهو ما جاءوا به معهم ليذبحوه في عمرتهم من غنم وإبل.. وأمرهم أن يحلقوا رءوسهم..

فتفاجأ الناس؛ الأصل أن يفعلوا ذلك بعد العمرة.. ولا تزال نفوسهم معلقة بها.. فتباطئوا عن الاستجابة لأمره رجاء أن يتراجع عنه..

لكنه لم يتراجع.. وأخذ ينظر إليهم ينتظر تنفيذ الأمر.. فلم يقم أحد! فأعاد عليهم.. فلم يقم أحد!

فغضب ﷺ.. ودخل على زوجه أم سلمة.. فذكر لها أنه يأمرهم ولا يطيعون!

فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أي تحب أن يطيعوك؟ اخرج إليهم.. ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة.. حتى تنحر هديك.. وتدعو حالقك فيحلقك..

فخرج ﷺ ومضى يمشي ساكتًا لم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ما اقترحته عليه أم سلمة.. نحر هديه.. ودعا حالقه فحلقه.. فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا هديهم..

فانظري كيف أن امرأة واحدة.. واثقة بقدراتها.. معتزة بفكرها..

لم تحتقر نفسها بل أبدت رأيها.. وهم لم يحتقروها.. بل أخذوا بالرأي.. وعملوا به..

أريج: والله كلام رائع..

سارة: نعود إلى ما كنا فيه:

فأقول لك ـ أريج ـ: إن الله تعالى ساوى بين الجنسين الرجل والمرأة في كل شيء.. إلا فيما تقتضي طبيعة الرجل والمرأة الافتراق فيه..

فقال تعالى عن الرجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا...﴾، وقال عن النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ...﴾..

وكذلك ساوى بينهما في المسئولية عن البيت.. فقال ﷺ: «الرجل راعٍ على أهل بيته.. والمرأة راعية على بيت زوجها وولده.. فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1].

وساوى بينهما في العبادة والتكاليف الشرعية:

---

(١) متفق عليه.

فأوجب الله على الرجل والمرأة تكاليف متماثلة.. ساوى بينهما فيها..

فالصلاة واجبة على الرجل وواجبة على المرأة على السواء خمس مرات.. وصوم رمضان واجب عليهما جميعًا.. والزكاة واجبة عليهما جميعًا.. والحج واجب عليهما جميعًا..

بل إن الله خفف على المرأة أكثر من الرجل..

فأسقط عنها الصلاة والصيام أيام حيضها ونفاسها..

وساوى بين الرجل والمرأة في عمارة الأرض.. فكلاهما مأموران بالجد والعمل.. كما قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك:١٥].. وهذا خطاب للرجال والنساء..

وكلاهما مأموران بأنواع الطاعات.. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]..

والرجل والمرأة على السواء مأموران بطاعة الله ورسوله قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]..

بل إن نساء صالحات ضربن أروع الأمثال في الحرص على الطاعة وطلب العمل.. والتحبب إلى الله تعالى بأنواع القربات..

بطولات..

واصلت سارة قائلة:

أذكر أن إحدى الأخوات كانت مديرة لأحد دور تحفيظ القرآن النسائية، تقول:

لما افتتحنا الدار كان المبنى مرتفعًا قليلاً عن مستوى الشارع.. فكان هناك درج يحتاج الداخل إلى المبنى لصعوده.. وكانت الطالبات يصعدن وينزلن بكل سهولة..

في اليوم الأول للتسجيل في الدار فوجئت بامرأة كبيرة في السن.. جاءت تدفعها ابنتها على كرسي متحرك..

فلما وصلت إلى الدرج.. جعلت تلتفت إلى ابنتها.. وتنظر إلى الدرج.. ثم نزلت من كرسيها وأخذت تحبو على يديها وركبتيها على الدرج.. حتى دخلت الدار.. وسجلت اسمها لتحفظ معنا القرآن.. ثم خرجت بالطريقة نفسها..

وسمعت عن فتاة لها همة عظيمة أصيبت في حادث مروع.. صارت بسببه معاقة مشلولة على السرير أكثر من خمس عشرة سنة..

امتلأ جسمها قروحًا.. وتآكل اللحم بسبب ملازمتها للفراش.. ولا تستطيع أن تخرج الأذى من جسدها إلا بمعاونة أمها؛ لكن عقلها متدفق.. وقلبها حي مؤمن.

فكرت أن تخدم الإسلام.. فوجدت بعض الأساليب والطرق التي تنفع بها الدين.. وتنفع نفسها.. فاستخدمت ما تملك من قدرات..! تدرين ماذا فعلت؟

أولاً: فتحت بيتها لمن يشاء من النساء أن يزورها ليتعظ بحالها..

فصارت تأتيها النساء وطالبات دور تحفيظ القرآن.. فتلقي عليهن محاضرة بصوتها المؤثر..

ثانيًا: جعلت بيتها مستودعًا للمعونات العينية والمادية للأسر المحتاجة..

حتى صارت ساحة البيت الكبيرة مليئة بصدقات الناس التي يحضرونها وهي تتولى الاتصال بالأسر الضعيفة.. وإرسالها إليهم..

وكم من جائع سدت هذه المشلولة جوعته.. وكم من عار سترت عورته.. وكم من مريض سعت في علاجه..

ثالثًا: إذا أرسلت المعونات للأسر المحتاجة.. ترسل معها كتبًا وأشرطة نافعة..

وتقيم المسابقات على هذه الكتب والأشرطة.. لتتأكد من سماعهم لها..

رابعًا: لا تدع منكرًا من منكرات النساء إلا وتتصل على صاحبة المنكر وتنصحها..

خامسًا: تسعى في تزويج الفتيات العوانس عن طريق المتابعة الهاتفية مع الثقاة من أهل العلم والجمعيات الخيرية..

سادسًا: تساهم في إصلاح ذات البين وفي حلول المشاكل الزوجية..

إنها امرأة عجيبة والله..

كانت أريج في غاية المتعة وهي تستمع إلى هذه المعلومات والقصص.. وتستعيد في ذهنها ما سمعته مرارًا من المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة.. وما يردده بعضهم من أن المرأة مظلومة.. مبخوسة الحق.. كسيرة الجناح، ومن غير شعور أخذت أريج تردد: رائع.. رائع..

قالت سارة: بل هنا نقطة هامة..

عندما تطلق كلمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فالمقصود بها في القرآن والسنة: الرجل والنساء.. ففي القرآن أكثر من عشرين موضعًا ينادي الله فيها الرجال والنساء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾..

كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء:١٧٠].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء:١٧٤].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس:٥٧].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [فاطر:٥].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣].

نعم الرجال والنساء جميعًا يناديهم ربهم نداء واحدًا..

وانتقلي معي إلى المدينة.. وانظري إلى أمك أم سلمة رضي الله عنها.. وقد جلست يومًا في بيتها وهو ملاصق للمسجد.. وعندها جارية تمشط شعرها.. فبينما هي كذلك.. إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾..

فقالت للجارية استأخري عني.. وقامت لتذهب للمسجد.. فقالت الجارية: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء!

فقالت: «إني من الناس»[1].

---

(١) رواه مسلم.

قالت أريج: رضي الله عن أم سلمة..

هل تسمحين بسؤال..

سارة: لحظة.. بقي كلام قليل في موضوع المساواة.. ليتك تسمعينه مني..

أريج: تفضلي..

سارة: الرجل والمرأة كما هما متساويان في الواجبات.. كذلك هما متساويان في الجزاء..

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥].

وقال عز شأنه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤].

فجميع الأحاديث الواردة في فضائل الأعمال هي لكل المسلمين رجالاً ونساءً..

«من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة».. هي للرجال والنساء..

«من صلى لله اثنتي عشرة ركعة في يوم تنفلاً من غير الفريضة.. بنى الله له بيتًا في الجنة..» هي للرجال والنساء..

وهما متساويان أيضًا في العقاب:

ففي حالة انتهاك أي من الجنسين حدًا من حدود الله فإن العقاب واحد للذكر والأنثى دون تمييز أحدهما عن الآخر..

ففي عقاب الزنا قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

وفي عقاب السرقة قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨].

وفي عقاب النفاق والشرك قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣].

وفي القيمة الإنسانية.. جعل الله تعالى كليهما مكرمًا.. لا يجوز التنقص منه أو امتهانه..

قال الله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]. بنوعيه الذكر والأنثى..

وحرم تنقص المسلم عمومًا رجلاً كان أو امرأة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجُرات:١١].

أكرمكم أتقاكم..

كانت أريج تستمع إلى سارة بكل تركيز.. وسارة تتكلم بتدفق وحماس.. وفجأة.. سكتت سارة قليلاً وكأنها تدافع عبراتها.. وقد امتلأ قلبها بمحبة هذا الرب العادل الحكيم جل جلاله.. كيف يتهمون الدين الذي شرعه وأكمله.. أنه ظلم المرأة أو بخسها حقوقها.. ثم قالت بكل عز وحزم: مقياس التفاضل الوحيد بين الرجل والمرأة هو التقوى..

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجُرات:١٣].

نعم.. أكرمكم أتقاكم.. ليس أشدكم جسدًا.. ولا أكثركم مالاً.. ولا أقواكم ذكورة.. ولا أعظمكم فحولة.. وإنما أتقاكم..

بدت أريج متأثرة بما تسمع.. وقالت: ليت أكثر النساء اليوم المخدوعات بالدعوات الماجنة التي تردد: حقوق المرأة.. حقوق المرأة.. يعقلون مثل هذه المفاهيم..

ليتهن يدركن أن الله ليس بينه وبينهن عداوة.. ولا ثأر.. ولا انتقام.. وإنما هن من خلق الله.. تستطيع الواحدة منهن أن تبلغ أعالي الجنان وتسبق الرجال.. بتقواها..

قالت سارة: صحيح.. بل أزيدك: حتى عند الزواج حفظ الكرامة لكل منهما.. فقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وعن حكيم بن معاوية إنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟

قال: «أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت..».

وقال ﷺ: «ألا إن لكم على نسائكم حقًا.. ولنسائكم عليكم حقًا..».

وأمر الأولاد باحترام الرجل والمرأة.. أعني الأب والأم.. بل إن حق المرأة «الأم» أكبر..

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾ [الأحقاف:١٥].. فقدمها على الأب..

وفي «الصحيحين»: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن الصحبة؟ فقال ﷺ «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك»..

مها .. في بنطال أحمر!

كان الكلام حاميًا..لكن سكينة الإيمان كانت تحف مجلس سارة وأريج.. وفي هذه الأثناء.. كانت مها أخت أريج.. تبحث عنها في الممرات.. وقد تعجبت أين ذهبت!

كان واضحًا من طريقة لبس مها للحجاب أن عندها تساهلاً كثيرًا.. فعباءتها ضيقة يتبين منها بوضوح تفاصيل جسدها.. ومع مشيها يظهر البنطال الأحمر الذي ترتديه.. فيلفت النظر أكثر للالتفات إليها..

دخلت مها غرفة الاستراحة.. فرأت أريج مع سارة.. تعجبت من هذه الجلسة.. ألقت التحية وصافحت سارة وتعرفت اسمها بلطف.. وجلست تستمع للحوار..

كان الكلام ساخنًا..عن حقوق المرأة في الإسلام.. فلم تصبر مها.. فقالت بكل جرأة:

بصراحة.. يا سارة.. بعض النساء أذكى من الرجال.. وأكثر نجاحًا في الحياة.. فلماذا تريدين أنت وغيرك أن تفرقي بين الرجل والمرأة وتحددي لكل منهما مجالات خاصة لا يصلح أن يزاحمه فيها الآخر.. ودائمًا الرجل.. الرجل..

كانت مها متحمسة كثيرًا وهي تلقي هذا السؤال..

ضحكت سارة.. وقالت: وأيضًا.. دائمًا المرأة.. المرأة..

اسمعي يا مها..

قدر الله وقضى أن الذكر ليس كالأنثى في صفة الخلقة والهيئة والتكوين.. فالرجل أقوى من المرأة جسدًا.. وأضعف عاطفة.. والمرأة أقوى منه عاطفة.. وأضعف جسدًا.. وكل منهما مطالب بأن يستثمر قوته..

مها: كيف؟!

سارة: المرأة لها طبيعتها الجسدية الخاصة.. يعتريها الحيض والحمل.. والمخاض والولادة.. والإرضاع وشئون الرضيع.. وتربية جيل الأمة المقبل.. ولهذا خلقت الأنثى من ضلع

آدم عليه السلام.. خلقت من عظام الصدر.. قريبة من القلب..

أما الرجل فمؤتمن على القيام بشئون الأسرة.. المرأة والأولاد.. وحفظها والإنفاق عليها.. ولذلك خلق غليظًا.. من تراب الأرض..

ومن آثار هذا الاختلاف في الخلقة:

الاختلاف بينهما في القوى.. والقدرات الجسدية.. والعاطفية..

الاختلاف والتفاوت والتفاضل بين الرجل والمرأة في بعض أحكام التشريع..

فلما كان الرجل في طبيعته الجسدية.. لا أعني الذكاء والفطنة.. بل أقول: في قوته الجسدية أقوى وأقدر على التحمل جعله الله مسئولاً عن السعي والإنفاق على من في البيت، ولما كانت المرأة أقدر على إدارة البيت والقرب من الصغار.. وأعرف بحل مشاكل الأولاد.. جعلها مسئولة عن القيام بشؤون البيت.. وتربية جيل الأمة.. وقد أدركت أم مريم – وهي امرأة – هذا الفوارق فقالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾[آل عمران:٣٦]..

كأن مها لم تقتنع بكلام سارة كثيرًا.. فالتفتت إليها سارة وقالت:

مها.. عذرًا.. أنت لو كنت مدرسة وأردت أن تنظمي حفلاً في مدرستك.. وأردت أن تقومي بعدة أعمال في قاعة الاحتفال.. من تنظيف.. ورسم صحائف.. وتعليق أوراق.. ومسح سبورة.. وإعداد كلمات..

وعندك عشرون طالبة.. متنوعات فيهن السمينة.. والنحيفة.. وفصيحة اللسان.. والأقل من ذلك.. والجريئة.. والخجولة.. فمن ستختارين للوقوف على الكراسي وصعود السلم لتعليق الأوراق؟ الطالبة السمينة.. أليس كذلك؟

تبسمت مها وقالت: لا طبعًا.. بل الطالبة النحيفة الخفيفة..

قالت سارة: ومن ستختارين للتنظيف..؟ الطالبة الفصيحة الجريئة.. صحيح؟!

قالت مها: لا طبعًا.. هذه سأجعلها تلقي الكلمة الترحيبية.. وغيرها يتولى صف الكراسي والتنظيف.. و..

قالت سارة: هل في تقسيمك هذا ظلم لأحد..

قالت مها: لا طبعًا.. كلهن أعمالهن مهمة.. تكامل وتعاون..

قالت سارة: لو احتجت السمينة.. واعترضت الخجولة.. والنحيفة لم ترض بعملها.. والجريئة أبت أن تلقي الكلمة..

مها: لا.. لن أقبل اعتراضها.. لأن إسناد العمل الذي يناسب طبيعتها.. ليس ظلمًا لها.. شعرت سارة أنها وصلت إلى ما تريد.. وقالت:

لماذا تعترضين على تخصيص الرجل بشيء وتخصيص المرأة بشيء كل بناء على قدراته..!

يبدو أن أريج تحمل فكرة مها نفسها.. فقالت ـ مقاطعة سارة ـ: يعني حرام المرأة تخرج من بيتها..!

سارة ـ متعجبة ـ: لا.. ليس حرامًا.. وأنا لم أقل ذلك..

أريج: هناك أعمال يقوم بها الرجل تستطيع المرأة أن تعملها مثله.. بل قد تكون أحسن منه..

سارة: صحيح.. أنا معك في هذا.. لكن ما رأيك في امرأة تعمل في محل (بنشر)! تفك إطارات السيارات.. وعجلات الشاحنات.. وتصلح وتشتغل؟

ما رأيك بامرأة تعمل في إزالة انسداد أنابيب المجاري.. فتحفر الأرض.. وتنقل التراب.. وربما نزلت في الأنابيب.. وفتشت عن الأوساخ..

ما رأيك بامرأة في شدة الحر.. لمدة ثمان ساعات يوميًا.. تسوق الونش الكبير.. وتحرك رافعته لحمل السيارات المتعطلة.. ورفع الأثقال والحديد لأعالي البنايات..

ما رأيك بامرأة تعمل في حفر الآبار.. وبناية الجسور.. وتحمل أكياس الأسمنت من سيارة إلى أخرى..

ما رأيك بامرأة..

كانت أريج ومها يكتمان ضحكة مدوية أثناء استماعهما للأمثلة التي تسوقها سارة.. وفجأة ضحكت الفتاتان بصوت عالٍ..

جعلت سارة تهدئ من أصواتهما.. كان واضحًا أن كل عاقل ـ مسلمًا أو غير مسلم ـ يعلم أن هذه الأمور لا توافق طبيعة المرأة.. بل حتى أصحاب الشركات لا يكادون يوظفون

النساء في هذه الوظائف لعلمهم بعدم قدرتهن على المواصلة فيها..

بل إن المرأة إذا عملت فيها بدأت تفقد أنوثتها ونعومتها شيئًا فشيئًا.. فيغلظ جلدها.. وتبرز عضلاتها.. ويتغير لونها..

جعلت أريج ومها.. تمسحان دموعهما من كثرة الضحك.. وسارة تردد: اتركوني أواصل..

أريج: عذرًا.. تفضلي أكملي..

سارة: الرجاء عدم الضحك..

مها: لابأس..

سارة: وبالمقابل..

ما رأيك برجل يجلس في البيت.. يعمل الرضاعة للصغير.. ثم يجلسه في حضنه ويرضعه..

وإن بكى الصغير أخذ يهزه ويطربه ببعض الأهازيج حتى يسكت..

وإذا تفاجأت إحدى بناته بشيء من علامات البلوغ.. أقبل إليها وفهمها الموضوع.. وحدثها عن مرحلة الحياة الجديدة التي تستقبلها..!

وإن نام ليلة بجانب زوجته.. وسمعوا بحركة لص دخل البيت.. اكتفى بإيقاظ زوجته لتعالج الموضوع.. وتولى هو الصراخ.. وجمع الأطفال!

وما رأيك برجل..

انطلقت أريج مرة أخرى ضاحكة.. وقالت: المفروض أن المرأة هي التي تصرخ وهو يتفاهم مع اللص..

ردت سارة بذكاء: لماذا؟! مساواة.. كلاهما يمكن أن يقوم بالعمل نفسه..

فقالت مها: عجيب! حتى حليب الطفل هو الذي يصنعه! ويضجعه في حضنه ويرضعه..! ويحل مشاكل بناته!

ما بقي إلا أن يحمل ويلد أيضًا..

عندها جاء دور سارة بالضحك.. فجعلت طرف عباءتها على فمها وغرقت في الضحك.. وقد تخيلت رجلاً حاملاً!

لماذا الفوارق؟!

سارة: أعود إلى بعض الفوارق بين الرجل والمرأة التي هي بسبب افتراقهما في طبيعة الخلقة والتكوين..

فمن الأحكام التي اختصت بها النساء: أنها ملكة مخدومة.. فيجب على الرجل أن ينفق على زوجته.. وابنته وأمه وكل من كانت تحت ولايته.. ولا يجوز أن يقصر عنها بطعام ولا شراب ولا مسكن ولا ملبس ولا علاج.. ويجب عليه أن يحميها من كل ضرر ينال عرضها.. بل قد قال ﷺ: «من قتل دون عرضه فهو شهيد»..

فالرجال قوامون على النساء بالرعاية وحراسة الفضيلة.. والكسب والإنفاق عليهن.. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤]؛ لأن رعاية البيت والدفاع عنه تناسب طبيعته.. فهو يحمي الجبهة الخارجية.. والمرأة تحمي الجبهة الداخلية..

لذا أوجب الله على الرجال عبادات أسقطها عن النساء.. فمثلاً: يجب عليهم الجهاد.. ويجب عليهم شهود صلاة الجمعة.. والخروج في شدة الحر والبرد للصلاة في المسجد..

قالت أريج:.. لكن.. سارة.. اسمحي لي.. يعني.. يعني..

وبدت أريج مترددة في كلامها..

قالت سارة: هاه.. ماذا عندك؟!

أريج: هناك بعض الفوارق..

لماذا تأخذ المرأة نصف ميراث الرجل؟! أليس في هذا تفريق بينهما؟!

فقالت سارة ـ وقد تملكت محبة الله وتعظيمه قلبها ـ: أريج:.. لنكن واضحين..

أنت تتوقعين أن الإسلام بينه وبين المرأة عداوة! تعالى الله..

لو كان الأمر كذلك.. لما خفف على المرأة في الصلاة.. فهي تصلي في البيت.. وتمكث أيامًا من الشهر في إجازة من الصلاة في فترة عادتها الشهرية..!

وخفف عليها في الصوم فتفطر أيامًا من رمضان أيضًا.. والحج يسقط عنها مهما

ملكت من أموال الدنيا ما دامت لم تجد محرمًا يذهب معها ويعتني بها.. و..

أريج: أدري أن الله تعالى حكم عدل.. ولا يظلم ربك أحدًا..

لكن.. ما سبب التفريق في الميراث؟!

سارة: لا يشرع الله تعالى شيئًا إلا لحكمة.. وهو سبحانه الرب العظيم الأعلم بمصلحة عباده..

افترضي أن رجلاً مات وورثه ولد وبنت.. فلما أحصينا التركة إذا هي مائة وخمسون ألفًا..

كم للولد وكم للبنت؟

أريج: للبنت خمسون ألفًا.. وللولد مائة ألف..

سارة: بعد سنة خطبت البنت.. وأعطاها خطيبها مهرًا قدره خمسون ألفًا.. كم صار عندها؟

أريج: مائة ألف..

سارة: جاءتها هدايا بعد زواجها بما مجموعه عشرون ألفًا.. كم صار عندها؟

أريج: مائة وعشرون ألفًا..

سارة: وجهز زوجها الشقة واشترى الأثاث وتكفل بكل التكاليف الأخرى - إن وجدت - كالسفر.. والولائم.. والهدايا.. و..

أما الولد فإنه خطب فتاة.. وأعطاها مهرها خمسين ألفًا.. فكم بقى عنده؟

أريج: خمسون ألفًا..

ثم اشترى أثاث الشقة من غرفة نوم وأثاث مطبخ وجهز مجالس الضيوف.. وأنفق في تكاليف الزواج الأخرى ستين ألفًا.. كم بقي عنده؟

تبسمت أريج وقالت: يكون مديونًا بعشرة آلاف..

سارة: وبقي عليه الإنفاق على البيت.. وتدريس الأولاد.. والإنفاق على الزوجة.. و.. وكل هذه تكاليف لا تجب على المرأة..

أما أخته فالمائة ألف قد جعلتها في مشروع يدر عليها أرباحًا.. وزوجها ينفق عليها وعلى

أولادها.. ويسدد إيجار الشقة وفواتير الهاتف والكهرباء والماء..

يعني يا أريج.. الحقوق الواجبة في مال الرجل أكثر من الحقوق الواجبة في مال المرأة.. ومقدار كبير من مال الرجل يصرفه على المرأة.. سواء كانت زوجة أو بنتًا أو أمًّا أو أختًا.. فالأمر كما قال الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣] جمع بين الحكمة في التشريع.. والعلم بحاجات الناس..

كان الهدوء والخشية ظاهرين على محيا أريج ومها.. وهما تتأملان في حكمة هذا الرب العظيم.. الحمد لله.. كم أحبك يا ربي..

عجبًا.. ما أعدلك وأحكمك..هل نبحث عن حكم غير حكمك؟ أو شريعة أكمل من شريعتك؟

أين هؤلاء المطبلون الذين يخفون عنا هذه الحكم العظيمة في التشريع؟

أعوذ بالله.. يحاولون أن يصرفونا عن الدين وكأنه للرجال دون النساء..

إن ربك حكيم عليم

قالت سارة: وعمومًا يجب علينا جميعًا أن نرضى بما قسم الله لنا.. فكما أن الرجل لا يجوز له أن يتمنى ما فضلت به المرأة من لبس الذهب والحرير.. وسقوط كثير من التكاليف الشرعية عنها.. والتخفيف عليها في العبادات.. مع وجوب كل ذلك على الرجل..

كذلك المرأة ينبغي أن ترضى بما قسم الله لها.. ولا يجوز لمسلم ولا مسلمة أن يتمنى ما خص الله به الآخر من الفوارق المذكورة؛ لأن في ذلك تسخطًا على قدر الله.. وعدم رضا بحكمه وشرعه؛ ولهذا قال الله تعالى ناهيًا عن ذلك: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٢].

وإذا كان هذا النهي ـ بنص القرآن ـ عن مجرد التمني.. فكيف بمن ينكر الفوارق الشرعية بين الرجل والمرأة.. وينادي بإلغائها.. ويدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة فيما لا يمكن أن يساوي بينهما فيه؟

ووالله لو حصلت المساواة في جميع الأحكام - مع الاختلاف في الخلقة والقدرات - لكان هذا انعكاسًا في الفطرة.. ولكان هذا هو عين الظلم لكل منهما..

ولباس التقوى..

مها: ولذلك أوجب الله على المرأة الحجاب.. وفرض عليها الستر.. والرجل يلبس ما يشاء..

سارة: لا.. ليس صحيحًا! الرجل لا يلبس ما يشاء..

مها: كيف؟!

سارة: الحجاب والستر.. فرض على كل مسلم من رجل أو امرأة.. حتى الرجل مع الرجل.. والمرأة مع المرأة.. وأحدهما مع الآخر.. كل بما يناسب فطرته.. وبحسب وظائفه الحياتية التي شرعت له..

فواجب على الرجال ستر عوراتهم من السرة إلى الركبة عن الرجال والنساء.. إلا عن زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم..

ونهى الشرع عن نوم الصبيان في المضاجع مجتمعين.. وأمر بالتفريق بينهم.. مخافة اللمس والنظر.. المؤدي إلى إثارة الشهوة..

وكانت قريش في الجاهلية يطوفون بالكعبة عراة.. ويقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها! فلما فتح النبي ﷺ مكة قال: «لا يطوفن بالبيت عريان.. رجلاً كان أو امرأة»..

ولا يجوز أن يصلي أحد وهو عريان.. حتى لو كان وحده بالليل في مكان خالٍ لا يراه أحد.. ونهى النبي ﷺ إذا كان أحدنا خاليًا أن يتعرى.. وقال ﷺ: «فالله أحق أن يستحيا منه من الناس»..

وفي الإحرام: معلومة الفوارق بين الجنسين..

ونهى الرجال عن الزينة المخلة بالرجولة من التشبه بالنساء في لباس أو حلية أو كلام.. أو نحو ذلك.. ونهى الرجل عن الإسبال تحت الكعبين..

أما المرأة فمأمورة بستر قدميها.. إما بتطويل ثوبها أو بلبس الجوربين..

وأمر الله المؤمنين بغض أبصارهم عما يظهر من عورات الآخرين بغير قصد.. أو مما

ووالله لو حصلت المساواة في جميع الأحكام ـ مع الاختلاف في الخلقة والقدرات ـ لكان هذا انعكاسًا في الفطرة.. ولكان هذا هو عين الظلم لكل منهما..

ولباس التقوى..

مها: ولذلك أوجب الله على المرأة الحجاب.. وفرض عليها الستر.. والرجل يلبس ما يشاء..

سارة: لا.. ليس صحيحًا! الرجل لا يلبس ما يشاء..

مها: كيف؟!

سارة: الحجاب والستر.. فرض على كل مسلم من رجل أو امرأة.. حتى الرجل مع الرجل.. والمرأة مع المرأة.. وأحدهما مع الآخر.. كل بما يناسب فطرته.. وبحسب وظائفه الحياتية التي شرعت له..

فواجب على الرجال ستر عوراتهم من السرة إلى الركبة عن الرجال والنساء.. إلا عن زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم..

ونهى الشرع عن نوم الصبيان في المضاجع مجتمعين.. وأمر بالتفريق بينهم.. مخافة اللمس والنظر.. المؤدي إلى إثارة الشهوة..

وكانت قريش في الجاهلية يطوفون بالكعبة عراة.. ويقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها! فلما فتح النبي ﷺ مكة قال: «لا يطوفن بالبيت عريان.. رجلاً كان أو امرأة»..

ولا يجوز أن يصلي أحد وهو عريان.. حتى لو كان وحده بالليل في مكان خالٍ لا يراه أحد.. ونهى النبي ﷺ إذا كان أحدنا خاليًا أن يتعرى.. وقال ﷺ: «فالله أحق أن يستحيا منه من الناس»..

وفي الإحرام: معلومة الفوارق بين الجنسين..

ونهى الرجال عن الزينة المخلة بالرجولة من التشبه بالنساء في لباس أو حلية أو كلام.. أو نحو ذلك.. ونهى الرجل عن الإسبال تحت الكعبين..

أما المرأة فمأمورة بستر قدميها.. إما بتطويل ثوبها أو بلبس الجوربين..

وأمر الله المؤمنين بغض أبصارهم عما يظهر من عورات الآخرين بغير قصد.. أو مما

يظهر من زينة المرأة.. وحرم الله النظر إلى كل ما يثير الشهوة.. وهذا أدب شرعي عظيم في مباعدة النفس عن الحرام..

وهذه الأمور التي تقدمت كلها في الحجاب العام الذي أوجبه الله على الرجل والمرأة..

فالرجل مأمور بحجب أشياء من جسده.. والمرأة مأمورة بالحجاب أيضًا..

والمرأة أولى بالتستر لأن الأنظار الطامعة تسبق إليها؛ لذلك أمرها الله تعالى بتغطية زينتها.. وستر مواضع جمالها.. وأولها الوجه.. حتى تكتمل أنوثتها.. ولا يخدش أحد عفافها..

قالت أريج: فعلاً.. والله كلام رائع..

أذكر أن امرأة كانت متمسكة بصلاتها.. وكان زوجها يحبها كثيرًا ويغار عليها.. وكانت متساهلة بالحجاب.. فربما كشفت وجهها أمام إخوانه.. بل وأصدقائه أحيانًا.. وأحيانًا قد تصافحهم..

كان زوجها كثير الشكوك فيها.. وتكثر مشاكلهما بسبب كثرة شكوكه وأسئلته الاتهامية المتتابعة.. وقد رزقهما الله ﷻ بولدين كالقمرين.. كانت المرأة تصبر لأجلهما.. كثرت المشاكل بسبب أسئلته: ماذا يقصد فلان بنظرته..؟ فلان لم صافحته.. لماذا أطلت بقاء يدك في يده؟ فلان لماذا تضحكين على نكته؟

كان زوجها رجلاً عنده غيرة.. ويشعر أنه ملك وهي ملكة.. والملكة لا ينبغي أن يشارك الملك فيها أحد..

تقول هذه المرأة: من كثرة المشاكل فكرت في طلب الطلاق مرارًا.. وكان إذا سافر ارتاح.. وإذا حضر فنحن في مشاكل..

تعبت كثيرًا من كثرة التفكير.. ما الحل؟

فقررت يومًا: أن أتبع ما أمر الله به المؤمنات من لبس الحجاب.. وترك مصافحة الرجال.. فالتزمت بالحجاب الشرعي.. وغطيت وجهي.. فلا يراه إلا زوجي ومحارمي.. وتجنبت الاختلاط بالرجال الأجانب عني..

والله لقد شعرت بلذة عظيمة.. شعرت بعزة.. شعرت أن من كنت أخالطهم لما علموا بحجابي ازدادت قيمتي عندهم.. احترموني أكثر.. فعلاً هذه هي الفطرة التي خلق الله

عليها المرأة.. ومن بعدها.. لم يقع بيننا مشكلة واحدة.. والحمد لله..

ثم واصلت سارة قائلة: لذلك - أريج - فرض الله على المرأة الحجاب لأنه خالقها والأعلم بها..

سارة: صحيح.. لذلك ما شرع الله تعالى شيئًا إلا لحكمة يعلمها..

حمي الوطيس!

أريج: أعلم أن العلماء اختلفوا في مقدار الحجاب الواجب على المرأة.. لكن ماذا لو أن المرأة سترت جميع جسدها وأخرجت وجهها وكفيها؟!

سارة: يبدو أن نقاشنا سيكون حاميًا؛ الآن.. لأن هذه النقطة هي التي جلست معك لأجلها..

أريج: نعم حمي الوطيس.. ولكن لا بأس.. ثقي تمامًا أني أطلب الحق وأحرص على طاعة ربي.. فأقنعيني بالأدلة الشريعة..

سارة: الحكم الذي دلت عليه الأدلة المتعددة من القرآن والسنة.. ودل عليه الإجماع العملي من نساء المؤمنين من عصر النبي ﷺ. ودل على هذا الحكم أيضًا عمل النساء في عصر الخلافة الراشدة.. وعمل النساء أيضًا بهذا الحكم خلال القرون المفضلة.. وهي الـ(٣٠٠ سنة) الأولى من تاريخ الإسلام..

بل.. واستمر العمل بهذا الحكم إلى انحلال الدولة الإسلامية وانقسامها إلى دويلات في منتصف القرن الرابع عشر الهجري.. و..

أريج: عذرًا! أي حكم؟

سارة: وجوب تغطية المرأة لوجهها..! نعم.. ولم يعرف اشتهار كشف المرأة لوجهها إلا في السنين المتأخرة!

أريج: هذا غريب..! أنت متأكدة؟

سارة: سأثبت لك ذلك.. أما أن كشف الوجه لم يكن موجودًا قط.. وكان المعروف من نساء المسلمين ستر وجوههن.. فهذا كلام أكثر العلماء..

وأنا لا أحفظ ذلك الآن.. لكنه موجود في مطوية صغيرة مختصرة تحمل توجيهات للمرأة.. كنت قد أحضرت منها مجموعة لأمي لتوزعها على المرضات..

انتظري قليلاً لعلي أن أجد منها نسخة..

غابت سارة قليلاً ثم عادت ومعها الورقة التي تريد.. جلست ثم بدأت تقلب نظرها في التوجيهات لتختار الخاص منها بالحجاب..

ثم بدأت تقرأ:

التوجيه الثالث:

تساهل بعض الأخوات بكشف الوجه.. مع أن المسلمات طوال العصور لم يزل عملهن على تغطية الوجه.. ولقد ذكر ذلك العلماء المتقدمون والمتأخرون..

قال الحافظ ابن حجر (توفي سنة ٨٥٢هـ): «لم تزل عادة النساء قديمًا وحديثًا يسترن وجوههن عن الأجانب»..

وقال أبو حامد الغزالي: «لم يزل الرجال على مر الزمان مكشوفي الوجوه، والنساء يخرجن منتقبات» «فتح الباري» (٣٣٧/٩).

وقال الإمام المفسر السيوطي المصري (المتوفى سنة ٩١١هـ) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩]: هذه آية الحجاب في حق سائر النساء، ففيها وجوب ستر الرأس والوجه عليهن.

ومما يؤكد هذا أنك لا تجدين مسألة كشف الوجه من عدمه قد أخذت حيزًا كبيرًا في مصنفات العلماء السابقين، ولم تستغرق جهدهم ووقتهم، بل لا يكاد يوجد مصنف خاص بهذه المسألة: مما يدل دلالة واضحة أن كشف الوجه لم يكن معروفًا عندهم وبالتالي ما احتاج العلماء أن يؤلفوا في الرد على من يفتي بجواز كشف الوجه..

وتغطية المرأة لوجهها عمل تتوارثه الأجيال.. بل حتى الصور (الفوتغرافية) التي التقطت قديمًا لديار المسلمين المختلفة (تركيا، مصر، تونس، الشام.. إلخ) تؤكد أن المرأة المسلمة كانت تغطي وجهها..

كما في كتاب «مكتب عنبر» للقاسمي، وكتاب «الطاهر الحداد» و«مسألة

الحداثة» لأحمد خالد، وأي كتاب يتحدث عن ثورة ١٩١٩ المصرية..

التوجيه الرابع:

قالت أريج: يكفي.. سارة.. والله كلام مقنع.. ولكن يمكن قصدهم بالحجاب غير الذي عندنا..

سارة: لا.. الحجاب الشرعي صفته وشروطه معروفة..

وحجاب المرأة شرعًا هو: ستر المرأة جميع بدنها وعدم إبداء زينتها أمام الأجانب عنها.. كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور:٣١]..

أريج: أنا لا أعارضك في هذا.. ولكن الله تعالى لما نهى عن إظهار الزينة قال بعدها: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١].. يعني الوجه والكفين..

سارة: لا.. ليس الوجه والكفين.. بل المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ هو الزينة التي تظهر من نفسها.. كطول المرأة وقصرها.. ونحافتها أو سمنها..

وكذلك ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من غير قصد.. كما لو أزاحت الريح العباءة عما تحتها من اللباس أو البدن.. فظهر شيء من زينتها اضطرارًا لا اختيارًا.. لذلك قال الله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولم يقل: إلا ما أظهرن..

فقوله: إلا ما ظهر: أي لم تتعمد المرأة إخراجه.. ولم تقصد.. وإنما ظهر من قبل نفسه لا بفعلها هي..

أريج: رائع..

سارة: وأزيدك فائدة أخرى وهي:

بم يكون الحجاب؟

الحجاب يكون بـ: الجلباب، والخمار..

والخمار: هو الغطاء.. والتخمير في اللغة هو الستر والتغطية.. وهو ما تغطي به المرأة رأسها ووجهها وعنقها وجيبها.. فكل شيء غطيته وسترته فقد خمرته.. ومنه الحديث المشهور: «خمروا آنيتكم» أي: غطوا فوهتها ووجهها حتى لا تقع فيها الدواب.. ومنه سميت

الخمر خمرًا.. لأنها تغطي العقل..

وصفة لبس الخمار: أن تغطي المرأة ما جرت العادة بكشفه في منزلها.. أي: أن تضع الخمار على رأسها.. ثم تلفه حول وجهها.. ثم تلقي بما بقي منه على وجهها ونحرها وصدرها.. وبهذا تتم تغطية ما جرت العادة بكشفه في منزلها..

فهي في البيت أمام محارمها.. تكشف زينتها شعرها وجهها ورقبتها ونحرها.. فإذا خرجت أمرت بتغطية ما كانت تكشفه في بيتها من زينة الشعر والوجه..

ويشترط لهذا الخمار:

أن لا يكون رقيقًا يشف عما تحته من شعرها ووجهها.. أو عنقها ونحرها وصدرها أو أذنيها؛ عن أم علقمة قالت: رأيت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر.. دخلت على عمتها عائشة رضي الله عنها وعليها خمار رقيق يشف عن جبينها.. فشقته عائشة عليها..

وقالت: أما تعلمين ما أنزل الله في سورة النور؟ ثم دعت بخمار فكستها[1]..

هذا هو الجزء الأول من الحجاب.. الخمار الذي يغطي الشعر والوجه..

والجزء الثاني هو الذي يغطي بقية البدن:

الجلباب.. وهو: قماش تلبسه المرأة ابتداء من رأسها إلى قدميها.. ويكون ساترًا لجميع بدنها وما عليها من ثياب وزينة.. وهو المسمى اليوم: العباءة.. التي تلبسها نساء الجزيرة العربية.. فهذه العباءة تستر الزينة التي على المرأة..

قالت أريج: لكن ـ سارة ـ ألا تلاحظين أن عددًا من النساء وإن لبست العباءة وغطت وجهها تكون مظهرة لزينتها؟!

سارة: ماذا تقصدين؟

أريج: عدد من زميلاتي.. يلبسن عباءات تربط بحبل من الجنب فتفصل جسدها من أمامها وخلفها.. أو عباءات ضيقة جدًا تبرز الصدر ومفاتنه.. أو..

فقاطعتها مها قائلة: لا.. وآخر الصيحات كتابة اسم صاحبة العباءة عليها.. أو الحروف

---

(١) رواه ابن سعد والإمام مالك في «الموطأ».

الأولى من اسمها باللغة العربية أو الإنجليزية..

قالت سارة: أعلم والله أن هذا موجود.. وقد قرأت فتاوى كثيرة جداً بتحريم لبس هذه العباءات.. وبيعها وشرائها.. والاتجار بها؛ لأن بيعها ونشرها من التعاون على الإثم والعدوان.. والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة:٢] ..

أريج: ـ عذرًا سارة ـ إذا لبست عباءة ساترة.. لا تفصل شيئًا من جسدي.. وكشفت الوجه والكفين.. من دون أن أضع أي نوع من الماكياج أو العطور.. فقط يظهر وجهي وكفاي.. فما المشكلة؟!

قالت مها: إي والله.. ما المشكلة؟!

تبسمت سارة وقالت: ما المشكلة؟! المشكلة كبيرة..

أريج: كيف؟!

سارة: أنت مسلمة وتقتنعين بالأدلة الشريعة؟!

أريج: طبعًا.

سارة: إذن اسمعي مني.

ذكرت لك أن النساء من عصر الصحابة رضي الله عنهم .. والتابعين.. وعلى مر قرون مضت بالمسلمين.. كن لا يخرجن أمام الرجال سافرات الوجوه ولا حاسرات عن شيء من الأبدان.. ولا متبرجات بزينة.. واتفق المسلمون على هذا العمل..

حكى ذلك جمع من الأئمة من جميع المذاهب.. منهم الحافظ ابن عبد البر المالكي.. والإمام النووي الشافعي.. وشيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي.. وغيرهم.. واستمر العمل به إلى نحو منتصف القرن ١٤هـ.. وقت انحلال الدولة الإسلامية إلى دول..

وكانت بداية السفور بخلع الخمار عن الوجه في مصر.. ثم تركيا.. ثم الشام.. ثم العراق.. وانتشر في المغرب الإسلامي.. وفي بلاد العجم..

ثم ازداد الأمر انحدارًا.. إلى الخلاعة والتجرد من الثياب الساترة لجميع البدن.. فإنا لله وإنا إليه راجعون..

وكان لبداية السفور عن الوجه قصة..

تحمست مها.. وقالت: قصة! سارة أرجوك.. احكيها لنا..

سارة: سأحكيها لك؛ لأن معرفتها مهمة؛ ولأن كثيرًا من بلاد الإسلام المحافظة تسير مع الأسف في الطريق نفسه..

ولكن ما رأيك أن نعرف أولاً.. الأدلة الواضحة على وجوب تغطية المرأة لوجهها.

أريج: ما شاء الله عليك.. هل تحفظينها كلها..

لقاء آخر..

كانت سارة مثقفة.. لكنها لم تعلم أنها ستكون في مناظرة حول الحجاب..

فقالت: لا أحفظ الأدلة كلها.. لكني زرت معرض الكتاب المقام في الجامعة بالأمس.. واطلعت على كتاب فيه معلومات عن الحجاب.. وتاريخه.. والأدلة على وجوبه.. وقصة نزعه في بعض بلاد الإسلام.. وسوف أذهب بإذن الله بعد العصر لشرائه..

تحمست أريج والتفتت إلى مها وقالت: مها.. ما رأيك أن نزور هذا المعرض لنستفيد؟

لم تكن مها تحب الكتب والقراءة، وهي بالكاد تتحمل قراءة كتبها الدراسية؛ لكنها هزت رأسها موافقة رجاء أن تلتقي بسارة مرة أخرى..

تواعدت الفتيات الثلاث بعد العصر في معرض الكتاب بالجامعة.. ثم افترقن.. ولم تنس مها أن تطبع قبلة على رأس سارة إعجابًا بأدبها.

في السيارة أثناء العودة إلى البيت كان النقاش حاميًا بين أريج ومها حول ما ذكرته سارة من معلومات.

قالت مها: اقرأ كثيرًا في الإنترنت مقالات حول التضييق على المرأة وأنها مظلومة.. وأتمتع بقراءة الدعوة إلى انطلاقها.. والصحف أيضًا فيها عدد كبير من ذلك..

لكن هل تصدقين أني الآن أيقنت أن كل ما كنت أقرؤه هو هراء.. وأني إن تبذلت وتكشفت وأظهرت زينتي فأول من سيستمتع بذلك هو الرجل.. لا وليس الرجل الصالح التقي النافع لدينه وبلده..

فهذا سيغض بصره.. ولكن سيتمتع به الرجل الفاجر الذي يغريني بالتكشف ليتمكن من عفتي.. أعوذ بالله..

أعجبت أريج كثيرًا بهذا الكلام من مها.. لأنها طالما نصحتها بحسن التستر وترك التبرج في لبس العباءة.. وعدم إظهار الألوان الصارخة..

كانت أريج أكبر سنًا من مها.. ولعلها أعقل أيضًا.. ولم تكن تتعامل مع قضية الحجاب تعامل الفتاة الطائشة التي تتساهل بأحكام الدين.. وتلبس ما شاءت من العباءات واللباس مهما قيل لها بصوت عال: حرام.. بل كانت أريج مصلية صائمة.. لكنها كانت مثقفة تحب القراءة.. قرأت في بعض المقالات أن كشف المرأة لوجهها جائز.. ما دامت غير متبرجة في لباسها.. وقرأت أيضًا ما يردده بعضهم من القول بأن: جواز كشف المرأة لوجهها هو قول جمهور العلماء..!

وأن علماء السعودية فقط هم الذين يحرمون كشف الوجه، أما علماء مصر والشام واليمن وتركيا و.. جميع بلاد العالم فيبيحون كشفه..

وقرأت أيضًا: أن تغطية الوجه ليست من الدين.. بل هي عادات وتقاليد لا يلزم التقيد بها..!

كلام سارة الذي تكلمت به بكل بساطة.. جعل أريج تعيد حساباتها من جديد.. وتفكر في مصداقية ما تقرؤه في المقالات المتفرقة في الجرائد والمجلات.. وربما الإنترنت أيضًا..

أدركت أنها كانت تقبل كل كلام دون أن تتأمل في ثقة صاحبه.. وقوة علمه.. وتقواه...

مضت الساعات بطيئة على أريج ومها.. وهما ينتظران لقاء سارة..

دقت الساعة الرابعة.. توجهت سارة إلى الجامعة لزيارة معرض الكتاب ولقاء الفتاتين.. وتوجهت أريج ومها إلى الجامعة أيضًا..

كان المعرض متواضعًا.. يقام سنويًا لفتيات الجامعة.. ويفتح المجال للزائرات من خارج الجامعة؛ فكانت الزائرات يتنوعن ففيهن طالبات في الثانوية، وفيهن ربات بيوت، وفيهن من تأتي لا لشراء الكتب بل للفرجة وتغيير الجو فقط.

وصلت سارة مبكرة.. واشترت الكتاب.. وأخذت تقلب صفحاته في انتظار وصول أريج ومها..

وصلت الفتاتان.. التقت بهما سارة ومعها الكتاب.. كانت سارة تعلم أن النقاش سيكون حاميًا وطويلاً.. فتوجهت بهما إلى مطعم الجامعة..

في مطعم الجامعة..

كان المطعم كبيرًا يحتوي على طاولات دائرية.. تكفي كل واحدة لجلوس أربع طالبات.. لكن الزحام فيه كان شديدًا بسبب معرض الكتاب.. إضافة إلى وجود بعض الأطفال الصغار مع أمهاتهم..

جعلت الثلاث يبحثن عن مكان مناسب بعيد عن الإزعاج.. حتى رأت مها طاولة في الزاوية اليسرى بعيدة عن الناس.. فأشارت إليها.. فتوجهت الثلاث وجلسن عليها.

أخرجت سارة كتاب الحجاب وبدأت تتصفحه وتختار منه بعض المواضع لقراءته، يبدو أن سارة نسيت نفسها، وبدأت تقرأ بعض الصفحات.

قالت أريج: ما رأيك أن تقرئي علينا الفهرس.. ونختار منه ما يهمنا.

بدأت سارة تقرأ الفهرس..

ص٣ المقدمة..

ص٦ أهمية الحجاب..

ص١١ لماذا فرض الحجاب؟

ص١٥ الأدلة من القرآن والسنة على وجوب تغطية المرأة لوجهها..

ص٣١ إجماع الأئمة الأربعة على وجوب تغطية الوجه..

ص٣٧ أقوال العلماء من شتى الأقطار بوجوب تغطية المرأة لوجهها..

ص٤٣ قصة نزع الحجاب..

ص٤٦ أدلة ثلاثة استدل بها القائلون بجواز كشف الوجه.. والرد عليها..

وراحت سارة تقرأ عليهما بقية الفهرس..

صرخت أريج بحماس: ممتاز.. كتاب رائع.. لكن.. كم بقي ويقفل المعرض..



قالت مها: بقي كثير.. ثلاث ساعات..

قالت سارة: أنا لا أستطيع الانتظار حتى يقفل المعرض.. فأبي سيأتي لأخذي بعد المغرب.. ولكن لا يزال معنا وقت.. هاه.. ماذا نختار لنبدأ بقراءته.. أقرأ المقدمة؟؟

قالت مها: لا. أرجوك لا أحب قراءة المقدمات؛ دائمًا تكون روتينية ومملة.

أريج: لا أقدم على كلام الله ورسوله ﷺ شيئًا.. نبدأ بالأدلة من القرآن والسنة..

فتحت سارة ص١٥ وبدأت تقرأ..

أدلة القرآن والسنة على وجوب تغطية الوجه

الدليل الأول:

آية الحجاب الآمرة بإدناء الجلابيب على الوجوه.. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وهذه الآية ذكرت جميع النساء.. زوجات النبي ﷺ وبناته.. ونساء المؤمنين.

وهي صريحة في وجوب ستر الوجه على جميع نساء المؤمنين.. ويسترن جميع الزينة عن الرجال الأجانب عنهن.. وفي هذا تمييز لهن عن اللائي يكشفن من نساء الجاهلية.. حتى لا يتعرضن للأذى ولا يطمع فيهن طامع.

والجلباب: هو اللباس الواسع الذي يغطي جميع البدن.. وهو بمعنى العباءة، فتلبسه المرأة من أعلى رأسها مدنية له ـ أي مرخية له ـ على وجهها وسائر جسدها.. ممتدًّا إلى الأسفل حتى يستر قدميها.

وستر الجلباب للوجه وجميع البدن هو الذي فهمه نساء الصحابة ﭫ وذلك فيما أخرجه عبد الرزاق عن أم سلمة ﭫ قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب:٥٩] خرجت نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها..

الدليل الثاني:

قالت عائشة ﭫ كما عند أبي داود: والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار.. أشد

تصديقًا بكتاب الله.. ولا إيمانًا بالتنزيل..

لقد أنزل في سورة النور قوله تعالى في الأمر بحجاب المؤمنات: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور:٣١].. فسمعها الرجال من رسول الله ﷺ.. ثم انقلبوا إليهن.. يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها.. يتلو الرجل على امرأته.. وابنته.. وأخته.. وعلى كل ذات قرابته..

فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها ـ وهو كساء من قماش تلبسه النساء، فاعتجرت به ـ لفته على رأسها ـ، وقامت بعضهن إلى أزرهن فشققنها واختمرن بها، أي: الفقيرة التي لم تجد قماشًا تستر به وجهها ـ أخذت إزارها وهو ما يلبس من البطن إلى القدمين ثم شقت منه قطعة غطت بها وجهها.. تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله في كتابه..

قالت عائشة: فأصبحن وراء رسول الله معتجزات كأن على رءوسهن الغربان..

الدليل الثالث:

وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: إنها أخبرت أن رسول الله ﷺ أمر النساء بالخروج لصلاة العيد.. فقيل له: يا رسول الله! إحدانا لا يكون لها جلباب؟

فقال: «لتلبسها أختها من جلبابها»[1].

وهذا صريح في منع المرأة من بروزها أمام الأجانب عنها بدون الجلباب..

الدليل الرابع:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠].. ولا يرتاب عاقل أن كشف المرأة وجهها هو إغراء للرجال بالنظر إليه؛ ولهذا قال تعالى في الآية التي بعدها: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور:٣١].. أي: لا تبد المرأة زينتها ليستطيع الرجل أن يغض بصره..

الدليل الخامس:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].. يعني: يحرم على

---

(١) متفق عليه.

المرأة إذا مشت وهي لابسة خلاخل في قدميها.. والخلخال: نوع من الحلي كالأساور يلبس في القدمين ويكون فيه قطع من ذهب أو نحاس.. فإذا مشت المرأة بسرعة ظهر لهذا الحلي صوت.

فنهى الله تعالى المرأة إذا مشت عن الضرب بالأرجل؛ حتى لا يسمع الرجال صوت الخلاخل فيفتتوا.. فإذا كان هذا حرامًا.. فما بالك بكشف الوجه.. ونظر الرجل إلى شفتي المرأة وخديها ووجنتيها وعينيها. يعني: سيفتن بصوت الخلخال.. ولن يفتن بهذه المحاسن.. إن هذا لشيء عجاب!

الدليل السادس:

أن الله تعالى رخص للمرأة العجوز الكبيرة الطاعنة في السن.. في أن تضع ثيابها أي تكشف حجابها وتتخفف من الخمار والجلباب.. ثم بين لها أنها إن احتجبت فهو خير لها.. مع أنها لا ترجو نكاحًا أي لا فتنة ولا جاذبية فيها..

قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ [النور:٦٠].

الدليل السابع:

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٣].. وهذا نص صريح في وجوب تغطية الوجه..

يعني تعالى: وإذا سألتم أزواج رسول الله ﷺ ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج متاعًا (أي: حاجة) ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾.. يعني: من وراء ستر بينكم وبينهن.. ولا تدخلوا عليهن بيوتهن، لأن ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٣] يعني: محادثتكم للنساء من وراء حجاب.. من غير أن تروهن.. هو أطهر لقلوبكم وقلوبهن حتى لا تؤثر نظرة العين في القلب.. ولا يقع في قلب الرجل أو قلب المرأة.. استملاح أو إعجاب.. بل يبقى القلب طاهرًا؛ لأن الرجل يكلم المرأة من وراء حجاب.. فلا يكون للشيطان عليهما سبيل..

الدليل الثامن:

قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب:٣٣]. فنهى الله

تعالى المؤمنات أن يتساهلن بإخراج الزينة والتبرج.. كما كانت تفعل النساء في الجاهلية الأولى.. ففي ذلك المجتمع العربي الأصيل الذي كان الرجال فيه شديدي الغيرة وقد تقوم الحرب بين قبيلتين لو اكتشف رجل أن رجلاً غازل امرأته أو تعرض لها..

ففي ذلك المجتمع الجاهلي المتشدد ماذا تتوقعين أن المرأة كانت تخرج من جسدها وهي تمشي بين الرجال؟! الفخذين؟ الصدر؟ الكتفين؟ الظهر؟ الشعر المسدول الذي تلعب به الريح فيزداد إغراء؟

ماذا تتوقعين؟!

لا شك أنها كانت تخرج وجهها.. وفي الغالب أنه يخرج معه شيء من شعرها.. وإن كانت أكثرهن تغطي وجهها كما يتبين ذلك من خلال أشعارهم.. فنادى الله تعالى جميع المسلمات فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.. أي: انتبهي أن تكوني مثلها..

كانت سارة تقرأ منهمكة متحمسة.. وأريج ومها ترددان: رائع.. ممتاز.. الحمد لله.. وهن في منتهى التسليم لأمر الله تعالى.. فالعبد وما يملك لسيده.. فما دمنا آمنا بربنا خالقًا ومشرعًا وملكًا علينا يحكمنا بما يشاء.. فيجب علينا الطاعة والتسليم لأمره..

شعرت سارة بأن أريج سرحت بفكرها بعيدًا.. ففاجأتها قائلة: مفهوم..

فابتسمت أريج وقالت: مفهوم يا أستاذة.

سارة: نكمل أم لا.

كانت مها أكثر انسجامًا.. فبادرت قائلة: إي والله.. أكملي.. أكملي..

حولت سارة نظرها إلى كتابها وجعلت تقرأ:

الدليل التاسع:

معلوم أن المرأة إذا أحرمت بالحج والعمرة.. فإنها تكشف وجهها.. كما أن الرجل إذا أحرم يكشف وجهه.. فكانت الصحابيات في الحج والعمرة يكشفن وجوههن إذا كن في وسط الخيام.. أو إذا كانت الواحدة منهن جالسة مع زوجها أو محارمها.

أما إذا مر بها رجال أجانب.. فماذا تفعل.. استمعي لأمك وهي تحكي حالهن:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان الركبان ـ تعني: الحجاج ـ يمرون بنا ونحن

مع رسول الله ﷺ محرمات.. فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها.. فإذا جاوزونا كشفناه[1].

فهذا بيان من عائشة رضي الله عنها لحال الصحابيات المحرمات.. أنهن إذا مر بهن الرجال غطين وجوههن.. مع أن المرأة ممنوعة من تغطية وجهها وهي محرمة.. إذن لماذا يغطين وهن محرمات؟! لأنهن يعلمن أن تغطية الوجه أمام الرجال الأجانب أهم وأوجب..

الدليل العاشر:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: كنا نغطي وجوهنا من الرجال.. وكنا نمتشط قبل ذلك في الإحرام[2].

الدليل الحادي عشر:

في قصة حادثة الإفك.. لما خرجت عائشة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ في غزوة.. وفي طريق عودتهم إلى المدينة.. ذهبت عائشة لتقضي حاجتها فتأخرت.. فلما رجعت فإذا الجيش قد ارتحل عنها..

قالت عائشة: فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب.. قد انطلق الناس.. فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي.. فتلففت بجلبابي.. وجلست.. فغلبتني عين فنمت.. فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل.. وهو أحد الصحابة كان قد تأخر عن الجيش لبعض حاجاته..

فرأى سواد إنسان نائم.. فأتاني فعرفني حين رآني.. وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علينا..

فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ظعينة رسول الله ﷺ؟

فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني.. فخمرت وجهي بجلبابي.. ووالله ما كلمني كلمة.. ولا سمعت منه غير استرجاعه.. حتى قرب راحلته إلي.. فأناخها.. فركبت.. وأخذ برأس البعير فانطلق سريعًا يطلب الناس.. الحديث..

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود.

(٢) رواه ابن خزيمة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

تعالى المؤمنات أن يتساهلن بإخراج الزينة والتبرج.. كما كانت تفعل النساء في الجاهلية الأولى.. ففي ذلك المجتمع العربي الأصيل الذي كان الرجال فيه شديدي الغيرة وقد تقوم الحرب بين قبيلتين لو اكتشف رجل أن رجلاً غازل امرأته أو تعرض لها..

ففي ذلك المجتمع الجاهلي المتشدد ماذا تتوقعين أن المرأة كانت تخرج من جسدها وهي تمشي بين الرجال؟! الفخذين؟ الصدر؟ الكتفين؟ الظهر؟ الشعر المسدول الذي تلعب به الريح فيزداد إغراء؟

ماذا تتوقعين؟!

لا شك أنها كانت تخرج وجهها.. وفي الغالب أنه يخرج معه شيء من شعرها.. وإن كانت أكثرهن تغطي وجهها كما يتبين ذلك من خلال أشعارهم.. فنادى الله تعالى جميع المسلمات فقال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾.. أي: انتبهي أن تكوني مثلها..

كانت سارة تقرأ منهمكة متحمسة.. وأريج ومها ترددان: رائع.. ممتاز.. الحمد لله.. وهن في منتهى التسليم لأمر الله تعالى.. فالعبد وما يملك لسيده.. فما دمنا آمنا بربنا خالقاً ومشرعًا وملكًا علينا يحكمنا بما يشاء.. فيجب علينا الطاعة والتسليم لأمره..

شعرت سارة بأن أريج سرحت بفكرها بعيدًا.. ففاجأتها قائلة: مفهوم..

فابتسمت أريج وقالت: مفهوم يا أستاذة.

سارة: نكمل أم لا.

كانت مها أكثر انسجامًا.. فبادرت قائلة: إي والله.. أكملي.. أكملي..

حولت سارة نظرها إلى كتابها وجعلت تقرأ:

الدليل التاسع:

معلوم أن المرأة إذا أحرمت بالحج والعمرة.. فإنها تكشف وجهها.. كما أن الرجل إذا أحرم يكشف وجهه.. فكانت الصحابيات في الحج والعمرة يكشفن وجوههن إذا كن في وسط الخيام.. أو إذا كانت الواحدة منهن جالسة مع زوجها أو محارمها.

أما إذا مر بها رجال أجانب.. فماذا تفعل.. استمعي لأمك وهي تحكي حالهن:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كان الركبان ـ تعني: الحجاج ـ يمرون بنا ونحن

مع رسول الله ﷺ محرمات.. فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها.. فإذا جاوزونا كشفناه[١].

فهذا بيان من عائشة رضي الله عنها لحال الصحابيات المحرمات.. أنهن إذا مر بهن الرجال غطين وجوههن.. مع أن المرأة ممنوعة من تغطية وجهها وهي محرمة.. إذن لماذا يغطين وهن محرمات؟! لأنهن يعلمن أن تغطية الوجه أمام الرجال الأجانب أهم وأوجب..

الدليل العاشر:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: كنا نغطي وجوهنا من الرجال.. وكنا نمتشط قبل ذلك في الإحرام[٢].

الدليل الحادي عشر:

في قصة حادثة الإفك.. لما خرجت عائشة رضي الله عنها مع رسول الله ﷺ في غزوة.. وفي طريق عودتهم إلى المدينة.. ذهبت عائشة لتقضي حاجتها فتأخرت.. فلما رجعت فإذا الجيش قد ارتحل عنها..

قالت عائشة: فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب.. قد انطلق الناس.. فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي.. فتلففت بجلبابي.. وجلست.. فغلبتني عين فنمت.. فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل.. وهو أحد الصحابة كان قد تأخر عن الجيش لبعض حاجاته..

فرأى سواد إنسان نائم.. فأتاني فعرفني حين رآني.. وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علينا..

فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ظعينة رسول الله ﷺ؟

فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني.. فخمرت وجهي بجلبابي.. ووالله ما كلمني كلمة.. ولا سمعت منه غير استرجاعه.. حتى قرب راحلته إلي.. فأناخها.. فركبت.. وأخذ برأس البعير فانطلق سريعًا يطلب الناس.. الحديث..

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود.

(٢) رواه ابن خزيمة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

الدليل الثاني عشر:

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ـ أي: متسترات غاية التستر ـ ثم ينقلبن ـ أي: يرجعن ـ إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس. متفق على صحته.

الدليل الثالث عشر:

أنه ﷺ لما قال: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة».. أي: لا يجوز تطويل الثياب عن الكعبين.. فظنت أم سلمة أن تحريم إسبال الثياب تحت الكعبين عام في الرجال والنساء.. وكانت النساء تطولن ثيابهن لتستر أقدامهن.. وكانت أكثرهن فقيرات لا يجدن جوارب يلبسنها..

فقالت: فكيف تصنع النساء بذيولهن.. أي: بما يسحب على الأرض من ثيابهن؟

فقال: «يرخين شبرًا»..

فقالت: إذًا تتكشف أقدامهن..

قال: «يرخينه ذراعًا لا يزدن عليه»[1]..

فإذا كانت المرأة منهية عن كشف قدميها لئلا يرى الرجل جمال القدمين فيعجب بها.. أو يقع في قلبه عشقها..

آه فما بالك لو أنها كشفت وجهها!

الدليل الرابع عشر:

قوله ﷺ: «لا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين»[2].

فمنع ﷺ المرأة إذا أحرمت من أن تلبس ما جرت عادتها بلبسه في غير الإحرام.. كما منع الرجل عن لبس القميص.. والعمامة؛ لأنه يلبسهما في غير الإحرام..

فدل ذلك أن عادة النساء في عهده ﷺ أنهن كن ينتقبن.. أي يسترن وجوههن ولا

---

(١) رواه أحمد وغيره.

(٢) رواه البخاري.

يخرجن إلا العينين..

الدليل الخامس عشر:

قوله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها حتى كأنه ينظر إليها»[1].

وفي هذا دليل على أن النساء إذا خرجن يكن مغطيات وجوههن بحيث لا يستطيع الرجل أن يعرف وصف المرأة ومعالم وجهها إلا بسؤال امرأته أو سؤال من ينظر إليها من النساء..

ولو كانت النساء في عهده ﷺ يمشين في الشوارع كاشفات عن وجوههن لما احتاجت المرأة أن تصف المرأة للرجل ما دام قادرًا على أن ينظر إليها في الطريق إذا شاء..

الدليل السادس عشر:

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.. قال: خطبت امرأة فذكرتها لرسول الله ﷺ..

فقال لي: «هل نظرت إليها؟»..

قلت: لا.. قال: «فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما»..

فأتيتها وعندها أبواها وهي في خدرها.. فقلت: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر إليها..

فسكتا.. فرفعت الجارية جانب الخدر فقالت: أحرج عليك أي أقسم عليك - إن كان رسول الله ﷺ أمرك أن تنظر إلي لما نظرت.. وإن كان رسول الله ﷺ لم يأمرك أن تنظر إلي فلا تنظر.. فنظرت إليها.. ثم تزوجتها.. قال: فما وقعت عندي امرأة بمنزلتها..

والشاهد.. لو كانت النساء عندهم يمشين مكشوفات الوجوه لقعد لها في الطريق ونظر إليها.. وانتهينا..

ولم يكلف المغيرة أن يذهب إلى أهلها.. ويحرجهم.. ويطلب أن ينظر إليها.. ويقسم لهم أن رسول الله ﷺ أمره بذلك.. ولو كانت الفتاة الكل يرى وجهها لما كانت تسمح له أن يرى وجهها وهي على قمة الحياء والخجل..

كانت عين سارة مركزة على الكتاب تقرأ.. ويبدو أن هذا الحديث أثر في مها

---

(١) رواه البخاري.

كثيرًا.. فكتمت عبراتها.. ثم انفجرت باكية..

رفعت سارة رأسها.. والتفتت أريج:.. مها.. لماذا تبكين؟

فركت مها عينيها وقالت: لا شيء.. لكن الله يرحم حالنا.. هذه صحابية.. وتقسم على الصحابي أن لا يرى وجهها إلا إن كان الرسول ﷺ أذن له بذلك.. وأنا ألبس أحسن اللبس وأدور في السوق والمستشفى..! بالله ماذا استفدت!

تلك الصحابية تنتفض أن يراها للحظة واحدة صحابي جليل عابد صالح.. جاء خاطبًا.. وأنا ألبس هذه العباءات المتبرجة.. وتحتها ما الله به عليم من الزينة.. ولا أخجل.. تأثرت مها.. أكثر.. وجعلت تتذكر نظرات الرجال إليها.. وتغطي وجهها بيديها باكية.

هدأت سارة من بكائها.. وشكرتها على تأثرها.. وقالت: مها.. أنت إن شاء الله مقبلة على خير.. وقد حباك الله بنعم لا بد أن تطيعيه بها.. وأول ذلك التزام أوامره بالحجاب والمسابقة إلى الخيرات..

نعم.. من شكر الله تعالى على نعمه عليك أن تطيعيه بها.. فاشكري نعمة الصحة والسمع والبصر.. حتى يحبك الله ويحسن خاتمتك..

أذكر أن امرأة صالحة.. مرت عليها خمسون عامًا وهي بكماء لا تتكلم.. لكنها كانت صائمة قائمة.. كانت تصلي الليل.. ولا يسمع لها زوجها حسًا.. لأنها بكماء..

في ليلة من الليالي.. استيقظت المرأة وبدأت تصلي بصوت مسموع.. فاستيقظ زوجها مستغربًا يفرك عينيه.. فرحًا مستبشرًا.. وجعل يرهف سمعه لها.. وهي تناجي ربها.. ثم سمعها تنطق بالشهادتين نطقًا واضحًا صحيحًا.. ثم تضرعت إلى الله ﷻ بالدعاء.. ثم ماتت على سجادتها..

بالله عليك ألا تتمنين هذه الخاتمة..

بدا التأثر واضحًا على مها وأريج.. ساد الهدوء المكان قليلاً.. ثم رفعت أريج رأسها إلى سارة وقالت: واصلي القراءة يا سارة..

الدليل السابع عشر:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا خطب أحدكم

المرأة فقدر على أن يرى منها ما يعجبه ويدعوه إليها فليفعل».

قال جابر: فلقد خطبت امرأة من بني سلمة.. فكنت أتخبأ في أصول النخل حتى رأيت منها بعض ما أعجبني فتزوجتها..

فلو كانت هذه المخطوبة تمشي مكشوفة الوجه.. لما احتاج جابر أن يختبئ لها في النخل ليراها.. بل كان يقعد لها في الطريق بكل سهولة وينظر إليها..

التفتت سارة فجأة إلى مها وقالت مازحة: إذا كنت ناوية البكاء فاخرجي!

كتمت أريج ضحكتها.. تبسمت مها وقالت: يا أستاذة! واصلي القراءة..

ضحكت سارة.. وأكملت القراءة..

الدليل الثامن عشر:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قبرنا مع رسول الله ﷺ رجلاً فلما رجعنا وحاذينا بابه.. إذ هو بامرأة لا نظنه عرفها.. فنظر إليها النبي ﷺ..

فقال: «يا فاطمة.. من أين جئت؟!»..

قالت: جئت من آل الميت رحمت إليهم ميتهم وعزيتهم.. الحديث رواه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرطهما..

فقد ظن الصحابة أن النبي ﷺ لم يعرف هذه المرأة التي مرت من عنده لأنها كانت مستترة تمامًا.. ولكنه عرفها من مشيتها وجسمها لأنها ابنته.. فلو كانت فاطمة رضي الله عنها كاشفة وجهها لما وقع عندهم تردد هل يمكن أن يعرفها أم لا..

الدليل التاسع عشر:

وقال الإمام مسلم في «صحيحه» (باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار.. فقال له رسول الله ﷺ: «أنظرت إليها؟»..

قال: لا.. قال: «فاذهب فانظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئًا (يعني صغرًا)»..

فبادرت أريج قائلة: لعله أراد أن ينظر إلى غير الوجه والكفين.. كما ينظر الخاطب

إلى من يخطبها..

فقالت سارة: لا.. لأنه ﷺ قال له: انظر إلى عينيها.. فأين العينان؟! في الشعر؟! في الرقبة؟! العينان في الوجه فهو يأمره ﷺ أن ينظر إلى وجهها..

الدليل العشرون:

دليل من العقل وهو: أن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشرع للمرأة بالكشف عن وجهها أمام الرجال الأجانب.. مع أن الوجه هو أصل الجمال.. ومجمع الحسن.. خاصة إن كانت المرأة جميلة..

ونظر الرجل إليه هو أعظم مثير للغرائز البشرية.. وداع إلى الفتنة.. والوقوع فيما لا ينبغي..

بانتهاء قراءة هذا الدليل رفعت سارة بصرها وقالت: انتهت الأدلة التي ذكرها صاحب الكتاب..

وعمومًا أنا لا أدري كيف يمكن أن نقول للمرأة: استري رجليك وأذنيك وذراعيك ورقبتك.. حتى لا يفتن الرجال بالنظر إليها.. ثم نفتي لها بإخراج وجهها.. وما فيه من جمال الشفتين.. ونعومة الخدين.. وسحر العينين..

فقالت أريج: صحيح والله.. هل تصدقين يا سارة ـ وهذه مها تشهد ـ أني مع لبسي للعباءة الساترة أكشف وجهي ـ مع الأسف ـ ولا أضع أي نوع من الماكياج.. ومع ذلك أقول لك بكل صراحة: ما تكلمت مع رجل في سوق أو مستشفى أو سائق سيارة أجرة.. إلا ولاحظت أنه يحد النظر إلى وجهي.. وأحيانًا ينزل عينيه فيركزهما على شفتي.. وتارة يتبسم.. ويحاول إطالة الحديث..

جعلت مها تهز رأسها وتقول: صحيح.. صحيح.. الله يهديك! فالتفتت إليها أريج غاضبة وقالت: صحيح.. الله يهديني! يعني مسرورة بكلامي! والله الذي يسمعك يظن أنك أستر الناس.. قومي انظري إلى نفسك في المرآة..

فزعت مها وقالت: ما أقصد والله.. أريج..

شعرت سارة أن الأختين ستتشابكان بالأيدي.. فهدأت منهما وقالت: ما رأيكما أن نقرأ كلام الفقهاء الأربعة.. أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، حتى لا نصدق من يقول:

الأئمة الأربعة يفتون بجواز كشف الوجه..

قالت أريج: رائع..

فتحت سارة ص٣١ وقرأت:

إجماع الأئمة الأربعة على وجوب تغطية الوجه..

أولاً: أقوال أئمتنا من الحنفية رحمهم الله:

يرى فقهاء الحنفية ـ رحمهم الله ـ أن المرأة لا يجوز لها كشف وجهها أمام الرجال الأجانب، لأن الكشف مظنة الفتنة، لذلك ذكروا أن المسلمين متفقون على منع النساء من الخروج سافرات عن وجوههن، وفيما يلي بعض نصوصهم في ذلك:

قال أبو بكر الجصاص الحنفي: المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها من الأجنبي، وإظهار الستر والعفاف عند الخروج، لئلا يطمع أهل الريب فيها «أحكام القرآن» (٤٥٨/٣)..

وقال شمس الأئمة السرخسي الحنفي: حرمة النظر لخوف الفتنة، وخوف الفتنة في النظر إلى وجهها، وعامة محاسنها في وجهها أكثر منه إلى سائر الأعضاء «المبسوط» (١٥٢/١٠).

وقال علاء الدين الحنفي: وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه بين الرجال، قال ابن عابدين: المعنى: تمنع من الكشف لخوف أن يرى الرجال وجهها فتقع الفتنة، لأنه مع الكشف قد يقع النظر إليها بشهوة. «حاشية ابن عابدين» (٤٨٨/٢).

ونقل عن علماء الحنفية وجوب ستر المرأة وجهها، حتى وهي محرمة، إذا كانت بحضرة رجال أجانب «حاشية ابن عابدين» (٥٢٨/٢).

وقال الطحاوي الحنفي: تمنع المرأة الشابة من كشف الوجه بين رجال «رد المحتار» (٢٧٢/١).

ولمطالعة المزيد من أقوال الفقهاء الحنفية ينظر «حاشية ابن عابدين» (٤٠٦/١ ـ ٤٠٨)، و«البحر الرائق» لابن نجيم (٢٨٤/١ و٣٨١/٢)، و«فيض الباري» للكشميري (٢٤/٤ و٣٠٨).

وقال سماحة مفتي باكستان الشيخ محمد شفيع الحنفي: وبالجملة فقد اتفقت

مذاهب الفقهاء، وجمهور الأمة على أنه لا يجوز للنساء الشواب كشف الوجوه والأكف بين الأجانب، ويستثنى منه العجائز؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٦٠] «المرأة المسلمة» (ص ٢٠٢).

توقفت سارة قليلاً عن القراءة وقالت: قبل أن أكمل كلام بقية أئمة المذاهب الأربعة.. شدني قول الحنفية: إن ترك الحجاب وكشف الوجه يطمع أهل الريب والفساد في المرأة..

أذكر أن امرأة سافر زوجها إلى بلد آخر للعمل.. وتركها مع أولادها في شقة وأوصى أخاه الكبير بأن يمر على زوجته وأولاده ويتفقد أحوالهم..

تقول هذه المرأة: كان هذا الأخ الكبير يأتي كل يوم تقريبًا.. وكنت أشعر أنه من أهل البيت.. فلم أكن أحتجب أمامه.. كنت أكشف وجهي.. وأحيانًا طرف شعري..

كان لطيفًا في أول أيامه.. لكن لما أكثر التردد علينا وليس عندي محرم.. ولم أتحجب.. بدأت تظهر منه تصرفات غريبة.. من تلطف بالكلام وكثرة مزاح.. حتى عاد زوجي من سفره ليقضي أجازته عندنا.. وخشيت أن أخبره فتقع مشاكل..

سافر زوجي مرة أخرى.. ورجع أخوه إلى حالته الأولى من الحركات الغريبة.. والكلام العاطفي.. وبدأ يعاكسني صراحة.. ويحضر كل وقت بسبب وبغير سبب.. تعبت من تصرفاته.. فكرت في الكتابة لزوجي.. أو الاتصال به لإخباره.. فخشيت أن أضايقه وهو يبحث عن المعيشة.. فقلت: لا بد من نصيحة هذا الخائن.. فنصحته مرارًا.. لكن لم ينفع فيه النصح.. وكنت أدعو الله ﷻ كثيرًا أن يحفظني منه.. فقررت أن ألبس الحجاب الشرعي وأغطي وجهي أمامه.. وأمام غيره..

وكتبت لزوجي بأني سأترك مصافحة الرجال الأجانب.. وألتزم بالحجاب الشرعي التام.. فشجعني وأرسل لي كتبًا وأشرطة حول الحجاب..

فلبست الحجاب التام والتزمت بتغطية وجهي عن غير محارمي..

وفي اليوم التالي.. لما جاء شقيق زوجي كعادته.. ورآني ملتزمة بالحجاب.. وقف بعيدًا مذهولاً! وقال: ماذا حصل؟!

قلت: لن أصافح الرجال.. ولا يراني إلا محارمي.. فوقف قليلاً يتأمل كالمصدوم.. ثم

نكس رأسه.. فقلت له: إذا أردت شيئًا فكلمني من وراء حجاب..

فانصرف.. وكف الله ﷻ شره عنها..

تحمست أريج وقالت: سبحان الله.. صدق الله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

قالت سارة:

ثانيًا: أقوال أئمتنا من المالكية رحمهم الله:

يرى فقهاء المالكية أن المرأة لا يجوز لها كشف وجهها أمام الرجال الأجانب؛ لأن الكشف مظنة الفتنة، لذلك فإن النساء عند المالكية ممنوعات من الخروج سافرات عن وجوههن أمام الرجال الأجانب.

قال القاضي أبو بكر بن العربي، والقرطبي المالكيان: لا يجوز كشف ذلك إلا لضرورة أو لحاجة، كالشهادة عليها، أو داء يكون ببدنها، أو سؤالها عما يعن ويعرض عندها، «أحكام القرآن» (١٥٧٨/٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٢٧٧/١٤).

والإمام الجليل ابن عبد البر المالكي: حكى الإجماع على وجوب تغطية المرأة لوجهها..

وذكر الإمام الآبي المالكي: أن ابن مرزوق نص على: أن مشهور المذهب وجوب ستر الوجه والكفين إن خشيت فتنة من نظر أجنبي إليها «جواهر الإكليل» (٤١/١).

ولمطالعة المزيد من أقوال الفقهاء المالكية في وجوب تغطية المرأة وجهها، ينظر: «المعيار المعرب» للونشريسي (١٦٥/١٠ و٢٢٦/١١ و٢٢٩)، و«مواهب الجليل» للحطاب (١٤١/٣)، و«الذخيرة» للقرافي (٣٠٧/٣)، و«التسهيل» لمبارك (٩٣٢/٣)، و«حاشية الدسوقي على الشرح الكبير» (٥٥/٢)، وكلام محمد الكافي التونسي كما في «الصارم المشهور» (ص١٠٣)، و«جواهر الإكليل» للآبي (١٨٦/١).

ثالثًا: أقوال أئمتنا من الشافعية رحمهم الله:

يرى فقهاء الشافعية أن المرأة لا يجوز لها كشف وجهها أمام الرجال الأجانب، سواء خشيت الفتنة أم لا: لأن الكشف مظنة الفتنة.

قال إمام الحرمين الجويني الشافعي: اتفق المسلمون على منع النساء من الخروج سافرات الوجوه؛ لأن النظر مظنة الفتنة «روضة الطالبين» (٢٤/٧)، وبجيرمي على الخطيب (٣١٥/٣).

وقال ابن رسلان الشافعي: اتفق المسلمون على منع النساء أن يخرجن سافرات عن الوجوه، لا سيما عند كثرة الفساق «عون المعبود» (١٦٢/١١).

وقال الموزعي الشافعي: لم يزل عمل الناس على هذا، قديمًا وحديثًا، في جميع الأمصار والأقطار، فيتسامحون للعجوز في كشف وجهها، ولا يتسامحون للشابة، ويرونه منكرًا وما أظن أحدًا منهم يبيح للشابة أن تكشف وجهها لغير حاجة، ولا يبيح للشاب أن ينظر إليها لغير حاجة «تيسير البيان لأحكام القرآن» (١٠٠١/٢).

ولمطالعة مزيد من أقوال الفقهاء الشافعية، ينظر «إحياء علوم الدين» (٤٩/٢)، و«روضة الطالبين» (٢٤/٧)، و«حاشية الجمل على شرح المنهج» (٤١١/١)، و«حاشية القليوبي على المنهاج» (١٧٧/١)، و«فتح العلام» (١٧٨/٢) للجرداني، و«حاشية السقاف» (ص ٢٩٧)، و«شرح السنة للبغوي» (٢٤٠/٧).

رابعًا: أقوال أئمتنا من الحنابلة رحمهم الله:

يرى فقهاء الحنابلة أن المرأة لا يجوز لها كشف وجهها أمام الرجال الأجانب..

قال الإمام أحمد: إذا خرجت من بيتها فلا تبن منها شيئًا. انظر: «الفروع» (٦٠١/١).

خامسًا: أقوال أئمتنا من المحققين ممن لا يتبعون مذهبًا معينًا:

قال الإمام الشوكاني: «وأما تغطية وجه المرأة فكن يكشفن وجوههن عند عدم وجوب من يجب سترها منه، ويسترنها عند وجود من يجب سترها منه» «السيل الجرار» (١٨٠/٢).

النتيجة..

ويتضح مما سبق جليًّا أن قول الجمهور هو القول بتحريم كشف وجه المرأة، بل حكى إجماع الأئمة والعلماء على ذلك أئمة يعتمد نقلهم للإجماع وهم:

ابن عبد البر من المالكية المغاربة حيث حكى أن العلماء أجمعوا على وجوب تغطية المرأة لوجهها، خاصة في زمن الفتنة والفساد، والنووي من الشافعية المشارقة، وابن تيمية من الحنابلة.

وحكى الاتفاق السهارنفوري الحنفي، والشيخ محمد شفيع الحنفي من الحنفية، كلاهما حكى إجماع الأمة على وجوب تغطية المرأة وجهها في زمن الفتنة..

فهل يبقى بعد ذلك حجة لمدع أن قول الجمهور خلاف ذلك؟

كان كلام الأئمة مقنعًا جدًا.. حتى إن مها كانت تتحسس شكل عباءتها.. وتقلب ناظريها فيها.. وكأنها تقرر شيئًا.. أما أريج فإنها لا يزال في نفسها شيء..

التفتت إلى سارة وقالت: سارة أنا يمكن أن أهز رأسي الآن وأظهر لك الموافقة.. لكن بقي في نفسي شيئان قرأتهما في عدد من المقالات..

سارة: وما هما؟

أريج:

الأول: أن القول بتغطية الوجه لا يفتي به في عصرنا إلا مشايخ السعودية.. والعالم الإسلامي ولله الحمد مليء بالعلماء..

والثاني: أن تغطية الوجه هو من العادات والتقاليد.. وليس من واجبات الدين..

ثم واصلت أريج قائلة: عذرًا سارة.. صحيح أن الأدلة التي ذكرتيها قوية الحجة.. واضحة البيان على وجوب تغطية الوجه.. وأن هذا أمر الله تعالى.. وأمر رسول الله ﷺ.. وعليه عمل الصحابيات رضي الله عنهن.. ولكن هل أفتى بوجوب تغطية الوجه غير مشايخ السعودية..

تبسمت سارة.. وقد أعجبت بحرص أريج وجرأتها.. وقالت: قد قرأت عليك الفهرس قبل قليل.. وفيه فصل بعنوان: «أقوال العلماء من شتى الأقطار بوجوب تغطية المرأة لوجهها»..

فتحت سارة (ص٣١) وشرعت في القراءة..

أقوال العلماء من شتى الأقطار بوجوب تغطية المرأة لوجهها:

الشيخ الأمير الصنعاني (يمني) في كتابه بعنوان: «الأدلة الجلية في تحريم نظر

الأجنبية»، رد فيه على القائلين بجواز الكشف.

الشيخ أبو الأعلى المودودي (باكستاني) ألف رسالة شهيرة بعنوان: «الحجاب» قال فيها كلامًا ممتعًا أحببت نقل بعضه للقارئ؛ وهو قوله تعليقًا على آية الحجاب (ص٣٢٦ ـ ٣٣٠):

كل من تأمل كلمات الآية وما فسرها به أهل التفسير في جميع الأزمان بالاتفاق، وما تعامل عليه الناس على عهد النبي ﷺ، لم ير في الأمر مجالاً للجحود بأن المرأة قد أمرها الشرع الإسلامي بستر وجهها عن الأجانب، ما زال العمل جاريًا عليه منذ عهد النبي ﷺ إلى هذا اليوم.

الشيخ محمد علي الصابوني (سوري) عقد مبحثًا في كتابه: «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن» بعنوان (آيات الحجاب والنظر) قال في خاتمته (١٨٢/٢ وما بعدها):

بدعة كشف الوجه: ظهرت في هذه الأيام الحديثة، دعوة تطورية جديدة، تدعو المرأة إلى أن تسفر عن وجهها، وتترك النقاب الذي اعتادت أن تضعه عند الخروج من المنزل، بحجة أن النقاب ليس من الحجاب الشرعي، وأن الوجه ليس بعورة، دعوة (تجددية)، لقد لاقت هذه الدعوة (بدعة كشف الوجه) رواجًا بين صفوف كثيرة من الشباب وخاصة منهم العصريين، لا لأنها (دعوة حق)؛ ولكن لأنها تلبي داعي الهوى، والهوى محبب إلى النفس، وتسير مع الشهوة، والشهوة كامنة في كل إنسان، فلا عجب إذًا أن نرى أو نسمع من يستجيب لهذه الدعوة الأثيمة ويسارع إلى تطبيقها بحجة أنها (حكمة الإسلام) وشرع الله المنير.

ولست أدري: أي إثم يتخلصون منه، وهم يدعون المرأة إلى أن تطرح هذا النقاب عن وجهها وتسفر عن محاسنها في مجتمع يتأجج بالشهوة ويصطلي بنيران الهوى ويتبجح بالدعارة، والفسق، والفجور؟!

الشيخ أبو بكر الجزائري (جزائري) في كتابه: «فصل الخطاب في المرأة والحجاب» ذكر فيه أدلة وجوب ستر الوجه ورد على شبهات المخالفين.

الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي (موريتاني) في كتابه: «أضواء البيان» فسر آيات الحجاب، وبين بالأدلة القوية، وجوب ستر الوجه. انظر: (٥٨٦/٦).

الشيخ محمد بن يوسف الكافي (تونسي) في كتابه: «المسائل الكافية في بيان وجوب صدق خبر رب البرية» شنع فيه على الداعين إلى كشف الوجه. نقل عنه الشيخ حمود التويجري في «الصارم المشهور» (ص١٠٨ ـ ١٠٩).

الشيخ عبد القادر بن حبيب السندي (من علماء السند) صنف كتابين: «رسالة الحجاب في الكتاب والسنة»، و«رفع الجنة أمام جلباب المرأة المسلمة في الكتابة والسنة» وكلاهما نص فيه على وجوب تغطية الوجه..

الشيخ مصطفى صبري (مفتي الدولة العثمانية) (تركي) شنع على دعاة سفور الوجه في رسالته: «قولي في المرأة».

الشيخ عبد الرشيد بن محمد السخي (نيجيري) في كتابه: «السيف القاطع للنزاع في حكم الحجاب والنقاب» رد فيها على من قال (ص ٨): «ليس الحجاب من الإسلام إلا أنه عادة من عادات أهل الحجاز»! رد على هذا القول: واختار وجوب ستر الوجه.

الأستاذة إعتصام أحمد الصراف (مصرية) ألفت كتاب: «أختي المسلمة: سبيلك إلى الجنة» قالت فيه (ص ١٢٠): «إن تغطية الوجه هي الأصل، وقد ندب الشرع لها ندبًا شديدًا»..

الأستاذة يسريه محمد أنور (مصرية) ألفت كتاب: «مهلاً يا صاحبة القوارير» ومما قالت (ص ٦٢): «فإذا كان الإسلام قد اعتبر ظهور القدمين عورة، وأمر بعدم الضرب على الأرجل حتى لا تبدو أو يسمع صوت الخلاخل، أو تظهر الزينة المخفية؛ فإن أمره بتغطية الوجه أولى؛ لأنه مجمع الحسن».

الشيخ أحمد بن حجر آل أبو طامي (قطري) ألف رسالة بعنوان: «الأدلة من السنة والكتاب في حكم الخمار والنقاب».

الشيخ محمد الزمزمي بن الصديق (مغربي) ذكره الشيخ محمد بن إسماعيل في كتابه: «عودة الحجاب» (٢٨٥/١) فيمن يقول بوجوب التغطية.

الشيخ عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر في وقته) (مصري) كتب مقالاً بعنوان: «مظهر المرأة» قال فيه عن المرأة إذا لم تأمن الفتنة: «وجب عليها ستر الوجه والكفين سدًّا للذرائع إلى المفاسد». (مجلة صوت العرب، البيروتية، كانون الثاني، عام ١٩٦٧م).

الشيخ حسن البنا (مرشد جماعة الإخوان المسلمين) (مصري) في كتابه: «المرأة المسلمة» قال فيه (ص ١٨): «إن الإسلام يحرم على المرأة أن تكشف عن بدنها».

الشيخ محمد بن الحسن الحجوي (مغربي) رد في خاتمة كتابه: «الدفاع عن الصحيحين» (ص ١٢٩ ـ ١٣٠) على أحد الداعين إلى سفور الوجه في مجلس الملك محمد الخامس ـ جد الملك الحالي ـ .

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (سوري) في كتابه: «إلى كل فتاة تؤمن بالله» قال (ص ٥٠):

«فقد ثبت الإجماع عند جميع الأئمة أنه يجب على المرأة أن تستر وجهها عند خوف الفتنة بأن كان من حولها من ينظر إليها بشهوة. ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم بأن الفتنة مأمونة اليوم، وأنه لا يوجد في الشوارع من ينظر إلى وجوه النساء بشهوة؟».

الشيخ عيادة الكبيسي (عراقي) في كتابه: «لباس التقوى» نصر فيها القول بوجوب تغطية الوجه.

الشيخ محمد زاهد الكوثري (تركي) نصر القول بوجوب تغطية الوجه في مقال له بعنوان: «حجاب المرأة» نشر في مجموع مقالاته (ص ٢٤٥ ـ ٢٥٠)

الشيخ صفي الرحمن المباركفوري (هندي) في كتابه: «إبراز الحق والصواب في مسألة السفور والحجاب» للرد على من أجاز كشف الوجه، وقال (ص ١٠): «وهذه الحكمة المقصودة بالحجاب تقتضي أن يعم حكم الحجاب جميع أعضاء المرأة: ولا سيما وجهها الذي هو أصل الزينة والجمال»..

الأستاذة: الزهراء: فاطمة بنت عبد الله (يمنية) ألفت كتاب: «المتبرجات» ناصحت فيه المسلمات، ثم ذكرت شروط الحجاب الشرعي (ص ١٦١ وما بعدها) وأدلة وجوب ستر الوجه.

الأستاذ العزي مصوعي (يمني) وهو مدير عام الإعلام والثقافة باليمن. قدم للأستاذة الزهراء كتابها السابق مؤيدًا ما فيه.

الأستاذة كوثر المنياوي (مصرية) في كتابها: «حقوق المرأة في الإسلام» قالت (ص ١٢٨) بعد إيراد آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ..﴾ [الأحزاب:٢٨]: «وفي هذه الآية الكريمة أمر الله

جميع نساء المؤمنين بإدناء جلابيبهن على محاسنهن من الشعر والوجه وغير ذلك؛ حتى يعرفن بالعفة فلا يفتن ولا يفتن غيرهن فيؤذين».

شيخ الجامع الأزهر: محمد أبو الفضل رحمه الله (مصري) له فتوى طويلة مشهورة نصر فيها القول بوجوب تغطية المرأة لوجهها..

الشيخ عبد الرب القرشي الملكياري (باكستاني) في كتابه بعنوان: «الأبحاث الفقهية القيمة» تعرض فيه للقضية ورجح وجوب تغطية المرأة لوجهها. انظر: (٢/٣٦)

سمعنا وأطعنا..

في الحقيقة لم تكن أريج تحتاج أن يساق لها فتاوى العلماء الثقاة من شتى الأقطار بوجوب تغطية الوجه.. ما دام أن الكتاب والسنة أوجبا ذلك؛ ولكن لأن الله تعالى أمرنا بسؤال أهل الذكر.. فسألناهم وسقنا كلامهم..

قالت أريج: أما قول من قال: إن تغطية الوجه هو عادة من عادات العرب.. أو هو من عادات السعوديين.. فهذا أظننا ـ يا سارة ـ لا نحتاج الرد عليه.. بعدما أوردت كلام علماء مصر والشام واليمن وتركيا والهند وباكستان وموريتانيا.. وغيرهم..

القرار الشجاع..

انتهزت سارة فرصة تأثر أريج ومها.. وقالت: الناس الأقوياء فقط هم الذين يستطيعون اتخاذ القرار الشجاع بتغيير طباعهم وتصرفاتهم إلى الأحسن والأصوب..

كم من أخواتنا المؤمنات اقتنعت بوجوب تغطية الوجه.. أو على الأقل اقتنعت بأن الأفضل تغطيته.. وتتمنى أن تغطي وجهها.. وإذا رأت مسلمة قد غطت وجهها تمنت لو تحذو حذوها.. ومع ذلك تمر عليها الشهور.. وربما السنوات دون أن تتخذ القرار الشجاع بالطاعة والاتباع..

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦].

لاحظي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾.. أي الخطاب عام للرجال والنساء.. نهاهم الله تعالى جميعًا أن يكون لهم اختيار آخر مع اختياره..

فليست أوامر الله مبنية على الاختيار والتشهي.. وتغطية الوجه والتزام الحجاب ليس سنة من السنن كصلاة الضحى والصدقة إن شئت أن تفعليها أو تتركيها.. بل هي فريضة فرضها الله تعالى على المسلمات.. وسوف يسألك الله عنها..

أريج.. مها.. والله إني لكما ناصحة..

الحجاب فيه حراسة شرعية للأعراض وزجر للمتلاعبين.. وفيه طهارة لقلوب المؤمنين والمؤمنات ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].. وهو يزيد المرأة حياء وخجلاً واحتشامًا.. والحجاب يقطع الخواطر الشيطانية، ويكف الأعين الخائنة..

أريج.. مها.. الكون كله يتحجب!

الكرة الأرضية عليها غلاف..

والثمار الندية عليها حجاب..

والسيف: يحفظ داخل غمده..

والقلم بدون غطاء يجف حبره وتنعدم فائدته ويلقى تحت الأقدام لأنه فقد الغطاء..

ترى.. لماذا تغلف بناتنا كتبهن ودفاترهن؟ إلا لحمايتها..

والمرأة زهرة جميلة الكل يشتهي أن يقطفها.. فلا بد أن نحميها بحجاب..

والتفاحة لو نزعت قشرتها وتركتها فسدت..

والموز لو نزعت قشره انقلب أسود..

وعين الإنسان لما كانت غالية جعل عليها حجاب..

ألا.. فكوني بطلة وتحجبي فإن الكون كله يتحجب.

كانت مها متأثرة كثيرًا بما تسمع.. وتذكرت قصة الفتاة الأمريكية التي قرأت قصتها يومًا في أحد مواقع الإنترنت..

فقالت: سارة.. والله إن الحجاب عزة وشرف..

وربما دخل بعض الكفار في الإسلام بسبب الحجاب!

تعجبت سارة.. وقالت: يدخلون في الإسلام بسبب الحجاب! كيف؟

قالت مها: نعم.. قرأت في أحد مواقع الإنترنت أن فتاة لتمسكها بحجابها أسلم على يدها ٧ أشخاص..!

هي طالبة أمريكية متمسكة بحجابها معتزة بدينها.. أسلم بسببها (٣) من الدكاترة في الجامعة وأربعة من الطلبة.. لما أسلم أحد الدكاترة بدأ يذكر قصته ويقول:

قبل أربع سنوات ثارت عندنا زوبعة كبيرة في الجامعة وذلك لما التحقت بالجامعة طالبة مسلمة أمريكية وكانت متحجبة.. وكان أحد الأساتذة من معلميها متعصبًا لدينه يبغض الإسلام.. كان يكره كل من لا يهاجم الإسلام فكيف بمن يعتنق الإسلام؟!

كان يبحث عن أي فرصة لاستثارة هذه الطالبة الضعيفة.. لكنها كانت قوية بإيمانها فكان ينال من الإسلام أمام الطلاب والطالبات.. وكانت تقابل شدته بالهدوء والصبر والاحتساب.. ازداد غيظه وحنقه.. فبحث عن طريقة أخرى ماكرة.. بدأ يترصد لها بالدرجات في مادته.. ويلقي المهام الصعبة عليها في البحوث.. ويشدد عليها بالنتائج.. تحملت كثيرًا.. ثم قدمت شكوى لمدير الجامعة للنظر في وضعها..

فأجابت الجامعة طلبها وقررت أن يعقد لقاء بين الطرفين مع جمع من الأساتذة لسماع وجهة نظر الفتاة مع المعلم..

حضر أكثر الدكاترة لهذه المناظرة التي تعتبر الأولى من نوعها بالجامعة..

بدأت الطالبة تذكر أن الأستاذ يبغض الإسلام ولأجل هذا فهو يظلمها ولا يعطيها حقوقها.. ثم ذكرت بعض الأمثلة.

كان بعض الطلبة قد حضروا وشهدوا معها ضد الدكتور مع أنهم غير مسلمين!..

لم يجد الدكتور جوابًا ففقد أعصابه وبدأ يسب الإسلام ويتهجم عليه..

فقامت الفتاة تدافع عن دينها وتظهر محاسن الإسلام.. وكان لها أسلوب عجيب جذبت به الحاضرين.. حتى بدءوا يسألونها عن أمور تفصيلية في الإسلام فتجيب بسرعة بلا تردد!..

لما رأى الدكتور أن الجلسة تحولت إلى محاضرة عن الإسلام! خرج من القاعة غاضبًا..

استمرت الفتاة تتكلم.. ثم فتحت حقيبتها وأهدت إليهم ورقتين مكتوبًا عليهما (ماذا يعني لي الإسلام؟).

بدءوا يقرءون.. والفتاة تواصل حديثها بحماس..

بينت لهم أهمية الحجاب.. ثم تفرقوا.. وصارت قصتها وحجابها حديث الجامعة أيامًا..

جعل الطلاب والدكاترة يتناقلون أوراقها عن الإسلام.. ولم تمض أشهر حتى دخل ثلاثة دكاترة وأربعة طلاب في الإسلام..

كانت سارة وأريج مستمتعتين بالقصة كثيرًا.. وهي ممتعة فعلاً.. وكانت الأسئلة عند أريج لم تنته بعد.. خاصة بعدما رأت سارة متجاوبة معها..

من يرى الملكة؟!

قالت أريج: سارة.. إذن من الذين يجوز أن أكشف وجهي وأخرج زينتي عندهم..

سارة: هم المحارم فقط.. وهم الذين لا يجوز أن تتزوجيهم.. وهم اثنا عشر صنفاً.. ذكرهم الله في سورة النور فقال تعالى:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾ [النور:٣١]..

١ - لبعولتهن (الزوج)..

٢ - أو آبائهن (الأب)..

٣ - أو آباء بعولتهن (أبي الزوج)..

٤ - أو أبنائهن (الأبناء سواء من النسب أو من الرضاعة)..

٥ - أو أبناء بعولتهن (أبناء الزوج من امرأة أخرى إن كان عنده أكثر من زوجه)..

٦ - أو إخوانهن (إخوان المرأة، سواء الأشقاء أو الإخوان من الأب أو الإخوان من الأم)..

٧ - أو بني إخوانهن (أبناء إخوانها الذين تكون هي عمتهم أخت أبيهم)..

٨ - أو بني أخواتهن (أبناء أخواتها الذين تكون هي خالتهم أخت أمهم)..

٩ - أو نسائهن (النساء عمومًا)..

١٠ ـ أو ما ملكت أيمانهن (العبد المملوك الرقيق)..

١١ ـ أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال (وهم فاقدو الإدراك الذين ليس عندهم شهوة للنساء ولا رغبة فيهن)..

١٢ ـ ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١] (الأطفال الصغار غير البالغين)..

كانت مها وأريج تنصتان إلى سارة بإعجاب.. وهن في غاية التسليم لأمر الله.. بل إن أريج جعلت تعدل من خمارها الذي تلفه على رأسها وتحاول أن تخرج منه جزءًا تغطي به وجهها.. وهكذا فعلت..

وهي تقول: من اليوم فصاعدًا.. يا وجه لن يراك إلا المحارم..

آه.. ما أجمل طاعة الله..

غابت الشمس.. وأذن لصلاة المغرب.. وقد أمضت الفتيات ثلاث ساعات في حديثهن..

وكان وقت المعرض يشارف على نهايته.. والفراق قد حان.. لكن فصلاً مهمًا من هذا الكتاب كان لا بد من قراءته..

قالت سارة: أريج.. مها.. هل أنتما مستعجلتان؟!.. بقي معنا فصل في هذا الكتاب حول أدلة من يجيزون كشف الوجه والرد عليهم.. أتمنى أن أقرأه معكما.. حتى لو ناقشكما أحد حول تغطية الوجه تكونان على معرفة بالأدلة.. ما رأيكما؟

قالت أريج: رائع.. لكن يبدو أنه سيكون بعد صلاة المغرب..

قامت الفتيات يصلين المغرب بكل سكينة.. وبعد الصلاة اتصلت سارة بأبيها وطلبت منها أن يتأخر عليها قليلاً.. ثم عادت إلى صاحباتها وجلست معهن..

فتحت سارة (ص ٤٦) وقرأت العنوان:

ثلاثة أدلة استدل بها القائلون بجواز كشف الوجه، والرد عليها:

دليلهم الأول:

استدلوا بحديث سفعاء الخدين.. وهو ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم

توجه في آخر خطبة العيد للنساء.. ثم أمر النساء بالصدقة..

قال جابر: فقامت امرأة من سطة النساء سفعاء الخدين فقالت: لم يا رسول الله؟.. إلى آخر الحديث..

والشاهد منه أنهم قالوا: سفعاء الخدين، أي: في خديها تغير وسواد..

قالوا: فمن أين عرف جابر - راوي الحديث - أنها سفعاء الخدين وعرف لون خديها.. إلا لأنها كانت كاشفة وجهها فرأى صفة خديها..

والجواب عن استدلالهم به:

أولاً: قد روى القصة نفسها صحابة كثير غير جابر، كلهم حضروا الصلاة ورأوا المرأة، ولم يذكر أحد منهم صفة خديها، فروى القصة أيضًا أبو هريرة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم فلعل جابرًا كان يعرف المرأة من قبل ورآها قبل الحجاب، أو أن لفظة: سفعاء الخدين هي لقب للمرأة، لذلك لم يعرف عنها هذا الوصف إلا جابر..

ففي رواية ابن مسعود قال: .. فقالت امرأة ليست من علية نساء: وبم يا رسول الله[1]..

وفي رواية ابن عمر قال: .. فقامت امرأة منهن جزلة (قال النووي في شرحه: جزلة بفتح الجيم: تامة الخلق (أي: قوية البدن) وكلامها جزل أي: شديد) فقالت: وما لنا يا رسول الله؟[2]. فانظري كيف لما رأى تكامل جسدها من بعيد وصفه فقال: جزلة، ولم يذكر صفة وجهها..

وفي رواية ابن عباس قال: فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن: نعم يا نبي الله، لا يدري حينئذ من هي، قال: فتصدقن[3]..

وفي رواية أبي هريرة قال: .. فقالت امرأة منهن: ولم ذلك يا رسول الله؟[4]..

---

(١) رواه أحمد والحاكم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: .. فقلن: وبم يا رسول الله؟[1]..

فهؤلاء خمسة من الصحابة كلهم حضروا الحادثة غير جابر رضي الله عنه ولم يذكر واحد منهم صفة وجهها، فلعل جابرًا كما تقدم كان يعرف وصفها من قبل، أو أنه لمحها أول ما قامت وقد سقط خمارها عن وجهها.. أو غير ذلك..

ثانيًا: أن هذه المرأة إن كانت فعلاً كاشفة وجهها فقد تكون من القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا، وذلك لأن الفتيات الشابات ليس عندهن من الجرأة أن تقوم في محفل كبير كهذا وتتكلم بصوت عالٍ يسمعه الرجال.. فلعلها لكبر سنها رأت نفسها كالأم للجالسات فقامت تسأل..

ثالثًا: أن قوله: «من سطة النساء.. سفعاء الخدين» أي: ليست من أعاليهن نسبًا، وفي خديها سواد، وهذا الوصف في الغالب ينطبق على الإماء المملوكات، وهن لا يجب عليهن تغطية وجوههن كوجوبه على الحرائر..

رابعًا: أن هذا الحديث قد يكون قبل نزول فرض الحجاب، فإن الحجاب فرض في السنة الخامسة أو السادسة للهجرة، وصلاة العيد فرضت في السنة الثانية للهجرة..

كانت سارة تقرأ بحماس..

وكانت مها وأريج تستمعان بإعجاب..

قالت أريج: سبحان الله.. سارة.. لقد قرأت مقالاً في إحدى الجرائد يدعو إلى كشف المرأة لوجهها.. ويستميت في سبيل نزع خمارها.. وكأن هزائم الأمة كلها بسبب قطعة قماش جعلتها المرأة على وجهها..

ما علينا.. المهم استدل بهذا الحديث على جواز كشف الوجه.. وبصراحة لما قرأت الحديث.. وأنه رواه مسلم.. وقع في قلبي شك.. ولم أنتبه إلى أن هذا الكاتب أغفل الروايات الأخرى واختار الرواية التي تؤيد مذهبه.. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

قالت سارة: عفا الله عنا وعنه.. أحسني الظن به، لعله ما اطلع على هذه الروايات.. وليتك إن كنت تعرفين عنوانه أن تهديه نسخة من هذا الكتاب.. فلعل الله تعالى أن ينفعه به..

---

(١) متفق عليه.

ثم نظرت سارة إلى ساعتها وقالت: نكمل؟

قالت أريج: نعم أكملي.. ولا تنظري إلى ساعتك لا يزال الوقت مبكرا

فتحت سارة ص ٤٨ وقرأت:

الدليل الثاني: قصة المرأة الخثعمية..

روى البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أخيه الفضل بن العباس قال: «أردف رسول الله ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلاً وضيئًا، فوقف النبي ﷺ للناس يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله ﷺ، فطفق الفضل ينظر إليها، وأعجبه حسنها، فالتفت النبي ﷺ والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها»[1]. (أي: أدار وجه الفضل عنها بيده الشريفة ﷺ).

أولاً: ليس في الرواية التصريح بأن المرأة كانت كاشفة الوجه.

وكلمة وضيئة: أي: بيضاء.. جميلة.. حسناء.. جسمها حسن.

وحتى تحكم لامرأة بالبياض والوضاءة ليس شرطًا أن تنظر إلى وجهها، بل يكفي أن يظهر لك شيء من يديها.. أو ترى أطراف قدميها.. فتعلم بياضها ونضارة جلدها.. فلا يصح أن نجزم فورًا أن المرأة كانت كاشفة وجهها، ولو كانت كذلك لقال الراوي: جاءت امرأة جميلة.. لكنه اكتفى بقوله وضيئة أي بيضاء..

ثانيًا: ذكر في الرواية أن الفضل لما رآها «أعجبه حسنها» ولم يقل: «أعجبه جمالها»؛ لأن الجمال يتعلق بالوجه والوجه كان مستورًا.. فرأى الفضل جمال جسمها وتناسق قوامها فأعجبه حسنها.. وجعل يتأملها فصرف النبي ﷺ بصره عنها..

ثالثًا: نفرض أن المرأة كانت كاشفة وجهها ـ فعلاً ـ فلو كان كشف المرأة عن وجهها جائزًا دائمًا في الحج وغيره ـ كما يفتي بعضهم ـ لما صرف النبي ﷺ وجه الفضل عن النظر إلى المرأة لأن الفضل لم يفعل حرامًا..

---

(١) متفق عليه.

رابعًا: أنه جاء في رواية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ولوى عنق الفضل، فقال له العباس: يا رسول الله، لم لويت عنق ابن عمك؟! فقال: رأيت شابًا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما.. رواه الترمذي.. فهو ﷺ لوى عنق الفضل لا لأجل أن لا ينظر الفضل إليها ويرى حسن قوامها ويسمع جمال منطقها، وإنما لأن الفضل أيضًا كان جميلاً فخشي النبي ﷺ أن تفتن به المرأة.. فأراد أن لا تنظر هي إليه ولا ينظر هو إليها.. فيسد الباب على الاثنين..

كان الكلام مقنعًا فعلاً.. فلم يصرح في الحديث أنها كانت كاشفة الوجه..

كانت أريج تستمع بتركيز شديد.. وكأنها ستدخل امتحانًا.. فلما أنهت سارة القراءة.. قالت أريج: انتهت الردود..!

قالت سارة: نعم.. أربعة ردود كافية..

قالت أريج: أنا عندي رد خامس استخرجته من هذا الحديث على من يقولون بجواز كشف المرأة وجهها دائمًا..

التفتت مها متعجبة.. وقالت: ما شاء الله.. عندك رد خامس.. والله وظهرت الثقافة! ما الرد يا فضيلة الشيخة؟!

غضبت أريج وقالت: أنا جادة.. والله عندي رد خامس..

قالت سارة: ما هو؟

أريج: إذا كان الفضل بن العباس رضي الله عنهما هذا الصحابي الجليل وهو حاج أي بإحرامه من غير زينة.. والمرأة صحابية كريمة وهي حاجة أيضًا أي بإحرامها من غير زينة.. مع ما كان عليهما من العرق واتساخ الثياب.. وظهور الإرهاق على الوجوه بسبب التعب وكثرة المشي.. والحر الشديد وعدم وجود مكيفات ولا أي شيء من وسائل الراحة والتجمل.. ووجود رسول الله ﷺ معهما.. ومع ذلك لم يستطع صرف بصره عن جمال هذه المرأة وهما حجاج في مكة..! حتى صرفه رسول الله ﷺ بيده..!

آه.. يا للهول.. ما بالك بالله عليك بمن يقول يجوز للمرأة أن تكشف وجهها بين زملائها في الشركة.. وتكشفه في السوق بين البائعين.. وتكشفه في البيت أمام إخوان زوجها.. وبين أبناء عمها وخالها.. وتكشفه في الطائرة.. وتكشفه في المستشفى..

بالله عليك.. كم من نظرة إعجاب ستقع على هذا الوجه.. وكم من رجل متزوج مستور سيقلب نظره في محاسن وجوه النساء.. فيقل إعجابه بزوجته..

صرخت مها: رائع.. ممتاز..

كانت صوتها عاليًا.. التفتت بعض النساء اللائي في المطعم إليها.. شعرت مها بالإحراج.. فخفضت رأسها..

ضربتها أريج برجلها وقالت: أبقي هادئة.. أدري بأن كلامي جميل.. وأنك لا يمكن أن تصلي لمستواي.. لكن لا تتحمسي كثيرًا..

كتمت سارة ضحكة كادت تدوي بها.. وقالت: الله يزيدك علمًا يا أريج.. بقي دليل.. نقرؤه أم ماذا؟

قالت مها: اقرئيه.. لعل صاحبة الفضيلة تخترع لنا بعض الردود!

سكتت أريج.. نظرت إليها سارة متبسمة وقالت: لا تغضبي يا أريج.. كل ذي نعمة محسود.. والذي ما يطول العنب يقول حامض..

تبسمت أريج.. وقالت: أكملي القراءة لنستفيد..

فتحت سارة ص٤٩ وقرأت:

دليلهم الثالث:

ما رواه أبو داود: عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال: «يا أسماء، إن المرأة إذ بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه»..

وهذا الحديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به..

أولاً: قال أبو داود بعد روايته للحديث: هذا مرسل؛ خالد بن دريك لم يدرك عائشة رضي الله عنها.

ثانيًا: في سنده رجل اسمه: سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصري وهو ضعيف لا يحتج برواياته للحديث.

ثالثًا: أن من بين رواته: قتادة، والوليد بن مسلم، وكلاهما يدلسان في الحديث ولا يثبت الحديث بروايتهما.

فهذه ثلاث علل تجعل الحديث ضعيفًا.. لا يصح الاحتجاج به..

قرأت سارة هذه العلل.. ثم رفعت رأسها.. ونظرت إلى مها وتبسمت وقالت: وعندي رد رابع على استدلالهم بهذا الحديث..

تبسمت أريج.. وبقيت ساكتة.. أما مها فقالت وهي تنظر بطرف عينها إلى أريج:

أنت يا سارة لا أستغرب أن تستخرجي فوائد زائدة على ما يذكر صاحب الكتاب.. أما التي تجلس عن يساري فوالله ما أدري الكلام الجميل الذي قالته قبل قليل كيف خرج منها.. يا سبحان الله..

قالت أريج: قولي: ما شاء الله.. لا تحسديني..

قالت سارة: ما علينا.. اسمعا ردي الرابع..

مما يدل أن هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ: أنه لا يعقل أن يجلس النبي ﷺ مع زوجته عائشة وتدخل عليه أسماء أخت زوجته وهي لابسة ثيابًا رقاقًا أي: شفافة.. مع أنها أكبر من عائشة بعشر سنين.. كما في «سير أعلام النبلاء» (٢/٢٨٩، ٣/٣٨٠)..

ومع أنهن في الجاهلية كن يتسترن..

كما في قصة المرأة الجاهلية التي سقط نصيفها ـ خمارها ـ عن وجهها وهي تمشي، فالتقطته بيدها، وغطت وجهها بيدها الأخرى وفي ذلك قال الشاعر:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

إذا كان هذا هو تسترهن في الجاهلية.. فما بالك بهن في الإسلام..

همست أريج قائلة: الله المستعان.. الله يصلح الأحوال..

نظرت سارة إلى ساعتها وقالت: لم يبق على حضور أبي إلا نصف ساعة..

فقالت مها: سارة.. بقيت قصة نزع الحجاب.. لم تحكيها لنا..

قالت سارة: لا أحفظها والله..

قالت أريج: لا تتهربي.. قرأتها قبل قليل في الفهرس..

قلبت سارة الفهرس وأسعفتها قالت: ص٤٣: قصة نزع الحجاب.. في ثلاث صفحات. سأقرؤها بسرعة حتى لا نتأخر..

قصة نزع الحجاب

تقدم غير مرة أن نساء المؤمنين كن محجبات، غير سافرات الوجوه، ولا حاسرات الأبدان، ولا كاشفات عن زينة، منذ عصر النبي ﷺ إلى منتصف القرن ١٤هـ..

وأنه على مشارف انحلال الدولة الإسلامية في آخر النصف الأول من القرن ١٤هـ، دب الاستعمار الغربي لبلاد المسلمين، وأخذوا يرمون بالشبه، ويحولون المسلمين من عادات الإسلام إلى عادات أعدائه.

وكان أول سهم رميت به الإسلام: هو سفور المسلمات عن وجوههن وذلك على أرض الكنانة في مصر! حين بعث والي مصر محمد علي باشا البعوث لفرنسا للتعلم، وكان فيهم واعظ البعوث: رفاعة رافع الطهطاوي (ت سنة ١٢٩٠هـ/١٨٦٩م).

وبعد عودته لمصر، دعا لسفور المرأة عن وجهها، ثم تتابع على هذا العمل عدد من المفسدين، منهم:

النصراني مرقس فهمي (ت سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٣م) في كتابه: «المرأة في الشرق» الذي هدف فيه إلى نزع الحجاب وإباحة الاختلاط.

وأحمد لطفي السيد، (ت سنة ١٣٨٢هـ/١٩٦٤م) وهو أول من أدخل الفتيات المصريات في الجامعات مختلطات بالطلاب، سافرات الوجوه، لأول مرة في تاريخ مصر، وناصره في هذا طه حسين (ت سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٢م).

وقد تولى الدعوة معهما إلى السفور صراحة:

قاسم أمين: (ت سنة ١٣٦٢هـ) الذي ألف كتابه: «تحرير المرأة»، ثم كتابه: «المرأة الجديدة»، أي: تحويل المسلمة إلى أوربية.

ثم قرأ كتب قاسم أمين ودعا إليها سعد زغلول (ت سنة ١٣٤٦هـ)، وشقيقه أحمد فتحي زغلول (ت سنة ١٣٣٢هـ).

ثم ظهرت الحركة النسائية بالقاهرة لدعوة المرأة لنزع الحجاب عام ١٩١٩م برئاسة هدى شعراوي (ت سنة ١٣٦٧هـ)، وكان أول اجتماع للنساء الداعيات إلى ذلك...

من أين انطلقوا!

سكتت سارة وقالت: أعوذ بالله.. سبحان الله..

قالت أريج: أين اجتمعوا؟

قالت سارة: في مكان إذا ذكرته لك عرفت أن الأمر بتخطيط من غير المسلمين وليس من مسلمين أصلاً..

اسمعي:

وكان أول اجتماع للنساء الداعيات إلى ذلك في الكنيسة المرقصية بمصر سنة ١٩٢٠م! وعملن خطة لذلك.. وانتظرن ساعة الصفر..

قالت أريج: عجيب! إذن المسألة تخطيط لإفساد المجتمع عن طريق إفساد الأم والأخت والزوجة..! أكملي.. سارة.. بالله عليك..

أكملت سارة القراءة:

كانت هدى شعراوي أول مصرية مسلمة تجرأت على نزع الحجاب - يا ويلها من الله - في قصة تمتلئ النفوس منها حسرة وأسى..

ذلك أن سعد زغلول لما عاد من بريطانيا مصنعًا بجميع مقومات الإفساد في الإسلام، صنع لاستقباله خيمتان كبيرتان، خيمة للرجال، وخيمة للنساء.. وأقبل نازلاً من الطائرة.. وبدل أن يتوجه إلى خيمة الرجال.. توجه إلى خيمة النساء وكانت مليئة بالنساء المتحجبات..

فلما وصل الخيمة استقبلته هدى شعراوي أمام الناس جميعًا.. وعليها حجابها..

فمد يده - يا للهول - فنزع الحجاب عن وجهها.. فصفقت هي.. وصفق جمع من النساء الحاضرات ونزعن الحجاب.. وكل ذلك بتخطيط مسبق.

مر هذا اليوم من أيام مصر.. ثقيلاً على المؤمنين والمؤمنات.. لم يسكت العلماء بل أنكروا.. وألفوا الكتب في الرد عليه.. وحذروا الناس.. لكن الكسر الذي في خشب السفينة كان متشعبًا..

فرح أولئك بنجاح التجربة الأولى.. فخططوا للمزيد..

في يوم آخر..

وفي يوم آخر..

وقفت صفية بنت مصطفى فهمي زوجة سعد زغلول، التي سماها بعد زواجه بها: صفية هانم سعد زغلول، على طريقة الأوربيين في نسبة زوجاتهم إليهم، وقفت في وسط مظاهرة نسائية في القاهرة أمام قصر النيل.. فخلعت الحجاب مع مجموعة من النساء، وداسته تحت أقدامها.. وفعلت النساء مثلها، والناس ينظرون..

ثم أشعلن النار بتلك الأحجبة الملقاة على الأرض..

ولذا سمي هذا الميدان باسم:

ميدان التحرير..!

ثم تتابع تكسير السفينة، ففي نحو سنة ١٩٠٠م.. أصدرت مجلة باسم: (مجلة السفور)، وهرول الكتاب الماجنون بمقالاتهم التي تدعو صراحة إلى السفور والفساد وتسفيه المرأة التي تغطي وجهها، وبدأت هذه المجلة تنشر صور النساء الفاضحة، وتدمج بين المرأة والرجل في الحوار والمناقشة.. وتردد أن (المرأة شريكة الرجل) وتفسرها بنزع الحجاب والاختلاط بالرجال في كل مجال!

وبدأ المفسدون يعملون جاهدين على تشجيع المرأة على لبس الأزياء الخليعة وزيارة برك السباحة النسائية والمختلطة، والأندية الترفيهية، والمقاهي، وبدأت المجلة تنشر الحوادث المخلة بالعرض على أنها حريات!

وبدأت تمجد الممثلات والمغنيات ورائدات الفن والفنون الجميلة..

وبدأ نور الحجاب يخبو مع مر السنوات.. وصار من الطبيعي رؤية المرأة السافرة عن وجهها.. بناء على أن تغطية الوجه تشدد؛ مع أنه لم يعرف في مصر خلال تاريخها الإسلامي الممتد أكثر من ألف سنة أن مشت المسلمات كاشفات الوجوه في الشوارع!

بدأ صوت سارة يتقطع.. وكأنها تدافع عبراتها.. وتتخيل نساء المسلمين العفيفات حفيدات الصحابة وهن يمشين سافرات بتخطيط من ثلة اجتمعت في كنيسة..

سكتت سارة وجعلت تردد: لا حول ولا قوة إلا بالله..

قالت أريج: أين العلماء..! أين المصلحون! أين الدعاة والخطباء! لماذا لم ينقذوا السفينة من الغرق! يا ليتهم تحركوا بالقوة التي تحرك بها أولئك.. أنا أعلم أن أولئك مدعومون ماديًا ومعنويًا.. وعندهم أموال يطبعون بها ما شاءوا وينشرون ما شاءوا.. لكن كذلك كان ينبغي أن يوجد رجل رشيد يقود السفينة إلى بر الأمان..

سكتت سارة.. وأكملت القراءة:

جعلت الوجوه المكشوفة تكثر في الشوارع.. والمفسدون يحاربون الحجاب بكل سبيل.. يساند هذا الهجوم المنظم أمران:

الأمر الأول: ضعف مقاومة المصلحين لهم بالقلم واللسان، والسكوت عن فحشهم، ونشر الفاحشة، ومن تكلم من المصلحين أسكتوه.. ومن كتب مقالاً لم ينشر مقاله، وإلصاق تهم التطرف والرجعية بكل من يعارض كشف الوجه..

وهكذا صارت البداية المشئومة للسفور في هذه الأمة بنزع الحجاب عن الوجه، ثم أخذت تدب في العالم الإسلامي في سنوات قلائل، كالنار الموقدة في الهشيم، حتى صدرت القوانين الملزمة بالسفور..

ففي تركيا أصدر الملحد أتاتورك قانونًا بنزع الحجاب سنة ١٩٢٠م..

وفي إيران أصدر رضا بهلوي قانونًا بنزع الحجاب سنة ١٩٢٦م..

وفي أفغانستان أصدر محمد أمان قرارًا بإلغاء الحجاب..

وفي ألبانيا أصدر أحمد زوغوا قانونًا بإلغاء الحجاب..

وفي تونس أصدر أبو رقيبة قانونًا بمنع الحجاب وتجريم تعدد الزوجات..

وفي العراق تولى المناداة بنزع الحجاب الزهاوي والرصافي.

في كل بلد جرح

وبدأت قصص التحلل ونزع الحجاب تنتشر في بلاد المسلمين.. ففي الجزائر مثلاً.. لنزع الحجاب قصة تتقطع منها النفس حسرات.. ذلك أنه تم إغراء أحد خطباء الجمع.. ودفع

الهدايا إليه.. وتغيير قناعاته.. لينادي في خطبته بنزع الحجاب، ففعل المبتلى..

وبعدها قامت فتاة جزائرية معها مكبر صوت ونادت بخلع الحجاب..

فخلعت حجابها ورمت به.. وتبعها فتيات منظمات لهذا الغرض.. نزعن الحجاب ورمين به.. فصفق المخططون والمسخرون.. ومثله حصل في جزيرة وهران، ومثله حصل في عاصمة الجزائر: الجزائر، والصحافة من وراء هذا إشاعة، وتأييدًا..

وإذا نظرت في كتابات هؤلاء الشهوانيين وبرامجهم.. وجدتهم يدبجون المقالات في كل شيء يخص جمال المرأة.. وإظهار وجهها.. لكن لا يكتبون أبدًا في أمومتها وفطرتها، وحراسة فضيلتها، وحماية عواطفها، وعبث الشباب بالفتيات، أو المطالبة بحقوق الأرامل والمطلقات والمعوقات..

بل هي كتابات مستميتة لإقناع المرأة بإزالة قطعة القماش عن وجهها!

وانتشرت النار

وهكذا لما بدأ كشف الوجه ينتشر.. بشعارات عديدة: تحرير المرأة.. الحرية.. المساواة.. بدأت مبادئ المسلمة تتحطم..

فباسم الحرية والمساواة: أخرجت المسلمة من بيتها لتزاحم الرجال سافرة ضاحكة، واشتغلت المرأة عاملة في المطار.. وساقية في البار.. ونادلة في مطعم.. ومضيفة في طائرة.. وإن حاول زوجها أو أبوها منعها قالوا: مقتضى الحرية أن لا يكون له سلطة عليك.. فصاروا يتجارون بعرضها دون رقيب عليها.. ورفعوا حواجز منع الاختلاط والخلوة..

وليت الأمر توقف على كشف وجه المرأة.. لا..

بل تصاعدت القضية من قضية إفساد المرأة إلى قضية إفساد العالم الإسلامي، حتى آلت الحال ـ واحسرتاه ـ إلى واقع شرعت فيه أبواب بيوت الدعارة ودور البغاء بأذون رسمية، في بلاد المسلمين! وعمرت خشبات المسارح بالفن الهابط من الغناء والرقص والتمثيل.. وسنت القوانين بإسقاط حد الزنا.. ما دام أن الطرفين راضيان!

وعلموا أن المرأة إذا فسدت أمًّا وأختًا وزوجة وبنتًا.. فسد المجتمع.. فهي الملكة إن

سقطت سقط الناس وراءها..

ذكر أصحاب السيـر:

أن اليهود كانوا يساكنون المسلمين في المدينة.. وكان يغيظهم نزول الأمر بالحجاب.. وتستر المسلمات.. ويحاولون أن يزرعوا الفساد والتكشف في صفوف المسلمات.. فما استطاعوا..

وفي أحد الأيام.. جاءت امرأة مسلمة إلى سوق يهود بني قينقاع.. وكانت عفيفة متسترة.. فجلست إلى صائغ هناك منهم.. فاغتاظ اليهود من تسترها وعفتها.. وودوا لو يتلذذون بالنظر إلى وجهها.. أو لمسها والعبث بها.. كما كانوا يفعلون ذلك قبل إكرامها بالإسلام.. فجعلوا يريدونها على كشف وجهها.. ويغرونها لتنزع حجابها..

فأبت.. وتمنعت.. فغافلها الصائغ وهي جالسة.. وأخذ طرف ثوبها من الأسفل.. وربطه إلى طرف خمارها المتدلي على ظهرها.. فلما قامت.. ارتفع ثوبها من ورائها.. وانكشفت سوءتها.. فضحك اليهود منها.. فصاحت المسلمة العفيفة.. وودت لو قتلوها ولم يكشفوا عورتها.. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين.. سل سيفه.. ووثب على الصائغ فقتله.. فشد اليهود على المسلم فقتلوه..

فلما علم النبي ﷺ بذلك.. وأن اليهود قد نقضوا العهد وتعرضوا للمسلمات.. حاصرهم.. حتى استسلموا ونزلوا على حكمه..

فلما أراد النبي ﷺ أن ينكل بهم.. ويثأر لعرض المسلمة العفيفة.. قام إليه جندي من جند الشيطان.. الذين لا يهمهم عرض المسلمات.. ولا صيانة المكرمات.. وإنما هم أحدهم متعة بطنه وفرجه..

قام رأس المنافقين.. عبد الله بن أبي بن سلول..

فقال: يا محمد أحسن في موالي اليهود وكانوا أنصاره في الجاهلية، فأعرض عنه النبي ﷺ.. وأبى؛ إذ كيف يطلب العفو عن أقوام يريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا..

فقام المنافق مرة أخرى.. وقال: يا محمد أحسن إليهم.. فأعرض عنه النبي ﷺ.. صيانة لعرض المسلمات.. وغيرة على العفيفات.. فغضب ذلك المنافق.. وأدخل يده في جيب درع النبي ﷺ.. وجره وهو يردد: أحسن إلى موالي.. أحسن إلى موالي..

فغضب النبي ﷺ والتفت إليه وصاح به وقال: «أرسلني».. فأبى المنافق.. وأخذ يناشد النبي ﷺ العدول عن قتلهم.. فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: «هم لك».. ثم عدل عن قتلهم.. لكنه ﷺ أخرجهم من المدينة.. وطردهم من ديارهم..

واتسع الخرق على الراقع

توقفت سارة قليلاً.. وجعلت تنظر إلى ساعتها..

ثم نظرت في الكتاب وقالت: هنا في (ص ٥٦) كلام جميل مختصر حول أساليب أصحاب الشهوات لإفساد العالم الإسلامي من خلال استغلال المرأة.. ما رأيكما أن أقرأه على عجل؟

أريج: رائع.. ما دام المسألة فيها عشاء على حسابك.. تدرين نحن في مطعم.. وأنت كريمة ونحن نستحق!

تبسمت سارة وقالت: إي عشاء؟! والدي يبدو أنه قريب الوصول..

قالت مها: أنت يا أريج منذ أن جلسنا وضرسك لم يقف من تتابع الطعام عليه.. كعك.. بسكويت.. فطائر.. وأنا أيضًا ما قصرت.. والمسكينة سارة تقرأ ونحن نأكل..

تبسمت سارة وقالت: هنيئًا مريئًا.. الله يجعل فيه العافية..

لكن لا بد أن نفهم طرق هؤلاء؛ لأننا قد نستعمل لتحقيق مآربهم ونحن لا نعلم.. ثم بدأت القراءة:

أساليب!

بدءوا يدعون إلى خلع غطاء الوجه.. والتخلص من الجلباب أو العباءة.. والاكتفاء بلبس الثياب الفضفاضة ـ مبدئيًا ـ بدلاً من العباءة..

ويسلكون لإقناع النساء بذلك أساليب عديدة.. الدعايات.. إبراز المتبرجات على أنهن قدوات.. بيع العباءات المزينة والضيقة والشفافة..

الدعوة إلى مشاركة المرأة للرجل في كل شيء.. في الاجتماعات، واللجان، والمؤتمرات،

والندوات، والاحتفالات، والنوادي..

الدعوة إلى سفر المرأة بلا محرم، ومنه سفرها غربًا وشرقًا للتعلم ودراسة اللغة.. وسفرها لمؤتمرات: سيدات الأعمال..!

الدعوة إلى قيامها بدورها في الفن، والغناء، والتمثيل.. والمطالبة بإنشاء فريق كرة قدم نسائي.. والمطالبة برياضة النساء على الدراجات العادية والنارية.

تصوير المرأة في الصحف والمجلات.. وخروجها في التلفاز مذيعة ومقدمة برامج.. وهكذا.. وعرض برامج مباشرة تعتمد على المكالمات الخاضعة بالقول بين النساء والرجال في الإذاعة والتلفاز..

والدعوة إلى الصداقة بين الجنسين عبر برامج في أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، وتبادل الهدايا بالأغاني وغيرها..

نقطة الانطلاق!

طبعًا نقطة البداية في هذا كله: خلع الحجاب عن الوجه، ثم باشروا التنفيذ لخلعه، ودوسه تحت الأقدام وإحراقه، وعلى إثر هذه الفعلات، صدرت القوانين آنذاك في بعض الجمهوريات مثل: تركيا، وتونس، وإيران، وأفغانستان، وألبانيا، والصومال، والجزائر، بمنع حجاب الوجه، وتجريم المتحجبة، وفي بعضها معاقبة المتحجبة بالسجن والغرامة المالية!

قالت أريج: صدقت والله.. والعجيب أن في بعض بلاد المسلمين مع الأسف يمارس التضييق على الحجاب.. ومحاربة تغطية الوجه.. بينما تجدين بلاد غير المسلمين أحيانًا فيها حرية في الحجاب..

بل إني قرأت في خبر نقلته وكالة رويتر.. قبل أيام أن شركات قطارات طوكيو باليابان أطلقت حملة لحماية النساء من الرجال الذين يتعمدون مضايقتهن بطرق مخلة أثناء التنقل، وتضمنت الحملة إجراءات عملية تمثلت في تخصيص عدد من العربات للنساء فقط! مما أدى إلى إثارة غضب بعض الرجال الذكور على اعتبار أن ذلك تمييز ضدهم..!

الوداع..

رن الهاتف المحمول الذي مع سارة.. نظرت إلى رقم المتصل وقالت: هذا أبي يبدو أنه وصل.. ردت عليه: وعليكم السلام.. نعم.. أنا قادمة.. وبدأت تلبس عباءتها.. وتغطي محاسن وجهها.. ووقفت مها وأريج.. يودعانها.. وهي تقول: إن شاء الله سنلتقي مرة أخرى..

ولكن لتكن كل واحدة منكما مثل الفتاة الصالحة الذي رآها موسى عليه السلام مع أختها ترعى الغنم.. فساعدهما على سقي الغنم.. ثم جلس في ظل شجرة يرتاح.. وعادت الفتاتان إلى أبيهما.. فأمر إحداهما بإدخال الغنم في مكانها.. وأمر الأخرى أن تنادي موسى..

واسمعي كيف وصف الله هذه الفتاة الصالحة التي ذهبت تنادي موسى.. قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص:٢٥]..

قال عمر رضي الله عنه: جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة. والسلفع من النساء: الجريئة السليطة «تفسير ابن كثير» (٣٨٤/٣)..

قارني ـ بالله عليك ـ بينها وبين امرأة العزيز في مصر التي أكثرت مخالطة يوسف عليه السلام.. ونظرت إليه وأبدت زينتها مرارًا.. وهو عليه السلام يصد عنها.. حتى وصلت إلى حال راودته عن نفسه ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣] أي: تهيأت لك.. نسأل الله العافية..

أريج.. مها.. والله ما يريد الداعون إلى نزع العباءة.. وإلقاء الحجاب.. وكشف الزينة.. والاختلاط بالرجال.. إلا أن تكوني لهم كالأمة المملوكة يمضغك الرجل متى شاء.. ويلفظك متى شاء..

كانت أريج ومها.. تحاولان أن تبطئا سارة في المشي ليطول الكلام.. لكن هاتف سارة رن مرة أخرى.. فودعتهما.. وذهبت. ا.هـ.

أشكر كل من استفدت من مؤلفاته في إعداد هذا الكتاب وعلى رأسهم الشيخ الدكتور بكر أبو زيد، الشيخ سليمان الخراشي، الشيخ أحمد عبد العزيز الحمدان.

أسأل لله أن ينفع به وصلى الله على نبينا محمد.

جزى الله كل من شارك في نشر هذا الكتاب خيرًا.

عاشق.. في غرفة العمليات!

من السويد..

رن جرس هاتفي يومًا.. اتصال من (السويد)..

السلام عليكم.. الشيخ محمد..؟!

وعليكم السلام.. نعم..

يا شيخ.. أنا طبيب أحضر الدراسات العليا هنا في مالمو - السويد، وأطبق منذ خمس سنوات في أحد المستشفيات السويدية..

هنا يا شيخ في هذا المستشفى.. إذا جاءهم مريض مصاب بمرض خطير.. وكان المرض قد تمكن منه.. والفرصة في حياته قليلة.. يضعون له مغذيًا.. ويجعلون مع المغذي مادة مسكنة للألم ومادة أخرى قاتلة.. فيبقى المريض يومين أو ثلاثة على الأكثر.. ثم يموت..

فيستلمه أهله.. وهم يظنون أن وفاته طبيعية.. وهو في الحقيقة مقتول..

قلت: أعوذ بالله.. هذا..

فقاطعني قائلاً.. عفوًا يا شيخ.. لم ينته السؤال بعد..

اليوم يا شيخ كنت في قسم الطوارئ.. فجاء إلى المستشفى مريض مسلم.. سويدي من أصل باكستاني.. وهو يعاني من أحد الأمراض الخطيرة.. وقد تمكن المرض من جسمه.. أدخلوه قبل قليل إلى القسم الخاص بهؤلاء المرضى.. ووضعوا له المغذي القاتل..

فماذا يجب علي يا شيخ.. هل أخبر أهل المريض.. أم لا؟

ومضى صاحبي يبين لي عدد من قتلوا بهذه الطريقة.. ويتكلم عن مآسيهم.. و..

كان عاطفيًا.. ومتحمسًا جدًا.. مضى يقص ويقص..

أما أنا فقد ذهبت بي الأفكار بعيدًا.. جعلت أتأمل.. ماذا تمثل الحياة بالنسبة لهؤلاء.. كأس.. وغانية.. وفراش..

فإذا عجز أحدهم عن هذه الأمور لمرض أو ألم.. رأوا أنه لا حاجة لبقائه حيًا.. فلماذا يعيش!.. نعم لماذا يعيش؟

وفرق بين من يأكل ليعيش.. ومن يعيش ليأكل.. لا يدرون أن بقاءه حيًا.. ولو مريضًا مقعدًا.. يرفع الله به درجاته..

فكل تسبيحة صدقة.. وكل تحميدة صدقة.. وكل تهليلة صدقة..

كل ألم يصيبه.. حتى الشوكة يشاكها يكفر الله بها من خطاياه..

وكم من شخص كان المرض بابه الذي دخل من خلاله إلى الجنة..

فلا يزال البلاء بالمؤمن حتى يدعه يمشي على الأرض.. وليس عليه خطيئة..

قال الإمام أحمد: لولا المصائب لقدمنا القيامة مفاليس..

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه».. وقال: «ولا يزال البلاء بالمؤمن في أهله وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»..

وفي «الترمذي» عن جابر أن النبي ﷺ قال: «يود الناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء»..

عن أنس مرفوعًا: «إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»..

وأخرج مسلم أنه ﷺ قال: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابه سراء فشكر الله فله أجر، وإن أصابته ضراء فصبر فله أجر، فكل قضاء الله للمسلم خير»..

فقبل أن أبحر في هذا الكتاب.. أقول لكل مريض ـ مهما كان مرضه ـ ارض بما قسم الله لك، واعلم أنك إن صبرت واحتسبت، صار هذا المرض تكفيرًا لخطيئتك.. ورفعة في درجتك..

وأظهر الرضا والتسليم لكل من عادك، ليعلموا أن لله عبادًا يحبونه، يرضون بقضائه، ويصبرون على بلائه، يباهي الله بهم أهل السماء، ويجعلهم قدوة لأهل الأرض..

أفلا تكون منهم!

إنا وجدناه صابرًا

كان أيوب عليه السلام.. صاحب مال وجاه وزوجات وأولاد.. وكان رجلاً قد رفع الله قدره فجعله نبيًا..

في لحظة من ليل أو نهار.. فقد أهله وولده وماله.. ولم يبق معه إلا زوجة واحدة.. ثم ازداد عليه البلاء.. فأصابه مرض عضال.. تعجب منه قومه.. وخافوا من عدوى مرضه.. فأخرجوه من بينهم.. فعاش في خيمة في الصحراء.. قد هده المرض.. وتقرح جسده.. وعظم ضره.. وتركه الناس فلم يقربوه..

أما مرضه فقد سئل المفسر مجاهد رحمه الله.. فقيل له:

ما المرض الذي أصاب أيوب.. أهو الجدري؟

فقال: لا.. بل أعظم من الجدري.. كان يخرج في جسده كمثل ثدي المرأة.. ثم ينفقئ فيخرج منه القيح والصديد الكثير..

وطالت سنون المرض بأيوب عليه السلام.. وهو جبل صامد..

وفي يوم هادئ.. بكت زوجته عند رأسه.. فسألها: ما يبكيك؟

قالت: تذكرت ما كنا فيه من عز وعيش.. ثم نظرت إلى حالنا اليوم.. فبكيت..

فقال لها: أتذكرين العز الذي كنا فيه.. كم تمتعنا فيه من السنين؟

قالت: سبعين سنة.. فقال: فكم مضى علينا في هذا البلاء؟

قالت: سبع سنين.. فقال: فاصبري حتى نكون في البلاء سبعين سنة.. كما تمتعنا في الرخاء سبعين.. ثم اجزعي بعد ذلك أو دعي..

ومر عليه الزمان.. وهو يتقلب على فراش المرض.. لكنه كان بطلاً..

نعم لو مررت به وهو مريض.. ولحم جسده يتساقط لرأيت أنك تمر بجبل صامد.. لا

تزعزعه الأعاصير.. ولا تحركه الرياح..

لسان ذاكر.. وقلب شاكر.. وجسد صابر.. وعين باكية.. ودعوة ماضية..

لم يفرح الشيطان منه بجزع.. وفي ساعة من نهار.. مر قريبًا منه رجلان.. فلما رأيا ضره ومرضه.. قال أحدهما للآخر: ما أظن الله ابتلى أيوب إلا بمعصية لا نعلمها..

عندها رفع أيوب عليه السلام يده.. و﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٣]..

فلما نظر الله إليه.. نظر إلى عينين باكيتين.. ما نظرت إلى حرام.. ويدين داعيتين.. ما لمست حرامًا.. ولا امتدت إلى حرام.. ولسان حامد.. ورأس راكع ساجد.. عندها هزت دعواته أبواب السماء فقال الله: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٤].. وأثنى الله عليه فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤]..

وما أجمل أن ينظر الله إليك في مرضك.. فيراك صابرًا محتسبًا فترتفع إلى درجة (نعم العبد)..

عروة بن الزبير!

عروة بن الزبير كان من كبار التابعين.. فهو ابن الصحابي الجليل الزبير بن العوام..

أصيبت رجله بالآكلة.. فجعلت عظامه تتآكل ويسقط عنها اللحم.. فرآه الأطباء.. فقرروا قطع رجله حتى لا يمتد المرض إلى بقية جسده.. فلما بدءوا يقطعونها أغمي عليه.. فقطعوها.. وألقوها جانبًا.. فبدأ نزيف الدم يشتد عليه.. فغلوا زيتًا ثم غمسوا عروق الرجل فيه حتى توقف الدم.. ثم لفوا على الرجل خرقة.. وانتظروا عند رأسه..

فلما أفاق.. نظر إلى رجله المقطوعة ملقية في طست.. تسبح في دمائها..

فقال: إن الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم.. فبدأ الناس يدخلون عليه ويعزونه في رجله.. ويصبرونه على مصابه.. فلما أكثروا عليه الكلام.. رفع بصره إلى السماء.. وقال: اللهم كان لي أطراف أربعة.. فأخذت طرفًا وأبقيت ثلاثة.. فلك الحمد إذ لم

تأخذ ثلاثة وتترك واحدًا.. اللهم ولئن ابتليت فلطالما عافيت، ولئن أخذت فلطالما أبقيت..

وكان حوله أولاده السبعة.. يخدمونه.. ويسلونه.. فدخل أحدهم إلى أصطبل الخيول لحاجة.. فمر وراء حصان عسيف فثار الحصان وضرب الغلام بحافره.. فأصابت الضربة أسفل بطنه.. فمات.. ففزع من حوله إليه.. وحملوه.. فلما غسل وكفن.. جاء أبوه يتكئ على عكاز ليصلي عليه.. فلما رآه قال: اللهم إنه كان لي بنون سبعة.. فأخذت واحدًا وأبقيت ستة.. فلك الحمد إذ لم تأخذ ستة وتترك واحدًا..

اللهم ولئن ابتليت فلطالما عافيت، ولئن أخذت فلطالما أبقيت..

فما أجمل هذا الرضا..

كم من الناس يمرض بطنه فيجزع ويصيح.. وينسى سلامة رأسه ورجله..

وكم منهم من تمرض عينه.. فينسى سلامة لسانه وأذنه..

فاحمد الله على أن ابتلاك بمرض واحد.. ولم يجمع عليك عشرة أمراض، والتفت إلى من حولك من المرضى واحمد الله الذي عافاك مما ابتلاهم به، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً..

لا.. ولا يكفينا منك ذلك، فالمؤمل فيك أكثر.. نريد منك أن تكون مهديًا هاديًا.. صابرًا مصبرًا.. لا ترى مريضًا منكسرًا إلا جبرته.. ولا حزينًا إلى أفرحته.. ولا متشكيًا إلا وعظته.. فتكون ـ وأنت مريض ـ منار خير لغيرك.. وأنت أهل لذلك بإذن الله..

للمرض سببان!

صاحبي كان مشهورًا بقراءة الرقية الشرعية على المصابين بالأمراض النفسية.. وربما قرأها على المصابين بالسحر والعين..

قال لي: جاءني يومًا أحد كبار التجار.. يشكو ألمًا شديدًا في يده اليسرى..

كان واضحًا أن الألم شديد.. وجه شاحب.. وعينان زائغتان..

جلس بين يدي بكل كلفة ثم قال: يا شيخ اقرأ علي!

قلت: مم تشكو؟!

قال: ألم شديد.. لا أعرف سببه.. راجعت الأطباء.. المستشفيات.. التحاليل.. كل شيء سليم.. لا أدري ما أصابني.. لعلها عين سبقت إلي..

قرأت عليه الرقية.. ودعوت له..

وجاءني في اليوم الثاني وقرأت ودعوت..

واليوم الثالث كذلك.. والرابع.. وطالت الأيام.. والمرض لا يزداد إلا شدة..

فصارحته يومًا: يا فلان.. قد يكون ما أصابك بسبب دعوة من مظلوم آذيته في ماله أو نفسه أو عرضه.. أو..

فتغير وجهه وصرخ بي: أظلم! أظلم ماذا.. أنا رجل شريف.. أنا.. أنا..

هدأت من غضبه.. واعتذرت.. ثم خرج..

جاءني بعد عشرة أيام.. فإذا هو في صحة تامة.. أصر على أن يقبل رأسي ويدي.. ثم قال: أنت والله سبب شفائي بعد توفيق الله..

قلت: كيف.. والقراءة لم تنفع معك؟

قال: لما خرجت من عندك جعل الألم يزداد.. وجعلت كلماتك ترن في أذني.. نعم قد أكون ظلمت أحدًا أو آذيته..

فتذكرت أني لما أردت أن أبني قصري.. كان هناك أرض ملاصقة له فأردت شراءها لأجعلها حديقة للقصر.. وكانت الأرض ملكًا لأيتام وأمهم..

أرسلت إليها أطلب شراء الأرض.. فرفضت.. وقالت: وماذا أفعل بالمال إذا بعتها.. بل دعوا الأرض على حالها.. حتى يكبر الأولاد ثم يتصرفوا بها..

حاولت إقناعها.. أغريتها بالمال.. فأبت.. لكن الأرض كانت مهمة بالنسبة إلي..

قلت: فماذا فعلت؟

قال: أخذت الأرض ـ بطرقي الخاصة ـ واستخرجت لها إذن بناء من الجهات المختصة ـ أيضًا بطرقي الخاصة ... وبنيتها..

قلت: والمرأة؟ والأيتام؟

بلغها الخبر.. فكانت تأتي وتنظر إلى العمال يشتغلون في أرضها.. وتسبهم وتبكي.. وهم يظنونها مجنونة.. فلا يلتفتون إليها..

وأذكر أنها كانت ترفع يديها وتدعو وهي تبكي.. ومنذ ذلك الحين بدأت في يدي آلام لا أنام منها في الليل.. ولا أرتاح في النهار..

قلت: وماذا فعلت لها؟

قال: ذهبت إليها.. واعتذرت منها.. وبكيت.. وأعطيتها أرضًا في موقع آخر أحسن من الأرض الأولى.. فرضيت ودعت لي واستغفرت..

وخرجت من عندها.. ولجأت إلى الله بالدعاء وطلب المغفرة.. حتى بدأ الألم يتلاشى شيئًا فشيئًا.. حتى زال ولله الحمد..

انتهت القصة..

ولا أعني بإيرادي لها أن كل مرض يقع فهو عقوبة من الله لعبده.. كلا فلقد مرض النبيون والصالحون، ولكن الذين أعنيه أن المرض يخرج الله به من العبد الكبر والعجب والفخر..

فلو دامت للعبد جميع أحواله.. مال.. جاه.. صحة.. أولاد.. لتجاوز وطغى ونسي المبدأ والمنتهى..

ولكن الله يسلط عليه الأمراض والأسقام.. فيجوع كرهًا ويمرض كرهًا.. ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا..

أحيانًا يريد أن يفهم الشيء فيجهله.. ويريد أن يتذكر الشيء فينساه.. وأحيانًا يشتهي الشيء وفيه هلاكه.. ويكره الشيء وفيه حياته.. بل لا يأمن في أي لحظة من ليل أو نهار أن يسلبه الله ما أعطاه من سمعه وبصره..

أو من يدري! ربما اختلس الله عقله.. أو سلب منه جميع نعمه..

فأي أحد من أذل العبد المتكبر لو عرف نفسه!

ومن هنا سلط الله على العبد الأمراض والآفات.. لينكسر ويقبل على الله..

وهذا هو السر في استجابة دعوة هؤلاء: المريض.. والمظلوم.. والمسافر.. والصائم.. وذلك

لقربهم من الله وانكسار قلوبهم فغربة المسافر.. وتعب الصائم.. وذل المظلوم.. وآلام المريض..

فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه..

جولة في.. مستشفى المجانين

كنت في رحلة إلى أحد البلدان لإلقاء عدد من المحاضرات..

كان ذلك البلد مشهورًا بوجود مستشفى كبيرة للأمراض العقلية.. أو كما يسميه الناس مستشفى المجانين..

ألقيت محاضرتين صباحًا.. وخرجت وقد بقي على أذان الظهر ساعة..

كان معي عبد العزيز.. رجل من أبرز الدعاة..

التفت إليه ونحن في السيارة.. قلت: عبد العزيز.. هناك مكان أود أن أذهب إليه ما دام في الوقت متسع..

قال: أين؟ صاحبك الشيخ عبد الله.. مسافر.. والدكتور أحمد اتصلت به ولم يجب.. أو تريد أن نمر على المكتبة التراثية.. أو..

قلت: كلا.. بل: مستشفى الأمراض العقلية..

قال: المجانين! قلت: المجانين..

فضحك وقال مازحًا: لماذا.. تريد أن تتأكد من عقلك؟

قلت: لا.. ولكن نستفيد.. نعتبر.. نعرف نعمة الله علينا..

سكت عبد العزيز يفكر في حالهم.. شعرت أنه حزين.. كان عبد العزيز عاطفيًا أكثر من اللازم.. أخذني بسيارته إلى هناك.. أقبلنا على مبنى كالمغارة.. الأشجار تحيط به من كل جانب.. كانت الكآبة ظاهرة عليه..

قابلنا أحد الأطباء.. رحب بنا ثم أخذنا في جولة في المستشفى..

أخذ الطبيب يحدثنا عن مآسيهم.. ثم قال: وليس الخبر كالمعاينة..

دلف بنا إلى أحد الممرات.. سمعت أصواتًا هنا وهناك..

كانت غرف المرضى موزعة على جانبي الممر.. مررنا بغرفة عن يميننا.. نظرت داخلها فإذا أكثر من عشرة أسرة فارغة.. إلا واحدًا منها قد انبطح عليه رجل ينتفض بيديه ورجليه..

التفت إلى الطبيب وسألته: ما هذا!

قال: هذا مجنون.. ويصاب بنوبات صرع.. تصيبه كل خمس أو ست ساعات..

قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله.. منذ متى وهو على هذا الحال؟

قال: منذ أكثر من عشر سنوات.. كتمت عبرة في نفسي.. ومضيت ساكتًا.. بعد خطوات مشيناها.. مررنا على غرفة أخرى.. بابها مغلق.. وفي الباب فتحة يطل من خلالها رجل من الغرفة.. ويشير لنا إشارات غير مفهومة..

حاولت أن أسرق النظر داخل الغرفة.. فإذا جدرانها وأرضها باللون البني..

سألت الطبيب: ما هذا؟! قال: مجنون..

شعرت أنه يسخر من سؤالي.. فقلت: أدري أنه مجنون.. لو كان عاقلاً لما رأيناه هنا.. لكن ما قصته؟

فقال: هذا الرجل إذا رأى جدارًا.. ثار وأقبل يضربه بيده.. وتارة يضربه برجله.. وأحيانًا برأسه..

فيومًا تتكسر أصابعه.. ويومًا تكسر رجله.. ويومًا يشج رأسه.. ويومًا.. ولم نستطع علاجه.. فحبسناه في غرفة كما ترى.. جدرانها وأرضها.. مبطنة بالإسفنج.. فيضرب كما شاء.. ثم سكت الطبيب.. ومضى أمامنا ماشيًا..

أما أنا وصاحبي عبد العزيز.. فظللنا واقفين نتمتم: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به.. ثم مضينا نسير بين غرف المرضى.. حتى مررنا على غرفة ليس فيها أسرة.. وإنما فيها أكثر من ثلاثين رجلاً.. كل واحد منهم على حال.. هذا يؤذن.. وهذا يغني.. وهذا يتلفت.. وهذا يرقص.. وإذا من بينهم ثلاثة قد أجلسوا على كراسي.. وربطت أيديهم وأرجلهم.. وهم يتلفتون حولهم.. ويحاولون التفلت فلا يستطيعون..

تعجبت وسألت الطبيب: ما هؤلاء؟ ولماذا ربطتموهم دون الباقين؟

فقال: هؤلاء إذا رأوا شيئًا أمامهم اعتدوا عليه.. يكسرون النوافذ.. والمكيفات.. والأبواب، لذلك نحن نربطهم على هذا الحال.. من الصباح إلى المساء..

قلت وأنا أدافع عبرتي: منذ متى وهم على هذا الحال؟

قال: هذا منذ عشر سنوات.. وهذا منذ سبع.. وهذا جديد.. لم يمض له إلا خمس سنين!

خرجت من غرفتهم.. وأنا أتفكر في حالهم.. وأحمد الله الذي عافاني مما ابتلاهم..

سألته: أين باب الخروج من المستشفى؟

قال: بقي غرفة واحدة.. لعل فيها عبرة جديدة.. تعال..

وأخذ بيدي إلى غرفة كبيرة.. فتح الباب ودخل.. وجرني معه.. كان ما في الغرفة شبيهًا بما رأيته في غرفة سابقة.. مجموعة من المرضى.. كل منهم على حال.. راقص.. ونائم.. و.. و.. عجبًا ماذا أرى؟؟

رجل جاوز عمره الخمسين.. اشتعل رأسه شيبًا.. وجلس على الأرض القرفصاء.. قد جمع جسمه بعضه على بعض.. ينظر إلينا بعينين زائغتين.. يتلفت بفزع..

كل هذا طبيعي..

لكن الشيء الغريب الذي جعلني أفزع.. بل أثور.. هو أن الرجل كان عاريًا تمامًا ليس عليه من اللباس حتى ما يستر العورة المغلظة..

تغير وجهي.. وامتقع لوني.. والتفت إلي الطبيب فورًا.. فلما رأى حمرة عيني..

قال لي: هدئ من غضبك.. سأشرح لك حاله..

هذا الرجل كلما ألبسناه ثوبًا عضه بأسنانه وقطعه.. وحاول بلعه.. وقد نلبسه في اليوم الواحد أكثر من عشرة ثياب.. وكلها على مثل هذا الحال.. فتركناه هكذا صيفًا وشتاءً.. والذين حوله مجانين لا يعقلون حاله..

خرجت من هذه الغرفة.. ولم أستطع أن أتحمل أكثر.. قلت للطبيب: دلني على الباب.. للخروج..

قال: بقي بعض الأقسام..

قلت: يكفي ما رأيناه..

مشى الطبيب ومشيت بجانبه.. وجعل يمر في طريقه بغرف المرضى.. ونحن ساكتان..

وفجأة التفت إلي وكأنه تذكر شيئًا نسيه.. وقال: يا شيخ.. هنا رجل من كبار التجار.. يملك مئات الملايين.. أصابه لوثة عقلية فأتى به أولاده وألقوه هنا منذ سنتين.. وهنا رجل آخر كان مهندسًا في شركة.. وثالث كان..

ومضى الطبيب يحدثني بأقوام ذلوا بعد عز.. وآخرين افتقروا بعد غنى.. و..

أخذت أمشي بين غرف المرضى متفكرًا.. سبحان من قسم الأرزاق بين عباده.. يعطي من يشاء.. ويمنع من يشاء..

قد يرزق مالاً وحسبًا ونسبًا ومنصبًا.. لكنه يأخذ منه العقل.. فتجده من أكثر الناس مالاً.. وأقواهم جسدًا.. لكنه مسجون في مستشفى المجانين..

وقد يرزق آخر حسبًا رفيعًا.. ومالاً وفيرًا.. وعقلاً كبيرًا.. لكنه يسلب منه الصحة.. فتجده مقعدًا على سريره.. عشرين أو ثلاثين سنة.. ما أغنى عنه ماله وحسبه..!

ومن الناس من يؤتيه الله صحة وقوة وعقلاً.. لكنه يمنعه المال فتراه يشتغل حمال أمتعة في سوق أو تراه معدمًا فقيرًا يتنقل بين الحرف المتواضعة لا يكاد يجد ما يسد به رمقه..

ومن الناس من يؤتيه.. ويحرمه.. وربك يخلق ما يشاء ويختار.. ما كان لهم الخيرة..

فكان حريًا بكل مبتلى أن يعرف هدايا الله إليه قبل أن يعد مصائبه عليه.. فإن حرمك المال فقد أعطاك الصحة.. وإن حرمك منها.. فقد أعطاك العقل.. فإن فاتك.. فقد أعطاك الإسلام.. هنيئًا لك أن تعيش عليه وتموت عليه..

فقل بملء فيك الآن بأعلى صوتك: الحمد لله..

الحمد لله الذي جعلني مسلمًا

قال أبو إبراهيم: كنت أمشي في صحراء.. فضللت الطريق.. فوقفت على خيمة قديمة.. فنظرت فيها فإذا رجل جالس على الأرض.. بكل هدوء.. وإذا هو قد قطعت يداه.. وإذا هو أعمى.. وليس عنده أحد من أهل بيته.. رأيته يتمتم بكلمات..

اقتربت منه وإذا هو يردد قائلاً: الحمد لله الذي فضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً.. الحمد لله فضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً..

فعجبت من كلامه وجعلت أنظر إلى حاله.. فإذا هو قد ذهبت أكثر حواسه.. وإذا هو مقطوع اليدين.. أعمى العينين.. وإذا هو لا يملك لنفسه شيئًا..

نظرت حوله.. أبحث عن ولد يخدمه.. أو زوجة تؤانسه.. لم أر أحدًا..

أقبلت إليه أمضي.. شعر بحركتي.. فسأل: من؟

قلت: السلام عليكم.. أنا رجل ضللت الطريق.. ووقفت على خيمتك.. وأنت الذي من أنت؟ ولماذا تسكن وحدك في هذا المكان أين أهلك؟ ولدك؟ أقاربك؟

فقال: أنا رجل مريض.. وقد تركني الناس.. وتوفي أكثر أهلي..

قلت: لكني سمعتك تردد: الحمد لله الذي فضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً..! فبالله عليك! فضلك بماذا؟! وأنت أعمى.. فقير.. مقطوع اليدين.. وحيد..

فقال: سأحدثك عن ذلك.. ولكن سأطلب منك حاجة.. أتقضيها لي؟

قلت: أجبني.. وأقضي حاجتك..

فقال: أنت تراني قد ابتلاني الله بأنواع من البلاء..

ولكن: الحمد لله الذي فضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً..

أليس الله قد أعطاني عقلاً؟ أفهم به.. وأتصرف وأفكر..

قلت: بلى.. قال: فكم يوجد من الناس مجانين؟

قلت: كثير.. قال: الحمد لله الذي فضلني على هؤلاء الكثير تفضيلاً..

أليس الله قد أعطاني سمعًا؟ أسمع به أذان الصلاة.. وأعقل به الكلام.. وأعلم ما يدور حولي؟

قلت: بلى..

قال: فكم يوجد من الناس.. صم لا يسمعون؟

قلت: كثير..

قال: الحمد لله الذي فضلني على هؤلاء الكثير تفضيلاً..

أليس الله قد أعطاني لساناً؟ أذكر به ربي.. وأبين به حاجتي..

قلت: بلى..

قال: فكم يوجد من الناس بُكْم.. لا يتكلمون؟

قلت: كثير..

قال: فالحمد لله الذي فضلني على هؤلاء الكثير تفضيلاً..

أليس الله قد جعلني مسلمًا.. أعبد ربي.. وأحتسب عنده أجري.. وأصبر على مصيبتي؟؟

قلت: بلى..

قال: فكم يوجد من الناس من عباد الأصنام والصلبان.. وهم مرضى.. قد خسروا الدنيا والآخرة..؟!

قلت: كثير.. قال: فالحمد لله الذي فضلني على هؤلاء الكثير تفضيلاً..

ومضى الشيخ يعدد نعم الله عليه.. وأنا أزداد عجبًا من قوة إيمانه.. وشدة يقينه.. ورضاه بما أعطاه الله..

كم من المرضى غيره.. ممن لم يبتلوا ولا بربع بلائه.. ممن شلهم المرض.. أو فقدوا أسماعهم أو أبصارهم.. أو فقدوا بعض أعضائهم.. ويعتبرون أصحاء لو قارناهم به.. ومع ذلك.. عندهم من الجزع والتشكي.. والعويل والبكاء.. بل وضعف الصبر وقلة اليقين بالأجر.. ما لو قسم على أمة لوسعهم..

سبحت بتفكيري بعيدًا.. ولم يقطعه علي إلا قول الشيخ..

هاه..! أذكر حاجتي..؟ هل تقضيها..؟ قلت: نعم.. ما حاجتك؟!

فخفض رأسه قليلاً.. ثم رفعه وهو يغص بعبرته وقال:

لم يبق معي من أهلي إلا غلام لي.. عمره أربع عشرة سنة.. هو الذي يطعمني ويسقيني.. ويوضئني.. ويقوم على كل شأني..

وقد خرج البارحة يلتمس لي طعامًا.. ولم يرجع إلى الآن.. ولا أدري.. أهو حي يرجى.. أم

ميت ينسى.. وأنا كما ترى.. شيخ كبير أعمى.. لا أستطيع البحث عنه؛ فسألته عن وصف الغلام.. فأخبرني.. فوعدته خيرًا..

ثم خرجت من عنده.. وأنا لا أدري كيف أبحث عن الغلام.. وإلى أي جهة أتوجه؟! فبينما أنا أسير.. ألتمس أحدًا من الناس أسأله عنه؛ إذ لفت نظري قريبًا من خيمة الشيخ جبل صغير.. عليه سرب غربان قد اجتمعت على شيء.. فوقع في نفسي أنها لم تجتمع إلا على جيفة أو طعام منثور..

فصعدت الجبل.. وأقبلت إلى تلك الطيور فتفرقت..

فلما نظرت إلى مكان تجمعها.. فإذا الغلام الصغير ميت مقطع الجسد.. وكأن ذئبًا قد عدا عليه.. وأكله ثم ترك باقيه للطيور..

لم أحزن على الغلام بقدر حزني على الشيخ..

نزلت من الجبل.. أجر خطاي.. وأنا بين حزن وحيرة.. هل أذهب وأترك الشيخ يواجه مصيره وحده.. أم أرجع إليه وأحدثه بخبر ولده..؟!

توجهت نحو خيمة الشيخ.. بدأت أسمع تسبيحه وتهليله..

كنت متحيرًا.. ماذا أقول؟.. وبماذا أبدأ؟..

مر في ذاكرتي قصة نبي الله أيوب عليه السلام.. فدخلت على الشيخ.. وجدته كسيرًا كما تركته.. سلمت عليه.. كان المسكين متلهفًا لرؤية ولده.. بادرني قائلاً:

أين الغلام؟

قلت: أجبني أولاً.. أيهما أحب إلى الله تعالى أنت أم أيوب عليه السلام؟

قال: بل أيوب عليه السلام أحب إلى الله..

قلت: فأيكما أعظم بلاء.. أنت أم أيوب عليه السلام؟

قال: بل أيوب..

قلت: إذن فاحتسب ولدك عند الله.. قد وجدته ميتًا في سفح الجبل.. وقد عدت الذئاب على جثته فأكلته..

فشهق الشيخ.. ثم شهق.. وجعل يردد.. لا إله إلا الله، وأنا أخفف عنه وأصبره.. ثم اشتد شهيقه.. حتى انكببت عليه ألقنه الشهادة.. ثم مات بين يدي.. غطيته بلحاف كان تحته.. ثم خرجت أبحث عن أحد يساعدني في القيام بشأنه، فرأيت ثلاثة رجال على دوابهم.. كأنهم مسافرون.. فدعوتهم.. فأقبلوا إلي..

فقلت: هل لكم في أجر ساقه الله إليكم.. هنا رجل من المسلمين مات.. وليس عنده من يقوم به.. هل لكم أن نتعاون على تغسيله وتكفينه ودفنه..

قالوا: نعم..

فدخلوا إلى الخيمة وأقبلوا عليه ليحملوه.. فلما كشفوا عن وجهه..

تصايحوا: أبو قلابة.. أبو قلابة..

وإذا أبو قلابة.. شيخ من علمائهم.. دار عليه الزمان دورته.. وتكالبت عليه البلايا.. حتى انفرد عن الناس في خيمة بالية.. قمنا بواجبه علينا.. ودفناه.. وارتحلت معهم إلى المدينة..

فلما نمت تلك الليلة.. رأيت أبا قلابة في هيئة حسنة.. عليه ثياب بيض.. وقد اكتملت صورته.. وهو يتمشى في أرض خضراء..

سألته: يا أبا قلابة.. ما صيرك إلى ما أرى؟!

فقال: قد أدخلني ربي الجنة.. وقيل لي فيها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤] .. (القصة بتصرف يسير من السير للذهبي)..

وقفة مع.. عيادة المريض

لماذا نعود المريض؟

لأجل ماله؟ كلا.. فمن يعود الفقراء!

لأجل قوته؟ كلا.. فمن يعود الضعفاء!

أم لحسبه ونسبه وجماله؟

كل هذه أسباب لا يلتفت إليها المخلصون.. وإنما نعوده لأجل الأجر والثواب، والوقوف مع إخواننا المسلمين في كرباتهم..

عن ثوبان رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «من عاد مريضًا لم يزل في خرافة الجنة» قيل: يا رسول الله: وما خرافة الجنة؟ قال: «جناها»[(١)].

وعن علي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عاده عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة»[(٢)] (الثمر المخروف أو المجتنى).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قال ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرًا فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا عاد مريضًا أو أتي به إليه قال: «أذهب الباس، رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا»[(٤)].

مريض البرسام

أحمد كان غلامًا صغيرًا في حجر والده.. ما تراه إلا ضاحكًا أو لاعبًا.. أصابه ألم في رأسه.. صبر عليه.. ثم اشتد عليه الألم.. حاولوا علاجه بشتى الطرق فلم يفلحوا..

بدأ رأسه يكبر وينتفخ شيئًا فشيئًا.. وصارُ ما بين جلد رأسه وعظمه.. قيح وصديد.. لا يدرون له علاجًا، حتى ثقل رأسه وغاب عن وعيه..

طرحوه على فراشه.. في بيت قديم.. جدرانه طين.. وسقفه من جذوع النخل.. ينتظرون موته.. مضت عليه أيام وهو على هذا الحال.. لا يكاد يتحرك..

وفي ليلة مظلمة.. كان السراج يشتعل معلقًا في سقف الغرفة.. وأخوه جالس عند رأسه يترقب.. وفجأة إذا بعقرب سوداء تخرج من بين أخشاب السقف.. وتمشي على الجدار وكأنها متوجهة نحو أحمد..

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

كان أخوه يراها.. لكنه لم يتحمس لدفعها عنه.. فلعلها أن تلدغه فيرتاح ويرتاحوا!

أقبلت العقرب على أحمد.. قام أخوه مبتعدًا.. يرقبها من بعيد.. وصلت إلى الرأس المريض.. مشت عليه.. ثم لدغته.. ثم تحركت قليلاً فلدغت.. ثم تحركت إلى موضع آخر من الرأس فلدغت.. وجعل القيح والصديد يسيل بغزارة من أنحاء رأسه.. والأخ ينظر إليه مندهشًا..!

ثم مشت العقرب تخوض في هذا القيح والصديد.. حتى وصلت إلى الجدار فصعدت عليه.. وعادت من حيث أتت..

دعا الأخ أباه وإخوته فأقبلوا عليه.. فلم يزالوا يمسحون الدم والصديد.. حتى ذهب انتفاخ الرأس..

وفتح الغلام عينيه.. ثم قام معهم.. (القصة ذكرها التنوخي في كتابه «الفرج»).

فكم من محنة في طيها منحة.. ورب صابر كانت عاقبة صبره الفرج..

وأفضل العبادات انتظار الفرج.. الأمر الذي يجعل العبد يتعلق قلبه بالله وحده.. وهذا ملموس وملاحظ على أهل المرض أو المصائب.. وخصوصًا إذا يئس المريض من الشفاء من جهة المخلوقين.. وحصل له الإياس منهم.. وتعلق قلبه بالله وحده..

وقال: يا رب..

ما بقي لهذا المرض إلا أنت.. فإنه يحصل له الشفاء بإذن الله، وهو من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج..

يرفعهم درجات..

دخل رسول الله ﷺ يومًا على عائشة؛ فإذا هي قد عصبت رأسها بعصابة..

وأخذت تئن من شدة الألم..

فقال: «ما بالك يا عائشة؟».

قالت: الحمى.. لا بارك الله فيها..

فقال: «لا تسبي الحمى فإنها تأكل خطايا ابن آدم كما تأكل النار الخطب»[(١)].

فالله قد يبتلي بعض عباده بالأمراض ليرفعهم درجات، وقد يكون للعبد منزلة في الجنة ولم يبلغها بعمله فابتلاه الله بأنواع البلاء ليرفعه إليها..

روى ابن حبان عنه ﷺ قال: «إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل، فما يزال يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها»..

وفي «الأدب» للبخاري عن أبي هريرة قال: ما من مرض يصيبني أحب إلى من الحمى؛ لأنها تدخل في كل الأعضاء والمفاصل وعددها ٣٦٠ مفصلاً.

البطل..

لم يكن أبو عبد الله يختلف كثيرًا عن بقية أصدقائي.. لكنه ـ والله يشهد ـ من أحرصهم على الخير.. له عدة نشاطات دعوية من أبرزها ما يقوم به أثناء عمله.. فهو يعمل مترجمًا في معهد الصم والبكم..

اتصل بي يومًا وقال: ما رأيك أن أحضر إلى مسجدك اثنين من منسوبي معهد الصم لإلقاء كلمة على المصلين..

تعجبت! وقلت: صم يلقون كلمة على ناطقين؟

قال: نعم.. وليكن مجيئنا يوم الأحد..

انتظرت يوم الأحد بفارغ الصبر.. وجاء الموعد.. وقفت عند باب المسجد أنتظر.. فإذا بأبي عبد الله يقبل بسيارته.. وقف قريبًا من الباب.. نزل ومعه رجلان.. أحدهما كان يمشي بجانبه.. والثاني قد أمسكه أبو عبد الله يقوده بيده..

نظرت إلى الأول فإذا هو أصم أبكم.. لا يسمع ولا يتكلم.. لكنه يرى..

والثاني أصم.. أبكم.. أعمى.. لا يسمع ولا يتكلم ولا يرى..

مددت يدي وصافحت أبا عبد الله، كان الذي عن يمينه ـ وعلمت بعدها أن اسمه

---

(١) رواه مسلم.

يتفاهم معه بالإشارة.. ترى كيف سيتفاهم مع فايز.. وهو لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم..!

انتهى أحمد من كلمته.. ومضى يمسح بقايا دموعه..

التفت أبو عبد الله إلى فايز..

قلت في نفسي: ماذا سيفعل؟!

ضرب أبو عبد الله بأصابعه على ركبة فايز.. فانطلق فايز كالسهم.. وألقى كلمة مؤثرة.. تدري كيف ألقاها؟

بالكلام؟ كلا.. فهو أبكم.. لا يتكلم..

بالإشارة؟ كلا.. فهو أعمى.. لم يتعلم لغة الإشارة..

ألقى الكلمة بـ (اللمس).. نعم باللمس.. يجعل أبو عبد الله (المترجم) يده بين يدي فايز.. فيلمسه فايز لمسات معينة.. يفهم منها المترجم مراده.. ثم يمضي يحكي لنا ما فهمه من فايز.. وقد يستغرق ذلك ربع ساعة..

وفايز ساكن هادئ لا يدري هل انتهى المترجم أم لا.. لأنه لا يسمع ولا يرى..

فإذا انتهى المترجم من كلامه.. ضرب ركبة فايز.. فيمد فايز يديه.. فيضع المترجم يده بين يديه.. ثم يلمسه فايز لمسات آخرى..

ظل الناس يتنقلون بأعينهم بين فايز والمترجم.. بين عجب تارة.. وإعجاب أخرى.. وجعل فايز يحث الناس على التوبة.. كان أحيانًا يمسك أذنيه.. وأحيانًا لسانه.. وأحيانًا يضع كفيه على عينيه.. فإذا هو يأمر الناس بحفظ الأسماع والأبصار عن الحرام..

كنت أنظر إلى الناس.. فأرى بعضه يتمتم: سبحان الله.. وبعضهم يهمس إلى الذي بجانبه.. وبعضهم يتابع بشغف.. وبعضهم يبكي..

أما أنا فقد ذهبت بعيدًا..

أخذت أقارن بين قدراته وقدراتهم.. ثم أقارن بين خدمته للدين وخدمتهم..

الهم الذي يحمله رجل أعمى أصم أبكم.. لعله يعدل الهم الذي يحمله هؤلاء جميعًا..

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

رجل محدود القدرات.. لكنه يحترق في سبيل خدمة هذا الدين.. يشعر أنه جندي من جنود الإسلام.. مسئول عن كل عاصٍ ومقصر..

كان يحرك يديه بحرقة.. وكأنه يقول يا تارك الصلاة إلى متى..؟ يا مطلق البصر في الحرام إلى متى..؟ يا واقعًا في الفواحش؟ يا آكلاً للحرام؟ بل يا واقعًا في الشرك؟

كلكم إلى متى.. أما يكفي حرب الأعداء لديننا.. فتحاربوه أنتم أيضًا؟

كان المسكين يتلون وجهه ويعتصر ليستطيع إخراج ما في صدره.. تأثر الناس كثيرًا.. لم ألتفت إليهم.. لكني سمعت بكاء وتسبيحات..

انتهى فايز من كلمته.. وقام.. يمسك أبو عبد الله بيده.. تزاحم الناس عليه يسلمون..

كنت أراه يسلم على الناس.. وأحس أنه يشعر أن الناس عنده سواسية..

يسلم على الجميع.. لا يفرق بين ملك ومملوك.. ورئيس ومرءوس.. وأمير ومأمور.. يسلم عليه الأغنياء والفقراء.. والشرفاء والوضعاء.. والجميع عنده سواء..

كنت أقول في نفسي: ليت بعض النفعيين مثلك يا فايز.

أخذ أبو عبد الله بيد فايز.. ومضى به خارجًا من المسجد.. أخذت أمشي بجانبهما.. وهما متوجهان للسيارة.. والمترجم وفايز يتمازحان في سعادة غامرة..

آه ما أحقر الدنيا.. كم من أحد لم يصب بربع مصابك يا فايز ولم يستطع أن ينتصر على الضيق والحزن..

أين أصحاب الأمراض المزمنة.. فشل كلوي.. شلل.. جلطات.. سكرى.. إعاقات.. لماذا لا يستمتعون بحياتهم.. ويتكيفون مع واقعهم..

ما أجمل أن يبتلي الله عبده ثم ينظر إلى قلبه فيراه شاكرًا راضيًا محتسبًا..

مرت الأيام.. ولا تزال صورة فايز مرسومة أمام ناظري، التقيت بأبي عبد الله بعدها.. فسألته عن فايز..

فقال: آه.. هذا الرجل الأعمى له أعاجيب.. قلت: كيف؟

قال: في حياتي لم أر أحرص على الصلاة من فايز..

فايز من منطقة خارج الرياض.. وقد جعلنا له غرفة صغيرة في معهد الصم يسكن فيها.. ووكلنا أحد العمال يهتم به.. يطبخ طعامه.. يوقظه للصلاة، كان العامل يأتي إليه عند كل صلاة.. يفتح الباب.. يحركه، فيقوم فايز ويتوضأ.. وينتظر في الأسفل عند باب المعهد ليأخذ العامل بيده إلى الصلاة..

أحيانًا يتأخر العامل.. فيضرب فايز الباب يستعجله.. فإذا تأخر العامل وخاف فايز فوات الصلاة مشى إلى المسجد.. وبينه وبين المسجد شارعان متواجهان.. يمشي وهو يلوح بيديه لأجل أن يراه أصحاب السيارات - إن كان هناك سيارات - وكم من سيارات تصادمت بسببه.. وهو لا يدري عنهم..

فايز له أعاجيب..

في إحدى المرات جئت إلى المعهد عصرًا فإذا مجموعة من الصم ينتظروني عند باب المعهد.. ويشيرون بأن فايزًا عنده مشكلة..

أقبلت إلى فايز.. فلما رأيته إذا هو غضبان.. قد ألقى غترته جانبًا.. ويشير بيديه.. والصم لا يفهمونه..

فلما وضعت يدي في يده.. عرفني.. فشد يدي.. وجعل يلمسني لمسات معينة.. ثم لمسته مثلها.. وسكن غضبه.. تدري ما الذي أغضبه؟!

في فجر ذلك اليوم.. فاتته الصلاة مع الجماعة.. وكان يقول: افصلوا هذا العامل.. استبدلو به غيره، ويدافع عبراته.. وأنا أسكن غضبه..

فرحم الله فايزًا.. ورحمنا..

الهم الكبير

ذهبت إلى دولة السويد في شهر رمضان.. كنت في رحلة دعوية لإلقاء بعض المحاضرات.. دعاني بعض الإخوة في أحد المراكز الإسلامية للقاء عدد من الشباب السويديين المسلمين..

دخلت المركز بعد الظهر.. فإذا هم مجتمعون في حلقة ينتظرون.. كانوا جالسين على

الأرض..

لفت نظري غلام لم يتعد عمره خمس عشرة سنة.. اسمه محمد.. جنسيته سويدي.. لكنه من أصل صومالي.. رأيته مقعدًا على كرسي متحرك..

وقد ربطت يده في جانبي الكرسي؛ لأنها تنتفض بشكل دائم ولا يملك التحكم فيها، وهو مع ذلك كله لا يتكلم.. ورأسه ينتفض أيضًا طوال الوقت..

أشفقت عليه لما رأيته.. اقتربت منه.. فهش في وجهي وبدأ يتبسم وينظر إلي ويود لو كان يستطيع أن يقوم..

سلمت عليه فإذا هو لا يفهم العربية لكنه يتكلم الإنجليزية والسويدية بطلاقة.. إضافة إلى اللغة الصومالية.. بدأت أحدثه عن المرض وفضله وعظم أجر المريض.. وهو يهز رأسه موافقًا..

لاحظت أن أمامه لوحًا صغيرًا قد علق عليه ورقة فيها مربعات صغيرة وفي كل مربع جملة مفيدة: شكرًا.. أنا جائع.. لا أستطيع.. اتصل بصديقي.. إلخ..

فعجبت من هذه الورقة.. فأخبرني أحد الحاضرين أن هذا الغلام إذا أراد الكلام ركبوا على رأسه حلقة دائرية يمتد منها عصا صغيرة فيحرك رأسه بين هذه المربعات حتى يضع طرف العصا على المربع المطلوب فيفهمون منه ما يريد..!

وهذه هي الطريقة الوحيدة للتفاهم معه.. فهو لا يتكلم.. ولا يتحكم بحركة يديه..

تكلمت معه عن فضل الله علينا بهذا الدين.. وأن المرء إذا وفق للإسلام فلا عليه ما فاته من الدنيا؛ فاكتشفت أن محمدًا هذا من أكبر الدعاة.. كيف!

أنا أخبرك بذلك:

وزارة الشئون الاجتماعية السويدية قد خصصت له رجلين موظفين يأتيان لخدمته في الصباح.. واثنين يأتيانه في المساء..

فإذا جاءه رجل غير مسلم.. طلب منه عن طريق الإشارة على هذه الورقة أن يتصل بصديقه فلان..

فإذا اتصل هذا الموظف بالصديق طلب منه محمد أن يسأل صديقه: ما الإسلام؟

فيجيب الصديق عن السؤال.. فيحفظه الموظف ثم يشرحه لمحمد.. ثم يطلب محمد من الموظف أن يسأل الصديق عن الفرق بين الإسلام والنصرانية؟ فيجيب عن ذلك..

ثم يطلب منه أن يسأل عن حال المسلم وغير المسلم يوم القيامة؟ فيجيب الصديق ويشرح الموظف.. حتى إذا فهم الموظف الكلام كله؛ أشار له محمد إلى درج المكتب فيفتحه.. فيجد فيه كتبًا في الدعوة إلى الإسلام.. فيأخذ منها ويقرأ.. وقد تأثر بسبب ذلك أشخاص كثيرون..

فلله در محمد ما أكبر همته.. لم يقعده المرض عن الدعوة.. بل ولا عن البشاشة والسرور..

ارض بما قسم الله لك تكن مؤمنًا..

واعلم بأن كل إنسان محاسب عن القدرات التي أعطاه الله إياها.. السمع.. البصر.. اللسان.. العقل..

وقد يتقبل الناس النصيحة من المريض المبتلى أكثر من تقبلهم لها من الصحيح المعافى.. فلماذا لا تكون داعية وأنت بهذا الحال؟ لست عاجزًا إن شاء الله..

وقد تسألني وتقول: من أدعو؟!

فأقول: ادع الأطباء.. الممرضين.. المرضى.. الزائرين..

كن رجلاً مباركًا..

تنصح هذا في الاهتمام بالصلاة..

وذاك في حفظ البصر والفرج..

والثالث في الاستفادة من وقته.. والرابع.. وهكذا..

خالد الأبكم..

قال د..عبد العزيز:

كانت عيادتي ذلك اليوم مزدحمة بالمرضى..

أكثرهم جاءوا من مناطق بعيدة وقرى نائية.. واضح هذا من مظاهرهم ولبسهم.. جعلوا يدخلون العيادة بالترتيب.. أمراض متفاوتة.. وظروف متنوعة.. دخل خالد.. طفل في العاشرة من عمره.. مع اثنين من المرافقين..

كان قد راجعني مرارًا.. مع رجل كبير كنت أظنه أباه.. ليتابع ضعف سمعه الذي يعاني منه منذ ولادته..

جلس الثلاثة.. فعرفت أن أحد المرافقين هو والده.. والآخر الذي تعودت أن أراه معه.. وكان يتحدث طوال الوقت.. هو خاله الذي يهتم به ويتابع علاجه من سنوات..

جلس الخال يتحدث بإسهاب عن خالد وكيف تحسن سمعه كثيرًا مع السماعات التي ركبت في الفترة الأخيرة..

كان الخال يتحدث بشفقة.. وكأن المرض فيه هو.. وكان يردد: هل تصدق يا دكتور أنه بهذه السماعات.. صار سمعه في المستوى الطبيعي بفضل الله تعالى.. كان خاله سعيدًا بهذا الأمر.. وكيف أن المعلمين في المدرسة التي يدرس فيها (الخاصة بالصم والبكم) متشجعون جدًّا لمستوى تحسن خالد الدراسي..

قال الخال: يا دكتور.. وقد جئتك هذا المرة بأبي خالد.. كي تصف له السماعة الملائمة لعله أن يتحسن سمعه هو الآخر..

قلت: أبوه أيضًا لا يسمع؟ قال: نعم.. منذ سنين طويلة..

التفت إلى خالد.. سألته: كيف حالك؟ أجابني بسرعة: الحمد لله.. بخير..

قلت: كيف المدرسة؟ فقال: جيدة..

كان يسمع ويتكلم.. لكن نطقه ثقيل لا يزال يحتاج إلى تدريب وتقويم.. لكن مستوى ذكائه يتماشى مع سنه الطبيعي..

سألت خاله: ما دام سمع خالد في تحسن.. ويحتاج إلى كثرة كلام ليستقيم نطقه.. فأقترح أن تسرعوا بنقله إلى مدرسة عادية.. ليتعايش مع وضعه الجديد.. سكت خاله.. وخفض رأسه.. وبدا وجهه حزينًا وكأني نكأت جروحًا..

أمارات تعجب كثيرة أراها على وجهه.. وكأنه لا يصدق أن الابن الصغير بات شخصًا عاديًا.. له الحق في الحياة الطبيعية مثل غيره..

قال: يجب أن يبقى في مدرسة الصم والبكم..

قلت: لم؟ ما المشكلة معكم؟ قال الخال: أسرة خالد تسكن في قرية بعيدة.. ولا أقدر أن أضعه في مدرسة عادية.. لأن خالدًا لا بد أن يحافظ على قدرته على التعامل مع الصم.. حتى يعرف كيف يحادث أهله!

قلت: يحادث أهله؟! قال: نعم.. كل أعضاء الأسرة لا يسمعون.. الأب.. والأولاد..

قلت: وخالد فقط الذي يتابع معنا العلاج؟ قال: نعم..

تعلم يا دكتور أنه من الصعب أن نترك القرية كلنا معًا في آن واحد.. وخالد أمره مهم..

قلت: كم أعمار أخواته؟ قال: أخته الكبرى تجاوزت الخامسة عشر تقريبًا.. والثانية عمرها حوالي ثمانية أعوام..

قلت له بعصبية: والآن جئتني بوالده المسن لكي نعالج مشكلة ضعف سمعه.. وتركت الأختين في الدار.. وهما في بداية حياتهما..؟! الأولى فقدت فرصتها في التعليم.. وربما في بناء أسرة أيضًا.. والثانية تريد أن تفقدها فرصتها هي الأخرى؟

أليس هذا حرامًا؟! بل وتصر على أن يظل خالد في هذا الجو رغمًا عن إرادته..! بدأ الخال يدافع عن نفسه.. وأن الأمر ليس تمييزًا بقدر ما هو عدم قدرة على أن يأتي بهم أجمعين؟

جلست فترة طويلة أناقش هذا الخال بأن الأمر مسئولية في عاتقه.. فكما يقدر على إحضار خالد في كل المواعيد ويعتني به فمن حق أخواته أيضًا أن يعشن حياة صحيحة.. وعدني الخال خيرًا.. وشكر لي اهتمامي.. ومضى خارجًا..

وقف عند الباب وقال:

أعدك.. أن أحضرهم كلهم.. في سيارتي الصغيرة.. حتى لو وضعتهم فوق بعضهم البعض.. تبسمت في داخلي..

ليت كل الناس يحملون في داخلهم مثل هذا القلب الأبيض، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه..

بين الطبيب والمريضة

يحق لنا جميعًا أن نتساءل! متى يعالج الطبيب المرأة؟

والجواب أن: الأصل أن الطبيبة هي التي تعالج بنات جنسها.. لكن إذا لم يوجد طبيبة.. ووجدت الحاجة والضرورة فلا بأس أن يتولى العلاج طبيب رجل..

فيكشف على المرأة المريضة بقدر الحاجة.. فإذا كان الألم في ساقها لم يجز أن ينظر إلى غيره.. وكذلك لو كان الألم في يدها فينظر إلى يدها فقط لعلاجها.. دون أن ينظر إلى وجهها وشعرها.. لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣]..

ولا يخلو الطبيب بالمرأة عند علاجها.. بل يبقي معها محرمها.. زوجها وأبوها.. فإن لم يكن محرم فتبقى الممرضة..

ومن الأعاجيب أن أحدهم أدخل زوجته على طبيب الأسنان، وجلس ينتظر بالخارج، فقيل له: لماذا لا تدخل مع زوجتك؟ فقال: حتى تأخذ راحتها! (لا تعليق!)..

مع الطبيب..

الطب مهنة شريفة.. وكان عيسى عليه السلام نبيًا يعالج الناس.. فيبرئ الأكمه والأبرص.. بل كان يحيي الموتى بإذن الله.. فهو مهنة شريفة وعمل رائد.. فحري بالطبيب الناصح أن يتحلى بأمور، منها:

١ ـ الأمانة والمحافظة على أسرار المرضى:

قال ﷺ: «من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة»[1].

---

(١) رواه مسلم.

فبعض الناس بحكم مهنته يكون مطلعًا على أسرار الآخرين كالطبيب والمفتي وأمين السر وغيرهم.. فهؤلاء يجب عليهم كتمان السر إلا إذا أذن صاحب السر بإفشائه.. ولكن يجوز إفشاء السر للمصلحة كإبلاغ الجهات المختصة بإصابة المريض بمرض وبائي.. أو إبلاغ أحد الزوجين أن الآخر مصاب بمرض جنسي معدٍ كالإيدز مثلاً..

٢ ـ عدم استغلال منصبه لمصالحه الشخصية:

خرجت يومًا من إحدى المحاضرات.. فجاءني شخص وقال: يا شيخ أنا مسئول في شركة كبرى لإنتاج وتوزيع الأدوية.. وتصرف الشركة ملايين الريالات في الدعاية والتسويق.. وتضع تحت تصرفي سنويًا مبلغ مليون ريال إقامة علاقات مع الأطباء!

قلت: كيف؟

قال: نرسل للطبيب تعريفًا بمنتجاتنا.. ونبعث معه هدية.. ساعة.. طقم أقلام.. سماعة.. نتكفل له بتكاليف السفر لحضور بعض المؤتمرات الطبية.. أو تذاكر له ولعائلته لسفر سياحي..

وكلما كان المستشفى الذي يعمل فيه الطبيب أكثر سحبًا لمنتجاتنا علمنا أن الطبيب يكتب الوصفات بهذه الأدوية.. وبالتالي نزيده إكرامًا.. وعمومًا لنا طرق في معرفة الطبيب النشيط معنا دون غيره..

قلت له: هل يمكن أن يدفع تشجيعكم هذا الطبيب إلى الضرر بالمريض؟

قال: تشجيعنا وهدايانا.. تدفع الطبيب إلى صرف منتجاتنا مع ارتفاع سعرها عن غيرها.. مع إمكان الطبيب أن يصرف منتجًا لشركة أخرى له نفس المميزات والتأثير بسعر أقل.. وكذلك يقوم الطبيب أحيانًا بصرف أدوية للمريض غير ضرورية.. كبعض مسكنات الحرارة والفيتامينات.. مع عدم حاجة المريض الشديدة إليها غالبًا.. ولكن لأجل أن يفيدنا.. ويستفيد..

قلت: والضحية المريض المسكين.. وماله وعرق جبينه..

قال: نعم.. لكن المريض ـ يا شيخ ـ مشتري الدواء لا محالة.. فنجعله يشتريه منا دون غيرنا..

قلت: لكنه سيدفع مالاً زائدًا لشراء منتجكم.. وشراء أدوية ومقويات لا يحتاجها.. لكن لتستفيدوا من ماله.. صحيح؟ قال: نعم..

من هنا أستطيع أن أقول للإخوة الأطباء بكل صراحة:

إن ما تفعله بعض شركات الأدوية من الجرائم يجب أن لا يستجيب له الأطباء.. بل يجب أن يقاوموه.. بعض الشركات تعطي الطبيب مدحًا للدواء.. وأوصافًا عجيبة للعلاج.. والطبيب الذي لا يروج عليه دعايات كاذبة.. فمن أمانة الطبيب أن يصف للمريض الدواء الصحيح ولو كان من شركة غير التي كونت معه علاقة.. أو عملت له دعاية.. أو أعطوه أشياء.. أو وعدوه بدعوة للخارج وإقامة في فنادق وتذاكر طيران.. وهدايا قيمة.. وساعات وحقائب ثمينة..

فقد يكون هناك دواء من شركة أخرى تركيبه وتأثيره واحد.. وهو أرخص.. فلماذا تعطي المريض الدواء الأغلى..؟

هذه خيانة للأمانة.. لم تنصحه لله.. لماذا تجعله يصرف أكثر والتركيبة واحدة؟!

٣ ـ وهنا جانب آخر من الأمانة.. لا يقل أهمية عن سابقه:

وهو ستر العورات..

وقد رأينا جموعًا من الأطباء والطبيبات على حرص كبير على ذلك.. في العناية بستر المريض عند العلاج.. وأثناء العملية وبعدها.. ومعاملته كالنفس أو أشد.. بل رأينا من الأطباء من يقوم بالمرور اليومي على المرضى فإذا رأى مريضًا نائمًا مكشوف العورة.. سارع إليه وغطاه بلحافه وستره.. وإذا رأى مريضًا غائب الوعي وقد تحرك وانكشف شيء من عورته.. سارع الطبيب إلى سترها، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة..

والإهمال الذي يقع في بعض المستشفيات.. هو نادر قليل.. ولكن لا بد من التنبيه عليه حتى يناصح الأطباء والمرضون بعضهم بعضًا..

قال الدكتور حارث:

في بداية عملي في الطب.. كنت أتولى إجراء بعض العمليات الخفيفة، وفي غرفة العمليات يمر المريض بعد التخدير بمرحلة التجهيز والإعداد، ولم أكن أدخل غرفة

العمليات إلا بعد تجهيز المريض غالبًا حينما يكون مستورًا إلا موضع الجراحة..

ودخلت مرة أثناء مرحلة التجهيز فرأيت شابًا قد تم تخديره، وهو مستلق على طاولة غرفة العمليات، وهو عار تمامًا ليس عليه شيء يستره! وذلك أن الممرضات الخاصات بنزع الملابس قد نزعن ملابسه بينما الممرضات الخاصات بلباس العمليات لم يسترنه بعد.. وكان يوجد طبيب يتفحص أجهزة العملية وقد أهمل الأمر وكأنه لا يعنيه.. ثم بدأ الأمر يزداد سوءًا في عملية المنظار وقسطرة البول.. ومن العسير أن أصف التفاصيل تأدبًا مع القارئين.. بقيت ضائق الصدر أيامًا..

وقالت الدكتورة سارة:

أما في غرفة العمليات فحدث ولا حرج.. فالمرأة توضع على طاولة العملية عارية تمامًا.. إي والله.. ويكون في غرفة العمليات: أخصائي التخدير: وطلاب، وأطباء..

وعندما أقول: غطوها.. يقول الاستشاري رئيس الفريق الطبي: نحن جميعًا أطباء..!

فأقول في نفسي: وإذا كنا أطباء نهتك عورات الناس؟! وأنا متأكدة أنها لو كانت زوجته لما سمح لأحد بأن يراها.. وحتى لا يساء فهم مرادي لا بد أن أقول:

هاتان الحادثتان اللتان أوردتهما أحسب أنهما نادرتان وإنما ذكرتهما لتنبيه من كان غافلاً عنها من إخواننا الأطباء والممرضين..

٤ ـ التواضع لله ولين الجانب.

٥ ـ معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بالعلاج والمرضى قدر المستطاع.

ينبغي على الطبيب أن يتوفر له الحد الأدنى من الدراية بعلوم الفقه وأحكام العبادات؛ لأن الناس سوف يستفتونه في أمورهم الصحية ذات الصلة بالعبادات.. وبالذات تعليم المرضى كيفية الطهارة والصلاة..

وبعض المرضى قد لا يصلون.. لا بغضًا للصلاة.. وإنما جهلاً بكيفية طهارة وصلاة المريض.. ولما نصحنا بعض المرضى كان يقول: كيف أصلي وثيابي فيها نجاسة! كيف أصلي وسريري إلى غير القبلة! فمن المسئول عن هؤلاء؟

فالطبيب الموفق يتعلم ويعلم أحكام النجاسات وحكم لمس العورة وما يترتب عليه من

نقض وضوء أو غيره.. والجمع بين الصلاتين عند الحاجة، متى يجمع ومتى لا يجمع.. وأحكام القبلة، الصلاة، الطهارة، التيمم.. ويوقظ المريض لصلاة الفجر..

واليوم صار الأمر سهل إذ توفرت كتب متخصصة في جمع الفتاوى الطبية والأحكام الشرعية المتعلقة بالمرض.. يمكن للطبيب والمريض الاستفادة منها بسهولة..

٦ ـ شهادة الزور:

تعمد بعض الجهات الحكومية إلى طلب تقارير طبية من موظفيها لإثبات أو نفي أمر مرضي ليبني عليه إجازة أو تقاعدًا أو صرف مكافأة.. أو غير ذلك..

فينبغي للطبيب إن أدلى بشهادة أو كتب تقريرًا طبيًّا أن يكون مطابقًا للحقيقة، وأن لا تدفعه نوازع القربى أو الصداقة والمودة أن يدلي بشهادة تخالف الواقع، فتكون شهادة زور وقد قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين.. ثم صمت مليًا وقال: ألا وقول الزور ألا وقول الزور.. ألا وقول الزور.. فما زال يكررها حتى حسبوه لا يسكت» رواه الشيخان.

ولا تكتب بكفك غير شيء   يسرك في القيامة أن تراه

٧ ـ عدم انتقاد الأطباء الآخرين أمام المرضى:

يتعب الطبيب ـ والممرض أحيانًا ـ حتى يصل إلى درجة متميزة من إتقان العمل والإبداع فيه.. ومع ذلك فلا ينبغي له أن يكثر الحديث عن نفسه فيذكر محاسن عمله ودقة إنجازاته وأعماله، وبالمقابل ينتقص من زملاء مهنته حتى يجتذب المرضى الذين يعالجون لدى زميله، وقد يستثقل المرضى المعالج الذي يصرف وقته في ذكر منجزاته، خاصة إذا كان عمله الحقيقي لا يدلل عليه، والمرض نوعان: مرض القلب وهو مرض معنوي، والثاني: مرض الجسم وهو مرض حسي، وما أجمل أن يتقن الطبيب علاج النوعين من المرض..

على فراش الموت

ماذا يفعل الطبيب لو حضر محتضرًا؟

إذا ظهرت علامات الموت على المريض وغلب على الظن أنه قد حضر أجله فالسنة أن

تلقنه شهادة أن لا إله إلا الله، لأنه ﷺ قال: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»[١]، والتلقين يكون برفق، فلا تقل: يا فلان قل: لا إله إلا الله فإن أجلك قد حضر!

لا.. ولكن يمكن أن تذكر الله عنده وتتشهد، فإذا سمع ذلك منك تذكر وتشهد..

نعم إن كان كافرًا فلا بأس أن تقول له ـ صريحًا ـ: قل: لا إله إلا الله.. لأنه ﷺ قال لعمه أبي طالب حين حضرته الوفاة «يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، وقال للغلام اليهودي الذي عاده وهو على فراش الموت: يا غلام قل: لا إله إلا الله.. وكررها عليه حتى قالها.. ثم مات.. فقال ﷺ: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[٢].

وينبغي على من حضر محتضرًا أن يحسن ظنه بربه.. ويطمئن نفسه فقد يكون ذهنه مشغولاً على أولاده أو بديون وفقر.. فلا بد أن تذكره بأن الله هو الرزاق وأن من خلق الخلق لن يضيعهم سبحانه، حتى يموت مرتاحًا مطمئنًا..

الطبيب والدعوة

كنت أقرأ بحثًا حول التنصير، كان بحثًا مرتبًا حول أساليب التنصير واستغلال المواقف والحاجات..

فكان من العبارات الهامة قول إحدى منظمات الأطباء التنصيرية:

(حيث تجد بشرًا تجد آلامًا، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير)..

جعلت بعد هذه العبارة أبحث عن جهودهم في التنصير من خلال التطبيب.. فذهلت بجهود وقدرات..

ومن ذلك أن منظمة تنصيرية تدعى (عملية البركة الدولية) وهي تابعة لمنظمة (شبكة الإذاعة المسيحية) والتي يرأسها منصر أمريكي يدعى (بات روبرتسون) مرشح الانتخابات الأمريكية عام ١٩٨٧م، قامت تلك المنظمة بتجهيز طائرة لوكهيد (L ـ ٥٠ ـ ١٠١١)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

وتحويلها إلى مستشفى طائر ضخم بكلفة خمسة وعشرين مليون دولار، مزود بجميع المعدات اللازمة للعمليات الجراحية والعلاجية، بحيث يجوب مناطق كثيرة في العالم ويمكث في مناطق محددة ومختارة لمدد تتراوح ما بين أسبوع إلى عشرة أيام، ويقدم خدماته بالمجان..

ولكن كانت حقيقة هذا العمل المجاني هي تنصير الناس!

فقبل بدء الكشف والعلاج يسأل عن ديانته، ثم يستمع لمحاضرة لمدة عشر دقائق حول المسيح عليه السلام، وعن دين النصارى، وضرورة البحث عن الخلاص في رحاب المسيح، ثم يعطى كمية من الكتب والنشرات ويطلب منه دراستها والحضور إلى عنوان معين بعد أيام!

يا عجبي.. مستشفى طبي طائر للتنصير.. ألا تقدر أمة المليار على مثله..؟! رحم الله الإمام الشافعي لما قال عن المسلمين والطب: «ضيعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى».

ومما يزيدنا يقينًا بأهمية الدعوة في المجال الطبي وأن المستشفى أرض خصبة للدعوة:

أن الطبيب ذو علاقة جذرية بحياة الآخرين، فمن من الناس لا يمرض ولا يعتل؟ كل الناس كذلك ـ غالبًا ـ لذا ترى الناس يهرعون إلى طلب الاستطباب طمعًا في الشفاء، ويبذلون لذلك الغالي والنفيس، ويشعرون بالحاجة إلى الطبيب ويحرصون على التلطف معه.. وإقامة علاقة حسنة.. وكسب رضاه..

إذن أفلا يجدر بالطبيب أن يغتنم ذلك في بذل نصيحة لامرأة في حجابها.. أو عاق والديه.. أو تارك صلاة.. أو واقع في فاحشة..

وأهم من ذلك نصح المريض.. وبالذات في قضايا العقيدة من رقى وتمائم وأحجبة وغيرها، والمريض يكون عادة في حالة من الضعف يتقبل فيها ما يشير عليه الطبيب..

فلعل كلمة واحدة منك تنقل شخصًا من الظلمات إلى النور.

ومن طرق الدعوة التي يمكن أن يتعاون فيها الطبيب..

١ - توزيع الأشرطة والمطويات النافعة، وتعليق المجلات الحائطية، وتكون مواضيعها متنوعة حول أحكام طهارة المريض وصلاته، والدعاء والصبر، إلى غير ذلك..

٢ ـ عمل مكتبة إسلامية مصغرة مقروءة ومسموعة ومرئية باللغتين العربية والإنجليزية، لنفع المسلمين، ودعوة غير المسلمين.

٣ ـ إيجاد مكتبة صوتية إسلامية تجارية ـ على هيئة كشك أو محل ـ في صالة الاستقبال ونحو ذلك، تؤجر على إحدى التسجيلات الإسلامية، وفي هذه الفكرة خير عظيم.

٤ ـ تنسيق كلمات توجيهية في المساجد والمصليات التابعة للمستشفى..

٥ ـ إقامة ندوات علمية طبية تبين إعجاز الله في خلق الإنسان.

الطبيب ومفاتيح الخير

جلست أفكر كثيرًا في حال الطبيب مع مرضاه.. وقارنت الطب ببقية الوظائف، فوجدت أن المدرس في الغالب يتعامل مع نوعية محددة من الناس.. متقاربين في توجهاتهم وأفكارهم ومستوى قدراتهم وكيفية تعاملهم.. وبالتالي لن يتعب كثيرًا في التعامل معهم..

ووجدت أيضًا أن المهندس يتعامل أيضًا مع مستويات متقاربة.. فلن يتعب ذهنيًا كثيرًا..

وقل مثل لذلك في الطيار فهو على مقود طيارته لا علاقة له بالركاب.. ومثله القبطان.. والبناء.. والحداد.. والنجار..

أما الطبيب فيجلس في عيادته ويدخل عليه المرضى..

منهم الذكي اللماح الذي يفهم مراد الطبيب ويفهم منه الطبيب..

ومنهم الغبي عديم الفهم.. الذي سيتعب مع الطبيب.. ويتعب الطبيب..

ومنهم سيئ الظن الذي يشغل الطبيب بقوله: أيش قصدك يا دكتور.. اتق الله لا تخسرني أموال في الأدوية.. لم كل هذه التحاليل؟ أنت قاعد تسرقنا!

ومنهم حسن الظن..

ومنهم الغضوب الذي ربما أزعج الطبيب بقوله: يا دكتور أنت ما تفهم.. كم مرة تعطيني علاجًا ولا أشفى..

ومنهم الحليم.. ومنهم الكريم.. ومنهم البخيل..

ومنهم العربي والأعجمي.. والكبير والصغير.. والغني والفقير..

ولا تحسب الناس نوعًا واحدًا فلهم طبائع لست تحصيهن ألوان

فلا بد للطبيب أن يكيف نفسه في التعامل مع كل موقف بما يصلح له.. بالصبر على المرضى عند علاجهم وبالذات على كبار السن توقيرًا لهم.. وعلى الأطفال رحمة بهم.. وعلى الملهوفين في الحالات الطارئة شفقة عليهم..

والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير وأحب إلى الله من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم.. كما أخبر ﷺ..

ومن مفاتيح الخير:

١ ـ التلطف مع المريض بسؤاله عن أحواله في البيت وأولاده..

٢ ـ إعداد بعض الأشرطة أو الكتيبات وإهداؤها إلى المرضى..

٣ ـ الرفق بأهل المريض وتحمل كثرة أسئلتهم والتأثير فيهم من خلال مناصحتهم..

٤ ـ احتساب الأجر أثناء المرور اليومي على المرضى.. فالمسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع..

٥ ـ التبسم في وجه المريض فتبسمك في وجه أخيك صدقة..

٦ ـ دلالة المريض على ما يسأل عنه من حاجة أو مكان «فمن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»..

٧ ـ احتسابك الأجر عند المبيت في غرفة المناوبة وحدك وتركك الأهل والدار، ولعله يشملك قوله ﷺ: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»[1].

٨ ـ الحذر من التسرع في تشخيص الداء والتريث في وصف الدواء «ومن تطبب ولم يعلم منه طلب فهو ضامن».

---

(١) رواه البخاري.

٩ ـ الحرص على ستر عورات المسلمين «ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[١].

١٠ ـ الحذر من كثرة الكلام (والسواليف) مع المريض إذا كان خارج العيادة مرضى ينتظرون، فمنهم من ترك عمله ومشاغله وأطفاله..

صلاة المريض

قبل فترة اتفقت مع مجموعة من الزملاء على تكوين لجنة خيرية لعيادة المرضى ومواساتهم ومساعدتهم عند الحاجة..

ولما كان عددنا قليلاً رتبنا المستشفيات نزورها واحدًا تلو الآخر، أول مستشفى زرناه كان يحتوي على أكثر من ٥٠٠ سرير.. مررنا على المرضى.. أهديناهم هدايا.. صبرناهم.. أجبنا عن أسئلتهم.. تفاجأنا بأن أكثر من ٤٠٪ من هؤلاء المرضى لا يصلون! ولهم أعذار متنوعة.. فمنهم من ينوي جمع الصلوات إلى وقت خروجه.. ومنهم من يقول: كيف أصلي وأنا إلى غير القبلة! أو كيف أصلي وأنا لا أستطيع الوضوء! أو ثيابي ملطخة بالنجاسة! إلى غير ذلك..

مع أن الله تعالى قد سهل الأمر عليهم.. والشريعة رفعت الحرج.. وجعل الله مع العسر يسرًا.. فلنعلم جميعًا أن الصلاة لا تسقط عن المسلم أبدًا إلا في حالة فقدان العقل بجنون أو إغماء طويل (غيبوبة)..

وهنا بيان موجز لكيفية طهارة المريض وصلاته:

للمريض في الطهارة عدة حالات:

١ ـ إن كان مرضه يسيرًا لا يضره مع استعمال الماء كالمريض بالصداع ووجع الضرس ونحوهما، فهذا لا يجوز له التيمم.

٢ ـ وإن كان به مرض يزداد باستعمال الماء، فهذا يجوز له التيمم.

٣ ـ المريض إذا لم يستطع الوضوء أو الغسل بالماء لعجزه أو لخوفه من زيادة المرض فإنه

---

(١) رواه مسلم.

يتيمم بتراب نظيف؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [المائدة:٦]، فإن كان لا يستطيع التيمم يممه غيره، بأن يأخذ يدي المريض فيضرب بها على التراب ثم يمسح وجهه وكفيه، وإن كان بدنه أو ملابسه أو فراشه متلوثًا بالنجاسة، ولم يستطع إزالة النجاسة، أو التطهر منها ـ جاز له الصلاة على حالته التي هو عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

٤ ـ من به جروح أو قروح أو كسر أو مرض يضره استعمال الماء، فأصابته جنابة، جاز له التيمم للأدلة السابقة، وإن أمكنه غسل الصحيح من جسده وجب عليه ذلك وتيمم للباقي.

٥ ـ إذا كان المريض في محل لم يجد ماء ولا ترابًا ولا من يحضر له الماء أو التراب، فإنه ينوي الطهارة بقلبه، ويصلي على حسب حاله وليس له تأجيل الصلاة، لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

٦ ـ المريض المصاب بسلس البول، أو استمرار خروج الدم أو الريح ولم يبرأ بمعالجته، عليه أن يتوضأ لكل صلاة بعد دخول وقتها ويغسل ما يصيب بدنه وثوبه، أو يجعل للصلاة ثوبًا طاهرًا إن تيسر له ذلك. وإن تيسر أن يضع على فرجه قطنًا أو نحوه مما يمنع وصول النجاسة إلى ملابسه وبقية بدنه، فهو أفضل.

٧ ـ وإن كان المريض عليه جبيرة فيمسح عليها في الوضوء والغسل، ويغسل بقية العضو، أما إن كان المسح على الجبيرة أو غسل ما يليها من العضو يضره، أو كان فيه جروح لا يستطيع غسلها ولا مسحها (كالحروق) اكتفى بالتيمم بعد انتهائه من الوضوء.

كيفية صلاة المريض:

* أجمع أهل العلم على أن من لا يستطيع القيام، له أن يصلي جالسًا، ويكون جلوسه حسب ما يسهل عليه فكيفما جلس جاز.

* فإن عجز عن الصلاة جالسًا فإنه يصلي على جنبه مستقبل القبلة بوجهه، والمستحب أن يكون على جنبه الأيمن، فإن عجز عن الصلاة على جنبه صلى على ظهره، وتكون رجلاه جهة القبلة إن أمكن؛ لقوله ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائمًا فإن لم تستطع

فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب» رواه البخاري وزاد النسائي: «فإن لم تستطع فمستلقيًا».

* ومن قدر على القيام وعجز عن الركوع أو السجود لم يسقط عنه القيام، بل يصلي قائمًا فيومئ بالركوع (يعني: يميل بجسمه خافضًا رأسه) ثم يرفع من الركوع، فإذا أراد السجود جلس، وأومأ بالسجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، ولقوله ﷺ: «صلي قائمًا».

* وإن كان المرض شديدًا، أو شللاً، ولم يقدر على الإيماء برأسه، نوى الركوع والسجود بقلبه، وإن لم يكن عنده من يوجهه إلى القبلة، ولم يستطع التوجه إليها بنفسه؛ صلى على حسب حاله، إلى أي جهة تسهل عليه.

* وبعض المرضى ممن تجرى لهم عمليات جراحية، يتركون الصلاة لأنهم لا يقدرون على أدائها بصفة كاملة، أو لعجزهم عن الوضوء، أو لأن ملابسهم نجسة، وهذا خطأ كبير؛ فلا يجوز ترك الصلاة. بل يصليها على حسب حاله: «فاتقوا الله ما استطعتم».

* وبعض المرضى يقول: إذا شفيت؛ قضيت الصلوات التي تركتها، وهذا تساهل؛ فالصلاة تصلى في وقتها حسب الإمكان، ولا يجوز تأخيرها عن وقتها.

* وإذا نام المريض أو غيره عن صلاة أو نسيها وجب عليه أن يصليها حال استيقاظه من النوم، أو حال ذكره لها، ولا يجوز له تركها إلى دخول وقت مثلها ليصليها فيه؛ لقوله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها متى ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك».

* وإن شق عليه فعل الصلاة بوقتها فيجمع الظهر والعصر، والمغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير حسبما يتيسر له، إن شاء قدم العصر مع الظهر وإن شاء أخر الظهر مع العصر، وإن شاء قدم العشاء مع المغرب، وإن شاء أخر المغرب مع العشاء، أما الفجر فلا تجمع مع ما قبلها ولا مع ما بعدها.

أحكام صيام المريض

* كل مريض يشق عليه الصوم، يجوز له الفطر، لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٥]. أما المرض اليسير كالسعال والصداع فلا يجوز

الفطر بسببه.

* وإذا كان الصيام يزيد المرض أو يؤخر الشفاء، ويحتاج نهارًا لتناول الدواء، فيجوز له أن يفطر، ويكره له الصيام لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

* إن كان الصوم يسبب له الإغماء، أفطر وقضى، وإذا أصبح صائمًا فأغمي عليه أثناء النهار وأفاق قبل الغروب أو بعده فصيامه صحيح ما دام لم يأكل ولم يشرب، ومن أغمي عليه، أو وضعوا له مخدرًا لمصلحته، فغاب عن الوعي، فإن كان ثلاثة أيام فأقل فيقضي ـ قياسًا على النائم ـ وإن كان أكثر فلا يقضي قياسًا على من غاب عقله بجنون (ابن باز).

* المريض الذي يرجى برؤه وينتظر الشفاء (كمن أجريت له عملية جراحية) إذا شق عليه الصوم أفطر وقضى.

* والمريض مرضًا مزمنًا لا يرجى برؤه (كمرض السرطان، والفشل الكلوي مثلاً) وكذلك الكبير العاجز عن الصيام والقضاء، يطعم عن كل يوم مسكينًا نصف صاع من قوت البلد (كيلو ونصف من الأرز).

* والمريض الذي أفطر بعض رمضان وينتظر الشفاء ليقضي، ثم علم أن مرضه مزمن، وأنه لن يستطيع القضاء أبدًا، فالواجب عليه إطعام مسكين واحد عن كل يوم أفطره.

* ومن كان ينتظر الشفاء من مرض يرجى برؤه، فمات قبل أن يوجد وقت للقضاء، فليس عليه ولا على أوليائه شيء (مثال: شخص أجرى عملية جراحية في ٢٥ رمضان، فأفطر بنية القضاء بعد الشفاء، فتوفي في ٣٠ رمضان، فهذا لا يلزم أهله عنه قضاء ولا إطعام).

* ومن مرض فأفطر، ثم شفي وتمكن من القضاء، فتكاسل حتى مات، أخرج من ماله طعام مسكين عن كل يوم، وإن تبرع أحد أقاربه بالصوم عنه فهو أولى لقوله ﷺ: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» (مثال: أجرى عملية في ٢٥ رمضان، فأفطر بنية القضاء، فشفي في ٣٠ رمضان، وتكاسل عن القضاء حتى مات في شهر الحج، فهذا يلزم

أهله عنه قضاء أو إطعام).

* ومن كان مرضه مزمنًا، فأفطر وأطعم (لعجزه عن القضاء)، ثم تطور الطب فاكتشف علاج لمرضه، فاستعمله وشفي، فلا يلزمه شيء عما مضى، لأنه فعل ما وجب عليه في حينه (اللجنة الدائمة).

* ومن أصابه جوع أو عطش شديد، فخاف على نفسه الهلاك، أفطر وقضى لأن حفظ النفس واجب، ولا يجوز الفطر لمجرد الشدة المحتملة أو التعب أو خوف المرض متوهمًا.

* الإطعام له صورتان: فيجوز أن يجعله آخر الشهر، فيطعم ٣٠ مسكينًا في آخر الشهر، ويجوز أن يطعم مسكينًا كل يوم.

كلمات إلى المرافق

تغلب الشفقة بعض الناس عندما يقعد المرض قريبه أو حبيبه.. فلا يزال مرافقًا معه في المستشفى يقوم على خدمته ومواساته.. وتسليته ومؤانسته..

وقد يسهر المرافق والمريض نائم..

وقد يصحو المرافق والمريض مغمى عليه بتخدير أو نحوه..

وسهر المؤمن على أخيه المريض من أعظم القربات.. فكيف إذا كان هذا المريض ذا رحم.. كوالد وأخ وزوج.. لا شك أن الأجر يكون أعظم..

وإذا كان نبينا ﷺ أخبر أن من عاد مريضًا لا يزال في خرافة الجنة كأنه يجني من ثمارها.. ويستغفر له سبعون ألف ملك.. إذا كان هذا في العائد.. فما بالك بمن يلازم المريض خدمة ومؤانسة..

إلا أن بعض المرافقين يجمع هذه الحسنات ثم يفرقها بأخطاء يقع فيها؛ لأن المرافق يتفرغ غالبًا من أمور تعود أن ينشغل بها وقته في بيته أو عمله أو تجارته..

إذن ينبغي لنا جميعًا أن نتساءل..

كيف يقضي المرافق وقته؟

يتنوع بقاء المرافق مع المريض بتنوع مكان وجود المريض..

ففي المستشفى..

١ ـ الرقية على المريض.. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وللقراءة على المريض تأثير عظيم..

في المستشفى العسكري:

قال صاحبي: عبد الله كان شابًا صالحًا.. وكان لي به علاقة ومعرفة.. وقد علمت أن أباه مصاب بمرض في القلب وأجريت له عدة عمليات.. وأدخل أخيرًا إلى المستشفى وظل فيه للعناية المركزة.. عدته في المستشفى مرارًا.. ثم اشتد به المرض فدخل في غيبوبة تامة لا يعقل مما حوله شيئًا.. ولما رأى صاحبي أن أباه لا يعقل شيئًا وأن تكرار مجيء الزائرين أصبح مزعجًا علق لافتة على باب الغرفة كتب عليها: (الزيارة ممنوعة بأمر الطبيب).. وبعد أيام.. اتصل بي وهو مضطرب وقال: يا شيخ.. أريدك أن تعود والدي.. ولعلك أن تقرأ عليه شيئًا من القرآن..

ذهبت سريعًا إلى المستشفى.. ودخلت على أبيه.. فإذا هو كالجثة الهامدة على السرير في إغماء تام.. قد وصل بجسمه عدد من الأجهزة.. جهاز لقياس الضغط.. وآخر للسكر.. وثالث لضربات القلب.. ورابع للتنفس.. وخامس.. وبجانب السرير ممرض يراقب هذه الأجهزة وينظر إلينا بهدوء..

اقتربت منه ووقفت عند رأسه وكلمته فلم يرد علي شيئًا.. قلت: يا أبا فلان إن كنت تسمعني فحرك أصبعك.. بقي ساكنًا لم يتحرك فيه شيء..

بدأت أقرأ القرآن بصوت مسموع.. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ..﴾.. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾..

بدأ الشيخ ينتفض قليلاً.. لكنه لم يتكلم.. وفجأة أطلق أحد الأجهزة المحيطة بنا صوتًا كصفارة الإنذار.. ففزع الممرض وقام إليه وغير في بعض أرقامه.. وجلس..

ثم صفر جهاز آخر فقام وغير فيه.. وجلس..

ثم صفر الجهاز الثالث.. فلم يزل يتنقل بين هذه الأجهزة.. وأنا أقرأ..

وسمعت صاحبي يقول له: This Qoran.. This Qoran وهو ينظر إلينا باستغراب ودهشة.. أما أنا فاستمريت في التلاوة.. دون أن ألتفت إليهما..

استمرت التلاوة قرابة نصف الساعة.. ثم دعوت له.. وانصرفت..

أما عبد الله فبقي مع الممرض يخاطبه باللغة الإنجليزية.. وكنت أسمعه يردد كلمات: القرآن.. الإسلام..

أقبل إلي عبد الله يشكر ويودع.. فأمسكت يده وقلت: هل تعلم أني لم أفهم شيئًا مما جرى! ما هذه الأجهزة التي أزعجتنا؟! ولماذا اضطرب المرض؟! ولماذا وقفت معه تكلمه عن القرآن؟! ولماذا..

فقال: الأمر عجيب يا شيخ.. أنت تعرف أن والدي مصاب بمرض في القلب.. وأجريت له عدة عمليات.. وفي العملية الأخيرة قبل يومين توقف الدم فجأة في شرايين جسمه.. ولم يكن الطبيب يتوقع ذلك فلم يحرص قبل العملية على توصيل مضخة كهربائية لتحريك الدم في العروق عند الحاجة.. فتفاجأ الطبيب بذلك قام سريعًا بتوصيل مضخة يدوية وكلف أحد الممرضين بتحريكها بيدها.. فكان هذا التصرف من الطبيب غير مجد كثيرًا.. لأن الدم توقف في العروق لمدة خمسين دقيقة أشرف والدي معها على الهلاك.. لكن الله تعالى أحسن وتلطف..

وبعد نهاية العملية.. حملوا أبي كالجثة الهامدة إلى غرفته.. فانخفض ضغط الدم حتى وصل إلى الأربعين.. فحاولوا أن يرفعوه بشتى الوسائل فلم يقدروا.. فأمر الطبيب بأن يحقن والدي في الوريد بمادة كيميائية ترفع ضغط الدم.. وهذه المادة خطرة جدًا.. لذا لا يسمح طبيًا بأن يحقن المريض بما يزيد عن مقياس اثني عشر درجة لأنه يموت في الغالب.. فتم حقنه بهذا المقياس فلم تتحسن حالته.. فزادوه إلى ثلاث عشرة درجة.. ثم أربع عشرة.. ثم خمس عشرة.. ثم ست عشرة.. فارتفع ضغطه إلى سبع وستين فتوقفوا.. مع أنه لا يزال منخفضًا جدًا..

ثم ألقوه على هذا السرير ووضعوا هذه الممرضة تراقب حاله..

وبعدما بدأت ـ يا شيخ ـ بتلاوة القرآن بدأ ضغط الدم عند أبي يرتفع.. ويرتفع.. ثمان وستين.. تسع وستين.. سبعين.. فاضطربت الأجهزة.. وقامت الممرضة تخفض من المادة التي وضعها لرفع الضغط.. واستمر الضغط في الارتفاع خمس وسبعين.. ثمانين.. تسعين.. حتى ثبت الضغط على مائة وواحد وعشرين..

فهل عرفت سبب تعجب الممرضة!.. الأطباء.. الاستشاريون.. الأجهزة.. الأدوية.. لم تنفع شيئًا.. أين طبهم؟!.. أين تجاربهم؟!.. أين أدويتهم.. فسبحان من أنزل القرآن.. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

فيمكن للمرافق أن يرقي المريض بـ:

قراءة الفاتحة سبع مرات مع النفث على الجزء المصاب أو على الرأس..

وفي حديث أبي سعيد الخدري: أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر فمروا بحي من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم.. فجلس الصحابة في جانب الطريق.. فلدغ سيد الحي.. فأقبل رجل منهم على الصحابة وقال: هل فيكم راقٍ فإن سيد الحي لديغ، أو مصاب، فقال رجل منهم: نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ الرجل، فأعطي قطيعًا من غنم، فأبى أن يقبلها وقال: حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ..

فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم ﷺ وقال: «وما أدراك أنها رقية؟!»، ثم قال: «خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم»[١].

* قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين.. سبع مرات..

* قول ٧ مرات: أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم أن يشفيك.

* باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، وعين حاسدة باسم الله أرقيك، والله يشفيك[٢].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد.

* أذهب الباس، رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا[1].

* أعيذك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة.

* أذهب الباس، اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا.

* اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدوًا، أو يمشي لك إلى صلاة.

«من عاد مريضًا لم يحضره أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم، رب العرش العظيم، أن يشفيك.. إلا عافاه الله من ذلك المرض»[2].

إلى غير ذلك من الأذكار والأدعية الشرعية..

ومما يمكن للمرافق أن يغتنم في وقته:

٢ - القراءة النافعة، سواء في تلاوة القرآن، أو الكتب النافعة.

٣ - الحذر من الغزل والمعاكسة.. نعم سواء كان المرافق رجلاً أو امرأة، فمع اتساع وقت الفراغ.. يلعب الشيطان لعبته.. فيغري الفتاة بالتسكع في ممرات المستشفى.. أو العبث بالهاتف.. ويغري الرجل كذلك بذلك..

وكم سمعنا عن منكرات وقعت في مستشفيات.. أو كان منطلقها المستشفيات.. بسبب المرافقين.. وتساهل بعض الفتيات المرافقات بحجابهن وضحكاتهن.. والشيطان ما مات..

٤ - ولا أنسى أن أقول للمرافق:

كن بطلاً ..

نعم كن بطلاً لا رجوفًا جزوعًا.. قد لا نلوم المريض لو سمعنا منه أنينًا أو آهات..

فلكل إنسان حد ينتهي إليه صبره؛ لكنك تعجب كثيرًا عندما ترى مرافقًا لمريض.. لا يكف عن البكاء والجزع.. مع أن المنتظر منه أن يصبر المريض على المرض.. ويكون قدوة

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي وغيره، صحيح.

له في الصبر والرضا.. ولكن صار حال المريض معه كالمستجير من الرمضاء بالنار..

قد يشتكي بعض المرافقين بأنهم يغلبون على البكاء والحزن..

فأقول: نعم؛ لكن الصبر والمجاهدة أجمل بك..

وماذا تفيد كثرة التشكي والعويل؟ حتى لو أفضى المرض بحبيبك إلى الموت.. فاصبر صبرًا جميلاً..

قال ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله للملائكة: قبضتم ولدي عبدي..؟ قبضتم ثمرة فؤاده..؟ فتقول الملائكة: نعم..

فيقول: فماذا قال عبدي؟

فتقول الملائكة: حمدك واسترجع..

فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد»[1].

فإذا عظم ضرك.. وضاق صدرك.. فاجعل الدعاء والشكوى إلى الله تعالى ملاذك..

صور من الابتلاءات..

قال د. عبد الله: جاءت لي تجر خطاها.. تحمل على ذراعيها طفلاً قد أنهكه المرض..

أم قارب عمرها الأربعين.. قد ضمت الصغير إلى صدرها.. كأنه قطعة من جسدها.. كانت حالته حرجة.. تسمع تردد النفس في صدره من على بعد مترين وثلاثة..

سألتها: كم عمره؟

قالت: سنتان ونصف.

أجرينا له الفحوصات اللازمة.. كان يعاني من مشاكل في شرايين القلب..

أجرينا له العملية.. وبعد يومين من العملية كان ابنها في صحة جيدة.. ابتهجت الأم وفرحت.. وصارت كلما رأتني سألتني: متى الخروج يا دكتور.. فلما كدت أن أكتب أمر الخروج.. فإذا بالصغير يصاب بنزيف حاد في الحنجرة.. أدى إلى توقف قلبه ٤٥ دقيقة.

---

(١) رواه الترمذي، صحيح.

غاب الصغير عن وعيه.. اجتمع الأطباء في غرفته.. ومضت الساعات لم يستطيعوا إفاقته.. تسرع أحد الزملاء وقال لها: احتمال أن يكون ابنك مات دماغيًّا.. وأظن أنه ليس له أمل في الحياة.. التفت إليه لائمًا لم قال ذلك..!

ونظرت إليها فوالله ما زادت على أن قالت: الشافي الله.. المعافي الله..

ثم تمتمت قائلة: أسأل الله إن كان له خيار في الشفاء أن يشفيه.. ثم سكتت.. ومضت إلى كرسي صغير.. جلست عليه.. وأخذت مصحفها الأزرق الصغير وجلست تقرأ فيه.. خرج الأطباء.. وخرجت معهم.. صرت أمر على الصغير.. حالته لم تتغير.. جثة على السرير الأبيض.. التفت إلى أمه.. حالها أيضًا لم يتغير..

يومًا أراها تقرأ عليه.. ويومًا تتلو القرآن.. ويومًا تدعو له..

بعد أيام أخبرتني إحدى الممرضات أن الصغير بدأ يتحرك.. حمدت لله..

وقلت لها مبارك: يا أم ياسر.. أبشرك ياسر بدأ يتحسن.. قالت كلمة واحدة وهي تدافع عبرتها: الحمد لله.. الحمد لله..

مضت أربع وعشرون ساعة.. نفاجأ بالصغير.. يصاب بنزيف حاد مثل نزيفه الأول.. ويتوقف قلبه مرة أخرى.. ويتعب جسده الصغير.. ويفقد الحركة والإحساس.. دخل أحد الأطباء يعاين حالته.. فسمعته الأم يقول: وفاة دماغية..

رددت: الحمد لله على كل حال.. الشافي ربي..

بعد أيام شفي الصغير.. لكنه لم تمض عليه ساعات.. حتى أصيب بنزيف في القلب.. ثم يفقد الحركة والإحساس.. ويفيق بعد أيام.. ثم يصاب بنزيف جديد.. حالة غريبة.. لم أر مثلها في حياتي..

تكرر هذا النزيف ست مرات.. ولا تسمع منها إلا: الحمد لله الشافي ربي.. هو المعافي.. بعد فحوصات وعلاجات متعددة..

سيطر أطباء القصبة الهوائية على النزيف بعد ستة أسابيع.. بدأ ياسر يتحرك..

وفجأة.. إذا به يبتلى بخراج كبير (ورم).. والتهاب في الدماغ..

عاينت حالته بنفسي.. قلت لها:

ابنك وضعه حرج جدًا.. وحالته خطيرة..

رددت: الشافي هو الله..

وانصرفت تقرأ عليه القرآن.. زال هذا الخراج بعد أسبوعين..

مضى يومان تماثل الغلام أثناءها للشفاء.. حمدنا لله على ذلك..

بدأت الأم تهيئ نفسها للخروج.. وبعد ثلاثة أيام.. إذا به يصاب بتوقف والتهاب حاد بالكلى.. أدى إلى فشل كلوي حاد كاد أن يميته..

والأم ما زالت متماسكة.. متوكلة.. منطرحة على ربها..

وتردد: الشافي هو الله.. ثم تذهب وتقرأ من مصحفها عليه..

مضت الأيام ونحن في محاولات وعلاجات متتابعة لا تتوقف.. استمرت أكثر من ثلاثة أشهر.. تحسنت كلاه ولله الحمد، لكن القصة لم تنته.. يصاب الصغير بمرض عجيب لم أره في حياتي..

بعد أربعة أشهر يصاب بالتهاب في الغشاء البلوري المحيط بالقلب.. مما اضطرنا إلى فتح القفص الصدري.. وتركه مفتوحًا ليخرج الصديد..

وأمه تنظر إليه وتردد :ةأسأل الله أن يشفيه.. هو الشافي المعافي.. ثم تنصرف عنه إلى كرسيها وتفتح مصحفها..

كنت أنظر إليها أحيانًا.. ومصحفها بين يديها.. لا تلتفت إلى ما حولها..

كنت أدخل غرفة الإنعاش.. فأرى أنواع المرضى ومرافقيهم.. أرى مرضى يصرخون.. وآخرين يتأوهون.. ومرافقين يبكون.. وآخرين يجرون وراء الأطباء.. وهي على كرسيها ومصحفها.. لا تلتف إلى صارخ.. ولا تقوم إلى طبيب.. ولا تتحدث إلى أحد.. كنت أشعر أنها جبل.. بعد ستة أشهر في الإنعاش..

كنت أمر بالصغير فأراه لا يرى.. لا يتكلم.. لا يتحرك.. صدره مفتوح.. ظننا أن هذه نهايته وخاتمته.. والمرأة كما هي تقرأ القرآن.. صابرة لم تشتك.. ولم تتضجر.. والله ما كلمتني بكلمة واحدة.. ولا سألتني عن حالة ولدها.. إلا إن ابتدأت أنا أحدثها عنه.. وكان

زوجها قد جاوز عمره الأربعين..

يقابلني أحيانًا عند ولده.. فإذا التفت إلي ليسألني.. غمزت الأم يده.. وهدأته ورفعت من معنوياته.. وذكرته بأن الشافي الله..

بعد شهرين.. تحسنت حالته.. حولناه لقسم الأطفال في المستشفى.. تحسن كثيرًا.. مارسوا معه أنواعًا من العلاجات والتدريبات.. وبعدها ذهب الطفل إلى بيته ماشيًا.. يرى.. ويتكلم كأنه لم يصبه شيء من قبل.

عفوًا.. لم تنته القصة العجيبة بعد.. بعد سنة ونصف.. كنت في عيادتي..

فإذا بزوج المرأة يدخل علي.. وتدخل زوجته وراءه تحمل بين يديها طفلاً صغيرًا صحته جيدة.. وكان للطفل مراجعة عادية عند أحد الزملاء لكنهم جاءوني للسلام علي..

قلت للزوج: ما شاء الله.. هذا الرضيع رقمه ستة أو سبعة في العائلة؟

فقال: هذا هو الثاني.. والولد الأول هو الذي عالجته العام الماضي.. وهو أول مولود لنا.. جاءنا بعد ١٧ عامًا من الزواج والعلاج من العقم..

خفضت رأسي.. وأنا أتذكر صورتها وهي عند الولد.. لم أسمع لها صوتًا.. ولم أر منها جزعًا.. قلت في نفسي: سبحان الله!..

بعد ١٧ سنة من الصبر وأنواع علاج العقم ترزق بولد تراه يموت أمامها مرات ومرات.. وهي لا تعرف إلا لا إله إلا الله.. الله الشافي.. المعافي..

أي اتكال.. وأي امرأة هذه..

٥ - وما أجمل أن لا يكتفي المرافق بملأ وقته بالمفيد.. بل يحرص على ملء وقت المريض أيضًا بالمفيد.. كأن يحرضه على كثرة الذكر والاستغفار..

وأن يحضر له مسجلاً وأشرطة نافعة.. أشرطة تلاوة.. محاضرات.. أحاديث..

أن يتابع معه أوقات الصلاة ويحرضه على أدائها..

أن يبعد عنه ما يضره.. أو يحمله أوزارًا من نظر أو سماع محرم..

* الرضا بالقضاء والقدر..

آداب عيادة المريض

ذكر في بعض كتب الأدب.. أن أحد الثقلاء دخل على مريض يعوده.. فما كاد يجلس حتى قال: فلان.. وجهك أصفر.. قال المريض: الحمد لله على كل حال..

قال: يبدو عليك الإرهاق.. قال: الله يعين..

قال: المرض ظاهر عليك.. متى بدأت علتك؟ قال: منذ أيام..

قال: مم تشتكي؟ قال: شكوى يسيرة وأسأل الله الشفاء..

قال: ما هي؟ قال: مرض معين..

قال: ما هو؟ أليس له اسم! هل أنت بخير؟ فقال المريض: كنت بخير قبل أن تدخل علي..

قال: حسنًا أنا ذاهب.. هل لك حاجة؟

قال: نعم.. حاجتي أنك إذا خرجت من عندي فلا ترجع إلي أبدًا.. حتى جنازتي أعفيك من الصلاة عليها..

هكذا لسان حال بعض المرضى مع فريق من الزائرين..

فبعض الزوار ما إن يجلس عند المريض حتى يشغله بأسئلة لا تكاد تنتهي.. واقتراحات وملاحظات.. وكأنه طبيب زائر واستشاري منتدب..

ومن هنا لزم أن نتذكر جميعًا الآداب الشرعية الواردة في عيادة المريض..

١ ـ أن يلتزم بالآداب العامة للزيارة، كأن يدق الباب برفق، ويخبر باسمه صريحاً، وأن يغض بصره.

٢ ـ أن تكون العيادة في وقت ملائم.

٣ ـ أن يستصحب هدية للمريض يفرحه بها ويريحه.. وحبذا لو كان شيئًا يستفيد منه المريض ككتاب نافع أو شريط أو مجلة.. أو شيئًا من الحلوى.. أو غير ذلك..

أما ما نراه من إحضار باقات الزهور.. والإسراف في ذلك .. فهذا تبذير.. ولا يستفيد منه المريض؛ بل ذكر بعض الباحثين في تواريخ الأمم أن إحضار الزهور إلى المريض كان من

عادات الإغريق (اليونان) إذ يعتبرون الزهور رمزًا لإله الرحمة.. ولا يزال النصارى إلى اليوم متأثرين بهذا الاعتقاد، ألا ترى أنهم يضعون على تابوت الميت وعلى قبره زهورًا!

٤ ـ أن يكون العائد رفيقًا هينًا لينًا.. يسأل المريض عن حاله برفق.. ولا يدقق معه أو يكثر المسألة..

٥ ـ أن يغض البصر.. إذ قد يظهر من المريض عورة أو أمر مستقبح، فلا ينبغي بالعائد أن يصرف بصره إليه.. بل يتعامى عنه..

٦ ـ ألا يطيل الجلوس حتى يضجر المريض.. وذلك أن المريض تعرض له حاجة إلى حمام.. أو تغيير لباس.. أو إخراج ريح.. أو نوم.. أو طعام.. فيحرج من العائدين أن يفعل شيئًا من ذلك أمامهم..

إلا إن كان العائد حبيبًا مقربًا للمريض.. وكان المريض يرغب في جلوسه ومؤانسته.. فلا بأس..

٧ ـ إدخال السرور على قلب المريض وتذكيره بالأجر.. (أم منصور الجبالي ـ رحمها الله)..

وأخيرًا.. ومن آداب العيادة:

أن يدعو العائد للمريض بالعافية والصلاح، وقد وردت في ذلك أدعية عديدة منها: «أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك» (٧ مرات) وأن يقرأ عليه الفاتحة والمعوذتين والإخلاص.

قبل العملية..

تتنوع الأمراض وتتفاوت في خطورتها وكيفية علاجها.. وقد يقرر الطبيب إجراء عملية للمريض.. وقبل إجراء العملية..

ليتك تقبل مني هذه النصائح:

١ ـ الاستعانة بالله تعالى.. ودعاؤه واللجأ إليه.. فهو الذي بيده كشف الضر والبلاء.. وناده كما ناداه أيوب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣].. ومن أقرب من الله

رحيمًا مجيبًا.. فابك بين يديه.. واشك همك إليه.. وتوكل عليه..

٢ ـ كن بطلاً.. واصبر وأظهر الرضا والتسليم.. بل والفرح والبشر لأهلك.. ولمن حولك.. نعم حاول التغلب على مشاعرك قدر المستطاع.. ولن يصيبك إلا ما كتب الله لك؛ فحزنك وجزعك لن يغير في الواقع شيئًا؛ فلا تحزن الناس معك..

واعلم أن أمر المؤمن كله له خير.. إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له.. وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له.. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن..

فمن صبر فله الرضا.. ومن سخط فعليه السخط..

٣ ـ كتابة الوصية.. ولا تخف من ذلك.. فكتابتك لها لا تعني أنك ستموت!

لا.. بل قرر العلماء أن كتابة الوصية واجبة على كل من كان عنده شيء يمكن أن يوصي فيه بشيء.. من مال أو ولد أو دين.. أو غير ذلك.. قال ابن عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه أن يبيت ليلتين.. إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه»[1].

فخذ ورقة واكتب فيها.. لي عند فلان كذا.. ولفلان عندي كذا.. وأوصي في بيتي أن يفعل به كذا.. إلى غير ذلك..

أسأل الله لي ولك طول العمر مع حسن القول والعمل.. آمين..

الغنيمة الباردة

أخي المريض ـ يا شفاك الله ـ ما رأيك في عبادة كان النبي ﷺ يشتغل بها في جميع أحواله.. أمر الله المؤمنين بفعلها بعد الصلاة.. وبعد الصيام.. وبعد الحج.. وأمرهم أثناء القتال بفعلها..

أمرك بفعلها قبل الطعام.. وبعده..

وقبل دخول الخلاء.. وبعده..

---

(١) رواه مسلم.

وقبل دخول البيت.. وبعده..

وقبل النوم.. وبعده..

وقبل لبس الثياب.. وبعده..

إنه ذكر الله.. وتحميده وشكره.. فالمؤمنون هم ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١]..

والذكر لا يحتاج إلى طهارة قبله.. ولا إلى ستر عورة.. أو استقبال قبلة.. أو قيام أو جلوس.. بل تعبد به.. متى شئت..

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يسبح في اليوم والليلة أكثر من اثني عشر ألف تسبيحة.. ويقول: أفتك بها نفسي من النار..

ومن أفضل الذكر للمريض: الدعاء..

وقد روي أن للمريض دعوة مستجابة..

الاستغفار..

فمن لزم الاستغفار.. جعل الله له من كل هم فرجًا.. ومن كل ضيق مخرجًا.. ورزقه من حيث لا يحتسب..

والاستغفار هو مفتاح للرزق.. وبركة في المال.. وصلاح في الولد.. وشفاء للمرض..

التسبيح والتهليل عمومًا..

قال ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»، قالوا: بلى يا رسول الله.. قال: «ذكر الله..»[1].

المريض والمعصية..

ذهبت يومًا لعيادة أحد المرضى.. وقد أصيب بمرض خطير.. كان المرض متمكنًا منه..

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

وقد ضعف جسمه.. ورق عظمه.. وذبل جلده.. وكان بعض الأصحاب قد أخبرني أن الطبيب أسر إليه بأن نهايته تبدو قريبة.. والعلم عند الله وحده..

أقبلت أمشي بهدوء إلى غرفته.. وأنا أنتظر أن يستقبلني صوت قراءة القرآن.. وأن أرى سجادة الصلاة مفروشة.. وأن أراه منكسرًا مقبلاً على الله..

طرقت الباب.. فأذن لي بالدخول.. وهو لا يدري من أنا.. دخلت إلى غرفته.. هدوء قاتل.. ونور خافت..

كانت الغرفة أشبه بالمقبرة.. المرآة قد غطيت بملاءة بيضاء.. حتى لا يرى نفسه وينتبه لتساقط شعره فيذكر مرضه..

رآني فتهيأ للجلوس على سريره.. كان عنده مجموعة من أصدقائه.. أكبر همهم أن ينسوه مرضه.. يظنون أن أكبر خدمة يقدمونها إليه.. أن يضحكوه فقط..

كان الشاب يضحك فعلاً.. أو يتظاهر بالضحك.. لا أدري!

وقد نسي أن صحيفة عمله تطوى في كل لحظة.. وأن أكثر أجهزة جسمه قد تعطل عن العمل.. وأنه في أي لحظة يمكن أن يموت..

عندما جلست.. قام أحدهم إلى التلفاز وخفض من صوت الأغنية.. أحسست أنهم يشعرون بأني ثقيل.. أفسدت عليهم سهرتهم.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما أقسى هذه القلوب..

جعلت أتلفت في أنحاء الغرفة.. تمنيت أن أرى مصحفًا.. سجادة صلاة.. مسجلاً وأشرطة قرآن.. لكني مع الأسف الشديد.. لم ألحظ من ذلك شيئًا..

كل ما هناك مجلات.. إحداها على غلافها صورة ملكة جمال فرنسا..

وأخرى على غلافها صورة أحد المطربين.. أذكر أني رأيت صورته يومًا في إحدى الجرائد.. ومجلة ثالثة عن الرياضة والشباب.. ورابعة.. وكلها بجانبه.. ويبدو من أوراقها أنه قد تصفحها مرارًا..

في الحقيقة.. كدت أبكي وأنا أنظر إليه.. بل كنت أدافع دمعة ترقرقت في عيني مرارًا..

أصحابه حاولوا جاهدين أن يشركوني في الضحك.. كنت أجاملهم وأتبسم.. جعل أحد أصحابه يتذكر موقفًا طريفًا.. سمع أنه وقع لي في محاضرة.. أو خلال لقاء تلفزيوني.. ليضحكه.. ويضحكني.. كان المسكين يظن نفسه خفيف الظل فجعل يطرح الكلام والتعليقات السخيفة على الآخرين.. في الحقيقة كان ثقيل الدم جدًّا.. لا تكاد تحتمله وهو ساكت.. فكيف إذا تكلم..

كنت أنظر إليه متكلفًا التبسم وأقول في نفسي.. آه ما أصبرهم عليه.. لم أحتمل مجلسهم.. واستأذنت خارجًا..

مشيت في ممر المستشفى خطوات.. فلما كدت أن أبلغ الباب.. قلت في نفسي.. لا يجوز أن أذهب حتى أصدقه النصح.. فلعل لقائي هذا يكون الأخير.. وكان ظني صحيحًا فقد صار اللقاء الأخير..

رجعت إليه.. طرقت الباب ودخلت.. استأذنت أصحابه أن يدعوني معه برهة..

خرجوا وأغلقوا الباب بهدوء.. بقيت أنا وياسر.. أحد بصره إلي.. أظن أنه عرف ما سأقول.. قلت له بكل صراحة: ياسر.. لا وقت للمجاملة..

تعلم أنك من أحب الناس إلي.. وما عدتك وتركت أشغالي إلا شوقًا إليك..

سمعت بمرضك ففجعت.. وأظن أن حزني عليك لا يقل عن حزنك على نفسك.. ولئن كنت تبكي على نفسك دمعًا.. فإني أبكي عليك دمًا..

خفض رأسه.. وبكى.. فخنقتني العبرة..

قلت: ياسر.. دخلت عليك وأنا أعرفك.. ظننت أني سأراك على سجادتك.. أو بين يدي مصحفك.. فإذا أنت كرجل موعود بالخلود..

ياسر.. قد أخبرك الطبيب باستفحال مرضك.. وأن أيامك في الدنيا قد تكون معدودة.. ولا أدري هل تصلي معنا الجمعة القادمة.. أم نصلي عليك..

ازداد بكاؤه..

ياسر.. حري بمن تطوى صحيفة عمله.. وتعد عليه أنفاس حياته - ومن يدري لعل كلينا كذلك -.. حري به أن يتقرب إلى ربه بما يستطيع.. فضلاً عن ترك المحرمات..

وإذا كان الصحيح المعافى مأمورًا بحب الله وطاعته.. فكيف بالمريض السقيم؟!

ياسر.. أين ما كنت أحدثك به من قبل.. حول الدعاء والاستغفار.. والذكر؟!

ياسر.. أين رقة قلبك.. ولطف تعبدك الذي عرفته فيك؟!

ياسر.. أين الشجاعة والبطولة التي عهدتك عليها.. أين قولك يومًا: لا بد للمرء أن يبصق في وجه الشيطان ولا يلتفت إلى وسوسته؟!

كيف تبعد عن الله في شدة حاجتك إليه!

ازداد بكاؤه.. واسيته بكلمات ثناء..

ثم خرجت من عنده.. وبعد ثلاثة أيام صلينا عليه.. رحمه الله ورفع درجته.. آمين..

المرضى أنواع..

سافرت إلى هناك في رمضان.. كان الجو شديد البرودة فكنا نجتمع في قبو المركز الإسلامي نصلي التراويح.. ثم ألقي عليهم الدرس اليومي..

وكان يأتي به أحد أولاده.. يدفعه على عربة.. كان شيخًا كبيرًا عاجزًا عن المشي..

فقدته ليلة من الليالي.. فقلت لعل برودة الجو والأمطار حالت بينه وبين الصلاة في المسجد.. فمرت الليلة الثانية.. والثالثة وهو لم يأت..

سألت ولده عنه.. فأخبرني أنه أصيب بوعكة صحية.. وهو منوم في المستشفى منذ ثلاثة أيام..

اتفقت مع بعض المصلين أن نعوده عصر الغد..

ذهبنا إلى المستشفى.. دخلنا.. كان مظهرنا ملفتًا للنظر.. أنا ألبس ثوبًا.. وآخر يلبس قميصًا طويلاً.. وثالث يلبس بنطالاً..

سألتنا إحدى الممرضات.. هل أنتم جميعًا أولاده؟ قلنا: لا..

قالت: إذن أنتم جمعية خيرية.. قلنا: لا..

قالت: إذن من أنتم؟ ولماذا جئتم جميعًا إليه؟ ومن دفع لكم تكاليف المواصلات؟

لم أستغرب تعجبها.. فهي تعودت أن يمكث الشيخ الكبير في المستشفى الشهرين والثلاثة.. ولا يعوده أحد.. بل قد يموت ويتولى المستشفى تكفينه ودفنه.. وأولاده لا يسألون عنه..

أفهمناها أننا مسلمون.. وأنه أخ لنا في الإسلام.. مضينا إلى غرفة صاحبنا.. وبقي أحد الإخوة معها يحدثها عن الإسلام..

دخلنا على أبي عماد.. كان شيخًا كبيرًا.. آثار المرض عليه بادية.. قبلت رأسه.. فبكى.. قلت له: كيف حالك؟

قال: الحمد لله.. لا أستطيع الصوم لكني أقرأ القرآن وأذكر الله قدر استطاعتي.. ومضى الشيخ يتحدث بصوت يقطعه البكاء عن شوقه إلى المسجد.. وصلاة التراويح.. والإخوة يصبرونه..

أخذت أنظر في غرفته.. فلفت نظري شيخان كبيران.. طويلان.. من أهل هذه البلاد.. أوروبيان..

لم أكن أتقن لغتهم.. أرسلت أحد الإخوة يسلم عليهما.. ويسألهما عن حالهما.. كانا متعجبين منا.. والغريب أنهما سألانا الأسئلة نفسها التي سألتنا الممرضة.. من أنتم.. أي جمعية خيرية..

فلما أخبرناهم أنه لا قرابة بيننا وبينه إلا قرابة الدين.. وأنه لا يدفع لنا أجرًا على عيادتنا.. جعل كل منهما ينظر إلى الآخر ويتعجب..

أذكر أن أحدهما قال متفاخرًا على صاحبه: أنا ابنتي أرسلت لي بطاقة معايدة في العيد المنصرم..!

رجعت إلى صاحبي مودعًا.. وكان الرجلان يرمقانني من بعيد.. فسألته عنهما.. هل بينكم أحاديث ومسامرة؟

فقال: هذان يا شيخ يقضيان وقتهما بأعجوبة.. قلت: كيف؟!

قال: ينامان إلى العصر.. فإذا استيقظا.. إذا هما جائعان.. فتحضر لهما الممرضة الطعام.. فإذا شبعا بدءا يتأففان.. ويسخطان ويسبان.. فإذا ملأ صراخهما المستشفى.. جاءت الممرضة إلى كل منهما بزجاجة خمر.. وأظن أن فيها منومًا.. فيشربانها.. وينامان إلى غد

عصرًا..! ثم يستيقظان.. ويعيدان البرنامج نفسه..

الجزع من المرض

كان من طلابي في الكلية.. عمره قد قارب الأربعين.. وكنت أظنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين.. فقدته أيامًا.. ثم رأيته.. فسألته عن غيابه..

فقال: ولدي مريض.. وكنت أتابع علاجه..

قلت: عسى الله أن يشفيه.. لكن ماذا أصابه؟

قال: أصابه تسمم في الدم.. وأثر في الكبد والدماغ.. والآن انتشر المرض في جسده.

قلت: الحمد لله على كل حال.. وأبشر بالأجر العظيم.. حتى لو قدر الله وفاته.. فأبشر فإن الصغير يشفع في والديه..

فقال: يا شيخ.. صغير ماذا؟! عمره سبع عشرة سنة..

قلت: الحمد لله.. الله يطرح البركة في إخوانه.

فكتم عبراته وقال: يا شيخ.. ليس عندي من الذرية إلا هذا الولد..!

لكني ولله الحمد يا شيخ.. صابر محتسب.. وكل شيء بقضاء وقدر..

بالله عليك قارن بين هذا الصابر.. وبين فريق من الجزعة الضعفة الخورة.. من ضعيفي الإيمان.. عديمي التحمل.. الذين لا يصبرون ولا يحتسبون..

حبة صغيرة.. فقط!

قالت الدكتورة أريج: طرقت باب العيادة أدبًا منها وقد أذنت لها الممرضة بالدخول.. يرافقها زوجها وابنتها، تتأملها فتراها امرأة في العقد الرابع من عمرها ممتلئة الجسم قليلاً.. مهتمة بنفسها بشكل واضح.. جلست على الكرسي.. وبدأت الحديث..

يا دكتورة.. أحتاج رأيك في المشكلة التي أعاني منها منذ زمن طويل.. ابتسمت مشجعة لها أن تبدأ..

وأخذت تفصل لي في الأمر الذي أرهقها منذ سنين طويلة.. حبوب في وجهها.. وقد دارت

على الكثير من الأطباء ومراكز التجميل المختلفة لمعالجتها..

وها هي الآن تستخدم دواء منذ أشهر وهذا النوع من العلاج معروف بأن متابعته الدقيقة مهمة جدًا كي لا يؤثر في الكبد..

قلت لها: أين هذه الحبوب..؟

لم تريني مكانها وإنما استمرت في سرد معاناتها المادية والنفسية خلال فترة العلاج.. وأنها تعبت فعلاً..

كررت سؤالي مرة أخرى.. (هلا سمحتي لي أن أفحص الحبوب التي تقصدين؟).. عندها كشفت ما تبقى من وجهها..! وأنا أكاد أمسح عيني شكًا فيما رأيت؟ عفوًا..؟؟! أين الحبوب التي تقصدينها يا عزيزتي؟

قالت لي: ها هي يا دكتورة؟ إنها حبة واحدة فقط!

أنظر مرة أخرى.. إنها حبة صغيرة جدًا لا تكاد ترى..

قلت لها.. أهذا ما يزعجك الآن..؟

قالت: نعم يا دكتورة.. أنا مريضة نفسيًا منها، أرجوك أن تساعديني..؟!

عجبًا.. قلت لها: لكني أرى وجهك بحالة ممتازة.. قاطعتني..

لا.. لا يا دكتورة.. إنه ليس بحالة طيبة، وأنا غير مقتنعة!

تمالكت نفسي طويلاً، وبقوة.. فقد كنت أفحص قبلها.. من هم في حال أسوأ.. وقد ابتلاهم الله جل وعلا بأمراض شديدة.. لا علاج لها.. ولا أجدهم إلا شاكرين حامدين صابرين..

قلت لها بصوت بطيء: يا عزيزتي أنا لا أرى أن الأمر بهذا السوء الذي تتخيلنه.. حتى الدواء الذي تستخدمينه الآن.. لا أرى له أي داع، يمكنك أن تتوقفي عن تناوله اليوم، وهذا الحبة.. الصغيرة جدًا.. لا أريدها أن تأخذ من حيز اهتماماتك الكثير تفاءلي وانظري إلى الجوانب الجميلة والنعم الكثيرة التي وهبها الله لك، واشكريه عليها..

بعد ثوانٍ من الصمت.. قالت: دكتورة.. أريد أن أكمل العلاج، أريد أن تختفي هذه الحبة.. و..

قاطعتها أنا هذه المرة.. حسنًا يا عزيزتي القرار قرارك أكملي تناول العلاج.. ومتى أردت أن تتوقفي عنه، مرحبًا بك في العيادة..

كنت أتمنى أن يدللها زوجها أمامي.. فيقول لها: لا تحتاجين الدواء يا زوجتي إن الحبة صغيرة ولا تستحق هذا العناء.. فقد كنت أعرف أن تعليقه هذا سيكسر الكثير من الحواجز والمخاوف لكنه كان صامتًا طوال الوقت!

آه يا للرجال..! (ا. هـ عن د. أريج العوفي).

وأخيرًا..

أخي المريض.. الطبيب.. المرافق..

كانت هذه جولة سريعة حول المرض.



في بطن الحوت..

أعمى يسدد الهدف..

لم أكن جاوزت الثلاثين حين أنجبت زوجتي أول أبنائي.. ما زلت أذكر تلك الليلة.. بقيت إلى آخر الليل مع الشلة في إحدى الاستراحات..

كانت سهرة مليئة بالكلام الفارغ.. بل بالغيبة والتعليقات المحرمة.. كنت أنا الذي أتولى في الغالب إضحاكهم.. وغيبة الناس.. وهم يضحكون..

أذكر ليلتها أني أضحكتهم كثيرًا.. كنت أمتلك موهبة عجيبة في التقليد.. بإمكاني تغيير نبرة صوتي حتى تصبح قريبة من الشخص الذي أسخر منه.. أجل كنت أسخر من هذا وذاك.. لم يسلم أحد مني حتى أصحابي.. حتى صار بعض الناس يتجنبني كي يسلم من لساني..

أذكر أني تلك الليلة سخرت من أعمى رأيته يتسول في السوق.. والأدهى أني وضعت قدمي أمامه فتعثر وسقط يتلفت برأسه لا يدري ما يقول.. وانطلقت ضحكتي تدوي في السوق..

عدت إلى بيتي متأخرًا كالعادة.. وجدت زوجتي في انتظاري.. كانت في حالة يرثى لها..

قالت بصوت متهدج: راشد.. أين كنت؟

قلت ساخرًا: في المريخ.. عند أصحابي بالطبع..

كان الإعياء ظاهرًا عليها.. قالت والعبرة تخنقها: راشد.. أنا تعبة جدًا.. يبدو أن موعد ولادتي صار وشيكًا..

سقطت دمعة صامتة على خدها، أحسست أني أهملت زوجتي..

كبر سالم.. بدأ يحبو.. كانت حبوته غريبة..

قارب عمره السنة فبدأ يحاول المشي.. فاكتشفنا أنه أعرج.. أصبح ثقيلاً على نفسي أكثر.. أنجبت زوجتي بعده عمر وخالدًا..

مرت السنوات.. وكبر سالم.. وكبر أخواه..

كنت لا أحب الجلوس في البيت.. دائمًا مع أصحابي..

في الحقيقة كنت كاللعبة في أيديهم..

لم تيئس زوجتي من إصلاحي..

كانت تدعو لي دائمًا بالهداية.. لم تغضب من تصرفاتي الطائشة، لكنها كانت تحزن كثيرًا إذا رأت إهمالي لسالم واهتمامي بباقي إخوته..

كبر سالم.. وكبر معه همي..

لم أمانع حين طلبت زوجتي تسجيله في إحدى المدارس الخاصة بالمعاقين..

لم أكن أحس بمرور السنوات.. أيامي سواء.. عمل ونوم وطعام وسهر..

في يوم الجمعة..

استيقظت الساعة الحادية عشر ظهرًا..

ما يزال الوقت مبكرًا بالنسبة لي.. كنت مدعوًا إلى وليمة..

لبست وتعطرت وهممت بالخروج.. مررت بصالة المنزل.. استوقفني منظر سالم.. كان يبكي بحرقة!

إنها المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى سالم يبكي منذ كان طفلاً.. عشر سنوات مضت.. لم ألتفت إليه.. حاولت أن أتجاهله.. فلم أحتمل.. كنت أسمع صوته ينادي أمه وأنا في الغرفة.. التفت.. ثم اقتربت منه.. قلت: سالم! لماذا تبكي؟!

حين سمع صوتي توقف عن البكاء.. فلما شعر بقربي.. بدأ يتحسس ما حوله بيديه الصغيرتين.. ما به يا ترى؟!

اكتشفت أنه يحاول الابتعاد عني!

وكأنه يقول: الآن أحسست بي.. أين أنت منذ عشر سنوات؟!

تبعته.. كان قد دخل غرفته.. رفض أن يخبرني في البداية سبب بكائه..

حاولت التلطف معه..

بدأ سالم يبين سبب بكائه.. وأنا أستمع إليه وأنتفض.. تدري ما السبب؟!

تأخر عليه أخوه عمر.. الذي اعتاد أن يوصله إلى المسجد.. ولأنها صلاة جمعة.. خاف ألا يجد مكانًا في الصف الأول..

نادى عمر.. ونادى والدته.. ولكن لا مجيب.. فبكى.. أخذت أنظر إلى الدموع تتسرب من عينيه المكفوفتين..

لم أستطع أن أتحمل بقية كلامه.. وضعت يدي على فمه.. وقلت: لذلك بكيت يا سالم..! قال: نعم..

نسيت أصحابي.. ونسيت الوليمة..

وقلت: سالم لا تحزن.. هل تعلم من سيذهب بك اليوم إلى المسجد؟

قال: طبعًا عمر.. لكنه يتأخر دائمًا..

قلت: لا.. بل أنا سأذهب بك.. دهش سالم.. لم يصدق.. ظن أني أسخر منه.. استعبر ثم بكى.. مسحت دموعه بيدي.. وأمسكت يده.. أردت أن أوصله بالسيارة.. رفض قائلاً: المسجد قريب.. أريد أن أخطو إلى المسجد.. إي والله قال لي ذلك..

لا أذكر متى كانت آخر مرة دخلت فيها المسجد.. لكنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالخوف والندم على ما فرطته طوال السنوات الماضية..

كان المسجد مليئًا بالمصلين.. إلا أني وجدت لسالم مكانًا في الصف الأول، استمعنا لخطبة الجمعة معًا وصلى بجانبي.. بل في الحقيقة أنا صليت بجانبه.. بعد انتهاء الصلاة طلب مني سالم مصحفًا..

استغربت! كيف سيقرأ وهو أعمى؟

كدت أن أتجاهل طلبه.. لكني جاملته خوفًا من جرح مشاعره.. ناولته المصحف..

طلب مني أن أفتح المصحف على سورة الكهف..

أخذت أقلب الصفحات تارة.. وأنظر في الفهرس تارة.. حتى وجدتها.. أخذ مني المصحف.. ثم وضعه أمامه.. وبدأ في قراءة السورة.. وعيناه مغمضتان..

يا الله! إنه يحفظ سورة الكهف كاملة!

خجلت من نفسي.. أمسكت مصحفاً.. أحسست برعشة في أوصالي.. قرأت..

دعوت الله أن يغفر لي ويهديني.. لم أستطع الاحتمال.. فبدأت أبكي كالأطفال..

كان بعض الناس لا يزال في المسجد يصلي السنة.. خجلت منهم.. فحاولت أن أكتم بكائي.. تحول البكاء إلى نشيج وشهيق..

لم أشعر إلا بيد صغيرة تتلمس وجهي.. ثم تمسح عني دموعي.. إنه سالم! ضممته إلى صدري.. نظرت إليه.. قلت في نفسي: لست أنت الأعمى.. بل أنا الأعمى.. حين انسقت وراء فساق يجرونني إلى النار..

عدنا إلى المنزل.. كانت زوجتي قلقة كثيرًا على سالم.. لكن قلقها تحول إلى دموع حين علمت أني صليت الجمعة مع سالم..

من ذلك اليوم لم تفتني صلاة جماعة في المسجد.. هجرت رفقاء السوء.. وأصبحت لي رفقة خيرة عرفتها في المسجد.. ذقت طعم الإيمان معهم.. عرفت منهم أشياء ألهتني عنها الدنيا.. لم أفوت حلقة ذكر أو صلاة الوتر.. ختمت القرآن عدة مرات في شهر.. رطبت لساني بالذكر لعل الله يغفر لي غيبتي وسخريتي من الناس.. أحسست أني أكثر قربًا من أسرتي..

اختفت نظرات الخوف والشفقة التي كانت تطل من عيون زوجتي.. الابتسامة ما عادت تفارق وجه ابني سالم.. من يراه يظنه ملك الدنيا وما فيها.. حمدت الله كثيرًا على نعمه..

ذات يوم.. قرر أصحابي الصالحون أن يتوجهوا إلى إحدى المناطق البعيدة للدعوة..

ترددت في الذهاب.. استخرت الله.. واستشرت زوجتي.. توقعت أنها سترفض.. لكن حدث العكس! فرحت كثيرًا.. بل شجعتني.. فلقد كانت تراني في السابق أسافر دون استشارتها فسقًا وفجورًا..

توجهت إلى سالم.. أخبرته أني مسافر.. ضمني بذراعيه الصغيرين مودعًا..

تغيبت عن البيت ثلاثة أشهر ونصف..

كنت خلال تلك الفترة أتصل كلما سنحت لي الفرصة بزوجتي وأحدث أبنائي.. اشتقت إليهم كثيرًا.. آه كم اشتقت إلى سالم!

تمنيت سماع صوته.. هو الوحيد الذي لم يحدثني منذ سافرت.. إما أن يكون في المدرسة أو المسجد ساعة اتصالي بهم..

كلما حدثت زوجتي عن شوقي إليه.. كانت تضحك فرحًا وبشرًا.. إلا آخر مرة هاتفتها فيها.. لم أسمع ضحكتها المتوقعة.. تغير صوتها..

قلت لها: أبلغي سلامي لسالم.. فقالت: إن شاء الله.. وسكتت..

أخيرًا عدت إلى المنزل.. طرقت الباب.. تمنيت أن يفتح لي سالم.. لكن فوجئت بابني خالد الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره..

حملته بين ذراعي وهو يصرخ: بابا.. بابا.. لا أدري لماذا انقبض صدري حين دخلت البيت.. استعذت بالله من الشيطان الرجيم..

أقبلت إلي زوجتي.. كان وجهها متغيرًا.. كأنها تتصنع الفرح.. تأملتها جيدًا.. ثم سألتها: ما بك؟

قالت: لا شيء..

فجأة تذكرت سالمًا.. فقلت: أين سالم؟

خفضت رأسها.. لم تجب.. سقطت دمعات حارة على خديها..

صرخت بها.. سالم.. أين سالم؟

لم أسمع حينها سوى صوت ابني خالد.. يقول بلثغته: بابا.. ثالم لاح الجنة.. عند الله..

لم تتحمل زوجتي الموقف.. أجهشت بالبكاء.. كادت أن تسقط على الأرض.. فخرجت من الغرفة..

عرفت بعدها أن سالم أصابته حمى قبل موعد مجيئي بأسبوعين.. فأخذته زوجتي إلى

المستشفى.. فاشتدت عليه الحمى.. ولم تفارقه.. حين فارقت روحه جسده..

الملك..

بعض الناس.. تشتاق نفسه إلى الهداية.. لكنه يمنعه الكبر من اتباع شعائر الدين..

نعم يتكبر عن تقصير ثوبه فوق الكعبين.. وإعفاء لحيته ومخالفة المشركين.. فجمال مظهره أعظم عنده من طاعة ربه..

وبعض النساء كذلك.. لا تزال تتساهل بأمر الحجاب.. حرصًا على تكميل زينتها.. وحسن بزتها.. أو تعصي ربها بنتف حاجبها.. أو تضييق لباسها.. وإذا نصحت استكبرت وطغت..

ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.. فكيف إذا كان هذا الكبر مانعًا من الهداية..

كان جبلة بن الأيهم.. ملكًا من ملوك غسان.. دخل إلى قلبه الإيمان..

فأسلم ثم كتب إلى الخليفة عمر رضي الله عنه.. يستأذنه في القدوم عليه؛ سر عمر والمسلمون لذلك سرورًا عظيمًا.. وكتب إليه عمر: أن أقدم إلينا.. ولك ما لنا وعليك ما علينا..

فأقبل جبلة في خمسمائة فارس من قومه..

فلما دنا من المدينة لبس ثيابًا منسوجة بالذهب.. ووضع على رأسه تاجًا مرصعًا بالجوهر.. وألبس جنوده ثيابًا فاخرة..

ثم دخل المدينة.. فلم يبق أحد إلا خرج ينظر إليه حتى النساء والصبيان.. فلما دخل على عمر رحب به وأدنى مجلسه!.. فلما دخل موسم الحج.. حج عمر وخرج معه جبلة..

فبينا هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل فقير من بني فزارة.. فالتفت إليه جبلة مغضبًا.. فلطمه فهشم أنفه..

فغضب الفزاري.. واشتكاه إلى عمر بن الخطاب..

فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك في الطواف.. فهشمت أنفه!

فقال: إنه وطئ إزاري؟ ولولا حرمة البيت لضربت عنقه..

فقال له عمر: أما الآن فقد أقررت.. فإما أن ترضيه.. وإلا اقتص منك ولطمك على وجهك..

قال: يقتص مني وأنا ملك وهو سوقة!

قال عمر: يا جبلة.. إن الإسلام قد ساوى بينك وبينه.. فما تفضله بشيء إلا بالتقوى..

قال جبلة: إذن أتنصر..

قال عمر: من بدل دينه فاقتلوه.. فإن تنصرت ضربت عنقك..

فقال: أخرني إلى غد يا أمير المؤمنين..

قال: لك ذلك.. فلما كان الليل خرج جبلة وأصحابه من مكة.. وسار إلى القسطنطينية فتنصر..

فلما مضى عليه زمان هناك.. ذهبت اللذات.. وبقيت الحسرات.. فتذكر أيام إسلامه.. ولذة صلاته وصيامه.. فندم على ترك الدين.. والشرك برب العالمين..

فجعل يبكي ويقول:

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفني منها لجاج ونخوة ... وبعت لها العين الصحيحة بالعور

فيا ليت أمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى القول الذي قال لي عمر

ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر

ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

ثم ما زال على نصرانيته حتى مات..

نعم.. مات على الكفر لأنه تكبر عن الذلة لشرع رب العالمين..

شيخ في مرقص..

قال لي: كان في حارتنا مسجد صغير يؤم الناس فيه شيخ كبير.. قضى حياته في الصلاة والتعليم.. لاحظ أن عدد المصلين يتناقص.. كان مهتماً بهم.. يشعر أنهم أولاده..

ذات يوم التفت الشيخ إلى المصلين وقال لهم: ما بال أكثر الناس.. خاصة الشباب لا

يقربون المسجد ولا يعرفونه..

فأجابه المصلون: إنهم في المراقص والملاهي..

قال الشيخ: مراقص! وما المراقص؟

فقال أحد المصلين: المرقص صالة كبيرة فيها خشبة مرتفعة.. تصعد عليها الفتيات يرقصن والناس حولهن ينظرون إليهن..

قال الشيخ: أعوذ بالله.. والذين ينظرون إليهن مسلمون..

قالوا: نعم..

فقال بكل براءة: لا حول ولا قوة إلا بالله.. يجب أن ننصح الناس..

قالوا: يا شيخ.. أتعظ الناس وتنصحهم في المرقص..؟

فقال: نعم.. ثم نهض خارجًا من المسجد.. وهو يقول: هيا بنا إلى المرقص..

حاولوا أن يثنوه عن عزمه.. أخبروه أنهم سيواجهون بالسخرية والاستهزاء.. وسينالهم الأذى..

فقال: وهل نحن خير من محمد ﷺ؟

ثم أمسك الشيخ بيد أحد المصلين.. وقال: دلني على المرقص..

مضى الشيخ يمشي.. بكل صدق وثبات.. وصلوا إلى المرقص..

رآهم صاحب المرقص من بعيد.. ظن أنهم ذاهبون لدرس أو محاضرة..

فلما أقبلوا عليه.. تعجب.. فلما توجهوا إلى باب المرقص..

سألهم: ماذا تريدون؟

قال الشيخ: نريد أن ننصح من في المرقص..

تعجب صاحب المرقص.. وأخذ ينظر إليهم.. واعتذر عن عدم قبولهم.. أخذ الشيخ يساومه.. ويذكره بالثواب العظيم.. لكنه أبى.. فأخذ يساومه بالمال ليأذن لهم.. حتى دفعوا له مبلغًا من المال يعادل دخله اليومي..

فوافق صاحب المرقص.. وطلب منهم أن يحضروا في الغد عند بدء العرض اليومي!

فلما كان الغد والناس في المرقص.. وخشبة المسرح تعج بالمنكرات.. والشياطين تحف

الناس وتصفق لهم..

وفجأة أسدل الستار..

ثم فتح.. فإذا شيخ وقور يجلس على كرسي..

دهش الناس.. وتعجبوا.. ظن بعضهم أنها فقرة فكاهية..

بدأ الشيخ بالبسملة.. والحمد لله.. والثناء عليه.. وصلى على النبي عليه الصلاة والسلام..

ثم بدأ في وعظ الناس..

نظر الناس بعضهم إلى بعض.. منهم من يضحك.. ومنهم من ينتقد.. ومنهم من يعلق بسخرية.. والشيخ ماض في موعظته لا يلتفت إليهم..

حتى قام أحد الحضور.. وأسكت الناس.. وطلب منهم الإنصات..

بدأ الهدوء يحيط بالناس.. والسكينة تنزل على القلوب؛ حتى هدأت الأصوات.. فلا تسمع إلا صوت الشيخ..

قال كلامًا ما سمعوه من قبل.. آيات تهز الجبال.. وأحاديث وأمثال.. وقصص لتوبة بعض العصاة..

وأخذ يدافع عبراته ويقول: يا أيها الناس.. إنكم عشتم طويلاً.. وعصيتم الله كثيرًا.. فأين ذهبت لذة المعصية.. لقد ذهبت اللذة وبقيت الصحائف سوداء..

ستسألون عنها يوم القيامة.. سيأتي يوم يفنى فيه كل شيء إلا الله الواحد القهار..

أيها الناس.. هل نظرتم إلى أعمالكم.. وإلى أين ستؤدي بكم.. إنكم لا تتحملون النار في الدنيا.. وهي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم.. فبادروا بالتوبة قبل فوات الأوان..

وبدا الشيخ متأثرًا وهو يعظ.. كانت كلمات قد خرجت من القلب.. فوصلت إلى القلب..

بكى الناس.. فزاد في موعظته.. ثم دعا لهم بالرحمة والمغفرة.. وهم يرددون: آمين.. آمين..

ثم قام من على كرسيه.. تجلله المهابة والوقار..

وخرج الجميع وراءه ـ نعم الجميع ـ..

وكانت توبتهم على يده.. عرفوا سر وجودهم في الحياة.. وما تغني عنهم الرقصات

واللذات.. إذا تطايرت الصحف وكبرت السيئات.. حتى صاحب المرقص.. تاب وندم على ما كان منه..

الشيخ الضال..

أحيانًا.. يعرف المرء الحق ويرغب في اتباعه.. لكنه يغرى بمتع الدنيا.. فيظل على معصيته..

الأعشى بن قيس.. كان شيخًا كبيرًا شاعرًا.. خرج من اليمامة.. من نجد.. يريد النبي عليه الصلاة والسلام.. راغبًا في الدخول في الإسلام..

مضى على راحلته.. مشتاقًا للقاء رسول الله ﷺ.. بل كان يسير وهو يردد في مدح النبي ﷺ قائلاً:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا

ألا أيهذا السائلي أين يممت ... فإن لها في أهل يثرب موعدا

نبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا

أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبي الإله حيث أوصى وأشهدا

إذ أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله ... فترصد للأمر الذي كان أرصدا

وما زال يقطع الفيافي والقفار.. يحمله الشوق والغرام.. إلى النبي عليه الصلاة والسلام.. راغبًا في الإسلام.. ونبذ عبادة الأصنام..

فلما كان قريبًا من المدينة.. اعترضه بعض المشركين فسألوه عن أمره؟

فأخبرهم أنه جاء يريد لقاء رسول الله ﷺ ليسلم.. فخافوا أن يسلم هذا الشاعر.. فيقوى شأن النبي ﷺ.. فشاعر واحد وهو حسان بن ثابت قد فعل بهم الأفاعيل.. فكيف لو أسلم شاعر العرب الأعشى بن قيس..

فقالوا له: يا أعشى دينك ودين آبائك خير لك..

قال: بل دينه خير وأقوم..

فنظر بعضهم إلى بعض وجعلوا يتشاورون.. كيف يصدونه عن الدين..

فقالوا له: يا أعشى.. إنه يحرم الزنا.. فقال: أنا شيخ كبير.. وما لي في النساء حاجة..

فقالوا: إنه يحرم الخمر..

فقال: إنها مذهبة للعقل.. مذلة للرجل.. ولا حاجة لي بها..

فلما رأوا أنه عازم على الإسلام..

قالوا: نعطيك مائة بعير وترجع إلى أهلك.. وتترك الإسلام..

فجعل يفكر في المال.. فإذا هو ثروة عظيمة.. فتغلب الشيطان على عقله.. والتفت إليهم وقال: أما المال.. فنعم..

فجمعوا له مائة بعير.. فأخذها.. وارتد على عقبيه.. وكر راجعًا إلى قومه بكفره..

واستاق الإبل أمامه.. فرحًا بها مستبشرًا..

فلما كاد أن يبلغ دياره.. سقط من على ناقته فانكسرت رقبته ومات..

سارة..

الإشارة حمراء.. والطريق مليء بالسيارات.. لم يتبق على الموعد سوى بضع دقائق..

تبًا لهذه الإشارة إنها طويلة.. يا ليتني كنت في الصف الأول.. لكنت قطعتها..

الثواني تمر بطيئة كأنها دقائق بل ساعات.. أنظر إلى الساعة حينًا وإلى الإشارة حينًا آخر..

أضاءت الإشارة اللون الأخضر.. ضغطت على منبه السيارة أزعجت الجميع.. تحركت السيارات.. تجاوزت الأول.. كدت أصطدم بالثاني.. قيادتي للسيارة أفزعت من حولي..

حاولت أن أسرع.. لكنني لم أستطع..

مضى الوقت.. وضاع الموعد.. ولم أجد الأصدقاء.. لقد ذهبوا..

إلى أين أذهب؟ احترت في الإجابة.. أطلقت زفرة من صدري.. يا ليتني كنت أعرف مكانهم..

السيارة تمضي بهدوء.. انطلقت أفكر.. أيقظني منبه سيارة أخرى.. نظرت إلى صاحب السيارة بغضب.. وأشرت إليه بيدي.. تمهل الدنيا لن تطير.. ونسيت حالي قبل دقائق..

قررت أن أقضي السهرة في البيت.. إنها فكرة جيدة.. فابنتي الوحيدة مريضة.. والأفضل أن أكون قريبًا منها..

أوقفت السيارة أمام محل الفيديو.. نزلت إلى المحل.. اخترت عدة أفلام.. وانطلقت إلى المنزل..

فتحت الباب.. ناديت على زوجتي.. احضري الشاي والمكسرات..

دخلت إلى الغرفة.. (يا لها من زوجة معقدة).. الآن ستقول لي: «اتق الله يا أحمد».. لقد تعودت هذه الكلمات حتى تبلدت أحاسيسي نحوها.. لكنها زوجة مطيعة.. طيبة.. تشقى من أجل سعادتي..

دخلت ومعها الشاهي والمكسرات.. ابتسمت في وجهي.. قالت: لا بد أنك سئمت السهر مع أصدقائك وتريد أن تجلس في البيت..

قلت: نعم.. تعالى واجلسي.. فرحت وهمت أن تجلس.. وقمت أنا إلى جهاز الفيديو والتلفاز.. فانطلقت الموسيقي الصاخبة..

أرخت المسكينة رأسها وقالت: اتق الله يا أحمد.. وخرجت تجر أذيال الحسرة والهزيمة.. فهي لا تسمع الموسيقى..

ارتفعت الأصوات في الغرفة.. موسيقى.. صراخ.. ضحكات.. وانطلقت أشرب الشاهي.. وأتناول المكسرات.. وعيناي قد تسمرت في شاشة التلفاز..

انتهى الشريط الأول.. والشريط الثاني..

الساعة تشير إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل..

فجأة.. مقبض الباب يتحرك ببطء.. صرخت: ماذا تريدين؟.. لم أسمع جوابًا..

انفتح الباب.. دخلت ابنتي المريضة.. فاجأني الموقف.. سكت برهة ولم أتكلم..

اقتربت مني.. نظرت إلي بهدوء.. ثم قالت: اتق الله يا بابا.. اتق الله يا بابا..

ثم انصرفت وأغلقت الباب..

ناديتها.. سارة.. سارة.. لم تجب.. انطلقت خلفها..

لا أكاد أصدق.. هل هذه ابنتي؟..

فتحت باب الغرفة.. وجدتها سبقتني إلى فراشها.. ونامت في حضن أمها.. إنها هي..

عدت إلى غرفة الجلوس.. أغلقت جهاز الفيديو.. صوت ابنتي يملأ الغرفة.. اتق الله يا بابا.. اتق الله يا بابا..

قشعريرة سرت في جسدي.. تصبب العرق من رأسي..

لا أدري ماذا أصابني..

ما عدت أسمع إلا صوتها.. ولا أرى إلا صورتها.. كلماتها اخترقت كل الحواجز الجاثمة على صدري منذ زمن بعيد.. ترك صلاة.. معاص.. دخانٍ.. أفلام خليعة.. أيقظتني من الغفلة.. تسارعت نبضات قلبي.. وألقيت بجسدي على الأرض.. حاولت أن أنام.. لكنني لم أستطع.. مضى الوقت سريعًا..

صور من الماضي استعرضتها أمامي.. ومع كل صورة أسمع صوت ابنتي يتردد.. اتق الله.. اتق الله.. وهنا.. ارتفع صوت الأذان.. اهتزت جوانحي.. ارتعدت فرائصي..

رعشة سرت في أطرافي.. جعل يردد: «الصلاة خير من النوم».. قلت: صدقت.. الصلاة خير من النوم.. أوه.. لقد كنت نائمًا كل هذه السنين..

توضأت وخرجت إلى المسجد.. مشيت في الطريق وكأني لا أعرفه.. كأن نسائم الفجر تعاتبني أين أنت؟ وطيور السماء تقول: مرحبًا بالنائم الذي استيقظ أخيرًا..

دخلت المسجد.. صليت ركعتين.. وجلست أقرأ القرآن.. تلعثمت في القراءة..

منذ زمن لم أقرأ القرآن.. شعرت أن القرآن يسألني: لم هجرتني منذ سنوات.. ألست كلام ربك؟

أخذت أردد في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣].. عجبًا.. جميعًا.. ما أرحم الله بنا..

تمنيت أن أستمر في القراءة.. لكن المؤذن.. أقام الصلاة.. تجمدت في مكاني لحظة ثم

تقدمت مع الناس.. وقفت في الصف.. وكأنني غريب..

انتهت الصلاة.. جلست في المسجد حتى أشرقت الشمس.. عدت إلى البيت.. فتحت باب الغرفة.. ألقيت نظرة على زوجتي وسارة..

كانتا نائمتين.. تركتهما وخرجت إلى العمل..

ليس من عادتي الذهاب مبكرًا إلى العمل..

تفاجأ الزملاء بوجودي.. انطلقت عبارات التهنئة ممزوجة بالسخرية..

لم أبال بما يقولون.. تسمرت عيناي على الباب.. أنتظر قدوم إبراهيم.. زميلي في المكتب.. والذي طالما نصحني.. إنه شخص طيب الأخلاق.. حسن المعاملة..

حضر إبراهيم.. فقمت من مكاني أستقبله.. لم يصدق عينيه..

سألني: أنت أحمد؟!

قلت: نعم.. جذبت يده.. وقلت: أريد أن أحدثك..

قال: لا بأس.. نتحدث في المكتب.. قلت: لا.. نذهب إلى الاستراحة..

صمت إبراهيم.. وراح يصغي لكلماتي.. حدثته بحديث البارحة..

امتلأت عيناه بالدموع.. وابتسم ابتسامة عريضة.. قال لي:

ذاك نور أضاء قلبك فلا تطفئه بظلمة المعاصي..

كان يومًا حافلاً بالنشاط والجدية.. رغم أني لم أنم منذ البارحة.. ابتسامة تعلو وجهي.. تفانٍ في العمل..

المراجعون يتجهون نحوي.. يطلبون مني مساعدتهم.. بعضهم قال لي:

ما هذا النشاط؟!.. أجبته: إنها صلاة الفجر في المسجد..

مسكين إبراهيم.. كان يتحمل العبء الأكبر من العمل.. أما أنا فقد كنت أنام..

لم يشتك ولم يتذمر.. يا له من إنسان طيب.. نعم.. إنه الإيمان عندما تخالط حلاوته القلوب.. مضى الوقت ولم أشعر بالتعب والإرهاق..

قال لي إبراهيم: أحمد.. يجب أن تذهب إلى البيت.. فإنك لم تنم منذ البارحة.. وسأقوم

بعملك.. نظرت إلى الساعة.. لم يبق على أذان الظهر سوى دقائق.. قررت البقاء..

أذن المؤذن.. فسارعت إلى المسجد.. جلست في الصف الأول..

شعرت بالندم على الأيام التي كنت أهرب فيها من العمل وقت الصلاة..

بعد الصلاة انطلقت إلى البيت.. في الطريق انتابني شعور بالقلق.. يا ترى كيف حال سارة؟ شعرت بانقباض.. لا أدري لماذا؟!

أحسست أن الطريق هذه المرة طويل.. ازداد الخوف.. رفعت رأسي إلى السماء.. دعوت الله أن يعجل بشفاء ابنتي..

وصلت إلى البيت.. فتحت الباب.. ناديت زوجتي.. لم أسمع جوابًا..

دخلت الغرفة مسرعًا..

زوجتي منطوية على نفسها تبكي.. التفتت إلي.. صرخت وهي تبكي:

لقد ماتت سارة..

لم أتبين ما تقول.. اندفعت نحو سارة.. ضممتها إلى صدري..

حاولت حملها.. سقطت يدها نحو الأرض.. جسمها بارد.. كذلك يداها وقدماها.. نبضها.. أنفاسها.. لم أسمع شيئًا..

نظرت إلى وجهها.. نور يتلألأ.. كأنه كوكب دري.. أيقظتها.. حركتها.. هززتها..

صرخت أمها: سارة.. سارة.. لقد ماتت.. ماتت.. وانخرطت في البكاء..

لم أصدق ما أرى.. كأنه حلم.. انهمرت الدموع من عيني.. أخذت أشهق.. أنظر إلى وجهها الجميل.. وشعرها الناعم.. أقبل فمها الصغير.. كأنها تردد الآن: عيب عليك.. عيب عليك.. يا بابا..

تذكرت أن هذه مصيبة.. أخذت أردد.. لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون..

اتصلت بإبراهيم.. قلت له: تعال فورًا.. لقد ماتت سارة، النساء في الداخل مع زوجتي يغسلن ابنتي.. انتهين من تغسيلها.. لففن على جسدها الطاهر خرقة بيضاء..

نادتني زوجتي..

دخلت كي أودع سارة الوداع الأخير.. كدت أسقط على الأرض.. تماسكت..

قبلتها على جبينها.. عاهدتها على الثبات حتى الممات.. نظرت إلى أمها.. فإذا هي زائغة العينين.. شاحبة الوجه.. تنتقض..

قلت لها: لا تحزني.. فقد ذهبت إلى الجنة بإذن الله.. هناك سنلتقي.. فشمري كي تشفع لنا.. ثم قرأت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١]..

بكت الأم وبكيت أنا.. صلينا عليها صلاة الجنازة.. ثم سرنا بها إلى المقبرة..

أنظر إلى الجنازة وكأنني أنظر إلى النور الذي أضاء لي حياتي.. وصلنا المقبرة.. المكان موحش.. مخيف.. توجهنا إلى القبر..

وقفت على شفير القبر.. هنا سأضع ابنتي.. أمسك إبراهيم بكتفي وقال: اصبر يا أحمد.. نزلت إلى القبر..

إنها دارك يا أحمد.. ربما اليوم وربما غدًا.. ماذا أعددت لهذه الدار..

ناداني إبراهيم: أحمد خذ البنت.. وضعتها على صدري.. وددت لو أدفنها فيه..

ضممتها.. قبلتها..

ثم وضعتها على شقها الأيمن.. وقلت: باسم الله وعلى ملة رسول الله..

صففت اللبن.. سددت كل المنافذ.. خرجت من القبر.. بدأ الناس يهيلون التراب.. لم أملك دموعي..

ذكريات تائب..

هو شيخ كبير.. نجلس إليه.. بعدما كبر سنه.. ورق عظمه.. وكف بصره.. وهو يحكي ذكريات شبابه..

نجلس إلى كعب بن مالك رضي الله عنه.. وهو يحكي ذكرياته.. في تخلفه عن غزوة تبوك.. وكانت آخر غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم..

آذن النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوهم.. وجمع منهم النفقات

لتجهيز الجيش.. حتى بلغ عدد الجيش ثلاثين ألفًا.. وذلك حين طابت الظلال الثمار.. في حر شديد.. وسفر بعيد.. وعدو قوي عنيد.. وكان عدد المسلمين كثيرًا.. ولم تكن أسماؤهم مجموعة في كتاب..

قال كعب ـ كما في «الصحيحين» ـ: وأنا أيسر ما كنت.. قد جمعت راحلتين.. وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد.. وأنا في ذلك أصغي إلى الظلال.. وطيب الثمار..

فلم أزل كذلك.. حتى قام رسول الله ﷺ غاديًا بالغداة..

فقلت: أنطلق غدًا إلى السوق فأشتري جهازي.. ثم ألحق بهم..

فانطلقت إلى السوق من الغد.. فعسر علي بعض شأني.. فرجعت..

فقلت: أرجع غدًا إن شاء الله فألحق بهم.. فعسر علي بعض شأني أيضًا..

فقلت: أرجع غدًا إن شاء الله.. فلم أزل كذلك.. حتى مضت الأيام.. وتخلفت عن رسول الله ﷺ..

فجعلت أمشي في الأسواق.. وأطوف بالمدينة.. فلا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه في النفاق.. أو رجلاً قد عذره الله..

نعم.. تخلف كعب في المدينة.. أما رسول الله ﷺ فقد مضى بأصحابه الثلاثين ألفًا..

حتى إذا وصل تبوك.. نظر في وجوه أصحابه.. فإذا هو يفقد رجلاً صالحًا ممن شهدوا بيعة العقبة..

فيقول ﷺ: «ما فعل كعب بن مالك؟!».

فقال رجل: يا رسول الله.. خلفه برداه والنظر في عطفيه..

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت.. والله يا نبي الله ما علمنا عليه إلا خيرًا؛ فسكت رسول الله ﷺ..

قال كعب: فلما قضى النبي ﷺ غزوة تبوك.. وأقبل راجعًا إلى المدينة.. جعلت أتذكر.. بماذا أخرج به من سخطه.. وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.. حتى إذا وصل المدينة.. عرفت أني لا أنجو إلا بالصدق..

فدخل النبي ﷺ المدينة.. فبدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين.. ثم جلس للناس..

فجاءه المخلفون.. فطفقوا يعتذرون إليه.. ويحلفون له..

وكانوا بضعة وثمانين رجلاً.. فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم.. واستغفر لهم.. ووكل سرائرهم إلى الله..

وجاءه كعب بن مالك.. فلما سلم عليه.. نظر إليه النبي ﷺ.. ثم تبسم تبسم المغضب.. ثم قال له: «تعال».. فأقبل كعب يمشي إليه.. فلما جلس بين يديه..

قال له ﷺ: «ما خلفك.. ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟».

قال: بلى..

قال: «فما خلفك؟!».

فقال كعب: يا رسول الله.. إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا.. لرأيت أني أخرج من سخطه بعذر.. ولقد أعطيت جدلاً.. ولكني والله لقد علمت.. أني إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علي.. ليوشكن الله أن يسخطك علي..

ولئن حدثتك حديث صدق.. تجد علي فيه.. إني لأرجو فيه عفو الله عني..

يا رسول الله.. والله ما كان لي من عذر.. والله ما كنت قط أقوى.. ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.. ثم سكت كعب..

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه.. وقال: «أما هذا.. فقد صدقكم الحديث.. فقم.. حتى يقضي الله فيك»..

فقام كعب يجر خطاه.. وخرج من المسجد.. مهمومًا مكروبًا.. لا يدري ما يقضي الله فيه.. فلما رأى قومه ذلك.. تبعه رجال منهم.. وأخذوا يلومونه.. ويقولون: والله ما نعلمك أذنبت ذنبًا قط.. قبل هذا.. إنك رجل شاعر..

أعجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون..

هلا اعتذرت بعذر يرضى عنك فيه.. ثم يستغفر لك.. فيغفر الله لك..

قال كعب: فلم يزالوا يؤنبونني.. حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي..

فقلت: هل لقي هذا معي أحد؟

قالوا: نعم.. رجلان قالا مثل ما قلت.. فقيل لهما مثل ما قيل لك..

قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع.. وهلال بن أمية.. فإذا هما رجلان صالحان قد شهدا بدرًا.. لي فيهما أسوة..

فقلت: والله لا أرجع إليه في هذا أبدًا.. ولا أكذب نفسي..

ثم مضى كعب رضي الله عنه.. حزينًا.. كسير النفس.. وقعد في بيته..

فلم يمض وقت.. حتى نهى النبي ﷺ الناس عن كلام كعب وصاحبيه..

قال كعب: فاجتنبنا الناس.. وتغيروا لنا.. فجعلت أخرج إلى السوق.. فلا يكلمني أحد..

وتنكر لنا الناس.. حتى ما هم بالذين نعرف..

وتنكرت لنا الحيطان.. حتى ما هي بالحيطان التي نعرف..

وتنكرت لنا الأرض.. حتى ما هي بالأرض التي نعرف..

فأما صاحباي فجلسا في بيوتهما يبكيان.. جعلا يبكيان الليل والنهار.. ولا يطلعان رءوسهما.. ويتعبدان كأنهما الرهبان..

وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم.. فكنت أخرج.. فأشهد الصلاة مع المسلمين.. وأطوف في الأسواق.. ولا يكلمني أحد.. وآتي المسجد فأدخل.. وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه.. فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟

ثم أصلي قريبًا منه.. فأسارقه النظر.. فإذا أقبلت على صلاتي.. أقبل إلي.. وإذا التفت نحوه.. أعرض عني..

ومضت على كعب الأيام.. والآلام تلد الآلام..

وهو الرجل الشريف في قومه.. بل هو من أبلغ الشعراء.. عرفه الملوك والأمراء..

وسرت أشعاره عند العظماء.. حتى تمنوا لقياه.. ثم هو اليوم.. في المدينة.. بين قومه.. لا أحد يكلمه.. ولا ينظر إليه.. حتى.. إذا اشتدت عليه الغربة.. وضاقت عليه الكربة.. نزل به امتحان آخر:

فبينما هو يطوف في السوق يومًا.. إذا رجل نصراني جاء من الشام.. فإذا هو يقول: من يدلني على كعب بن مالك..؟

فطفق الناس يشيرون له إلى كعب.. فأتاه.. فناوله صحيفة من ملك غسان.. عجبًا! من ملك غسان..! إذًا قد وصل خبره إلى بلاد الشام.. واهتم به ملك الغساسنة.. فماذا يريد الملك؟!

فتح كعب الرسالة فإذا فيها..

أما بعد.. يا كعب بن مالك.. إنه بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك.. ولست بدار مضيعة ولا هوان.. فالحق بنا نواسك..

فلما أتم قراءة الرسالة.. قال رضي الله عنه: إنا لله.. قد طمع في أهل الكفر.. هذا أيضًا من البلاء والشر.. ثم مضى بالرسالة فورًا إلى التنور.. فأشعله ثم أحرقها فيه.. ولم يلتفت كعب إلى إغراء الملك..

نعم فتح له باب إلى بلاط الملوك.. وقصور العظماء.. يدعونه إلى الكرامة والصحبة، والمدينة من حوله تتجهمه.. والوجوه تعبس في وجهه.. يسلم فلا يرد عليه السلام.. ويسأل فلا يسمع الجواب.. ومع ذلك لم يلتفت إلى الكفار.. ولم يفلح الشيطان في زعزعته.. أو تعبيده لشهوته.. ألقى الرسالة في النار.. وأحرقها..

ومضت الأيام تتلوها الأيام.. وانقضى شهر كامل.. وكعب على هذا الحال..

والحصار يشتد خناقه.. والضيق يزداد ثقله.. فلا الرسول ﷺ يمضي.. ولا الوحي بالحكم يقضي.. فلما اكتملت أربعون يومًا..

فإذا رسول من النبي ﷺ يأتي إلى كعب.. فيطرق عليه الباب.. فيخرج كعب إليه.. لعله جاء بالفرج.. فإذا الرسول يقول له: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك..

قال: أطلقها.. أم ماذا؟

قال: لا.. ولكن اعتزلها ولا تقربها..

فدخل كعب على امرأته وقال: الحقي بأهلك.. فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر..

وأرسل النبي ﷺ إلى صاحبي كعب بمثل ذلك..

فجاءت امرأة هلال بن أمية.. فقالت: يا رسول الله.. إن هلال بن أمية شيخ كبير ضعيف.. فهل تأذن لي أن أخدمه؟

قال: «نعم.. ولكن لا يقربنك»..

فقالت المرأة: يا نبي الله.. والله ما به من حركة لشيء.. ما زال مكتئبًا.. يبكي الليل والنهار.. منذ كان من أمره ما كان..

ومرت الأيام ثقيلة على كعب.. واشتدت الجفوة عليه.. حتى صار يراجع إيمانه.. يكلم المسلمين ولا يكلمونه.. ويسلم على رسول الله ﷺ فلا يرد عليه.. فإلى أين يذهب..! ومن يستشير؟!

قال كعب رضي الله عنه: فلما طال علي البلاء.. ذهبت إلى أبي قتادة.. وهو ابن عمي.. وأحب الناس إلي.. فإذا هو في حائط بستانه.. فتسورت الجدار عليه..

ودخلت.. فسلمت عليه.. فوالله ما رد علي السلام..

فقلت: أنشدك الله.. يا أبا قتادة.. أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت..

فقلت: يا أبا قتادة.. أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت..

فقلت: أنشدك الله.. يا أبا قتادة.. أتعلم أني أحب الله ورسوله؟

فقال: الله ورسوله أعلم..

سمع كعب هذا الجواب من ابن عمه وأحب الناس إليه.. لا يدري أهو مؤمن أم لا؟

فلم يستطع أن يتجلد لما سمعه.. وفاضت عيناه بالدموع.. ثم اقتحم الحائط خارجًا.. وذهب إلى منزله.. وجلس فيه.. يقلب طرفه بين جدرانه.. لا زوجة تجالسه.. ولا قريب يؤانسه..

وقد مضت عليهم خمسون ليلة.. من حين نهى النبي ﷺ الناس عن كلامهم..

وفي الليلة الخمسين.. نزلت توبتهم على النبي ﷺ ثلث الليل..

فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله.. ألا نبشر كعب بن مالك؟

قال: «إذًا يحطمكم الناس.. ويمنعونكم النوم سائر الليلة».. فلما صلى النبي ﷺ

الفجر.. آذن الناس بتوبة الله علينا.. فانطلق الناس يبشرونهم..

قال كعب: وكنت قد صليت الفجر على سطح بيت من بيوتنا..

فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى.. قد ضاقت علي نفسي.. وضاقت علي الأرض بما رحبت..

وما من شيء أهم إلي.. من أن أموت.. فلا يصلي علي رسول الله ﷺ.. أو يموت.. فأكون من الناس بتلك المنزلة.. فلا يكلمني أحد منهم.. ولا يصلي علي..

فبينما أنا على ذلك.. إذ سمعت صوت صارخ.. على جبل سلع بأعلى صوته يقول:

يا كعب بن مالك!.. أبشر.. فخررت ساجدًا.. وعرفت أن قد جاء فرج من الله..

وأقبل إلي رجل على فرس.. والآخر صاح من فوق جبل..

وكان الصوت أسرع من الفرس..

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني.. نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه..

والله ما أملك غيرهما.. واستعرت ثوبين.. فلبستهما..

وانطلقت إلى رسول الله ﷺ.. فتلقاني الناس فوجًا.. فوجًا.. يهنئوني بالتوبة.. يقولون: ليهنك توبة الله عليك..

حتى دخلت المسجد.. فسلمت على رسول الله ﷺ.. وهو يبرق وجهه من السرور.. وكان إذا سر استنار وجهه.. حتى كأنه قطعة قمر..

فقال لي: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»..

قلت: أمن عندك يا رسول الله.. أم من عند الله؟

قال: «لا.. بل من عند الله».. ثم تلا الآيات.. فلما جلست بين يديه..

قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله.. وإلى رسوله..

فقال: «أمسك عليك بعض مالك.. فهو خير لك»..

فقلت: يا رسول الله! إن الله إنما نجاني بالصدق.. وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت..

نعم.. تاب الله على كعب وصاحبيه.. وأنزل في ذلك قرءانًا يتلى.. فقال ﷻ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٧، ١١٨].

في بطن الحوت..

كل الناس يذكرون الله عند الشدائد.. لكن منهم من يذكره ويطيعه.. فإذا زالت الشدة عصاه ونساه، ومنهم من يستمر صلاحه وتوبته..

يونس عليه السلام.. دعا قومه إلى الإيمان.. فأعرضوا وتكبروا.. فغضب.. وركب البحر مع سفينة.. فلما ثقلت بهم خافوا أن يغرقوا جميعًا.. فعلموا أنه لا بد أن يخففوا الحمل بإلقاء أحد ركابها إلى البحر.. عملوا القرعة مرارًا فوقعت على يونس.. ألقوه في البحر.. فالتقمه الحوت.. ثم نزل به إلى الأعماق..

كل شيء حدث بسرعة.. يونس في الظلمات.. تسمع حوله.. فإذا به يسمع تسبيح الحصى الذي في قعر البحر.. فانتفض.. ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].. فقرعت كلماته أبواب السماء.. فنزل عليه الفرج..

هذا خبر يونس النبي عليه الصلاة والسلام..

أما يونس اليوم فيقول:

كنت شابًّا أظن أن الحياة.. مال وفير.. وفراش وثير.. ومركب وطيء..

وكان يوم جمعة.. جلست مع مجموعة من رفقاء الدرب على الشاطئ.. وهم كالعادة مجموعة من القلوب الغافلة..

سمعت النداء حي على الصلاة.. حي على الفلاح..

أقسم أني سمعت الأذان طوال حياتي.. ولكني لم أفقه يومًا معنى كلمة فلاح..

طبع الشيطان على قلبي.. حتى صارت كلمات الأذان كأنها تقال بلغة لا أفهمها..

كان الناس حولنا يفرشون سجاداتهم.. ويجتمعون للصلاة..

ونحن كنا نجهز عدة الغوص وأنابيب الهواء.. استعدادًا لرحلة تحت الماء..

لبسنا عدة الغوص.. ودخلنا البحر.. بعدنا عن الشاطئ.. حتى صرنا في بطن البحر.. كان كل شيء على ما يرام.. الرحلة جميلة..

وفي غمرة المتعة.. فجأة تمزقت القطعة المطاطية التي يطبق عليها الغواص بأسنانه وشفتيه لتحول دون دخول الماء إلى الفم.. ولتمده بالهواء من الأنبوب.. وتمزقت أثناء دخول الهواء إلى رئتي.. وفجأة أغلقت قطرات الماء المالح المجرى التنفسي.. وبدأت أموت.. بدأت رئتي تستغيث وتنتفض.. تريد هواء.. أي هواء..

أخذت اضطرب.. البحر مظلم.. رفاقي بعيدون عني..

بدأت أدرك خطورة الموقف.. إنني أموت.. بدأت أشهق.. وأشرق بالماء المالح.. بدأ شريط حياتي بالمرور أمام عيني..

مع أول شهقة.. عرفت كم أنا ضعيف.. بضع قطرات مالحة سلطها الله علي ليريني أنه هو القوي الجبار..

آمنت أنه لا ملجأ من الله إلا إليه.. حاولت التحرك بسرعة للخروج من الماء.. إلا أني كنت على عمق كبير..

ليست المشكلة أن أموت.. المشكلة كيف سألقى الله؟!

إذا سألني عن عملي.. ماذا سأقول؟ أما ما أحاسب عنه.. الصلاة.. وقد ضيعتها..

تذكرت الشهادتين.. فأردت أن يختم لي بهما..

فقلت أشهـ.. فغص حلقي.. وكأن يدًا خفية تطبق على رقبتي لتمنعني من نطقها..

حاولت جاهدًا.. أشهـ.. أشهـ.. بدأ قلبي يصرخ: ربي ارجعون.. ربي ارجعون.. ساعة.. دقيقة.. لحظة.. ولكن هيهات..

بدأت أفقد الشعور بكل شيء.. أحاطت بي ظلمة غريبة..

هذا آخر ما أتذكر.. لكن رحمة ربي كانت أوسع..

فجأة بدأ الهواء يتسرب إلى صدري مرة أخرى.. انقشعت الظلمة.. فتحت عيني.. فإذا أحد الأصحاب.. يثبت خرطوم الهواء في فمي.. ويحاول إنعاشي.. ونحن ما زلنا في بطن البحر..

رأيت ابتسامة على محياه.. فهمت منها أنني بخير.. عندها صاح قلبي.. ولساني.. وكل خلية في جسدي..

أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا رسول الله.. الحمد لله..

خرجت من الماء.. وأنا شخص آخر.. تغيرت نظرتي للحياة..

أصبحت الأيام تزيدني من الله قربًا.. أدركت سر وجودي في الحياة.. تذكرت قول الله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].. صحيح.. ما خلقنا عبثًا..

مرت أيام.. فتذكرت تلك الحادثة.. فذهبت إلى البحر.. ولبست لباس الغوص..

ثم أقبلت إلى الماء.. وحدي وتوجهت إلى المكان نفسه في بطن البحر..

وسجدت لله تعالى سجدة ما أذكر أني سجدت مثلها في حياتي.. في مكان لا أظن أن إنسانًا قبلي قد سجد فيه لله تعالى..

عسى أن يشهد علي هذا المكان يوم القيامة فيرحمني الله بسجدتي في بطن البحر ويدخلني جنته اللهم أمين..

وغدراتي وفجراتي!

ربنا أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا.. ومن سعة رحمته.. أنه عرض التوبة على كل أحد.. مهما أشرك العبد وكفر.. أو طغى وتجبر.. فإن الرحمة معروضة عليه.. وباب التوبة مشرع بين يديه..

وانظر إلى ذاك الشيخ الهرم.. الذي.. كبر سنه.. وانحنى ظهره.. ورق عظمه..

أقبل على رسول الله ﷺ.. وهو جالس بين أصحابه يومًا.. يجر خطاه.. وقد سقط حاجباه على عينيه.. وهو يدعم على عصا.. جاء يمشي.. حتى قام بين يدي النبي ﷺ.. فقال بصوت تصارعه الآلام: يا رسول الله.. أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها.. فلم يترك منها شيئًا..

وهو في ذلك لم يترك حاجة.. ولا داجة.. أي: صغيرة ولا كبيرة.. إلا أتاها..

لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم.. فهل لذلك من توبة؟

فرفع النبي ﷺ بصره إليه.. فإذا شيخ قد انحنى ظهره.. واضطرب أمره.. قد هده مر السنين والأعوام.. وأهلكته الشهوات والآلام..

فقال له ﷺ: «فهل أسلمت؟»..

قال: أما أنا.. فأشهد أن لا إله إلا الله.. وأنك رسول الله..

فقال ﷺ: «تفعل الخيرات.. وتترك السيئات.. فيجعلهن الله لك خيرات كلهن»..

فقال الشيخ: وغدراتي.. وفجراتي..

فقال: «نعم»..

فصاح الشيخ: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

فما زال يكبر حتى توارى عنهم[1]..

هل نطرحه في النار؟!

الله أرحم بعباده.. من آبائهم وأمهاتهم..

في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ لما انتهى من حرب هوازن.. أتي إليه بعد المعركة.. بأطفال الكفار ونسائهم.. ثم جمعوا في مكان..

فالتفت النبي ﷺ إليهم.. فإذا امرأة من السبي.. أم ثكلى.. تجر خطاها.. تبحث عن ولدها.. وفلذة كبدها.. قد اضطرب أمرها.. وطار صوابها.. واشتد مصابها..

تطوف على الأطفال الرضع.. تنظر في وجوههم.. يكاد ثديها يتفجر من احتباس اللبن فيه..

تتمنى لو أن طفلها بين يديها.. تضمه ضمة.. وتشمه شمة.. ولو كلفها ذلك حياتها..

فبينما هي على ذلك.. إذ وجدت ولدها.. فلما رأته جف دمعها.. وعاد صوابها..

---

(١) رواه الطبراني والبزار، وقال المنذري: إسناده جيد قوي، وقال ابن حجر: هو على شرط الصحيح.

ثم انكبت عليه.. وانطرحت بين يديه.. وقد رحمت جوعه وتعبه.. وبكاءه ونصبه.. أخذت تضمه وتقبله.. ثم ألصقته بصدرها.. وألقمته ثديها..

فنظر الرحيم الشفيق إليها.. وقد أضناها التعب.. وعظم النصب..

وقد طال شوقها إلى ولدها.. واشتد مصابه ومصابها..

فلما رأى ذلها.. وانكسارها.. وفجيعتها بولدها..

التفت إلى أصحابه ثم قال: «أترون هذه.. طارحة ولدها في النار».. يعني: لو أشعلنا نارًا وأمرناها أن تطرح ولدها فيها.. أترون أنها ترضى..

فعجب الصحابة الكرام: كيف تطرحه في النار.. وهو فلذة كبدها.. وعصارة قلبها.. كيف تطرحه.. وهي تلثمه.. وتقبله.. وتغسل وجهه بدموعها.. كيف تطرحه..

وهي الأم الرحيمة.. والوالدة الشفيقة..

قالوا: لا.. والله.. يا رسول الله.. لا تطرحه في النار.. وهي تقدر على أن لا تطرحه..

فقال ﷺ: «والله.. لله أرحم بعباده من هذه بولدها»..

في المستشفى..

دخلت على مريض في المستشفى.. فلما أقبلت إليه.. إذا رجل قد بلغ من العمر أربعين سنة.. من أنضر الناس وجهًا.. وأحسنهم قوامًا.. لكن جسده كله مشلول لا يتحرك منه ذرة.. إلا رأسه وبعض رقبته..

دخلت غرفته.. فإذا جرس الهاتف يرن.. فصاح بي وقال: يا شيخ أدرك الهاتف قبل أن ينقطع الاتصال..

فرفعت سماعة الهاتف ثم قربتها إلى أذنه ووضعت مخدة تمسكها.. وانتظرت قليلاً حتى أنهى مكالمته.. ثم قال: يا شيخ.. أرجع السماعة مكانها..

فأرجعتها مكانها.. ثم سألته: منذ متى وأنت على هذا الحال؟

فقال: منذ عشرين سنة.. وأنا أسير على هذا السرير..

وحدثني أحد الفضلاء أنه مر بغرفة في المستشفى.. فإذا فيها مريض يصيح بأعلى صوته.. ويئن أنينًا يقطع القلوب..

قال صاحبي: فدخلت عليه.. فإذا هو جسده مشلول كله.. وهو يحاول الالتفات فلا يستطيع.. فسألت الممرض عن سبب صياحه.. فقال:

هذا مصاب بشلل تام.. وتلف في الأمعاء.. وبعد كل وجبة غداء أو عشاء.. يصيبه عسر هضم..

فقلت له: لا تطعموه طعامًا ثقيلاً.. جنبوه أكل اللحم.. والرز..

فقال الممرض: أتدري ماذا نطعمه.. والله لا ندخل إلى بطنه إلا الحليب من خلال الأنابيب الموصلة بأنفه.. وكل هذه الآلام.. ليهضم هذا الحليب..

وحدثني آخر.. أنه مر بغرفة مريض مشلول أيضًا.. لا يتحرك منه شيء أبدًا..

قال: فإذا المريض يصيح بالمارين.. فدخلت عليه..

فرأيت أمامه لوح خشب عليه مصحف مفتوح.. وهذا المريض منذ ساعات.. كلما انتهى من قراءة الصفحتين أعادهما.. فإذا فرغ منهما أعادهما.. لأنه لا يستطيع أن يتحرك ليقلب الصفحة.. ولم يجد أحدًا يساعده..

فلما وقفت أمامه.. قال لي: لو سمحت.. اقلب الصفحة..

فقلبتها.. فتهلل وجهه.. ثم وجه نظره إلى المصحف وأخذ يقرأ؛ فانفجرت باكيًا بين يديه.. متعجبًا من حرصه وغفلتنا..

وحدثني ثالث.. أنه دخل على رجل مقعد مشلول تمامًا في أحد المستشفيات.. لا يتحرك إلا رأسه.. فلما رأى حاله.. رأف به وقال: ماذا تتمنى؟

فقال المريض: أنا عمري قرابة الأربعين وعندي خمسة أولاد..

وعلى هذا السرير.. منذ سبع سنين.. لا أتمنى أن أمشي.. ولا أن أرى أولادي.. ولا أن أعيش مثل الناس..

لكنني أتمنى أني أستطيع أن ألصق هذه الجبهة على الأرض ذلة لرب العالمين.. وأسجد

كما يسجد الناس..

وأخبرني أحد الأطباء أنه دخل في غرفة الإنعاش على مريض.. فإذا شيخ كبير.. على سرير أبيض وجهه يتلألأ نورًا.. قال صاحبي: أخذت أقلب ملفه.. فإذا هو قد أجريت له عملية في القلب.. أصابه نزيف خلالها.. مما أدى إلى توقف الدم عن بعض مناطق الدماغ.. فأصيب بغيبوبة تامة..

وإذا الأجهزة موصلة به.. وقد وضع على فمه جهاز للتنفس الصناعي يدفع إلى رئتيه تسعة أنفاس في الدقيقة.. كان بجانبه أحد أولاده.. سألته عنه..

فأخبرني أن أباه مؤذن في أحد المساجد منذ سنين؛ أخذت أنظر إليه.. حركت يده.. حركت عينه.. كلمته.. لا يدري عن شيء أبدًا..

كانت حالته خطيرة.. اقترب ولده من أذنه وصار يكلمه.. وهو لا يعقل شيئًا..

فبدأ الولد يقول.. يا أبي.. أمي بخير.. وإخواني بخير.. وخالي رجع من السفر..

واستمر الولد يتكلم..

والأمر على ما هو عليه.. الشيخ لا يتحرك.. والجهاز يدفع تسعة أنفاس في الدقيقة..

وفجأة قال الولد.. والمسجد مشتاق إليك.. ولا أحد يؤذن فيه إلا فلان.. ويخطئ في الأذان.. ومكانك في المسجد فارغ..

فلما ذكر المسجد والأذان.. اضطرب صدر الشيخ.. وبدأ يتنفس.. فنظرت إلى الجهاز فإذا هو يشير إلى ثمانية عشر نفسًا في الدقيقة..

والولد لا يدري.. ثم قال الولد: وابن عمي تزوج.. وأخي تخرج..

فهدأ الشيخ مرة أخرى.. وعادت الأنفاس تسعة.. يدفعها الجهاز الآلي..

فلما رأيت ذلك أقبلت إليه.. حتى وقفت عند رأسه.. حركت يده.. عينه.. هززته.. لا شيء.. كل شيء ساكن.. لا يتجاوب معي أبدًا.. تعجبت..

قربت فمي من أذنه ثم قلت: الله أكبر.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. وأنا أسترق النظر إلى جهاز التنفس.. فإذا به يشير إلا ثمانية عشر نفسًا في الدقيقة..

فلله درهم من مرضى.. بل والله نحن المرضى..

نعم.. ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[النور:٣٧، ٣٨]..

هذا حال أولئك المرضى..

فأنت يا سليمًا من الأمراض والأسقام.. يا معافى من الأدواء والأورام.. يا من تتقلب في النعم.. ولا تخشى النقم..

ماذا فعل الله بك فقابلته بالعصيان.. بأي شيء آذاك.. أليست نعمه عليك تترى.. وأفضاله عليك لا تحصى؟

أما تخاف.. أن توقف بين يدي الله غدًا.. فيقول لك: يا عبدي ألم أصح لك في بدنك.. وأوسع عليك في رزقك.. وأسلم لك سمعك وبصرك؟ فتقول: بلى..

فيسألك الجبار: فلم عصيتني بنعمي.. وتعرضت لغضبي ونقمي؟ فعندها تنشر في الملأ عيوبك.. وتعرض عليك ذنوبك..

فتبًّا للذنوب.. ما أشد شؤمها.. وأعظم خطرها..

وهل أخرج أبانا من الجنة إلا ذنب من الذنوب..

وهل أغرق قوم نوح إلا الذنوب.. وهل أهلك عادًا وثمود إلا الذنوب..

وهل قلب على قوم لوط ديارهم.. وعجل لقوم شعيب عذابهم..

وأمطر على أبرهة حجارة من سجيل.. وأنزل بفرعون العذاب الوبيل..

إلا المعاصي والذنوب..

الجبال الراسيات..

في أول بعثة النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو إلى الإسلام في مكة سرًّا.. وكان المسلمون يختفون بدينهم..

فلما تكامل عددهم ثمانية وثلاثين رجلاً..

ألح أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في الظهور..

فقال ﷺ: «يا أبا بكر.. إنا قليل»..

فلم يزل أبو بكر يلح عليه حتى خرج ﷺ.. إلى المسجد.. وخرج المسلمون معه.. وتفرقوا في نواحي المسجد.. كل رجل في عشيرته.

وقام أبو بكر في الناس خطيبًا.. فكان أول خطيب دعا إلى الله.. فلما رأى المشركون من يسفه آلهتهم.. وينتقص دينهم.. ثاروا على أبي بكر وعلى المسلمين.. فجعلوا يضربونهم في نواحي المسجد ضربًا شديدًا.. وأبو بكر يجهر بالدين.. فأحاط به جمع منهم.. فضربوه.. حتى وقع على الأرض.. وهو كهل قد قارب عمره الخمسين سنة..

ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة.. وجعل يطأ على بطنه وصدره.. ويضربه بنعلين مخصوفين.. ويحرفهما على وجهه.. حتى مزق لحم وجهه.. وجعلت دماؤه تسيل.. حتى ما يعرف وجهه من أنفه.. وأبو بكر مغمى عليه..

فجاءت قبيلته بنو تيم يتعادون.. ودفعوا المشركين عنه.. وحملوه في ثوب.. ولا يشكون في موته.. حتى أدخلوه منزله..

وقعد أبوه وقومه عند رأسه.. يكلمونه فلا يجيب.. حتى إذا كان آخر النهار.. أفاق.. وفتح عينيه.. فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فغضب أبوه وسبه.. ثم خرج من عنده.. فقعدت أمه عند رأسه.. تجتهد أن تطعمه أو تسقيه.. وتلح عليه..

وهو يردد: ما فعل رسول الله ﷺ؟

فقالت: والله ما لي علم بصاحبك..

فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب.. فسليها عنه.. وكانت أم جميل مسلمة تكتم إسلامها.. فخرجت أمه حتى جاءت أم جميل فقالت:

إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟

فخافت أم جميل أن يكتشفوا إسلامها.. فقالت: ما أعرف أبا بكر.. ولا محمدًا.. ولكن إن أحببت مضيت معك إلى ابنك..

قالت: نعم.. فمضت معها..

فلما دخلت على أبي بكر.. وجدته صريعًا دنفًا.. ممزق الوجه.. ودماؤه تسيل..

فبكت وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر.. وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم..

فالتفت إليها أبو بكر.. وما يكاد يطيق.. فقال: يا أم جميل.. ما فعل رسول الله ﷺ؟

فنظرت أم جميل إلى أم أبي بكر وكانت لم تسلم بعد.. فخشيت أن تخبر الكفار بأسرار المسلمين..

فقالت أم جميل لأبي بكر: هذه أمك تسمع..

قال: فلا شيء عليك منها..

قالت: رسول الله ﷺ سالم صالح.. قال: فأين هو؟

قالت: في دار أبي الأرقم..

فقالت أمه: قد عرفت خبر صاحبك.. فكل واشرب الآن..

فقال: لا.. إن لله علي أن لا أذوق طعامًا أو شرابًا.. حتى آتي رسول الله ﷺ.. فأراه بعيني..

فأمهلتاه.. حتى إذا ظلم الليل.. وهدأ الناس.. حاول أن يقوم.. فلم يستطع.. خرجت به أمه وأم جميل يتكئ عليهما.. حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ..

فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام.. أكب عليه يقبله.. وأكب عليه المسلمون.. ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة..

وأبو بكر يقول: بأبي وأمي أنت يا رسول الله.. ليس بي من بأس.. إلا ما نال الفاسق من وجهي..

ثم قال أبو بكر: يا رسول الله.. هذه أمي برة بولدها.. وأنت رجل مبارك.. فادعها إلى الله ﷻ.. وادع الله لها.. عسى الله أن يستنقذها بك من النار..

فدعا لها رسول الله ﷺ.. ثم دعاها إلى الله فأسلمت..

فانظر إلى هذا الجبل الراسي.. أبي بكر رضي الله عنه.. وتأمل في حرصه على الدعوة إلى الله.. واعجب من قوة ثباته على الدين..

ينغمس في أنهارها ..

كان ماعز شابًا من الصحابة.. متزوجًا في المدينة.. وسوس له الشيطان يومًا.. وأغراه بجارية لرجل من الأنصار..

فخلا بها عن أعين الناس.. وكان الشيطان ثالثهما.. فلم يزل يزين كلاً منهما لصاحبه حتى وقعا في الحرام..

فلما فرغ ماعز من جرمه.. تخلى عنه الشيطان.. فبكى وحاسب نفسه.. ولامها.. وخاف من عذاب الله.. وضاقت عليه حياته.. وأحاطت به خطيئته.. حتى أحرق الذنب قلبه.. فجاء إلى طبيب القلوب.. ووقف بين يديه وصاح من حر ما يجد وقال:

يا رسول الله.. إن الأبعد قد زنى.. فطهرني..

فأعرض عنه النبي ﷺ.. فجاء من شقه الآخر فقال: يا رسول الله.. زنيت.. فطهرني..

فقال ﷺ: «ويحك ارجع.. فاستغفر الله وتب إليه»..

فرجع غير بعيد.. فلم يطق صبرًا..

فعاد إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله طهرني..

فصاح به النبي ﷺ.. وقال: «ويلك.. وما يدريك ما الزنا؟»..

ثم أمر به فطرد.. وأخرج.. ثم أتاه الثانية، فقال: يا رسول الله، زنيت.. فطهرني..

فقال: «ويلك.. وما يدريك ما الزنا؟»..

وأمر به.. فطرد.. وأخرج.. ثم أتاه الثالثة.. والرابعة كذلك.. فلما أكثر عليه.

سأل رسول الله ﷺ قومه: «أبه جنون؟»، قالوا: يا رسول الله.. ما علمنا به بأسًا..

فقال: «لعله شرب خمرًا؟»، فقام رجل فاستنكهه وشمه فلم يجد منه ريح خمر..

فقال ﷺ: «هل تدري ما الزنا؟»..

قال: نعم.. أتيت من امرأة حرامًا، مثل ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً..

فقال ﷺ: «فما تريد بهذا القول؟»..

قال: أريد أن تطهرني..

قال ﷺ: «نعم».. فأمر به أن يرجم.. فرجم حتى مات..

فلما صلوا عليه ودفنوه مر النبي ﷺ على موضعه مع بعض أصحابه..

فسمع النبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا.. الذي ستر الله عليه ولم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلاب..

فسكت النبي ﷺ.. ثم سار ساعة.. حتى مر بجيفة حمار.. قد أحرقته الشمس حتى انتفخ وارتفعت رجلاه..

فقال ﷺ: «أين فلان وفلان؟»..

قالا: نحن هذان.. يا رسول الله..

قال: «انزلا.. فكلا من جيفة هذا الحمار»..

قالا: يا نبي الله! غفر الله لك.. من يأكل من هذا؟

فقال ﷺ: «ما نلتما.. من عرض أخيكما.. آنفًا أشد من أكل الميتة.. لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.. والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»..

فطوبى.. لماعز بن مالك.. نعم وقع في الزنى.. وهتك الستر الذي بينه وبين ربه.. لكنه تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم..

(أصل قصته في «الصحيحين» وسقتها من مجموع رواياتها)..

المغني..

وقفت على النافذة بعينين دامعتين.. تلوح بيديها اللتين أهزلهما مر السنين..

كانت تدافع عبراتها.. حتى غلبها البكاء.. فبكت.

وقفت أنظر إليها.. نشيجها يصل إلى مسمعي.. لكن المعاصي الجاثمة على صدري حالت بينه وبين الوصول إلى قلبي القاسي.. لم أرحم توسلاتها بالبقاء معها.. والالتحاق بجامعة في نفس المدينة..

أنانية.. حب للذات.. بحث عن حرية مزعومة.. وشخصية مستقلة بذاتها.. بل شهوات وملذات.. وشياطين من الإنس والجن يؤازر بعضهم بعضًا.. هروب من نصائحها ومواعظها.. من عطفها وشفقتها.. وخوفها أن أنحرف..

تركتها وهي واقفة تودعني.. غبت عنها وهي لم تفارق مكانها.. وداعًا أمي..

وهناك.. لم أعد أسمع عند خروجي: في حفظ الله يا ولدي.. إلى أين تذهب يا ولدي؟

وهناك: لم أعد أسمع: لماذا تأخرت يا ولدي؟

انطلقت في حياة اللهو والترف.. حياة الغفلة والخوض في المعاصي والآثام.. صوتي الجميل أغرى رفقاء السوء الذين زينوا لي الغناء..

بدأت أغني وشياطين الأنس يغدقون عبارات الثناء التي لامست قلبي..

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي دعوت فيه لكي أغني على المسرح.. عشت صراعًا رهيبًا فلا زال الحياء يحتل من قلبي مساحة صغيرة.. فعشت بين الرفض والموافقة لحظات.. فقلبي يعاتبني: لا لست من يقف ليغني كما يفعل الفسقة.. لكن نفسي توبخني وتلومني: هذه فرصتك لا تضيعها سوف تصبح مشهورًا.. وبعد عناء وتردد وافقت.. صعدت على المسرح ولا زال للحياء بقية.. لكنه رحل مع أول كلمة تغنيت بها..

اهتزت القاعة طربًا.. وتمايلت الأجساد نشوة.. عبارات الثناء والمديح تستحثني علي المواصلة كلما سكت.. لتمضي تلك الليلة ولتقضي على ما تبقى من إيمان..

رفقاء السوء من حولي قد ازدادوا.. الدعوات كثرت.. تنقلت من قاعة إلى قاعة.. تنقلت بين أصناف المعاصي والآثام.. سهرات خاصة وعامة..

قدمت لي دعوة للمشاركة في حمل غنائي في أحد القصور.. قدمت بعض الأغاني والتي تفاعل معها الجمهور وكنت بحق النجم القادم إلى الساحة الفنية..

تلقيت بعد هذه الحفلة دعوة من أحد أهل الفن يعرض علي رغبته في أن يتبناني فنيًا ويهتم بي..

أخذت موعدًا مع فنان مشهور عن طريق وكيل أعماله.. ليتم التنسيق بهذا الشأن.. وكان الموعد يوم الخميس.. الأيام تمضي سريعة..

قبل الموعد بيومين رجعت إلى أهلي.. لمشاركتهم في بعض المناسبات.. حركة دائبة في المنزل فزواج أخي يوم الخميس.. ويوم الأربعاء سيتم عقد قران اثنتين من أخواتي..

كانت أمي كالنحلة.. تتنقل من مكان إلى مكان.. لا تكاد الدنيا تسعها من الفرح.. تردد الدعوات والتبريكات.. على شفتيها فرح لو قسم على العالم لابتسم.. تواصل الليل بالنهار..

تعد العدة للفرح الكبير.. تطمئن على كل شيء.. لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا وتسأل عنها.. وجاء يوم الأربعاء سريعًا..

فإذا به يحمل الفاجعة التي غيرت مجرى حياتي.. الفاجعة التي أيقظتني من الغفلة.. أحيت قلبي الذي قد مات..

جاءت الفاجعة لتنتشلني من المستنقع القذر.. مستنقع الرذيلة.. مستنقع الغناء والطرب.. ماتت أمي.. كيف؟ لا أدري المهم أنها ماتت.. بعد أن شاركتنا لحظات بسيطة من الفرح.. تنحت قليلاً.. وألقت بجسدها المنهك على سريرها.. وكأنها تقول: وداعًا صغاري.. لقد كبرتم..

تحول الفرح إلى حزن.. وجوه صامتة قد تملكتها الدهشة وألجمتها الفاجعة.. لا ترى إلا دموعًا تنهمر.. وقلوبًا ترتجف..

ولا تسمع إلا نشيجًا ينطلق من كل زاوية في المنزل.. كل شيء كان يبكي وينوح.. إلا أمي فقد كانت على فراشها ساكنة.. لا تدري عما حولها..

جهزوا جنازتها بدءوا يغسلونها.. دخلت عليها بعدما غسلت.. ألقيت عليها النظرة الأخيرة.. كان وجهها هادئًا.. كما كان في الحياة..

نظرت إلى فمها.. عينيها.. يديها.. كانت بالأمس تنهاني عن مفارقتها خوفًا علي من الفساد.. قبلتها.. بكيت.. بكت أخواتي حولي.. أخرجوني من غرفة التغسيل..

مضت الساعات سريعة.. لم أشعر إلا وأنا أقف في الصف أصلي عليها.. جثتها هامدة.. والإمام يردد: الله أكبر.. الله أكبر..

دعوت لها بكل جوارحي.. دعوت الله أن يغفر لي تقصيري في حقها..

حملت جنازتها مع من حملوا.. سرنا بها إلى القبر..

جعلت أهيل عليها التراب.. اللهم ثبتها.. اللهم ثبتها..

مضى النهار مع المعزين، لكن كان لليل قول آخر.. أويت إلى غرفتي مبكرًا.. أطفأت الأنوار.. ألقيت بجسدي على الفراش..

صور من الماضي بدأت تظهر لي.. صوتها يملأ المكان.. يا ولدي قم.. لا تفتك الصلاة.. زملاؤك في المسجد ينتظرونك..

يا ولدي أبق معي.. واصل دراستك هنا.. لا تسافر.. يا ولدي انتبه لنفسك..

حسرات وندم.. هموم وغموم أطبقت على صدري.. لم أستطع أن أتنفس:

صور من العقوق.. شريط الذكريات يمر أمامي، كانت تسعدني وأشقيها.. تفرحني وأبكيها..

تذكرت توسلاتها.. رجاءها.. لا تذهب.. لا تفعل.. زفرات وحسرات..

آه كم كنت عاقًا..

بكيت بكاءً مرًّا.. قمت أصلي لكنني لم أستطع أن أصلي فقد استعجم لساني.. كانت دموعي ساخنة فأذابت قسوة قلبي.. سجدت لله بللت موضع سجودي بالدموع..

النحيب مشفوع بدعوات صادقة تنطلق من الأعماق.. تؤمن عليها كل ذرة من ذرات جسدي.. عاهدت ربي على البر بها بعد موتها..

سألته أن يثبتني على ذلك.. رددت الدعاء: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.. انتهيت من الصلاة..

توجهت نحو الماضي الكئيب.. أقلب بين الدفاتر والأوراق.. فهنا دفتر يحمل بعض الأغاني.. وهنا رسائل.. وهناك صور.. هذا شريط أغانٍ خاصة.. وهذه أشرطة لبعض الفساق..

عمدت إلى جيبي أخرجت ما فيه من بطاقات.. وجدت بطاقة الفنان الكبير.. تذكرت موعده.. يوم الخميس عصرًا..

صرخت: أعوذ بالله.. مزقته بيدي.. جمعت كل شيء يذكرني بالمعاصي والآثام.. وضعتها في كيس وفي اليوم الثاني كان الفراق بيني وبينها..

البطل..

شاب نضر.. نشأ في بيت عز وسلطان.. ومنعة ومكان.. كان معظمًا عند قومه.. مهيبًا في بلده.. مقدمًا بين أقرانه.. فريدًا في زمانه.

انظر إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه.. كان مجوسيًّا.. يعبد النار وكان أبوه سيد قومه.. وكان يحبه حبًا عظيمًا.. وقد حبسه في بيته عند النار.. ومع طول ملازمته للنار.. اجتهد في المجوسية.. حتى صار قاطن النار الذي يوقدها..

وكان لأبيه بستان عظيم.. يذهب إليه كل يوم..

فشغل الأب في بنيان له يومًا في داره.. فقال لسلمان: فانطلق إلى ضيعتي فاصنع فيها كذا وكذا..

ففرح سلمان وخرج من حبسه.. وتوجه إلى البستان.. فبينما هو في طريقه إذ مر بكنيسة للنصارى.. فسمع صلاتهم فيها..

فدخل عليهم ينظر ماذا يصنعون.. وأعجبه ما رأى من صلاتهم.. ورغب في اتباعهم..

وقال في نفسه: هذا خير من ديننا الذي نحن عليه..

فسألهم: عن دينهم.. فقالوا: أصله بالشام.. وأعلم الناس به هناك..

فلم يزل عندهم.. حتى غابت الشمس..

فلما رجع إليه.. قال أبوه: أي بني أين كنت؟

قال: إني مررت على ناس يصلون في كنيسة لهم.. فأعجبني ما رأيت من أمرهم وصلاتهم.. ورأيت أن دينهم خير من ديننا..

ففزع أبوه.. وقال: أي بني.. دينك ودين آبائك خير من دينهم..

قال: كلا والله.. بل دينهم خير من ديننا..

فخاف أبوه أن يخرج من دين المجوس.. فجعل في رجله قيداً.. ثم حبسه في البيت..

فلما رأى سلمان ذلك.. بعث إلى النصارى رسولاً من عنده.. يقول لهم: إني قد رضيت دينكم ورغبت فيه.. فإذا قدم عليكم ركب من الشام من النصارى.. فأخبروني بهم..

فما مضى زمن حتى قدم عليهم ركب من الشام.. تجار من النصارى.. فبعثوا إلى سلمان فأخبروه..

فقال للرسول: إذا قضى التجار حاجاتهم وأرادوا الرجوع إلى الشام فآذنوني..

فلما أراد التجار الرجوع أرسلوا إليه.. وواعدوه في مكان.. فتحيل حتى فك القيد من قدميه.. ثم خرج إليهم فانطلق معهم إلى الشام..

فلما دخل الشام.. سألهم: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟

قالوا: الأسقف الذي في الكنيسة..

فتوجه إلى الكنيسة.. فأخبر الأسقف خبره.. وقال له: إني قد رغبت في هذا الدين.. وأحب أن أكون معك.. أخدمك.. وأصلي معك.. وأتعلم منك..

فقال له الأسقف: أقم معي.. فمكث معه سلمان في الكنيسة..

فكان سلمان يحرص على الخيرات.. والتعبد والصلوات..

أما الأسقف فكان رجل سوء في دينه.. كان يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها..

فإذا جمعوا إليه الأموال.. اكتنزها لنفسه.. ولم يعطها المساكين..

فأبغضه سلمان بغضاً شديداً.. لكنه لا يستطيع أن يخبر أحداً بخبره.. فالأسقف معظم عندهم.. أما هو فغريب.. قريب العهد بدينهم..

فلم يلبث الأسقف أن مات..

فحزن عليه قومه.. واجتمعوا ليدفنوه..

فلما رأى سلمان حزنهم عليه قال: إن هذا كان رجل سوء.. يأمركم بالصدقة.. ويرغبكم فيها.. فإذا جئتموه بها.. اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً..

قالوا: فما علامة ذلك؟ قال: أنا أدلكم على كنزه.. فمضى بهم حتى دلهم على موضع المال.. فحفروه.. فأخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبًا وفضة..

فقالوا: والله لا ندفنه أبدًا.. ثم صلبوه على خشبة.. ورجموه بالحجارة..

وجاءوا برجل آخر.. فجعلوه مكانه في الكنيسة..

قال سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس.. كان خيرًا منه.. أعظم رغبة في الآخرة.. ولا أزهد في الدنيا.. ولا أدأب ليلاً ولا نهارًا منه.. فأحببته حبًّا ما علمت أني أحببته شيئًا كان قبله.. فلم يزل سلمان يخدمه.. حتى كبر وحضرته الوفاة..

فحزن على فراقه.. وخاف أن لا يثبت على الدين بعده.. فقال له:

يا فلان.. قد حضرك ما ترى من أمر الله.. فإلى من توصي بي؟

قال: أي بني.. والله ما أعلم أحدًا على ما كنت عليه.. لقد هلك الناس وبدلوا.. وتركوا كثيرًا مما كانوا عليه.. إلا رجلاً بالموصل وهو فلان.. وهو على ما كنت عليه فالحق به..

فلما توفي الرجل العابد.. خرج سلمان من الشام إلى العراق.. فأتى صاحب الموصل.. فأقام عنده.. حتى حضرته الوفاة.. فأوصى سلمان لرجل بنصيبين.. فشد رحاله إلى الشام مرة أخرى..

حتى أتى نصيبين.. فأقام عند صاحبه طويلاً.. حتى نزل به الموت.. فأوصاه أن يصاحب رجلاً بعمورية بالشام.. فذهب إلى عمورية..

وأقام عند صاحبه.. واكتسب حتى كانت عنده بقرات وغنيمة.. ثم لم يلبث العابد أن مرض ونزل به الموت.. فحزن سلمان عليه.. وقال له مودعًا:

يا فلان إلى من توصي بي؟ فقال الرجل الصالح:

يا سلمان.. والله ما أعلم أصبح على مثل ما نحن فيه أحد من الناس آمرك أن تأتيه.. يعني لقد غير الناس وبدلوا، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث بدين إبراهيم الحنيفية.. يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرض بين حرتين (أي: أرضين سوداوين) بينهما نخل.. به علامات لا تخفى:

إنه يأكل الهدية.. ولا يأكل الصدقة.. بين كتفيه خاتم النبوة، إذا رأيته عرفته.. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم مات ودفن فمكث سلمان بعمورية ما شاء الله أن يمكث.. وهو يلتمس من يخرج به إلى أرض النبوة.. فما زال كذلك.. حتى مر به نفر من قبيلة كلب.. تجار.. فسألهم عن بلادهم.. فأخبروه أنهم من أرض العرب..

فقال لهم: تحملوني إلى أرضكم.. وأعطيكم بقراتي وغنيمتي؟

قالوا: نعم.. فأعطاهم إياها.. وحملوه معهم..

حتى إذا قدموا به وادي القرى.. طمعوا في المال.. فظلموه وادعوا أنه عبد مملوك لهم.. وباعوه لرجل من اليهود.. فلم يستطع سلمان أن يدفع عن نفسه..

فصار عند هذا اليهودي يخدمه.. حتى قدم على اليهودي يومًا ابن عم له من المدينة من يهود بني قريظة.. فاشترى سلمان منه..

فاحتمله إلى المدينة.. فلما رآها.. ورأى نخلها.. وحجارتها.. عرف أنها أرض النبوة التي وصفها له صاحبه.. فأقام بها.. وأخذ يترقب أخبار النبي المرسل.. ومرت السنوات..

وبعث الله رسوله عليه السلام فأقام بمكة ما أقام.. وسلمان لا يسمع له بذكر؛ لشدة ما هو فيه من الخدمة عند اليهودي..

ثم هاجر ﷺ إلى المدينة ومكث بها.. وسلمان لا يدري عنه شيئًا.. فبينما هو يومًا في رأس نخلة لسيده.. يعمل فيها.. وسيده جالس أسفل النخلة..

إذ أقبل رجل يهودي من بني عمه.. حتى وقف عليه.. فقال:

أي فلان.. قاتل الله بني قيلة.. يعني الأوس والخزرج.. إنهم الآن لمجتمعون على رجل بقباء.. قدم من مكة يزعمون أنه نبي.. فلما سمع سلمان ذلك.. انتفض جسده.. وطار فؤاده.. ورجفت النخلة.. حتى كاد أن يسقط على صاحبه.. ثم نزل سريعًا وهو يصيح بالرجل: ماذا تقول؟ ما هذا الخبر؟

فغضب سيده.. ورفع يده فلطمه بها لطمة شديدة.. ثم قال:

ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك.. فسكت سلمان.. وصعد نخلته يكمل عمله..

وقلبه مشغول بخبر النبوة.. ويريد أن يتيقن من صفات هذا النبي.. التي وصفها صاحبه.. يأكل الهدية.. ولا يأكل الصدقة.. وبين كتفيه خاتم النبوة..

فلما أقبل الليل.. جمع ما كان عنده من طعام.. ثم خرج حتى جاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس بقباء فدخل عليه.. فإذا حوله نفر من أصحابه.. فقال: إنه بلغني أنكم أهل حاجة وغربة.. وقد كان عندي شيء وضعته للصدقة.. فجئتكم به.. ثم وضعه سلمان بين يدي النبي عليه السلام.. واعتزل ناحية ينظر إليه ماذا يفعل؟

فنظر النبي ﷺ إلى الطعام.. ثم التفت إلى أصحابه.. فقال: «كلوا»..

وأمسك هو ﷺ فلم يأكل..

فلما رأى سلمان ذلك قال في نفسه: هذه والله واحدة.. لا يأكل الصدقة.. وبقي اثنتان.. ثم رجع إلى سيده..

وبعدها بأيام.. جمع طعامًا آخر.. ثم أقبل على رسول الله ﷺ فسلم عليه.. ثم قال له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة.. وهذه هدية أهديتها كرامة لك.. ليست بصدقة.. ثم وضعها بين يديه ﷺ.. فمد يده إليها.. فأكل وأكل أصحابه..

فلما رأى سلمان ذلك قال في نفسه: هذه أخرى..

وبقي واحدة.. أن ينظر إلى خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ.. ولكن أنى له ذلك؟

رجع سلمان إلى خدمة سيده.. وقلبه مشغول بحال رسول الله ﷺ.. فمكث أيامًا.. ثم مضى إلى رسول الله ﷺ يبحث عنه.. فإذا هو في بقيع الغرقد.. قد تبع جنازة رجل من الأنصار.. فجاءه فإذا حوله أصحابه.. وعليه شملتان مؤتزرًا بواحدة.. مرتديًا بالأخرى.. كلباس الإحرام..

فسلم عليه.. ثم استدار ينظر إلى ظهره.. هل يرى الخاتم الذي وصف له صاحبه!

فلما رأى النبي ﷺ استدارته عرف أنه يستثبت في شيء وصف له..

فحرك كتفيه.. فألقى رداءه عن ظهره.. فنظر سلمان إلى الخاتم.. فعرفه.. فانكب عليه يقبله ويبكي..

فقال له النبي ﷺ: «تحول».. أي: اجلس أمامي.. فاستدار حتى قابل وجه النبي ﷺ.. فسأله ﷺ عن خبره.. فقص عليه قصته.. وأخبره أنه كان شابًا مترفًا.. ترك العز والسلطان.. طلبًا للهداية والإيمان.. حتى تنقل بين الرهبان.. يخدمهم ويتعلم منهم.. واستقر به المقام عبدًا مملوكًا ليهودي في المدينة..

ثم أخذ سلمان ينظر إلى رسول الله ﷺ.. ودموعه تجري على خديه.. فرحًا وبشرًا.. ثم أسلم.. ونطق الشهادتين.. ومضى إلى سيده اليهودي.. فزاده اليهودي شغلاً وخدمة..

فكان الصحابة يجالسون النبي ﷺ.. أما هو فقد شغله الرق.. عن مجالسته.. حتى فاتته معركة بدر ثم أحد..

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال له: كاتب يا سلمان ـ أي: اشتر نفسك من سيدك بما تؤديه إليه ـ.. فسأل سلمان صاحبه أن يكاتبه.. فشدد عليه اليهودي.. وأبى عليه إلا بأربعين أوقية من فضة.. وثلاثمائة نخلة.. يجمعها فسائل صغار.. ثم يغرسها.. واشترط عليه أن تحيا كلها..

فلما أخبر سلمان رسول الله ﷺ بما اشترط عليه اليهودي.. قال ﷺ لأصحابه: «أعينوا أخاكم بالنخل»..

فأعانه المسلمون.. وجعل الرجل يمضي إلى بستانه فيأتيه بما يستطيع من فسيلة نخل.. فلما جمع النخل..

قال ﷺ: «يا سلمان.. اذهب ففقر لها ـ أي: احفر لها ـ لغرسها.. فإذا أنت أردت أن تضعها فلا تضعها حتى تأتيني فتؤذنني».. فبدأ سلمان يحفر لها.. وأعانه أصحابه.. حتى حفر ثلاثمائة حفرة..

ثم جاء فأخبر النبي ﷺ.. فخرج ﷺ معه إليها.. فجعل الصحابة يقربون له فسيلة النخل.. ويضعه ﷺ بيده في الحفر..

قال سلمان: فوالذي نفس سلمان بيده.. ما ماتت منها نخلة واحدة.. فلما أدى النخل إلى اليهودي.. بقي عليه المال..

فأتي النبي ﷺ يومًا بذهب من بعض المغازي.. فالتفت إلى أصحابه وقال: «ما فعل

الفارسي المكاتب».. فدعوه له.. فقال ﷺ: «خذ هذه فأد بها ما عليك يا سلمان»..

فأخذها سلمان.. فأدى منها المال إلى اليهودي.. وعتق.. ثم لازم النبي ﷺ حتى مات..

مفتاح الشر..

قال لي: كان لي صديق حميم في مكانة الأخ.. مات الأسبوع الماضي فجأة في حادث سير.. أسأل الله أن يرحمه ويتجاوز عنه..

المشكلة.. أن هذا الصديق له خبرة في الإنترنت.. وكان متعلقاً باكتشاف المواقع الإباحية.. وجمع الصور الخليعة..

حتى إنه صمم موقعًا إباحيًا يحتوي على صور خليعة..

بل لديه مجموعة أشخاص.. مسجلن في الموقع.. يرسل إلى بريدهم كل فترة ما يستجد لديه من صور.. إباحية.. يرسلها الموقع إليهم آليًا..

ومات الرجل فجأة.. والمصيبة أننا لا نعرف الرمز السري للموقع للتصرف فيه أو إغلاقه.. كنت أفكر في ذلك.. وأنا أنتظر الصلاة عليه في المسجد..

مشيت في جنازته.. وهو محمول على النعش..

كنت أفكر.. ماذا سيستقبله في قبره.. صور خليعة؟!..

حسبنا الله ونعم الوكيل!

وصلنا إلى المقبرة.. قبور موحشة.. الناس يتزاحمون على القبر.. نظرت داخل قبره.. آه.. كيف سيكون حاله فيه..

رأيت بعض الناس يبكي.. قلت في نفسي: هل سينفعه بكاؤهم!

دفناه.. ثم ذهبنا وتركناه..

والدته رأت في المنام صبية يمرون على قبره ويتبولون فوقه..

كانت تتساءل عن تعبيرها.. المسكينة لا تدري عن خفايا الأمور!

سمعت عن هذه الرؤيا.. فقلت في نفسي.. ما تحتاج إلى تعبير.. معناها واضح..

هؤلاء الصبية الذين يتبولون على قبره.. هم الذين أرسل إليهم الصور.. وبدءوا هم بإرسالها لمن يعرفون.. يا للهول.. كيف سيتحمل آثام هؤلاء!

(من دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا).. حاولت جاهدًا.. أن أحسن إليه..

خاطبت الشركة الكبرى المستضيفة للموقع ليوقفوا الاشتراك..

فاعتذروا عن عمل أي شيء.. بل لم يصدقوني.. لأني لا أعرف أرقامه السرية التي حجز بها الموقع.. صرخت بهم.. يا جماعة.. الرجل مات.. لم يلتفتوا إلي..

جلست أتفكر في حاله.. كم صرخت به:

كيف يتحمل ذنوب الناس.. كيف تكون مفتاحًا للشر.. كيف تحمل أوزارهم في القيامة على كتفيك..

لكنه لم يكن يتأثر بكلامي.. كان يرى أنه شاب ويريد أن (يفرفش).. وهذه أمور للتسلية فقط..

أعوذ بالله.. كم من شاب نظر نظرة إلى صورة فتبع ذلك وقوع في فاحشة.. وكم من فتاة وقعت في ذلك كذلك..

الرجل مات.. لكنه سيسأل يوم القيامة عن كل نظرة نظرها.. ونظروها.. وكل فاحشة واقعها.. وواقعوها.. وصورة نشرها.. ونشروها..

لا أدري كم سيستمر يتحمل آثامهم.. ولكن عسى الله أن يتجاوز عنه..

وحسبي الله ونعم الوكيل..

السماء لا تمطر..!

بنو إسرائيل.. أصابهم قحط على عهد موسى عليه السلام.. فاجتمع الناس إليه..

فقالوا: يا كليم الله.. ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث..

فقام معهم.. وخرجوا إلى الصحراء.. وهم سبعون ألفًا أو يزيدون..

اجتمعوا بين يديه.. وقاموا يدعون.. وهم شعث غبر.. عطاش جوعى..

وقام كليم الله يدعو: إلهي.. اسقنا غيثك.. وانشر علينا رحمتك.. وارحمنا بالأطفال الرضع.. والبهائم الرتع.. والمشايخ الركع..

فما زادت السماء إلا تقشعًا.. والشمس إلا حرارة..

فقال موسى: إلهي.. اسقنا..

فقال الله: «كيف أسقيكم؟ وفيكم عبد يبارزني بالمعاصي منذ أربعين سنة»..

فناد في الناس حتى يخرج من بين أظهركم.. فبه منعتكم..

فصاح موسى في قومه: يا أيها العبد العاصي.. الذي يبارز الله منذ أربعين سنة.. اخرج من بين أظهرنا.. فبك منعنا المطر..

فنظر العبد العاصي.. ذات اليمين وذات الشمال.. فلم ير أحدًا خرج.. فعلم أنه المطلوب.. فقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هذا الخلق.. افتضحت على رءوس بني إسرائيل.. وإن قعدت معهم منعوا المطر بسببي.. فانكسرت نفسه.. ودمعت عينه.. فأدخل رأسه في ثيابه.. نادمًا على فعاله.. وقال: إلهي.. وسيدي.. عصيتك أربعين سنة.. وسترتني وأمهلتني.. وقد أتيتك طائعًا فاقبلني.. وأخذ يبتهل إلى خالقه..

فلم يستتم الكلام.. حتى ارتفعت سحابة بيضاء.. فأمطرت كأفواه القرب..

فعجب موسى وقال: إلهي.. سقيتنا.. وما خرج من بين أظهرنا أحد..

فقال الله: «يا موسى سقيتكم بالذي به منعتكم»..

فقال موسى: إلهي.. أرني هذا العبد الطائع..

فقال: «يا موسى، إني لم أفضحه وهو يعصيني.. أأفضحه وهو يطيعني»..

الفراق..

بدأ الإسلام ينتشر في مكة.. فبدأ الناس يترددون في اتباعه.. وكان من بينهم أم سلمة رضي الله عنها.. نظرت في هذا الدين فإذا هو يأمرها بترك عبادة الأصنام.. وعبادة الواحد العلام.. فأسلمت هي وزوجها.. فاشتد عليهما أذى قريش.. فهاجرا إلى الحبشة.. ثم عادا إلى مكة بعد زمان..

فعادت قريش لإيذائهم.. فأخذ أبو سلمة زوجته وولده.. وخرج بهم إلى المدينة مهاجرًا.. أركبها على بعير.. ووضع الغلام في حجرها.. ومضى خارجًا من مكة..

فلما كان في بعض الطريق.. رآه رجال من بني مخزوم وهم قبيلة أم سلمة..

فقالوا: هذه نفسك قد غلبتنا عليها.. أرأيت ابنتنا هذه! علام نتركك تسير بها في البلاد؟

ثم تزاحموا عليه.. فنزعوا خطام البعير من يده.. وأخذوها يقودونها.. وهو ينظر إلى زوجته وولده.. لا يملك لهما شيئًا..

فصار المسكين يتلفت يمنة ويسرة.. يبحث عن معين..

فمر به رجال من قبيلته.. فلما رأوه مغلوبًا.. أقبلوا إلى أم سلمة ليأخذوها.. فأبى قومها.. فأقبل قوم أبي سلمة على الغلام الصغير وانتزعوه من يد أمه وهم يقولون.. لا والله.. لا نترك ابننا عندها..

فصاحت أم سلمة.. فأقبل قومها على الغلام ليأخذوه.. وأولئك يمسكون به.. حتى جعلوا يتجاذبون الصغير بينهم.. وهو يصرخ باكيًا.. وقلبها يتقطع عليه.. حتى خلعوا يده.. وانطلق به قوم أبي سلمة..

ومضى قوم أم سلمة بأم سلمة.. كسيرة خزينة.. فحبسوها عندهم.. وانطلق قوم أبي سلمة بالغلام إلى ديارهم..

ومضى أبو سلمة مهاجرًا إلى المدينة.. ففرقوا بينها وبين زوجها وبين ولدها..

فكانت المسكينة تخرج في كل صباح.. فتجلس على الرمال.. فتفكر في زوجها وولدها.. فلا تزال تبكي حتى تمسي..

ومضى عليها على هذا الحال.. شهر.. وشهران.. وعشرة.. وقلبها يحن إلى ولدها.. وفكرها مشغول على زوجها.. حتى أتمت سنة كاملة.. وهي في بحر من الدموع..

حتى مر بها رجل من بني عمها.. فرآها باكية شاحبة.. فرحمها.. فقال لقومها: ألا تخرجون هذه المسكينة.. فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها..

فقال قومها: الحقي بزوجك إن شئت..

فاستبشرت.. وجمعت متاعها.. وركبت بعيرها وحدها..

فعلم قوم أبي سلمة بخروجها.. فردوا عليها ولدها..

فوضعت ولدها في حجرها.. ومضت جهة المدينة..

حتى إذا كانت في بعض الطريق.. لقيها عثمان بن أبي طلحة..

فتعجب من سفرها وحدها.. فسألها: إلى أين يا بنت أمية؟

فقلت: أريد زوجي بالمدينة.. قال: أو معك أحد؟

قلت: لا.. ما معي إلا الله.. ومعي ابني هذا..

قال: والله ما لك من مترك.. فأخذ بخطام البعير.. فانطلق معها بي..

قالت أم سلمة: فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط.. أرى أنه كان أكرم منه..

كان إذا بلغ المنزل أناخ بي.. ثم استأخر عني.. حتى إذا نزلت استأخر ببعيري..

فحط عنه.. ثم قيده في الشجرة.. ثم تنحى عني إلى شجرة.. فاضطجع تحتها..

فإذا دنا وقت المسير.. قام إلى بعيري فقدمه فرحله.. ثم استأخر عني..

وقال: اركبي.. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه.. فقاده..

حتى ينزل بي.. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة.. فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء..

قال: زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله.. ثم انصرف راجعًا إلى مكة..

ثم أسلم عثمان بن أبي طلحة بعد ذلك..

الطفيل بن عمرو..

كان سيدًا مطاعًا في قبيلته دوس.. قدم مكة يومًا في حاجة.. فلما دخلها.. رآه أشراف قريش.. فأقبلوا عليه..

قالوا له: من أنت؟ قال: أنا الطفيل بن عمرو.. سيد دوس..

فنظر بعضهم إلى بعض.. وخافوا أن يراه النبي عليه الصلاة والسلام فيدعوه إلى

الإسلام.. فإن أسلم هذا السيد.. قوي به الإسلام..

فاجتمعوا عليه وقال له أحدهم: إن ههنا رجلاً في مكة يزعم أنه نبي.. فاحذر أن تجلس معه أو تسمع كلامه.. فإنه ساحر.. إن استمعت إليه ذهب بعقلك.. ثم قال له الآخر مثل ذلك.. وزاد الثالث عليهما.. وأكثروا الكلام..

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي يخوفونني منه.. حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئًا.. ولا أكلمه.. بل حشوت في أذني كرسفًا ـ وهو القطن ـ خوفًا من أن يبلغني شيء من قوله.. وأنا مار به..

فغدوت إلى المسجد.. فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة.. فقمت منه قريبًا.. فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله.. فسمعت كلامًا حسنًا..

فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب.. ما يخفى علي الحسن من القبيح.. فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول.. فإن كان الذي به حسنًا قبلته.. وإن كان قبيحًا تركته.. فمكثت حتى قضى صلاته.. فلما قام منصرفًا إلى بيته تبعته..

حتى إذا دخل بيته دخلت عليه.. فقلت: يا محمد.. إن قومك قالوا لي كذا وكذا.. ووالله ما برحوا يخوفونني منك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك.. وقد سمعت منك قولاً حسنًا.. فاعرض علي أمرك..

فابتهج النبي عليه الصلاة والسلام.. وفرح.. وعرض الإسلام على الطفيل.. وتلا عليه القرآن.. فتفكر الطفيل في حاله.. فإذا كل يوم يعيشه يزيده من الله بعدًا.. وإذا هو يعبد حجرًا.. لا يسمع دعاءه إذا دعاه.. ولا يجيب نداءه إذا ناده..

وهذا الحق قد تبين له.. ثم بدأ الطفيل يتفكر في عاقبة إسلامه.. كيف يغير دينه ودين آبائه!.. ماذا سيقول الناس عنه؟!

حياته التي عاشها.. أمواله التي جمعها.. أهله.. ولده.. جيرانه.. خلانه..

كل هذا سيضطرب..

سكت الطفيل.. يفكر.. يوازن بين دنياه وأخراه..

وفجأة إذا به يضرب بدنياه عُرض الحائط..

نعم سوف يستقيم على الدين.. وليرض من يرضى.. وليسخط من يسخط..

وماذا يكون أهل الأرض.. إذا رضي أهل السماء..

ماله ورزقه بيد من في السماء.. صحته وسقمه بيد من في السماء..

منصبه وجاهه بيد من في السماء.. بل حياته وموته بيد من في السماء..

فإذا رضي أهل السماء.. فلا عليه ما فاته من الدنيا.. إذا أحبه الله.. فليبغضه بعدها من شاء.. وليتنكر له من شاء.. وليستهزئ به من شاء..

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين   وكل الذي فوق التراب تراب

نعم.. أسلم الطفيل في مكانه.. وشهد شهادة الحق.. ثم ارتفعت همته.. وثارت عزيمته.. فقال: يا نبي الله.. إني امرؤ مطاع في قومي.. وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام..

ثم خرج الطفيل من مكة.. مسرعًا إلى قومه.. حاملاً هم هذا الدين.. يصعد به جبل.. وينزل به واد.. حتى وصل إلى ديار قومه.. فلما دخلها.. أقبل إليه أبوه.. وكان شيخًا كبيرًا..

فقال الطفيل: إليك عني يا أبت.. فلست منك ولست مني..

قال: ولم يا بني؟ قال: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ..

قال: ديني هو دينك..

قال: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك.. ثم ائتني حتى أعلمك مما علمت..

فذهب أبوه واغتسل وطهر ثيابه.. ثم جاء فعرض عليه الإسلام فأسلم.. ثم مشى الطفيل إلى بيته.. فأقبلت إليه زوجته..

فقال: إليك عني.. فلست منك ولست مني.. قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي..

قال: فرق بين وبينك الإسلام.. وتابعت دين محمد ﷺ.. قالت: فديني دينك..

قال: فاذهبي فتطهري.. ثم ارجعي إلي.. فولته ظهرها ذاهبة..

وكان لهم صنم اسمه ذو الشرى.. يعظمونه ويرون أن من ترك عبادته أصابه الصنم

بعقوبة.. فخافت المسكينة إن أسلمت أن يضرها أو يضر أولادها..

فرجعت إليه وقالت: بأبي أنت وأمي.. أما تخشى على الصبية من ذي الشرى..؟

وذو الشرى صنم عندهم يعبدونه.. وكانوا يرون أن من ترك عبادته أصابه أو أصاب ولده بأذى.. فقال الطفيل: اذهبي.. أنا ضامن لك أن لا يضرهم ذو الشرى.. فذهبت فاغتسلت.. ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت.. ثم جعل الطفيل يطوف في قومه.. يدعوهم إلى الإسلام بيتًا بيتًا.. ويقبل عليهم في نواديهم.. ويقف عليهم في طرقاتهم.. لكنهم أبوا إلا عبادة الأصنام..

فغضب الطفيل.. وذهب إلى مكة.. فأقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن دوسًا قد عصت وأبت.. يا رسول الله.. فادع الله عليهم.. فتغير وجه النبي عليه الصلاة والسلام.. ورفع يديه إلى السماء..

فقال الطفيل في نفسه: هلكت دوس..

فإذا بالرحيم الشفيق ﷺ.. يقول: «اللهم اهد دوسًا.. اللهم اهد دوسًا»..

ثم التفت إلى الطفيل وقال: ارجع إلى قومك.. فادعهم.. وارفق بهم.. فرجع إليهم.. فلم يزل بهم.. حتى أسلموا..

ومرت الأيام.. ومات النبي عليه الصلاة والسلام.. فخرج الطفيل مع ولده والمسلمين لقتال مسليمة الكذاب في اليمامة..

فرأى في منامه رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة أن رأسه حلق.. وأنه خرج من فمه طائر.. وأنه لقيته امرأة فأدخلته فيها.. وأري ابنه يطلبه طلبًا حثيثًا ثم رأيته حبس عنه.. فلما أصبح أخبر أصحابه بالرؤيا.. وقال فإني قد عبرتها: قالوا: بم؟

قال: أما حلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج منه فروحي، وأما المرأة التي ادخلتني فيها فالأرض تحفر لي فأغيب فيها.. وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عني فإني أراه سيجتهد أن يصيبه من الشهادة ما أصابني..

فقتل رضي الله عنه شهيدًا باليمامة.. وجرح ابنه جراحة شديدة.. لكنه نجا من الموت..

ثم استشهد في معركة اليرموك زمن عمر رضي الله عنه..

يرى مقعده في الجنة!

شاب بلغ من عمره ستة عشر عامًا.. كان في المسجد يتلو القرآن.. وينتظر إقامة صلاة الفجر.. فلما أقيمت الصلاة.. رد المصحف إلى مكانه.. ثم نهض ليقف في الصف..

فإذا به يقع على الأرض فجأة مغمى عليه.. حمله بعض المصلين إلى المستشفى..

فحدثني الدكتور الذي عاين حالته.. قال: أتي إلينا بهذا الشاب محمولاً كالجنازة.. فلما كشفت عليه إذا هو مصاب بجلطة في القلب.. لو أصيب بها جمل لأردته ميتًا..

نظرت إلى الشاب فإذا هو يصارع الموت.. ويودع أنفاس الحياة.. سارعنا إلى نجدته وتنشيط قلبه.. أوقفت عنده طبيب الإسعاف يراقب حالته.. وذهبت لإحضار بعض الأجهزة لمعالجته..

فلما أقبلت إليه مسرعًا.. إذا الشاب متعلق بيد طبيب الإسعاف.. والطبيب قد ألصق أذنه بفم الشاب.. والشاب يهمس في أذنه بكلمات.. فوقفت أنظر إليهما.. لحظات..

وفجأة أطلق الشاب يد الطبيب.. وحاول جاهدًا أن يلتفت لجانبه الأيمن..

ثم قال بلسان ثقيل: أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. وأخذ يكررها.. ونبضه يتلاشى.. وضربات القلب تختفي.. ونحن نحاول إنقاذه.. ولكن قضاء الله كان أقوى.. ومات الشاب..

عندها انفجر طبيب الإسعاف باكيًا.. حتى لم يستطع الوقوف على قدميه.. فعجبنا وقلنا له: يا فلان!.. ما لك تبكي!.. ليست هذه أول مرة ترى فيها ميتًا..

لكن الطبيب استمر في بكائه ونحيبه.. فلما خف عنه البكاء.. سألناه: ماذا كان يقول لك الفتى؟

فقال: لما رآك يا دكتور.. تذهب وتجيء.. وتأمر وتنهى.. علم أنك الطبيب المختص به.. فقال لي: يا دكتور.. قل لصاحبك طبيب القلب.. لا يتعب نفسه.. لا يتعب.. أنا ميت لا محالة.. والله إني أرى مقعدي من الجنة الآن..

على فراش الموت..

كتبت إلي: ما من يوم يمر علي إلا وأبكي.. كل يوم يمر أفكر فيه بالانتحار مرات..

لم تعد حياتي تهمني قط.. أتمنى الموت كل ساعة..

ليتني لم أولد ولم أعرف هذه الدنيا..

بدايتي كانت مع واحدة من صديقاتي القليلات.. دعتني ذات يوم إلى بيتها.. وكانت من الذين يستخدمون الإنترنت كثيرًا.. وقد أثارت في الرغبة لمعرفة هذا العالم..

لقد علمتني كيف يستخدم.. وكل شيء تقريبًا على مدار شهرين.. حيث بدأت أزورها كثيرًا.. تعلمت منها (الشات) بكل أشكاله.. تعلمت منها كيفية التصفح.. وبحث المواقع الجيدة والرديئة..

في خلال هذين الشهرين كنت في عراك مع زوجي كي يدخل الإنترنت في البيت.. وكان ضد تلك المسألة.. حتى أقنعته بأني أشعر بالملل الشديد.. ونحن نسكن بعيدًا عن أهلي.. تحججت بأن كل صديقاتي يستخدمن الإنترنت.. فلم لا أستخدمه وأحادثهن من خلاله فهو أرخص من فاتورة الهاتف على أقل تقدير.. وافق زوجي.. ويا ليته لم يفعل.. أصبحت بشكل يومي أحادث صديقاتي..

بعدها أصبح زوجي لا يسمع مني أي شكوى أو مطالب.. أعترف بأنه ارتاح كثيرًا من إزعاجي وشكواي.. كان كلما خرج من البيت أقبلت كالمجنونة على الإنترنت بشغف شديد.. أجلس أقضي الساعات الطوال..

بدأت أتمنى غيابه كثيرًا.. وقد كنت أشتاق إليه حتى بعد خروجه بقليل..

أنا أحب زوجي بكل ما تعني هذه الكلمة.. وهو لم يقصر معي..

مع أن حالته المادية ليست بالجيدة مقارنة بأخواتي وصديقاتي.. إلا أنه كان بدون مبالغة يبذل لإسعادي بأي طريقة..

ومع مرور الأيام.. وجدت الإنترنت يسعدني أكثر فأكثر.. أصبحت لا أهتم حتى بالسفر إلى أهلي.. وقد كنا كل أسبوعين نسافر لنرى أهلي وأهله..

كان كلما دخل البيت فجأة ارتبكت فأطفئ كل شيء عندي بشكل جعله يستغرب فعلي.. لم يكن عنده شك.. بل كان يريد أن يرى ماذا أفعل في الإنترنت..

ربما كان لديه فضول.. أو هي الغيرة.. حيث قد رأى يومًا محادثة صوتية لم أستطع إخفاءها.. بعدها كان يعاتبني ويقول: الإنترنت مجال واسع للمعرفة.. وليس مضيعة وقت..

مرت الأيام وأنا أزداد بالشات فتنة.. تركت مسألة تربية الأبناء للخادمة.. كنت أعرف متى يعود.. فأطفئ الجهاز قبل مجيئه..

ومع ذلك أهملت نفسي كثيرًا.. كنت في السابق أكون في أحسن شكل.. وأجمل زينة عند عودته من العمل.. وبعد الإنترنت بدأ هذا يتلاشى حتى اختفى كليًّا..

كنت مشغوفة بالإنترنت.. لدرجت أني أذهب خلسة بعد نومه.. وأرجع خلسة قبل أن يصحو من النوم..

ربما أدرك لاحقًا أن كل ما أفعله في الإنترنت هي مضيعة وقت ولكن كان يشفق علي من الوحدة وبعد الأهل وقد استغللت هذا أحسن استغلال..

كان منزعجًا لإهمالي الأولاد.. وبخني كثيرًا.. وكنت أتظاهر بالبكاء.. وأقول أنت لا تعرف ماذا يدور في البيت في غيبتك.. فأنا مهتمة بهم حريصة عليهم.. لكنهم يتعبونني..

باختصار أهملت كل شيء.. حتى زوجي.. كنت أهاتفه عشرات المرات وهو خارج البيت فقد أريد سماع صوته.. والآن وبعد الإنترنت أصبح لا يسمع صوتي قط إلا في حالة احتياج البيت لبعض الطلبات النادرة..

تولدت لدى زوجي غيرة كبيرة من الإنترنت..

مر علي ستة أشهر على هذا الحال.. بنيت علاقات مع أسماء مستعارة لا أعرف إن كانت لرجل أم أنثى..

كنت أحاور كل من يحاورني عبر الشات.. حتى وأنا أعرف أن الذي يحاورني رجل..

إلا أن شخصًا واحدًا هو الذي أقبلت عليه بشكل كبير..

أحببت حديثه ونكته.. كان مسليًا.. بدأت العلاقة بيننا تقوى مع الأيام..

تكونت هذه العلاقة اليومية في خلال ٣ أشهر تقريبًا.. كان يغمرني بكلامه المعسول.. وكلمات الحب والشوق..

ربما لم تكن كلماته جميلة إلى هذه الدرجة.. ولكن الشيطان جملها بعيني كثيرًا.. كانت محادثاتنا كلها كتابة.. عبر (الشات)..

في يوم من الأيام طلب سماع صوتي.. فرفضت.. أصر على طلبه.. هددني بتركي وأن يتجاهلني في التشات والإيميل..

حاولت كثيرًا مقاومة هذا الطلب ولم أستطع.. لا أدري لماذا؟

حتى قبلت مع بعض الشروط.. أن تكون مكالمة واحدة فقط..

استخدمنا برنامجًا للمحادثة الصوتية.. رغم أن البرنامج ليس بالجيد.. ولكن كان صوته جميلاً جدًا وكلامه عذب جدًا..

قال لي: صوتك غير واضح عبر الإنترنت.. أعطيني رقم هاتفك..

رفضت ذلك.. تعجبت من جرأته.. لم أجرؤ على مكالمته لمدة طويلة.. كنت أعلم والله أن الشيطان الرجيم كان يلازمني ويحسن صوته في نفسي ويصارع بقايا العفة والدين وما أملك من أخلاق.. حتى أتى اليوم الذي كلمته من الهاتف..

ومن هنا بدأت حياتي بالانحراف.. لقد انجرفت كثيرًا.. أصبحنا كالجسد الواحد.. نستخدم (الشات) ونحن نتكلم عبر الهاتف..

لن أطيل الكلام.. من يقرأ قصتي يشعر بأن زوجي مهمل في حقي.. أو كثير الغياب عن البيت.. ولكن العكس هو الصحيح.. كان يخرج من عمله ولا يذهب إلى أصدقائه كثيرًا من أجلنا أنا وأولادي..

ومع مرور الأيام وبعد اندماجي بالإنترنت والتي كنت أقضي بها ما يقرب ٨ إلى ١٢ ساعة يوميًا.. أصبحت أكره كثرة تواجده في البيت.. ألومه على هذا كثيرًا..

أشجعه بأن يعمل في المساء حتى نتخلص من الديون المتراكمة والأقساط التي لا تريد أن تنتهي.. وفعلاً أخذ بكلامي.. ودخل شريكًا مع أحد أصدقائه في مشروع صغير..

بعد ذلك.. أصبح الوقت الذي أقضيه في الإنترنت أكثر وأكثر.. رغم انزعاجه كثيرًا من فاتورة الهاتف والتي تصل إلى الآلاف أحيانًا.. إلا أنه لم يقدر على صدي عن هذا قط.. بدأت علاقتي بصاحبي تتطور..

أصبح يطلب رؤيتي بعدما سمع صوتي مرارًا.. بل ربما مل منه.. لم أكن أبالي كثيرًا أو أحاول قطع اتصالي به.. بل كنت فقط أعاتبه على طلبه.. وربما كنت أكثر منه شوقًا إلى رؤيته.. لكني كنت أترفع عن ذلك.. لا لشيء.. سوى أنني خائفة..

أصبح إلحاحه يزداد يومًا بعد يوم.. يريد فقط رؤيتي لا أكثر.. قبلت طلبه بشرط أن تكون أول وآخر مرة نتقابل فيها..

تواعدنا ثم التقينا في أحد الأسواق وكان الشيطان ثالثنا..

في الحقيقة من أول نظرة أعجبني.. بل زينه الشيطان في عيني.. لم يكن زوجي قبيحًا.. لكن الشيطان يزين الحرام..

افترقنا.. بدأ بعدها يقوي علاقته بي.. لم يكن يعرف أني متزوجة.. وأم أولاد..

رآني بعدها مرارًا.. عرف عني كل شيء.. جعلني أكره زوجي..

عرض علي الطلاق من زوجي لأتزوجه.. بدأت أكره زوجي.. بدأت اصطنع معه المشاكل كل يوم ليطلقني.. لم يحتمل زوجي هذه المشاكل التافهة.. وبدأ يكثر الغياب عن البيت.. حتى وقعت الكارثة.. قال زوجي: إنه ذاهب في رحلة عمل لمدة خمسة أيام..

عرض علي أن أذهب مع الأولاد إلي أهلي.. أحسست أن هذا هو الوقت المناسب.. رفضت الذهاب لأهلي..

فوافق مضطرًا وذهب مسافرًا في يوم الجمعة.. وفي يوم الأحد كان الموعد..

اتفقت مع الشيطان أن أقابله في مكان بأحد الأسواق.. ركبت سيارته ثم انطلق يجوب الشوارع..

أول مرة في حياتي أخرج مع رجل غريب.. كان يبدو عليه القلق أكثر مني..

قلت له: لا أريد أن يطول وقت خروجي من البيت.. أخشى أن يتصل زوجي أو يحدث شيء.. قال لي: وإذا عرف زوجك.. ربما يطلقك وترتاحين منه..

لم يعجبني حديثه ونبرة صوته.. بدأ القلق يزداد عندي..

قلت له: يجب أن لا تبتعد كثيرًا.. لا أريد أن أتأخر عن البيت.. بدأ يشغلني بأحاديث جانبية.. وفجأة وإذا أنا في مكان لا أعرفه.. مظلم وهي أشبه باستراحة أو مزرعة..

بدأت أصرخ به ما هذا المكان؟ إلى أين تأخذني؟..

وما هي إلا ثوانٍ معدودات.. وإذا بالسيارة تقف.. ورجل آخر يفتح علي الباب ويخرجني بالقوة.. وثالث داخل الاستراحة.. ورابع رأيته جالسًا.. روائح غريبة تنبعث من المكان.. كان كل شيء ينزل علي كالصاعقة.. صرخت وبكيت واستعطفتهم..

أصبحت من شدة الرعب لا أفهم ما يدور حولي..

شعرت بضربة كف على وجهي.. وصوت يصرخ علي..

فزلزلني زلزالاً فقدت الوعي بعده من شدة الخوف..

وقع ما وقع.. صحوت بعدها من إغمائي.. تملكني رعب شديد.. جسمي يرتعش.. لم أتوقف عن البكاء.. ربطوا عيني.. وحملوني إلى السيارة.. ورموني في مكان قريب من البيت..

دخلت البيت مسرعة.. بقيت أبكي وأبكي حتى جفت دموعي..

أصبحت حبيسة غرفتي.. لم أر أبنائي.. ولم أدخل في فمي لقمة..

كرهت نفسي.. حاولت الانتحار.. أبنائي لم أعد أعرفهم.. أو أشعر بوجودهم..

رجع زوجي من السفر.. كانت حالتي سيئة لدرجة أنه أخذني إلى المستشفى بقوة..

أعطوني مهدئات ومقويات.. طلبت من زوجي أن يأخذني إلى أهلي بأسرع وقت..

كنت أبكي كثيرًا.. وأهلي لا يعلمون شيئًا.. يعتقدون أن هناك مشكلة بيني وبين زوجي.. حاول أبي أن يتفاهم مع زوجي.. ولم يصل معه إلى نتيجة.. لأن زوجي أصلاً لا يعلم شيئًا..

لا أحد يعلم ما الذي حل بي.. حتى إن أهلي عرضوني على بعض القراء.. اعتقادًا منهم بأني مريضة..

باختصار.. أنا لا أستحق زوجي قط.. لذا طلبت منه الطلاق.. إكرامًا له والله.. فأنا لا

أستحق أن أعيش بين الأشراف مطلقًا..

أنا التي حفرت قبري بيدي..وصديق (الشات) لم يكن سوى صائد لفريسة من البنات اللواتي يستخدمن (الشات)..

حزن زوجي لحالي.. بل ترك عمله أيامًا ليكون قريبًا مني.. رفض أن يطلقني.. كان المسكين يحبني.. تعب حتى كون أسرة وبيتًا ولا يريد أن يهدمه..

كتمت سري في صدري.. وكل يوم يمر بي أزداد قهرًا على قهري.. أي ذل أصابني من أولئك الأنذال.. كيف أكون مزبلة لشراب خمر ومتعاطي مخدرات يعبثون بجسدي كما شاءوا.. كم كنت غبية حمقاء.. كيف أمضيت أشهرًا في صرف عواطفي لمن لا يستحقها.. وها أنا أكتب هذه القصة من على فراش المرض والهزال.. بل لعله يكون فراش الموت..

اتخذوه مهجورًا..

قالت: كنت في الحرم المكي.. في قسم النساء.. وإذا بامرأة تطرق على كتفي.. وتردد بلكنة أعجمية: يا حاجة! يا حاجة!..

التفت إليها.. فإذا امرأة متوسطة السن.. غلب على ظني أنها تركية.. سلمت علي.. وقعت في قلبي محبتها! سبحان الله الأرواح جند مجندة.. كانت تريد أن تقول شيئًا.. تحاول استجماع كلماتها..

أشارت إلى المصحف الذي كنت أحمله.. ثم قالت بعربية مكسرة:

أنت تقرأ في قرآن..؟! قلت: نعم!.. وإذا بالمرأة يحمر وجهها.. وتمتلئ عيناها بالدموع.. قد هالني منظرها.. بدأت في البكاء!

قلت لها: ما بك؟!

قالت بصوت مخنوق وهي تنظر بخجل: أنا ما أقرأ قرآن..

قلت: لماذا؟

قالت: ما أعرف.. ومع انتهاء حرف الفاء.. انفجرت باكية..

ظللت أربط على كتفيها وأهدئ من روعها..

قلت: أنت الآن في بيت الله.. اسأليه أن يعلمك.. وأن يعينك على قراءة القرآن..

كفكفت دموعها..

وفي مشهد لن أنساه ما حييت.. رفعت المرأة يديها تدعو الله قائلة:

اللهم افتح قلبي.. اللهم افتح قلبي أقرأ قرآن.. اللهم افتح قلبي أقرأ قرآن..

ثم التفتت إلي وقالت: أنا أموت وما قرأت قرآن..

قلت لها: لا.. إن شاء الله سوف تقرئينه كاملاً وتختمينه مرات ومرات..

سألتها: هل تقرئين الفاتحة؟ فاستبشرت.. وقالت: نعم..

ثم بدأت ترتل: الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم.. حتى ختمتها.. ثم جلست تعدد صغار السور التي تحفظها..

كنت متعجبة من عربيتها الجيدة إلى حد ما.. وهي تتكلم عن حياتها.. وما تبذله لتتعلم القرآن..

وفجأة تغير وجهها.. وقالت: إذا أنا أموت ما قرأت قرآن.. أنا في نار! أنا والله أسمع شريط.. بس لازم في قراءة!

هذا كلام الله.. كلام الله العظيم! وبدأت المسكينة تدافع عبراتها هي تتكلم عن عظمة الله.. وحق كتابه علينا..

لم أتمالك نفسي من البكاء! امرأة أعجمية.. في بلاد علمانية.. تخشى أن تلقى الله ولم تقرأ كتابه.. منتهى أملها في الحياة أن تختم القرآن..

تبكي.. وتحزن.. وتضيق عليها نفسها؛ لأنها لا تستطيع تلاوة كتاب الله..

فما بالنا قد هجرناه؟ قد أوتيناه فنسيناه؟

ما بالنا والسبل ميسرة لحفظه وتلاوته وفهمه؟

بالله.. على أي شيء تحترق قلوبنا؟ وما الذي يثير مدامعنا ويهيج أحزاننا؟



هل تبحث عن وظيفة

وظائف ربانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد..

نعم.. أكثر الناس يحرصون على الوظائف.. ويتسابقون إليها.. فما يعلن عن وظيفة شاغرة إلا ويتسابق إليها الآلاف..

ولكن هناك وظائف شاغرة.. وظائف ربانية.. عرضها الله تعالى على العالمين.. لا يوفق إليها إلا من أحب..

قال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله قبل موته».. فسأله رجل من القوم ما: استعمله يا رسول الله؟! قال ﷺ: «يوفقه الله ﷻ إلى العمل الصالح قبل موته ثم يقبضه على ذلك»(١)..

ولهذا.. كان الصالحون يتحسرون على فواتها.. وانظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه عن يوم القيامة.. ويخبرهم.. «أن من أمته سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»..

فيعجب الصحابة بهذا الفضل العظيم.. ويقفز عكاشة بن محصن رضي الله عنه.. سريعًا.. يبادر الموقف وينتهز الفرصة قبل أن تفوت..

ويقول: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم.. قال: «أنت منهم».. ويفوز بها عكاشة.. ثم يغلق الباب.. ويقال لمن بعده: «سبقك بها عكاشة».. نعم.. كانوا يعيشون حالة سباق في جميع أبواب الخير..

---

(١) صحيح: رواه الإمام أحمد وغيره.

وأنت ترى نفسك لا تهش إلى مسابقة الأخيار في ميدان العمل الصالح.. فحاسب نفسك.. فلعل ذنوبك هي السبب.. وتذكر أولئك.. الذين كرههم الله فلم يستعملهم في خير قط.. قال الله تعالى عن المنافقين:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[التوبة:٤٦]..

وقد اجتهدت في جمع بعض الوظائف ذات الأجور العظيمة.. ونثرتها في هذه الورقات..

فما كان فيها من صواب فهو من توفيق الله وإحسانه وفضله.. وما كان فيها من خطأ فهو من نفسي والشيطان.. وأنا تائب إلى الله ومستغفر منه.. وقابل للتنبيه والنصح.. وشاكر وداع لمن أشار ونصح..

أسأل الله أن ينفع بها المسلمين والمسلمات.. آمين..

لعلهم يتضرعون..

في مساء ليلة شاتية.. رن جرس الهاتف.. رفعت السماعة فإذا هو صوت عبد الله..

نعم.. عبد الله.. قد تخرج في الكلية العام الماضي، وانقطعت العلاقة بيننا منذ ذلك الحين..

ما إن سمعت صوته، حتى استعادت ذاكرتي ذاك الوجه البهي والجسم الممتلئ شباباً..

حياك الله يا عبد الله.. مرحباً.. كيف حالك.. ما أخبارك.. ما..

قاطعني بصوت ضعيف: تذكرتني يا شيخ؟

نعم.. وكيف أنساك.

لم يتفاعل مع عباراتي، ولم يبد منه تجاوب، لكنه قال بصوت ضعيف: أريدك أن تزورني في البيت.. ضروري.. أنا لا أستطيع زيارتك.. لا تسألني لماذا! إذا جئتني عرفت السبب!

قال هذه العبارات بصوت خافت حزين.. لكنه كان بنبرة جادة.. وصف لي طريق منزله.. طرقت الباب.. فتح لي أخوه الصغير..

أين عبد الله؟

عبد الله.. في المجلس.. تفضل..

مشى الصغير أمامي.. وفتح باب المجلس، فلما دخلت المجلس دهشت.. ماذا أرى! عبد الله على سرير أبيض.. بجانبه عكاز.. وجهاز يلبس في الرجل لأجل المشي.. ومجموعة من الأدوية.. أما هو فجسد ملقى على السرير..

قال لي: مرحبًا.. وقد حاول جاهدًا أن يقف على قدميه للسلام..

حياك الله يا شيخ.. حياك الله.. كلفناك وأتعبناك..

لا.. لم تتعبني في شيء.. عفوًا لم أعلم بمرضك من قبل.. ولكن ماذا أصابك؟ ماذا حدث لك؟ ألم تتخرج في الكلية؟ ألم تكن تحدثني أنك سوف تتزوج، وسوف.. وسوف..

نعم، ولكن ما حدث لم يكن في حسباني..

تخرجت في الكلية قبل أشهر معدودة كما تعلم، وأصابني ما يصيب الشباب عادة من الزهو والفرح بالتخرج.. وبدأت مشوار الحياة الجديدة.. فتحت كتاب مستقبلي المزهر ورحت أستمتع بتقليب صفحاته وأحلم بأيامه السعيدة..

ومضت الأيام السعيدة سريعة.. لا يكدر صفوها إلا صداع بسيط كان ينتابني في بعض الأوقات.. ومع مضي الأيام بدأ هذا الصداع يزداد شدة وألمًا.. لكن الأدوية المسكنة كانت كفيلة بالقضاء عليه.. ومضت الأيام على هذا الحال وقد تعود رأسي هذا الصداع حتى صرت أنساه في كثير من الأحيان مع شدته وألمه..

لكن شدة هذا الصداع بدأت تزداد وتزداد.. وبدأ يصاحب ذلك ضعف في النظر.. حتى اشتد ذلك علي في إحدى الليالي.. فذهبت إلى قسم الطوارئ في أحدى المستشفيات.. شاكيًا مما أصابني من صداع وضعف في النظر.. فلما قابلني الطبيب المختص، عمل لي التحاليل والأشعة اللازمة، ثم قال لي:

نحتاج إلى إجراء أشعة مقطعية دقيقة لرأسك، وهذا غير متوفر حاليًا في المستشفي.. اذهب إلى مستوصف خاص واعمل هذه الأشعة ثم ارجع إلي بها.. وحاول أن يكون ذلك سريعًا!..

خرجت يتملكني الوجل تارة.. والاستغراب تارة أخرى.. هذا الطبيب! لماذا يتعبني

هكذا؟ كان الأحرى أن يعطيني مسكنًا للصداع.. أو قطرة للعين.. وينتهي الأمر.. وجعلت أشاور نفسي: هل أهمل الطبيب وأشعته.. وأشتري دواء بخمسة ريالات يسكن هذا الصداع وأذهب للبيت وأنام؟ أم أعمل الأشعة التي طلبها وأنظر على ماذا ينتهي الأمر.. لكني مع كل هذه الخواطر ذهبت إلى ذاك المستوصف وأجريت الأشعة.. ثم رجعت إلى الطبيب، أحمل بين يدي أوراقًا لا أفهم شيئًا من رموزها..

تفضل يا دكتور.. هذه الأشعة التي طلبت..

لبس الطبيب نظارة سميكة على عينيه.. أخذ يقلب الأوراق بين يديه.. تغير وجهه.. وسمعته يقول.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ثم رفع بصره إلي وقال:

استرح.. اجلس..

بشر يا دكتور.. خيرًا إن شاء الله؟

خيرًا.. إن شاء الله.. خيرًا..

وظل صامتًا لا يرفع بصره إلي! ثم رفع سماعة الهاتف، وبدأ بالاتصال على مجموعة من كبار الأطباء يطلب حضورهم! ما هي إلا دقائق حتى اجتمع عنده ستة أو سبعة منهم.. بدءوا جميعًا يقلبون نتائج التحليل.. يتأملون صور الأشعة.. ويتحدثون باللغة الإنجليزية، ويسارقونني النظر..

مضت قرابة ساعة على هذه الحال.. وأنا في حال لا أحسد عليه..

بدأ يمر في عقلي شريط ذكرياتي.. أخذت أستعرض سجل حياتي.. بل مستقبلي.. ترى ما بالهم يتناقشون؟ ما بال الطبيب اهتم كل هذا الاهتمام..

ثم رحت أطمئن نفسي وأقول لها: هؤلاء الأطباء يكبرون المسائل دائمًا.. كل منهم يريد أن يستعرض قواه.. تحاليل..! أشعة..! اجتماعات..! والمسألة حلها سهل: حبة أو حبتان من الـ(بندول) مع قطرة للعين، وينتهي كل شيء!

ظللت أنظر إلى الأطباء محاولاً أن أفهم شيئًا مما يقولون، ولكني مع تركيزي الشديد لم أفهم كلمة واحدة.. بدأت نقاشاتهم تهدأ وتهدأ.. ثم خيم الصمت عليهم..

خرج أحدهم من العيادة وتبعه آخر.. فثالث.. حتى لم يبق إلا اثنان..

قال لي أحدهما: اسمع يا عبد الله! أنت أكبر من أن نقول لك أحضر والدك!

خير إن شاء الله يا دكتور.. ماذا تقصد؟!

فقال بأسلوب حازم:

التقارير والأشعة تدل على وجود ورم في رأسك، حجمه يزداد بسرعة مخيفة، وهو الآن يضغط على عروق العين من الداخل، وفي أي لحظة يمكن أن يزداد هذا الضغط.. فتنفجر عروق العين من الداخل.. فتصاب بالعمى.. ثم تصاب بنزيف داخلي في الدماغ ثم تموت!..

ثم سكت الطبيب.. ثم سكت.. لكن كلمته الأخيرة بدأت تتردد في أذني.. تموت.. تموت.. يا للهول.. ما أقسى هذه الكلمة.. ما أشد وقعها على النفس.. أموت.. نعم أموت.. لكن شبابي.. رواتبي.. وظيفتي.. أمي.. أبي.. أموت! صحت بأعلي صوتي..

يا دكتور!.. ماذا؟.. كيف؟.. متى؟.. ورم؟.. كيف ورم؟.. متى ظهر عندي؟.. ما سببه؟.. وأنا في هذه السن؟.. أعوذ بالله؟ ورم؟.. سرطان؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

نعم، ورم.. ولا بد من علاجه بسرعة، كل دقيقة.. بل كل ثانية تمر.. ليست في صالحك.. الليلة ندخلك المستشفى ونكمل التحليلات اللازمة، وفي الصباح ـ إن شاء الله ـ نفتح رأسك ونخرج الورم..

قال الطبيب هذه الكلمات بكل حزم.. وبرود.. قالها وهو يمسح نظارته ويقلب نظره في أوراق بين يديه..

أما أنا فلم أكن أستمع إليه بأذني فقط بل أظن أن جسدي كله قد تحول في تلك الساعة إلى أذن تسمع وتعي.. استمر الطبيب في كلامه..

اصبر.. واحتسب.. لست الوحيد الذي تجرى هل مثل هذه العملية.. أناس كثيرون أجريت لهم وشفوا بإذن الله.. وأنت شاب مؤمن وعاقل، لا يحتاج مثلك إلى تصبير وتثبيت.. واصل الطبيب كلماته وهو ينظر إلي.. أما أنا.. فقد كنت عيناي جاحظتين في عينيه.. نعم كنت أنظر إليه بتركيز شديد..

أما كلامه: فقد اختلطت عباراته الأخيرة بعباراته الأولى.. ولم يثبت في ذاكرتي من كلامه إلا: ورم.. سرطان.. عملية..

ماذا لو كتب الله علي الموت أثناء العملية؟.. ماذا ستفعل أمي؟.. أبي الذي جاوز السبعين؟.. إخواني؟.. أخواتي الصغار؟..

بل كيف سأدخل القبر وحدي؟.. كيف سأمر على الصراط؟.. كيف؟ وكيف؟ أين تخطيطاتي.. وشهاداتي.. الزواج.. الوظيفة الجديدة.. كيف يحصل هذا فجأة.. أسئلة كثيرة تتردد في داخلي.. جعلتني أسبح في بحر من الأفكار لا ساحل له..

أخذت أصرخ في داخلي: يا حسرتا على ما فرط في جنب الله..

يا ليتني قدمت لحياتي الآخرة..

كل المتع التي كنت أجمعها.. والمراكز التي كنت أسعى لها.. تذهب فجأة.. هكذا بدون مقدمات.. ما أقصر هذه الحياة.. والله ما كنت إلا في غرور..

كيف كنت أتتبع الشهوات.. وأواقع اللذات.. وجهنم قد سعرت.. والأغلال قد نصبت.. والزبانية قد أعدت؟!

تبًا لهذه الدنيا.. إن أضحكت قليلاً أبكت كثيرًا.. وإن أفرحت أيامًا أحزنت أعوامًا.. وإن متعت قليلاً أشقت طويلاً.. وأخذت أعاتب نفسي الخاطئة أشد المعاتبة..

آه.. ما أطول حزني غدًا.. رحماك يا رب.. رحماك يا رب..

وفجأة قال الطبيب: هذه أوراق العملية! وقع عليها، حتى نحجز لك سريرًا، وننهي إجراءات إدخالك إلى المستشفى!

بقيت واجمًا أنظر إليه، فقال: خذ! ما بالك؟.. خذ..

لا.. لن أوقع على شيء!

كيف؟ لن توقع! مجنون أنت؟! المصلحة لك وليست لنا.. والمضرة عليك لا علينا.. لا تظن أننا فارغون نبحث عن رأس نتسلى بإجراء عملية فيه!.. الأمر مهم.. وخطير..

لا.. لن أوقع على شيء.

عمومًا لا نستطيع إلزامك.. ولكن وقع على هذه الورقة حتى نخلي مسئوليتنا منك لو حدث لك نزيف مفاجئ.. أخذت الورقة فإذا فيها:

أقر أنا الموقع أدناه أني خرجت بطوع إرادتي واختياري من مستشفى.. إلخ..

وقعت الورقة وانصرفت.. ولكن أين أذهب..؟! إلى البيت وأخبر أمي وأبي؟.. أم أرجع إلى المستشفى؟.. أم أذهب إلى مستشفى آخر.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

بعد تفكير سريع قررت أن أذهب إلى مستشفى آخر.. وفي قسم الطوارئ:

السلام عليكم.. يا دكتور أنا أشكو من صداع في الرأس يصاحبه ضعف في النظر.. وبعد الكشف السريع وعمل الأشعة اللازمة.. قال الطبيب: نحتاج إلى أشعة مقطعية دقيقة لرأسك، وهذا غير متوفر حاليًا في المستشفى.. اذهب إلى مستوصف خاص واعمل هذه الأشعة.. ثم ارجع إلي بها.. وحاول أن يكون ذلك سريعًا!

قالها الطبيب ثم سكت.. نزلت إلى السيارة وأخذت أوراق الأشعة ثم صعدت بها إليه..

عجبًا! كيف جئت بهذه السرعة!.. لماذا لم تعمل الأشعة؟!..

قد عملتها قبل أن آتيك.. وها هي بين يديك..

أخذ الطبيب يفكك رموز هذه الأوراق..

أما أنا فقد جلست على الكرسي لا تكاد تحملني قدماي..

لكني كنت أكثر ثباتًا من المرة الأولى..

ذكرت الله تعالى.. سبحان الله.. والحمد لله.. ولا إله إلا الله.. والله أكبر.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. تذكرت وصيته ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرًا».. هان الأمر علي.. واطمأنت نفسي..

ماذا سيحدث؟! ورم! لست الأول ولا أظنني الأخير..

أمي.. أبي.. إخوتي.. سيبكون يومًا أو يومين.. ثم ينسون..

فجأة رفع الطبيب سماعة الهاتف واستدعى مجموعة من كبار الأطباء إلى عيادته..

جاءوا.. نظروا في الأوراق.. تحدثوا طويلاً..

كنت أنتظر خبرًا مفزعًا.. لكني لم أضطرب كثيرًا.. علقت أمري بالله.. بدأت الأوهام تعود إلي.. لماذا أنا بالذات أصاب بالمرض الخبيث؟ الناس كثيرون.. ثم صرخت بنفسي: أعوذ بالله ولماذا أجزم بذلك؟! لعل ذاك الطبيب قد أخطأ..

صداع عارض وينتهي الأمر.. طالت فترة الانتظار فالتفت إلى الطبيب وسألته:

بشر.. ما الخبر؟! رد بنبرة حازمة: انتظر قليلاً.. اصبر..

ثم تركني في دوامتي ومضى يتلمظ بلغة أعجمية مع زملائه..

لم تمض ساعة حتى انتهوا من نقاشاتهم ثم خرج الأول فالثاني فالثالث..

التفت إلى الطبيب ثم قال: اسمع يا عبد الله!..

أنت شاب مؤمن وكل شيء بقضاء الله وقدره.. التقارير والأشعة تدل على وجود ورم في رأسك، حجمه يزداد بسرعة مخيفة، وهو الآن يضغط على عروق العين من الداخل وفي أي لحظة قد يزداد هذا الضغط.. فتتفجر عروق العين من الداخل.. فتصاب بالعمى.. ثم تصاب بنزيف داخلي في الدماغ.. ثم تموت!..

لذا لا بد أن تدخل الآن إلى المستشفى.. والليلة تدخل غرفة العمليات.. ونزيل جزءًا من عظم الجمجمة ثم نخرج الورم.. وبعد ذلك نعيد العظم مرة أخرى..

ثم سكت الطبيب..

أما أنا فقد كانت الصدمة علي أهون من الأولى.. تقبلت الخبر بهدوء تعجب منه الطبيب ثم رفعت سماعة الهاتف واتصلت بوالدي.. جاء والدي..

شيخ كبير تجاوز السبعين من العمر.. أحضره السائق.. فنظره الكليل لا يساعده على القيادة.. كم تعب واجتهد في التربية والعناية.. جزاه الله خيرًا..

لما رآني أبي.. فزع من وجوم وجهي واصفرار عيني.. وقال وهو واقف: ما الذي جاء بك إلى هنا.. ولماذا جئت.. و..

قلت له: يا أبي.. تعلم أني أشكو من صداع دائم وذهبت إلى مستشفى.. وعملوا لي

الفحوصات.. ثم جئت إلى هذا المستشفى.. وبعد الفحوصات أخبروني أن عندي ورمًا في الرأس ولا بد من إجراء عملية عاجلة في الرأس..

سمع أبي هذه الكلمات فكان أقل تحملاً مني.. صاح بي:

ورم.. ورم.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ثم جلس على الأرض.. وهو يردد:

إنا لله وإنا إليه راجعون.. إذًا نرسلك لتعالج مع أخيك في أمريكا.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. قال هذه الكلمات وهو يتذكر معاناته منذ سنة كاملة مع أخي الأكبر عبد الرحمن الذي يعالج في أمريكا من مرض السرطان..

كم رأيت أبي يبكي في الهاتف وهو يكلمه.. كم كان يدعو له آخر الليل.. وفي الصلوات.. كان حزن أبي عليه ظاهرًا.. خاصة إذا رأى أولاد عبد الرحمن الصغار يسألون عن أبيهم: جدي أين بابا.. ماذا ما عندنا أب مثل بقية بقية الأولاد..

أخذت أنظر إلى أبي ودموعه تسيل على خديه.. وهو يرى أولاده يموتون بين يديه.. فأخي خالد توفي في حادث سيارة قبل سنتين.. وأخي عبد الرحمن يصارع الموت في أمريكا.. وأنا في أول طريق لا تعرف نهايته..

التفت أبي إلى الطبيب.. وحاول أن يتجلد وهو يسأله عن خطورة المرض.. لكن عاطفة الأبوة كانت أقوى.. فبدأت الدموع تسيل من عينيه..

قال الطبيب: لا تحزن يا أبا عبد الله.. الأمر سهل إن شاء الله.. اطمئن..

قال أبي: يا دكتور.. نريد أن تعطينا الأوراق والفحوصات الخاصة بعبد الله وسوف يسافر إلى أمريكا.. يعالج هناك مع أخيه..

وافق الطبيب على ذلك.. أخذ أبي الأوراق.. وتمت الحجوزات بسرعة.. وسافرت إلى أمريكا مع أخي عبد العزيز.. وصلنا إلى المستشفى مساء.. أجروا لي التحليلات والفحوصات اللازمة.. كل شيء تم بسرعة..

وفي الصباح أدخلوني غرفة العمليات.. كم هي غرفة مفزعة.. أجهزة هنا وهناك.. سكاكين ومقصات ومشارط.. كأني في مشرحة.. وجوه واجمة.. وأعين تنظر إليك بتلهف كأنما تريد أن تفترسك..

أيدي الأطباء تألف الدماء.. لا أتصرف في نفسي بل هم يتصرفون في كيفما شاءوا.. حملوني (نعم حملوني حملاً) من على السرير المتحرك إلى سرير العمليات..

باسم الله.. لا إله إلا الله.. ذكرت الله ذكرًا كثيرًا..

بقيت أنتظر بداية العملية.. وأتأمل في وجوه من حولي..

رفعت يدي إلى رأسي أتحسسه.. مسكين يا رأسي! كيف سيكون حالك بعد قليل.. وقف الممرضون ينتظرون.. يظهر أن الطبيب الذي سيباشر العملية لم يصل بعد.. فجأة فتح باب غرفة العمليات ودخل رجل لا ترى منه إلا عينيه.. صافحني بلطف.. ثم أشار إلى أحدهم فجأة بإبرة كبيرة (إي والله كبيرة) ثم طعن بها فخذي فكان آخر عهدي بالدنيا.. دخلت في غيبوبة تامة.

حلق الطبيب شعر رأسي.. ثم قطع فروة رأسي على هيئة دائرية.. ثم بدأ ينشر عظم الجمجمة.. حتى نزع أعلاها.. ووضع العظم بجانبه.. ولم يكن حجم هذا العظم صغيرًا.. كان بحجم الصحن الصغير..

ثم أخرج الورم.. وكان أكبر من البيضة بقليل.. الأمور تسير على ما يرام..

وفجأة اضطرب الدم في عروق الدماغ.. ثم توقف الدم في الشرايين وأصابتني جلطة في الدماغ..

فاضرب الطبيب وحرك ـ خطأ ـ الأعصاب المتصلة بالمخيخ فأصابني شلل نصفي في الجزء الأيسر من جسمي..

فلما رأى الطبيب ذلك أنهى ما تبقى من العملية بسرعة.. وسارع إلى إرجاع عظم الجمجمة إلى مكانه.. وغطى بالجلد فوقه.. وخيط المكان..

ثم حملوني من على سرير العملية وألقوني فوق السرير المتحرك.. وساقوني إلى غرفة العناية المركزة التي يسمونها غرفة الـ(إن عاش)

مكثت بعد العملية في غيبوبة تامة لمدة خمس ساعات.. وفجأة أصابتني جلطة في الرجل اليسرى.. فحملوني سريعًا إلى غرفة العمليات وفتحوا صدري ووضعوا لي فلترًا صغيرًا على أحد شرايين القلب.. ثم أعادوني إلى غرفة الـ(إن عاش) استقرت حالتي أربع ساعات..

ثم أصبت بنزيف شديد في الرئة..!..

حملوني للمرة الثالثة ـ أو لعلها الرابعة ـ إلى غرفة العمليات وفتحوا صدري مرة أخرى ونظفوا الرئة من الدم.. وعالجوا النزيف.. ثم أعادوني إلى غرفة الـ(إن عاش).. ضاق الطبيب بأمري ذرعًا.. أمراض متتابعة.. حالة متقلبة.. مفاجآت لا آخر لها.. استقرت حالتي أربعًا وعشرين ساعة.. أحس الطبيب بشيء من الانتعاش والسرور.. وفجأة بدأت حرارة جسدي ترتفع بشكل مخيف..

أجرى الطبيب فحصًا سريعًا علي.. فاكتشف بعد الفحص الدقيق أن العظم الذي استخرج الورم من تحته قد أصابه التهاب شديد.. ولا بد من إخراجه وتعقيمه.. قبل أن يؤدي إلى تسمم في الدماغ! استدعى الطبيب فريق العمليات.. ثم حملوني كالجنازة.. وألقوني على سرير في غرفة العمليات..

بدأت أنظر إليهم.. لا أملك من أمري شيئًا.. وكلت أمري إلى الله.. غلبني البكاء فبكيت، تمنيت أن أرى أمي وأبي لأقبل أيديهما.. بل والله وألثم أرجلهما.. قبل أن أودع الدنيا.. دعوت الله واستغثت به: رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين.. ثم رفعت بصري إلى السماء وقلت: يا أرحم الراحمين.. إن كانت هذه عقوبة فأسأل الله المغفرة والرحمة.. وإن كانت بلاء فارزقني الصبر على البلاء.. وعظم لي الأجر والجزاء.. ثم غلبني البكاء.. فأخذ الممرضون يصيحون بي بلغة أعجمية.. لم أفهم ما يقولون.. لكني كنت أعلم أنهم يصمتونني.. غالبت نفسي.. وتصبرت.. ذكرت هادم اللذات.. وتفكرت في انحلال الملذات..

طالما سخرت بي الدنيا حتى ذهبت أيامي.. كلما نصحني الناصحون.. قلت: عن قريب أتوب.. وما تبت..

قد غرني فيما مضى شبابي.. وجمال سيارتي وثيابي.. ونسيت الاستعداد للحياة الأخرى.. والله لقد عظمت كربتي.. وذهبت قوتي.. وغدًا يصبح التراب فراشي.. ليتني كنت من قوام الليل.. الذين أطار ذكر النار عنهم النوم.. وأطال اشتياقهم إلى الجنان الصوم.. فنحلت أجسادهم.. وتغيرت ألوانهم..

تفكرت في الحشر والمعاد.. وتذكرت حين يقوم الأشهاد..

ويلي.. إن في القيامة لحسرات.. وإن في الحشر لزفرات.. وعلى الصراط عثرات.. وعند الميزان عبرات.. والظلم يومئذٍ ظلمات.. والكتب تحوي أخفى النظرات.. والحسرة العظمى عند عرض السيئات.. فريق في الجنة يرتقون الدرجات.. وفريق في السعير يهبطون الدركات.. وما بيني وبين هذا إلا أن يقال: فلان مات..

وأخشى أن أصيح: رب ارجعوني.. فيقال: العمر.. فات..

عجبًا للموتى.. جمعوا فما أكلوا الذي جمعوا.. وبنوا مساكنهم فما سكنوا..

تبًا لهذه الدنيا.. أولها عناء.. وآخرها فناء.. حلالها حساب.. وحرامها عقاب..

تفكرت في حالي..

فإذا عمري محدود.. ونفسي معدود.. وجسمي بعد الممات مع الدود..

آه.. إذ زلت يوم القيامة القدم.. وارتفع البكاء وطال الندم..

ويلي إذا قدمت على من يحاسبني على الصغير والكبير..

يوم تزل بالعصاة الأقدام.. وتكثر الآهات والآلام.. وتنقضي اللذات كأنها أحلام.. ثم بكيت.. نعم.. بكيت وتمنيت البقاء في الدنيا.. لا لأجل التمتع بها.. وإنما لأصلح علاقتي بربي جل جلاله.. وفجأة.. أقبل الطبيب نحوي.. فأردت أن أسأله عن المرض.. ولماذا هذه المضاعفات.. فلم يلتفت إلي.. وإنما أمر بتخديري تخديرًا عامًا..

فلما غبت عن الدنيا.. سل سكاكينه ومشارطه..

ثم انتزع فروة الرأس التي تغطي العظم.. وأخرج العظم ووضعه جانبًا.. ثم أعاد الجلد فوق الدماغ من غير عظم!..

استغرقت العملية ساعات.. وبعدها حملوني.. وألقوني على سرير في غرفة الـ(إن عاش) أفقت من إغمائي.. فإذا الأجهزة تحيط بي من كل جانب.. هذا لقياس التنفس.. وهذا لقياس الضغط.. والثالث لضربات القلب.. والرابع.. والممرضون يحيطون بي من كل جانب.. تعجبت من هذه المناظر.. أين أنا.. بقيت واجمًا..

ثم تذكرت أني في أمريكا.. وأني قد كنت في غرفة العمليات..

رفعت يدي وتحسست رأسي فإذا هو لين.. أين العظم؟!.. بالأمس كان رأسي مكتملاً.. بكيت سألت الطبيب: أين بقية رأسي؟!

فقال لي بكل برود: عظمك يبقى عندنا لتعقيمه.. وبعد ستة أشهر ترجع إلينا لنعيده مكانه.. مكثت أيامًا تحت العناية المركزة.. ثم أخرجت منها..

مكثت في أمريكا شهرًا كاملاً.. ثم رجعت إلى الرياض.. وها أنذا أنتظر الأشهر الستة لأستعيد بقية رأسي!..

ثم سكت عبد الله.. وهو يدافع عبراته.. وحق له أن يبكي..

أما أنا.. فاستمعت منه هذه الكلمات.. وأنا في أشد العجب من تقلب الزمان على أهله..

فبعدما كان شابًا مفتول العضلات.. بهي الوجه.. يتقلب بين المال الوفير.. والوظيفة.. والصحة.. والعائلة المرموقة.. و.. ثم هو الآن على هذا الحال..

فسبحان من يقضي ولا يقضى عليه..

ما أحقر هذه الدنيا.. حقًا أن الآخرة هي دار القرار..

ومضت الأيام.. وأن أزوره من حين لآخر..

ومع العلاج منّ الله عليه فشفي من الشلل واستطاع المشي؛ فانقطعت عنه مدة.. ثم اتصل بي وأخبرني أنه سيسافر إلى أمريكا لاستعادة بقية رأسه.. وبعد رجوعه جئته عائدًا فإذا وجهه متهلل فرح مسرور.. وقد أكمل الله عليه نعمته واستعاد بقية رأسه.. وناولني بطاقة يدعوني فيها إلى زواجه..

أما حال الشاب الآن فهو من الصالحين.. بل من الدعاة إلى الله تعالى.. الذين يخدمون الدين بكل ما يملكون..

إن نظرت إلى المساكين وجدت أنه يكفل عددًا منهم.. يتولى جمع الزكوات وإنفاقها عليهم بل إن له باعًا في تنسيق المحاضرات لبعض الدعاة..

والمساعدة في طباعة الكتب وتوزيعها.. إلى غير ذلك من وجوه الخير. ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩]..

أسأل الله تعالى لي.. وله.. ولك.. ولجميع المسلمين الثبات على دينه.. آمين.

وبعد: أيها الأخ الكريم.. أيتها الأخت الكريمة..

لا أدري كيف أبدأ معك الكلام.. ولا أدري هل ستقبل مني أم لا..

ولكن لا بد من المصارحة.. فأنت أخ مسلم لك علي حق النصح والتوجيه.. ووالله ما كتبت إليك هذه الكلمات إلا لأنني أحب لك ما أحب لنفسي من الخير.. فأحسن بي الظن.. ولا تعجل بتمزيق أوراقي..

أنت عبد لله تعالى تقف بين يديه كل يوم خمس مرات.. وكل ذرة من ذرات جسمك.. بل وكل نفس من أنفاسك لا يتحرك إلا بإذن خالقك..

فهل سألت نفسك يومًا

كيف علاقتي معه؟! هل هو راض عني أم لا؟!

كيف سيكون اللقاء يوم القيامة؟!..

أنت وحدك الذي تستطيع أن تجيب عن هذه الأسئلة..

والاشتغال بالطاعات.. والكف عن المحرمات.. هو سبيل الوصول إلى رضى الله تعالى.. بل هو سبيل دخول الجنة..

قال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى!»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟! قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[1].

هذه هي الوصية الأولى لمن أراد أن يكون من أهل الجنة.. أن يوقن أنه في هذه الدنيا عابر سبيل.. وأن الدار الآخرة هي دار القرار.. وأن البلاء قد ينزل به في أي لحظة.. وأن النفس إذا خرج فقد لا يعود إليه..

ولا يغتر بماله وصحته وقوته.. ولا بجاهه ومنصبه.. فإنما هذه أحلام قد تزول في طرفة عين..

---

(١) رواه البخاري.

وصايا..

قال الشيخ: دعاني ابن لأحد كبار التجار يومًا لزيارة والده المريض..

سألت الولد عن مرض أبيه.. فقال: هو مصاب بتليف في كبده.. وسرطان في أجزاء أخرى من جسده.. لكن الطبيب لم يخبره بذلك.. ونحن لم نخبره أيضًا.. فهو لا يدري عن مرضه شيئًا..

دخلت على هذا التاجر.. فإذا هو على السرير الأبيض عمره لم يتجاوز الستين.. لم يتمكن المرض منه بعد.. ولا يزال جسمه نشيطًا.. إلى حد ما..

صافحني ثم أمر أولاده بالخروج..

فلما خرجوا وبقيت أنا وهو.. ظل ساكتًا.. ثم بكى.. والتفت إلي وقال:

آه.. يا شيخ.. تبًا لهذه الدنيا.. منذ أن عرفت نفسي وأنا أجمع الأموال.. وأعدها عدًا.. وأغامر في مختلف التجارات.. كم كنت أتعب في ذلك.. وأنشغل عن عبادة ربي.. كم نمت عن الصلاة بسبب السهر على الأموال.. ومتابعة الشركات.. وكم غفلت عن قراءة القرآن.. وبخلت عن الإنفاق على المساكين والأيتام..

والله يا شيخ.. كلما حدثتني نفسي بالاهتمام بديني.. والالتفات إلى آخرتي..

قلت لها: ليس بعد.. بل إذا بلغت الستين.. أعطيت نفسي تقاعدًا.. واشتريت مزرعة.. وأقمت في راحة وعبادة.. حتى الموت..

ثم ها أنذا يفجعني ما نزل بي من المرض.. وأسأل أولادي عن المرض.. فيقولون: هو التهابات يسيرة واضطرابات في الهضم.. وأنا أظن الأمر على غير ذلك..

ثم بكى الرجل وقال: هل رأيت أولادي هؤلاء.. الذين يدعونك لعيادتي.. ويظهرون الشفقة والرحمة بي.. بالأمس جلسوا عندي فتظاهرت بالنوم ليخرجوا عني..

فلما ظنوا أني قد نمت بدءوا يتكلمون عن تجاراتي.. ويحسبون أموالي.. وكم سينال كل واحد منهم من التركة.. وكيف سيتمتع بالمال..

ثم ارتفعت أصواتهم.. واختصموا على عمارة كبيرة لي.. قال الأول: نبيعها وندخل ثمنها في التركة.. وقال الآخر: بل نؤجرها.. وصاح الثالث: بل تكون من نصيبي.. وارتفعت الأصوات.. تبًا لهم.. يختصمون في مالي وأنا حي بين أظهرهم..

ثم بدا ينوح على نفسه.. ولسان حاله يردد: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]..

هذه هي الوصية الأولى لمن أراد أن يكون من أهل الجنة..

أما الوصية الثانية..

فإن أهل الجنة.. إذا ضاق صدر أحدهم بمصيبة.. أو اشتاقت نفسه إلى حاجة.. بسط في ظلمة الليل يدًا سائلة.. وسجد بنفس واجلة.. وسأل ربه من خير كل نائلة.. وأحسن الظن بربه.. وعلم بأنه واقف بين يدي ملك.. لا تشتبه عليه اللغات.. ولا تختلط عنده الأصوات.. ولا يتبرم بكثرة السائلين وتنوع المسئولات.. إذا جن عليهم الليل.. وفتح ربهم أبواب مغفرته.. كانوا أول الداخلين.. فهم المؤمنون بآيات الله حقًا.. ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥ ـ ١٧]..

وقد أمر النبي ﷺ بقيام الليل.. وصلاة الوتر فقال ﷺ: «إن الله وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن»(١).

ويجمع الله لمن يصلي الوتر بين نعمتي الدنيا والآخرة.. قال ﷺ: «عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله ومنهاة عن الإثم وتكفير للسيئات ومطردة للداء عن الجسد»(٢).

---

(١) رواه الترمذي وأصله في «الصحيحين».

(٢) رواه الترمذي وهو حديث حسن.

والعجب.. أن صلاة الوتر هي أسهل العبادات.. ومع ذلك يهملها كثير من الناس..

لو أن إنسانًا صلى المغرب.. فقلنا له: يا فلان لم لا تصلي سنة المغرب؟! فسألنا: كم ركعة سنة المغرب؟ فقلنا له: هي ركعتان.. فقال: سوف أصليها ركعة واحدة!

لقلنا له: لا يجوز.. صلها ركعتين أو لا تصلها..

وكذلك صلاة الضحى.. وسنة الفجر.. وسنة العشاء.. وصلاة الاستخارة.. أقلها ركعتان..

أما صلاة الوتر.. فهي أفضل النوافل على الإطلاق.. ومع ذلك خففها رب العالمين على الناس فيجوز أن تصليها ركعة.. فصلها ولو ركعة واحدة تقرأ فيها سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ما تستغرق منك دقيقتين..

نعم تصلي ركعة واحدة وتكتب عند الله ممن صلوا الليل.. فإذا جيء إلى الله يوم القيامة بأسماء قوام الليل في تلك الليلة تجد اسمك من بينهم وأنت ما صليت إلا ركعة واحدة.. فكيف لو زدت وصليت ثلاث ركعات.. أو خمسًا.. أو سبعًا.. هذا أفضل.. ومن زاد فله الزيادة عند الله..

وليس شرطًا أن تصليها قبل الفجر.. بل صلها بعد العشاء مباشرة أو قبل النوم.. وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر.. أو ضاق صدره.. فزع إلى الصلاة..

وكان يقول: أرحنا بها يا بلال.. وقال ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»..

وكان للصالحين مع الصلاة شأن عجيب..

قال أبو صالح ابن أخت مالك بن دينار: كان خالي مالك بن دينار إذا جن عليه الليل دخل إلى غرفة بيته وأغلق عليه الباب ولا يخرجه إلينا إلا أذان الفجر.. فبكرت يومًا إلى الغرفة واختبأت في إحدى زواياها في ظلمة الليل.. فدخل خالي وفرش سجادته.. وصف قدميه عليها فلما رفع يديه ليكبر.. غلبه البكاء فبكى.. ثم أخذ يبكي ويستغفر ويبتهل.. ثم قبض على لحيته وقال: اللهم إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك على النار.. وأخذ يرددها ويبكي..

واعلم أخيرًا.. أن الإكثار من الصلاة والسجود لله تبارك وتعالى من أسباب دخول الجنة..

بل قد يجالس الداعية المستقيم بعض الناس ولا يعلم أنهم يأكلون الربا.. أو يقعون في الفواحش.. أو يتركون الصلاة.. لأنهم يتظاهرون بالخير أمام الصالحين.. أما من رأوه مثلهم فلا يتصنعون أمامه بشيء.. بل يكشفون أمامه أوراقهم.. ويظهرون كل شيء.. أما كيف تنصحهم وتدعوهم.. فهذا يكون بأساليب شتى.. كإهداء الأشرطة النافعة إليهم.. ودعوة بعض الدعاة إلى مجالسكم أحيانًا.. والنصيحة الفردية لهم.. وغير ذلك.. ولا تقل: أنا غير ملتزم فكيف أدعو وأنصح؟!.. فإن وظيفة الدعوة إلى الله وظيفة ربانية واسعة.. كثيرة الأساليب لا تزال تحتاج إلى عاملين.. وكلنا ذوو خطأ.. وكل بني آدم خطاء..

ولو لم يعظ في الناس من هو مذنب   فمن يعظ العاصين بعد محمد؟!

قال الشيخ: خرجت من المسجد يومًا فجاءني شاب عليه آثار المعصية.. وقد اسودت شفتاه من كثرة التدخين.. فعجبت لما رأيته.. ماذا يريد.. فلما سلم علي قال: يا شيخ أنتم تجمعون أموالاً لبناء مسجد أليس كذلك؟

قلت: بلى..

فناولني ظرفًا مغلقًا وقال: هذا مال جمعته من أمي وأخواتي وبعض المعارف.. ثم ذهب.. ففتحت الظرف فإذا فيه خمسة آلاف ريال.. وأنفق هذا المال في بناء المسجد.. واليوم لا يذكر الله في ذلك المسجد ذاكر.. ولا يتلو القرآن قارئ.. ولا يصل مصل.. إلا وكان في ميزان ذاك الشاب مثل أجره.. فهنيئًا له..

لو أن هذا الشاب استسلم لتخذيل الشيطان وقال: أنا عاص.. فإذا تبت بدأت أخدم الدين وأبني المساجد.. لفاته أجر عظيم.. وقد قال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»(١).

وأعرف اثنين من الشباب ـ المقصرين ـ هما منذ سنوات.. إذا أقبل شهر رمضان أو موسم الحج ركبا في سيارة وأخذا معهما أدوات خاصة بإصلاح أعطال السباكة والكهرباء.. ثم توجها إلى مكة.. ومرا على جميع دورات المياه التي في طريق الحجاج والمعتمرين وأصلحا أعطالها.. خدمة لإخوانهم المسلمين.. ولا أحد يعرف عنهما ذلك..

---

(١) رواه مسلم.

وحدثني أحد الدعاة أنه طرق عليه الباب في آخر الليل..

قال الشيخ: فخرجت فزعًا فإذا شاب عليه آثار التقصير والمعصية.. فسألته: ماذا تريد؟!

فقال: معي في السيارة اثنان من العمال الهنود أسلما على يدي وقد أحضرتهما إليك لتلقنهما الشهادة وتجيب عن أسئلتهما..!

فقال: لا زلت أتابعهما بالكتب والأشرطة حتى أسلما..

وحدثني أحد العاملين في مكتب للدعوة والإرشاد أن شابًا مدخنًا.. وعنده معاصٍ أخر. ومع ذلك فإن هذا الشاب إذا أقبل رمضان جمع تبرعات من التجار ثم اشترى آلاف الأشرطة وحملها إلى مكاتب الدعوة لتوزيعها خلال نشاطاتهم في رمضان.. طالما اشتكى العاملون في مكاتب الدعوة والإرشاد من قلة المتعاونين معهم.. ويقسم لي أحدهم: أن بعض العمال الكفار ليس بينه وبين الإسلام إلا أن يتفرغ له شخص أسبوعًا أو أسبوعين يأتي به إلى مكتب الدعوة لحضور المحاضرات.. ولا يجد المكتب متعاونًا يهتم بمثل هذا..

بل.. كم خادمة كافرة ما نشط أصحابها في دعوتها ولا أهدوا لها كتابًا ولا شريطًا عن الإسلام.. فبقيت على كفرها.. وكم من شاب فاجأه الموت وهو تارك للصلاة.. أو مقيم على كبيرة من الكبائر، لأن الدعاة ما استطاعوا الوصول إليه.. وأصحابه ما نشطوا في نصيحته..

وكم من فتاة ترى زميلاتها في المدرسة.. يتبادلن الصور الأشرطة المحرمة.. بل وأرقام الهواتف المشبوهة.. ومع ذلك إذا طالبناها بنصيحتهن قالت: أنا أحتاج إلى من ينصحني.. أنا مقصرة.. إذا أصبحت ملتزمة نصحتهن..

عجبًا.. ما أسعد الشيطان بسماع هذه الكلمات..

كيف دخل الإسلام إلى أفريقيا والهند والصين..! حتى صار في الهند مائة مليون مسلم.. وفي الصين قريبًا من ذلك..

من دعا هؤلاء؟

إنهم أقوام من عامة الناس..

ليسوا طلبة علم.. ولا أئمة مساجد.. ولا تخرجوا في كليات شرعية..

أقوام ذهبوا للتجارة.. فدعوا الناس فأسلموا على أيديهم.. فخرج من هؤلاء المسلمين الهنود والصينيين والأفارقة علماء ودعاة.. وأجر هدايتهم لأولئك التجار..

لقد سألت مرارًا عدادًا من العمال الكفار الذين في محطات البنزين.. أقول لأحدهم: منذ متى وأنت في هذه البلاد فيقول: منذ خمس سنوات.. وسبع سنوات.. فأقول:

هل أعطاك أحد شريطًا أو كتابًا عن الإسلام منذ جئت إلى هنا؟!

فيعتصر قلبي بقوله: لا.. كل الناس يملئون سياراتهم بالوقود ويذهبون..

يا أخي قد تكون مقصرًا.. بل قد تستمع إلى الأغاني.. وقد تدخن.. وقد تقع في المعاصي، ولكن أنت مسلم أولاً وآخرًا..

وقد قال لك النبي ﷺ: «بلغوا عني ولو آية».. أفلا تحفظ آية تبلغها..

إن توزيع الأشرطة.. ونشر الكتب.. وتوزيع بطاقات الأذكار.. أمور لا تحتاج إلى علم.. من منا إذا سافر أخذ معه مجموعة من الأشرطة النافعة ثم إذا وقف في محطة وقود وضع في البقالة بعضها.. والبعض الآخر في مسجد المحطة.. أو وزعها على السيارات الواقفة.. الناس في الطريق لا بد أن يستمعوا إلى شيء فكن معينًا لهم على سماع الذكر والخير..

من منا إذا رأى كتابًا نافعًا اشترى منه كمية ثم وزعها في مسجده.. أو أهداها لزملائه في العمل.. أو طلابه في المدرسة..

وأنا بكلامي هذا لا أسوغ الوقوع في المعاصي.. أو أعتذر عن أصحابها.. ولكن.. ذكر إن نفعت الذكرى ولا ينبغي أن تحول المعصية بين صاحبها وبين خدمة هذا الدين..

أبو محجن الثقفي رضي الله عنه رجل من المسلمين كان قد ابتلى بشرب الخمر.. وطالما عوقب عليها ويعود.. ويعاقب ويعود.. بل كان من شدة تعلقه بالخمر يوصي ولده ويقول:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروى عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فلما تداعى المسلمون للخروج لقتال الفرس في معركة القادسية خرج معهم أبو

محجن.. وحمل زاده ومتاعه.. ولم ينس أن يحمل معه خمرًا.. دسها بين متاعه.. فلما وصلوا القادسية.. طلب رستم مقابلة سعد بن أبي وقاص قائد المسلمين.. وبدأت المراسلات بين الجيشين.. عندها وسوس الشيطان لأبي محجن رضي الله عنه فاختبأ في مكان بعيد وشرب الخمر.. فلما علم به سعد رضي الله عنه غضب عليه.. وحرمه من دخول القتال.. ثم أمر به فقيد بالسلاسل.. وأغلق عليه في خيمة..

فلما ابتدأ القتال وسمع أبو محجن صهيل الخيول.. وصيحات الأبطال.. لم يطق أن يصبر على القيد.. واشتاق إلى الشهادة.. بل اشتاق إلى خدمة هذا الدين.. وبذل روحه لله تعالى.. نعم.. وإن كان عاصيًا.. وإن كان مدمن خمر.. إلا أنه مسلم يحب الله ورسوله.. فأخذ يتحسر على حاله ويترنم قائلاً:

كفى حزنًا أن تدحم الخيل بالقنى ... إذا قمت عناني الحديد وغلقت

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة ... فلله عهد لا أحيف بعهده

وأترك مشدودًا علي وثاقيا ... مصاريع من دوني تصم المناديا

وقد تركوني مفردًا لا أخا ليا ... لإن فرجت ألا أزور الحوانيا

ثم أخذ ينادي بأعلى صوته.. فأجابته امرأة سعد: ماذا تريد؟

فقال: فكي القيد من رجلي وأعطيني البلقاء فرس سعد.. فأقاتل فإن رزقني الله الشهادة فهو ما أريد.. وإن بقيت فلك علي عهد الله وميثاقه أن أرجع حتى تضعي القيد في قدمي.. وأخذ يرجوها ويناشدها.. حتى فكت قيده وأعطته البلقاء.. فلبس درعه.. وغطى وجهه بالمغفر.. ثم قفز كالأسد على ظهر الفرس.. وألقى نفسه بين الكفار يدافع عن هذا الدين ويحامي..

علق نفسه بالآخرة ولم يفلح إبليس في تثبيطه عن خدمة هذا الدين.. حمل على القوم يلعب برقابهم بين الصفين برمحه وسلاحه.. تعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه في النهار.. ومضى أبو محجن يقاتل.. ويبذل روحه رخيصة في ذات الله.. نعم.. مضى أبو محجن..

أما سعد بن أبي وقاص فقد كانت به قروح في فخذيه فلم ينزل ساحة القتال.. لكنه كان يرقب القتال من بعيد.. فلما رأى أبا محجن عجب من قوة قتاله.. وقال: الضرب ضرب

أبي محجن.. والكر كر البلقاء.. وأبو محجن في القيد.. والبلقاء في الحبس..! فلما انتهى القتال عاد أبو محجن إلى سجنه.. ووضع رجله في القيد.. ونزل سعد فوجد فرسه يعرق فقال: ما هذا؟

فذكروا له قصة أبي محجن فرضي عنه وأطلقه وقال: والله لا جلدتك في الخمر أبدًا. فقال أبو محجن: وأنا والله لا شربت الخمر أبدًا..

فلله در أبي محجن..

الوصية الرابعة..

ذكر ابن كثير في تاريخه: أن رجلاً من ضعفاء الناس كان له على أحد الأمراء مال كثير.. فماطله ومنعه حقه.. وكلما طالبه به آذاه.. وأمر غلمانه بضربه.. فاشتكاه إلى قائد الجند.. فما زاده ذلك إلا منعًا وجحودًا..

قال هذا الرجل المسكين: فلما رأيت ذلك.. يئست من المال الذي عليه ودخلني غم من جهته فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي..

إذ قال لي رجل: ألا تأتي فلانًا الخياط أمام المسجد..

فقلت: ما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم؟ وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه..

فقال: الخياط هو أقطع وأخوف عنده من جميع من اشتكيت إليه.. فاذهب لعلك أن تجد عنده فرجًا..

قال: فقصدته غير محتفل في أمره.. فذكرت له حاجتي ومالي وما لقيت من هذا الظالم.. فقام وأقفل دكانه.. ومضى يمشي بجانبي حتى وصل إلى بيت الرجل.. وطرقنا الباب.. ففتح الرجل الباب مغضبًا.. فلما رأى الخياط.. فزع.. وأكرمه واحترمه..

فقال له الخياط: أعط هذا الضعيف حقه..

فأنكر الرجل وقال: ليس له عندي شيء..

فصاح به الخياط وقال: ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذنت..!

فتغير لون الرجل ودفع إلي حقي كاملاً..

ثم انصرفنا.. وأنا في أشد العجب من هذا الخياط.. مع رثاثة حاله.. وضعف بنيته.. كيف انقاد ذلك الكبير له..

ثم إني عرضت عليه شيئًا من المال فلم يقبل..

وقال: لو أردت هذا لكان لي من المال شيء لا يحصى..

فسألته عن خبره وذكرت له تعجبي منه.. فلم يلتفت إلي.. فألححت عليه..

وقلت: لماذا هددته بأن تؤذن؟!..

قال: قد أخذت مالك فاذهب.. قلت: لا بد والله أن تخبرني..

فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا قبل سنين في جوارنا تركي من أعالي الدولة وهو شاب حسن جميل.. فمرت به ذات ليلة امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة..

فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله.. وهي تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها وتقول: أنا امرأة متزوجة.. وهذا رجل يريدني على نفسي ويدخلني منزله.. وقد حلف زوجي بالطلاق أن لا أبيت في غير منزله ومتى بت ها هنا طلقت منه.. ولحقني عار ومذلة.. لا تغسلها الأيام..

قال الخياط: فقمت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من بين يديه فضربني بسكين في يده فشج رأسي وأسال دمي.. وغلب المرأة على نفسها فأدخلها منزله قهرًا.

فرجعت فغسلت الدم عني وعصبت رأسي.. وصحت بالناس وقلت:

إن هذا فعل ما قد علمتم فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلص المرأة منه.. فقام الناس معي فهجمنا عليه في داره فثار إلينا في جماعة من غلمانه بأيدهم العصي والسكاكين يضربون الناس.. وقصدني هو من بينهم فضربني ضربًا شديدًا مبرحًا حتى أدماني.. وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة والذل..

فرجعت إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء.. فنمت

على فراشي فلم يأخذني النوم.. وتحيرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها حتى لا يقع عليها من زوجها الطلاق..

فألهمت أن أؤذن للصبح أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله.. فتذهب إلى منزل زوجها..

فصعدت المنارة وبدأت أؤذن وأرفع صوتي..

وجعلت أنظر إلى باب داره هل أرى المرأة خرجت.. ثم أكملت الأذان فلم تخرج.. ثم عزمت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الخبيث أن الصباح قد خرج.. فبينما أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا.. إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالاً..

وهم يقولون: أين الذي أذن هذه الساعة؟ وينظرون إلى منارة المسجد..

فصحت بهم: أنا الذي أذنت.. وأنا أريد أن تعينوني عليه..

فقالوا: انزل! فنزلت..

فقالوا: أجب الخليفة.. ففزعت.. وسألتهم بالله أن يسمعوا القصة فأبوا.. وساقوني أمامهم وأنا لا أملك من نفسي شيئًا حتى أدخلوني على الخليفة..

فلما رأيته جالسًا في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعًا شديدًا..

فقال: ادن.. فدنوت..

فقال لي: ليسكن روعك وليهدأ قلبك.. وما زال يلاطفني حتى اطمأنت نفسي.. وذهب خوفي..

فقال لي: أنت الذي أذنت هذه الساعة؟

فقلت: نعم يا أمير المؤمنين..

فقال: ما حملك على أن أذنت في هذه الساعة؟ وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه؟ فتغر بذلك الصائم والمسافر والمصلي وتفسد على النساء صلاتهن..

فقلت: يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري؟

فقال: أنت آمن.. فذكرت له القصة.. فغضب غضبًا شديدًا.. وأمر بإحضار ذلك الرجل

والمرأة.. فأحضرا سريعًا..

فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقاة.. ثم أقبل على ذلك الرجل فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجواري والزوجات؟ فذكر له شيئًا كثيرًا.. فقال له: ويحك أما كفاك ما أنعم الله به عليك حتى انتهكت حرمة الله وتعديت على حدوده وتجرأت على السلطان؟! وما كفاك ذلك حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته؟! فلم يكن له جواب..

فأمر به فجعل في رجله قيد.. وفي عنقه غل.. ثم أمر به فأدخل في كيس.. وهذا الرجل يصيح ويستغيث.. ويعلن التوبة والإنابة.. والخليفة لا يلتفت إليه.. ثم أمر الخليفة به فضرب بالسكاكين ضربًا شديدًا حتى خمد.. ثم أمر به فألقي في دجلة فكان ذلك آخر العهد..

ثم أمر الخليفة صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الأموال التي كان يتناولها من بيت المال..

ثم قال لي: كلما رأيت منكرًا صغيرًا أو كبيرًا ولو على هذا - وأشار إلى صاحب الشرطة - فأعلمني.. فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلامة ما بيني وبينك الأذان.. فأذن في أي وقت كان.. أو في مثل وقتك هذا..

فقلت: جزاك الله خيرًا.. ثم خرجت..

فلهذا: لا آمر أحدًا من هؤلاء بشيء إلا امتثلوه.. ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفًا من الخليفة المعتضد.. وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن.. والحمد لله..

أيها الأخ الحبيب.. والأخت الكريمة..

إن المشتاقين إلى الجنة.. والراغبين في دخولها.. لا يسكتون عن منكر رأوه.. بل يسلكون شتى الطرق.. ومختلف الأساليب لإزالة المنكرات ومناصحة أهلها..

فأين أولئك.. الذين يرون المنكرات.. ولا تنشط نفوسهم لإنكارها.. وربما أنكروا مرة أو مرتين فلما لم يتقبل منهم يئسوا من الإصلاح.. وألقوا السلاح.. وليسألن يوم القيامة عن ذلك..

وما كثرت المنكرات بين الناس.. في أسواقهم.. وبيوتهم.. ومدارسهم.. وأماكن

أعمالهم.. إلا بسبب أنهم ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

وقد قال رسول الله ﷺ «لا يحقر أحدكم نفسه»، قالوا: يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟! قال: «يرى أمرًا لله عليه فيه مقال.. ثم لا يقول فيه، فيقول الله له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟

فيقول: خشية الناس.. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى»[(١)].

واعلم أن قوله ﷺ «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(٢)] يشمل كل مسلم ومسلمة.. وأنت من المسلمين بل إن الساكت عن إنكار المنكر يخشى عليه أن يكون شريكًا لفاعله في الإثم.. قال ﷺ «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة: أنكرها ـ كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»[(٣)].

الوصية الخامسة..

من محبة الله تعالى للصالحين.. الذين هم أهل الجنة.. أن الله يجمع لهم بين سعادتي الدنيا والآخرة..

واعلم أن الملل الدائم الذي ينزله الله بمن عصاه.. أو طلب السعادة في غير رضاه.. يضيق على أهل المعصية دنياهم.. وينغص عليهم عيشهم.. حتى يتحول ما يسعون وراءه من متع إلى عذاب يتعذبون به..

فلماذا..؟!

لماذا يتحول سماعهم للغناء.. ومواقعتهم للفحشاء.. وشربهم للخمر.. ونظرهم إلى الحرام.. لماذا يتحول هذا إلى ضيق بعد أن كان سعة.. وحزن بعد أن كان فرحة.. لماذا؟

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود.

الجواب واضح.. لأن الله تعالى خلق الإنسان لوظيفة واحدة.. لا يمكن أن تستقيم حياته لو اشتغل بغيرها.. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]..

فلما استعمل الإنسان جسده وروحه لغير الوظيفة التي خلق لأجلها تحولت حياته إلى جحيم.

وخذ مثالاً على ذلك:

لو أن رجلاً يمشي في طريق فانقطع نعله فجأة فلما رأى ذلك قال: لا مشكلة أستعمل القلم بدل النعل ثم وضع قلمه تحت رجله وأراد المشي.. لقلنا له: أنت مجنون لأن القلم صنع للكتابة ولم يصنع للمشي..

وكذلك لو احتاج قلمًا فلم يجد فقال: لا مشكلة أكتب بحذائي..! ثم تناول حذاءه وبدأ يجره على الورق! لقلنا له: أنت مجنون لأن الحذاء إنما صنع لوظيفة واحدة هي المشي ولم يصنع للكتابة..

كذلك الإنسان.. خلق لوظيفة واحدة هي طاعة الله وعبادته.. فمن استعمل حياته لغير هذه الوظيفة فلا بد أن يضل ويشقى..

ولو نظرت في حال من استعملوا حياتهم لغير ما خلقوا له لوجدت في حياتهم من الفساد والضياع ما لا يوجد عند غيرهم.. هلا تسألت معي: لماذا يكثر الانتحار في بلاد الإباحية والفجور؟ لماذا ينتحر في أمريكا سنويًا أكثر من خمسة وعشرين ألف شخص؟

وقل مثل ذلك في بريطانيا.. وقل مثله في فرنسا.. والسويد.. وغيرها..!

لماذا ينتحرون؟!..

ألم يجدوا خمورًا يشربون؟ بلى الخمور كثيرة..

ألم يجدوا بلادًا يسافرون؟ بلى البلاد واسعة..

أم منعوا من الزنا؟ أم حيل بينهم وبين الملاعب والملاهي؟

بلى.. هم يفعلون ما شاءوا.. يتقلبون بين متع أعينهم.. وأبصارهم وفروجهم..

إذن.. لماذا ينتحرون.. لماذا يملون من حياتهم؟!

لماذا يتركون الخمور والزنا والملاهي.. ويختارون الموت؟

الجواب واضح: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤] تلاحقهم المعيشة الضنك في ذهاب أحدهم ومجيئه.. وسفره وإقامته.. تأكل معه وتشرب.. تقوم معه وتقعد.. تلازمه في نومه ويقظته.. تنغص عليه حياته حتى الموت..

ومن أعرض عن الله وتكبر.. ألقى الله عليه الرعب الدائم.. قال الله: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [آل عمران:١٥١] لماذا؟ ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران:١٥١]..

أما العارفون لربهم.. المقبلون عليه بقلوبهم فهم السعداء ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧]..

قال الشيخ: ذهبت للعلاج في بريطانيا..

فدخلت إلى مستشفى من أكبر المستشفيات هناك.. لا يكاد يدخله إلا كبير أو وزير.. فلما دخل علي الطبيب ورأى مظهري قال: أنتم مسلم؟

قلت: نعم..

فقال: هناك مشكلة تحيرني منذ عرفت نفسي.. هل يمكن أن تسمعها مني؟

قلت: نعم..

فقال: أنا عندي أموال كثيرة.. ووظيفة مرموقة.. وشهادة عالية.. وقد جربت جميع المتع.. شربت الخمور المتنوعة.. وواقعت الزنا.. وسافرت إلى بلاد كثيرة.. ومع ذلك.. لا أزال أشعر بضيق دائم.. وملل من هذه المتع..

عرضت نفسي على عدة أطباء نفسيين.. وفكرت في الانتحار عدة مرات لعلي أجد حياة أخرى.. ليس فيها ملل..

ألا تشعر أنت بمثل هذا الملل والضيق؟!

فقلت له: لا.. بل أنا في سعادة دائمة.. وسوف أدلك على حل المشكلة.. ولكني أجبني..

أنت إذا أردت أن تمتع عينيك، فماذا تفعل؟

قال: أنظر إلى امرأة حسناء أو منظر جميل..

قلت: فإذا أردت أن تمتع أذنيك فماذا تفعل؟

قال: أستمع إلى موسيقى هادئة..

قلت: فإذا أردت أن تمتع أنفك فماذا تفعل؟

قال: أشم عطرًا.. أو أذهب إلى حديقة..

قلت له: حسنًا.. إذا أردت أن تمتع عينك لماذا لا تستمع إلى الموسيقى؟

فعجب مني وقال: لا يمكن لأن هذه متعة خاصة بالأذن..

قلت: فإذا أردت أن تمتع أنفك لماذا لا تنظر إلى منظر جميل؟

فعجب أكثر مني وقال: لا يمكن لأن هذه متعة خاصة بالعين.. ولا يمكن أن يتمتع بها الأنف..

قلت له: حسنًا.. وصلت إلى ما أريده منك.. أنت تحس بهذا الضيق والملل في عينك؟

قال: لا! قلت: تحس به في أذنك؟!.. في أنفك؟!.. فمك؟!.. فرجك؟!..

قال: لا.. بل أحس به في قلبي.. في صدري..

قلت: أنت تحس بهذا الضيق في قلبك.. والقلب له متعة خاصة به.. لا يمكن أن يتمتع بغيرها.. ولا بد أن تعرف الشيء الذي يمتع القلب، لأنك بسماعك للموسيقى.. وشربك للخمر.. ونظرك وزناك.. لست تمتع قلبك وإنما تمتع هذه الأعضاء!..

فعجب الرجل، وقال: صحيح.. فكيف أمتع قلبي؟!

قلت: بأن تشهد أن لا إله إلا الله.. وأن محمدًا رسول الله.. وتسجد بين يدي خالقك.. وتشكو بثك وهمك إلى الله..

فإنك بذلك تعيش في راحة واطمئنان وسعادة.. فهز الرجل رأسه وقال: أعطني كتبًا عن الإسلام.. وادع لي.. وسوف أسلم.. ثم أكملت علاجي وسافرت.. ولعل الرجل يكون أسلم بعد ذلك..

وصدق الله إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]

فعجبًا لأقوام يلتمسون الأنس والانشراح.. ويبحثون عن السعادة في غير طريقها.. والله يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]..

ففرق الله بين عيش السعداء.. وعيش الأشقياء.. في المحيا والممات..

قال الشيخ: جاء إلي شاب يومًا.. فتأملت وجهه فإذا هو وجه مظلم مكتئب.. فسألته عن حاجته.. فسكت.. كررت عليه السؤال.. فلم يتكلم.. نظرت إليه.. فإذا دموعه تسيل من عينيه.. فسألته: لماذا تبكي؟

فقال: لا أستطيع التنفس من شدة الضيق.. والملل.. أشعر والله يا شيخ أن على صدري جبلاً يكتم أنفاسي.. لم أعد أتحمل الناس.. ولا الأصدقاء.. بل أمي وأبي وإخوتي.. لم أعد أطيق الجلوس معهم.. ضحكي مجاملة.. وسروري تظاهر.. فجئت إليك لتعالجني بالرقية.. أو تدلني على من يعالجني.. ثم احتبس صوته وصمت..

فسألته: هذا الضيق لا بد أن له سببًا.. فما السبب؟ فقال: لا أدري..

فقلت: كيف علاقتك بربك..

فقال: سيئة.. واسمع قصتي.. قلت: هاتها..

فقال: لما كان عمري أربع عشرة سنة.. ذهب أبي إلى أمريكا للدراسة فذهبت معه.. وأهملني أبي هناك بين المراقص والأسواق وأنا في تلك السن المبكرة..

فلما أتم أبي دراسته سنتين عدنا إلى الرياض فطلبت أن يعيدني إلى أمريكا لأكمل الدراسة فرفض.. فدرست في السنة الثالثة المتوسطة وتعمدت أن أرسب في جميع المواد.. وأعدت السنة.. وتعمدت أن أرسب.. فأعدت السنة ثالثة.. وتعمدت أن أرسب أيضًا.. فلما رأى أبي ذلك أرسلني إلى أمريكا.. لأكمل دراستي.. وكان المفروض أن أنهي الدراسة في أربع سنوات لأتخرج في الثانوية.. لكني أنهيتها في تسع سنوات..

لم تبق معصية على وجه الأرض إلا فعلتها هناك.. لأنني كنت أريد أن أتمتع بشبابي بقدر ما أستطيع..

ثم عدت إلى الرياض وبدأت أدرس في الجامعة.. وأنا لا أزال على المعاصي الكبيرة

والصغيرة لكن هذا الضيق الشديد.. بدأ يكتم علي أنفاسي.. يضيق علي حياتي.. مللت من كل شيء.. كل شيء جربته..

لكن الملل يلازمني..! قال هذا الكلام كله.. وهو يدافع عبراته.. ويبكي..

فسألته: هل تصلي..؟

قال: لا..

قلت: أول علاج لهذا الهم هو أن تصلح علاقتك بالذي قلبك بين يديه يقلبه كما يشاء.. فحافظ على الصلاة في المسجد.. وموعدي معك بعد سبعة أيام..

ومضت الأيام.. وبعد أسبوع جاءني بغير الوجه الذي فارقته عليه.. وأول ما رآني عانقني وقال: جزاك الله خيرًا.. والله يا شيخ إنني في سعادة ما ذقتها منذ تسع سنوات.. فسألته عن الضيق والملل والاكتئاب.. فإذا هو قد زال عنه كله.. وصدق الله إذ قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

قال الشيخ: جاءني شخص يومًا وقال:

يا شيخ أخي مصاب بسحر وأريدك أن تدلنا على أحد يقرأ عليه شيئًا من القرآن.. ويرقيه بالرقية الشرعية.. فطلبت أن أقابل أخاه.. فلما جاء إلي.. فإذا المريض مكتئب الوجه.. ضائق الصدر.. مضطرب الحال..

فسألته من ماذا تشتكي؟

فقال: أنا مسحور!

فسألته: ما علامات سحرك؟!

فقال: أشعر بضيق دائم.. يلازمني الملل والاكتئاب.. مللت من كل شيء.. وكرهت مخالطة الناس.. حتى أمي وإخوتي لم أعد أتحمل مجالستهم.. زوجتي كثرت المشاكل بيننا فذهبت إلى أهلها منذ سنة.. أولادي أمل من مجالستهم.. ثم دافع عبراته وسكت..

فقلت له: ولماذا تجزم بأنك مصاب بسحر.. لعل ما أصابك هو عقوبة من الله تعالى على

بعض معاصيك.. لعل الله اطلع عليك وأنت تعصيه فنزع منك انشراح الصدر.. والله يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠]..

فقال: لا.. أنا مسحور فاقرأ علي الرقية الشرعية..

قلت: حاسب نفسك وراقب عملك وأبشر بالخير..

فقال: لا.. بل أنا مسحور فاقرأ علي..

فلما أكثر علي تناولت كأس ماء بجانبي ثم قرأت الفاتحة ونفثت فيه..

ثم قلت له: اشرب.. قد قرأت عليك!..

فشرب الماء وخرج..

وبعد يومين اتصل بي أخوه وقال: يا شيخ.. أبشرك.. قد نفع الله بتلك القراءة.. فعجبت!.. وقلت: كيف؟

قال: قد كان أخي بالأمس عند أمي وإخوتي طوال اليوم.. وفي المساء أحضر زوجته وأولاده.. والله يا شيخ، إن أمي وزوجته تدعون لك.. وجزاك الله خيرًا على فك السحر.. فعجبت والله من ذلك.. وطلبت منه أن يحضر مع أخيه إلي.. فلما حضرا.. سألت المريض: يا فلان.. وجدت السحر؟!

قال: لا.. ولكن وجدت شيئًا آخر.. وجدت أفلامًا خليعة.. ومخدرات..

قلت: كيف؟!

قال: لما ذهبت من عندك حاسبت نفسي.. وتأملت في الآية ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠] فأخذت أتلمس موضع الخلل.

فإذا أنا لست حريصًا على الصلاة أبدًا.. إضافة إلى أني منذ زمن.. مدمن النظر إلى الأفلام الخليعة.. فمن كثرة مشاهدتي لها أبغضت زوجتي.. وأولادي.. وصار الضيق يلازمني.. فبدأت أتعاطى المخدرات لإزالة هذا الضيق عني.. فزاد غمي غمًا.. وكنت أظن أني مسحور لشدة هذا الضيق..

فجمعت هذه الأفلام وأحرقتها.. ثم أخذت ما تبقى عندي من المخدرات وألقيتها في

المرحاض وصببت عليها الماء.. وأعلنت التوبة لله تعالى..

فوالله يا شيخ ما كدت أفعل ذلك.. حتى شعرت كأن جبلاً كان فوق صدري وانزاح عني..

الوصية السادسة..

أهل الجنة قوم سمت نفوسهم عن التعلق بمحبة الخلق إلى التعلق بمحبة الخالق.. يحبهم ربهم.. ويحبونه.. ربهم أحب إليهم من أهلهم وأموالهم وأنفسهم.. طالما تملقوا إليه في الأسحار.. وبكوا من خشيته في النهار.. اشتاقت عيونهم إلى رؤيته.. وتقطعت قلوبهم من عظم محبته..

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بين وبينك عامر	وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذي فوق التراب تراب

اشتاقت نفوسهم لرؤية ربهم حتى استحقوا النظر إليه يوم القيامة فبشرهم الله بذلك وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]..

فكن من هؤلاء.. واحذر أن تكون ممن تعلقت نفوسهم بالعشق المحرم..

فقد تحب (أو تحبين) أحدًا لأنه قوام لليل.. صوام للنهار.. أو حافظ للقرآن.. أو داع إلى الله.. فهذه المحبة لله.. وصاحبها مأجور عليها.. والمتحابون في الله يوم القيامة يكونون على منابر من نور يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء..

وقد تحب شخصًا (أو تحبينه).. لجمال وجهه.. أو رقة كلامه.. أو تغنجه ودلاله.. دون النظر إلى صلاحه وطاعته.. لله.. فهذه المحبة لغير الله.. ولا تزيدك من الله إلا بعدًا.. وقد هدد الله أصحابها فقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]..

بل إن هؤلاء المتحابين الذين اجتمعوا على ما يغضب الله يعذبون يوم القيامة.. وينقلب

حبهم إلى عداوة.. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [العنكبوت:٢٥].

وإن من أكبر أسباب وقوع هذا العشق المحرم: النظر إلى الأفلام الهابطة.. التي يختلط فيها الرجال بالنساء.. حتى يقع في قلب الناظر إليها أن الاختلاط أمر عادي.. فيبدأ في البحث عن معشوق أو معشوقة..

وأعظم من ذلك إذا كانت هذه الأفلام مما يقع فيها مشاهد الحب والغرام.. واللمسات والقبلات.. فإذا رآها الشباب والفتيات حركت فيهم الساكن.. وأظهرت الباطن.. ونزعت الحياء.. وقربت البلاء..

وكذلك من رأى صور الفجور.. ومشاهد المجون.. لا بد أن تندفع نفسه إلى تقليدها في كل حين.. في السوق.. وعلى فراشه.. وفي مكتبه.. ولا يزال الشيطان يدعوه إليه؛ لذلك لما أمر الله تعالى بحفظ الفروج عن الزنا.. أمر قبل ذلك بغض البصر فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠] وفي الحديث: «العين تزني وزناها النظر»[1]..

ومن أسباب التعلق بهذا العشق: الاستماع إلى الأغاني.. وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه «الغناء رقية الزنا».. يعني: طريقه ووسيلته..

عجبًا.. هذا يقوله ابن مسعود لما كان الغناء يقع من الإماء المملوكات.. يوم كان الغناء بالدف والشعر الفصيح.. يقول رضي الله عنه: هو رقية الزنا.. فماذا يقول لو رأى زماننا وقد تنوعت الأصوات والألحان.. وأصبحت الأغاني تسمع في السيارة والطائرة والبر والبحر.. وكم في الأغاني من شرور.. فما يذكر فيها إلا الحب والغرام.. والعشق والهيام..

بالله عليك هل سمعت مغنيًا غنى في الحث على غض البصر؟

أو كفالة الأيتام؟

أو الصلاة في المسجد؟

---

(١) متفق عليه.

أو التوبة؟

ما سمعنا عن شيء من ذلك ـ بل كل إناء بما فيه ينضح ـ.. امتلأ قلب هذا المغني بالشهوات.. وتعلق بالملذات.. فبدأ ينفق مما عنده.. ويلغ في قلوب الشباب والفتيات.. ويدعوهم إلى الولوغ فيما ولغ فيه.. وإذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا.. إحداهن بالتراب.

إن تعلق الشاب بشاب مثله.. وافتتان الفتاة بفتاة مثلها.. لهو الخطر الأكبر.. والخطب الأعظم..

ومن تساهل بالنظر الحرام.. أوقعه ذلك في أحد الخطرين.. إما عشق النساء.. أو عشق المردان.. ولا يزال الشيطان به حتى يقع في الفاحشة عياذًا بالله..

وقد ذم الله هذه الفاحشة الشنيعة وجعلها قرينة الشرك والقتل فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] ثم ذكر الله تعالى عذاب الزناة يوم القيامة فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨ ـ ٧٠].

وكم من فتاة ضيعت شبابها.. وفضحت أهلها.. أو قتلت نفسها بسبب ما تسميه العشق.. وكم من فتى أشغل أيامه وساعاته.. وأضاع أنفاس حياته.. فيما يسميه العشق.. ونحن في زمن كثرت فيه المغريات.. وتنوعت الشهوات..

وترك المفسدون في قنواتهم ومجلاتهم.. مخاطبة العقول والأفهام.. ولجئوا إلى مخاطبة الغرائز وإثارة الحرام.. فأصبح الشباب والفتيات حيارى.. بين مجلات تغري.. وشهوات تسري.. وقنوات تعري.. وأفلام تزين وتجرئ..

ودواء ذلك كله الصحبة الصالحة..وغض البصر.. والنكاح الحلال.. وملء وقت الفراغ بما ينفع.. ولا شك أن الرفاهية الزائدة.. ونقص الإيمان تجر إلى هذه التوافه..

أنقذ نفسه وابنته

قال الشيخ: كان ابن عم لي يسكن في إحدى الدول المجاورة.. التي يظهر فيها السفور.. وكان هذا الرجل غنيًا منعمًا.. وكبر أولاده وبناته.. فلما وصلت إحدى بناته إلى

المرحلة الجامعية طلبت منه أن يشتري لها سيارة تتنقل بها كيفما شاءت.. فغضب وقال: السيارة مفتاح شر.. وقد يتعرض لك الفساق.. وتجعلك تختلطين بالرجال في الشارع وإدارة المرور وغير ذلك.. وأنا وإخوانك لم نقصر معك..

فأصرت الفتاة.. وبكت.. حتى اشترى لها السيارة.. وبدأت تذهب وتجيء كيفما شاءت.. فلما أنهت سنة من الجامعة وجاءت العطلة..

قالت لأبيها: أريد أن أقضي الإجازة في بريطانيا مع صديقاتي لدراسة اللغة الإنجليزية!

فعجب الأب المسكين وقال: في بريطانيا!.. لا ضرورة لذلك.. فأصرت عليه وتباكت..

فقال لها: نعم تذهبين.. ولكن أذهب معك أنا.. أو أخوك..

فغضبت.. وقالت: أنا واثقة بنفسي.. ولا يمكن أن أتعرض لمكروه.. فأبى عليها.. لكنها تعرف دواءه.. بكت.. وأقفلت على نفسها في غرفتها.. وأضربت عن الطعام والشراب.. حتى رق لها قلبه.. ودمعت عينه.. وقال: اخرجي من عزلتك وسوف تسافرين إلى بريطانيا.. ففرحت الفتاة.. وبدأت تجمع حقائبها.. وترتب ملابسها.. لكن الأب في هذه المرة طفح عنده الكيل.. وعلم أنه لا بد أن يجد حلاً حازمًا.. فماذا فعل؟

رفع الأب سماعة الهاتف واتصل بأحد أقاربهم.. يسكن في مدينة تقع على طريق مكة المكرمة.. اتصل به وقال له: يا فلان! هل تذكر فلانًا ابن عمنا.. الذي يسكن في خيمة في البر؟

قال صاحبه: نعم.. وهو لا يزال على حاله في البر.. يرعى الغنم.. وعنده إبل.. ويشتغل ببيع السمن.. والأقط.. فسأله صاحبنا: هل تزوج؟

قال: لا.. ومن يزوجه.. وهو إعرابي في الصحراء.. لا يقر له قرار.. يرحل بخيمته كل حين.

فقال: حسنًا.. أنا آت إلى مكة بعد يومين.. وسوف أتغدى عندك وأريدك أن تدعو فلانًا ليتغدى معنا..

قال: حسنًا.. ثم ودعه وأقفل الهاتف..

وجاء الأب إلى ابنته وقال: سوف نذهب للعمرة بالسيارة.. ثم تسافرين إلى بريطانيا

بالطائرة عن طريق مطار جدة..

فلما كان يوم السفر.. جمعوا الحقائب.. وسارت العائلة في أمان الله..

فلما انتصف بهم الطريق إلى مكة توجه الأب إلى مدينة صاحبه وقال لأهله: نرتاح قليلاً في بيت فلان.. ونتغدى.. ثم نكمل السفر..

وصل إلى بيت صاحبه.. فدخلت النساء عند النساء.. ودخل هو عند الرجال.. والتقى بصاحبه راعي الإبل والغنم.. فتحدث معه طويلاً.. ثم عرض عليه أن يزوجه ابنته! فوافق فورًا.. ثم دعوا مأذونًا شرعيًا.. وعقد النكاح.. ثم خرج الأب ونقل حقائب البنت.. العروس.. من سيارته إلى سيارة زوجها.. ثم صاح بأهله ليخرجوا.. فخرجت زوجته بأطفالها.. وخرجت البنت الرقيقة.. تنفض يديها من غبار المنزل.. وتتأفف من ذبابه وحشراته..

فلما ركبت مع أبيها.. زف إليها بشرى زواجها.. فظنت أنه يمزح.. لكنه بدا جادًا.. وأمرها بالنزول مع زوجها.. فأبت.. وبكت.. وتعلقت بأمها..

فتوجه الأب إلى الزوج وقال: زوجتك العروس تستحي أن تأتي لتركب معك.. فتعال أنت وخذها..

فنزل الرجل فرحًا مستبشرًا.. متغنجًا متدللاً.. وفتح باب السيارة.. وحملها معه.. ثم أركبها في سيارته.. وشق الصحراء.. وغاب بين كثبان الرمال..

ومضى بها إلى خيمة السعادة..

أما الأب فقد كان حازمًا.. تغلب على بكاء الأم وتوسلاتها.. ورجع ببقية العائلة إلى بلده..

ومضى أسبوع.. فاتصل الأب بصاحبه الذي في المدينة وسأله عن أخبار صهره الجديد وابنته.. فقال: قد رأيتهما في السوق قبل يومين وهما بخير..

ومضت الأيام والشهور.. والأب يتلقى الأخبار من صاحبه هاتفيًا.. فلما مضت سنة.. اتصل به صاحبه وبشره بأن ابنته قد رزقت بغلام..

وبعد شهور.. ذهبت العائلة لزيارة ابنتهم.. ووصلوا إلى مدينة صاحبهم.. واصطحبوه معهم..

وشقوا الصحراء.. ومشوا بين الكثبان.. وبدءوا يبحثون عن ابنتهم وخيمتها.. وبينما هم

يبحثون.. إذ أقبلوا على خيمة عند بابها امرأة حامل وبجانبها طفل صغير.. فلما اقتربوا.. فإذا هي ابنتهم.. فرحبت.. وحيت.. وصاحت بزوجها.. وجاء وأكرمهم..

فكان زواجها من هذا الرجل خيرًا لها من جامعتها.. ومن بريطانيا.. مع ملاحظة أن تزويج البنت بغير رضاها لا يجوز.. ولكني أوردت هذه الحادثة لبيان عاقبة الترف والفراغ على الشباب والفتيات..

وقد يزين الشيطان للفتى أو للفتاة أنه جميل جذاب.. وأن الطرف الآخر معجب به.. فإذا مشى في الأسواق.. أو ضاحك الرفاق.. ظن أن يلفت الأنظار.. ويفتن الواقف والمار.. فيدفعه ذلك للتعرض والتبذل.. ويحتال عليه أصحاب الشهوات حتى يعبثوا به (أو بها) فإذا قضوا شهواتهم منه (أو منها) ذهبوا يبحثون عن فريسة أخرى..

أريد أن أتوب..

قال الشيخ: ألقيت محاضرة في أحد المساجد.. فلما خرجت من المسجد إذا شاب ينتظرني عند سيارتي.. جسمه نحيل.. ووجهه شاحب.. ومظهره مخيف..

فلما رأيته فزعت.. وقلت له: ماذا تريد؟!

فقال لي: أنا يا شيخ.. قررت أن أتوب.. فظننت أنه سيتوب من تهريب المخدرات.. أو قطع الطريق.. أو القتل.. إذ أن مظهره قد يوحي بذلك.. لكنني سألته وقلت: تتوب من ماذا؟

فقال: من مغازلة الفتيات؟!

فعجبت.. لكنني سكت.. وقلت له مشجعًا: نعم.. الحمد لله على أن وفقك الله للتوبة.. فصاح بي قائلاً: ولكن هناك أمر يمنعني من التوبة! قلت له: ما هو؟

فقال: إذا مشيت في السوق.. البنات ما يتركنني.. يغازلنني في كل زاوية..!

فتأمل كيف خدعه الشيطان..

فعجبًا لمسلم (أو مسلمة) يستغويه الشيطان بنظرة أو كلمة.. وهو يعلم أنه سوف يحاسب على الخطرات والنظرات..

ومن أعظم صفات أهل الجنة الصبر عن الشهوات؛ لذا يقال لهم يوم القيامة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤] أما أهل النار فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠].

فهل تكون من الصابرين عن الشهوات لتفوز بجنات النعيم..

الوصية السابعة..

احرص على تعلم أحكام الدين وتعليمها.. وهذه عبادة عظيمة.. بل هي وظيفة الأنبياء الذين هم أرفع أهل الجنة منازل..

ولشرف العلم وعلو مرتبته قال الله لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] وما أمر الله رسوله بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم.. ومن نظر في حال أكثر الناس وجد عندهم من العزوف عن العلم وتعلمه.. وحضور مجالسه.. وقراءة كتبه.. ما أغرق كثيرًا منهم في لجج الجهل والسفاهة..

أوقفني مرة شاب يدرس في المرحلة الجامعية وقال: عندي سؤال! قلت: ما سؤالك؟

فقال: إذا أردت أن أصلي النافلة كالوتر والضحى هل يجب علي أن أتوضأ.. أم أصلي من غير طهارة؟!

فعجبت من سؤاله وظننت أنني لم أفهم.. وطلبت منه إعادة السؤال.. فأعاده كما هو!

فقلت: طبعًا يجب عليك أن تتوضأ.. عندك شك في هذا؟!

فقال: هذه الصلاة تبرع مني.. فلماذا أتوضأ لها..؟!

وقال الشيخ: ألقيت كلمة في أحد المساجد حول أحكام الطهارة الكبرى والصغرى.. فلما خرجت أمسك بي شاب جامعي وقال: ذكرت يا شيخ أن من استيقظ من نومه وهو جنب.. بسبب الاحتلام.. فإنه يلزمه الغسل..

قلت له: نعم.. صحيح..

فصاح بي وقال: هل الذي يلزمه وضوء فقط كوضوء الصلاة.. أم غسل كامل..؟!

قلت: بل يلزمه غسل كامل.. يعمم جسده كله بالماء.. فإن لم يفعل لم يرتفع حدثه.. وبالتالي لا تصح صلاته..

فقال: والله منذ سنوات إذا أصابتني جنابة في النوم اكتفيت بالوضوء كوضوء الصلاة.. ولم أعلم بوجوب الغسل في هذه الحالة إلا الآن..!

ولا عجب أن ترد مثل هذه الأسئلة في زمن قل علماؤه.. وكثر جهاله.. بل قد أخبر النبي ﷺ أن من علامات الساعة أن يقل العلم.. ويكثر الجهل.. ففي الحديث: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل»[1]، وقال ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأيامًا يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل..»[2]..

ومن نظر في مجالس كثير من الناس اليوم.. وجد أنها تشغل بمعصية من سماع أو نظر محرم.. أو بأمور تافهة.. وأحاديث لا تفيد في دين ولا دنيا..

قال الشيخ: جلست مرة في مجلس فيه أكثر من أربعين رجلاً.. فكثر لغطهم.. حتى ارتفعت أصواتهم.. ومضى قرابة ساعة على ذلك..

فحاولت إسكاتهم فشق علي.. وكان الذي بجانبي من أكابرهم.. فالتمست منه أن يسكتهم فصاح بهم فسكتوا..

فقلت لهم: منذ أن جلسنا وأنتم تتحدثون في أمور لا أدري هل تكتب في صحيفة الحسنات أم السيئات.. ولكن أسألكم سؤالاً..

كلكم تحفظون سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؟

فتصايحوا: نعم.. نعم..

فقلت: ما معنى ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:٢]؟

فسكتوا جميعًا..

فقلت: تحفظون سورة الفلق؟

قالوا: نعم.. نعم..

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

فقلت: ما معنى ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق:٣]؟!.. فسكتوا..

فقلت: لو أنكم أثناء جلوسكم قرأتم تفسير آية.. أو شرح حديث.. أو تعلمتم حكمًا من أحكام الدين لكان خيرًا لكم وأقوم..

وقد قال أبو القاسم ﷺ: «أيما قوم جلسوا.. فأطالوا الجلوس.. ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله.. ويصلوا على نبيه ﷺ إلا كانت عليهم من الله ترة ـ أي ثأر وعقوبة ـ إن شاء عذبهم.. وإن شاء غفر لهم»[1]..

والعجب من أقوام يشغلون مجالسهم بما لا يفيد فإذا تكلم من يفيدهم.. أو يلقي عليهم كلمة.. أعرضوا عنه وشعروا بالملل.. واشتاقوا إلى الاشتغال بغير ذلك من التوافه.. ويخشى على هؤلاء أن يكون بهم شبه ممن قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥]..

ذكر خالد بن صفوان ـ وهو أحد البلغاء الأدباء ـ كان يعمر مجالسه بتذاكر الأخبار والتاريخ والأدب..

فقال له رجل يومًا: أيها الأمير.. ما لي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار.. وتتدارسون الآثار.. وتتناشدون الأشعار.. مللت ووقع علي النوم؟!

فقال له خالد: لأنك حمار في صورة إنسان..

نعم.. إن الذي همه في دنياه الأكل والشرب والنوم.. ويتغافل عن طلب العلم.. وتعلم الدين.. هو أشبه بالدواب.. وأقرب إلى الخراب.. حياته محدودة.. وأنفاسه معدودة.. وأوقاته ضائعة..

فانتبه أن تمضي حياتك سدى.. ولتكن أنت المبادر إلى إفادة الناس في مجالسهم.. احضر معك كتابًا نافعًا واقرأ عليهم منه ولو لمدة عشر دقائق تزكون بها مجلسكم.. وتطهرون نفوسكم..

قال إبراهيم التيمي: أتيت أبا يوسف القاضي أعوده في مرض موته فوجدته مغمى عليه..

---

(١) رواه الترمذي والحاكم واللفظ به، وهو حديث حسن.

فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم.. أيهما أفضل للحاج في رمي الجمار.. أن يرميها الرجل راجلاً أو راكبًا..

فقلت: راكبًا.. فقال: أخطأت..

قلت: ماشيًا.. قال: أخطأت..

قلت: قل فيها.. رضي الله عنك..!

قال: أما ما يوقف عنده للدعاء.. فالأفضل أن يرميه راجلاً.. وأما ما لا يوقف عنده فالأفضل أن يرميه راكبًا..

فقلت: نفع الله بعلمك.. وجزاك عني خيرًا.. ثم قمت من عنده..

فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه.. وإذا هو قد مات رحمه الله..

وقال الفقيه الوالجي: دخلت على أبي الريحان البيروني وهو يجود بنفسه.. وقد حشرج نفسه.. وضاق به صدره.. فتذكر وهو في تلك الحالة مسألة في المواريث.. كنت قد حدثته بها.. فقال لي: كيف قلت لي يومًا حساب الجدات من جهة الأم؟!

فقلت له ـ إشفاقًا عليه ـ: أفي هذه الحالة؟!

فقال لي: يا هذا! أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة.. ألا يكون خيرًا من أن أموت وأنا جاهل بها؟!..

فأعدت عليه تلك المسألة.. فحفظها.. ثم خرجت من عنده فلما صرت في الطريق سمعت الصراخ عليه..

فاتعظ بهذه الهمم العلية.. وابك على تقصيرك ودنو همتك.. واستدرك ما فرط من عمرك.. وتدارك أوقاتك وأنفاسك أن تذهب سدى..

عود نفسك أن لا يمر يوم إلا وقد قرأت صفحات من كتاب نافع.. أو تعلمت تفسير آية.. أو معنى حديث..

وإذا مر بك يوم لم تكتسب تقى ولم تستفد علمًا فما ذاك من عمرك..

وطلب العلم من أسباب دخول الجنة، قال ﷺ: «... ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا،

سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

الوصية الثامنة..

أهل الجنة.. عظموا ربهم حق التعظيم.. قاموا على أقدام الخوف.. خافوا من ويلات الذنوب.. وتركوا لذة عيشهم.. في سبيل أن يلقوا ربهم وهو راضٍ عنهم.. ماعز بن مالك رضي الله عنه..

كان شابًا من الصحابة.. متزوجًا في المدينة.. وسوس له الشيطان يومًا.. وأغراه بجارية لرجل من الأنصار.. فخلا بها عن أعين الناس.. وكان الشيطان ثالثهما.. فلم يزل يزين كلاً منهما لصاحبه حتى زنيا..

فلما فرغ ماعز من جرمه.. تخلى عنه الشيطان.. فبكى وحاسب نفسه.. ولامها.. وخاف من عذاب الله.. وضاقت عليه حياته.. وأحاطت به خطيئته.. حتى أحرق الذنب قلبه..

فجاء إلى طبيب القلوب.. ووقف بين يديه وصاح من حر ما يجد.. وقال: يا رسول الله، إن الأبعد قد زنا.. فطهرني..

فأعرض عنه النبي ﷺ.. فجاء من شقه الآخر فقال: يا رسول الله.. زنيت، فطهرني..

فقال ﷺ: «ويحك ارجع.. فاستغفر الله وتب إليه»..

فرجع غير بعيد.. فلم يطق صبرًا.. فعاد إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله طهرني..

فقال رسول الله ﷺ: «ويحك ارجع، فاستغفر الله وتب إليه»..

قال: فرجع غير بعيد.. ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني..

فصاح به النبي ﷺ.. وقال: «ويلك.. وما يدريك ما الزنا؟».. ثم أمر به فطرد.. وأخرج..

ثم أتاه الثانية.. فقال: يا رسول الله، زنيت.. فطهرني..

---

(١) رواه مسلم.

فقال: «ويلك.. وما يدريك ما الزنا؟».. وأمر به.. فطرد وأخرج.. ثم أتاه.. وأتاه.. فلما أكثر عليه.. سأل رسول الله ﷺ قومه: «أبه جنون؟»..

قالوا: يا رسول الله، ما علمنا به بأسًا..

فقال: «أشرب خمرًا؟» فقام رجل فاستنكهه وشمه فلم يجد منه ريح خمر..

فالتفت إليه النبي ﷺ وقال: «هل تدري ما الزنا؟»..

قال: نعم.. أتيت من امرأة حرامًا، مثل ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً..

فقال ﷺ: «فما تريد بهذا القول؟!»..

قال: أريد أن تطهرني..

فقال ﷺ: «نعم».. فأمر به أن يرجم.. فرجم حتى مات.. رضي الله عنه..

فلما صلوا عليه ودفنوه.. مر النبي ﷺ على موضعه مع بعض أصحابه.. فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا.. الذي ستر الله عليه ولم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلاب..

فسكت النبي ﷺ ثم سار ساعة.. حتى مر بجيفة حمار.. قد أحرقته الشمس حتى انتفخ وارتفعت رجلاه..

فقال ﷺ: «أين فلان وفلان؟»..

قالا: نحن ذان.. يا رسول الله..

قال: «انزلا.. فكلا من جيفة هذا الحمار»..

قالا: يا نبي الله! غفر الله لك.. من يأكل من هذا؟

فقال ﷺ: «ما نلتما من عرض أخيكما آنفًا.. أشد من أكل الميتة.. لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم.. والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[1].

فطوبى.. لماعز بن مالك.. نعم وقع في الزنا.. وهتك الستر الذي بينه وبين ربه.. لكنه لما فرغ من معصيته وذهبت اللذات.. بقيت الحسرات.. وعظمت السيئات.. فندم.. وتاب توبة لو

---

(١) أصل القصة في «الصحيحين»، وسقتها هنا من مجموع رواياتها في «الصحيحين» وغيرهما.

قسمت بين أمة لوسعتهم..

ولا يعني كلامنا عن ماعز رضي الله عنه أننا نطلب من كل من وقع في كبيرة أن يطالب بإقامة الحد عليه، لكن الذي نريده هو أن لا تتمكن المعصية من القلب حتى يألفها ولا يحدث منها توبة.. وقد أخبر النبي ﷺ عن أحوال القلوب فقال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا.. فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء.. وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء.. حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا.. فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا.. كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه»[1].

فأين تلك القلوب البيضاء التي ترتجف إذا وقعت في المعصية.. فتسارع إلى التوبة والإنابة.. فإن التساهل بالذنوب هو طريق السوء والخذلان في الدنيا والآخرة، وأهل الجنة إذا ذكروا تذكروا..

هل سمعت عن القعنبي؟.. الإمام العالم المحدث.. كان في شبابه يشرب النبيذ ويصحب الفساق.. فدعا أصحابه يومًا ليسكروا عنده.. وقعد على الباب ينتظرهم..

فمر شعبة بن الحجاج الإمام المحدث والناس خلفه يهرعون.. فعجب القعنبي من تزاحمهم على هذا الشيخ.. فسأل أحدهم وقال: من هذا؟

قال: الإمام شعبة بن الحجاج..

فقال مستهزئًا: وأيش شعبة؟!

قال: محدث.. عالم..

فلما سمع القعنبي كلمة (محدث) قام إلى شعبة وقال له ـ مستهزئًا ـ: حدثني.. (يعني: ما دمت محدثًا فحدثني).

فنظر إليه شعبة وقال: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك..

فغضب القعنبي.. وأشهر سكينه وقال: تحدثني أو أطعنك بسكيني؟!

---

(١) رواه مسلم.

فالتفت إليه شعبة وقال: حدثنا منصور.. عن ربعي.. عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[١].

فلما سمع القعنبي هذا الحديث.. وافق منه قلبًا صافيًا.. وتذكر ما يحارب به ربه منذ سنين.. ورمى سكينه ورجع إلى منزله.. وقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فأهرقه.. ثم استأذن أمه بالسفر إلى المدينة لطلب العلم.. ولازم مالك بن أنس.. حتى حفظ عنه وأصبح من كبار العلماء المحدثين.. وسبب هدايته موعظة عابرة.. لكنها صادفت قلبًا حيًا..

الوصية التاسعة..

هل أدلك على عبادة من أعظم العبادات.. كان رسول الله ﷺ يفعلها على جميع أحواله.. بل أمر الله تعالى المؤمنين بفعلها بعد الصلاة.. وبعد الصيام.. وبعد الحج.. بل وأثناء القتال.. وقبل الطعام وبعده.. وقبل النوم وبعده.. وقبل دخول الخلاء وبعده.. وهي مع ذلك لا تحتاج إلى استقبال القبلة.. ولا ستر العورة.. ولا فعلها في جماعة.. ولا السفر لأجلها.. ولا إنفاق ريال واحد لأجلها..

هذه العبادة.. يستطيع فعلها الكبير والصغير.. والغني والفقير.. والرجل والمرأة.. والعالم والجاهل.. والمشغول والفارغ..

هل عرفت هذه العبادة؟

هي التي مدح الله تعالى الصالحين والصالحات بأنهم يفعلونها دائمًا فقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]..

وقال ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟!»، قالوا: بلى، قال: «ذكر الله تعالى»[٢]..

---

(١) رواه الترمذي وهو حديث حسن، ومعنى الحديث: أنك إذا تجرأت على المعاصي ولم تخف أو تستح من خالقك الذي يراك ويراقبك، فافعل ما شئت من المعاصي فسوف تحاسب به يوم القيامة.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة، وهو صحيح.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله..

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يسبح في اليوم والليلة أكثر من اثنى عشر ألف تسبيحة! ويقول: هذا التسبيح أفتك به نفسي من النار..

ومن أفضل الأذكار: قراءة آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة.. قال ﷺ: «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة لم يحل بينه وبين دخول الجنة إلا الموت»[1]، وقال ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[2] فكن ذاكرًا لله على جميع أحوالك.. نعم.. قد تقصر في قيام الليل.. أو صيام النافلة.. أو الصدقة.. فانتبه أن تتكاسل نفسك عن الذكر.. وهو لا يكلفك شيئًا.. وقد قال ربك عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]..

الوصية العاشرة..

ما مصدر تلقي الدين بالنسبة إليك؟!.. سؤال مهم..

لاحظت أن بعض الناس يتتبعون الرخص.. ويفرحون بمن يفتيهم بما يوافق أهواءهم.. بل بعضهم إذا سمع فتوى توافق هواه.. طار بها فرحًا ومدح المفتي قائلاً: هذا هو الشيخ العالم.. هذا هو الشيخ الذي يفهم الواقع.. هذا الذي يعيش جراح المسلمين.. يقول هذا عن الفتوى وإن كانت تخالف الكتاب والسنة.. أو فيها تمييع للدين.. أو تساهل بالنصوص الشرعية.. أو تحايل للبحث عن الرخص والأقوال الضعيفة.. فالمهم أنها فتوى.. فتوى.. إن الله سيسألك يوم القيامة سؤالاً واحدًا محددًا ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]..

لن يسألك عن الشيخ فلان ولا فلان.. وإنما عن اتباع الكتاب والسنة.. فقط..

أعيد عليك السؤال المهم مرة أخرى: ما مصدر تلقي الدين بالنسبة إليك؟!

هل كل من لبس جبة أو عمامة وظهر في القنوات الفضائية.. وبدأ بـ(الحمد لله).. وختم

(١) رواه النسائي وابن السني، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

بـ(والله أعلم).. يكون مفتيًا؟!..

هل كل أحد يصلح أن يكون مصدرًا لتلقي الدين؟!

إن المقياس الذي ينبغي أن تحكم به على الشيخ المفتي هو أن تكون فتاواه موافقة للكتاب والسنة.. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]..

قال الشيخ: ألقيت محاضرة في أحد المساجد.. فجاء إلي أحدهم وقال:

يا شيخ لماذا تشدد في مسألة الاختلاط.. والشيخ الدكتور فلان في قناة (....) يقول: إن الاختلاط بين الرجال والنساء جائز في الولائم والحفلات إذا حسنت النية.. وكان النظر بغير شهوة؟! وألقيت محاضرة في مكان آخر فجاء إلي أحدهم.. وقال:

يا شيخ ما حكم الربا؟

قلت: حرام! بجميع صوره وأشكاله..

فقال: إن الشيخ فلانًا في قناة (....) يقول: إنه ضرورة من ضرورات العصر.. ولا بأس به..

وجاء إلي ثالث مستفتيًا عن حكم المعازف والموسيقى.. ثم قال: قد أفتى الشيخ فلان أنها حلال..

فلا تجعل دينك عرضة لكل من أراد أن ينتقصه أو يفسده عليك.. فإنك ستحاسب وحدك.. وتسأل وحدك ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]..

واحذر من أن تكون ممن يتبعون الأئمة المضلين.. وقد قال ﷺ: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»..

وخلاصة القول.. أن كلام هؤلاء المفتين المتساهلين بالدين لا ينطلي إلا على الأغبياء والجهال.. أما العقلاء فإنهم لا يطيرون خلف كل ناعق..

واستمع إلى هذين المثالين الطريفين:

الأول: غياث بن إبراهيم.. كان يتظاهر بالعلم.. ويزعم أنه يحفظ الأحاديث ويرويها.. وكان له وجاهة ولسان.. فكان الناس يجتمعون حوله فيحدثهم بالأعاجيب وهم يصدقونه..

رآه رجل يومًا على فعل لا يليق.. فقال له: ألا تستحي من الناس؟! فقال: أين الناس؟!

قال: هؤلاء الذين اجتمعوا لك..

قال: تعني هؤلاء! هؤلاء ليسوا ناسًا.. هؤلاء بقر..

وإذا أردت أن أثبت لك فتعال معي.. ثم ذهبا.. فجلس غياث في مجلسه وبدأ يحدث الناس عن الجنة ووصفها.. وهم يستمعون منصتين.. فلما رأى تفاعلهم معه.. اخترع حديثًا من عقله وقال لهم: قال ﷺ: من استطاع منكم أن يلمس أرنبة أنفه بلسانه دخل الجنة! فبدأ الناس ـ فورًا ـ يخرجون ألسنتهم ويحاولون لمس أرنبة الأنف!

فالتفت غياث إلى صاحبه وقال له: ألم أقل لك إنهم بقر؟!

أما الثاني: فهو رجل كان يدعي العلم الغزير.. ويجيب عن كل سؤال يرد عليه..

ولم يقل يومًا في أي مسألة: لا أعلم.. بل كان يؤلف أجوبة من عنده.. ويضع لها أدلة.. ويتظاهر بها أمام الناس..

فاجتمع بعض العقلاء يومًا وقالوا: هذا الرجل إما أنه أعلم أهل الأرض. أو أنه يستغل جهلنا.. ثم اتفقوا على أن يجروا له امتحانًا..

فألفوا كلمة من ستة أحرف ثم جاءوا إليه وقبلوا رأسه وعظموه.. ثم قالوا: يا شيخ.. مسألة.. أشكلت علينا وأردنا أن نتبين جوابها..

فقال: وقعتم على الخبير.. ما مسألتكم؟ تختلفون وأنا حي!..

فقالوا: ما الخنفشار؟!

فقال: الخنفشار نبات ينبت في جنوب اليمن.. فيه مرارة.. وإذا أكلته الناقة حبس اللبن في ضرعها.. ويستخدمه أهل الإبل إذا أرادوا بيعها.. يغشون به الناس حتى يظن المشتري أن الناقة تدر لبنًا كثيرًا.. وهي غير ذلك..

ثم اتكأ الشيخ وقال:

الخنفشار مشهور عند العرب.. وقد ذكروه في أشعارهم.. وذكره النبي ﷺ في سنته..

قال الشاعر متغزلاً بمحبوته:

لقـد عقـدت محبتكـم في فـؤادي ... كمـا عقـد الحليب الخنفشـار

ثم تنحنح.. وقال: أما الدليل من السنة.. فقد قال ﷺ: فتدافعوا إليه.. وتصايحوا.. وقالوا: كفى.. كفى.. اتق الله يا كذاب.. كذبت على لغة العرب.. وكذبت على الشاعر.. وتريد أن تكذب على رسول الله ﷺ.. ثم طردوه من بينهم.

فلا تجعل دينك لكل أحد يوجهه كيف شاء.. فالمفتي لا بد أن يتوفر فيه شرطان: العلم، والورع..

أما العلم: فهو الاستدلال الصحيح بنصوص الكتاب والسنة..

والورع: هو الخوف من الله تعالى في الفتوى..

وعدم الاغترار بالمال أو الجاه.. بل يقول الحق ولا يخاف في الله لومة لائم..

وما أقل العلماء الربانيين اليوم..

الوصية الأخيرة..

اذكر الوقوف بين يدي الله تعالى واعلم أن هذه الدنيا دار ممر لا مقر.. واسأل الله تعالى حسن الخاتمة..

قال صاحبي: كنت أدرس الطب في كندا، ولا أنسى أبدًا ذلك اليوم الذي كنت أقوم فيه بالمرور اليومي على المرضى في غرفة العناية المركزة في المستشفى، ولفت انتباهي اسم المريض الذي في السرير رقم (٣)، إنه محمد.

أخذت أتفحص وجهه الذي لا تكاد تراه من كثرة الأجهزة والأنابيب على فمه وأنفه، إنه شاب في الخامسة والعشرين من عمره مصاب بمرض (الإيدز) أدخل إلى المستشفى قبل يومين إثر التهاب حاد في الرئة.. حالته خطيرة.. جدًا.. جدًا..

اقتربت منه.. حاولت أن أكلمه برفق: محمد.. محمد.. إنه يسمعني لكنه يجيب بكلمات غير مفهومة..

اتصلت ببيته فردت علي أمه.. يبدو من لكنتها أنها من أصل لبناني.. عرفت منها أن أباه تاجر كبير يمتلك محلات حلويات..

شرحت للأم حالة ابنها.. وطال الكلام.. وأثناء حديثي معها بدأت أجراس الإنذار

تتعالى بشكل مخيف من الأجهزة الموصلة بذلك الفتى مؤشرة على هبوط حاد في الدورة الدموية.. ارتبكت في حديثي مع الأم.. صرخت بها: لا بد أن تحضري الآن..

قالت: أنا مشغولة في عملي وسوف أحضر بعد انتهاء الدوام..!

قلت: عندها ربما يكون الأمر قد فات.. وأغلقت السماعة..

بعد نصف ساعة أخبرتني الممرضة أن أم الفتى وصلت وتريد مقابلتي.. قابلتها.. امرأة في متوسط العمر لا تبدو عليها مظاهر الإسلام.. رأت حالة ابنها فانفجرت باكية.. حاولت تهدئتها وقلت: تعلقي بالله تعالى واسألي له الشفاء، قالت بذهول: أنت مسلم؟!

قلت: الحمد لله! قالت: نحن أيضًا مسلمون..

قلت: حسنًا.. لماذا لا تقفين عند رأسه وتقرئين عليه شيئًا من القرآن لعل الله أن يخفف عنه..

ارتبكت الأم.. ثم انخرطت في بكاء مرير.. وقالت: القرآن؟! لا أعرف! لا أحفظ شيئًا من القرآن!

قلت: كيف تصلين؟ ألا تحفظين الفاتحة؟!

فغصت بعبراتها وهي تقول: نحن لا نصلي إلا في العيد منذ أن أتينا إلى هذا البلد.. سألتها عن حال ابنها.. فقالت: كان حاله على ما يرام، حتى تردت بسبب تلك الفتاة..

قلت: هل كان يصلي؟

قالت: لا، لكنه كان ينوي أن يحج في آخر عمره (١)..

بدأت أجهزة الإنذار ترتفع أصواتها أكثر وأكثر.. اقتربت من الفتى المسكين.. إنه يعالج سكرات الموت..

الأجهزة تصفر بشكل مخيف..

الأم تبكي بشكل مخيف..

الأم تبكي بصوت مسموع..

الممرضات ينظرن بدهشة..

اقتربت من أذنه وقلت: لا إله إلا الله.. قل: لا إله إلا الله..

الفتى لا يستجيب.. قل: لا إله إلا الله.. إنه يسمعني..

بدأ يفيق وينظر إلي.. المسكين يحاول بكل جوارحه.. الدموع تسيل من عينيه.. وجهه يتغير إلى السواد..

قل: لا إله إلا الله.. قل: لا إله إلا الله..

بدأ يتكلم بصوت متقطع: آه.. آه.. ألم شديد.. آه.. أريد مسكنًا للألم.. آه.. آه.. بدأت أدفع عبراتي وأتوسل إليه قل: لا إله إلا الله..

بدأ يحرك شفتيه.. فرحت.. يا إلهي سيقولها.. سينطقها الآن..

لكنه قال: I Can't . I Can't أين صديقتي أريد صديقتي.. لا أستطيع.. لا أستطيع..

الأم تنظر وتبكي.. النبض يتناقص.. يتلاشى..

لم أتمالك نفسي.. أخذت أبكي بحرقة.. أمسكت بيده.. عاودت المحاولة: أرجوك.. قل: لا إله إلا الله.. لا أستطيع.. لا أستطيع..

توقف النبض.. انقلب وجه الفتى أسود.. ثم مات.. انهارت الأم.. وارتمت على صدره تصرخ.. رأيت هذا المنظر فلم أتمالك نفسي.. نسيت كل الأعراف الطبية.. انفجرت صارخًا بالأم: أنت المسئولة.. أنت وأبوه.. ضيعتم الأمانة ضيعكم الله.. ضيعتم الأمانة ضيعكم الله.. ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١].

وأخيرًا..

فإن أعظم ما يمنع العبد من دخول الجنة هو الشرك بالله، فهو أعظم المحرمات على الإطلاق.. قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثًا)»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله».. وكل ذنب يمكن أن يغفره الله إلا الشرك فلا بد له من توبة مخصوصة.. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

ومن مظاهر هذا الشرك المنتشرة في كثير من بلاد المسلمين:

عبادة القبور، واعتقاد أن الأولياء الموتى يقضون الحاجات ويفرجون الكربات، والاستعانة والاستغاثة بهم، والله يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

وكذلك دعاء الموتى من الأنبياء والصالحين وغيرهم، للشفاعة أو للتخليص من الشدائد.. والله يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

وبعضهم يستعين بذكر اسم الشيخ أو الولي دائمًا.. إن قام وإن قعد.. وكلما وقع في ورطة أو مصيبة أو كربة.. فهذا يقول: يا محمد.. وذلك يقول: يا علي.. أو يا حسين.. ويا بدوي.. ويا جيلاني.. ويا شاذلي.. ويا رفاعي.. وهذا يدعو العيدروس.. وذلك يدعو السيدة زينب.. وابن علوان.. والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:١٩٤].

وبعض عباد القبور يطوفون بها.. ويستلمون أركانها.. ويتمسحون بها.. ويقبلون أعتابها.. ويسجدون لها.. ويقفون أمامها خاشعين سائلين حاجاتهم.. من شفاء مريض.. أو حصول ولد.. أو تيسير حاجة.. وربما نادى الزائر صاحب القبر: يا سيدي! جئتك من بلد بعيد فلا تخيبني.. والله يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥] وقال ﷺ: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار»..

وبعضهم يحلقون رءوسهم عند القبور..

وبعضهم يؤلف كتبًا تحث على هذا الشرك مثل: مناسك حج المشاهد، ويقصدون بالمناسك القبور وأضرحة الأولياء.. وبعضهم يعتقد أن الأولياء يتصرفون في الكون وأنهم يضرون وينفعون.. والله يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧]..

ولا تجوز الصلاة في المسجد إذا كان فيه ـ أو في ساحته أو قبلته ـ قبر؛ لقوله ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».. وقوله ﷺ: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد

فإني أنهاكم عن ذلك».

ومن مظاهر الشرك:

الذبح لغير الله: والله يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] أي: انحر لله وعلى اسم الله.. وقال ﷺ : «لعن الله من ذبح لغير الله»..

وقد يجتمع في الذبيحة محرمان وهما:

الذبح لغير الله: كمن يذبح متقربًا إلى غير الله (كصاحب قبر يتقرب إليه، أو يذبح للجن لكف شرهم، أو غير ذلك)..

والذبح على غير اسم الله: كمن يذكر اسم غير الله عند الذبح (كاسم ولي أو شيخ).. وكلاهما مانع للأكل منها..

وكذلك من الشرك: النذر لغير الله.. كما يفعل الذين ينذرون الشموع والأنوار والصدقات لأصحاب القبور..

ومن أنواع الشرك المنتشرة: السحر والكهانة والعرافة..

أما السحر فإنه من الكبائر.. ويفضي إلى الكفر، وهو لا يضر ولا ينفع.. قال تعالى عن تعلمه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]..

والذي يستعمل السحر كافر عند أكثر العلماء.. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩]..

أما الكاهن والعراف فكلاهما كافر بالله العظيم إذا ادعيا معرفة الغيب.. والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]..

وكثير من هؤلاء يستغفل السذج لأخذ أموالهم، ويستعملون طرقًا لاكتشاف الغيب كتخطيط الرمل أو قراءة الكف والفنجان أو غير ذلك.. وإذا صدقوا مرة كذبوا تسعًا وتسعين مرة.. ولكن المغفلين لا يتذكرون إلا المرة التي صدق فيها هؤلاء الأفاكون، فيذهبون إليهم لمعرفة المستقبل والسعادة والشقاوة في زواج أو تجارة والبحث عن المفقودات ونحو ذلك.

وحكم الذي يذهب إليهم: إن كان مصدقًا بما يقولون فهو كافر.. لقوله ﷺ: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[١]..

أما إن كان الذي يذهب إليهم غير مصدق بأنهم يعلمون الغيب ولكنه يذهب للتجربة ونحوها.. فإنه لا يكفر لكنه يكون مرتكبًا لذنب كبير ولا تقبل له صلاة أربعين يومًا.. لقوله ﷺ: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[٢].. هذا مع وجوب الصلاة والتوبة.

ومن ذلك: اللجوء إلى أبراج الحظ في الجرائد والمجلات.. فإن اعتقد تأثير النجوم والأفلاك في الكون فهو مشرك.. وإن قرأها للتسلية فهو آثم؛ لأنه لا يجوز التسلي بقراءة الشرك.. بالإضافة لما قد يلقي الشيطان في نفسه من الاعتقاد بها فتكون وسيلة للشرك.

ومن الشرك الأصغر وقد يتحول إلى أكبر:

استعمال التمائم والخرز والحلق المعدنية.. وتعليقها في رقاب الأولاد أو غيرهم لدفع العين.. أو يربطونها على أجسادهم.. أو يعلقونها في سياراتهم وبيوتهم.. أو يلبسون خواتم يعتقدون فيها رفع البلاء أو دفعه..

وكل ما تقدم حرام؛ لقوله ﷺ: «من علق تميمة فقد أشرك»[٣]، وفاعل ذلك إن اعتقد أن هذه الأشياء تنفع أو تضر من دون الله فهو مشرك شركًا أكبر.. وإن اعتقد أنها سبب للنفع أو الضرر.. فهو مشرك شركًا أصغر.. لأن الله لم يجعلها سببًا.

وكذلك الحلف بغير الله:

فلا يجوز للمخلوق أن يقسم بغير الله؛ لأن الحلف تعظيم لا يليق إلا بالله.. قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[٤].

فلا يجوز بالكعبة، ولا بالأمانة، ولا بالشرف، ولا بحياة فلان، ولا بجاه النبي ﷺ، ولا بجاه الولي، ولا بالآباء والأمهات.. كل ذلك حرام، ومن وقع في شيء من هذا فكفارته

---

(١) رواه الإمام أحمد وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الإمام أحمد وهو صحيح.

(٤) رواه الإمام أحمد وهو صحيح.

أن يقول: لا إله إلا الله.. كما جاء في الحديث الصحيح: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى.. فليقل: لا إله إلا الله»[١].

ومما يفضي إلى الشرك أيضًا.. الألفاظ المحرمة كأن يقول:

أعوذ بالله وبك.. هذا من الله ومنك.. ما لي إلا الله وأنت.. والصواب الإتيان بـ(ثم) في ذلك فيقول: أنا بالله ثم بك.. وكذلك في سائر الألفاظ..

وكذلك كل عبارة فيها سب الدهر مثل: هذا زمان سوء.. وهذه ساعة نحس.. والزمن غدار ونحو ذلك؛ وذلك لأن سب الدهر يرجع على خالق الدهر.. وهو الله ﷻ..

كما ينبغي على المسلم والمسلمة أن يحذرا من الابتداع في الدين.. ومن ذلك الاحتفالات البدعية كالاحتفال بالمولد النبوي.. أو الاحتفال بليلة ٢٧ من رمضان.. والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج.. أو غير ذلك[٢].

أسأل الله أن يحفظك ويوفقك.. وأن يصفي عقيدتنا من شوائب الشرك.. آمين.

وختامًا: أيها الأخ الحبيب.. أيتها الأخت الكريمة.. هذه وصايا استخرجتها لك من مكنون نصحي.. سكبت فيها روحي.. وصدقتك فيها النصح والتوجيه.. فلا يكن نصيبي منك أقل من دعوة لي بظهر الغيب تستنزل بها الرحمات لي ولك من أرحم الراحمين.

والله تعالى أعلم.. وصلى الله وسلم على نبينا محمد..



---

(١) رواه البخاري.

(٢) ذكرت هنا هذه التنبيهات مختصرة على أمور مهمة في العقيدة، وذلك لأنني أهم بإصدار كتاب كهذا الكتاب ينبه على المظاهر الشركية الواقعة في الأمة، وما ذكرته هنا إشارات مهمة فقط.

وما خلقت الجن والإنس

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..

ما خلقنا الله إلا لعبادته، وأعظم العبادات أركان الإسلام الخمسة، وقد تكلمت تفصيلاً عن الركن الأول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله في كتابي السابق «اركب معنا»، وهنا بقية الأركان: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت..

أسأل الله أن ينفع به وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.. آمين..

٩ أنفاس في الدقيقة!

حدثني أحد الأطباء أنه دخل في غرفة الإنعاش على مريض.. فإذا شيخ كبير.. على سرير أبيض وجهه يتلألأ نورًا..

قال صاحبي: أخذت أقلب ملفه فإذا هو قد أجريت له عملية في القلب..

أصابه نزيف خلالها مما أدى إلى توقف الدم عن بعض مناطق الدمغ.. فأصيب بغيبوبة تامة وإذا الأجهزة موصلة به وقد وضع على فمه جهاز للتنفس الصناعي يدفع إلى رئتيه تسعة أنفاس في الدقيقة..

كان بجانبه أحد أولاده.. سألته عنه فأخبرني أن أباه مؤذن في أحد المساجد منذ سنين.. أخذت أنظر إليه حركت يده حركت عينه كلمته لا يدري عن شيء أبدًا..

كانت حالته خطيرة فعلاً.. اقترب ولده من أذنه وبدأ يكلمه وهو لا يعقل شيئًا فبدأ يتكلم.. والأمر على ما هو عليه.. الشيخ لا يتحرك.. والجهاز يدفع تسعة أنفاس في الدقيقة..

وفجأة قال الولد: والمسجد مشتاق إليك ولا أحد يؤذن فيه إلا فلان ويخطئ في الأذان ومكانك في المسجد فارغ..

فلما ذكر المسجد والأذان اضطرب صدر الشيخ وبدأ يتنفس فنظرت إلى الجهاز فإذا هو يشير إلى ثمانية عشر نفسًا في الدقيقة.. والولد لا يدري.. ثم قال الولد: وابن عمي تزوج وأخي تخرج.. فهدأ الشيخ مرة أخرى.. وعادت الأنفاس تسعة.. يدفعها الجهاز الآلي..

فلما رأيت ذلك أقبلت إليه.. حتى وقفت عند رأسه.. حركت يده.. هززته.. لا شيء.. كل شيء ساكن.. لا يتجاوب معي أبدًا..

تعجبت.. قربت فمي من أذنه ثم قلت: الله أكبر.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح..

وأنا أسترق النظر إلى جهاز التنفس.. فإذا به يشير إلى ثمانية عشر نفسًا في الدقيقة..

رجل قلبه معلق بالمساجد..

فلله درهم من مرضى.. بل والله نحن المرضى.. نعم.. ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧ ـ ٣٨].

صلاة في المتحف..

قال لي: كنت في السويد فذهبت مع اثنين من الإخوة المقيمين المغتربين لزيارة متحف للكتب القديمة والآثار.. وبعدما دفعنا رسوم الدخول وأمضينا دقائق.. دخلت صلاة العصر..

فقال أحدهما: يا شيخ هيا نخرج لنصلي ثم نعود.. فسألته مستغربًا: لماذا لا نصلي هنا؟! فقال: نصلي أمامهم؟! لا.. لا هذا صعب جدًا.. قلت: لماذا صعب جدًا؟!

فقال: يا شيخ.. نصلي أمام السويديين؟! قلت: نعم نصلي أمام السويديين.. ولماذا لا نصلي أمامهم؟! ألست تراهم يشربون الخمر في الشوارع.. ويكشفون عوراتهم.. ولا يستحون! ويرتكبون الأفعال المخلة بالحياء.. ويعتبرون ذلك حرية.. ونحن أحيانًا ننظر إليهم إعجابًا بهذه الحرية! فلماذا لا نصلي أمامهم ونعتبرها حرية؟!

فوافق صاحبي على مضض.. فأخذنا جانبًا من المتحف واتجهت إلى القبلة ووضعت

أصبعي في أذني..

فصرخ صاحبي: يا شيخ! ماذا ستفعل؟! فأجبته بهدوء: أؤذن.. فقال - باضطراب شديد -: تؤذن هنا؟!

قلت: نعم أليست حرية!.. أليسوا يغنون في الشوارع والطرقات ويسمون ذلك حرية!.. سمه أنت أيضًا: حرية **Fredom**..!

ثم أذنت وأقمت بصوت منخفض وصلينا.. وأكلمنا زيارتنا ورآنا الناس ونحن نصلي جماعة نكبر ونسبح ونركع ونسجد.. ولم يمسك بنا رجال الشرطة.. ولم يدفعونا غرامة.. ولم يقتادونا إلى السجن.. ولم تتطبق السماء على الأرض.. فلماذا يخجل بعض المسلمين من الصلاة أمام الناس.. في الحدائق والأماكن العامة.. بل إن بعض المسلمين يجمعون بين الصلاتين من غير عذر سفر ولا مرض إلا أنهم يخجلون أن يقيموا الصلاة أمام الناس..

فالصلاة ركن من أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ولم تخل منها شريعة رسول من رسل الله.

وقد فرضها الله على نبيه ﷺ ليلة المعراج في السماء؛ لعظمتها ومكانتها عند الله وأمر الله بها في ٥٨ موضعًا من كتابه..

وقبل تعلم أحكام الصلاة لا بد من معرفة أحكام الطهارة..

أحكام الطهارة

المحدث (غير المتطهر) ممنوع من بعض الأعمال، منها:

١ ـ يحرم على المحدث الصلاة ولا تصح صلاته، سواء كان جاهلا أو عالمًا، ناسيًا أو عامدًا.

٢ ـ مس المصحف؛ فلا يمسه المحدث بدون حائل؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩] أي: المتطهرون من الحدث جنابة أو غيرها، على القول بأن المراد بهم المطهرون من البشر، وهناك من يرى أن المراد بهم الملائكة الكرام، وحتى لو فسرت الآية بأن المراد بهم الملائكة: فإن ذلك يتناول البشر بدلالة الإشارة، ومنع مس المصحف بغير

المتطهر: (هو مذهب الأئمة الأربعة).

٣ ـ يحرم على المحدث الطواف بالبيت العتيق؛ لقوله ﷺ: «الطواف بالبيت صلاة؛ إلا أن الله أباح فيه الكلام».

٤ ـ ومن كان عليه جنابة يحرم عليه قراءة القرآن غيبًا، واللبث في المسجد بغير وضوء.

في آداب قضاء الحاجة

فإذا أراد المسلم دخول الخلاء ـ وهو المحل المعد لقضاء الحاجة ـ فيستحب له أن يقول: باسم الله، أعوذ بالله من الخبث والخبائث. ويقدم رجله اليسرى حال الدخول، وعند الخروج يقدم رجله اليمنى، ويقول: غفرانك.

ويستتر عن الأنظار بحائط أو شجر أو غير ذلك، ويحرم أن يستقبل القبلة أو يستدبرها حال قضاء الحاجة، وعليه أن يتحرز من رشاش البول أن يصيب بدنه أو ثوبه.

خصال الفطرة

من مزايا ديننا خصال الفطرة وهي أفعال اتفق عليها الأنبياء، قال ﷺ: «خمس من الفطرة: الاستحداد، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر»، وقال: «أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى»[1].

١ ـ الاستحداد: هو حلق العانة، وهي الشعر النابت حول الفرج، فيزيله بما شاء من حلق أو غيره.

٢ ـ الختان: هو إزالة الجلدة التي تغطي حشفة الذكر، وهو واجب في حق الذكر، مكرمة في حق الأنثى.

٣ ـ قص الشارب وإعفاء اللحية.

٤ ـ تقليم الأظافر هو قصها.

٥ ـ إزالة الشعر النابت في الإبط بالنتف أو الحلق.

---

(١) متفق عليهما.

أذكار ما بعد الوضوء:

(أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله) (سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك).

تنبيهات:

١ ـ يجب على المتوضئ أن يغسل أعضاءه بتتابع، فلا يؤخر غسل عضو منها حتى ينشف الذي قبله.

٢ ـ يباح أن ينشف المتوضئ أعضاءه بعد الوضوء.

٣ ـ يجوز للمتوضئ أن يغسل أعضاءه في الوضوء مرة مرة، ومرتين مرتين، لكن السنة ثلاثًا ثلاثًا، إلا الرأس فلا يمسحه إلا مرة، ولا بأس أن ينشف المتوضئ أعضاءه من ماء الوضوء بمسحه بخرقة ونحوها.

٤ ـ ولا يترك منه شيئًا لم يصبه الماء: فقد رأى النبي ﷺ رجلاً ترك موضع ظفر على قدمه، فقال له: «ارجع فأحسن وضوءك». وإن توضأ وبه جرح ملفوف بخرقة، مسح على الخرقة، وإن لم يكن الجرح مغطى، كالحروق، فإنه يتوضأ فيما يستطيع من بدنه، ثم يتيمم.

أحكام المسح على الخفين

الخف: وهو ما يلبس على الرجل من جلد أو قطن أو صوف وغيره.

وكيفية المسح: أن يمر أصابع يديه مفرقة مبللة على ظاهر قدم الخف من أصابعه إلى أول ساقه دون أسفله وعقبه.

قال علي رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ يمسح أعلى الخف. رواه أحمد.

قال الحسن البصري: حدثني سبعون من أصحاب رسول الله ﷺ أنه مسح على الخفين وقال الإمام أحمد: ليس في نفسي من المسح شيء، فيه أربعون حديثًا عن النبي ﷺ.

شروط المسح على الخفين ونحوهما:

١ ـ مدة المسح للمقيم يومًا وليلة وللمسافر ثلاثة أيام. يبتدئ من وقت مسحه على

خفيه إذا كان ماسحًا بعد حدث، قال علي رضي الله عنه: «جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويومًا وليلة للمقيم»[1].

٢ - يشترط أن يكون قد لبس الخفين أو الجوربين على طهارة، عن المغيرة بن شعبة ذكر وضوء النبي ﷺ قال: ومسح برأسه ثم أهويت لأنزع خفيه فقال: «دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين ومسح عليهما»[2].

٣ - الخف والجورب المخرق يجوز المسح عليه، قال سفيان الثوري: امسح عليها ما تعلقت به رجلك وهل كانت خفاف المهاجرين والأنصار إلا مخرقة مشققة مرقعة.

٤ - إذا توضأ ومسح على الجوربين، ثم نزعهما قبل الصلاة فطهارته باقية، دون حاجة إلى غسل القدمين.

٥ - إذا أصابت المرء جنابة في نوم أو غيره، فيجب عليه نزع الخفين أو الجوربين والاغتسال، ولا يجزئه المسح عليهما؛ لأنهما يمسحان في الطهارة الصغرى دون الكبرى.

ويجوز كذلك المسح على الجبيرة، وهي الجبس الذي تغطى به الكسور في اليد أو الرجل أو غيرهما، وكذلك يجوز المسح على لفائف القماش ونحوه التي تكون على الجروح.

وليس للمسح على الجبيرة وقت محدد، بل يمسح عليها إلى نزعها؛ لأن مسحها لأجل الضرورة إليها، فتقدر بقدر الضرورة، والدليل على مسح الجبيرة حديث جابر رضي الله عنه؛ قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجر، فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأله أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل، فمات، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ، أخبر بذلك، فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا؛ فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها»[3].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) صحيح: رواه أبو داود.

نواقض الوضوء

وهي الأشياء التي إذا وقعت للشخص صار محدثًا (غير متوضئ):

١ - الخارج من السبيلين، من بول أو غائط، أو ريح.

٢ - زوال العقل بجنون، أو إغماء، أو سكر، أو نوم عميق لا يحس فيه بما يخرج منه، أما النوم اليسير الذي لا يغيب فيه إحساس الإنسان، فإنه لا ينقض الوضوء.

٣ - لمس الفرج باليد بشهوة، سواء كان فرجه هو أو فرج غيره، لقوله ﷺ: «من مس فرجه فليتوضأ»[١].

٤ - أكل لحم الإبل أو كرشه أو كبده، لأنه ﷺ سئل: أنتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «نعم» رواه مسلم.

٥ - وهناك أشياء قد اختلف العلماء فيها: هل تنقض الوضوء أو لا؟ وهي: مس المرأة بشهوة، وتغسيل الميت، ولو توضأ من هذه الأشياء خروجًا من الخلاف؛ لكان أحسن.

جنة المؤمن في محرابه..

دخل أحدهم على رجل مقعد مشلول تمامًا في أحد المستشفيات.. لا يتحرك إلا رأسه.. فلما رأى حاله.. رأف به وقال: ماذا تتمنى؟ فقال المريض: أنا عمري قرابة الأربعين.. وعندي خمسة أولاد.. وعلى هذا السرير منذ سبع سنين.. والله لا أتمنى أن أمشي.. ولا أن أرى أولادي.. ولا أن أعيش مثل الناس.. لكنني أتمنى أني أستطيع أن ألصق هذه الجبهة على الأرض ذلة لرب العالمين.. وأسجد كما يسجد الناس..

فأنت يا سليمًا من الأمراض والأسقام.. هل أقمت صلاتك كما أمرك الله..

أحكام الغسل

والغسل هو التطهر من الحدث الأكبر؛ جنابة كان أو حيضًا أو نفاسًا قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة:٦].

(١) رواه ابن ماجه والنسائي.

وموجبات الغسل ستة أشياء، إذا حصل واحد منها؛ وجب على المسلم الاغتسال:

١ ـ خروج المني في اليقظة أو النوم (الاحتلام) فالنائم إذا استيقظ ووجد أثر المني؛ وجب عليه الغسل، وإن استيقظ وذكر أنه قد احتلم، ولم يخرج منه مني، ولم يجد له أثرًا؛ لم يجب عليه الغسل.

٢ ـ الوطء (الجماع) ولو لم ينزل.

٣ ـ الحيض.

٤ ـ النفاس.

ويسن الغسل للجمعة والعيدين..

وصفة الغسل الكامل:

- أن ينوي بقلبه.
- ثم يسمي ويغسل يديه ثلاثًا ويغسل فرجه.
- ثم يتوضأ وضوءا كاملاً.
- ثم يحثي الماء على رأسه ثلاث مرات، يروي أصول شعره.
- ثم يعم بدنه بالغسل، ويدلك بدنه بيديه، ليصل الماء إليه.

ويجب على المغتسل أن يتفقد أصول شعره ومغابن بدنه وما تحت حلقه وإبطيه وسرته وطي ركبتيه، وإن كان لابسًا ساعة أو خاتمًا؛ فإنه يحركهما ليصل الماء إلى ما تحتهما.

أحكام التيمم

التيمم هو: استعمال التراب لرفع الحدث، عند عدم القدرة على استعمال الماء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ [المائدة:٦].

والتيمم هو: مسح الوجه واليدين بصعيد طيب، وبعد التيمم يفعل المتطهر به كل ما يفعل المتطهر بالماء من الصلاة والطواف وقراءة القرآن وغير ذلك.

يجوز التيمم في أربع حالات:

أولاً: إذا عدم الماء سواء عدمه في الحضر أو السفر، وطلبه، ولم يجده..

ثانيًا: إذا كان معه ماء لكنه قليل، ويحتاجه لشرب وطبخ..

ثالثًا: المريض العاجز عن الوضوء بالماء، أو المصاب بحروق في جلده، ولا يستطيع استعمال الماء..

رابعًا: إذا كان الماء موجودًا لكنه لا يستطيع الحصول عليه إما لبعده عنه، أو لخطورة الطريق أو لغلاء سعره جدًا، فيجوز له في هذا الحال أن يتيمم.

خامسًا: في البرد الشديد، ولم يجد ما يسخنه به.

ففي هذه الأحوال يتيمم ويصلي.

ويجوز التيمم بكل ما علا وجه الأرض من تراب ورمل وحصى وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦]

وصفة التيمم: أن يضرب التراب بيديه مفرجتي الأصابع، ثم يمسح وجهه بباطن أصابعه، ويمسح ظهر كفيه بباطنهما..

ومن حضرته الصلاة، ولم يستطع أن يستعمل الماء ولا التراب؛ لشدة مرضه أو غيره، فإنه يصلي بلا وضوء ولا تيمم ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

إن الله يدافع عن الذين آمنوا..

روى البخاري: أن إبراهيم عليه السلام. بينما هو ذات يوم يسير مع زوجه سارة.. إذ أتى على بلد يحكمها جبار من الجبابرة..

فأتى هذا الجبار بعض حاشيته وقالوا: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ولا تصلح إلا لك.. فأرسل هذا الجبار جنده إلى إبراهيم وسألوه من هذه معك؟ فعلم إبراهيم عليه السلام أنه لا قوة له بهذا الطاغية.. وأنه لو قال زوجتي لقتلوه.. فقال لهم: هي أختي.. ثم أتى إبراهيم إلى سارة.. وقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك.. وإن هذا سألني عنك.. فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني.. فأرسل الجبار إليها.. فأحضرت إليه.. فلما

دخلت عليه.. أقبل عليها.. فلما رفع يده إليها.. شلت يده.. ففزع الرجل.. وقال: ادعي الله لي ولا أضرك.. فدعت الله له..

فأطلق.. فوسوس له الشيطان.. فأقبل إليها مرة أخرى.. فدعت عليه.. فأصابه كالأولى أو أشد.. فلما رأى أنه لا طاقة له بها.. فزع وقال: ادعي الله لي ولا أضرك.. فدعت له فأطلق الله يديه.. ففزع منها.. ودعا بعض حجابه.. وقال: إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان.. ثم أخرجها من قصره.. وأعطاها جارية اسمها هاجر.. فخرجت سارة إلى زوجها.. فلما دخلت عليه فإذا هو قائم يصلي.. ويدعو ويبتهل.. فلما أحس بها أومأ بيده.. يسألها عن الخبر.. فقالت: رد الله كيد الكافر ـ أو الفاجر ـ في نحره.. وأخدم هاجر.. فانظر كيف فزع إبراهيم إلى الصلاة لما حزبته الأمور..

أحكام الصلاة

الصلاة ركن من أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ولم تخل منها شريعة رسول من رسل الله.

وقد فرضها الله على نبيه ﷺ ليلة المعراج في السماء: لعظمتها ومكانتها عند الله. وأمر الله بها في ٥٨ موضعًا من كتابه..

ويؤمر بها الطفل الصغير في السابعة من عمره ليهتم بها، ويتمرن عليها.. قال ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»[١].

ولا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

ومن ترك الصلاة تهاونًا أو كسلاً من غير جحد لوجوبها كفر على الصحيح من قولي العلماء، بل هو الصواب الذي تدل عليه الأدلة كحديث: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة»[٢]، وقال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[١].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم.

(١) رواه مسلم.

صفة الصلاة

قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1]. وتكره الصلاة في مكان فيه تصاوير، لما فيه من التشبه بعباد الأصنام.

ويسن أن يجعل المصلي أمامه سترة، إذا كان منفردًا أو إمامًا؛ قال ﷺ: «إذا صلى أحدكم، فليصل إلى سترة، وليدن منها»[2]، لتمنع المار بين يديه، وتمنع المصلي من الانشغال بما وراءها. وإن كان في صحراء؛ جعل أمامه شجرة أو حجرًا أو عصًا، يسن للمصلي رد من يقطع صلاته، قال ﷺ: «إذا كان أحدكم يصلي، فلا يدعن أحدًا يمر بين يديه، فإن أبى، فليقاتله؛ فإن معه القرين»[3].

والسنة في الصلاة هي:

يستقبل القبلة ثم يقول: «الله أكبر» وهي ركن لا تنعقد الصلاة إلا بها، ولا بد من قولها باللسان، ولا يشترط أن يرفع صوته بها، والأخرس ينويها بقلبه، ويسن أن يرفع يديه عند التكبير إلى منكبيه، أو يرفعهما بمحاذاة أذنيه.

ثم يضع بطن كفه اليمنى على ظهر كفه اليسرى، أو يضع يده اليمنى على رسغ يده اليسرى، وينظر إلى موضع سجوده.

ثم يقرأ دعاء الاستفتاح، وهو سنة، فيقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»، أو يقول: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، الله اغسلني بالماء والثلج والبرد»، ثم يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أو: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم يقرأ الفاتحة في كل ركعة وهي ركن لا تصح الصلاة بدونها.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه مسلم.

وإذا كان المصلي لا يجيد الفاتحة، فإنه يقرأ ما تيسر من القرآن بدلها، فإذا كان لا يجيد ذلك (كالمسلم الجديد) فإنه يقول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله»، ويجب عليه المبادرة بتعلم الفاتحة.

ثم يقرأ بعد الفاتحة ما تيسر من القرآن.

وإذا عرض للمصلي أمر: كاستئذان أحد عليه، أو سهو إمامه، أو خاف على إنسان الوقوع في هلكة، فله التنبيه على ذلك؛ بأن يسبح الرجل وتصفق المرأة، لقوله ﷺ: «إذا نابكم شيء في صلاتكم؛ فلتسبح الرجال، ولتصفق النساء»[1].

وإذا سلم أحد على المصلي فإنه يرد السلام بالإشارة بيده فقط.

أخطاء أثناء القيام:

قول بعض الناس: نويت أن أصلى كذا وهذا خطأ لأن النية محلها القلب والتلفظ بها بدعة.

قول بعض الناس في الصلاة الجهرية عند قول الإمام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] استعنا بالله.

زيادة بعضهم كلمة ولك الشكر بعد قوله ربنا ولك الحمد.

مسح الوجه بعد رفع اليدين من الركوع.

عدم التراص في الصفوف وترك أماكن فراغ وهذا مخالف للأمر بتسوية الصف.

الالتفات في الصلاة ورفع البصر إلى السماء وقد ورد النهي عن ذلك.

مدافعة الأخبثين في الصلاة، وهو أن يصلي مع شدة حاجته لقضاء الحاجة من بول أو غائط.

تغطية الفم من غير حاجة، أو سدل اليدين عن جانبيه في الصلاة.

وضع اليد اليمنى على اليسرى على البطن، والسنة وضعهما على الصدر.

تغميض العينين لغير الضرورة.

---

(١) متفق عليه.

النظر إلى ما يلهي عن الصلاة والواجب النظر إلى موضع السجود.

تشبيك الأصابع أو فرقعتها.

ثم يركع قائلاً: «الله أكبر»، رافعًا يديه إلى حذو منكبيه أو إلى حذو أذنيه، كما فعل عند تكبيرة الإحرام.

ويجب أن يسوى ظهره في الركوع، ويقبض بأصابع يديه على ركبتيه مع تفريقها، ويقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» والواجب أن يقولها مرة واحدة، وما زاد فهو سنة.

ويسن أن يقول في ركوعه أيضًا: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» و«سبوح قدوس رب الملائكة والروح».

ثم يرفع رأسه من الركوع قائلاً: «سمع الله لمن حمده» ويسن أن يرفع يديه، كرفع تكبيرة الإحرام، ثم يقول بعد أن يستوي قائمًا: «ربنا ولك الحمد» أو «اللهم ربنا لك الحمد» ويسن أن يقول بعدها: «ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». ويسن أن يضع يديه على صدره في هذا القيام كما فعل في القيام الأول قبل الركوع.

أخطاء في الركوع:

عدم إقامة الصلب أثناء الركوع، والسنة أن يكون الظهر مستويًا.

النظر إلى القدمين، والسنة النظر لموضع السجود.

عدم مساواة الرأس مع الظهر، والسنة أن يكون على امتداد الظهر.

ثم يسجد قائلاً: «الله أكبر»، ويقول في السجود: «سبحان ربي الأعلى» مرة واحدة، ما زاد على ذلك فهو سنة.

ويجب أن يسجد المصلي على سبعة أعضاء: رجليه، وركبتيه، ويديه، وجبهته مع الأنف، ولا يجوز أن يرفع عضوًا منها على الأرض أثناء سجوده، وإذا لم يستطع المصلي أن يسجد بسبب المرض فإنه ينحني بقدر استطاعته حتى يقرب من هيئة السجود.

ويسن في السجود أن يبعد بطنه عن فخذيه، وأن يبعد عضديه عن جنبيه إلا إذا كان ذلك يضايق من بجانبه.

ويسن أن يكثر من الدعاء في سجوده، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

أخطاء في السجود:

عدم السجود على الأعضاء السبعة.

أن يبسط المصلي ساعديه ويضع مرفقيه على الأرض في سجوده.

أن يسجد على الجبهة دون الأنف، أو الأنف دون الجبهة.

أن يرفع رجليه عن الأرض، أو يكتفي بوضع رءوس الأصابع، والواجب إلصاق بطون الأصابع بالأرض.

أن يلصق بطنه بفخذيه، أو عضديه بجنبيه، والأصل أن يجافي بين ذلك كله.

ثم يرفع رأسه من سجوده قائلاً: «الله أكبر» ويجلس بين السجدتين مفترشًا رجله اليسرى ناصبًا رجله اليمنى، واضعًا يديه على فخذيه، وأطراف أصابعه عند ركبتيه، أو يضع يده اليمنى على ركبته اليمنى ويده اليسرى على ركبته اليسرى. ويجب أن يقول وهو جالس بين السجدتين: «رب اغفر لي» أو «اللهم اغفر لي اغفر لي» أو «رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني» مرة واحدة، وما زاد على ذلك فهو سنة.

ثم يسجد السجدة الثانية، ثم ينهض من السجود إلى الركعة الثانية قائلاً: «الله أكبر»، وإن جلس جلسة خفيفة (جلسة الاستراحة) فلا بأس.

ثم يصلي الركعة الثانية كما صلى الركعة الأولى، إلا أنه لا يقرأ دعاء الاستفتاح، ولا يتعوذ قبل قراءة الفاتحة، لأنه قد استفتح وتعوذ في بداية الركعة الأولى.

وبعد السجود الثاني في الركعة الثانية يجلس للتشهد الأول مفترشًا.

ويقبض أصبعه الخنصر والبنصر ويحلق الإبهام مع الوسطى ويشير بالسبابة، أو يقبض جميع أصابع يده اليمنى ويشير بالسبابة، أما يده اليسرى فيقبض بها على ركبته اليسرى، وله أن يبسطها على فخذه الأيسر دون قبض الركبة.

ويقول في هذا التشهد: «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

فإذا كانت الصلاة ركعتين، كصلاة الفجر، صار هذا هو الجلوس الأخير، فأكمل التشهد فقال: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وإن كانت الصلاة ثلاثية كالمغرب، أو رباعية كالظهر والعصر والعشاء، قرأ التشهد الأول، ثم نهض إلى الركعة الثالثة، رافعًا يديه إلى حذو منكبيه، كما فعل في تكبيرة الإحرام، قائلاً: «الله أكبر»..

ويضع يديه على صدره.. كما تقدم.. ويقرأ الفاتحة فقط (في الركعة الثالثة والرابعة).

فإذا جلس للتشهد الأخير، جلس متوركًا، واضعًا قدمه اليسرى تحت ساقه اليمنى، وبعض مقعدته على الأرض، ويلقم كفه اليسرى ركبته، متكئًا عليها، ويقرأ التشهد كاملاً: التحيات لله.. إلى آخره ويسن أن يقول بعده: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» ثم يدعو بما شاء، كقول: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» وغيره. ثم يسلم عن يمينه «السلام عليكم ورحمة الله» وعن يساره كذلك.

ويسن له بعد الصلاة أن يأتي بأذكار الصلاة وهي:

أن يستغفر ثلاثًا، ويقول: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون».

ثم يقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، كلاً منها ٣٣ مرة.

ثم يتم المائة بقوله: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

ثم يقرأ آية الكرسي وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

صليت!.. لا .. لم تصل!

وفي «الصحيحين».. أن النبي ﷺ كان جالسًا في المسجد مع أصحابه يومًا.. فدخل رجل فصلى.. وجعل النبي ﷺ يرمقه وهو يصلي.. ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد ﷺ.. ثم قال: «ارجع فصل فإنك لم تصل»..

فرجع الرجل فصلى.. كصلاته الأولى.. ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه.. فقال له: «وعليك السلام.. ارجع فصل.. فإنك لم تصل».. فرجع الرجل فصلى.. ثم جاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه.. فقال له: «وعليك السلام.. ارجع فصل.. فإنك لم تصل».. فقال الرجل: والذي بعثك بالحق.. ما أحسن غير هذا.. فعلمني.. فقال ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر.. ثم أقرأ ما تيسر معك من القرآن.. ثم اركع حتى تطمئن راكعًا.. ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا.. ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا.. ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا.. ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»..

عجبًا.. فما أحوج كثير من الناس اليوم أن يقال له بعد صلاته: ارجع فصل فإنك لم تصل..؟! ينقر أحدهم سجوده كنقر الغراب.. ويركع مستعجلاً كالمرتاب.. لا يناجي ربه في السجود.. ولا يخشع للرحيم الودود..

صلاة المريض

وللمريض في الطهارة عدة حالات:

١ ـ إن كان مرضه يسيرًا لا يضره معه استعمال الماء كالمريض بالصداع ووجع الضرس ونحوهما، فهذا لا يجوز له التيمم.

٢ - وإن كان به مرضه يزداد باستعمال الماء، فهذا يجوز له التيمم.

٣ - المريض إذا لم يستطع الوضوء أو الغسل بالماء لعجزه أو لخوفه من زيادة المرض فإنه يتيمم بتراب نظيف، لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [المائدة:٦]، فإن كان لا يستطيع التيمم يممه غيره، بأن يأخذ يدي المريض فيضرب بهما على التراب ثم يمسح وجهه وكفيه، وإن كان بدنه أو ملابسه أو فراشه متلوثًا بالنجاسة، ولم يستطع إزالة النجاسة، أو التطهر منها - جاز له الصلاة على حالته التي هو عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

٤ - من به جروح أو قروح أو كسر أو مرض يضره استعمال الماء، فأصابته جنابة، جاز له التيمم للأدلة السابقة، وإن أمكنه غسل الصحيح من جسده وجب عليه ذلك وتيمم للباقي.

٥ - إذا كان المريض في محل لم يجد ماء ولا ترابًا ولا من يحضر له الماء أو التراب، فإنه ينوي الطهارة بقلبه، ويصلي على حسب حاله وليس له تأجيل الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

٦ - المريض المصاب بسلس البول، أو استمرار خروج الدم أو الريح ولم يبرأ بمعالجته، عليه أن يتوضأ لكل صلاة بعد دخول وقتها ويغسل ما يصيب بدنه وثوبه، أو يجعل للصلاة ثوبًا طاهرًا إن تيسر له ذلك. وإن تيسر أن يضع على فرجه قطنًا أو نحوه مما يمنع وصول النجاسة إلى ملابسه وبقية بدنه، فهو أفضل.

٧ - وإن كان المريض عليه جبيرة فيمسح عليها في الوضوء والغسل، ويغسل بقية العضو، أما إن كان المسح على الجبيرة أو غسل ما يليها من العضو يضره، أو كان فيه جروح لا يستطيع غسلها ولا مسحها (كالحروق) اكتفى بالتيمم بعد انتهائه من الوضوء.

كيفية صلاة المريض..

أجمع أهل العلم على أن من لا يستطيع القيام، له أن يصلي جالسًا، ويكون جلوسه حسب ما يسهل عليه فكيفما جلس جاز.

فإن عجز عن الصلاة جالسًا فإنه يصلي على جنبه مستقبل القبلة بوجهه، والمستحب

أن يكون على جنبه الأيمن، فإن عجز عن الصلاة على جنبه صلى على ظهره، وتكون رجلاه جهة القبلة إن أمكن؛ لقوله ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب»[1]، «فإن لم تستطع فمستلقيًا».

ومن قدر على القيام وعجز عن الركوع أو السجود لم يسقط عنه القيام، بل يصلي قائمًا فيومئ بالركوع (يعني: يميل بجسمه خافضًا رأسه) ثم يرفع من الركوع، فإذا أراد السجود جلس، وأومأ بالسجود؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] ولقوله ﷺ «صلِّ قائمًا».

وإن كان المرض شديدًا، أو شللاً، ولم يقدر على الإيماء برأسه، نوى الركوع والسجود بقلبه، وإن لم يكن عنده من يوجهه إلى القبلة، ولم يستطع التوجه إليها بنفسه؛ صلى على حسب حاله، إلى أي جهة تسهل عليه.

وبعض المرضى ممن تجرى لهم عمليات جراحية، يتركون الصلاة؛ لأنهم لا يقدرون على أدائها بصفة كاملة، أو لعجزهم عن الوضوء، أو لأن ملابسهم نجسة، وهذا خطأ كبير؛ فلا يجوز ترك الصلاة. بل يصليها على حسب حاله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]

وبعض المرضى يقول: إذا شفيت؛ قضيت الصلوات التي تركتها، وهذا تساهل؛ فالصلاة تصلى في وقتها حسب الإمكان، ولا يجوز تأخيرها عن وقتها.

وإذا نام المريض أو غيره عن صلاة أو نسيها وجب عليه أن يصليها حال استيقاظه من النوم، أو حال ذكره لها، ولا يجوز له تركها إلى دخول وقت مثلها ليصليها فيه؛ لقوله ﷺ «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها متى ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك».

وإن شق عليه فعل الصلاة بوقتها فيجمع الظهر والعصر، والمغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير حسبما يتيسر له، إن شاء قدم العصر مع الظهر وإن شاء أخر الظهر مع العصر، وإن شاء قدم العشاء مع المغرب، وإن شاء أخر المغرب مع العشاء، أما الفجر فلا تجمع مع ما قبلها ولا مع ما بعدها.

---

(١) رواه البخاري وزاد النسائي.

شروط الصلاة

للصلاة شروط لا تصح إلا بها، إذا عدمت أو بعضها؛ لم تصح الصلاة، ومنها:

أولاً: دخول وقتها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]

وأوقاتها هي:

١ -صلاة الظهر: ويبدأ وقتها بزوال الشمس؛ أي: ميلها إلى الغرب بعد تعامدها، إلى أن يصير ظل كل شيء مثله.

٢ -العصر: تبدأ بنهاية وقت الظهر، إلى اصفرار الشمس ويسن تعجيلها في أول وقتها.

٣ - المغرب: من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر (والشفق: آثار غروب الشمس وهو بياض تخالطه حمرة، ثم تذهب الحمرة ويبقى بياض خالص ثم يغيب).

٤ - العشاء: تبدأ بخروج وقت المغرب إلى طلوع الفجر، وينقسم وقتها إلى قسمين: وقت اختيار يمتد إلى ثلث الليل، ووقت اضطرار من ثلث الليل إلى طلوع الفجر الثاني.

٥ - الفجر: تبدأ بطلوع الفجر الثاني، ويمتد إلى طلوع الشمس، ويستحب تعجيلها. قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون:٤، ٥] أي: الذين يؤخرون الصلاة عن أوقاتها.

ثانيًا: ستر العورة:

يستحب التزين عمومًا للصلاة، لكن الواجب على الرجل ستر ما بين السرة والركبة، والمرأة تستر جسمها كله إلا وجهها وكفيها (في الصلاة).

ثالثًا: اجتناب النجاسة:

بأن يبتعد عنها المصلي، ويخلو منها تمامًا في بدنه وثوبه وبقعته التي يقف عليها للصلاة.

ومن رأى عليه نجاسة بعد الصلاة ولا يدري متى حدثت: فصلاته صحيحة، وكذا لو

كان عالمًا بها قبل الصلاة، لكن نسي أن يزيلها: فصلاته صحيحة على القول الراجح.

وإن علم بالنجاسة في أثناء الصلاة وأمكنه إزالتها من غير عمل كثير؛ كخلع النعل أو العمامة ونحوهما؛ أزالهما وأكمل صلاته، وإن لم يتمكن من إزالتها؛ قطع صلاته وأزالها ثم أعاد الصلاة.

ولا تصح الصلاة في المقبرة ولا في المسجد المبني على القبر، فإن كان المسجد مبنيًّا قبل القبر؛ نبش القبر وأخرج، وإن كان القبر قبل المسجد؛ فإما أن يزال المسجد، وإما أن يزال القبر.

وتكره الصلاة في مكان فيه تصاوير معلقة.

رابعًا: استقبال القبلة:

إلا العاجز عن الاستقبال كالمريض والمربوط، وإن جهل القبلة سأل قدر المستطاع وصلى، فإن لم يجد من يسأله وصلى حسب اجتهاده فصلاته صحيحة، سواء أصاب القبلة أو أخطأها.

خامسًا: النية:

ومحلها القلب فلا يتلفظ بها.

أركان الصلاة وواجباتها وسننها

الأركان: إذا ترك منها شيئًا، بطلت صلاته، سواء تركه عمدًا أو سهوًا.

والواجبات: إذا ترك منها شيئًا متعمدًا؛ بطلت صلاته، وإن تركه سهوًا؛ لم تبطل، ويجبره بسجود السهو.

والسنن: لا تبطل الصلاة بترك شيء منها لا عمدًا ولا سهوًا، لكن تنقص هيئة الصلاة بذلك، والنبي ﷺ صلى صلاة كاملة بجميع أركانها وواجباتها وسننها، وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وأركانها هي:

١ - القيام مع القدرة.

٢ ـ وتكبيرة الإحرام (يقول: الله أكبر).

٣ ـ وقراءة الفاتحة، وهي ركن على الإمام والمنفرد في كل ركعة، وعلى المأموم في الصلاة السرية، أما في الجهرية فهي ركن في حق المأموم في الثالثة والرابعة، أما في الأولى والثانية فواجبة، وفي الصلاة الجهرية على المأموم أن يقرأها بعد فراغ الإمام من قراءتها.

٤ ـ والركوع.

٥ ـ والرفع منه.

٦ ـ والسجود.

٧ ـ والجلوس عنه.

٨ ـ والتشهد الأخير جالسًا.

٩ ـ والصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير.

١٠ ـ والتسليمة الأولى.

١١ ـ الترتيب بين الأركان.

١٢ ـ والطمأنينة في كل الأفعال المذكورة؛ وهي التأني والسكون.

وواجباتها هي:

١ ـ جميع تكبيرات الانتقال (وهي التي يقولها أثناء انتقاله بين أفعال الصلاة) غير تكبيرة الإحرام فهي ركن.

٢ ـ وقول: «سمع الله لمن حمده» للإمام والمنفرد، فأما المأموم؛ فيقول: ربنا ولك الحمد.

٣ ـ التحميد: أي قول: «ربنا ولك الحمد»، للإمام والمأموم والمنفرد.

٤ ـ قول: «سبحان ربي العظيم» في الركوع.

٥ ـ قول: «سبحان ربي الأعلى» في السجود.

٦ ـ قول: «رب اغفر لي» بين السجدتين.

٧ ـ التشهد الأول وهو أن يقول: «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا

الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

٨ ـ الجلوس للتشهد الأول «صلوا كما رأيتموني أصلي»..

فهذه الواجبات من ترك واجبًا منها متعمدًا؛ بطلت صلاته؛ لأنه متلاعب فيها، ومن تركه سهوًا أو جهلاً؛ فإنه يسجد للسهو.

مسئول عن رعيته..

بعث عبد العزيز بن مروان ابنه عمر إلى المدينة يتأدب بها ويطلب العلم.. وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده.. وكان يلزمه في الصلوات.. فأبطأ يومًا عن الصلاة.. فقال: ما حبسك؟ قال: كنت أمشط شعري.. فقال: بلغ من حبك لشعرك أن تؤثره على الصلاة؟! وكتب بذلك إلى والده.. فبعث أبوه رسولاً إليه فما كلمه حتى حلق شعره..

وفقد عبد الملك بن مروان ولده هشامًا يومًا في صلاة جمعة.. فبعث إليه بعد الصلاة يسأله عن تغيبه.. فقال: عجزت بغلتي عن حملي.. ولم أجد دابة.. فأرسل إليه: وإذا لم تجد دابة تغيب عن الجمعة.. أقسمت عليك ألا تركب دابة سنة كاملة..

وقال مجاهد: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ممن شهد بدرًا قال لابنه: أدركت الصلاة معنا؟ قال: نعم.. قال: أدركت التكبيرة الأولى؟ قال: لا.. قال: لما فاتك منها خير من مائة ناقة كلها سود العين..

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا خرج للصلاة.. مر ببيوت أهله يصيح ويخرجهم معه إلى المسجد.. وهو يقرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]..

صلاة التطوع

التطوع بالصلاة من أفضل القربات؛ قال ﷺ: «اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»:

وصلوات التطوع نوعان:

١ ـ صلوات مؤقتة بأوقات معينة، وتسمى بالنوافل المقيدة.

٢ ـ صلوات غير مؤقتة بأوقات معينة، وتسمى بالنوافل المطلقة.

صلاة الوتر وأحكامها:

ولسهولة فعلها وعظم أجرها، صار الذي لا يصليها مذمومًا، قال الإمام أحمد: «من ترك الوتر عمدًا؛ فهو رجل سوء، لا ينبغي أن تقبل شهادته».

ووقت الوتر يبدأ من بعد صلاة العشاء ويستمر إلى طلوع الفجر.

وأقل الوتر ركعة واحدة وأكثر ١١ ركعة، يصليها ركعتين ركعتين، ثم يصلي ركعة واحدة يوتر بها.

وله أن يوتر بثلاث ركعات، فيصلي ركعتين ويسلم، ثم يصلي الركعة الثالثة وحدها، ويستحب أن يقرأ في الأولى بـ(سبح)، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ويستحب له أن يرفع يديه ويقنت بعد الركوع في الوتر (وهو الركعة الأخيرة) فيدعو الله، ويقول: «اللهم اهدني فيمن هديت».. إلخ الدعاء الوارد.

صلاة التراويح وأحكامها

هي في شهر رمضان، وهي سنة مؤكدة، سميت تراويح لأن الناس كانوا يستريحون فيها بين كل أربع ركعات لطول الصلاة، وفعلها جماعة في المسجد أفضل قال ﷺ: «من قام مع الإمام حتى ينصرف؛ كتب له قيام ليلة»، وقال: «من قام رمضان إيمانا واحتسابا، غفر له ما تقدم من ذنبه»[١].

أما عدد ركعاتها، فقد أخبرت عائشة رضي الله عنها، أنه ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره عن ١١ ركعة، ولكن لم يثبت فيها أمر قاطع عن النبي ﷺ، فله أن يصلي ١١ ركعة، أو ٢٣ ركعة، وله أن يزيد على ذلك.

---

(١) متفق عليه.

السنن الراتبة مع الفرائض

لها فضل عظيم، قال ﷺ: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثنتي عشرة ركعة.. تطوعًا غير فريضة.. إلا بنى الله له بيتًا في الجنة.. أربع ركعات قبل الظهر.. وركعتين بعد الظهر.. وركعتين بعد المغرب وركعتين بعد العشاء.. وركعتين قبل الصبح»[1].

أربع ركعات قبل الظهر وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل الفجر.

وآكدها ركعتا الفجر قال ﷺ: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» والسنة تخفيف ركعتي الفجر، ويقرأ في الركعة الأولى من سنة الفجر بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أو يقرأ في الأولى منهما: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].. وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

وكذلك يقرأ في الركعتين بعد المغرب بالكافرون والإخلاص.

وإذا فاته شيء من هذه السنن الرواتب، فيسن له قضاؤه، وكذا إذا فاته الوتر من الليل، فإنه يسن له قضاؤه في الضحى، قال ﷺ: «من نام عن الوتر أو نسيه، فليصله إذا أصبح أو ذكر»، لكنه عند قضاء الوتر يزيد فيه ركعة، فيجعله شفعًا، فإن كان يصلي دائمًا خمس ركعات، فيقضيها ست ركعات، وهكذا..

صلاة الضحى

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «أوصاني خليلي رسول الله ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»[2]. وسماها النبي ﷺ: صلاة الأوابين

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(التوابين): «صلاة الأوابين حين ترمض الفصال»[١]؛ أي: حين يشتد حر الشمس؛ فتبرك الإبل الصغار من شدة الحر.

ووقت صلاة الضحى يبدأ من بعد طلوع الشمس بربع ساعة، ويمتد إلى قبيل أذان الظهر بعشر دقائق.

سجود التلاوة

ويسن عند تلاوة آية فيها سجود أثناء الصلاة أو خارجها، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا «إذا قرأ ابن آدم السجدة، فسجد؛ اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله! أمر ابن آدم بالسجود، فسجد؛ فله الجنة؛ وأمرت بالسجود، فأبيت، فلي النار»[٢].

ويكبر إذا سجد للتلاوة، لحديث ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن، فإذا مر بالسجدة؛ كبر وسجد، وسجدنا معه رواه أبو داود. ويقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» وإن قال: «سجد وجهي لله الذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، بحوله وقوته، اللهم اكتب لي بها أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» فلا بأس.

ويستحب أن يخر لسجود التلاوة من قيام، لا من قعود.

التطوع المطلق

قال ﷺ: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل»[٣]، وقال: «إن في الليل ساعة، لا يوافقها عبد مسلم، يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة؛ إلا أعطاه إياه»، وقال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»[٤].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أصحاب السنن.

(٤) رواه الحاكم.

ومدح الله القائمين من الليل، فقال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨] وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦، ١٧].

الأوقات المنهي عن الصلاة فيها

هناك أوقات ورد النهي عن الصلاة فيها وهي ثلاثة أوقات:

الأول: من بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس وارتفاعها قدر رمح (أي: ينتظر بعد طلوع الشمس بمقدار ١٥ دقيقة ثم يصلي إن شاء)..

والثاني: قبيل أذان الظهر لمدة عشر دقائق.

والثالث: من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس؛ لقول عقبة بن عامر: «ثلاث ساعات نهانا رسول الله ﷺ أن نصلي فيهن وأن نقبر فيهن موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقول قائم الظهيرة حتى تزول، وحين تتضيف الشمس للغروب حتى تغرب»(١).

فهذه الأوقات لا يصلى فيها إلا: قضاء الفريضة، وركعتا الطواف، والصلوات ذوات الأسباب، كصلاة الجنازة، وتحية المسجد، وصلاة الكسوف.

وجوب صلاة الجماعة وفضلها

قال ﷺ «صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»(٢)، وقال ﷺ «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما، لأتوهما ولو حبوًا»(٣).

وسئل ابن عباس عن رجل يقوم الليل ويصوم النهار ولا يحضر الجماعة، فقال: «هو في النار».

وتسقط صلاة الجماعة عن أصحاب الأعذار، كالمريض.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

عجبًا! كاد يحرق بيوتهم!

وفي «الصحيحين»، أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب.. ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها.. ثم آمر رجلاً فيؤم الناس.. ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقًا سمينًا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء».. فقام ابن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، إني رجل ضرير البصر.. شاسع الدار.. وليس لي قائد يلائمني.. فهل لي رخصة أن أصلي في بيتي.. قال: «أتسمع النداء؟»، قال: نعم.. قال: «فاحضرها».. قال: يا رسول الله.. إن بيني وبينها نخلاً وشجرًا.. وليس لي قائد.. قال: «أتسمع الإقامة؟»: قال: نعم.. قال: «فاحضرها ولم يرخص له»..

وروى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من سره أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن.. فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى.. وإنهن من سنن الهدى.. ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته.. لتركتم سنة نبيكم.. ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم.. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق.. ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف..

صلاة المسافر

المسافر يشرع له قصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ [النساء:١٠١]

ويقصر المسافر الصلاة، ولو كان يتكرر سفره، كصاحب البريد وسيارة الأجرة.

ويجوز للمسافر الجمع بين الظهر والعصر، والجمع بين المغرب والعشاء؛ في وقت أحداهما؛ فكل مسافر يجوز له القصر، فإنه يجوز له الجمع، والأفضل أن لا يجمع إلا عند الحاجة.

إذا دخل عليه وقت الصلاة وهو في بلده وهو يريد السفر ولم يفارق البنيان فلا يترخص

بأحكام السفر من قصر وجمع وإفطار في نهار رمضان، وغيرها لأن الترخص يبدأ بمفارقة البنيان، أما إذا دخل عليه وقت الصلاة وهو في بلده، لكنه قد ركب سيارته وشرع في السفر لكن لم يخرج من البلد بعد، فإنه يجوز أن يصلي خارج البلد قصرًا، أو يجمعها إلى ما بعدها إن شاء.

إذا كان المطار خارج بنيان البلد فيقصر المسافر الصلاة فيه إذا كان الحجز مؤكدًا، أما إذا كان الحجز انتظارًا فلا يقصر لأنه لم يجزم بالسفر، أما إذا كان المطار داخل البلد فلا يقصر الصلاة فيه سواء كان الحجز انتظارًا أو مؤكدًا لأنه لم يفارق البنيان.

نية القصر لا يشترط استحضارها قبل الصلاة لأن القصر هو الأصل في السفر فلا يحتاج إلى نية، كالإتمام في الحضر. وهنا مسائل تقع للمسافر:

(أ) إذا نوى المأموم المسافر الإتمام وصلى إمامه قصرًا فيقصر مثله إن كان كلاهما مسافرًا.

(ب) إذا نوى المأموم المسافر القصر وصلى إمامه إتمامًا لزمه متابعة إمامه والإتمام.

(جـ) إذا دخل المسافر في الصلاة ونسي أن ينوي القصر فيقصر سواء إمامًا أو مأمومًا.

(د) إذا ائتم المسافر بإمام لا يدري هل هو مسافر أو مقيم فيلزمه ما صلى إمامه.

(هـ) إذا نوى المسافر صلاته بنية الإتمام سواء كان إمامًا أو مأمومًا ثم تذكر أنه مسافر صلى قصرًا (رجحه ابن عثيمين) لأن الأصل في صلاة المسافر القصر.

(و) إذا نوى المسافر القصر ثم قام إلى الثالثة ناسيًا فإنه يرجع ويسجد للسهو.

يستحب تخفيف القراءة في صلاة السفر، وكان أصحاب النبي ﷺ يقرءون في السفر بالسور القصار.

لا يجوز للمسافر ترك الجماعة في المسجد إذا كان نازلاً في البلد المسافر إليه سواء كان مسافرًا أو كانوا جماعة، لعموم أدلة وجوب الجماعة في المسجد ولا دليل على استثناء المسافر من وجوب صلاة الجماعة قال ﷺ: «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر».

لا يصح القصر وراء الإمام المتم سواء دخل المسافر في أول الصلاة أو آخرها لقوله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به»[(١)].

ومن الخطأ أن بعض المسافرين يدخل مع الإمام المقيم في الرباعية في الركعتين الأخيرتين ويكتفي بهما وهذا لا يجوز، بل لا بد للمسافر إذا صلى خلف المقيم أن يصلي أربعًا.

إذا دخل المسافر مع إمام يظن أنه مسافر فأدرك معه الركعتين الأخيرتين ثم علم بعد السلام أن الإمام متم، فعلى المسافر عندئذٍ أن يتم الصلاة أربعًا فورًا.

إذا كان المسافر لم يصل المغرب، ودخل مع إمام مسافر يصلي العشاء، فإنه إذا سلم الإمام قام فأتى بالثالثة، فإن كان الإمام مقيمًا يجلس المأموم في الثالثة وينتظر حتى يسلم مع الإمام (رجحه الشيخ ابن عثيمين).

إذا أراد المسافر أن يصلي العشاء ركعتين، ودخل مع إمام يصلي المغرب، فإنه يدخل بنية العشاء، فإذا سلم الإمام قام وأتى بركعة رابعة، ولا يصح أن يكتفي بركعتين.

صلاة الجمعة

فضل يوم الجمعة، قال ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[(٢)]. وقال ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة»[(٣)].

حكمها: فرض عين على كل مكلف قادر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] فإن غاب عنها صلى الظهر أربع ركعات.

وفي «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم». وقال: «من ترك ثلاث جمع

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

تهاونًا طبع الله على قلبه»[١] . وقال: «لينتهين أقوام عن ترك الجمعة أو ليختمن الله على قلوبهم وليكونن من الغافلين».

وقتها: هو وقت الظهر، من زوال الشمس إلى دخول وقت العصر.

ومما ابتلي به اليوم كثير من الناس التأخر عن صلاة الجمعة، قالﷺ : «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح.. فكأنما قرب بدنة.. ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»[٢] ، والساعات تبدأ من طلوع الشمس، وقيل: من الفجر.

وقال: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد.. الملائكة يكتبون الأول فالأول.. فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر»[٣] .

من أجل ذلك كان الصالحون يتسابقون إليها، ويشتغلون بالصلاة النافلة والذكر والقراءة حتى يخرج الإمام للخطبة، وكان الصحابة قبل صلاة الجمعة؛ منهم من يصلي عشر ركعات، ومنهم من يصلي اثنتي عشرة ركعة، ومنهم من يصلي ثماني ركعات، وليس لها راتبة قبلها محددة.

قال الإمام الزركشي: إن من أول ما أحدث المتأخرون من التغيير في صلاة الجمعة أنهم يتأخرون في المجيء إليها.. ولقد أدركنا السابقين يأتي أحدهم إلى صلاة الجمعة بيده السراج، يعني يأتي إليها قبل أن تطلع الشمس..

ومن حب الله تعالى للذين يبكرون إلى صلاة الجمعة، أنهم هم الأقرب إليه في يوم المزيد في الجنة إذا اجتمع المؤمنون ينظرون إلى ربهم جل جلاله، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

---

(١) رواه الخمسة.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

آداب الجمعة:

يستحب أن يأتي إليها (ماشيًا)؛ لقوله ﷺ: «من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ؛ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها»[1]، ويستحب أن يشتغل في طريقه بقراءة أو ذكر.

ويستحب (أن يتزين بأحسن ثيابه ويتطيب)؛ لقوله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة ولبس من أحسن ثيابه ومس من طيب إذا كان عنده ثم أتى الجمعة ولم يتخط أعناق الناس ثم صلى ما كتب الله له ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يفرغ من صلاته كان كفارة لما بينه وبين جمعته التي قبلها»[2].

(وإن دخل والإمام يخطب لم يجلس حتى يصلي ركعتين تحية المسجد)، لحديث سليك الغطفاني أنه دخل المسجد ورسول الله ﷺ يخطب فجلس؛ فقال له ﷺ: «أركعت ركعتين؟» فقال: لا، فقال: «قم فاركعهما».

ولا يتخطى رقاب الناس لأنه ﷺ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس، فقال له: «اجلس فقد آذيت وآنيت»[3] (أي: تأخرت).

ويستحب أن يقرأ سورة الكهف يومها أو ليلتها ليغفر له ما بين الجمعتين. (ليلة الجمعة: تبدأ من مغرب يوم الخميس).

ويكثر الدعاء في يوم الجمعة وليلتها، رجاء أن يصادف ساعة الإجابة قال ﷺ: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه وأشار بيده يقللها»[4].

ويستحب كثرة الصدقة وفعل الخير يومها وليلتها.

ويكثر الصلاة على رسول الله ﷺ في يومها وليلتها، لقوله ﷺ: «إن من أفضل

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه ابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣) رواه ابن حبان والحاكم وصححاه.

(٤) رواه الشيخان.

أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي»[1]، وقوله ﷺ: «أكثروا علي من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة فيمن صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا»[2].

ويكره تشبيك الأصابع في طريقه إلى المسجد، وفي المسجد، وكذا سائر أنواع العبث ما دام مستمعًا للخطبة، أو منتظرًا للصلاة.

إذا نعس أثناء استماع الخطبة، فيفعل كما قال ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو في المسجد فليتحول من مجلسه ذلك إلى غيره»[3].

الاغتسال لها، وهو سنة مؤكدة، ومن العلماء من يوجبه.

«إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئًا، إلا أعطاه إياه».

سنة الجمعة البعدية.. إن صلى في بيته؛ صلى ركعتين، وإن صلى في المسجد، صلى أربع ركعات.

ومن دخل المسجد والإمام يخطب؛ لم يجلس حتى يصلي ركعتين يوجز فيهما؛ لقوله ﷺ: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة وقد خرج الإمام؛ فليصل ركعتين وليتجوز فيهما»[4] (أي: يسرع).

وتسن الصلاة على النبي ﷺ إذا سمعها من الخطيب، ولا يرفع صوته بها.

ويستحب أن يؤمن على دعاء الخطيب بلا رفع صوت.

ومن دخل والإمام يخطب؛ فإنه لا يسلم، بل ينتهي إلى الصف بسكينة، ويصلي ركعتين ويجلس لاستماع الخطبة، ولا يصافح من بجانبه.

ويجب الإنصات ولا يجوز الكلام والإمام يخطب، قال ﷺ: «إذا قلت لصاحبك يوم

---

(١) رواه أبو داود وغيره بأسانيد صحيحة.

(٢) رواه البيهقي بإسناد جيد.

(٣) أبو داود والترمذي وصحيح.

(٤) رواه مسلم.

الجمعة: أنصت والإمام يخطب؛ فقد لغوت»[١]. ويجوز للإمام أن يكلم بعض المأمومين حال الخطبة، ولا يجوز العبث حال الخطبة بيد أو ظفر أو لحية أو ثوب أو فرش؛ لقوله ﷺ «من مس الحصا؛ فقد لغا، ومن لغا، فلا جمعة له»[٢].

وكذلك لا ينبغي له أن يتلفت يمينًا وشمالاً، ويشتغل بالنظر إلى الناس، أو غير ذلك؛ لأن ذلك يشغله عن الاستماع للخطبة، ولكن ليتجه إلى الخطيب كما كان الصحابة رضي الله عنهم يتجهون إلى النبي ﷺ حال الخطبة.

وإذا عطس؛ فإنه يحمد الله سرًّا بينه وبين نفسه.

ويجوز الكلام قبل الخطبة وبعدها وإذا جلس الإمام بين الخطبتين، لمصلحة، لكن لا ينبغي التحدث بأمور الدنيا.

ومن خرجوا إلى البر في نزهة أو غيرها، ولم يكن حولهم مسجد تقام فيه الجمعة، فلا جمعة عليهم، ويصلونها ظهرًا مهما كان عددهم، لأنه يشترط للجمعة أن يكونوا مستوطنين.

ومن جاء متأخرًا، فأدرك مع الإمام من صلاة الجمعة ركعة؛ أتمها جمعة، وإن أدرك أقل من ركعة، كالتشهد الأخير، أو السجدتين، فقد فاتته صلاة الجمعة، فيدخل معه بنية الظهر، فإذا سلم الإمام، أتمها ظهرًا أربع ركعات.

ويشترط لصحة صلاة الجمعة تقدم خطبتين.

وليس من شرط الخطبتين أن تكونا طويلتين مفصلتين، بل أقل شيء أن يوجد فيهما حمد لله، والشهادتان، والصلاة على رسوله، والوصية بتقوى الله، والموعظة، وقراءة شيء من القرآن، ولو آية.

ويسن للخطيب أن يسهل خطبته للفهم، ويخاطب الناس على قدر عقولهم، فإذا صعد المنبر سلم على المأمومين ثم يجلس إلى فراغ المؤذن، ويخطب قائمًا، ويجلس بين الخطبتين، ولا يكثر الالتفات، جانبيه أثناء الخطبة، لأنه ﷺ كان يقصد تلقاء وجهه في الخطبة، ويستقبله الحاضرون بوجوههم، ويسن أن يختصر الخطبة اختصارًا معتدلاً، بحيث لا

---

(١) متفق عليه.

(٢) صححه الترمذي.

يملون، ويسن أن يرفع صوته بها؛ لأن ﷺ كان إذا خطب؛ علا صوته، واشتد غضبه، ولأن ذلك أوقع في النفوس، وأبلغ في الوعظ، ويسن أن يدعو للمسلمين بما فيه صلاح دينهم ودنياهم، فإذا فرغ من الخطبتين تقام الصلاة مباشرة.

وصلاة الجمعة ركعتان، يجهر فيهما بالقراءة، ويسن أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، أو يقرأ في الأولى سورة (الجمعة)، وفي الثانية سورة (المنافقون).

٧٠ سنة لم تفته صلاة!

كان سعيد بن عبد العزيز إذا فاتته صلاته الجماعة بكى..

وسعيد بن المسيب: ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وهو في المسجد..

والأعمش كان قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى.

وسئل سليمان المقدسي عن صلاة الجماعة وقد قارب عمره التسعين.. فقال: لم أصل الفريضة قط منفردًا إلا مرتين وكأني لم أصلهما قط..

وقال حاتم الأصم: فاتتني صلاة الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده.. ولو مات لي ولد لعزائني أكثر من عشرة آلاف..

وكان الربيع بن خثيم بعدما شل جسده وأصابه الفالج.. يهادى بين رجلين إلى مسجد قومه.. وكان أصحابه يقولون: يا أبا يزيد.. لقد رخص الله لك لو صليت في بيتك.. فيقول: إنه كما تقولون.. ولكني سمعته ينادي: حي على الفلاح.. فمن سمع منكم ينادي حي على الفلاح.. فليجبه ولو زحفًا ولو حبوًا.. لله درهم من مرضى.. بل والله نحن المرضى..

صلاة العيدين

ليس في الإسلام إلا عيدان: عيد الفطر، وعيد الأضحى.. ولا تجوز الزيادة على هذين العيدين بإحداث أعياد أخرى كعيد الأم وعيد المعلم وعيد الحب وغيرها، بل هذا ابتداع في الدين، وتشبه بالكافرين، سواء سميت أعيادًا أو أيامًا، وقد قال ﷺ: «من تشبه بقوم، فهو منهم».

ودليل مشروعية صلاة العيد: قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] أي: صلى العيد ثم نحر أضحيته.

وأول صلاة عيد صلاها النبي ﷺ في يوم الفطر من السنة الثانية للهجرة، ولم يتركها ﷺ حتى مات.

والسنة أن تصلى العيد في صحراء قريبة من البلد؛ لأن النبي ﷺ كان يصلي العيدين في المصلى الذي على باب المدينة إلا في مكة؛ فإنها تصلى في المسجد الحرام، والمأموم إذا حضر لصلاتها في مصلى بالصحراء فيجلس مباشرة دون تحية مسجد إلى أن يحضر الإمام، أما إن صلاها في مسجد فيصلي ركعتين تحية للمسجد قبل الجلوس.

ويبدأ وقت صلاة العيد من بعد طلوع الشمس بربع ساعة، ويمتد وقتها إلى زوال الشمس (وقت الظهر)، ويسن تقديم وقت صلاة الأضحى ليفرغ الناس بعد الصلاة لذبح أضاحيهم، وتأخير صلاة الفطر ليتسع الوقت لإخراج زكاة الفطر قبل صلاة الفطر.

ويسن أن يأكل قبل الخروج لصلاة الفطر تمرات، وأن لا يأكل يوم الأضحى حتى يصلي العيد، فقد كان ﷺ «لا يخرج يوم الفطر حتى يفطر، ولا يطعم يوم النحر حتى يصلي»[١].

ويسن أن يتجمل للصلاة وكانت للنبي ﷺ حلة يلبسها في العيدين ويوم الجمعة، وكان ابن عمر يلبس في العيدين أحسن ثيابه.

ويشترط لصلاة العيد الاستيطان؛ بأن يكون الذين يقيمونها مستوطنين في مساكن مبنية، كما في صلاة الجمعة؛ فلو كان قوم في نزهة وحضرت صلاة العيد لم يصح أن يصلوها.

وصلاة العيد ركعتان قبل الخطبة بدون أذان ولا إقامة، فقد كان ﷺ وخلفاؤه «يصلون العيدين قبل الخطبة»[٢]، والخطبة بعد صلاة العيد سنة، والاستماع إليها سنة أيضًا.

وكيفية الصلاة: أن يكبر للإحرام.. ثم يقرأ دعاء الاستفتاح ثم يكبر ست تكبيرات؛

---

(١) رواه أحمد وغيره.

(٢) متفق عليه.

فتكبيرة الإحرام ركن، وبقية التكبيرات سنة ثم يقرأ الفاتحة، وفي الركعة الثانية يكبر قبل القراءة خمس تكبيرات - غير تكبيرة الانتقال - ويرفع يديه مع كل تكبيرة؛ لأنه ﷺ كان يرفع يديه مع التكبير، قال ابن القيم: «كان ﷺ يسكت بين كل تكبيرتين سكتة يسيرة، ولم يحفظ عنه ذكر معين بين التكبيرات».

وإن دخل المأموم مع الإمام بعدما شرع في القراءة: فيكبر تكبيرة واحدة فقط للإحرام.

وصلاة العيد ركعتان، يجهر الإمام فيهما بالقراءة، وكان ﷺ يقرأ في الأولى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ وفي الثانية: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾[1]، أو يقرأ في الأولى بسورة (ق)، وفي الثانية بسورة (القمر)[2].

فإذا سلم من الصلاة؛ خطب خطبتين، يجلس بينهما، ثم ينصرف الناس وليس لصلاة العيد سنة بعدية، ويستحب حضور النساء لصلاة العيد.

ومن فاتته صلاة العيد أو فاته بعضها، فإنه يقضيها ركعتين؛ بتكبير فإن جاء والإمام يخطب؛ جلس لاستماع الخطبة، فإذا انتهت؛ صلاها، ولا بأس بقضائها منفردًا أو مع جماعة.

ويسن في العيدين الإكثار من التكبير يرفع به صوته، ففي عيد الفطر: يبدأ التكبير ليلة العيد (من بعد مغرب اليوم الذي قبله)، وينتهي ببداية صلاة العيد، لقوله تعالى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٥]، ويجهر بالتكبير في البيوت والأسواق والمساجد وفي كل موضع يجوز فيه ذكر الله تعالى، ويجهر به في الخروج إلى المصلى؛ وكان ابن عمر إذا غدا يوم الفطر يوم الأضحى؛ يجهر بالتكبير، حتى يأتي المصلى، ثم يكبر حتى يأتي الإمام.

وفي عيد الأضحى: يبدأ التكبير من أول أيام شهر ذي الحجة في كل وقت، ويتأكد بعد كل صلاة فريضة في جماعة، فيلتفت الإمام إلى المأمومين، ثم يكبر ويكبرون،

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه مسلم.

لكنه بعد صلاة الفجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق (١٣ ذي الحجة) يكون التكبير مقيدًا (أي: بعد الصلوات المفروضة فقط).

وهذه الصيغة من التكبير عامة للحاج وغيره، لكن الحاج؛ يبتدئ تكبيره المقيد من صلاة الظهر يوم النحر إلى عصر آخر أيام التشريق؛ لأنه قبل ذلك مشغول بالتلبية، وصيغة التكبير أن يقول: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد».

ولا بأس في العيدين، بتهنئة الناس بعضهم بعضًا؛ بأن يقول لغيره؛ تقبل الله منا ومنك، أو غير ذلك.

صلاة الكسوف

صلاة الكسوف سنة مؤكدة باتفاق العلماء، ولما كسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ، خرج إلى المسجد مسرعًا فزعًا، فصلى بالناس، وأخبرهم أن الكسوف آية من آيات الله، يخوف الله به عباده، وأنه قد يكون سبب نزول عذاب بالناس، فأمر بالصلاة عند حصوله والدعاء والاستغفار والصدقة.

ووقت صلاة الكسوف من ابتداء الكسوف إلى انتهائه؛ لقوله ﷺ: «وإذا رأيتم شيئًا من ذلك، فصلوا حتى ينجلي»[1]، وإذا لم يعلموا بالكسوف إلا بعد انتهائه، فلا يشرع لهم أن يصلوا لفوات وقت الصلاة.

وصفة صلاة الكسوف: أن يصلي ركعتين يجهر فيهما بالقراءة، يقرأ في الأولى الفاتحة وسورة طويلة كسورة البقرة أو نحوها، ثم يركع ركوعًا طويلاً قريبًا من طول قيامه، ثم يرفع رأسه قائلاً: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد»، ثم يقرأ الفاتحة وسورة طويلة أقصر من الأولى ثم يركع فيطيل الركوع، ثم يرفع رأسه قائلاً: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد» ثم يسجد سجدتين طويلتين، ولا يطيل الجلوس بين السجدتين، ثم يصلي الركعة الثانية كالأولى بركوعين طويلين وسجودين طويلين مثلما فعل في الركعة

---

(١) رواه مسلم.

الأولى، ثم يتشهد ويسلم، وتصلى في جماعة، ويجوز أن تصلى فرادى.

فإن انتهت الصلاة قبل أن ينجلي الكسوف، اشتغلوا بالذكر والدعاء، وإن انجلى الكسوف وهم في الصلاة؛ أتمها خفيفة، ولا يقطعها.

٦٠ سنة ما سها في صلاة!

كان علي بن الحسين رضي الله عنهما إذا توضأ أخذته رعدة وتصبب عرقًا.. فيسألونه عن ذلك؟ فيقول: ويلكم.. أتدرون بين يدي من سوف أقوم!

أما مسلم بن يسار.. فقال عنه بعض أصحابه: ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتًا في صلاته قط.. خفيفة ولا طويلة.. ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدته وإنه لفي المسجد في صلاة فما التفت إليهم..

وقال ابن سيرين: رأيت مسلم بن يسار رفع رأسه من السجود في المسجد الجامع.. فنظرت إلى موضع سجوده كأنه صب فيه الماء من كثرة دموعه..

وقال ابن عون: رأيت مسلم بن يسار يصلي كأنه وتد.. ولا يميل على قدم مرة ولا على قدم مرة.. ولا يتحرك.. له ثوب ولا يتروح على رجل..

وكثير الحمصي.. أم أهل حمص ستين سنة كاملة.. ولم يسه في صلاة قط.. فسئل عن ذلك.. فقال: «ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله».

صلاة الاستسقاء

الاستسقاء هنا هو طلب السقي (المطر) من الله تعالى، ويشرع الاستسقاء إذا أجدبت الأرض وانحبس المطر.

وحكم صلاة الاستسقاء أنها سنة مؤكدة كما ثبت في «الصحيحين».

وصفة صلاة الاستسقاء يستحب فعلها في المصلى (الصحراء خارج البلد) كصلاة العيد، وأحكامها كأحكام صلاة العيد في عدد الركعات والتكبيرات والجهر بالقراءة، وفي كونها تصلى قبل الخطبة كصلاة العيد تمامًا.

وينبغي أن يكثر الإمام في خطبة الاستسقاء من الاستغفار والدعاء ويرفع يديه؛ لأنه ﷺ كان يرفع يديه في دعائه بالاستسقاء.

ويسن أن يستقبل الإمام القبلة في آخر الدعاء، ويقلب رداءه: فيجعل اليمين على الشمال والشمال على اليمين، فيكون باطن الرداء ظاهرًا والظاهر باطنًا، ويفعل المأمومون ذلك أيضًا بأرديتهم ونحوها، والحكمة في ذلك التفاؤل بتحويل الحال عما هي عليه من الشدة إلى الرخاء ونزول الغيث، ثم إن سقى الله المسلمين، وإلا أعادوا الاستسقاء ثانيًا وثالثًا؛ لأن الحاجة داعية إلى ذلك.

أحكام الجنائز

أولاً: يسن الإكثار من ذكر الموت والاستعداد له بالتوبة ورد المظالم لأصحابها، قال ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[1].

أولاً: أحكام المريض، والمحتضر:

إذا أصيب الإنسان بمرض، فعليه أن يصبر ويحتسب، ولا يجوز التداوي بمحرم؛ لقوله ﷺ: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم» وقال في الخمر: «إنه ليس بدواء ولكنه داء»، ومن الحرام التداوي عند المشعوذين والكهان والسحرة والمستخدمين للجن فعقيدة المسلم أهم عنده من صحته.

وتسن عيادة المرضى، ولا يطيل الجلوس عنده، إلا إذا كان المريض يرغب ذلك، ويقول للمريض: «لا بأس عليك، طهور إن شاء الله»، ويدخل عليه السرور، ويدعو له بالشفاء، ويرقيه بالقرآن، لا سيما سورة الفاتحة والإخلاص والمعوذتين.

ويسن للمرء أن يكتب وصيته، ويوصي بشيء من ماله في أعمال الخير، ويبين ما له وما عليه من الديون؛ لقوله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي به يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»[2].

---

(١) رواه الحاكم وصححه.

(٢) متفق عليه.

فإذا احتضر المريض، فيسن لمن حضره أن يلقنه لا إله إلا الله، برفق ولين، ولا يكثر عليه، لقوله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»(١)، وقال: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، دخل الجنة» ويستحب أن يوجه المحتضر للقبلة.

ثانيًا: أحكام الوفاة:

إذا مات الشخص يستحب لمن عنده تغميض عينيه لأن النبي ﷺ أغمض عيني أبي سلمة رضي الله عنه لما مات، وقال: «إن الروح إذا قبض، تبعه البصر، فلا تقولوا إلا خيرًا، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»(٢).

ويسن ستر الميت بعد وفاته بثوب، قالت عائشة: «لما توفي النبي ﷺ سجي ببرد حبرة»(٣).

وينبغي الإسراع في تجهيزه إذا تأكد موته، لقوله ﷺ: «لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهراني أهله»(٤).

ويستحب الإسراع بتنفيذ وصيته، وقضاء ديونه، سواء كانت لله تعالى من زكاة وحج أو كفارة، أو كانت للخلق من أمانات للناس عنده، وأموال استدانها، ونحوها.

ثالثًا: تغسيل الميت..

الرجل يغسله الرجال، والمرأة تغسلها النساء، إلا أنه يجوز للمرأة أن تغسل زوجها، وللرجل أن يغسل زوجته.

ولا يجوز لمسلم أن يغسل كافرًا أو يحمل جنازته أو يكفنه أو يصلي عليه أو يتبع جنازته، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:١٣]، وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة:٨٤] ولا يدفنه، لكن إذا لم يوجد من يدفنه من الكفار، فإن المسلم يواريه، بأن يلقيه في حفرة، منعًا للتضرر بجثته؛ ولأن النبي ﷺ ألقى قتلى المشركين في معركة بدر في البئر.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أبو داود.

وكيفية التغسيل كالتالي:

يسن عند تغسيل الميت أن يستر عورته بخرقة أو نحوها، وينزع ثيابه، ثم يرفع رأسه وظهره كهيئة الجالس، ويعصر بطنه ليخرج الأذى منه، ويكثر صب الماء حينئذ ليذهب ما يخرج من الأذى.

ثم يلف الغاسل على يده خرقة فيغسل بها فرج الميت دون أن يرى عورته أو يمسها، ثم يسمي ويوضئه كوضوء الصلاة، ولكن لا يدخل الماء في أنفه وفمه، بل يدخل الغاسل أصبعه ملفوفًا به خرقة مبلولة بين شفتي الميت فيمسح أسنانه، وفي منخريه فينظفهما، ثم يغسل برغوة السدر رأسه ولحيته وبقية جسده.

ثم يغسل جانبه الأيمن من جهة الأمام والخلف، ثم الأيسر كذلك، وللغاسل أن يزيد في الغسلات على ٣ مرات عند الحاجة.

يسن أن يجعل في الغسلة الأخيرة كافورًا وهو طيب معروف بارد تطرد رائحته الحشرات، أو أي طيب آخر.

يستحب أن يغسل الميت بماء بارد إلا إذا احتاج الغاسل للماء الحار بسبب أوساخ الجسد، ويمكن استعمال الصابون لإزالة الوسخ، ولكن يفركه بلطف.

يستحب قص شارب الميت وشعر الإبط إن كان طويلاً، وتقليم أظافره.

شعر المرأة يضفر ثلاث ضفائر ويسدل وراء ظهرها.

يستحب أن ينشف الميت بعد غسله.

إذا خرج من الميت بول أو غائط أو دم ولم ينقطع مع تكرار الغسل، فإنه يسد فرجه بقطن، ثم يوضأ الميت، أما إن خرج شيء بعد تكفينه، فلا يعاد غسله للمشقة، وإنما يغسل مكان الخارج، ويزال ما أصاب الكفن.

«إذا مات الحاج أو المعتمر أثناء إحرامه فيغسل ولكن لا يطيب ولا يغطى رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا»[١].

---

(١) متفق عليه.

شهيد المعركة لا يغسل؛ لأنه ﷺ «أمر بقتلي أحد أن يدفنوا في ثيابهم وألا يغسلوا»[1]، ولا يصلى عليه لأنه ﷺ لم يصل على شهداء أحد[2].

أما السقط وهو الجنين الذي يسقط من بطن أمه أثناء حملها به، إذا كان قد تم له في بطن أمه ٤ أشهر فيغسل ويصلى عليه ويسمى؛ لقوله ﷺ: «إن أحدكم يكون في بطن أمه ٤٠ يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل له الملك فينفخ فيه الروح»[3]، أي بعد ٤ أشهر، أما قبلها فهو قطعة لحم يدفن في أي مكان بلا غسل ولا صلاة.

من تعذر غسله إما لعدم وجود الماء، أو لتمزقه، أو احتراقه، فإنه ييمم،أي: يضرب المغسل بيده التراب ويمسح بهما وجه الميت وكفيه.

رابعًا: أحكام التكفين:

يكفن الرجل في ٣ لفائف بيضاء؛ لأن النبي ﷺ كفن في ثلاث لفائف بيض وتطيب بالبخور، فتبسط بعضها فوق بعض، ويجعل الطيب بينها، ثم يوضع الميت عليها مستلقيًا على ظهره، مستورة عورته بخرقة، ويوضع قطن مطيب تحت مقعدته لئلا تخرج رائحة كريهة، وإن ربط خرقة عليها قطن تغطي عورة الميت وأدارها على فرجيه فهو حسن.

ويستحب أن يجعل الطيب على عيني الميت وأنفه وشفتيه وأذنيه، ومواضع سجوده، وإن طيب جميع بدنه فحسن.

ثم يبدأ في تكفينه فيطوي طرف اللفافة الأولى على جنبه الأيمن، ثم طرفها الآخر على جنبه الأيسر، ثم يطوي اللفافة الثانية كالأولى، ثم الثالثة كذلك ثم تسحب الخرقة التي تستر عورته، ثم تربط العقد السبع على الكفن، ثم تحل العقد في القبر. وإن كانت العقد أقل من سبع جاز.

المرأة تكفن في ٥ أثواب: إزار يغطي أسفل البدن وخمار يغطي الرأس، وقميص (وهو

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

كالثوب ولكن مفتوح الجانبين، ولفافتات تعمان جميع الجسد).

خامسًا: أحكام الصلاة على الميت..

قال ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها، فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن، فله قيراطان». قيل: وما القيراطان، قال: «مثل الجبلين العظيمين»[١].

الصلاة على الجنازة فرض كفاية. أي: يكفي أن يقوم به بعض المسلمين.

يكبر أربع تكبيرات، يتعوذ بعد التكبيرة الأولى ويقرأ الفاتحة، وبعد الثانية يقرأ الصلاة على النبي ﷺ: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، وبعد التكبيرة الثالثة يدعو للميت، ومن ذلك: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلاً خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار»[٢]، أما الطفل الميت فيدعو له ولوالديه.

وبعد التكبيرة الرابعة يسكت قليلاً، ثم يسلم عن يمينه تسليمة واحدة، ويجوز أن يسلم تسليمة ثانية عن يساره، ويرفع المصلي يديه مع كل تكبيرة.

من فاتته الصلاة على الميت جاز أن يصلي عليه بعد دفنه، أي يجعل القبر بينه وبين القبلة ويصلي عليه كما يصلي على الجنازة؛ لفعله ﷺ[٣].

ومن فاتته بعض الصلاة على الجنازة، ودخل مع الإمام في أثنائها، فإنه إذا سلم الإمام قضى ما فاته على صفته، وإن خشي أن ترفع الجنازة، تابع التكبيرات (أي: بدون فصل بينها)، ثم سلم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

سادسًا: حمل الميت ودفنه..

يسن الإسراع بالجنازة برفق؛ لقوله ﷺ: «أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة، فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك، فشر تضعونه عن رقابكم»(١)، ويكون على حامليها ومشيعيها السكينة، ولا يرفعون أصواتهم، لا بقراءة ولا ذكر.

ويجوز أن يمشي الناس أمام الجنازة، أو خلفها، وعن يمينها وشمالها، ويكره لمن يتبع الجنازة أن يجلس قبل أن توضع الجنازة على الأرض، لنهي النبي ﷺ عن ذلك.

هناك ثلاثة أوقات نهى النبي ﷺ عن الدفن فيها: وقت طلوع الشمس حتى ترتفع، وقبل أذان الظهر بعشر دقائق، وحين تبدأ الشمس بالغروب حتى تغرب، قال عقبة بن عامر رضي الله عنه: «ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصلي فيهم أو أن نقبر فيهن موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس، وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب»(٢)، ويجوز الدفن في الليل.

يسن أن يدخل الميت القبر من عند رجلي القبر، فإذا لم يمكن أدخل من جهة القبلة، ويقول من يدخل الميت في قبره: «باسم الله وعلى ملة رسول الله»(٣).

اللحد أفضل من الشق، قال ﷺ: «اللحد لنا والشق لغيرنا»(٤)، واللحد هو أن يحفر للميت في قاع القبر، ويسن تعميق القبر ليأمن على الميت من السباع، ومن خروج رائحته.

يسن وضع الميت في قبره على شقه الأيمن مستقبلاً القبلة.

يسن أن يرفع القبر مقدار شبر ليعلم أنه قبر فلا يهان، ويكون مسنمًا، أي على هيئة سنام البعير، ويضع على قبره حجرًا جهة الرأس ليعرف، كما فعل ﷺ بقبر عثمان بن مظعون رضي الله عنه(٥).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) رواه أبو داود.

يحرم البناء على القبر، والكتابة عليه، وتحرم إهانة القبور بالمشي عليها ووطئها بالنعال والجلوس عليها؛ لما روى مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «لأن يجلس أحدكم على جمرة، فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده خير من أن يجلس على قبره».

الأصل أن يدفن كل ميت في قبر بمفرده، ولكن عند الضرورة يجوز دفن الاثنين والثلاثة في قبر واحد، كما في حالة كثرة الموتى وقلة من يدفنهم، كما فعل بشهداء أحد، ويجعل بين كل اثنين حاجزًا من التراب.

ويستحب إذا فرغ من دفنه أن يقف المسلمون على قبره ويدعوا له ويستغفروا له لأنه عليه الصلاة والسلام كان إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»[1]، وأما قراءة شيء من القرآن عند القبر، فإن هذا بدعة؛ لم يفعله النبي ﷺ ولا صحابته.

ويحرم إسراج القبور أي: إضاءتها بالأنوار الكهربائية وغيرها، ويحرم بناء المساجد عليها، والصلاة عندها.

سادسًا: أحكام التعزية وزيارة القبور:

تسن تعزية المصاب بالميت، وحثه على الصبر والدعاء للميت، لقوله ﷺ: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة، إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة»[2]، فيقول في التعزية: «أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وغفر لميتك».

يجوز البكاء اليسير على الميت، ولكن بلا نياحة أو صراخ؛ لأنه ﷺ دمعت عيناه،لما مات ابنه إبراهيم.

يجوز للمصاب بالميت أن يحد على الميت: أي: يترك تجارته أو الخروج للنزهة أو نحو ذلك حزنًا على الميت، ويكون ذلك لثلاثة أيام فقط. إلا الزوجة على زوجها، فيجب عليها أن تحد على زوجها مدة العدة وهي ٤ أشهر و ١٠ أيام إن لم تكن حاملاً، أما الحامل فتحد على زوجها إلى أن تلد.

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه ابن ماجه بسند حسن.

ولا ينبغي الجلوس للعزاء والإعلان عن ذلك كما يفعل بعضهم اليوم، ويستحب أن يعد لأهل الميت طعامٌ يبعث إليهم لقوله ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد جاءهم ما يشغلهم»[١].

وما يفعله بعض الناس من أن أهل البيت يهيئون مكانًا لاجتماع الناس عندهم، ويصنعون الطعام، ويستأجرون المقرئين لتلاوة القرآن، ويتحملون تكاليف مالية، فهذه مآتم محرمة مبتدعة، قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: «كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه من النياحة»[٢].

تسن زيارة الرجال فقط للعبرة والاتعاظ قال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة»[٣].

ويقول زائر المقبرة: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[٤].

زيارة القبور تستحب بثلاثة شروط:

١ ـ أن يكون الزائر من الرجال لا النساء؛ لأن النبي ﷺ «لعن الله زوارات القبور».

٢ ـ أن تكون بدون سفر؛ لقوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد».

٣ ـ أن يكون القصد منها الاعتبار والدعاء للأموات، وأما أن يتبرك بالقبور والأضرحة ويطلب قضاء الحاجات من الموتى فهذه زيارة بدعية شركية.

على فراش الموت..

لما نزل الموت بالعابد الزاهد عبد الله بن إدريس.. اشتد عليه الكرب.. فلما أخذ يشهق.. بكت ابنته.. فقال: يا بنيتي.. لا تبكي.. فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة..

---

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٢) رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

كلها لأجل هذا المصرع..

أما عامر بن عبد الله بن الزبير.. فلقد كان على فراش الموت.. يعد أنفاس الحياة.. وأهله حوله يبكون.. فبينما هو يصارع الموت.. سمع المؤذن ينادي لصلاة المغرب.. ونفسه تحشرج في حلقه.. وقد اشتد نزعه.. وعظم كربه.. فلما سمع النداء قال لمن حوله: خذوا بيدي..! قالوا: إلى أين؟.. قال: إلى المسجد.. قالوا: وأنت على هذه الحال! قال: سبحان الله..! أسمع منادي الصلاة ولا أجيبه.. خذوا بيدي.. فحملوه بين رجلين.. فصلى ركعة مع الإمام.. ثم مات في سجوده.. نعم.. مات وهو ساجد..

احتضر عبد الرحمن بن الأسود.. فبكى.. فقيل له: ما يبكيك؟ وأنت.. أنت يعني في العبادة والخشوع.. والزهد والخضوع.. فقال: أبكي والله.. أسفاً على الصلاة والصوم.. ثم لم يزل يتلو حتى مات..

أما يزيد الرقاشي فإنه لما نزل به الموت.. أخذ يبكي ويقول: من يصلي لك يا يزيد إذا مت؟ ومن يصوم لك؟ ومن يستغفر لك من الذنوب.. ثم تشهد ومات..

أحكام الزكاة

الزكاة أحد أركان الإسلام قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، فرضت في السنة الثانية للهجرة.

روى البخاري أنه ﷺ قال: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه (يعني: بطرفي فمه) يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠]».

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا أقعد لها يوم القيامة بقاع قرقر تطؤه ذات الظلف بظلفها وتنطحه ذات القرن بقرنها ليس فيها يومئذ جماء (لا قرن لها) ولا مكسورة القرن»، قلنا: يا رسول الله وما حقها؟ قال: «إطراق فحلها وإعارة دلوها ومنيحتها وحلبها على الماء وحمل عليها في سبيل الله، ولا من صاحب مال لا

يؤدي زكاته إلا تحول يوم القيامة شجاعًا أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفر منه ويقال: هذا مالك الذي كنت تبخل به فإذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده في فيه فجعل يقضمها كما يقضم الفحل».

وتجب الزكاة على الشخص إذا توفرت فيه شروط خمسة:

أحدها: الحرية، فلا تجب على عبد مملوك.

الثاني: أن يكون صاحب المال مسلمًا.

الثالث: امتلاك النصاب وهو قدر معلوم من المال يأتي تفصيله.

الرابع: استقرار الملكية، فإذا كان ماله محجوزًا عند أحد، أو كان هو ممنوعًا من التصرف في ماله، فلا زكاة عليه.

الخامس: مضي الحول على المال، إلا الخارج من الأرض كالحبوب والثمار، فتجب فيه الزكاة عند حصاده.

زكاة بهيمة الأنعام

فتجب الزكاة في الإبل والبقر والغنم بشرطين:

الأول: أن تتخذ للاستفادة من لبنها، وتكاثرها.

الثاني: أن تكون ترعى من العشب في الصحراء السنة كلها أو أكثرها، أما إن كان يعلفها السنة أو أكثر السنة، فليس فيها زكاة.

زكاة الذهب والفضة:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

قال ﷺ: «ما من ذهب ولا فضة لا يؤدى حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار»[١].

---

(١) متفق عليه.

فتجب الزكاة في الذهب إذا بلغ ٨٤ جرامًا، وفي الفضة إذا بلغت ٥٩٥ جرامًا.

والرجل يباح له الخاتم من الفضة، ويحرم عليه خاتم الذهب، والمرأة يجوز لها التحلي بالذهب والفضة، لقوله ﷺ: «أحل الذهب والحرير لإناث أمتي، وحرم على ذكورها»[(١)].

ولا زكاة في حلي النساء من الذهب والفضة إذا كان معدًّا للاستعمال أو للإعارة؛ لقوله ﷺ: «ليس في الحلي زكاة»[(٢)]، وأفتى بذلك جماعة من الصحابة، منهم أنس، وجابر، وابن عمر، وعائشة وأسماء أختها، قال أحمد: فيه عن خمسة من أصحاب النبي ﷺ، ولأنه لا يقصد به النماء والزيادة، بل الاستعمال فقط كالثياب ودور السكنى، أما إن كان عند المرأة حلي، لا تستعمله دائمًا، لكنها تحتفظ به لتبيعه عند الحاجة، فهذا تجب فيه الزكاة، لأنه كنز (والمسألة فيها خلاف واسع بين العلماء).

فائدة: يحرم أن يطلى شيء من الأواني أو الأقلام، أو السيارات أو مفاتيحها بذهب أو فضة، قال ﷺ: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم».

تجب الزكاة في الأوراق النقدية إلحاقًا لها بالذهب والفضة، مع بلوغ النصاب، ومضى الحول، أما نصاب المال فقد حدده النبي ﷺ بالفضة فقال: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة»[(٣)]. والخمس الأواقي تساوي (٥٩٥ جرامًا) = ٥٩٥ ريالاً، فإذا ملك ما لا يقل عن هذا المقدار، وحال عليه الحول، وجبت عليه الزكاة، ومقدار الزكاة الواجب إخراجها ربع العشر. أي (٢,٥٪).

وإذا كان المال يزيد وينقص، كما هو حال أكثر الناس اليوم، فإنه يحدد تاريخًا معينًا من السنة، وكلما أتى هذا التاريخ، نظر كم يملك من المال ثم زكاه، سواء ملكه من سنة، أو شهر.

وإذا اجتمع للشخص نقود تبلغ النصاب فعليه زكاتها، إذا حال عليها الحول، سواء كان أعدها للنفقة، أو للتزوج، أو لشراء عقار، أو لقضاء دين، أو غير ذلك من المقاصد،

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه الطبراني عن جابر بسند ضعيف.

(٣) متفق عليه.

لعموم الأدلة الشرعية الدالة على وجوب الزكاة في مثل هذا!.

وبعض الناس يخصص رمضان لإخراج الزكاة، ويمكن إخراجها بقية السنة، لكنهم ربطوا الزكاة برمضان حتى لا ينسوها، فإذا كان الأمر كذلك فلا حرج إن شاء الله تعالى.

من له دين على آخر، هل تجب عليه زكاته؟ الجواب: فيه تفصيل؛ إذا كان المدين معسرًا، أو كان قادرًا على الوفاء لكنه مماطل لا يمكن تحصيل الدين منه، فهذا لا تجب فيه الزكاة، لأن الزكاة في المال، ولا مال في هذه الحال، وإذا كان المدين يمكن تحصيل الدين منه، لكن الدائن تكاسل عن طلبه واستلامه، فالزكاة فيه واجبة؛ لأنه قادر على تحصيل الدين فهو كأنه عنده، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «كل دين ترجو أخذه، فإنما عليك زكاته كلما حال عليه الحول»(١).

زكاة عروض التجارة

وهو ما أعد للبيع والشراء لأجل الربح، سمي بذلك لأنه يعرض ليباع ويشترى، قال سمرة رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعده للبيع»(٢)، فتجب فيه الزكاة إذا حال عليه الحول، وهو ناو به التجارة، لقوله ﷺ: «لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول».

وكيفية إخراج زكاة العروض، أنها عند تمام الحول ينظر كم تساوي لو باعها، ثم يخرج زكاة القيمة، مثال: لو كان عنده بضاعة في دكان (مهما كانت هذه البضاعة: طعام، لباس، سيارات، أجهزة..) فحال عليها الحول، فينظر كم قيمتها الآن، فيزكي القيمة، فإن كانت تساوي ألف ريال أخرج ٢,٥٪ منها، أي: أخرج ٢٥ ريالاً.

وما زاد ونما أثناء الحول فحوله حول أصله.

مثال١: فتح المحل في أول السنة ووضع فيه بضاعة بألف ريال، وباع واشترى، وفي آخر

---

(١) أخرجه أبو عبيد، صحيح.

(٢) رواه أبو داود.

السنة لزمته الزكاة فنظر كم يساوي ما في المحل فإذا هو يساوي ١٥٠٠ ريال، فيزكي ١٥٠٠ ريال.

مثال٢: رجل عند صيدلية، فتجب فيها الزكاة إذا حال عليها الحول: فيحسب المعروض للبيع كله بقيمته عند إخراج الزكاة، وليس بقيمة شرائه لها.

أما الأشياء غير المعدة للبيع فلا تزكى، كأثاث المحل، والهاتف، والثلاجات، وسيارات الشحن وآلات المخابز، فهذا لا تجب فيه الزكاة، فيحسب التاجر ما عنده من مال، وقيمة البضاعة الموجودة المعدة للبيع فيخرج زكاتها جميعًا (٢,٥٪) وزكاة العروض لا تكون من المعروض نفسه، وإنما تكون بإخراج قيمتها؛ لأن المقصود منها هو القيمة، وإن أخرج الزكاة من المعروض نفسه وكان الفقير يحتاجه، جاز.

الأراضي والبيوت والسيارات، لا زكاة فيها، إلا إذا أعدت للتجارة بالبيع، أما إذا كانت للاقتناء والاستعمال، فلا زكاة فيها، قال ﷺ: «ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة»[1]، أما إذا أعد الأرض أو البيت أو السيارة للبيع فتجب الزكاة فيها بعد مضي الحول، ويبدأ حولها من حين عزمه على البيع، أما الذي يملك أرضًا ـ مثلاً ـ ويفكر في بيعها، لكنه لم يعزم على البيع، وإنما هو متردد، فمثل هذا لا تجب عليه الزكاة.

ومن وجب عليه الزكاة، ومات قبل إخراجها، وجب إخراجها من تركته، فلا تسقط بالموت.

أما العمارات والمحلات والأراضي المعدة للإيجار لا للبيع، فالزكاة في أجورها إذا حال عليها الحول، أما ذاتها فليس فيها زكاة، وكذلك السيارات الخصوصية والأجرة ليس فيها زكاة إذا كانت لم تعد للبيع، وإنما اشتراها صاحبها للاستعمال.

(٧٠٠٠) درهم.. وسجن!

ذكر في «تاريخ بغداد».. أن فقيرًا جاء إلى عبد الله بن المبارك.. فسأله أن يقضى عنه

(١) متفق عليه.

دينًا عليه.. فناوله عبد الله كتابًا.. إلى وكيل ماله.. فذهب به الفقير.. فلما قرأه الوكيل.. قال للفقير: كم الدين الذي سألت فيه عبد الله أن يقضيه عنك؟ قال: سبعمائة درهم.. فكتب الوكيل إلى عبد الله.. أن الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم.. وكتبت له سبعة آلاف.. وسوف تفنى الأموال أو فنيت.. فكتب إليه عبد الله: إن كانت الأموال قد فنيت.. فإن العمر أيضًا قد فني.. فأجز له ما سبق به قلمي..

وكان ابن المبارك كثيرًا ما يسافر إلى الرقة.. وينزل في خان فيها.. فكان شاب يأتي إليه.. ويقوم بحوائجه.. ويسمع منه الحديث.. فقدم عبد الله الرقة مرة.. فلم ير ذلك الشاب.. فسأل عنه.. فقالوا: إنه محبوس.. لدين ركبه.. فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم..

فلم يزل عبد الله يستقصي.. حتى دل على صاحب المال.. فدعا به ليلاً وأعطاه عشرة آلاف درهم.. وحلفه أن لا يخبر أحدًا.. ما دام عبد الله حيًّا.. وقال له: إذا أصبحت.. فاخرج الرجل من الحبس.. ثم خرج عبد الله من ليلته من الرقة.. فلما خرج الفتى من الحبس.. قيل له: عبد الله بن المبارك كان هاهنا.. وكان يسأل عنك.. فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة.. فلما قابله.. قال له عبد الله: يا فتى.. أين كنت؟ لم أرك في الخان! قال: كنت محبوسًا بدين.. قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني.. ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس.. فقال له عبد الله: احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك.. ثم فارقه ومضى..

زكاة الفطر

وهي الزكاة التي تخرج قبل صلاة عيد الفطر أو قبل العيد بيوم أو يومين، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤، ١٥] «وفرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعًا من بر أو صاعًا من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين»[1].

(١) متفق عليه.

ومقدارها صاع (٢,٠٤٠ جرام، كيلوان وأربعون جرامًا)، وتخرج من الطعام من غالب ما يأكله أهل البلد، أرزًا، أو برًّا، أو شعيرًا، أو ذرة..

وقتها: يبدأ وقت الإخراج الأفضل بغروب الشمس ليلة العيد (بعد المغرب من آخر يوم من رمضان) ويجوز تقديم إخراجها قبل العيد بيوم أو يومين، وإخراجها يوم العيد قبل صلاة العيد أفضل، ولا يجوز تأخيرها عن ذلك.

ويخرج المسلم زكاة الفطر عن نفسه وعمن يعولهم من الزوجات والأولاد أو غيرهم كالأب والأم ونحوهما لقول ﷺ: «أدوا الفطرة عمن تمولون». ويستحب إخراجها عن الحمل، لفعل عثمان رضي الله عنه .

ويجوز التبرع بإخراجها عمن لا يلزمه، كمن يخرجها عن الخادمة والسائق.

وينبغي إخراج زكاة الفطر طعامًا كما سنها النبي ﷺ، أما إخراج قيمتها مالاً بأن يدفع دراهم، فهو خلاف السنة، ولم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه.

مصارف الزكاة

تجب الزكاة في كل مال مملوك، حتى لو كان مالاً لصبي يتيم، أو مجنون، ويتولى إخراجها عنهما وليهما، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادع لهم.

الأموال التي لا مالك لها، كالأموال التي تجمع لبناء مساجد، أو دعم مشاريع خيرية فهذه لا زكاة فيها مهما بلغت ولو حال الحول.

وعند إعطاء الزكاة للفقير لا يجب إخباره أنها زكاة، لئلا يحرجه، ولكن إن أعطاها لشخص يشك في أنه فقير فالأبرأ لذمة المعطي أن يقول: هذه زكاة، حتى إن لم يكن الآخذ مستحقًا لها ردها، أو دفعها إلى مستحقها.

والأفضل إخراج زكاة كل مال في بلده، بأن يوزعها على فقراء ذلك البلد الذي فيه المال، ويجوز نقلها إلى بلد آخر لمصلحة شرعية، كأن يكون له قرابة محتاجون ببلد آخر.

ويجوز تعجيل إخراج الزكاة قبل وجوبها لأن النبي ﷺ تعجل من العباس صدقة سنتين

(كما رواه أحمد وأبو داود)، فلو جاءك فقير محتاج في شهر صفر، وزكاتك لا تحل إلا في رمضان، فيجوز أن تعطيه صدقة تنوي أنها من الزكاة، فإذا جاء رمضان خصمتها من زكاتك.

أهل الزكاة

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]

فهؤلاء هم أهل الزكاة لا يجوز صرفها لغيرهم، وقال ﷺ: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء»[١].

١، ٢ـ الفقراء والمساكين، وهم من لا يجدون كفايتهم، والفقير أشد حاجة من المسكين. فيعطى الفقير أو المسكين ما يكفيه وعائلته لمدة سنة، فإن كان لا يحسن التصرف، وقد يصرف المال الخاص بسنة في شهر واحد، فيمكن أن تسلم لثقة يقسطها عليه طوال السنة.

أما الغني، أو القوي الذي يستطيع الاكتساب فإنها لا تحل له. لقوله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي»[٢].

٣ ـ العاملون عليها: وهم العمال الذين يقومون بجمع الزكاة من أصحابها، فيعطون من الزكاة قدر أجرة عملهم، إلا أن كان لهم رواتب من بيت المال فلا يجوز أن يعطوا شيئًا من الزكاة، كما هو الجاري في هذا الوقت، فإن العمال يعطون من قبل الدولة، فيأخذون انتدابات على عملهم في الزكاة، فهؤلاء حرام عليهم أن يأخذوا من الزكاة شيئًا عن عملهم؛ لأنهم قد أعطوا أجرة عملهم من غيرها.

٤ ـ المؤلفة قلوبهم: وهم قسمان: كفار، ومسلمون، فالكافر يعطى من الزكاة لتحببه في الإسلام، أو لكف شره عن المسلمين، والمسلم يعطى من الزكاة لتقوية إيمانه

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه النسائي وأحمد.

فكان القارئ يقوم بسورة البقرة في ثمان ركعات.. فإذا قام بها في اثنتي عشرة ركعة.. رأى الناس أنه قد خفف..

وفي «الموطأ» عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال: كنا ننصرف من القيام في رمضان.. فنستعجل الخادم بالطعام مخافة الفجر..

وفي «شعب البيهقي» عن خالد بن دريك قال: كان لنا إمام بالبصرة يختم بنا في شهر رمضان في كل ثلاث.. فمرض فأمنا غيره.. فختم بنا في كل أربع.. فرأينا أنه قد خفف..

وقال السائب بن زيد: كان القارئ يقرأ بالمئين - يعني بمئات الآيات - حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام.. وما كنا ننصرف إلا عند الفجر..

فقارن حالهم بحالنا اليوم..

أحكام الصيام

صوم رمضان فرض: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقال ﷺ: «بني الإسلام على خمس: صوم رمضان»[1].

فضل الصيام: «الصيام يشفع للعبد يوم القيامة يقول: أي: رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه»[2]، «وخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[3]، «ومن صام يومًا في سبيل الله باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا»[4]، «وفي الجنة باب يقال له: الريان يدخل منه الصائمون لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد»[5].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخاري.

ورمضان: أنزل فيه القرآن، وفيه ليلة خير من ألف شهر، و«إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين»[١]، وصيامه يعدل صيام عشرة أشهر، و«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢]، و«لله عز وجل عند كل فطر عتقاء»[٣].

من أفطر يومًا من رمضان بغير عذر فقد أتى كبيرة عظيمة، قال ﷺ لما ذكر رؤيته لبعض أنواع عذاب العصاة: «حتى إذا كنت في سواء الجبل إذا بأصوات شديدة، قلت: ما هذه الأصوات؟ قالوا: هذا عواء أهل النار، ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم، مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دمًا، قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: الذين يفطرون قبل تحلة صومهم»[٤] أي: قبل وقت الإفطار.

آداب الصيام وسننه

الحرص على السحور وتأخيره، قال ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة»[٥]، و«نعم سحور المؤمن التمر»[٦].

تعجيل الفطر؛ لقوله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[٧]، «وأن يفطر على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتميرات، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء»[٨].

وكان ﷺ إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله»[٩].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد.

(٤) ابن خزيمة.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه أبو داود.

(٧) رواه البخاري.

(٨) رواه الترمذي.

(٩) رواه أبو داود.

البعد عن الرفث؛ لقوله ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث..»[١]، والرفث هو الوقوع في المعاصي، وقال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٢].

وينبغي اجتناب الصائم الغيبة والفحش والكذب، فربما ذهبت بأجر صيامه، قال ﷺ: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع»[٣].

أن لا يشتم ولا يخاصم، لقوله ﷺ: «وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم»[٤].

عدم الإسراف في الطعام، لحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه..»[٥].

الجود والكرم بالصدقة والمساعدة للمحتاج، وقد كان ﷺ أجود الناس بالخير، و«كان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[٦].

والجمع بين الصيام والإطعام من أسباب دخول الجنة؛ لقوله ﷺ: «إن في الجنة غرفًا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[٧]، وقال ﷺ: «من فطر صائمًا كان له مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء»[٨] والمراد بتفطيره أن يشبعه.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه الترمذي.

(٦) رواه البخاري.

(٧) رواه أحمد.

(٨) رواه الترمذي.

من أحكام الصيام

من الصيام ما يجب فيه تتابع أيامه، كصوم رمضان والصوم في كفارة القتل الخطأ وكفارة الوطء بنهار رمضان.

ومن الصيام ما لا يلزم فيه التتابع كقضاء رمضان والصوم في كفارة اليمين.

نهى النبي ﷺ عن إفراد الجمعة بالصوم[(١)]، ويحرم صيام يومي العيدين، وأيام التشريق (١١ ـ ١٢ ـ ١٣ من شهر ذي الحجة) لأنها أيام أكل من الأضاحي وشرب وذكر لله، ويجوز لمن لم يجد الهدي أن يصومها بمنى.

يثبت دخول شهر رمضان برؤية هلاله أو بإتمام شعبان ثلاثين يومًا.

ويجب الصيام على كل مسلم بالغ عاقل مقيم قادر سالم من الموانع (الموانع: كالحيض والنفاس).

يحصل البلوغ بواحد من أمور ثلاثة:

١ ـ إنزال المني باحتلام أو غيره.

٢ ـ نبات شعر العانة الخشن حول القبل.

٣ ـ إتمام خمس عشرة سنة، وتزيد الأنثى أمرًا رابعًا وهو الحيض فيجب عليها الصيام ولو حاضت قبل سن العاشرة.

يستحب أن يؤمر الصبي بالصيام وعمره سبع سنين إن قدر، وأجر صيامه له ولوالديه، قالت الربيع بنت معوذ رضي الله عنها: «كنا نصوم صبياننا ونجعل لهم اللعبة من العهن (القطن) فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار»[(٢)].

إذا أسلم الكافر، أو بلغ الصبي، أو أفاق المجنون أثناء النهار؛ لزمهم الإمساك بقية اليوم؛ لأنهم صاروا من أهل الوجوب، ولا يلزمهم قضاء ما فات من الشهر؛ لأنهم لم يكونوا

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

من أهل الوجوب في ذلك الوقت، وإن قضوا هذا اليوم الذي وجب عليهم الصوم في منتصفه فهو أولى.

المجنون مرفوع عنه القلم، فإن كان يجن أحيانًا ويفيق أحيانًا، لزمه الصيام في حال إفاقته دون حال جنونه. وإن جن في أثناء النهار لم يبطل صومه، كما لو أغمي عليه بمرض أو غيره؛ لأنه نوى الصيام وهو عاقل. ومثله في الحكم: المصروع.

من مات أثناء الشهر فليس عليه ولا على أوليائه شيء فيما تبقى من الشهر.

أحكام صيام المسافر

المسافر، يجوز له الفطر، لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

ويشترط لفطره في السفر: أن يكون سفرًا (أكثر من ٨٠كم) (على خلاف مشهور بين العلماء)، وأن يجاوز بنيان البلد، فلا يفطر قبل مغادرة البلد، وإن سافر جوًّا أفطر إذا أقلعت به الطائرة وفارقت البنيان، وإذا كان المطار خارج بلدته أفطر فيه، أما إذا كان المطار في البلد أو ملاصقًا لها فإنه لا يفطر فيه لأنه لا يزال في البلد، وأن لا يكون قصد بسفره التحيل للفطر.

يجوز الفطر للمسافر سواء كان قادرًا على الصيام أم عاجزًا، وسواء شق عليه الصوم أم لم يشق.

إذا غربت الشمس فأفطر على الأرض، ثم أقلعت به الطائرة فرأى الشمس لم يلزمه الإمساك لأنه أتم صيام يومه كاملاً، فلا سبيل إلى إعادته للعبادة بعد فراغه منها.

وإذا أقلعت به الطائرة قبل غروب الشمس وأراد إتمام صيام ذلك اليوم في السفر فلا يفطر إلا إذ غربت الشمس في المكان الذي هو فيه من الجو، ولا يجوز للطيار أن يهبط إلى مستوى لا ترى فيه الشمس لأجل الإفطار، لأنه تحايل، لكن إن نزل لمصلحة الطيران فاختفى قرص الشمس أفطر (ابن باز).

من وصل إلى بلد ونوى الإقامة فيها أكثر من أربعة أيام وجب عليه الصيام (على

خلاف مشهور)، فالذي يسافر للدراسة في الخارج أشهرًا أو سنوات. فالجمهور ومنهم الأئمة الأربعة أنه في حكم المقيم يلزمه صوم رمضان وإتمام الصلاة.

وإذا مر المسافر ببلد غير بلده وهو مفطر، فليس عليه أن يمسك عن الطعام، إلا إذا كانت إقامته فيها أكثر من أربعة أيام فإنه يمسك (يصوم)؛ لأنه في حكم المقيمين.

ومن كان يسافر أكثر عمره، كموظف البريد وأصحاب سيارات الأجرة والطيارين ولو كان سفرهم يوميًا، يجوز لهم الفطر وعليهم القضاء.

إذا رجع المسافر إلى بلده، ووصلها أثناء النهار، وهو مفطر، فهل يجب عليه الإمساك إلى المغرب أم لا؟ فيه خلاف، والأحوط له أن يمسك مراعاة لحرمة الشهر، وعليه القضاء.

إذا ابتدأ الصيام في بلده، ثم في آخر الشهر سافر إلى بلد صاموا قبل بلده بيوم، أو بعدهم بيوم، فإن حكمه حكم من سافر إليهم، فلا يعيد إلا في عيدهم، ولا ينتهي عنه رمضان إلا معهم، ولو زاد عن ثلاثين يومًا لقوله ﷺ: «الصوم يوم تصومون والإفطار يوم تفطرون»، وإن نقص صومه عندهم عن تسعة وعشرين يومًا فعليه إكماله بعد العيد إلى تسعة وعشرين يومًا لأن الشهر الهجري لا ينقص عن تسعة وعشرين يومًا. (بن باز)

هداية..

ذكر ابن قدامة في «التوابين».. عن عبد الواحد بن زيد قال: كنت في مركب.. فطرحتنا الريح إلى جزيرة..

وإذا فيها رجل يعبد صنمًا.. فقلنا له: يا رجل.. من تعبد؟

فأومأ إلى الصنم..

فقلنا: إن معنا في المركب من يصنع وليس هذا إلهًا يعبد..

قال: فأنتم من تعبدون؟

قلنا: الله..

قال: وما الله؟ قلنا: الذي في السماء عرشه.. وفي الأرض سلطانه.. وفي الأحياء والأموات قضاؤه..

فقال: كيف علمتم به؟

قلنا: وجه إلينا هذا الملك رسولاً كريمًا.. فأخبر بذلك..

قال: فما فعل الرسول؟

قلنا: أدى الرسالة.. ثم قبضه الله..

قال: فما ترك عندكم علامة؟

قلنا: بلى.. ترك عندنا كتاب الملك..

فقال: أروني كتاب الملك.. فينبغي أن تكون كتب الملوك حسانًا.. فأتيناه بالمصحف.. فقال: ما أعرف هذا.. فقرأنا عليه سورة من القرآن.. فلم نزل نقرأ ويبكي.. حتى ختمنا السورة..

فقال: ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يعصى.. ثم أسلم..

وحملناه معنا.. وعلمناه شرائع الإسلام.. وسورًا من القرآن.. وأخذناه معنا في السفينة.. فلما سرنا وأظلم علينا الليل.. أخذنا مضاجعنا

فقال لنا: يا قوم.. هذا الإله الذي دللتموني عليه.. إذا أظلم الليل هل ينام؟

قلنا: لا يا عبد الله.. هو عظيم قيوم لا ينام..

فقال: بئس العبيد أنتم.. تنامون ومولاكم لا ينام..

ثم أخذ في التعبد وتركنا.. فلما وصلنا بلدنا.. قلت لأصحابي: هذا قريب عهد بالإسلام.. وغريب في البلد.. فجمعنا له دراهم وأعطيناه..

فقال: ما هذا؟

قلنا: تنفقها في حوائجك..

فقال: لا إله إلا الله.. أنا كنت في جزائر البحر.. أعبد صنمًا من دونه.. ولم يضيعني.. أفيضيعني وأنا أعرفه..! ومضى يتكسب لنفسه.. وكان بعدها من كبار الصالحين.

أحكام صيام المريض

كل مريض يشق عليه الصوم، يجوز له الفطر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ

عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]. أما المرض اليسير كالسعال والصداع فلا يجوز الفطر بسببه.

وإذا كان الصيام يزيد المرض أو يؤخر الشفاء، ويحتاج نهارًا للدواء، فيجوز له أن يفطر، ويكره له الصيام؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

إن كان الصوم يسبب له الإغماء، أفطر وقضى، وإذا أصبح صائمًا فأغمي عليه أثناء النهار وأفاق قبل الغروب أو بعده فصيامه صحيح ما دام لم يأكل ولم يشرب، ومن أغمي عليه، أو وضعوا له مخدرًا لمصلحته، فغاب عن الوعي، فإن كان ثلاثة أيام فأقل، فيقضي - قياسًا على النائم - وإن كان أكثر فلا يقضي قياسًا على من غاب عقله بجنون (ابن باز).

المريض الذي يرجى برؤه وينتظر الشفاء (كمن أجريت له عملية جراحية) إذا شق عليه الصوم أفطر وقضى.

والمريض مرضًا مزمنًا لا يرجى برؤه (كمرض السرطان، والفشل الكلوي مثلاً) وكذلك الكبير العاجز عن الصيام والقضاء، يطعم عن كل يوم مسكينًا نصف صاع من قوت البلد (كيلو ونصف من الأرز).

والمريض الذي أفطر بعض رمضان وينتظر الشفاء ليقضي، ثم علم أن مرضه مزمن، وأنه لن يستطيع القضاء أبدًا، فالواجب عليه إطعام مسكين واحد عن كل يوم أفطره.

ومن كان ينتظر الشفاء من مرض يرجى برؤه، فمات قبل أن يوجد وقت للقضاء، فليس عليه ولا على أوليائه شيء (مثال: شخص أجرى عملية جراحية في ٢٥ رمضان، فأفطر بنية القضاء بعد الشفاء فتوفي في ٣٠ رمضان، فهذا لا يلزم أهله عنه قضاء ولا إطعام).

ومن مرض فأفطر، ثم شفي وتمكن من القضاء، فتكاسل حتى مات، أخرج من ماله طعام مسكين عن كل يوم، وإن تبرع أحد أقاربه بالصوم عنه فهو أولى؛ لقوله ﷺ: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» (مثال: أجرى عملية في ٢٥ رمضان، فأفطر بنية

القضاء، فشفي في ٣٠ رمضان، وتكاسل عن القضاء حتى مات في شهر الحج، فهذا يلزم أهله عنه قضاء أو إطعام).

ومن كان مرضه يعتبر مزمنًا، فأفطر وأطعم (لعجزه عن القضاء)، ثم تطور الطب فاكتشف علاج لمرضه، فاستعمله وشفي، فلا يلزمه شيء عما مضى؛ لأنه فعل ما وجب عليه في حينه (اللجنة الدائمة).

ومن أصابه جوع أو عطش شديد، فخاف على نفسه الهلاك، أفطر وقضى لأن حفظ النفس واجب، ولا يجوز الفطر لمجرد الشدة المحتملة أو التعب أو خوف المرض متوهمًا.

وأصحاب المهن الشاقة كالحدادين والنجارين، وعمال الطرق، لا يجوز لهم الفطر، فإن كان يضرهم الصوم وخشوا على أنفسهم الموت أثناء النهار، فإنهم يفطرون بمقدار ما يدفع المشقة من ماء أو طعام، ثم يمسكون إلى الغروب ويقضون بعد ذلك، وعلى العامل في المهن الشاقة كأفران صهر المعادن وغيرها إذا كان لا يستطيع تحمل الصيام أن يحاول جعل عمله بالليل، أو يأخذ إجازة أثناء شهر رمضان ولو بدون مرتب، فإن لم يتيسر ذلك بحث عن عمل آخر يمكنه فيه الجمع بين الواجبين الديني والدنيوي، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب (فتاوى اللجنة الدائمة).

امتحانات الطلاب ليست عذرًا يبيح الفطر في رمضان، ولا تجوز طاعة الوالدين في الإفطار لأجل الامتحان لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الإطعام له صورتان: فيجوز أن يجعله آخر الشهر، فيطعم ٣٠ مسكينًا في آخر الشهر، ويجوز أن يطعم مسكينًا كل يوم.

الشيخ الكبير والعاجز والهرم الذي ضعف جسمه لكبر سنه، لا يلزمه الصوم، ما دام الصيام يشق عليه، ويطعم عن كل يوم مسكينًا.

وأما كبير السن الذي بلغ حد الخرف، وسقط تمييزه، فهذا سقط عنه التكليف لعدم العقل، ومن شروط وجوب الصوم، العقل (وهذا فاقد للعقل)، فلا يجب عليه ولا على أهله شيء، فإن كان هذا الكبير يميز أحيانًا ويهذي أحيانًا، وجب عليه الصوم حال تمييزه، ولم يجب حال هذيانه.

النية في الصيام

تشترط النية من الليل في كل صوم واجب كـ(رمضان) والقضاء والكفارة، لقوله ﷺ: «لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل»[١]، والنية عزم القلب على الفعل، والتلفظ بها بدعة، وكل من علم أن غدًا من رمضان وهو يريد صومه فقد نوى، أما صيام النفل فلا تشترط له النية من الليل، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «هل عندكم شيء؟» فقلنا: لا، فقال: «فإني إذًا صائم»[٢].

من شرع في صوم واجب كالقضاء والنذر والكفارة لا بد أن يتمه، ولا يفطر بغير عذر، وأما صوم النافلة فإن «الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر»[٣] ولو بغير عذر.

من لم يعلم بدخول شهر رمضان إلا بعد طلوع الفجر فعليه أن يمسك بقية يومه وعليه القضاء عند جمهور العلماء؛ لقوله ﷺ: «لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل»[٤].

أحكام الإفطار والإمساك

إذا غابت الشمس يفطر الصائم؛ لقوله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»[٥].

والسنة أن يعجل الإفطار، وقد كان ﷺ لا يصلي المغرب حتى يفطر، ولو على شربة من الماء، رواه الحاكم، والسنة أن يفطر على رطب، فإن لم يجد، فعلى تمر، فإن لم يجد، فعلى ماء؛ لأنه ﷺ «كان يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات،

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) رواه البخاري.

فتمرات، فإن لم تكن تمرات، حسا حسوات من ماء»[١]، فإن لم يجد رطبًا ولا تمرًا ولا ماء أفطر على ما تيسر من طعام وشراب، فإن لم يجد شيئًا يفطر عليه نوى الفطر بقلبه.

ولا بأس أن يدعو عند إفطاره بما أحب، فإن للصائم عند فطره دعوة لا ترد، وكان ﷺ إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله».

وليحذر من الإفطار قبل الوقت فإن النبي ﷺ رأى بعض أنواع عذاب العصاة فقال: «ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم، مشققة أشداقهم، تسيل أشداقهم دمًا، قال: قلت: من هؤلاء؟ قال: الذين يفطرون قبل تحلة صومهم»[٢] أي: قبل وقت الإفطار.

وهنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أن بعض الناس قد يجلس على مائدة إفطاره ويتعشى ويترك صلاة المغرب مع الجماعة في المسجد، فيرتكب بذلك خطأ عظيمًا، وهو التأخر عن الجماعة في المسجد، ويفوت على نفسه ثوابًا عظيمًا، ويعرضها للعقوبة، والمشروع للصائم أن يفطر أولاً، ثم يذهب للصلاة، ثم يتعشى بعد ذلك.

إذا طلع الفجر وجب على الصائم الإمساك فورًا، سواء سمع الأذان أم لا، وإذا كان يعلم أن المؤذن دقيق حريص، لا يؤذن إلا عند طلوع الفجر الحقيقي، فيجب عليه الإمساك فور سماع أذانه، وأما إذا كان المؤذن يؤذن قبيل الفجر احتياطًا فلا بأس من الاستمرار في الأكل والشرب إلى بداية الأذان أو منتصفه، وإن كان لا يعلم حال المؤذن أو كثر المؤذنون، فيعمل بتقويم الصلاة المطبوع المبني على الحسابات.

وأما الاحتياط بالإمساك قبل الفجر بعشر دقائق ونحوها فهو بدعة، وما يلاحظ في بعض التقاويم من وجود خانة للإمساك وأخرى للفجر فهو أمر خلاف السنة.

البلد الذي فيه ليل ونهار خلال الأربع والعشرين ساعة، على المسلمين فيه الصيام ولو طال النهار، أما البلاد التي يستمر الليل أو النهار أكثر من ٢٤ ساعة، فيصومون بحسب أقرب البلدان إليهم مما فيه ليل أو نهار متميزان.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه ابن خزيمة.

المفطرات (مفسدات الصوم)

١ - الجماع: فمن جامع في نهار رمضان عامدًا مختارًا، جماعًا تامًّا، فقد أفسد صومه أنزل أو لم ينزل، ويلزمه:

١ - التوبة.

٢ - إتمام ذلك اليوم.

٣ - قضاء صوم هذا اليوم بعد رمضان.

٤ - الكفارة المغلظة، وهي: وجوب عتق رقبة، فإن لم يجد صام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينًا، لأن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! هلكت..! قال: «ما لك؟»، قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها؟» قال: لا، قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»، قال: لا، قال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟»؛ قال: لا. الحديث رواه البخاري، هذا والحكم واحد في الزنا واللواط وإتيان البهيمة.

ومن جامع عدة مرات في أيام متعددة من رمضان واحد نهارًا، فعليه كفارات بعدد الأيام التي جامع فيها، مع قضاء تلك الأيام، ولا يعذر بجهله بوجوب الكفارة، فلو جامع ثم قال: أنا أعلم أن الجماع مفسد للصوم، لكني لا أدري أن فيه الكفارة مغلظة، فهنا ما دام عالمًا أنه مفسد للصوم، لزمته الكفارة وإن لم يعلم بها. (اللجنة الدائمة).

الزوجة الصائمة، إذا وطئها زوجها في نهار رمضان برضاها، فحكمها حكمه، وأما إن كانت مكرهة، واجتهدت في منعه، فلم تستطع، فلا كفارة عليها، والأحوط أن تقضي صيام ذلك اليوم فقط، أما الزوج فتلزمه الكفارة السابقة.

وينبغي على المرأة التي تعلم أن زوجها لا يملك نفسه أن تتباعد عنه ولا تتزين في نهار رمضان، ويجب عليها قضاء ما أفطرته من رمضان ولا يشترط إذن الزوج في القضاء، وإذا شرعت في قضاء يوم فلا يحل لها الإفطار إلا بعذر شرعي، ولا يحل لزوجها أن يفسد صيامها.

أما صيام النافلة فلا يجوز لها أن تشرع فيه وزوجها حاضر إلا بإذنه لقوله ﷺ: «لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه»[(١)].

لو أراد رجل جماع زوجته فاحتال لذلك، بأن أفطر بالأكل أولاً، ثم جامع، فمعصيته أشد، وقد هتك حرمة الشهر مرتين؛ بأكله، وجماعه، والكفارة المغلظة واجبة عليه، وعليه التوبة.

إذا أذن عليه الفجر وهو جنب وهو لم يغتسل بعد، من وطء أو احتلام، فصومه صحيح.

٢ ـ إنزال المني بشهوة بفعل من الصائم: بسبب تقبيل أو لمس أو استمناء أو تكرار نظر، فإذا حصل شيء من ذلك، فسد صومه، وعليه القضاء فقط بدون كفارة؛ لأن الكفارة تختص بالجماع، وكذلك لو نام الصائم نهارًا فاحتلم فصومه صحيح، لأنه بغير اختياره، لكن يجب عليه الاغتسال من الجنابة.

٣ ـ الأكل أو الشرب عمدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧]، «وإذا نسي فأكل وشرب فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه»[(٢)]، وفي رواية: «فلا قضاء عليه ولا كفارة» وإذا رأى الشخص صائمًا يأكل ناسيًا فعليه أن يذكره، لعموم قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] وعموم قوله ﷺ: «فإذا نسيت فذكروني»، ولأن الأصل أن هذا منكر يجب تغييره.

ومن المفطرات ما يكون في معنى الأكل والشرب، كالأدوية والحبوب عن طريق الفم، والإبر المغذية، وكذلك حقن الدم، ونقله.

وأما الإبر التي لا تغذي ولا تغني عن الأكل والشرب، ولكنها للمعالجة، كالبنسلين والأنسولين، أو إبر التطعيم، فلا تضر الصيام، سواء أخذت عن طريق العضلات، أو الوريد، والأحوط أن تكون كل هذه الإبر بالليل.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

وإن دخل إلى حلقه شيء بغير اختياره، كما لو شرق أثناء المضمضة في الوضوء، فبلع شيئًا من الماء بغير قصد، فصومه صحيح، ولكن ينبغي للصائم أن لا يبالغ في المضمضة والاستنشاق؛ لئلا يدخل الماء لجوفه، قال ﷺ: «وبالغ بالاستنشاق إلا أن تكون صائمًا».

أما النخامة (وهي: المخاط النازل من الرأس) والنخاعة (وهي: البلغم الصاعد من الباطن بالسعال والتنحنح) فإن ابتلعها وهي في أقصى حلقه، قبل وصولها إلى فمه ولسانه، فصومه صحيح، لأنه يشق تكلف إخراجها، أما إن وصلت إلى فمه، وصارت على لسانه، فهنا يجب إخراجها، فإن ابتلعها فسد صومه، إلا إذا دخلت بغير قصده واختياره فلا تفطر.

والسواك سنة للصائم في جميع النهار وإن كان رطبًا، وإذا استاك بسواك جديد له فوجد طعمه في حلقه، تفله، ويخرج ما تفتت من السواك داخل الفم فإن ابتلعه بغير قصد فلا شيء عليه.

ولا بأس باستعمال المراهم المرطبة والملينة للبشرة، وشم الطيب واستعمال العطور، والبخور لا حرج فيه للصائم إذا لم يستنشقه ليدخل لجوفه.

والتدخين حرام للصائم والمفطر، وهو من المفطرات.

لو فعل الصائم ما يخفف به العطش عن نفسه، من اغتسال، ومضمضة، فلا بأس.

لو أكل أو شرب، ظانًا بقاء الليل، ثم تبين له أن الفجر قد طلع، صح صومه لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧] (مثال: لو كان أذان الفجر الساعة ٤ فجرًا، فاستيقظ رجل ليتسحر فنظر لساعته فوجدها الثالثة والنصف، وأثناء سحوره سمع إقامة الصلاة من مسجد مجاور، فاكتشف أن ساعته متأخرة نصف ساعة، فهنا أكل وشرب ظانًا بقاء الليل ثم تبين له أنه قد طلع الفجر، فصومه صحيح).

إذا ظن الشمس قد غربت فأفطر شاكًا في غروبها، ثم تبين له أنها لم تغرب، فعليه القضاء (عند جمهور العلماء) لأن الأصل بقاء النهار واليقين لا يزول بالشك.

٤ - إخراج الدم من البدن: بحجامة أو فصد أو سحب دم ليتبرع به لإسعاف مريض، فيفطر بذلك كله، أما إخراج دم قليل كالذي يستخرج للتحليل، فهذا لا يؤثر في الصيام،

وكذا خروج الدم بغير اختياره برعاف أو جرح أو خلع سن، فهذا لا يؤثر في الصيام.

٥ ـ التقيؤ: وهو استخراج ما في المعدة من طعام أو شراب عن طريق الفم متعمدًا، فهذا يفطر به الصائم، أما إذا غلبه القيء، وخرج بدون اختياره، فلا يؤثر في صيامه، لقوله ﷺ: «من ذرعه القيء، فليس عليه قضاء، ومن استقاء عمدًا، فليقض» ومعنى: «ذرعه القيء» أي: خرج بدون اختياره، ومعنى قوله: «استقاء» أي: تعمد القيء.

من عجائب الصلاة..

كان محمد بن خفيف رحمه الله به وجع الخاصرة.. فكان يشتد عليه حتى يقعده عن الحركة.. فكان إذا نودي بالصلاة.. يحمل على ظهر رجل إلى المسجد.. فقيل له: إن الله قد عذرك.. فلو خففت على نفسك.. فقال: كلا.. إذا سمعتم حي على الصلاة.. ولم تروني في الصف فاعلموا أني ميت في المقبرة.. لله درهم من مرضى.. بل والله نحن المرضى..

وكان منصور بن المعتمر.. إذا جن عليه الليل.. يلبس من أحسن ثيابه.. ثم يرقى إلى سطح بيته.. ويصلي.. فلما مات.. قال غلام جيرانهم لأمه: يا أماه.. الجذع الذي كان ينصب في الليل في سطح جيراننا.. ليس أراه.. فقالت: يا بني.. ليس ذاك جذعًا ذاك منصور كان يصلي.. وقد مات..

مسائل متفرقة حول المفطرات

هذه المفطرات (ما عدا الحيض والنفاس) لا يفطر بها الصائم إلا بشروط ثلاثة:

أن يكون عالمًا بأنها مفطرة غير جاهل بها، ذاكرًا أنه صائم غير ناس، مختارًا غير مكره.

وغسيل الكلى الذي يتطلب خروج الدم لتنقيته ثم رجوعه مرة أخرى، مع إضافة مواد كيماوية وغذائية كالسكريات والأملاح وغيرها إلى الدم يعتبر مفطرًا. (اللجنة الدائمة للإفتاء).

الراجح أن الحقنة الشرجية، وقطرة العين والأذن، وقلع السن، ومداواة الجراح، كل

ذلك لا يفطر، لأنه لا يغني عن الأكل والشرب.

بخاخ الربو لا يفطر لأنه غاز مضغوط يذهب إلى الرئة، وليس بطعام، وهو مضطر إليه في رمضان.

وسحب الدم القليل للتحليل لا يفسد الصوم، بل يعفى عنه؛ لأنه مما تدعو إليه الحاجة (فتوى ابن باز).

دواء الغرغرة الذي يعالج الحنجرة والبلعوم، لا يبطل الصوم إن لم يبتلعه.

حفر السن، أو قلع الضرس، أو تنظيف الأسنان، أو السواك وفرشاة الأسنان، إذا اجتنب ابتلاع ما نفذ إلى الحلق، لا يفطر، وكذلك من حشا سنه بحشوة طبية، فوجد طعمها في حلقه، فلا يضر ذلك صيامه (فتوى ابن باز).

غسول الأذن، أو قطرة الأنف، أو بخاخ الأنف، إذا اجتنب ابتلاع ما نفذ إلى الحلق، فلا يفطر.

الأقراص العلاجية التي توضع تحت اللسان لعلاج الذبحة الصدرية وغيرها إذا اجتنب ابتلاع ما نفذ إلى الحلق، لا تفطر.

إدخال المنظار أو اللولب ونحوهما إلى الرحم، وما يدخل المهبل من تحاميل أو غسول، أو منظار مهبلي، أو إصبع للفحص الطبي، لا يفسد الصوم.

وكذلك ما يدخل الإحليل، أي: مجرى البول الظاهر للذكر أو الأنثى، من قصطرة (أنبوب دقيق) أو منظار، أو مادة ظليلة على الأشعة، أو دواء، أو محلول لغسل المثانة، لا يفطر.

المضمضة، والغرغرة، وبخاخ العلاج الموضعي للفم إذا اجتنب ابتلاع ما نفذ إلى الحلق، لم يفطر.

غاز الأكسجين، لا يفطر.

ما يدخل الجسم امتصاصًا من خلال الجلد كالدهونات والمراهم، واللصقات العلاجية الجلدية المحملة بالمواد الدوائية أو الكيميائية، مثل لصقات الإقلاع عن التدخين، ونحوها، لا تفطر.

إدخال قصطرة (أنبوب دقيق) في الشرايين لتصوير أو علاج أوعية القلب أو غيره من الأعضاء، وكذلك دخول أي أداة أو مواد علاجية إلى الدماغ أو النخاع الشوكي، لا يفطر.

إدخال منظار من خلال جدار البطن لفحص الأحشاء، لا يفطر، أما منظار المعدة فإذا صاحبه إدخال سوائل (محاليل) أو مواد أخرى فطر، وإلا فلا.

من احتاج إلى الإفطار لإنقاذ أحد معصوم من مهلكة، فإنه يفطر ويقضي، كما قد يحدث في إنقاذ الغرقى وإطفاء الحرائق.

من قاتل عدوًا، أو أحاط العدو ببلده، والصوم يضعفه عن القتال ساغ له الفطر ولو بدون سفر، وكذلك لو احتاج للفطر قبل القتال فيفطر؛ لقوله ﷺ لأصحابه قبل القتال: «إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا» رواه مسلم.

من أفطر يومًا في رمضان لعذر كالمسافر والمريض، فهل يجوز له أن يأكل ويشرب أمام الناس؟

الجواب: إن كان سبب فطره ظاهرًا كالشيخ الكبير، والمريض الواضح مرضه، فلا بأس أن يفطر أمام الناس، ومن كان سبب فطره خفيًا كالمسافر فالأولى أن يفطر خفية حتى لا يتهمه الناس ويسيئوا به الظن.

من أحكام الصيام للمرأة

لا تصوم الزوجة نافلة، وزوجها حاضر إلا بإذنه، فإذا سافر فلا حرج.

الحائض أو النفساء إذا طهرت ليلاً فنوت الصيام، ثم طلع الفجر قبل اغتسالها، فصومها صحيح.

ينبغي للمرأة أن تجتنب استعمال موانع الحيض من أدوية وحبوب، والأفضل للحائض أن تبقى على طبيعتها وترضى بما كتب الله عليها وتقضي أيام حيضها، مع العلم بأنه قد ثبت طبيًا ضرر هذه الموانع وابتليت النساء باضطراب الدورة بسببها، فإن أصرت المرأة وتعاطت ما تقطع به الدم فانقطع فعلاً، وصامت، أجزأها ذلك.

دم الاستحاضة لا يؤثر في صحة الصيام.

إذا أسقطت الحامل جنينها، فإن كان متخلقًا، أو ظهر فيه تخطيط لعضو كرأس أو يد، فدمها دم نفاس، وإذا كان الساقط لا يزال علقة، أو مضغة لحم، لا يتبين فيه شيء من خلق الإنسان، فدمها دم استحاضة، وعليها الصيام إن استطاعت وإلا أفطرت وقضت.

وكذلك لو عملت عملية تنظيف، وانقطع الدم تمامًا فصامت، صح صومها.

النفساء إذا طهرت قبل الأربعين، صامت وصلت، فإن رجع إليها الدم في الأربعين أمسكت عن الصيام لأنه نفساء، وإن استمر بها الدم بعد الأربعين نوت الصيام واغتسلت (عند جمهور أهل العلم) وتعتبر ما استمر استحاضة، إلا إن وافق وقت حيضها المعتاد فهو حيض.

والمرضع إذا صامت بالنهار، ورأت في الليل على ملابسها نقطًا من الدم، فلم تدر خرجت أثناء صومها أم بعده، فالأصل السلامة، وصيامها صحيح (اللجنة الدائمة).

الحامل والمرضع إن شق عليهما الصوم، فحكمهما كالمريض، يجوز لهما الإفطار عند الحاجة، وليس عليهما إلا القضاء، سواء خافتا على أنفسهما أو ولديهما، لقوله ﷺ: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحامل والمرضع الصوم»[١].

الحامل إذا صامت، وأصابها نزيف، فصيامها صحيح، لأنه ليس حيضًا. (اللجنة الدائمة).

أحكام قضاء صيام رمضان

يستحب المبادرة بالقضاء، لإبراء الذمة، ولا يجب أن تكون أيام القضاء متتابعة، ويجوز له تأخير القضاء؛ لأن وقته واسع، ولا يجوز تأخيره إلى ما بعد رمضان الآخر لغير عذر.

وإن مات من عليه صوم استحب لوليه أن يصوم عنه؛ لأن امرأة قالت للنبي ﷺ: إن أمي ماتت وعليها صيام نذر، أفأصوم عنها، قال: «نعم»[٢]، وإن لم يصم عنه وليه أطعم عنه عن كل يوم مسكينًا.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) متفق عليه.

وقوموا لله قانتين

كانوا يستشعرون عظمة ربهم إذا وقفوا بين يديه.. كان أبو زرعة الرازي إمامًا في مسجد قومه عشرين سنة.. فجاءه يومًا.. قوم من طلاب الحديث.. فنظروا فإذا في محرابه كتابة.. فقالوا له: ما حكم الكتابة في المحاريب؟ فقال: قد كرهه قوم ممن مضى.. فأنا أنهى عنه وأكرهه.. فقالوا: هو ذا في محرابك كتابة.. أو ما علمت بها..! فقال: سبحان الله! رجل يقف بين يدي الله تعالى.. ويدري ما بين يديه..

كان شعبة بن الحجاج يطيل الصلاة.. وما رأيته ركع في الصلاة قط إلا ظننت أنه نسي.. ولا قعد بين السجدتين إلا ظننت أنه نسي..

وعبيدة بن مهاجر.. كان عابدًا شاكرًا.. متخشعًا ذكرًا.. وكان له أم مجوسية.. فكان يبرها أشد البر.. ويدعوها إلى الإسلام فتأبى عليه.. فرجع من صلاة العصر يوم الجمعة.. فبشرته أنها أسلمت.. ونطقت الشهادتين.. فخر ساجدًا لله.. يبكي ويناجي.. فما رفع رأسه حتى غابت الشمس..

وكانت حفصة بنت سيرين تسرج سراجها من الليل ثم تقوم في مصلاها.. وكانت تقرب كفنها.. لتذكر الموت في صلاتها.. فتخشع..

أحكام الحج

حج بيت الله الحرام ركن من أركان الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران:٩٧] ، وقوله ﷺ : «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

وقال ﷺ : «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحج المبرور ثواب إلا الجنة»[1] .

---

(١) رواه الترمذي.

فإذا عزم على الحج، فليرد المظالم لأهلها، ويرد الودائع ويسدد الديون لأصحابها، ويكتب وصيته، ويوكل من يقضي ما لم يتمكن من قضائه من الحقوق التي عليه، ويؤمن لأولاده نفقة حلالاً.

ويجب الحج بشروط خمسة: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والحرية، والاستطاعة، فمن توفرت فيه هذه الشروط، وجب عليه المبادرة بأداء الحج.

والاستطاعة هي أن يكون المسلم صحيح البدن، يملك من المواصلات ما يصل به إلى مكة حسب حاله، ويملك زادًا يكفيه ذهابًا وإيابًا زائدًا على نفقات من تلزمه نفقته.. ويشترط للمرأة خاصة أن يكون معها محرم.

فالحج واجب على كل مسلم مستطيع مرة واحدة في العمر.

مواقيت الحج

المواقيت: هي الحدود التي لا يجوز للحاج أن يتعداها إلى مكة بدون إحرام.

والمواقيت خمسة:

ذو الحليفة: وتبعد عن مكة ٤٢٨ كم.

الجحفة: قرية بينها وبين البحر الأحمر ١٠ كم، وهي اليوم مهجورة، ويحرم الناس اليوم من رابغ التي تبعد عن مكة ١٨٦ كم.

يلملم: وادٍ يبعد ١٢٠ كم من مكة جنوبًا، ويحرم الناس اليوم من قرية السعدية.

قرن المنازل: واسمه الآن السيل الكبير في الطائف يبعد حوالي ٧٥ كم عن مكة.

ذات عرق: ويسمى الضريبة يبعد ١٠٠ كم عن مكة، وهو اليوم مهجور لا يمر عليه طريق.

ومن كان منزله دون هذه المواقيت أي أقرب إلى مكة، فإنه يحرم من منزله للحج والعمرة، وسكان مكة يحرمون للحج من بيوتهم، ولا يجب خروجهم للميقات للإحرام منه بالحج، وأما العمرة فيخرجون للإحرام بها من أدنى الحل، أي: من التنعيم أو عرفة أو غيرها.

وكذا من ركب طائرة، فإنه يتهيأ بالتنظيف قبل ركوب الطائرة، فإذا حاذى الميقات جوًّا، نوى الإحرام، ولبى وهو في الجو، ولا يجوز له تأخير الإحرام إلى أن يهبط في مطار جدة، فيحرم منها لأنها ليست ميقاتًا.

ويجب على من جاز الميقات بدون إحرام أن يرجع إليه ويحرم منه؛ فإن لم يرجع، وأحرم من دونه من جدة أو غيرها، فعليه فدية، بأن يذبح شاة توزع على مساكين الحرم، ولا يأكل منه شيئًا.

كيفية الإحرام

أول مناسك الحج هو الإحرام، وهو نية الدخول في النسك، سمي بذلك لأن المسلم يحرم على نفسه بنية الحج أو العمرة ما كان مباحًا قبل الإحرام من النكاح والطيب وتقليم الأظافر وحلق الرأس وأشياء من اللباس.

وقبل الإحرام يستحب:

أولاً: الاغتسال بجميع بدنه، للتنظيف وقطع الرائحة الكريهة؛ لذا فهو مستحب حتى للحائض والنفساء؛ لأن النبي ﷺ «أمر أسماء بنت عميس وهي نفساء أن تغتسل»[1]، وأمر عائشة أن تغتسل للإحرام بالحج وهي حائض.

ثانيًا: أخذ الزائد من الشعر، كشعر الشارب والإبط والعانة.

ثالثًا: التطيب في البدن؛ لقول عائشة رضي الله عنها: «كنت أطيب رسول الله ﷺ لإحرامه قبل أن يحرم ولحله قبل أن يطوف بالبيت».

رابعًا: يجب أن ينزع لباسه المعتاد، ويلبس إزارًا ورداء أبيضين نظيفين، ويجوز بغير الأبيضين.

أما المرأة فتحرم فيما شاءت من اللباس الساتر الذي ليس فيه تبرج أو تشبه بالرجال، دون أن تتقيد بلون محدد. ولكن تجتنب في إحرامها لبس النقاب والقفازين (النقاب: هو أن تغطي وجهها وتظهر عينيها، والقفازان: قماش مفصل على اليدين تغطي به المرأة يديها)

---

(١) رواه مسلم.

لقوله ﷺ: «لا تنتقب المحرمة ولا تلبس القفازين»[(١)].

ولكنها تستر وجهها عن الرجال الأجانب بغير النقاب؛ لقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: «كنا نغطي وجوهنا من الرجال في الإحرام»[(٢)].

ثم ينوي بقلبه الدخول في العمرة، ويتلفظ بما نوى فيقول: «اللهم لبيك عمرة»، والأفضل أن يتلفظ بالنية بعد استوائه على مركوبه، كالسيارة ونحوها.

وإن كان يريد الإحرام بالحج فيلبي بحسب نسكه.. والأنساك ثلاثة:

التمتع: وهو أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج (شوال، ذو القعدة، عشر ذي الحجة) فإذا فرغ من العمرة، نزع ملابسه وتحلل، فإذا جاء وقت الحج أحرم بالحج.

الإفراد: أن يحرم بالحج فقط من الميقات، ويبقى على إحرامه حتى يؤدي أعمال الحج.

القران: أن يحرم بالعمرة والحج معًا، أو يحرم بالعمرة ثم يدخل عليها الحج قبل شروعه في طوافها، فينوي العمرة والحج من الميقات أو قبل الشروع في طواف العمرة، ويطوف لهما ويسعى.

وعلى المتمتع والقارن ذبح هدي إن لم يكن من حاضري المسجد الحرام.

وأفضل هذه الأنساك الثلاثة التمتع؛ لأدلة كثيرة، وهو الذي سنشرحه هنا تجنبًا للإطالة والتفصيل.

فإذا أحرم ردد التلبية؛ لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، ويكثر من التلبية، ويرفع بها صوته.

وليس للإحرام صلاة ركعتين تختصان به، ولكن لو أحرم بعد صلاة فريضة فهذا أفضل؛ لفعله ﷺ[(٣)].

من كان مسافرًا بالطائرة فإنه يحرم إذا حاذى الميقات جوًا.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الحاكم وصححه.

(٣) رواه مسلم.

إذا كان مريضًا، أو لديه عذر يخشى أن يعيقه عن إتمام عمرته أو حجه، فيقول بعد تلفظه بالنية: «إن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني» وفائدة هذا الاشتراط أنه لو عاقه شيء فإنه يحل من عمرته بلا فدية.

بعد الإحرام يسن أن يكثر من التلبية، وهي: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» يرفع بها الرجال أصواتهم، أما النساء فيخفضن أصواتهن.

اعلف الحمار!

سفيان الثوري.. فقد حدث عنه عبد الرزاق.. أحد طلابه.. قال: قدم علي سفيان الثوري.. بعد العشاء.. فوضعت له العشاء.. والزبيب والموز.. فأكل أكلاً جيدًا..

فلما فرغ.. قام.. وتوضأ.. ثم شد على وسطه إزاره.. واستقبل القبلة وقال..

يا عبد الرزاق! يقولون: اعلف الحمار ثم كده.. ثم صف قدميه يصلي حتى الصباح..

وقال ابن وهب: رأيت سفيان الثوري في الحرم بعد المغرب.. صلى ثم سجد سجدة فلم يرفع حتى نودي بالعشاء..

قام أبو مسلم الخولاني ليلة.. فتعبت قدماه فضربهما بالسوط.. وأخذ يقول: أيظن أصحاب رسول الله ﷺ أن يسبقونا عليه؟ والله لنزاحمنهم عليه.. حتى يعلموا أنهم خلفوا وراءهم رجالاً..

كيفية العمرة

يستمر في التلبية حتى يدخل الحرم، فإذا دخله قطع التلبية واضطبع بإحرامه (يخرج كتفه الأيمن ويغطي الأيسر)، ثم استلم الحجر الأسود بيمينه (أي: مسح عليه) وقبله قائلاً: «الله أكبر»، فإن لم يتمكن من تقبيله بسبب الزحام فإنه يستلمه بيده ويقبل يده.

فإن لم يستطع استلمه بشيء معه كالعصا وما شابهها وقبل ذلك الشيء.

فإن لم يتمكن من استلامه استقبله بجسده وأشار إليه بيمينه - دون أن يقبلها -

قائلاً: «الله أكبر».

ثم يطوف على الكعبة (٧) أشواط يبتدئ كل شوط بالحجر الأسود وينتهي به، ويقبله ويستلمه مع التكبير كلما مر عليه، فإن لم يتمكن أشار إليه بلا تقبيل مع التكبير- كما سبق ويفعل هذا أيضًا في نهاية الشوط السابع.

أما الركن اليماني فإنه كلما مر عليه استلمه بيمينه دون تكبير، فإن لم يتمكن من استلامه بسبب الزحام فإنه لا يشير إليه ولا يكبر، بل يواصل طوافه.

يستحب له أن يقول في المسافة التي بين الركن اليماني والحجر الأسود: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

ليس للطواف ذكر خاص به فلو قرأ المسلم القرآن أو ردد بعض الأدعية المأثورة أو ذكر الله فلا حرج.

يسن للرجل أن يرمل في الأشواط الثلاثة الأولى من طوافه، والرمل هو الإسراع في المشي مع تقارب الخطوات، وينبغي أن يكون على طهارة عند طوافه.

إذا شك في عدد الأشواط فإنه يبني على اليقين، أي: يرجح الأقل، فإذا شك هل طاف (٣) أشواط أم (٤) فإنه يجعلها (٣) احتياطًا ويكمل الباقي.

إذا فرغ من طوافه اتجه لمقام إبراهيم عليه السلام وتلا: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] ثم صلى خلفه ركعتين بعد أن يزيل الاضطباع ويغطي كتفيه بردائه، ويسن أن يقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإن لم يتمكن من الصلاة خلف المقام بسبب الزحام يصل في أي مكان بالحرم، ثم يستحب له أن يشرب من زمزم، ثم يستلم الحجر الأسود إن استطاع.

ثم يتوجه للمسعى، فيبدأ بالصفا، فيقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] ويقول: «نبدأ بما بدأ الله»، ثم يرقى على الصفا فيستقبل القبلة ويرفع يديه داعيًا يقول: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب

وحده» ثم يدعو بما شاء، ثم يعيد الذكر السابق، ثم يدعو ثانية، ثم يعيد الذكر السابق مرة ثالثة، ولا يدعو بعده، ثم يمشي إلى المروة، ويسرع بين العلمين الأخضرين في المسعى، فإذا وصل المروة فعل كما فعل على الصفا من استقبال القبلة والدعاء، وهكذا يفعل في بداية كل شوط، أما في نهاية الشوط السابع فلا يدع.

وليس للسعي ذكر خاص به، ولكن يذكر الله ويدعو بما شاء، وإن قرأ القرآن فلا حرج، ويستحب أن يكون متطهرًا أثناء سعيه، وإذا أقيمت الصلاة وهو يسعى فإنه يصلي مع الجماعة ثم يكمل سعيه.

ثم إذا فرغ من سعيه حلق شعر رأسه أو قصره، فإن كانت العمرة قريبة من وقت الحج فالتقصير أفضل، لكي يحلق شعره في الحج، أما إن كانت العمرة مفردة عن الحج فالحلق أفضل.

لابد أن يستوعب التقصير جميع أنحاء الرأس، فلا يكفي أن يقصر شعر رأسه من جهة واحدة.

المرأة تقصر شعر رأسها بقدر الأصبع من كل ضفيرة أو من كل جانب، لقوله ﷺ: «ليس على النساء حلق إنما على النساء التقصير»[1].

ثم بعد الحلق أو التقصير تنتهي أعمال العمرة.

بداية الحج

يوم التروية (٨) ذي الحجة..

إذا كان يوم التروية أحرم الحاج من مكانه الذي هو فيه، فاغتسل وتطيب، ثم ذهب إلى منى في الضحى، فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، يصلي كل صلاة في وقتها مع قصر الرباعية منها (أي: يصلي الظهر والعصر والعشاء ركعتين)، ثم يبيت في منى.

---

(١) رواه أبو داود.

يوم عرفة (٩) ذي الحجة..

فإذا طلعت شمس يوم عرفة توجه إلى عرفة، ويصلي الظهر والعصر قصرًا وجمعًا في وقت الظهر، ويستحب للحاج الوقوف خلف جبل عرفة مستقبلاً القبلة؛ لأنه موقف النبي ﷺ، ويجتهد في الذكر والدعاء والاستغفار راكبًا وماشيًا وواقفًا وجالسًا ومضطجعًا، ويختار الأدعية الواردة والجوامع، لقوله ﷺ: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»[1].

ويبقى بعرفة إلى غروب الشمس ولا يجوز أن ينصرف منها قبل الغروب، فإن انصرف قبل الغروب، وجب عليه الرجوع، ليبقى فيها إلى الغروب، فإن لم يرجع، وجب عليه ذبح فدية، لتركه الواجب.

ووقت وقوف عرفة يبدأ بظهر يوم عرفة، ويستمر إلى طلوع الفجر ليلة العاشر، فمن وقف نهارا، وجب عليه البقاء إلى الغروب، ومن وقف ليلا ولو لحظة صح حجه، لقوله ﷺ: «من أدرك عرفات بليل، فقد أدرك الحج»..

والوقوف بعرفة أعظم أركان الحج، لقوله ﷺ: «الحج عرفة».

الخروج من عرفة إلى مزدلفة والمبيت فيها

بعد غروب الشمس يدفع الحجاج من عرفة إلى مزدلفة، لأن النبي ﷺ لم يزل واقفًا بعرفة حتى غربت الشمس، وغادرها ﷺ، وقد شنق لناقته الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس! السكينة.. السكينة»، ويكثرون من التلبية والاستغفار في طريقهم.

فإذا وصل إلى مزدلفة، صلى بها المغرب والعشاء جمعًا مع قصر العشاء ركعتين بأذان واحد وإقامتين، لكل صلاة إقامة، وذلك فور وصولهم دون تأخير (وإذا لم يتمكنوا من وصول مزدلفة قبل منتصف الليل فإنهم يصلون المغرب والعشاء في طريقهم خشية خروج

(١) رواه الترمذي.

الوقت).

ثم يبيت بمزدلفة حتى يصلي الفجر في أول الوقت، ثم يدعو الله إلى أن يسفر، ثم يدفع إلى منى قبل طلوع الشمس.

فإن كان من الضعفة كالنساء والصبيان ونحوهم، فإنه يجوز له أن يتعجل في الدفع من مزدلفة إلى منى بعد منتصف الليل، وكذلك يجوز لأولياء الضعفة الانصراف معهم بعد منتصف الليل، أما الأقوياء الذين ليس معهم ضعفة، فينبغي لهم البقاء حتى يصلوا الفجر، فإذا صلوا الفجر أكثروا من الذكر والدعاء إلى أن يسفروا، ثم ينصرفوا إلى منى مكثرين من التلبية في طريقهم.

فالمبيت بمزدلفة واجب من واجبات الحج، لا يجوز تركه لمن وصلها قبل منتصف الليل، أما من وصلها بعد منتصف الليل، فإنه يجزئه البقاء فيها ولو قليلاً، والأفضل أن يبقى إلى أن يصلي فيها الفجر.

ويجوز لأهل الأعذار ترك المبيت بمزدلفة، كالمريض المحتاج لمستشفى.

اليوم العاشر (يوم النحر ـ العيد)

ينطلق من مزدلفة إلى منى قبيل طلوع الشمس، ويأخذ حصى الجمار من طريقه قبل وصول منى، هذا أفضل، أو يأخذه من مزدلفة، أو من منى، كله جائز وتكون الحصاة في حجم الظفر تقريبًا، أي: أكبر من الحمص قليلاً.

فيذهب لجمرة العقبة وتسمى الجمرة الكبرى، فيرميها بسبع حصيات، واحدة واحدة، بعد طلوع الشمس، ويمتد زمن الرمي إلى الغروب، وإن رمى في الليل جاز، وينتهي وقت الرمي بفجر يوم الحادي عشر.

ولا بد أن تقع الحصى في حوض الجمرة، سواء استقرت فيه أو سقطت بعد ذلك، فيجب على الحاج أن يصوب الحصا إلى حوض الجمرة، لا إلى العمود الشاخص، فإن هذا العمود لم يبن لأجل أن يرمى، وإنما بني ليكون علامة على الجمرة، فلو ضربت الحصاة العمود، وطارت، ولم تمر على الحوض، لم تجزئه، وإن ضربت العمود وسقطت في

الحوض فورًا لكنها تدحرجت منه وخرجت، فرميه صحيح.

والضعفة يرمون بعد منتصف ليلة مزدلفة، وإن رمى غير الضعفة بعد منتصف الليل أيضًا، جاز لكنه خلاف الأفضل.

ويسن أن لا يبدأ بشيء حين وصوله إلى منى قبل رمي جمرة العقبة؛ لأنه تحية منى، ويستحب أن يكبر مع كل حصاة، ويقول: «اللهم اجعله حجًا مبرورًا وذنبًا مغفورًا» ولا يرمي في يوم النحر غير جمرة العقبة.

وبعد الرمي ينحر الحاج هديه إن كان متمتعًا أو قارنًا، فيأكل منه ويتصدق ويهدي، ويمتد وقت الذبح إلى غروب الشمس يوم (١٣ ذي الحجة) مع جواز الذبح ليلاً، ولكن الأفضل المبادرة بذبحه بعد رمي جمرة العقبة يوم العيد؛ لفعله ﷺ، وإذا لم يجد الحاج ثمن الهدي صام (٣) أيام في الحج ويستحب أن تكون يوم (١١ و١٢ و١٣)، و(٧) أيام إذا رجع إلى بلده).

ثم يحلق رأسه أو يقصره، والحلق أفضل، لقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧] ودعا ﷺ للمحلقين ثلاثًا، وللمقصرين مرة واحدة، وعند التقصير يجب أن يعم جميع شعر رأسه، ولا يجزئ قص بعضه أو جانب منه فقط، لقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ فأضاف الحلق والتقصير إلى جميع الرأس.

والأصلع الذي ليس له شعر، يمر الموسى على رأسه، لقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم».

والمرأة تقص من كل ضفيرة قدر أنملة (عقلة أصبع)، فإن كان شعرها غير مضفور، جمعته، وقصت من أطرافه.

وبعد الرمي والحلق أو التقصير يحل للمحرم الطيب واللباس وغيره، إلا النساء وهذا هو التحلل الأول ـ يحل له كل شيء إلا النساء..

ثم يتطيب ويذهب إلى الحرم ليطوف طواف الإفاضة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩] ولقول عائشة رضي الله عنها: «كنت أطيب رسول الله ﷺ لحله قبل أن يطوف بالبيت»، ثم يسعى بعد هذا الطواف سعي الحج.

وبعد هذا الطواف يحل للحاج كل شيء حرم عليه بسبب الإحرام حتى النساء، ويسمى هذا التحلل: التحلل الثاني أو التام.

والأفضل أن يرتب فعل هذه الثلاثة هكذا: الرمي، ثم الحلق أو التقصير، ثم طواف الإفاضة، لكن لو قدم بعضها على بعض فلا حرج، ويحصل التحلل الأول بفعل اثنين من هذه الثلاثة، والتحلل الثاني يحصل بفعل هذه الثلاثة كلها، فإذا فعلها، حل له كل شيء.

وصفة الطواف والسعي كما تقدم في صفة العمرة.

أيام التشريق (١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ذي الحجة)..

وبعد طواف الإفاضة يوم العيد يرجع إلى منى، فيبيت بها وجوبًا؛ «لأنه ﷺ لم يرخص لأحد أن يبيت بمكة، إلا للعباس لأجل سقايته»[١]. فيبيت بمنى ثلاث ليال (١٠ مساء ليلة الحادي عشر، و١١ مساء ليلة الثاني عشر، و١٢ مساء ليلة الثالث عشر) إن لم يتعجل، وإن تعجل، بات ليلتين: (١٠ مساء ليلة الحادي عشر، و١١ مساء ليلة الثاني عشر) ويصلي الصلوات في منى قصرًا بلا جمع، بل كل صلاة في وقتها.

ويرمي الجمرات الثلاث كل يوم من أيام التشريق بعد الزوال (بعد أذان الظهر)، لقول ابن عمر: «كنا نتحين، فإذا زالت الشمس، رمينا»[٢]، فقوله: «نتحين»، أي: نراقب الشمس فيها فإذا دخل وقت صلاة الظهر رمينا، ولقوله ﷺ: «لتأخذوا عني مناسككم»، فالرمي في اليوم الحادي عشر وما بعده يبدأ وقته بعد الزوال، والرمي قبل الزوال لا يصح، ولا يجزئ، فكما لا تجوز الصلاة قبل وقتها، فإن الرمي لا يجوز قبل وقته (ورخص بعض أفاضل أهل العلم من المعاصرين وبعض المتقدمين في الرمي قبل الزوال في أيام التشريق؛ لأن النبي ﷺ رمى بعد الزوال لكنه لم ينه عن الرمي قبل الزوال، وما سئل عن شيء قدم وأخر في الحج إلا قال: افعل ولا حرج، لأن الترخيص بالرمي قبل الزوال أرفق بالناس، خاصة مع الزحام الشديد هذا الزمان، ولأن حديث ابن عمر المتقدم حكاية فعل، ولكن الأولى الالتزام بقوله ﷺ: «لتأخذوا عني مناسككم»، وهو ﷺ ما رمى إلا بعد الزوال، والله أعلم).

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه البخاري.

وعند الرمي يبتدئ بالصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى، بسبع حصيات لكل جمرة، مع التكبير عند رمي كل حصاة.

ويسن له بعد أن يرمي الصغرى أن يتقدم قليلاً ويستقبل القبلة ويدعو طويلاً رافعًا يديه، وبعد رمى الوسطى يتقدم ويجعلها عن يمينه ويستقبل القبلة ويدعو طويلاً رافعًا يديه، أما الجمرة الكبرى (جمرة العقبة) فإنه يرميها ولا يقف يدعو؛ لفعله ﷺ ذلك[١].

ويجوز للمريض وكبير السن والمرأة الحامل والضعيفة، أن يوكلوا من يرمي عنهم، ويرمي النائب الجمار عند كل جمرة عن نفسه، سبع حصيات، ثم عن مستنيبه سبع حصيات.

ثم بعد رمى الجمرات في اليوم (١٢)، إن شاء الحاج تعجل وخرج من منى قبل المغرب، وإن شاء تأخر وبات ورمى الجمرات يوم ١٣ بعد الزوال، وهو أفضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة:٢٠٣] وإن غربت عليه الشمس قبل أن يرتحل من منى يوم (١٢)، لزمه التأخر والمبيت والرمي في اليوم (١٣).

وبعد فراغ الحاج من حجه وعزمه الرجوع أو السفر إلى غيره، فإنه يطوف طواف الوداع، قبل سفره من مكة؛ لقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»[٢]، فالحائض ليس عليها طواف وداع.

هل طلع الفجر؟!

كان للحسن بن صالح جارية فاشتراها منه بعضهم.

فلما انتصف الليل عند سيدها الجديد قامت تصيح في الدار: يا قوم.. الصلاة.. الصلاة.. فقاموا فزعين.. وسألوها: هل طلع الفجر؟

فقالت: وأنتم لا تصلون إلا المكتوبة؟!

ثم قامت تصلي.. فلما أصبحت رجعت إلى سيدها الأول..

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

وقالت له: لقد بعتني إلى قوم سوء لا يصلون إلا الفريضة ولا يصومون إلا الفريضة فردني فردها..

فليت شعري.. ماذا تقول تلك الجارية لو رأت فريقًا من مسلمي زماننا.. الذين تمر عليهم الأيام تترى.. وهم على فرشهم يتقلبون.. فلا الليل يقومون.. ولا صلاة الفجر يشهدون..

فكانوا كما قال الله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

مسائل متفرقة..

حج الصبي:

ويصح فعل الحج والعمرة من الصبي نفلاً؛ لأن امرأة رفعت إلى النبي ﷺ صبيًا، فقالت: ألهذا حج؟

قال: «نعم، ولك أجر»[(١)].

وقد أجمع أهل العلم على أن الصبي إذا حج قبل أن يبلغ، فعليه الحج إذا بلغ واستطاع، ولا تجزئه تلك الحجة عن حجة الإسلام، وكذا عمرته.

كيفية إحرامه: إن كان الصبي دون التمييز ولا يفهم معنى الإحرام، عقد عنه الإحرام وليه، بأن ينويه عنه، ويجنبه المحظورات، ويطوف ويسعى به محمولاً، ويستصحبه في عرفة ومزدلفة ومنى، ويرمي عنه الجمرات.

وإن كان الصبي مميزًا، نوى الإحرام بنفسه بإذن وليه، ويؤدي ما قدر عليه من مناسك الحج، وما عجز عنه، يفعله عنه وليه مما يصح فيه التوكيل، كرمي الجمرات، ويطاف ويسعى به راكبًا أو محمولاً إن عجز عن المشي. وكل ما أمكن الصغير ـ مميزًا كان أو دونه ـ فعله بنفسه كالوقوف والمبيت، لزمه فعله، بمعنى أنه لا يصح أن يفعل عنه؛ لعدم الحاجة لذلك، ويجتنب في حجه ما يجتنب الكبير من المحظورات.

---

(١) رواه مسلم.

من أحكام المرأة

لا يجوز للمرأة لحج ولا لغيره السفر بدون محرم؛ لقوله ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم»[١].

وقال رجل للنبي ﷺ: إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا، قال: «انطلق فحج معها»[٢]،

وفي «الصحيح» وغيره: «لا يحل لامرأة تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها محرم»..

ومحرم المرأة هو: زوجها، أو من يحرم عليه نكاحها تحريمًا مؤبدًا بنسب، كأخيها وأبيها وعمها وابن أخيها وخالها، أو حرم عليه بسبب مباح، كأخ من رضاع أو بمصاهرة كزوج أمها وابن زوجها، ونفقة محرمها في السفر عليها، فيشترط لوجوب الحاج عليها أن تملك ما تنفق عليها وعلى محرمها ذهابًا وإيابًا.

المرأة إذا حاضت أو نفست قبل الإحرام ثم أحرمت، أو أحرمت وهي طاهرة ثم أصابها الحيض أو النفاس وهي محرمة، فإنها تبقى على إحرامها، وتعمل ما يعمله الحاج من الوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ورمي الجمار والمبيت بمنى؛ إلا أنها لا تطوف بالبيت ولا تسعى بين الصفا والمروة حتى تطهر من حيضها أو نفاسها، لكن لو قدر أنها طافت وهي طاهرة، ثم نزل عليها الحيض بعد الطواف، فإنها تسعى بين الصفا والمروة، ولا يمنعها الحيض من ذلك؛ لأن السعي لا يشترط له الطهارة، ويجوز للمرأة أن تتناول حبوب منع العادة لكي لا يأتيها الحيض أثناء الحج.

أحكام الإنابة

إن كان الشخص عاجزًا عن الحج بنفسه، وكان قادرًا بماله دون جسمه، بأن كان كبيرًا هرمًا أو مريضًا مرضًا مزمنًا لا يرجى برؤه، لزمه أن يقيم من يحج عنه ويعتمر حجة

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٢) متفق عليه.

وعمرة الإسلام من بلده أو من البلد الذي أيسر فيه؛ لأن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله، إن أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «حجي عنه»[1].

ويشترط في النائب عن غيره في الحج أن يكون قد حج عن نفسه حجة الإسلام؛ لأنه ﷺ سمع رجلاً يقول: لبيك عن شبرمة؟

قال: «حججت عن نفسك؟»، قال: لا.

قال: «حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة»[2].

ويعطي النائب من المال ما يكفيه تكاليف السفر ذهابًا وإيابًا، ولا تجوز الإجارة على الحج، ولا أن يتخذ ذريعة لكسب المال.

وينبغي أن يكون مقصود النائب نفع أخيه المسلم، وأن يحج بيت الله الحرام ويزور تلك المشاعر العظام، فيكون حجه لله لا لأجل الدنيا، فإن حج لقصد المال فحجه غير صحيح.

والنائب ينوي الإحرام عن منيبه، ويلبي عنه، ويكفيه أن ينوي بقلبه النسك عنه، ولو لم يتلفظ باسمه، ويستحب للمسلم أن يحج عن أبويه إن كانا ميتين أو حيين عاجزين عن الحج، ويقدم أمه؛ لأنها أحق بالبر.

ومن وجب عليه الحج ثم مات قبل الحج، أخرج من تركته نفقة من يحج عنه؛ لأن امرأة قالت: يا رسول الله، إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟

قال: «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته، اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء»[3].

محظورات الإحرام

محظورات الإحرام هي المحرمات التي يجب على المحرم تجنبها بسبب الإحرام، وهي تسعة:

---

(١) متفق عليه.

(٢) إسناده جيد، وصححه البيهقي.

(٣) رواه البخاري.

الأول: حلق الشعر من جميع بدنه بلا عذر بحلق أو نتف، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة:١٩٦]

الثاني: قص الأظافر: لكن إن انكسر ظفره فأزاله للضرورة، جاز.

الثالث: تغطية الرجل رأسه، بملامس كعمامة وطاقية، لكن لو استعمل مظلة، أو استظل بشجرة أو سقف سيارة، جاز.

الرابع: لبس الرجل المخيط على بدنه من قميص أو سراويل، وكذلك القفازين والجوارب؛ لقوله ﷺ عن المحرم: «لا يلبس القميص، ولا العمامة، ولا البرانس، ولا السراويل، ولا ثوبًا مسه ورس ولا زعفران، ولا الخفين»[١].

وأما المرأة، فتلبس ما شاءت، إلا أنها لا تلبس النقاب، ولا البرقع (وهو لباس تغطي به المرأة وجهها فيه ثقبان على العينين) بل تغطي وجهها بخمار أو جلباب، ولا تلبس القفازين؛ لقوله ﷺ: «لا تنتقب المرأة، ولا تلبس القفازين»[٢].

الخامس: الطيب، فيحرم استعماله في بدنه أو لباسه؛ لأنه ﷺ قال في المحرم: «ولا تمسوه بطيب»[٣]، وينبغي أن لا يتعمد شم الطيب أيضًا.

السادس: صيد حيوانات البر، لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦]

السابع: عقد النكاح لنفسه (الزواج) أو لغيره (تزويج غيره كابنته وأخته)؛ لقوله ﷺ: «لا ينكح المحرم ولا ينكح»[٤].

الثامن: الجماع، لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة:١٩٧] قال ابن عباس: (الرفث: الجماع).

فمن جامع قبل التحلل الأول: فسد حجه، ويلزمه إكماله وقضاؤه العام القادم، وعليه

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

ذبح بدنة، وإن كان الوطء بعد التحلل الأول، صح حجه، وعليه ذبح شاة.

التاسع: مباشرة المرأة بلمس بشهوة، أو تقبيل، ونحوه.

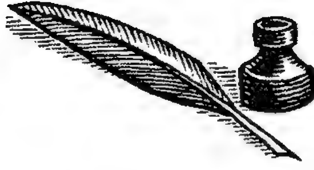
يجب على الحاج أن يبتعد عن هذه المحظورات؛ لئلا يقدح في حجه، ومن فعل شيئًا منها، فحكمه فيه تفصيل، من جهة لزوم الفدية أو عدم لزومها، ولا مجال لتفصيل ذلك هنا، ويمكن الرجوع إلى أهل العلم عند وقوع ذلك.

أسأل الله أن يتقبل منا عباداتنا، وأن يجعلها صحيحة على السنة.

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبهس أجمعين.

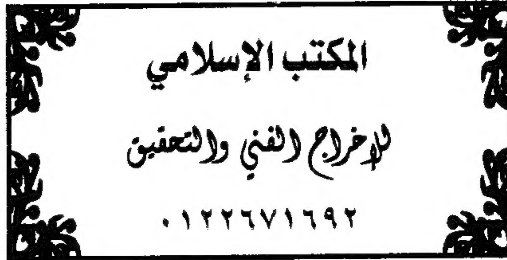


فهرس الموضوعات



فهرس موضوعات الكتاب

تم بحمد الله





هذا الكتاب هو رسالة إليه .. وإليها

ودعوة له.. ولها.. فكما أنه حريص على الخير.. فهي حريصة عليه أيضاً.. وقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات بالتسابق إلى الخيرات.. ووعدهم على ذلك بالجنات..

وهذا الكتاب.. محاولة لبيان الطريق إلى تلك الجنات ..نقدمه إليكم بهذا الشكل الجديد ..

وهو مجموعة من رسائل الدكتور محمد العريفي التي تناول فيها عرض وحلول لمشكلات تواجه الشباب والفتيات وكافة أفراد الأسرة المسلمة بطريقة تشوق النفوس ففيه عبر وهمسات.. للتائبين والتائبات.. عبرة بخبر شاب صارعته الأمراض.. وأخرى بقصة فتاة ولغت في الملذات.. وأخبار عن المتعلقين بالشهوات.. وكلمات حول قيام الليل والإكثار من الذكر.. وهمسات حول العشق وغض البصر.. ولمحة حول بر الوالدين.. وإشارة بأهمية الدعوة ونشر الدين .. هي كلمات تنتفع بها الفتيات.. في المجالس والمدارس والكليات..

وينتفع بها الشباب.. في المدارس والجامعات..

أسأل الله أن يجعلها رسالة من القلب إلى القلب.. وأن يصفيها من درن الرياء والسمعة.. وأن ينفع بها .. ويجعلها سبب هداية لمن قرأها..

آمين .. آمين ..



جمهورية مصر العربية
القاهرة: ٢٢درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
ت: ٠٠٢٠٢٥١٤٣١٤١ فاكس: ٠٠٢٠٢٥١١١٧٥٠



6222013800123